

مكتبة
الشيخ
الشيخ
GOVERNMENT OF DUBAI

فتح العجب

في الكشف عن قناع الرب
وهو حاشية الطيبي على الكشاف

للإمام شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي
المتوفى سنة ٧٤٣ هـ رحمة الله تعالى

التشريف والتأليف على الإخراج العلمي في كتاب
الدكتور محمد عبد الرحمن سلطان العلماء

دار النشر
الطبعة الأولى ١٩٩٥

فتح العجب

دار النشر
الطبعة الأولى ١٩٩٥

فتوح الغيب

فتوح الغيب

في الكشف عن قناع الرب

تأليف: الإمام شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي

الطبعة الأولى: ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

جميع الحقوق محفوظة لجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم ©

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية بالأردن: (٢٠١٠/٧/٢٥٣٣)

الرقم المعياري الدولي: ٩٧٨٩٩٥٧٢٣١٨٠٤

ما ورد في حواشي هذا الكتاب يعبر عن رأي محققه ولا يعبر بالضرورة عن رأي الجائزة

ص. ب. ٤٢٠٤٢ - دبي - الامارات العربية المتحدة

هاتف: +٩٧١٤٢٦١٠٦٦٦

فاكس: +٩٧١٤٢٦١٠٠٨٨

الموقع على الانترنت: www.quran.gov.ae

البريد الالكتروني: Rs@quran.gov.ae

جائزة دبي الوطنية للقرآن الكريم

وحدة البحوث والدراسات

أسهروا في نشر هذا الكتاب

ADIB



مصرف أبوظبي
الإسلامية

فتوح الغيب

في الكشف عن قناع الرق

وَهُوَ حَاشِيَةُ الطَّيْبِيِّ عَلَى الكَشَّافِ

لِلْإِمَامِ شَرْفِ الدِّينِ الحُسَيْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الطَّيْبِيِّ

الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧٤٣ هـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

الجزء الرابع عشر

تَفْسِيرُ الشُّورَى مِنَ الشُّورَى إِلَى نَهَايَةِ ق

حَقَّقَ هَذَا الْجُزْءَ

الدُّكْتُورُ حَمْرَةَ مُحَمَّدَ وَسِيمَ البَكْرِيَّ

المُشَرَّفُ العَامَّةَ عَلَى الإِخْرَاجِ العِلْمِيِّ لِلْكِتَابِ

الدُّكْتُورُ مُحَمَّدَ عَبْدِ الرَّحِيمِ سُلْطَانَ العُلَمَاءِ

مَجْلَدٌ فِي الدَّوَلَةِ الْقَزَائِلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة ﴿حَمْدٌ * عَسَقٌ﴾
مَكِّيَّة، وهي ثلاثٌ وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿حَمْدٌ * عَسَقٌ﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَفْوَ الرَّحِيمِ ﴿١-٥﴾]

قرأ ابنُ عباسٍ وابنُ مسعودٍ رضي اللهُ عنهما: «حَمْدٌ سَقٌ»

سورة ﴿حَمْدٌ * عَسَقٌ﴾
مَكِّيَّة، وهي ثلاثٌ وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (قرأ ابنُ عباسٍ وابنُ مسعودٍ: «حَمْدٌ سَقٌ»): قال الزَّجَّاجُ: «المصاحفُ فيها العينُ ثابتة»^(١)، وقال ابنُ جَنِّي: «روى محبوب، عن إسماعيل، عن الأعمش، عن ابنِ مسعودٍ: «حَمْدٌ سَقٌ»، وهذا مما يُؤكِّدُ أن يكونَ الغَرَضُ مِنْ هذه الفواصِحِ كَوْنَهَا فواصِلَ بَيْنَ السُّورِ، ولو

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٩٣).

﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ أي: مثل ذلك الوحي، أو مثل ذلك الكتاب يُوحى إليك وإلى الرُّسُل، ﴿مِن قِبَلِكُ اللَّهُ﴾ يعني: أن ما تَضَمَّنَتْهُ هذه السُّورَةُ مِنَ المعاني قد أوحى اللهُ إِلَيْكَ مِثْلَهُ في غيرها مِنَ السُّورِ، وأوحاه مِنَ قِبَلِكُ إِلَى رُسُلِهِ، على معنى: أن الله تعالى كَرَّرَ هذه المعاني في القرآن وفي جميع الكُتُبِ السَّامِيَةِ، لِمَا فِيهَا مِنَ التَّنْبِيهِ البليغِ واللُّطْفِ العَظِيمِ لِعِبَادِهِ مِنَ الأوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، ولم يقل: «أُوْحِيَ إِلَيْكَ»، ولكن على لَفْظِ الْمُضَارِعِ؛ لِيَدُلَّ على أَنَّ إِيحَاءَ مِثْلِهِ عَادَتُهُ.

وَقُرِّي: «يُوحَىٰ إِلَيْكَ» على البناء للمفعول.....

كانت أسماء الله تعالى لَمَّا جاز تغييرُ شيءٍ منها، وأما نَحْوُ: جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ، فإنها أسماءٌ أعجميةٌ، فَبُعِدَتْ عن كلامهم، فَاجْتَرَأَتْ عَلَيْهَا، وَتَلَعَّبَتْ بِهَا، وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضاً يَقْرُؤُهَا كَذَلِكَ»^(١).

قوله: (أي: مثل ذلك الوحي، أو مثل ذلك الكتاب): والأول على أن يكون مفعولاً مطلقاً، أي: يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِثْلَ ذَلِكَ الْوَحْيِ، والثاني على أن يكون مفعولاً به، والمُشَارُ إِلَيْهِ: ﴿حَمْدٌ * عَسَقَ﴾، لأنه اسمٌ للسُّورَةِ، ولذلك قال: «إِنَّ مَا تَضَمَّنَتْهُ هذه السُّورَةُ مِنَ المعاني قد أوحى اللهُ إِلَيْكَ مِثْلَهُ في غيرها مِنَ السُّورِ».

قال أبو البقاء: «وفيه وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ ﴿كَذَلِكَ﴾ مُبْتَدَأٌ، وَ﴿يُوحَىٰ﴾ خَبْرٌ. والثاني: أن يكون ﴿كَذَلِكَ﴾ نَعْتاً لمصدرٍ محذوفٍ، أي: وَحِيّاً مِثْلَ ذَلِكَ»^(٢).

قوله: (على لفظ المضارع؛ ليدل على أن إيحاء مثله عادته): أشار إلى أن دلالة للاستمرار، فهو على منوالِ قوله: «فُلَانٌ يَقْرِي وَيَحْمِي الحريم»؛ في مقام المدح، أراد: أن ذلك دأبه وعادته، لا الإخبار.

قوله: (وقرئ: «يُوحَىٰ إِلَيْكَ» على البناء للمفعول): قرأها ابنُ كثيرٍ، والباقون: على البناء للفاعل^(٣).

(١) «المحتسب» لابن جني (٢: ٢٤٩).

(٢) «التبيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (٢: ١١٣٠).

(٣) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٤، و«حجة القراءات» ص ٦٣٩.

فإن قلت: فما رافعُ اسم الله على هذه القراءة؟ قلت: ما دلَّ عليه ﴿يُوحِي﴾، كأنَّ قائلًا قال: مَنْ المُوْحِي؟ فقيل: الله، كقراءة السُّلَمِي: «وكذلك زَيْنَ لِكثِيرٍ مِنَ المُشْرِكِينَ قَتَلَ أولَادِهِمْ شُرَكَاءُهُمْ»، على البناءِ للمفعولِ ورفَع «شُرَكَاءُهُمْ»، على معنى: زَيْنَهُ لهم شُرَكَاءُهُمْ. فإن قلت: فما رافعهُ فيمنَ قرأ «نُوحِي» بالنون؟ قلت: يرتفعُ بالابتداء.

و﴿العَزِيزُ﴾ وما بعده: أخبار، أو ﴿العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾: صفتان، والظرفُ خبر. قُرِي: ﴿تَكَادُ﴾ بالتاء والياء، و﴿يَنْفَطِرْنَ﴾، و﴿يَنْفَطِرْنَ﴾.....

قوله: (كأنَّ قائلًا قال: مَنْ المُوْحِي؟ فقيل: الله): فإن قلت: في أمثالِ هذا السؤال: إنما يُعيدونَ الفاعلَ معَ الفعلِ ليقعَ المرفوعُ فاعلاً لفعلٍ محذوف، كما فعلَ أبو البقاء وقال: ﴿وَاللهُ﴾ فاعلٌ لفعلٍ محذوف، كأنه قيل: مَنْ يُوْحِي؟ فقيل: الله^(١)، وقد روا في قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ﴾ [النور: ٣٦-٣٧]: مَنْ يُسَبِّحُ؟ فأجيب: رجال، أي: يُسَبِّحُ رجالٌ. وكذا في قوله: ﴿زَيْنٌ لِكثِيرٍ مِنَ المُشْرِكِينَ قَتَلَ أولَادِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]: مَنْ زَيْنَهُ؟ فأجيب: زَيْنَهُ لهم شُرَكَاءُهُمْ، فما له أوقعَ السؤال: مَنْ المُوْحِي؛ ليجاب: الله، على أنه خبرٌ مُبتدأٌ محذوف، أي: المُوْحِي اللهُ؟

وأجيب: أن هذا التقدير إنما نشأ من الفعلِ المضارعِ ودلالته على الاستمرارِ كما مرَّ، فأوجبَ ذلك أن يجيء في السؤالِ بما يُجابُّ عنه بالدوام، ويُمكن أن يُقال: إن تلك الأمثلةُ السؤالُ فيها عن فاعلي مجهول، بخلافه في هذا المقام، فإنه لَمَّا قيل: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ لم يخفَ على أحدٍ أن المُوْحِي مَنْ هو؟ فلا يكونُ السؤالُ عن تعيينِ المُوْحِي، بل ليجابَ بما يُنبئُ عن المدحِ والتعظيم، ومن ثمَّ قرَنَ اسمَ الذاتِ بذكرِ صفاتٍ تتضمَّنُ معنى الجلالِ والكبرياء، ثم عقبَ بالتنزيهِ البليغ. لله دَرُّ المُنْصَنَفِ ولطيفُ عبارته، ولو قال: «مَنْ يُوْحِي؟» لَفاتَ كُلُّ هذه الفوائد.

قوله: (قُرِي: ﴿تَكَادُ﴾ بالتاء والياء): بالياءِ التَّحْتَانِيَّة: نافعٌ والكسائي، والباقون: بالتاء. و﴿يَنْفَطِرْنَ﴾ بالنون: أبو بكرٍ وأبو عمرو، والباقون: بالتاءِ القَوَانِيَّة^(٢).

(١) «التيبان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (٢: ١١٣٠).

(٢) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٤، و«حجة القراءات» ص ٦٤٠.

وروى يونس عن أبي عمرو قراءة غريبة: «تَفَطَّرَن» بتاءين مع النون، ونظيرها حرف نادِرٌ رُوِيَ في «نوادِر» ابن الأعرابي: «الإبلُ تَسْمُنُ». ومعناه: يَكْدُن تَفَطَّرَن مِن عُلُوِّ شأنِ الله وعَظَمَتِهِ، يَدُلُّ عليه مجيئه بعد ﴿الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾. وقيل: مِن دُعَائِهِمْ له وَلَدًا، كقوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مریم: ٩٠].

فإن قلت: لِمَ قال: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾؟ قلت: لأنَّ أعظَمَ الآياتِ وأدْهَمَها على الجلالِ والعظمة: فوق السَّمَاواتِ، وهي: العَرْشُ والكُرْسِيُّ.....

قوله: (قراءة غريبة): لأنَّ جَمَعَ المُوَثِّثِ الغائبِ إنما يكونُ بالياءِ التَّحتانيَّةِ لا بالتاءِ، قال (١): «الوَجْهُ فِي مِثْلِ هَذَا تَأْكِيدُ التَّأْنِيثِ، كتَأْكِيدِ الخِطَابِ فِي قولِكَ: أَرَأَيْتَكَ؟ وقال: الشَّاذُّ على وجوه: شاذٌّ عن القياسِ، وشاذٌّ عن الاستِعمالِ معَ مُوافَقَةِ القياسِ، وشاذٌّ عنها جميعاً، وهذا مِن قبيلِهِ».

قوله: (يَدُلُّ عليه مجيئه بعد ﴿الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾): يعني: قوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَّرْنَ﴾ يحتملُ وَجْهَيْنِ: أحدهما: أنَّ معناه: أنَّ السَّمَاواتِ يَنْفَطَّرْنَ مِن عُلُوِّ شأنِ الله وعَظَمَتِهِ، يَدُلُّ عليه أنَّ الآيةَ بِجُمْلَتِها مُبَيَّنَةٌ لمعنى العَظَمَةِ والعُلُوِّ في قوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾، ولذلك تُرِكَ العاطِفُ (٢). وثانيهما: أنَّ المعنى: تَكَادُ السَّمَاواتُ يَنْفَطَّرْنَ مِن دُعَائِهِمْ له وَلَدًا وشَريكَاً، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مریم: ٨٨-٩١]، يُؤيِّدُهُ مجيءُ قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ بعده.

وأما إيرادُ قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: فلأنَّهم اسْتَوْجَبُوا بِمَقَالَتِهِمْ هذه أن يُصَبَّ عليهمُ العذابُ صَبًّا، ولكنَّ صَرَفَ ذلكَ عنهم؛ لأنه غفورٌ رحيمٌ يُمهِّلُ ولا يُعاجِلُ، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]، وعلى هذا: الآيةُ وارِدَةٌ للتزنية بعد إثباتِ المَالِكِيَّةِ التامَّةِ والعَظَمَةِ والكِبَرِيَاءِ.

(١) الظاهرُ أنَّ القائلَ الزمخشريَّ، والمؤلفُ ينقلُ عنه في مواضع من حاشية كتابه «الكشاف».

(٢) أي: في قوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَّرْنَ﴾، يعني: لم يقل: «وتَكَاد».

وَصُفُوفُ الْمَلَائِكَةِ الْمُرْتَجَّةِ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ حَوْلَ الْعَرْشِ، وَمَا لَا يَعْلَمُ كُنْهَهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ آثَارِ مَلَكُوتِهِ الْعُظْمَى، فَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿تَنْفَطِرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾، أَي: يَبْدِئُ الْإِنْفِطَارَ مِنْ جِهَتِهِنَّ الْفَوْقَانِيَّةِ، أَوْ لِأَنَّ كَلِمَةَ الْكُفْرِ جَاءَتْ مِنَ الَّذِينَ تَحْتَ السَّمَاوَاتِ، فَكَانَ الْقِيَاسُ أَنْ يُقَالَ: يَنْفَطِرْنَ مِنْ تَحْتِهِنَّ مِنَ الْجِهَةِ الَّتِي جَاءَتْ مِنْهَا الْكَلِمَةُ، وَلَكِنَّهُ بُولِغَ فِي ذَلِكَ، فَجُعِلَتْ مُؤَثَّرَةً فِي جِهَةِ الْفَوْقِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: يَكْدُنَ يَنْفَطِرْنَ مِنَ الْجِهَةِ الَّتِي فَوْقِهِنَّ، دَعِ الْجِهَةَ الَّتِي تَحْتِهِنَّ.

وَنظِيرُهُ فِي الْمُبَالَغَةِ قَوْلُهُ عَزَّ وَعَلَا: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ * يَصْهَرُ بِهِ، مَا فِي بُطُونِهِمْ ﴿[الحج: ١٩-٢٠]، فَجُعِلَ الْحَمِيمُ مُؤَثَّرًا فِي أَجْزَائِهِمُ الْبَاطِنَةِ. وَقِيلَ: ﴿وَمِنْ فَوْقِهِنَّ﴾: مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِينَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ صَحَّ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَفِيهِمُ الْكُفَّارُ أَعْدَاءُ اللَّهِ؟ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ١٦١]، فَكَيْفَ يَكُونُونَ لِأَعْيُنِ مُسْتَغْفِرِينَ لَهُمْ؟ قُلْتَ: قَوْلُهُ: ﴿لَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ يَدُلُّ عَلَى جِنْسِ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَهَذِهِ الْجِنْسِيَّةُ قَائِمَةٌ فِي كُلِّهِمْ وَفِي بَعْضِهِمْ،

قَوْلُهُ: (وَصُفُوفُ الْمَلَائِكَةِ الْمُرْتَجَّةِ): قَالَ فِي «الْفَاتِقِ»: «رَجَّ الشَّيْءُ فَارْتَجَّ: حَرَّكَهُ فَتَحَرَّكَ»^(١)، الْجَوْهَرِيُّ: «ارْتَجَّ الْبَحْرُ وَغَيْرُهُ: اضْطَرَبَ»، وَ«بِالتَّسْبِيحِ» مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: «الْمُرْتَجَّةُ»، وَهِيَ صِفَةٌ لِلصُّفُوفِ:

قَوْلُهُ: (أَوْ لِأَنَّ كَلِمَةَ الْكُفْرِ جَاءَتْ): هَذَا الْجَوَابُ مَبْنِيٌّ عَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي مِنْ تَفْسِيرِ سَبَبِ الْإِنْفِطَارِ.

قَوْلُهُ: (وَنظِيرُهُ فِي الْمُبَالَغَةِ قَوْلُهُ عَزَّ وَعَلَا: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾): ذَكَرَ فِيهِ تَأْثِيرُ الصَّبِّ فِي الْأَجْزَاءِ الْبَاطِنَةِ، وَتُرِكَ بَيَانُ تَأْثِيرِهِ فِي مَوْضِعِ الصَّبِّ، وَهُوَ «رُؤُوسُهُمْ»؛ لِیُؤَدِّنَ بِهِ أَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي لَيْسَ مَوْقِعًا لِلصَّبِّ كَذَلِكَ، فَمَا بَالُ الْمَوْضِعِ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ الصَّبُّ؟

(١) «الْفَاتِقِ» لِلزَّمخَشَرِيِّ (٢: ٢٢)، مَادَّةُ (رَجَجَ).

فيجوزُ أن يُرادَ به هذا وهذا، وقد دَلَّ الدليلُ على أن الملائكة لا تَسْتَغْفِرُ إلا لأولياءِ الله، وهُمُ المؤمنون، فما أراد اللهُ إلا إياهم، ألا ترى إلى قوله في سورة المؤمن: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٧]، وحكايته عنهم: ﴿فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧]، كيف وَصَفُوا المُسْتَغْفِرَ لهم بما يُسْتَوْجَبُ به الاستِغفار، فما تركوا للذين لم يتوبوا من المُصَدِّقِينَ طَمَعًا في استِغفارِهم، فكيف للكفرة!؟

ويحتملُ أن يقصدوا بالاستِغفار: طَلَبَ الحِلْمِ والغُفرانِ في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]، وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]، والمراد: الحِلْمُ عنهم، وأن لا يُعاجِلَهم بالانتقام، فيكونُ عامًّا.

فإن قلت: قد فَسَّرتَ قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ بتفسيرين، فما وَجَهُ طَبَاقِ ما بعده لهما؟ قلت: أما على أحدهما: فكأنه قيل: تكادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ هَيْبَةً مِنْ جلاله، واحتشامًا من كبريائه، والملائكة الذين هُم ملءُ السَّبْعِ الطَّبَاقِ،

قوله: (الأ ترى إلى قوله في سورة المؤمن: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٧]؟) يريد: أن هذا المُطَلَّقُ مجمولٌ على ذلك المُقَيَّدِ، انظر كم رَبِّبَ معاصِفٍ!؟ حَصَّ هذا العام^(١) بقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وقد حَصَّ ذلك بقوله: ﴿فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾، فَرَجَعَ المعنى إلى قوله: وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ تَابَ عن المعاصي. والوجه: أن يُحْمَلَ هذا الاستِغفارُ على عُمومِ المجاز، كما سبق في سورة المؤمن.

قوله: (بتفسيرين): وهو أن السَّمَاوَاتِ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ عُلُوِّ شَأْنِ اللهِ، وقيل: مِنْ دُعَائِهِمْ له وَكَدًّا.

(١) يُريدُ بـ«هذا العام»: قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: حَصَّ الزمخشريُّ هذه الآية من سورة الشورى بآية سورة غافر.

وحَاقُونَ حَوْلَ الْعَرْشِ صُفُوفًا بَعْدَ صُفُوفٍ، يُدَاوِمُونَ خُضُوعًا لِعِظَمَتِهِ عَلَى عِبَادَتِهِ
وتسبيحِهِ وتحميده، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ؛ خَوْفًا عَلَيْهِمْ مِنْ سَطَوَاتِهِ.

وأما على الثاني: فكانه قيل: يَكْدَنَ يَنْفَطِرْنَ مِنْ إِقْدَامِ أَهْلِ الشَّرْكِ عَلَى تِلْكَ الْكَلِمَةِ
السَّنْعَاءِ، والملائكة يُوحِّدُونَ اللَّهَ وَيُنزَّهُونَهُ عَمَّا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي يُضَيِّفُهَا إِلَيْهِ
الجاهِلُونَ بِهِ، حَامِدِينَ لَهُ عَلَى مَا أَوْلَاهُمْ مِنَ الْأَطَافِ الَّتِي عَلِمَ أَنَّهُمْ عِنْدَهَا يَسْتَعْصِمُونَ
مُخْتَارِينَ غَيْرَ مُلَجِّثِينَ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمُؤْمِنِي أَهْلِ الْأَرْضِ الَّذِينَ تَبَرَّوْا مِنْ تِلْكَ الْكَلِمَةِ
وَمِنْ أَهْلِهَا، أَوْ يَطْلُبُونَ إِلَى رَبِّهِمْ أَنْ يَحْلَمَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا يُعَاجِلَهُمْ بِالْعِقَابِ مَعَ
وَجُودِ ذَلِكَ فِيهِمْ، لِمَا عَرَفُوا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ، وَحِرْصًا عَلَى نَجَاةِ الْخَلْقِ، وَطَمَعًا فِي
تَوْبَةِ الْكُفَّارِ وَالْفَسَاقِ مِنْهُمْ.

[وَالَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾]

﴿ وَالَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ جَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ وَأَنْدَادًا، ﴿ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾
رَقِيبٌ عَلَى أحوالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ لَا يَفُوتُهُ مِنْهَا شَيْءٌ، وَهُوَ مُحَاسِبُهُمْ عَلَيْهَا وَمُعَاقِبُهُمْ، لَا
رَقِيبَ عَلَيْهِمْ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ، ﴿ وَمَا أَنْتَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ بِمُوكَّلٍ بِهِمْ، وَلَا مُفَوَّضٍ إِلَيْكَ أَمْرَهُمْ،
وَلَا قَسْرُهُمْ عَلَى الْإِيْبَانِ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ فَحَسْبُ.

[وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ

فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾]

وَمِثْلَ ذَلِكَ ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾، وَذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى مَعْنَى الْآيَةِ قَبْلَهَا؛

قوله: (يَسْتَعْصِمُونَ مُخْتَارِينَ): قيل: الاستِصْصَامُ بِنَاءٌ مُبَالَغَةٌ يَدُلُّ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ الْبَلِيغِ
والتَّحْفُظِ الشَّدِيدِ، كَأَنَّهُمْ فِي عِصْمَةٍ، وَيَجْتَهِدُونَ فِي الْاسْتِزَادَةِ.

قوله: (وَذَلِكَ): إِشَارَةٌ إِلَى مَعْنَى الْآيَةِ قَبْلَهَا، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ
بِوَكِيلٍ ﴾، كَأَنَّهُ صَلَّوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - عَلَى مَا هُوَ دَابُّهُ وَعَادَتُهُ - يَحْرِصُ عَلَى إِيْبَانِ الْمُشْرِكِينَ،

من أن الله هو الرقيب عليهم، وما أنت برقيب عليهم، ولكن نذير لهم؛ لأن هذا المعنى كرره الله في كتابه في مواضع جمّة، فالكاف مفعولٌ به لـ ﴿أَوْحَيْنَا﴾، و﴿قُرْءَانَا عَرَبِيًّا﴾ حالٌ من المفعول به، أي: أوحيناهُ إليك، وهو قرآنٌ عربيٌّ بيّن لا لبس فيه عليك، لتفهّم ما يُقال لك، ولا تتجاوزَ حدَّ الإنذار. ويجوزُ أن يكون ذلك إشارةً إلى مصدرٍ ﴿أَوْحَيْنَا﴾، أي: ومثل ذلك الإيحاء البيّن المفهّم أوحينا إليك قرآنًا عربيًّا بلسانك.

﴿لِنُنذِرَ﴾ يُقال: أنذرتُه كذا، وأنذرتُه بكذا، وقد عُدّي الأول - أعني: ﴿لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ - إلى المفعول الأول، والثاني - وهو قوله: ﴿وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ - إلى المفعول الثاني، ﴿أُمَّ الْقُرَى﴾ أهل أمّ القرى، كقوله تعالى: ﴿وَسَلِّ الْقُرَيْةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من العرب، وقرئ: «لِنُنذِرَ» بالياء، والفعل للقرآن.

فجاء بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ إنكاراً عليه، وبنى عليه هذا النفي والإثبات للتشديد فيه، يعني: أمثال هؤلاء المصيرين ليس في وسعك وقدرتك أن تهديهم، والله وحده هو القادر على ذلك، والذي عليك هو الإنذار فقط.

أما قوله: (وهو قرآنٌ عربيٌّ لا لبس عليك فيه): فمعناه: أن القرآن مملوءٌ من هذا النوع من الإنكار، وبيّن فيه بياناً شافياً لا يخفى عليك معناه؛ لأنه بلسانك عربي، وأنت تسلك فيه مسلك التورية والإيهام، ولا تترك الحرص البتّة، وعلى مثل هذه التورية والمبالغة قد نصّ المصنّف في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، وقوله صلوات الله عليه: «سأزيد على السبعين»^(١).

قوله: (وقد عُدّي الأول - أعني: ﴿لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ - إلى المفعول الأول، والثاني - وهو قوله: ﴿وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ - إلى المفعول الثاني): فكان التقدير: لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى بما يجب أن تُنذَر به، ولِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى بيوم الجمع.

(١) تقدّم تخريجه والكلام عليه عند تفسير الآية ٨٠ من سورة التوبة (٧: ٣١٤).

﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ يومَ القيامة، لأنَّ الخلائق تُجَمَّعُ فيه، قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩]، وقيل: يُجَمَّعُ بينَ الأرواح والأجساد، وقيل: يُجَمَّعُ بينَ كُلِّ عامِلٍ وعَمَلِهِ، و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراضٌ لا محلَّ له.

قُرئ: ﴿فَرِيقٌ﴾ و﴿فَرِيقٌ﴾ بالرَّفْعِ والنَّصْبِ؛ فالرَّفْعُ على: منهم فريقٌ ومنهم فريقٌ، والضميرُ للمجموعين، لأنَّ المعنى: يومَ جَمْعِ الخلائق، والنَّصْبُ على الحالِ منهم، أي: مُتفرِّقين، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِّدُ يَنْفِرُونَ﴾ [الروم: ١٤].

فإن قلت: كيف يكونون مجموعين مُتفرِّقين في حالةٍ واحدة؟ قلت: هم مجموعون في ذلك اليوم معَ افتراقهم في دارِ البؤسِ والنعيم، كما يجتمعُ الناسُ يومَ الجمعةِ مُتفرِّقين في مسجدين، وإن أريدَ بالجمع: جمعُهم في الموقف، فالتفرُّقُ على معنى مُشارفتهم للتفرُّق.

[﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ لِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ٨]

﴿لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: مُؤمنين كُلَّهم على القسْرِ والإكراه، كقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣]،

رُوي عن المُصنِّفِ أنه قال: «﴿لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ عامٌّ في الإنذارِ بأحوالِ الدنيا والآخرة، ثم خُصَّ بقوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾^(١)، أي: يومَ القيامة، زيادةً في الإنذارِ وبياناً لِعِظَمِ أهوالِ يومِ القيامة؛ لأنَّ الأفرادَ بالذِّكْرِ يَدُلُّ على هذا». وقلت: ولهذا أعادَ ذِكرَ الإنذارِ، وهو قريبٌ من أسلوبِ قوله تعالى: ﴿وَمَلَأْكُمْ كَيْدًا... وَجَبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨].

قوله: ﴿فَرِيقٌ﴾ و﴿فَرِيقٌ﴾ بالرَّفْعِ والنَّصْبِ: أي: فريقٌ في الجنةِ وفريقٌ في السَّعيرِ، أو: فريقاً في الجنةِ وفريقاً في السَّعيرِ، فالرَّفْعُ مشهور، والنَّصْبُ شاذ.

(١) من قوله: «رُوي عن المُصنِّفِ» إلى هنا، سقط من (ح).

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كَثُفَهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، والدليل على أن المعنى هو الإلجاء إلى الإيمان: قوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُهُ﴾ - بإدخال همزة الإنكار على المكره دون فعله - دليل على أن الله وحده هو القادر على هذا الإكراه دون غيره.

قوله: (والدليل على أن المعنى هو الإلجاء إلى الإيمان: قوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾): وقلت: الدليل عليه لانه؛ لأنه تقرّر عند علماء المعاني أن مثل هذا التركيب يفيد حصول الفعل قطعاً، لكن الكلام في الفاعل: أنه هل هو رسول الله ﷺ أم الله عزّ وجلّ؟ فدلّت همزة الإنكار على نفي أن يكون الفاعل رسول الله ﷺ، فيختصّ بالله، فيكون الإكراه موجوداً.

أما قضيّة النظم: فإن الكلام في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ سبق لنهي رسول الله ﷺ عن شدّة الحرص على إيمان قوم اتخذوا من دون الله أولياء، ونزل لذلك منزلة مدّع أنه وليّهم ونصيرهم، وهو الوكيل على غرس الإيمان في قلوبهم، حتى ردّ بقوله: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾، وعُلّل ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُم أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ الآية، يعني: أن ذلك لأجل أن المشيئة ما تعلّقت بليانهم، ولم يريد الله أن يدخلهم في رحمته، فوضع «الظالمون» موضع ضمير المتخذين من دون الله أولياء؛ ليؤدّن بأن الشرك ظلّم عظيم، وذلك الذي منّع عن النصرة والتوكيل عليهم، وذلك الذي أبعدهم من رحمته الواسعة، وكان أصل الكلام: ولكن يدخل من يشاء في غضبه. فوضع موضعه ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ غضباً على أولئك المتخذين من دونه أولياء، وسخطاً على سوء صنيعهم، فاللام في ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ للعهد.

ويجوز أن يكون للجنس، فيدخلوا فيه دخولاً أولياً.

وما يدلّ على التقابل: قول المصنّف: «ألا ترى وضعهم في مقابلة «الظالمين»؟»، يعني: دَلَّ وَضَعُ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ في مقابلة «الظالمين» على أن ذلك المطلق مُقَيَّدٌ بما يُقَابَلُ هذا المعين، وما

والمعنى: ولو شاء ربك مَشِيئَةً قُدْرَةً لَقَسَرَهُمْ جَمِيعاً عَلَى الْإِيْمَانِ، ولكنه شاء مَشِيئَةً حِكْمَةً، فَكَلَّفَهُمْ وَبَنَى أَمْرَهُمْ عَلَى مَا يَخْتَارُونَ، لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ فِي رَحْمَتِهِ - وهم المرادُونَ بِ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾، أَلَا تَرَى إِلَى وَضْعِهِمْ فِي مُقَابَلَةِ «الظالمين»؟ -، وَيَتْرَكَ الظالمينَ بغير وليٍّ وَلَا نصيرٍ فِي عَذَابِهِ.

[أَمْرٌ آتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّفَهُهُمُ الْوَلِيَّ وَهُوَ يَحْيَى الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾]

معنى الهزمة في ﴿أَمْرٌ﴾ الإنكار، ﴿فَأَلَّفَهُهُمُ الْوَلِيَّ﴾ هو الذي يجب أن يُتَوَلَّى وحده، وَيُعْتَقَدُ أَنَّهُ الْمَوْلَى وَالسَّيِّدُ،

يَدُلُّ عَلَى الْحَمْلِ عَلَى أَوْلِيَاءِكَ الْمُتَّخِذِينَ: قَوْلُ الْقَاضِي: «وَلَعَلَّ تَغْيِيرَ الْمُقَابَلَةِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي الْوَعِيدِ؛ إِذِ الْكَلَامُ فِي الْإِنذَارِ»^(١)، وَمَا يَكْشِفُ أَنَّ الْكَلَامَ فِيهِمْ كَشْفًا تَامًا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْرٌ آتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّفَهُمُ الْوَلِيَّ﴾، أَلَا تَرَى كَيْفَ أَضْرَبَ عَنِ الْكَلَامِ السَّابِقِ، وَأَنْكَرَ اللَّاحِقَ، عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيرِ بِ«أَم» الْمُنْقَطِعَةِ الْمُتَضَمِّنَةِ لـ«بَل» وَالْهَمْزَةَ، وَأَعَادَ ذِكْرَ ﴿آتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، يَعْنِي: دَعَا الْإِهْتِمَامَ بِشَأْنِهِمْ وَطَمَعَ الْإِيْمَانَ مِنْهُمْ، أَلَيْسَ الَّذِينَ آتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ، وَهُوَ الْوَلِيُّ^(٢) الْحَقِيقِيُّ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَعَدَلُوا إِلَى الْجِهَادِ الَّذِي هُوَ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى شَيْءٍ؟!

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الْآيَةُ: فَمُعْتَرِضَةٌ لِتَوْكِيدِ مَضْمُونِ الْآيَتَيْنِ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ الْمُصَنِّفِ: «وَهُوَ قُرْآنٌ عَرَبِيٌّ بَيِّنٌ، لَا لُبْسَ فِيهِ عَلَيْكَ، لِتَفْهَمَ مَا يُقَالُ لَكَ، وَلَا تَتَجَاوَزَ حَدَّ الْإِنذَارِ»، فَظَهَرَ مِنْ تَقْدِيرِ النَّظْمِ أَنَّ الْأَصْلَ: يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ، وَيُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي غَضَبِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَاءَ إِيْمَانَ بَعْضٍ وَكُفْرَ بَعْضٍ، وَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

قَوْلُهُ: (وَيَتْرَكَ الظالمينَ): مَنْصُوبٌ؛ عَطْفٌ عَلَى «لِيُدْخِلَ»، وَيُرْوَى: «أَيُّ: وَيَتْرَكَ»؛ مَرْفُوعاً عَلَى أَنَّهُ تَفْسِيرٌ لِقَوْلِهِ: «وَوَضَعَهُمْ فِي مُقَابَلَةِ الظالمينَ».

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ١٢٣).

(٢) من قوله: «أَلَا تَرَى كَيْفَ أَضْرَبَ» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ح).

والفاء في قوله: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ جوابٌ شَرْطٍ مُقَدَّر، كأنه قيلَ بعدَ إنكارِ كُلِّ وِليٍّ سِوَاهُ: إنَّ أَرَادُوا وَلِيًّا بَحَقِّ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ بِالْحَقِّ، لَا وِليَّ سِوَاهُ، ﴿وَهُوَ يُحْيِي﴾ أي: ومن شأنِ هذا الوليِّ أَنَّهُ يَحْيِي ﴿الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو الحقيقُ بأنَّ يُتَّخَذَ وَلِيًّا دُونَ مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ.

[﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ

أُنِيبُ﴾ ١٠]

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ حِكَايَةٌ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِلْمُؤْمِنِينَ، أَي: مَا خَالَفَكُمُ فِيهِ الْكُفَّارُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ، فَاخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَهُمْ فِيهِ، مِنْ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ: فَحُكْمُ ذَلِكَ الْمُخْتَلَفِ فِيهِ مُفَوَّضٌ إِلَى اللَّهِ،

قوله: (والفاء في قوله: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ جوابٌ شَرْطٍ مُقَدَّر): قلت: قَضِيَّةُ الإِضْرَابِ عَنِ الْكَلَامِ السَّابِقِ - كَمَا مَرَّ - تَقْتَضِي التَّعْقِيبَ، فَيَدْخُلُ مَدْخُولًا فِي حَيْزِ الإِنْكَارِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: بَلِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ، عَقِيبَ الْعِلْمِ بِأَنَّ لَيْسَ الْوَلِيَّ إِلَّا اللَّهُ، بِدَلِيلِ تَعْرِيفِ الْخَبَرِ بِالْجِنْسِ الْحَقِيقِيِّ، وَتَوْسِيطِ ضَمِيرِ الْفَضْلِ الْمُؤْذِنِ بِالتَّخْصِيسِ، وَعَطْفِ ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ﴾ عَلَيْهِ، وَعَلِيهِ النَّظْمُ الْفَاتِقُ كَمَا مَرَّ.

قوله: (ومن شأنِ هذا الوليِّ الَّذِي ^(١) يُحْيِي): إِشَارَةٌ إِلَى مَعْنَى الاسْتِمْرَارِ فِي ﴿يُحْيِي﴾، عَلَى نَحْوِ: فَلَانُ يَقْرِي الضَّيْفَ وَسَحْمِي الْحَرِيمَ، أَي: مِنْ شَأْنِهِ الضَّيَافَةُ وَالْحَيَاةُ.

قوله: (فهو الحقيقُ بأنَّ يُتَّخَذَ وَلِيًّا دُونَ مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ): أُنِيَ بِالْفَاءِ لِيُؤْذَنَ بِالتَّرْتِيبِ، يَعْنِي: كَمَا رُتِّبَ عَلَى إِنْكَارِ الإِتِّخَاذِ قَوْلُهُ: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ بِالْفَاءِ، رُتِّبَ إِثْبَاتُ إِخْتِصَاصِ الْوِلَايَةِ بِاللَّهِ عَلَى الْوَصْفِ الْمُنَاسِبِ، وَهُوَ الْقُدْرَةُ الْكَامِلَةُ بِأَحْيَاءِ الْمَوْتِ، وَالشَّامِلَةُ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، تَعْرِيفًا بِأَنَّ أَوْلِيَاءَهُمْ لَيْسُوا مِنْ مَعْنَى الْوِلَايَةِ فِي شَيْءٍ.

(١) كَذَا فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ، وَفِي «الْكَشَافِ»: «أَنَّهُ».

وهو إثابة المحققين فيه من المؤمنين ومُعاقبة المبطلين، ﴿ذَلِكُمْ﴾ الحاكم بينكم هو ﴿اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في ردِّ كَيْدِ أعداءِ الدِّينِ، ﴿وَالْيَتِيهِ﴾ أَرْجِعُ فِي كِفَايَةِ شَرِّهِمْ.

وقيل: ﴿وَمَا أَخْلَقْتُمْ﴾ فيه وتنازعتم ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ مِنَ الخصومات، فتحاكموا فيه إلى رسولِ الله ﷺ، ولا تُؤثروا على حُكومتِهِ حُكومةَ غيره، كقوله: ﴿فَإِنْ نُنزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ قَدْ دُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. وقيل: وما اختلفتم فيه من تأويل آية، واشتبه عليكم، فارجعوا في بيانه إلى المحكم من كتابِ الله، والظاهر من سنة رسولِ الله ﷺ. وقيل: وما وقع بينكم الخلافُ فيه من العلوم التي لا تتصل بتكليفكم، ولا طريق لكم إلى علمه، فقولوا: الله أعلم، كعرفة الروح، قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].

فإن قلت: هل يجوز حملُه على اختلافِ المجتهدين في أحكامِ الشريعة؟ قلت: لا، لأنَّ الاجتهاد لا يجوز بحضرة الرسول ﷺ.

قوله: (لأنَّ الاجتهاد لا يجوز بحضرة الرسول ﷺ): قيل: فيه بحث؛ لأنَّ المختار جوازُه، كما اجتهد أبو بكرٍ رضي اللهُ عنه بحضوره ﷺ، وقال: «لاها الله إذن، لا يعمدُ إلى أسدٍ من أسدِ الله»^(١). وكما اجتهد سعدُ بنُ معاذٍ في بني قريظة، فحكَّم بقتلِ رجالهم، وسبِّي نساءهم وذرائعهم^(٢)، ومنه قولُ مُعَاذٍ: «أجتهدُ رأبي»^(٣).

قال الإمام: «كما منع اللهُ رسوله صلواتُ اللهُ عليه أن يحمل الكفار على الإيثار، كذلك منع المؤمنين أن يشرعوا معه في الخصوماتِ والمنازعات، واحتجَّ نفاةُ القياس به، فقالوا: إما أن

(١) أخرجه البخاري (٣١٤٢) و(٤٣٢١)، ومسلم (١٧٥١) في قصة طويلة.

وقوله: «لاها الله إذن» قَسَمَ، وانظر تفصيل القول فيه في «فتح الباري» للحافظ ابن حجر (٨: ٣٧-٣٩).

وقوله: «لا يعمدُ إلى أسدٍ»، أي: لا يعمدُ رسولُ اللهُ ﷺ إلى أحدِ المقاتلين، فيأخذ من نصيبه من الغنيمَةِ شيئاً.

(٢) سياي تخرجه عند المؤلف رحمه اللهُ تعالى بعد قليل، ص ١٨.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٥٩٢)، والترمذي (١٣٢٧) و(١٣٢٨).

يكون المراد منه: وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه مستفاد من نص الله عليه أو من القياس على ما نص عليه، والثاني باطل؛ لأنه يقتضي أن تكون كل الأحكام مبنية على القياس، فتعين الأول. ولقائل أن يقول: لِمَ لا يجوز أن يكون المراد: فحكمه معروف من بيان الله، سواء كان ذلك البيان بالنص أو بالقياس؟ وأجيب عنه: بأن المقصود من التحاكم إلى الله قطع الاختلاف؛ لقوله: ﴿وَمَا اَخْلَفْتُمْ﴾، والرجوع إلى القياس مما يقوي الاختلاف، فوجب الرجوع إلى النصوص^(١).

وقلت: أما حديث أبي بكر رضي الله عنه: فإن قوله: «لاها الله إذن، لا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله وعن رسوله فيعطيك سلبه»، مسبوق بقوله صلوات الله عليه: «من قتل قتيلاً فله سلبه»؛ على ما روى الشيخان ومالك^(٢) وأبو داود^(٣)، وأن أبا قتادة لما سمع هذا النص قام وطلب الشهود وأقر الخصم، ثم قال رضي الله عنه ما قال.

وأما حكم سعد بن معاذ: فإنه إنما قتل لما أمره صلوات الله عليه أن يحكم، ووافق حكمه حكم الله، أما أولاً: فما رواه البخاري ومسلم^(٤) عن عائشة رضي الله عنها: «فنزلوا - أي: بنو قريظة - على حكمه صلوات الله عليه، فرد^(٥) الحكم إلى سعد»، وأما ثانياً: فما روى الشيخان^(٦) أيضاً وأبو داود عن أبي سعيد: «فقال ﷺ - بعدما قال سعد: تقتل مقاتلتهم، وتُسبى ذراريهم - : قضيت بحكم الله»، وربما قال: «بحكم الملك».

وأما قول معاذ: «أجتهد رأيي»: فمعناه: إذا غبت عن حضرتك إلى اليمن.

(١) «مفاتيح الغيب» للرازي (٢٧: ٥٨١).

(٢) من قوله: «عن الله وعن رسوله» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

(٣) البخاري (٣١٤٢) و(٤٣٢١)، ومسلم (١٧٥١)، ومالك في «الموطأ» (٢: ٤٥٤)، وأبو داود (٢٧١٧).

(٤) البخاري (٤١٢٢)، ومسلم (١٧٦٩).

(٥) تحرف في (ح) إلى: «فجرّد».

(٦) البخاري (٣٠٤٣) و(٣٨٠٤) و(٤١٢١)، ومسلم (١٧٦٨).

والحق القول بالتفصيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾ [الحجرات: ٧]، ولما روى البخاري ومسلم^(١) عن أنس وابن عمر: أن عمر قال: «وافقت ربي في ثلاث؛ قلت: يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقلت: يا رسول الله، يدخل على نساءك البر والفاجر، فلو أمرتهن يحتجن، فنزلت آية الحجاب. واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة، فقلت: «عسى ربه إن طلقك أن يبدله أزواجاً خيراً منك»، فنزلت كذلك». وفي رواية ابن عمر: «وافقت ربي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر».

وروي عن البخاري ومسلم وابن ماجه والنسائي^(٢) عن ابن عمر: «لما توفي عبد الله ابن أبي، جاء ابنه عبد الله»، وساق الحديث إلى قوله: «سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أتصلي عليه وقد هناك ربك أن تصلي عليه؟» إلى قوله: «فصلى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٤] الآية».

وأما قضية تأليف النظم: فإنه تعالى لما نهى رسوله صلوات الله عليه عن الحرص على إيمان القوم، وأضرب عن ذلك الكلام، وقرّر أن الولاية مختصة بالله تعالى دون غيره، أمره بأن يقرّر لهم هذا المعنى، وتعبه بقوله: ﴿وَمَا أَخْلَقْتُمْ فِيهِ﴾، أي: في أمر من الأمور، سواء كان هذا الاختلاف أم غيره، فحكمه راجع إلى الله، وهو مجازيكم عليه، وعليه توكل وإنابتي. فجيء باسم الإشارة الدال على أن ما يرد عقبيه حقيق بمن قبله لا تصافيه بتلك الصفات الثابتة، وهي كونه هو الولي دون غيره، وكونه هو يحيي ويميت، وكونه على كل شيء قدير، وكونه

(١) البخاري (٤٠٢) عن أنس، ومسلم (٢٣٩٩) عن ابن عمر.

(٢) البخاري (١٢٦٩) و(٤٦٧٠) و(٤٦٧٢) و(٥٧٩٦)، ومسلم (٢٤٠٠)، وابن ماجه (١٥٢٣)، والنسائي (١٩٠٠). وأخرجه أيضاً الترمذي (٣٠٩٨).

[﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١١)]

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ﴾ قُرئ بالرفع والجر؛ فالرفع على أنه أحد أخبارِ ﴿ذَلِكُمْ﴾، أو خبرٌ مُبتدأٌ محذوف، والجرُّ على: فحُكِّمهُ إلى الله فاطرِ السماوات، و﴿ذَلِكُمْ﴾ إلى ﴿أَنِيبٌ﴾: اعتراضٌ بين الصِّفةِ والموصوف.

﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾ خَلَقَ لَكُمْ ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ مِنْ جِنْسِكُمْ مِنَ النَّاسِ ﴿أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أَي: وَخَلَقَ مِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا. ومعناه: وَخَلَقَ لِلْأَنْعَامِ أَيْضًا مِنْ أَنْفُسِهَا أَزْوَاجًا، ﴿يَذُرُّكُمْ﴾ يُكثِّرُكُمْ، يُقَالُ: ذَرَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ: بَثَّهُمْ وَكَثَّرَهُمْ،

أَنَّ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمَهُ إِلَيْهِ، ثُمَّ عَقَّبَ هَذَا الْحُكْمَ بِالصِّفَاتِ الْكَامِلَةِ؛ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إِلَى آخِرِ مَا يَتَّصِلُ بِهِ.

قوله: ﴿﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قُرئ بالرفع والجر: الرَّفْعُ هِيَ الْمَشْهُورَةُ، وَالْجَرُّ شَاذَةٌ.

قوله: ﴿﴿يَذُرُّكُمْ﴾ يُكثِّرُكُمْ، يُقَالُ: ذَرَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ: بَثَّهُمْ﴾: النَّهَايَةُ: «ذَرَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ يَذُرُّهُمْ ذَرَاءً: إِذَا خَلَقَهُمْ. وَكَانَ الذَّرَاءُ مُخْتَصَّصٌ بِخَلْقِ الذَّرِّيَّةِ». الرَّاعِبُ: «الذَّرِّيَّةُ: أَصْلُهَا الصَّغَارُ مِنَ الْأَوْلَادِ، وَإِنْ كَانَتْ تَقَعُ عَلَى الصَّغَارِ وَالْكِبَارِ مَعًا فِي الْمُتَعَارَفِ، وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْوَاحِدِ وَالْجَمَاعَةِ، وَأَصْلُهَا الْجَمْعُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ٣٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ٣]، وَفِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: قِيلَ: هُوَ مِنْ: ذَرَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ، فَتُرِكَ هَمْزُهُ، كَرَوِيَّةٍ وَبَرِّيَّةٍ^(١). وَقِيلَ: أَصْلُهُ: ذُرْوِيَّةٌ. وَقِيلَ: هُوَ فُعْلِيَّةٌ، مِنَ الذَّرِّ، نَحْوُ: قُمْرِيَّةٍ^(٢).

(١) وانظر: «الخصائص» لابن جني (٣: ٨٦).

(٢) «مفردات القرآن» ص ٣٢٧.

وَالذَّرُّ وَالذَّرُّوُ وَالذَّرْءُ: أخوات، ﴿فِيهِ﴾ في هذا التدبير، وهو أَنْ جَعَلَ لِلنَّاسِ وَالْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا، حَتَّىٰ كَانَ بَيْنَ ذُكُورِهِمْ وَإِنَاثِهِمُ التَّوَالُدُّ وَالتَّنَاسُلُ. وَالضَّمِيرُ فِي ﴿يَذَرُوكُمْ﴾ يَرْجِعُ إِلَى الْمُخَاطَبِينَ وَالْأَنْعَامِ، مُغْلَبًا فِيهِ الْمُخَاطَبُونَ الْعُقَلَاءُ عَلَى الْغَيْبِ مِمَّا لَا يَعْقِلُ، وَهِيَ مِنَ الْأَحْكَامِ ذَاتِ الْعِلْتَيْنِ.

فإن قلت: ما معنى ﴿يَذَرُوكُمْ﴾ في هذا التدبير، وهَلَّا قِيلَ: يَذَرُوكُمْ به؟ قلت: جَعَلَ هَذَا التَّدْبِيرَ كَالْمَنْعِ وَالْمَعْدِنِ لِلْبَثِّ وَالتَّكْثِيرِ، أَلَا تَرَكَ تَقُولُ: لِلْحَيَوَانِ فِي خَلْقِ الْأَزْوَاجِ تَكْثِيرًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

قوله: (مُغْلَبًا فِيهِ الْمُخَاطَبُونَ الْعُقَلَاءُ عَلَى الْغَيْبِ مِمَّا لَا يَعْقِلُ): أَوْقَعَ «الْعُقَلَاءُ» وَصَفًا لِلْمُخَاطَبِينَ، وَجَعَلَ «مِمَّا لَا يَعْقِلُ» بَيَانًا «لِلْغَيْبِ» حَالًا مِنْهُ، وَالْمَعْنَى: غَلَبَ الْخِطَابَ مَعَ الْعُقَلَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ عَلَى الْغَيْبِ مِمَّا لَا يَعْقِلُ فِي قَوْلِهِ: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾، وَقَالَ: ﴿يَذَرُوكُمْ﴾.

قوله: (مِنَ الْأَحْكَامِ ذَاتِ الْعِلْتَيْنِ): عَنْ بَعْضِهِمْ: الْعِلْتَانِ هُنَا: الْعَقْلُ وَالْخِطَابُ، الْإِنْتِصَافُ: «الصَّحِيحُ أَنَّهَا حُكْمَانِ مُتَبَايِنَانِ غَيْرُ مُتَدَاخِلَيْنِ، أَحَدُهُمَا: مَجِيئُهُ عَلَى نَعْتِ ضَمِيرِ الْعُقَلَاءِ أَعْمٌ مِنْ كَوْنِهِ مُخَاطَبًا أَوْ غَائِبًا. وَالثَّانِي: مَجِيئُهُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى نَعْتِ الْخِطَابِ، فَالْأَوَّلُ لِتَغْلِيْبِ الْعَقْلِ، وَالثَّانِي لِتَغْلِيْبِ الْخِطَابِ»^(١).

وقال صاحب «التقريب»: ﴿فِيهِ﴾ في هذا التدبير، وهو جَعَلَهُمْ أَزْوَاجًا لِلتَّوَالُدِّ، وَ«كُمْ» لِلْمُخَاطَبِينَ وَالْأَنْعَامِ، فَغَلَبَ الْعُقَلَاءُ الْمُخَاطَبِينَ لِلْعَقْلِ وَالْمُخَاطَبَةِ.

وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الضَّمِيرَ الْمُؤَنَّثَ فِي قَوْلِهِ: «وَهِيَ مِنَ الْأَحْكَامِ ذَاتِ الْعِلْتَيْنِ»^(٢) رَاجِعٌ إِلَى التَّنْذِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَذَرُوكُمْ﴾ أَوْ لِلصَّنْعَةِ، أَي: هَذِهِ الصَّنْعَةُ مِنْ بَابِ الْأَحْكَامِ ذَاتِ الْعِلْتَيْنِ، إِحْدَى الْعِلْتَيْنِ: جَعَلَ النَّاسِ أَزْوَاجًا، وَالثَّانِيَةَ: جَعَلَ الْأَنْعَامَ أَزْوَاجًا، وَهَذَا

(١) «الانتصاف» (٣: ٤٦٢) بحاشية «الكشاف».

(٢) من قوله: «عن بعضهم: العلتان هنا» إلى هنا، سقط من (ط).

صَرَخَ بقوله: «وَخَلَقَ لِلْأَنْعَامِ أَيْضاً مِنْ أَنْفُسِهَا أَزْوَاجاً»، والمعلول ﴿يَذَرُوكُمْ﴾؛ لأنه جملة مستأنفة واردة على بيان الموجب، فلما توجه العلتان عليها أوجب تغليب المخاطبين من العقلاء على الغيب مما لا يعقل؛ لِيَسْتَقِيمَ المعنى، المعنى^(١): دَبَّرَ ذَلِكَ التَّدْبِيرَ الْعَجِيبَ لِيَتَكَاثَرَ تَوَالِدُ الْحَيَوَانَ وَتَنَاسُلُهُ.

وفي جعل «حتى» - في قوله: «حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل» - غاية لقوله: «أَنْ جَعَلَ لِلنَّاسِ وَالْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً»، وكذا في سؤاليه: «هَلَّا قِيلَ: يَذَرُوكُمْ به؟» - أي: بسببه - : إشعاراً بأن الجعلين المعبرين بالتدبير هما السبب في الذرء، وقريب منه قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

فإن قلت: فما قولك في كلام صاحب «المفتاح»: ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾ خطاباً شاملاً للعقلاء والأنعام؛ مُغَلِّباً فِيهِ^(٢) المخاطبون على الغيب، والعقلاء على ما لا يعقل^(٣)، فإنه على خلاف ما عليه كلام المصنّف؟ قلت: يُمَكِّنُ حَمْلَهُ عَلَى تَغْلِيْبِ مُرَكَّبٍ، وَعَلَى تَغْلِيْبِيْنَ، وَالثَّانِي يَأْبَاهُ الْمَقَامَ؛ إِذِ الْقَوْلُ بِالتَّغْلِيْبِيْنَ يُؤَدِّي إِلَى أَنَّ الْأَصْلَ أَنْ يُقَالَ: يَذَرُوكُمْ وَيَذَرُوكُمْ هُمْ وَيَذَرُوهَا وَيَذَرُوكُنَّ، لَكِنَّ الْأَصْلَ: يَذَرُوكُمْ وَيَذَرُوهَا، لَا غَيْرَ؛ لِأَنَّ «كُمْ» فِي ﴿يَذَرُوكُمْ﴾: هُوَ «كُمْ» الَّذِي فِي ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ بَعَيْنُهُ، لَكِنْ غُلِّبَ هَاهُنَا عَلَى الْغَيْبِ فِي ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ﴾، فَإِذَنْ لَيْسَ فِي ﴿يَذَرُوكُمْ﴾ إِلَّا تَغْلِيْبٌ وَاحِدٌ، وَهَذَا قَالَ^(٤): «الضَّمِيرُ فِي ﴿يَذَرُوكُمْ﴾ يَرْجِعُ إِلَى الْمَخَاطَبِيْنَ وَإِلَى الْأَنْعَامِ»، وَوَصِفَ «الْمَخَاطَبُونَ» بِ«الْعُقَلَاءِ»، ثُمَّ عُلِّقَ بِهِ قَوْلُهُ: «عَلَى الْغَيْبِ مِمَّا لَا يَعْقِلُ».

(١) لفظة «المعنى» الثانية سقطت من (ف)، وإثباتها أحسن.

(٢) في الأصول الخطية: «تغليبا فيه»، والمثبت من «مفتاح العلوم»، وهو أوضح.

(٣) «مفتاح العلوم» للسكاكي ص ٢٤٢.

(٤) أي: الزمخشري، رحمه الله تعالى.

قالوا: مثلك لا يبخل، فنقوا البخل عن مثله، وهم يريدون نفيه عن ذاته، قصدوا المبالغة في ذلك، فسلكوا به طريق الكناية، لأنهم إذا نقوه عمّن يسد مسده، وعمّن هو على أخصّ أوصافه، فقد نقوه عنه. ونظيره قولك للعربي: العرب لا تخفر الذمم، كان أبلغ من قولك: أنت لا تخفر، ومنه قولهم: قد أيقعت لدائه وبلغت أترابه، يريدون إيفاعه وبلوغه. وفي حديث رقيقة بنت صيفي في سقيا عبد المطلب: «ألا وفيهم الطيب الطاهر لدائه»، والقصد إلى طهارته وطيبه.

قوله: (لا تخفر الذمم): قال (١): «خفّره: أجاره، وأخفّره: أزال الخفرة، وهي الذمة».

قوله: (قد أيقعت لدائه): الأساس: «يقعت الجبل: صعدته، وأيقع الغلام، وغلام يافع، وغلمان يفعة وأيفاع». الجوهري: «لدة الرجل: تربته (٢)، والهاء عوض من الواو الذاهبة من أوله؛ لأنه من الولادة».

قوله: (وفي حديث رقيقة): ذكر ابن الجوزي في كتاب «الوفا»: أن رقيقة بنت صيفي (٣) ابن هاشم كانت لدة عبد المطلب، قالت: «تتابعت على قريش سنون أقحلت الضرع، وأدق

(١) كأنه يريد الجوهري، فلنظفه في «الصّحاح»، مادة (خفر)، قريب مما هنا.

(٢) قال ابن منظور في «لسان العرب»، مادة (ترب): «ترب الرجل: الذي ولد معه، وأكثر ما يكون ذلك في المؤنث، يقال: هي تربها، وهما تريان، والجمع أتراب»، قلت: ومنه قوله تعالى في وصف الحور العين: ﴿عُرْبًا أترابًا﴾ [الواقعة: ٣٧]، وقوله: ﴿وَكَوَاعِبَ أترابًا﴾ [النبا: ٣٣].

(٣) لم ينسبها ابن الجوزي إلى أبيها، ولنظفه: «عن رقيقة، وهي لدة عبد المطلب، قالت: تتابعت على قريش»، فزاد المؤلف رحمه الله تعالى أنها «بنت صيفي»، متابعا في ذلك الزمخشري، وكذا سميت في كثير من الكتب، كما في «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٨: ٥١ و ٥٢)، و«أسد الغابة» لابن الأثير (٦: ١١١). وسميت في مواضع أخرى من هذه الكتب وغيرها: «رقيقة بنت أبي صيفي»، كما في «الطبقات الكبرى» (١: ٨٩ و ٩٠، ٨: ٢٢٢ و ٢٢٣)، و«أسد الغابة» (٦: ٢٨)، و«الإصابة» لابن حجر (٦: ٥٠ و ٥١ و ٥١١ و ٦٤٦).

وسبب هذا الاضطراب في تسميتها أن هاشم بن عبد مناف ولد يدعى صيفيا، وآخر يدعى أبا صيفي، واسمه عمرو، كما صرح به ابن الكلبي في «جمهرة النسب»، وكان نسبها إلى «أبي صيفي» أصح، والله أعلم.

العَظْمُ، فِينَا أَنَا نَائِمَةٌ إِذَا هَاتِفٌ يَهْتَفُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّ هَذَا النَّبِيَّ الْمَبْعُوثَ مِنْكُمْ قَدْ أَظَلَّتْكُمْ أَيَّامُهُ، وَهَذَا إِبَانٌ نُجُومِهِ، فَحَيَّهَا بِالْحَيَا وَالْحِصْبِ، أَلَا فَانظُرُوا رَجُلًا مِنْكُمْ وَسَيْطًا عِظَامًا جِئْنَامًا، أَيْضُ، أَوْطَفَ الْأَهْدَابَ^(١)، سَهَلَ الْخَدَّيْنِ، أَشَمَّ الْعَرَانِينَ^(٢)، فَلْيَتَخَلَّصْ هُوَ وَوَلَدُهُ، وَلْيَهْبِطْ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ رَجُلٌ، فَلْيَسْتَنْوَا مِنَ الْمَاءِ^(٣)، وَلْيَمْسُوا مِنَ الطَّيْبِ، ثُمَّ لِيَرْتَقُوا أَبَا قُبَيْسٍ، فَلْيَسْتَسِقِ الرَّجُلُ، وَلْيُؤَمِّنْ، فَغَسَّمُ^(٤) مَا شِئْتُمْ.

فَقَصَصْتُ رُؤْيَايَ، فَمَا بَقِيَ أَبْطَحِي إِلَّا قَالُوا: هَذَا شَيْبَةُ الْحَمْدِ^(٥)، وَتَنَامَتْ إِلَيْهِ الرَّجَالُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَاسْتَوَوْا بِذُرُورَةِ الْجَبَلِ، فَقَامَ عَبْدُ الْمُطَلِّبِ، وَمَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَلَامٌ قَدْ أَيْقَعَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ سَادَّ الْخَلَّةَ^(٦)، وَكَاشَفَ الْكُرْبَةَ، أَنْتَ مُعَلِّمٌ غَيْرُ مُعَلِّمٍ، وَمَسْئُولٌ غَيْرُ مُبْخَلٍّ، هَذِهِ عَبْدَاؤُكَ وَإِمَاؤُكَ يَشْكُونَ إِلَيْكَ سِنِّيهِمْ، أَذْهَبَتِ الْحُفَّ وَالظَّلْفَ^(٧)، اللَّهُمَّ فَأَمْطِرْ عَيْنًا مُغْدِقًا، فَمَا زَالُوا حَتَّى تَفْجَرَتِ السَّمَاءُ بِبَائِهَا، وَاکْتَنَظَ^(٨) الْوَادِي بِشَجِيحِهِ^(٩). هَذَا مُخْتَصَرٌ مِنْ كَلَامِهِ.

(١) أي: طويل شعر الأجدان. «النهاية» لابن الأثير، مادة (هدب) و(وطف).

(٢) الشَّمَمُ: ارتفاع قَصَبَةِ الأنفِ، واستواء أعلاها، وإشراف الأرنبة قليلاً. «النهاية»، مادة (شمم).

(٣) أي: فليصُفُّوا الماءَ على أنفسهم، يُقال: «سَنَّ الماءَ على وَجْهِهِ»: أي: صبَّه عليه صبًّا سهلاً، كما في «لسان العرب» لابن منظور، مادة (سنن).

(٤) تَحَرَّفَ فِي (ح) إِلَى: «فليغتم»، والمُثَبَّتُ مِنْ (ط) و(ف)، وَهُوَ الْمُوَافِقُ لِمَا فِي «الوفا». ومعناه: سُقِيْتُمْ الغيث، كما في «لسان العرب» لابن منظور، مادة (غيث).

(٥) وهو عبدُ المطلب.

(٦) أي: الحاجة والفقر، وسادها: أي: جابرها. «لسان العرب»، مادة (خلل).

(٧) الظَّلْفُ: حُفٌّ مَا يَجْرُ مِنْ الْبَهَائِمِ. «لسان العرب»، مادة (ظلف).

(٨) فِي (ح): «وأنشط»، وَفِي (ط): «أكنشط»، والمُثَبَّتُ مِنْ (ف)، وَهُوَ الْمُوَافِقُ لِمَا فِي «الوفا» لابن الجوزي.

(٩) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئةُ: «بشجحه»، وَالتَّيْجُ: وَسَطُ الشَّيْءِ، وَالمُثَبَّتُ مِنْ «الوفا» لابن الجوزي، وَهُوَ الْمُوَافِقُ لِلْفِطْرِ حَدِيثِ رُقِيقة فِي مصادره، فَقَدْ أَخْرَجَهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي «الطبقات» (١: ٨٩-٩٠)، وَالتَّطْبِائِي فِي «المعجم الكبير» (١٠١٢٦)، وَالبَيْهَقِيُّ فِي «دلائل النبوة» (٢: ١٧).

وَمَعْنَى: «اكتنظَ بِشججِه»: أَي: امْتَلَأَ بِسَيْلِهِ. انظر: «النهاية» لابن الأثير، و«لسان العرب» لابن منظور، كِلَاهِمَا فِي مادة (شجج).

فإذا عَلِمَ أنه من باب الكِنْيَةِ لم يَقَعْ فَرْقٌ بَيْنَ قَوْلِهِ: «لَيْسَ كَاللَّهِ شَيْءٌ»، وَبَيْنَ قَوْلِهِ: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»، إِلَّا مَا تُعْطِيهِ الكِنْيَةُ مِنْ فائِدَتِهَا، وَكَأَنَّهَا عِبَارَتَانِ مُعْتَبِرَتَانِ عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ، وَهُوَ نَفْيُ المِثَالَةِ عَنْ ذَاتِهِ.

وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، فَإِنَّ مَعْنَاهُ: بَلْ هُوَ جَوَادٌ مِنْ غَيْرِ تَصَوُّرٍ يَدٍ وَلَا بَسْطٍ لَهَا، لِأَنَّهَا وَقَعَتْ عِبَارَةً عَنِ الجُودِ، لَا يَقْصِدُونَ شَيْئًا آخَرَ، حَتَّى إِذَا اسْتَعْمَلُوا فِي مَنَ لَا يَدَ لَهُ، فَكَذَلِكَ اسْتَعْمَلَ هَذَا فِي مَنَ لَهُ مِثْلٌ وَمَنْ لَا مِثْلَ لَهُ.
وَلَكَّ أَنْ تَزْعَمَ أَنَّ كَلِمَةَ التَّشْبِيهِ كُرِّرَتْ لِلتَّأْكِيدِ،

قَوْلِهِ: (لَمْ يَقَعْ فَرْقٌ بَيْنَ قَوْلِهِ: «لَيْسَ كَاللَّهِ شَيْءٌ»، وَبَيْنَ قَوْلِهِ: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»، إِلَّا مَا تُعْطِيهِ الكِنْيَةُ مِنْ فائِدَتِهَا): يَعْنِي: أَصْلُ المَعْنَى وَاحِدٌ، لَكِنْ فِي الكِنْيَةِ فَضْلٌ مُبَالِغَةٌ لَيْسَ فِي التَّصْرِيحِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَسْلُكُونَ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ عِنْدَ وَجُودِ صِفَاتٍ كَمَا لِيُشَاهِدُونَهَا فِي تِلْكَ الذَّاتِ، فَيَقْدِرُونَ لَهَا مَنْ يُشَارِكُهَا فِي تِلْكَ الفِضَائِلِ، وَيَجْعَلُونَهَا عَامَّةً، وَيُثْبِتُونَ لِهَذَا المَقْدَرِ مَا يُرِيدُونَ إِثْبَاتَهُ لِهَذَا الذَّاتِ، لِيَلْتَزِمَ إِثْبَاتُهُ لِهَذَا الذَّاتِ بالطَّرِيقِ البُرْهَانِيِّ، نَحْوُ: مِثْلُكَ لَا يَبْخَلُ، فَظَهَرَ مِنْ هَذَا أَنَّ لَيْسَ مِنْ سَرَطِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَجُودُ ذَلِكَ المِثْلِ فِي الخَارِجِ، نَحْوُهُ قَوْلُ القَبَعْثَرِيِّ لِلحَّجَّاجِ: «مِثْلُ الأَمِيرِ حَمَلٌ عَلَى الأَدْهَمِ والأَشْهَبِ»^(١)، إِذْ لَوْ قُصِدَ بِهِ إِثْبَاتُ النَّظِيرِ وَالتَّشْبِيهِ، لَكَانَ بِالدَّمِّ أَشْبَهَ مِنَ المَذْحِ، وَإِلَيْهِ الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «اسْتَعْمَلَ هَذَا فِي مَنَ لَهُ مِثْلٌ، وَمَنْ لَا مِثْلَ لَهُ». وَهَاهُنَا الضَّمِيرُ فِي «مِثْلِهِ» رَاجِعٌ إِلَى اللهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاللَّهُ هُوَ أَوْلَىٰ لَوْلَايَ﴾، بَعْدَ إِجْرَاءِ تِلْكَ الصِّفَاتِ عَلَيْهِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: لَيْسَ مِثْلُ هَذِهِ الذَّاتِ المُسْتَجْمِعَةِ لِتِلْكَ الصِّفَاتِ الكَامِلَةِ شَيْءٌ.

قَوْلِهِ: (وَلَكَّ أَنْ تَزْعَمَ كَلِمَةَ التَّشْبِيهِ كُرِّرَتْ لِلتَّأْكِيدِ): هَذَا قَوْلُ الزَّجَّاجِ^(٢)، قَالَ أَبُو البَقَاءِ: «الكافُ زائِدَةٌ، وَ«مِثْلِهِ» خَبَرٌ ﴿لَيْسَ﴾، أَي: لَيْسَ مِثْلَهُ شَيْءٌ، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ زَائِدَةً لَأَفْضَى

(١) تَقَدَّمَ عِنْدَ المَوْلا فِي تَفْسِيرِ الآيَةِ ٨٠ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ (٧: ٣٥٤)، مُسْتَشْهِدًا بِهِ عَلَى «أَسْلُوبِ الحَكِيمِ»، وَقَدْ عُلِّقَتْ عَلَيْهَا هُنَاكَ بِإِيرَادِ القِصَّةِ بِتَمَامِهَا، مَعَ عَزْوِهَا إِلَى بَعْضِ مَصَادِرِهَا، فَانظُرْهَا إِنْ شِئْتَ.

(٢) انظُرْ: «مَعَانِي القُرْآنِ الكَرِيمِ وَإِعْرَابِهِ» لِلزَّجَّاجِ (٤: ٣٩٥).

إلى المحال؛ إذ المعنى أن له مثلاً، وليس لثله مثل، فإذا كان له مثل فلمثله مثل، وهو هو، مع أن إثبات المثل لله محال. وقيل: «المثل» زائدة، أي: ليس كهو شيء، كما في قوله: «فإن آمنوا بمثل ماء آمنتم بده» [البقرة: ١٣٧]، وهو قول بعيد^(١).

الانتصاف: «القول بأن الكاف زائدة مردود؛ لما فيه من الإخلال بالمعنى؛ لأن التأكيد يصلح أن يكون في النفي، وهاهنا التأكيد وقع في حصول التشبيه، فإذن إهمال تأكيد المماثلة أقوى في هذا المعنى من تأكيدها، ونفي المماثلة المهملة أبلغ من نفي المماثلة المؤكدة، إذ لا يلزم من نفي مماثلة محققة نفي أصل المماثلة^(٢)، بخلاف عكسه، والكاف حيث وردت إنما تؤكد المماثلة لا النفي، فليس تنظير الآية بشطري البيتين مستقيماً، والوجه الأول أصح، ولذلك قال: (ولك أن تزعم)^(٣)».

وقلت: الجواب عن قول أبي البقاء: «فإذا كان له مثل، فلمثله مثل، وهو هو»: لا يلزم أن يكون هو هو؛ لأن أرباب البيان ربما يجعلون العرّض في التشبيه إلحاق الناقص بالكامل، فيفرض له مثل بهذا الطريق، ثم يفرض لهذا المفروض مثل آخر كذلك، فيسلط عليه النفي

(١) «البيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٣١).

(٢) من قوله: «أقوى في هذا المعنى» إلى هنا، سقط من (ط).

(٣) «الانتصاف» (٣: ٤٦٣) بحاشية «الكشاف»، وقد اختصر المؤلف عبارته، فخفي مراده، ولفظه: «الوجه الثاني مردود على ما فيه من الإخلال بالمعنى، وذلك أن الذي يليق هنا تأكيد نفي المماثلة، والكاف على هذا الوجه إنما تؤكد المماثلة، وفرق بين تأكيد المماثلة المنفية وبين تأكيد نفي المماثلة، فإن نفي المماثلة المهملة عن التأكيد أبلغ وأكد في المعنى من نفي المماثلة المقترنة بالتأكيد، إذ يلزم من نفي المماثلة غير المؤكدة نفي كل مماثلة، ولا يلزم من نفي مماثلة محققة مؤكدة بالغة نفي مماثلة دونها في التحقيق والتأكيد، وحيث وردت الكاف مؤكدة للمماثلة وردت في الإثبات فأكدته، فليس النظر في الآية بهذين النظيرين مستقيماً».

ليتنفي المثل عن الله سبحانه وتعالى بالطريق الأولى^(١)، ولعل مراد صاحب «الانتصاف» بقوله: «نفي المماثلة المهملة أبلغ من نفي المماثلة المؤكدة» هذا.

الراغب: «المثل: أعمُّ الألفاظِ الموضوعَةِ للمُشابهَةِ، وذلك أنَّ «النَّدَّ» يُقالُ لِمَا يُشارِكُ في الجوهرِ فقط، و«السَّبَّةُ» يُقالُ فيما يُشارِكُهُ في الكَيْفِيَّةِ فقط، و«المُساوِي» يُقالُ فيما يُشارِكُهُ في الكَمِّيَّةِ فقط، و«السَّكَلُ» يُقالُ فيما يُشارِكُهُ في القَدْرِ والمَسَاحَةِ فقط، و«المِثْلُ» عامٌّ في جميع ذلك، ولهذا لِمَا أَرادَ اللهُ نَفْيَ السَّيِّئِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ خَصَّهُ بالذِّكْرِ، قالَ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

وأما الجمعُ بينَ^(٢) الكافِ والمِثْلِ: فقد قيل: ذلك لتأكيدِ النفي، تبيهاً على أنه لا يَصِحُّ استعمالُ المِثْلِ ولا الكافِ، فنفي بـ«ليس» الأمرينِ جميعاً، وقيل: «المِثْلُ» هاهنا بمعنى الصِّفَةِ، ومعناه: ليس كصِفَتِهِ صِفَةً، تبيهاً على أنه وإن وُصِفَ بكثيرٍ مما يُوصَفُ به البَشَرُ فليست تلك الصِّفَاتُ له على حَسَبِ ما يُستعملُ في البَشَرِ.

(١) كلام المؤلف رحمه الله تعالى تفریع على لفظ «المثل» من حيث معناه الأعم، وهو مُطلق التشبيه، فإذا قلت: «زيدٌ مثلُ عمرو»، لا يلزمُ منه أن يكونَ عمرو أيضاً مثلاً لزيد، إذا كان الغرضُ من هذا التشبيه هو إلحاقُ زيدٍ بعمرو، ثم إذا قلت: «وزيدٌ لا يفعلُ كذا» كان نفي هذا الفعل عن عمرو من بابِ أولى.

أما قولُ أبي البقاء العُكْبَرِيِّ رحمه الله تعالى أيضاً: «إذا كان له مثل، فمِثْلُهُ مِثْلٌ، وهو هو»: فَيُرِيدُ أنه يلزمُ من قولك: «زيدٌ مثلُ عمرو» أن يكونَ عمرو أيضاً مثلاً لزيد، وهو تفریع على لفظِ «المِثْلُ» من حيث معناه الأخص، وهو التشبيهُ من جميع الوجوه على قول، أو الاشتراكُ في الحقيقة والماهية على آخر.

قال أبو هلال العسكري رحمه الله تعالى في «الفروق اللغوية» ص ١٤٩: «الفرقُ بينَ كافِ التشبيهِ وبينَ المِثْلِ: أنَّ الشَّيْءَ يُشَبَّهُ بالشَّيْءِ مِنْ وَجْهِ واحدٍ لا يكونُ مِثْلَهُ في الحقيقة، إلا إذا أشبَهَهُ مِنْ جميعِ الوجوهِ لذاته، فكانَ اللهُ تعالى لِمَا قالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أفادَ أنه لا شَبَّهُ له ولا مِثْلَ، ولو كان قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ نفيًا أن يكونَ لِمِثْلِهِ مِثْلٌ، لكان قولنا: «ليسَ كمثلِ زيدٍ رجلٌ» مناقضةً؛ لأنَّ زيدا مِثْلٌ مَنْ هو مِثْلُهُ. والتشبيهُ بالكافِ يُفِيدُ تشبيهَ الصِّفَاتِ بعضها ببعضٍ.

وعليه فلا مُناقاةَ بينَ ما أورده المؤلف على أبي البقاء، وكلاهما مُصيب، لاختلافِ جهةِ الكلامِ عندهما، والله أعلم.

(٢) في (ح) و(ف): «في»، والمُثَبَّتُ من (ط) و«مفردات القرآن» للراغب.

كما كَرَّرَهَا مَنْ قَالَ:

وصالِيَاتٍ كَكَمَا يُؤْتَفَيْنِ

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، أي: لهم الصِّفَاتُ الذَّمِيمَةُ، وله الصِّفَاتُ العُلَى، وقد مَنَعَ اللهُ تعالى عن صَرْبِ الأمثال، بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، ثم نبه أنه قد يَضْرِبُ لِنَفْسِهِ المَثَلَ، ولا يجوزُ لنا أن نَقْتَدِيَ به، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤]، ثم صَرَبَ لِنَفْسِهِ مَثَلًا فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [النحل: ٧٥] الآية، وفي هذا تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّهُ لا يجوزُ أن نَصِفَهُ بِصِفَةٍ مما يُوصَفُ به البَشَرُ إلا بها وَصَفَ به نَفْسَهُ^(١).

قوله: (وصالِيَاتٍ كَكَمَا يُؤْتَفَيْنِ): بعده:

لا يَشْتَكِينُ عَمَلًا ما أَبْقَيْنِ

قبله:

لم يَبْقَ من آيِ بها يُسْحَلِينَ^(٢) غيرِ حُطَامٍ ورمادٍ كِنْفَيْنِ

وغيرِ وَدِّ جاذِلٍ أو وَدَّيْنِ

الكِنْفُ: القِدْرُ الصَّغِيرُ، أَثْفَيْتُ القِدْرَ: إذا وَصَعْتَهَا عَلَى الأَثاقِ، وَأَثْفَيْتُها: إذا جعلت له أَثاقِي.

قوله: (يُؤْتَفَيْنِ): أراد: يُثْفَيْنِ، فأخْرِجَ عَلَى الأَصْلِ^(٣)، مِثْلُ قوله:

فإنه أَهْلٌ لَأَنَّ يُؤَكْرَمًا^(٤)

(١) «مفردات القرآن» ص ٧٥٩.

(٢) لفظة: «يحلين» غير واضحة في (ح) و(ف)، وفي (ط): «يُحْيَيْنِ»، وأثبت من «لسان العرب»، مادة (رنب) و(غرا).

(٣) انظر: «لسان العرب»، مادة (ثفا).

(٤) البيت في «الصَّحاح» للجوهري، مادة (كرم)، و«لسان العرب» لابن منظور، مادة (رنب) و(كرم). وانظر: «المقتضب» للمبرِّد (٢: ٩٨)، و«الخصائص» لابن جنِّي (١: ١٤٤)، و«مفتاح العلوم» للسَّكَّاکي ص ٤٣، و«شرح ابن عقيل» (٤: ٣١٤).

وَمَنْ قَالَ:

فَأَصْبَحَتْ مِثْلَ كَعْصِفٍ مَأْكُولٍ

[لَهُ، مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ، يَكْلِ شَيْءٌ

عَلِيمٌ ﴿١٢﴾]

وَقُرِي: «وَيُقَدَّر».

﴿إِنَّهُ، يَكْلِ شَيْءٌ عَلِيمٌ﴾ فإذا عَلِمَ أَنَّ الغِنَى خَيْرٌ للعَبْدِ أَغْنَاهُ، وَإِلَّا أَفْقَرَهُ.

[﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ ١٣]

الْجَاذِلُ: الْمُتَّصِبُ مَكَانَهُ لَا يَسْرَحُ.

أَي: رَبِّ نِسَاءٍ صَالِيَاتٍ بِالنَّارِ، كَالْأَنْفِيَةِ، وَسَبَّهِنَّ بِالْأَنْفِيَةِ - وَهِيَ الْحَجَرُ الْمَنْصُوبُ لِلْقَدْرِ - لِدَوَائِمِهِنَّ عَلَى الْكَانُونِ^(١)، وَاسْوَدَادِ ثِيَابِهِنَّ مِنَ الدُّخَانِ، وَالْكَافُ الْأَوَّلِيُّ حَرْفُ الْجَرِّ، وَالثَّانِيَةُ اسْمٌ، كُرِّرَتْ كَلِمَةُ التَّشْبِيهِ لِلتَّأْكِيدِ.

قَوْلُهُ: ﴿فَأَصْبَحَتْ مِثْلَ كَعْصِفٍ مَأْكُولٍ﴾^(٢): أَوَّلُهُ:

بِالْأَمْسِ كَانُوا فِي رَحَاءٍ مَأْمُولٍ

(١) وَهُوَ الْمَوْقِدُ، كَمَا فِي «الْقَامُوسِ» لِلْفَيْرُوزِ أَبِي بَادِي، مَادَّةُ (كَنْ).

(٢) انظُر: «الْكِتَابُ» لِسَيِّبِيَّةِ (١: ٤٠٨)، وَ«الْمُقْتَضِبُ» لِلْمُبَرِّدِ (٤: ١٤١ وَ ٣٥٠)، وَ«مِفْتَاحُ الْعُلُومِ» لِلْسَّكَاكِيِّ ص ٩٧، وَ«شَرْحُ الْأَشْمُونِيِّ عَلَى الْأَلْفِيَةِ» (٢: ٣٤) مَعَ «حَاشِيَةِ الصَّبَّانِ»، وَ«شَرْحُ الرُّضِيِّ عَلَى الْكَافِيَةِ» (٤: ٣٢٤)، وَ«مَغْنِي اللَّيْبِ» لِابْنِ هِشَامٍ (١: ١٨٠)، وَذَكَرُوهُ كُلَّهُمْ بِلَفْظِ: «فَصَّيَّرُوا مِثْلَ كَعْصِفٍ مَأْكُولٍ».

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ دينِ نُوحٍ وَمُحَمَّدٍ وَمَنْ بَيْنَهُمَا مِنَ الأنبياءِ، ثم فَسَّرَ المشروعَ الذي اشترك هؤلاء الأعلام من رُسُلِهِ فِيهِ بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَنْفَرُوا فِيهِ﴾، والمراد: إقامة دين الإسلام الذي هو توحيدُ الله وطاعته، والإيمانُ برُسُلِهِ وَكُتُبِهِ وبيوم الجزاء، وسائر ما يكونُ الرجلُ بإقامته مُسْلِماً، ولم يُرَدِّ الشرائع التي هي مَصَالِحُ الأُمَّمِ عَلَى حَسَبِ أَحْوَالِهَا، فإنها مُخْتَلِفَةٌ مُتَفَاوِتَةٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ [المائدة: ٤٨].

ومحلُّ ﴿أَنْ أَقِيمُوا﴾: إما نَصْبٌ؛ بَدَلٌ مِنْ مفعولٍ ﴿شَرَعَ﴾ والمعطوفين عليه، وإما رَفْعٌ عَلَى الاستِثْنافِ، كأنه قيل: وما ذلك المشروع؟ فقيل: هو إقامة الدين، ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢]، ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ عَظُمَ عَلَيْهِمْ وَشَقَّ عَلَيْهِمْ، ﴿مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ مِنْ إقامَةِ دينِ الله والتوحيد،

العَصْف: ما على الحبِّ مِنَ التَّيْنِ، وما على ساقِ الزَّرْعِ مِنَ الوَرَقِ اليابس.

قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ دينِ نُوحٍ وَمُحَمَّدٍ وَمَنْ بَيْنَهُمَا: رُتَّبَ الكلامُ بالابتداءِ والاختتامِ والتوسطِ وَجِيءَ بأولِ مَنْ مُهَدَّبَةً بِه الشريعة، ثم بِمَنْ خَتِمَ بِهِ الشريعة، وَوَسَطَ المُتوسِّطِينَ، وَعَدَلَ مِنْ «أَوْصِيانَا» إِلَى «أَوْحِيانَا»، وَأَتَى بِكافِ الحِطَابِ لِيُؤذَنَ بِالْفَرَقِ بَيْنَ تَوْصِيَتِهِمْ وَتَوْصِيَتِهِ.

قوله: (ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾): أي: نَحْوُ قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَنْفَرُوا﴾، قال عُجَي السُّنَّة: «بُعِثَ الأنبياءُ كُلُّهُمْ بِإِقامَةِ الدِّينِ والألْفَةِ والجماعةِ، وَتَرَكَ الفُرقةَ والمخالفة»^(١). وقلت: مثله قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَمَالَوْا إِلَى كَلِمَةِ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [آل عمران: ٦٤] الآية.

(١) «معالم التنزيل» للبقوي (٧: ١٨٧).

﴿يَجْتَنِي إِلَيْهِ﴾ يَجْتَلِبُ إِلَيْهِ وَيَجْمَعُ، وَالضَّمِيرُ لِلدِّينِ؛ بِالتَّوْفِيقِ وَالتَّسْهِيدِ، ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ مَنْ يَنْفَعُ فِيهِمْ تَوْفِيقَهُ وَيَجْرِي عَلَيْهِمْ لُطْفُهُ.

[﴿وَمَا نَفَرَقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ ١٤]

﴿وَمَا نَفَرَقُوا﴾ يعني: أهل الكتاب بعد أنبيائهم ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ﴾ أَنْ عَلِمُوا أَنَّ الْفُرْقَةَ ضَلَالٌ وَفَسَادٌ، وَأَمْرٌ مُتَوَعَّدٌ عَلَيْهِ عَلَى السُّنَّةِ الْأَنْبِيَاءِ، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ وَهِيَ عِدَّةُ التَّأخِيرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ حِينَ افْتَرَقُوا؛ لِعِظَمِ مَا اقْتَرَفُوا، ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وَهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الَّذِينَ كَانُوا فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ﴿لَفِي شَكٍّ﴾ مِنْ كِتَابِهِمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَقَّ الْإِيَابِ.

وقيل: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً مُؤْمِنِينَ بَعْدَ أَنْ أَهْلَكَ اللَّهُ أَهْلَ الْأَرْضِ أَجْمَعِينَ بِالطُّوفَانِ، فَلَمَّا مَاتَ الْأَبَاءُ اخْتَلَفَ الْأَبْنَاؤُ فِيهَا بَيْنَهُمْ، وَذَلِكَ حِينَ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمُ النَّبِيَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، وَجَاءَهُمُ الْعِلْمُ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا اللَّبْغِي بَيْنَهُمْ.

قوله: ﴿يَجْتَنِي إِلَيْهِ﴾ يَجْتَلِبُ [إِلَيْهِ] وَيَجْمَعُ: أَي: إِلَى الدِّينِ، أَخَذَهُ مِنَ الْجِبَابَةِ، وَهُوَ جَلْبُ الْخِرَاجِ، لَا مِنْ الاجْتِبَاءِ، كَمَا قَالَ مُحْيِي السُّنَّةِ: «يَضْطَفِي اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ يَشَاءُ»^(١)؛ لِأَنَّهُ جَعَلَهُ مِنْ بَابِ الْجَمْعِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَنْفَرَقُوا﴾، مَعْنَاهُ: الْإِقَامَةُ عَلَى الْجَمَاعَةِ، وَتَرْكُ الْفُرْقَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿يَجْتَنِي إِلَيْهِ﴾ بَيَانٌ لِمَنْ دَخَلَ فِيهَا وَمَنْ خَرَجَ مِنْهَا، فَتَأْوِيلُ ﴿يَجْتَنِي إِلَيْهِ﴾: بِ«يَجْمَعُ إِلَى الدِّينِ»: أَظْهَرَ مَعْنَى، وَ«يَضْطَفِي»: أَدَقُّ مَغْزَى؛ لِأَنَّ اصْطِفَاءَ اللَّهِ أَوْلِيَاءَهُ يَدُلُّ عَلَى اجْتِمَاعِهِمْ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَعَدَمِ الْاِخْتِلَافِ فِي أَصُولِ الدِّينِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبُهِدَتْهُمْ أَقْسَدُ﴾ [الأنعام: ٩٠]، كَمَا أَنَّ إِشْرَاكَ أَعْدَاءِ اللَّهِ يَدُلُّ عَلَى التَّعَدُّدِ وَالتَّفْرِيقِ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ ضَمَّ مَعَهُ ﴿كَبُرَ﴾، وَهَذَا لِمَا دُعُوا إِلَى التَّوْحِيدِ

(١) «معالم التنزيل» (٧: ١٨٧).

وقيل: وما تفرَّق أهل الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بمبعث رسول الله ﷺ، كقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤]، ﴿وَلِإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ هم المشركون؛ أُوتُوا القرآن من بعد ما أُورث أهل الكتاب التوراة والإنجيل.

وقرى: «وَرُتُوا» و«وَرُتُوا».

[﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ ظَنِّكَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتَ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ ١٥]

﴿فَلِذَلِكَ﴾ فلاجل التفرُّق ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعباً، ﴿فَادْعُ﴾ إلى الانفاق والاتلاف على الملة الحنيفية القديمة، ﴿وَاسْتَقِمْ﴾ عليها وعلى الدعوة إليها كما أمرك الله، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ ظَنِّكَ﴾ المختلفة الباطنة، ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ بأي كتاب صحَّ أن الله أنزله، يعني: الإيذان بجميع الكتب المنزلة، لأن المتفرِّقين آمنوا ببعض وكفروا ببعض، كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنُكْفِرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠]، إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥١].

قالوا متعجبين: ﴿أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، وقال الله تعالى: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩].

وفي إسناد «الاجتباء» إلى ذاته عز وجل، وإسناد ﴿كَبُرَ﴾ إلى «ما تدعو»: إشارة إلى معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، وفيه: أن أهل السنة والجماعة ممن اجتبهاه الله إلى دينه، وهداه إليه.

قوله: (وقيل: وما تفرَّق أهل الكتاب): جعل الضمير في قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ أولاً وآخرأ لأهل الكتاب، وفي الوجه الثاني: للناس بعد الطوفان، والظاهر الثاني؛ لأن هذا^(١) الضمير

(١) من قوله: «في قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾» إلى هنا، سقط من (ف).

وما في قوله: ﴿وَلَا تَنفَرُوا فِيهِ﴾^(١): واحد، يعني: أمرت الأمم القديمة والحديثة على اتفاق الكلمة وإقامة دين الله والتوحيد وعدم الاختلاف والتفرق، وما تفرق الناس إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم. ثم استطرذ بذكر أهل الكتاب واختلافهم بمبعث النبي ﷺ في قوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤]، ولذلك غيّرت العبارة وحيء بـ «إن» الدالة على التوكيد.

وهذا التفسير موافق لقوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ﴾؛ لأن المعنى: ولأجل ذلك التفرق، ولما حدث بسببه من تشعب الكفر في الأمم السالفة شعباً، فادع إلى الاتفاق والائتلاف على الدين الحنيفية القديمة، واستقم عليها.

هذا ما دل عليه تأويل المصنف، لكن الظاهر أن «ذلك» إشارة إلى قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ وما يتصل به من قوله: ﴿أَنْ أَعْبُوا الَّذِينَ وَلَا تَنفَرُوا فِيهِ﴾، أي: ولأجل ذلك التوضيحية^(٢) التي شورك مع نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، ولأجل ذلك الأمر بالإقامة، والنهي عن التفرق، فادع إلى التوحيد وإقامة الدين والثبات عليه، واستقم أنت عليه أيضاً، يدل عليه قوله: ﴿كَمَا أَمَرْتُ﴾، فالمدعو والمدعو إليه عام في أهل الكتاب والمشركين وفي المذكورات^(٣).

وفي قوله: ﴿ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ تعريض باليهود وبقولهم: ﴿تُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَتَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠]، جاء مستطرداً، كما جاءت الآية السابقة مستطردة فيهم، وعليه كلام الواحدي حيث قال: «ذلك: إشارة إلى ما وصي به الأنبياء عليهم السلام من التوحيد»، وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: أهل الكتاب^(٤).

(١) قوله: «وما في قوله...»: يعني: والضمير الذي في قوله... إلخ.

(٢) في (ح) و(ف): «الترضية»، والمثبت من (ط).

(٣) أي: المدعو عام في أهل الكتاب والمشركين، والمدعو إليه عام في المذكورات، على طريقة اللف والنشر.

(٤) «الوسيط» للواحدي (٤: ٤٧).

﴿لَأَعَدِّلَ بَيْنَكُمْ﴾ في الحكم إذا تخصصتم فتحاكمتم إلي، ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: لا خصومة؛ لأن الحق قد ظهر وصبرتم محجوجين به، فلا حاجة إلى المحاجة. ومعناه: لا إيراد حجة بيننا، لأن المتحاجين يورد هذا حجته وهذا حجته، ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة، فيفصل بيننا ويتقّم لنا منكم، وهذه محاجة ومشاركة بعد ظهور الحق وقيام الحجة والإلزام.

فإن قلت: كيف حوجزوا وقد فعل بهم بعد ذلك ما فعل؛ من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والإجلاء؟ قلت: المراد محاجرتهم في مواقف المقاتلة، لا المقاتلة.

[﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ، جُنَّهْمُ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ١٦]

﴿يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ يُخَاصِمُونَ في دينه، ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ ما استجاب له الناس ودخلوا في الإسلام، ليرُدوهم إلى دين الجاهلية، كقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩]، كان اليهود والنصارى يقولون للمؤمنين: كتابنا قبل كتابكم، وبيتنا قبل نبيكم، ونحن خير منكم وأولى بالحق. وقيل: من بعد ما استجاب الله لرسوله، ونصره يوم بدر، وأظهر دين الإسلام، ﴿دَاحِضَةٌ﴾ باطلة زائلة.

قوله: (المراد محاجرتهم في مواقف المقاتلة، لا المقاتلة): الجوهري: «المحاجة: الممانعة، وقد تحاجز الفريقان»، يعني: يمكن الجمع بين الدليلين^(١)، قال القاضي: «ليس في الآية ما يدل على مشاركة الكفار رأساً، حتى يكون منسوخاً بآية القتال»^(٢)، وقال محيي السنة: «لا حجة بيننا وبينكم»: بمعنى: لا خصومة بيننا وبينكم، نسختها آية القتال، وإذا لم يؤمر بالقتال وأمر بالدعوة لم يكن بينه وبين من لا يُجيبُ خصومة»^(٣).

(١) أي: بين هذه الآية التي دلّت على مشاركة أهل الكتاب، والآيات التي ذكرت قتلهم وتخريب بيوتهم ونحو ذلك، كالتي في سورة الحشر.

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (١٢٦: ٥).

(٣) «معالم التنزيل» للبغوي (٧: ١٨٨).

[اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ * يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ آلَا إِنَّ الَّذِينَ يُعَارِضُونَكَ فِي السَّاعَةِ لِغَى ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٧-١٨﴾]

﴿أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ أي: جِنَسَ الْكِتَابِ، ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وَالْعَدْلَ وَالتَّسْوِيَةَ، وَمَعْنَى إِنْزَالِ الْعَدْلِ: أَنَّهُ أَنْزَلَهُ فِي كُتُبِهِ الْمُنزَلَةِ، وَقِيلَ: الَّذِي يُوزَنُ بِهِ، ﴿بِالْحَقِّ﴾ مُلْتَبِسًا بِالْحَقِّ مُقْتَرِنًا بِهِ بَعِيدًا مِنَ الْبَاطِلِ، أَوْ بِالْغَرَضِ الصَّحِيحِ كَمَا اقْتَضَتْهُ الْحِكْمَةُ، أَوْ بِالْوَاجِبِ مِنَ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ،

وقلت: وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الدَّلِيلَ عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ فِي إِبْرَادِ الْمَقَاوِلِ دُونَ الْمُقَاتِلَةِ تَرْتُبُ قَوْلُهُ: ﴿فَلْيَذَلِكِ فَأَدْعُ وَاسْتَقِمَّ﴾ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لِغَى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾، ثُمَّ التَّعْقِيبُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ، جُنُودَهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وَقَالَ مُحْيِي السُّنَّةِ: ﴿الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ يُخَاصِمُونَ فِي دِينِ اللَّهِ نَبِيَّهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: هُمُ الْيَهُودُ قَالُوا: كِتَابُنَا قَبْلَ كِتَابِكُمْ، وَنَبِيُّنَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ، فَنَحْنُ خَيْرٌ مِنْكُمْ، فَهَذِهِ خُصُومَتُهُمْ مِنْ بَعْدِ^(١).

قوله: (وقيل: الذي يُوزَنُ به): أي: يجوزُ أن يكونَ إنزالُه الميزانَ يأمرُ به، ويجوزُ أن يُرادَ إنزالُه حقيقةً. عن بعضهم: رُوِيَ أَنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْزَلَ بِالْبَاسِنَةِ^(٢)، وَهِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِآلَاتِ الصَّنَاعِ.

(١) «معالم التنزيل» للبخاري (٧: ١٨٩).

(٢) تحرف في (ح) و(ف) إلى: «الباينة» بالياء، والصواب بالياء كما في (ط).

قال ابن الأثير في «النهاية» (١: ١٢٩)، مادة (بس): «في حديث ابن عباس: «نزل آدم عليه السلام من الجنة بالباينة» قيل: إنها آلات الصنائع، وقيل: هي سكة الحرث، وليس بعربي محض». قلت: والحديث المذكور أخرجه الأزرق في «أخبار مكة» (١: ٢٦٢) من طريق عثمان بن ساج، عن عطاء عن ابن عباس موقوفاً، وابن ساج مُتَكَلِّمٌ فِيهِ.

﴿السَّاعَةَ﴾ في تأويلِ البعث، فلذلك قيل: ﴿قَرِيبٌ﴾، أو: لَعَلَّ مجيء الساعة قريب.
فإن قلت: كيف يُوفَّقُ ذِكْرُ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ مَعَ إِنْزَالِ الْكِتَابِ وَالْمِيزَانِ؟ قلت: لأنَّ
السَّاعَةَ يَوْمَ الْحِسَابِ وَوَضَعَ الْمَوَازِينَ لِلْقِسْطِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: أَمَرَكَمُ اللَّهُ بِالْعَدْلِ وَالنَّسْوِيَةِ
وَالْعَمَلِ بِالشَّرَائِعِ قَبْلَ أَنْ يُفَاجِئَكُمْ الْيَوْمَ الَّذِي يُحَاسِبُكُمْ فِيهِ، وَيَزِنُ أَعْمَالَكُمْ، وَيُوفِي لِمَنْ
أَوْفَى، وَيُطْفِفُ لِمَنْ طَفَّفَ.

قوله: ﴿السَّاعَةَ﴾ في تأويلِ البعث: قال أبو البقاء: «يجوزُ أن يكونَ تذكيرُ ﴿قَرِيبٌ﴾
على معنى الزمان، أو على معنى البعث، أو على النَّسَبِ، أي: ذات قُرْبٍ»^(١)»^(٢).

قوله: (فكأنه قيل: أَمَرَكُمْ [الله] بِالْعَدْلِ وَالنَّسْوِيَةِ وَالْعَمَلِ بِالشَّرَائِعِ قَبْلَ أَنْ يُفَاجِئَكُمْ
الْيَوْمَ الَّذِي يُحَاسِبُكُمْ فِيهِ): يعني: دَلَّ تَوْسِيطُ «الميزان»^(٣) بَيْنَ «إِنْزَالِ الْكِتَابِ» و«مَجِيءِ السَّاعَةِ»
عَلَى أَنَّ الْحِكْمَةَ فِي إِنْزَالِ الْكِتَابِ الْعَدْلُ وَالنَّسْوِيَةُ، كَمَا أَنَّ الْحِكْمَةَ فِي إِيْتَانِ السَّاعَةِ الْقَضَاءُ
بِالْحَقِّ، إِذْ لَيْسَ الدِّينُ وَالشَّرِيعَةُ سِوَى الْإِسْتِقَامَةِ بَيْنَ طَرَفَيْ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ، كَمَا قَالَ:
﴿فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ
لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾، وَلَيْسَ وَضْعُ الْقِيَامَةِ إِلَّا ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤]، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ
فِي الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بَصَدْدِهَا ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

وَأَمَّا قَضِيَّةُ النَّظْمِ: فَإِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ حَبِيبَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ يَدْعُوا الزَّائِعِينَ
الْمَائِلِينَ عَنِ الْحَقِّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا وَتَفَرَّقُوا إِلَى الْاجْتِمَاعِ وَالْإِسْتِقَامَةِ، وَأَدْمَجَ فِيهِ^(٤) مَعْنَى أَنَّ

(١) في الأصول الخطية: «ذات قريب»، والمثبت من «التبيان» لأبي البقاء العكبري.

(٢) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٣٢).

(٣) تحرّف في (ج) إلى: «الزمان».

(٤) قال المؤلف العلامة الطيبي رحمه الله تعالى في «التبيان في البيان» ص ٣٢٢: «الإدماج: هو أن يضمّن كلاماً
سيقاً لوصفٍ ووصفاً آخر، كقوله تعالى: ﴿وَحَمَلُهُ، وَفَصْلُهُ، تَلْتَوُونَ شَهْرًا﴾ [الاحقاف: ١٥]، سبقت لإثبات منته
الوادة على الوالد، وفيها أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، ويسمى هذا النوع في أصول الحنفية بإشارة النص».

المُماراة : المُلَاجَعة؛ لأنَّ كُلَّ واحدٍ منهما يَمُرِّي ما عند صاحبه، ﴿لِنِى ضَلَّكِلِ بَعِيدٍ﴾ مِنَ الحَقِّ، لأنَّ قيامَ الساعَةِ غيرُ مُسْتَبَعِدٍ مِنْ قُدْرَةِ اللهِ، ولدلالةِ الكِتَابِ المُعْجِزِ على أنها آتِيَةٌ لا ريبَ فيها، ولشهادةِ العُقُولِ على أنه لا بُدَّ مِنْ دارٍ جِزَاءِ.

[﴿اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ ١٩]

﴿لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ بِرَّ بَلِغِ البِرِّ بِهِمْ، قد تَوَصَّلَ بِرُّهُ إلى جَمِيعِهِمْ، وتَوَصَّلَ مِنْ كُلِّ واحدٍ مِنْهُمْ إلى حيثُ لا يَبْلُغُهُ وَهُمْ أَحَدٌ مِنْ كُليَّاتِهِ وَجُزئِيَّاتِهِ.

الداعي إلى الحق والاستقامة إنما يَتِمُّ أمره في الدَّعوة إذا كان مُسْتَقِيمًا في نَفْسِهِ قال: ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾، وَفَصَّلَ الدَّعوة بقوله: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ إلى آخِرِهِ، ثم أتى بقوله: ﴿اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ الآية، على الاستئناف بياناً لحكمه المأمور به^(١)، وجعلها كالتخلُّص إلى ذِكْرِ عِنادِهِمْ، وهو استعجالهم الساعة، والله أعلم.

قوله: (لأنَّ كُلَّ واحدٍ منهما يَمُرِّي ما عند صاحبه): الأساس: «مارئته مُماراة: جادته ولا جنته، وتساؤوا، ومعناه: المُحالبة، كأنَّ كُلَّ واحدٍ يَحْلِبُ ما عند صاحبه».

الراغب: «المَرِيَّة: التَّرَدُّدُ في الأمر، وهو أَحْصُ مِنْ الشَّكِّ، قالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَّةٍ﴾ [الحج: ٥٥]، ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مَرِيَّةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ [السجدة: ٢٣]، والامتراء والمُماراة: المُحاجةُ فيما فيه مَرِيَّة، قالَ تعالى: ﴿قَوْلِكَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمَتُّونَ﴾ [مريم: ٣٤]، ﴿فَلَا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا مَرَأَةً ظَهَرَ﴾ [الكهف: ٢٢]، وأصلُ ذلكَ مِنْ: مَرَيْتُ الناقةَ؛ إذا مَسَحَتْ صَرَعَهَا لِلْحَلْبِ»^(٢).

قوله: (بِرَّ بَلِغِ البِرِّ بِهِمْ، قد تَوَصَّلَ بِرُّهُ إلى جَمِيعِهِمْ) إلى آخِرِهِ: وفي كُلِّ مِنَ القِيودِ فائدة: أما «بَرَّ»: فمُسْتَفادٌ مِنْ معنى «اللُّطْفُ»؛ الأساس: «لَطَّفْتُ بفلان: رَفَقْتُ بِهِ، وأنا أَلطُفُ بِهِ: إذا

(١) في (ح) و(ف): «بالحكمة بالمأمور به»، والمُثَبِّتُ مِنْ (ط).

(٢) «مفردات القرآن» ص ٧٦٦.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بعد توصل برّه إلى جميعهم؟ قلت: كلهم مبرورون، لا يخلو أحدٌ من برّه، إلا أن البرّ أصناف،

أرسته مودّة ورفقاً، وقوله: «بليغ البرّ»: فمن بناء «فَعِيل»، وقوله: «تَوَصَّلَ بِرّه إلى جميعهم»: فمن إضافة «العِبَادِ» - وهو جمعٌ - إلى ضمير «الله»، فيفيدُ الشُّمولَ والاستِغراقَ، وقوله: «وتَوَصَّلَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى حَيْثُ لَا يَبْلُغُهُ وَهُمْ أَحَدٌ»: فمأخوذٌ مِنْ معنى الدَّقَّةِ فِي اللُّطْفِ، الأساس: «شيءٌ لَطِيفٌ، وكلامٌ لَطِيفٌ، وفلانٌ لَطِيفٌ لاستِنباطِ المعاني، وتَلَطَّفْتُ بفلانٍ: احتَلْتُ له حتى اطلَعْتُ على أسرارِهِ».

والقولُ الجامعُ فيه: ما ذكره حُجَّةُ الإسلامِ في «شرح أسماء الله الحسنى»: «إنما يَسْتَحِقُّ هذا الاسمَ مَنْ يَعْلَمُ دَقَائِقَ المَصَالِحِ وَغَوَامِضِهَا، وَمَا دَقَّ مِنْهَا وَمَا لَطَّفَ، ثُمَّ يَسْأَلُكَ فِي إِصْطِحَاقِهَا إِلَى المُسْتَصْلِحِ عَلَى سَبِيلِ الرِّفْقِ دُونَ العُنْفِ، فَإِذَا اجْتَمَعَ الرِّفْقُ فِي الفِعْلِ، وَاللُّطْفُ فِي الإدْرَاكِ، تَمَّ معنى «اللَطِيفِ»، وَلَا يُتَصَوَّرُ كَمَا لَدِكْ إِلَّا فِي الله عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

وقال الإمام: «اللهُ لَطِيفُ البرِّ، يُظْهِرُ آثارَ برِّهِ فِي عِبَادِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، وَيُضِي مَصَالِحَهُمْ بِإِحْسَانِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ»^(٢).

فمعنى قولِ المصنّف: «تَوَصَّلَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ»: تَوَصَّلَ بِرّه مُبْتَدِئاً مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى حَيْثُ لَا يَبْلُغُهُ وَهُمْ أَحَدٌ، وقوله: «مِنْ كَلِمَاتِهِ وَجُزْئِيَّاتِهِ»: حَالٌ مِنَ المَسْتَبْرِ فِي «تَوَصَّلَ».

الجوهري: «تَوَصَّلَ إِلَيْهِ: أَي: تَلَطَّفَ فِي الوُصُولِ إِلَيْهِ».

قوله: (ما معنى قوله: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾؟): يعني: دَلَّ قَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ أَنَّ بِرّه تَوَصَّلَ إِلَى جَمِيعِ العِبَادِ، وقوله: ﴿يَرْزُقُ﴾ حُكْمٌ تَرْتَبُ عَلَى ذَلِكَ الوَصْفِ، فَيَنْبَغِي الشُّمُولُ أَيْضاً، وقوله: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ يُنَافِيهِ.

(١) «المقصد الأسنى» للغزالي ص ١٠١.

(٢) «شرح أسماء الله الحسنى» للرازي ص ٢٥٣.

وأجاب بما لخصه صاحب «التقريب»: «إنما خصَّ الرِّزْقَ، والكُلَّ مَرزُوقون؛ لأنه قد يَخْتَصُّ أحدُ بِنِعْمَةٍ، وغيره بأخرى، فالعمومُ لِجِنْسِ البِرِّ، والخصوصُ لِنَوْعِهِ». وقال الإمام: «أصلُ الإحسانِ والبِرِّ عامٌّ في حَقِّ كُلِّ العبادِ بِحَسَبِ الحِياةِ والعَقْلِ والفَهْمِ والمالِ والوَالِدِ والجاهِ، وإعطاء ما لا بُدَّ منه مِنَ الرِّزْقِ، ودَفْعُ أَكثَرِ الآفاتِ والبِليَّاتِ، وأما مراتبُ العَطِيَّةِ^(١) فمُتفاوتةٌ مُختلفةٌ»^(٢). وقال الواحدي: «اللهُ لَطِيفٌ حَفِيٌّ بَارٌّ رَفِيقٌ بأولِيائِهِ وأهلِ طاعَتِهِ. وقال مُقاتِل: لَطِيفٌ بالبِرِّ والفاجرِ، لا يَهْلِكُهُم جُوعاً، يَدُلُّ على هذا قولُهُ: ﴿بِرِّزْقٍ مِّنْ يَشَاءُ﴾، فَكُلُّ مَنْ يَرِزُقُهُ اللهُ مِنْ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ وَذِي رُوحٍ، فَهُوَ مِمَّنْ يَشَاءُ اللهُ أَنْ يَرِزُقَهُ»^(٣).

وقلت: كأنَّ الظاهرَ مَعَ الواحدي، وعليه يَنْتَظِمُ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ وَيَلْتَمِمْ ما قبلَهُ - وهو حديثُ القيامةِ - بما بعده مِنْ قولِهِ: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ﴾ الآية، وتقريرُ ذلك: أَنَّ حَمَلَ «عبادِهِ» على مَنْ حَصَّه اللهُ بالكرامةِ، وَجَعَلَهُمْ مِنْ أولِيائِهِ مِنَ المُؤْمِنِينَ، لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية: هو الظاهرُ؛ لأنَّ الإضافةَ إضافةً تشريفٍ، وعليه أَكثَرُ استعمالِ التنزِيلِ^(٤)، منها قولُهُ: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ [الفجر: ٢٩]، ومنها: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، ومنها قولُهُ في هذه السُّورة الكريمة: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الشورى: ٢٣]، وقولُهُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٦]، وقولُهُ: ﴿وَلَكِنَّ

(١) في الأصول الخطية: «الغَيْطَةُ»، والمُنْبَت من «تفسير الرازي».

(٢) «مفاتيح الغيب» للرازي (٢٧: ٥٩٠).

(٣) «الوسيط» للواحدي (٤: ٤٨-٤٩).

(٤) قَبِدَ ذلك بالأكثر؛ لِمَا ورد في بعض الآيات من استعمال لفظِ «العباد» في غير المُؤْمِنِينَ، كقولِهِ تعالى: ﴿مَنْ أَنْتُمْ أَصَلَّيْتُمْ عِبَادِي هُنَّ لَكَ﴾ [الفرقان: ١٧]، وقولِهِ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَانَ رِزْقُكَ يُدْنُوهُ عِبَادِيهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧]، وقولِهِ: ﴿يَحْضَرَةُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠]، وكذا قولُهُ: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَيْنَا بِمِثْلَ مَا عَلَيْنَا عِبَادَ لَنَا أُوَّلَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٥٠]، على قولٍ في تفسيرها.

جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴿ [الشورى: ٥٢]، وقوله: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الشورى: ٢٧]، فيَحْمَلُ اللُّطْفُ عَلَى مَنَحِ الْهِدَايَةِ وَتَوْفِيقِ الطَّاعَةِ، وَعَلَى الْكِمَالَاتِ الْأُخْرَوِيَّةِ، وَالْكَرَامَاتِ السَّنِّيَّةِ، وَاسْتِعْمَالِ الرِّزْقِ فِي ذَلِكَ كَاسْتِعْمَالِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور: ٣٨].

وَيَعُضِدُهُ مَا رَوَاهُ السُّلَمِيُّ عَنْ سَيِّدِ الطَّائِفَةِ^(١) قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ: اللُّطِيفُ: «مَنْ نَوَّرَ قَلْبَكَ بِالهُدَى، وَرَبَّى جِسْمَكَ بِالغِذَاءِ، وَأَخْرَجَكَ مِنَ الدُّنْيَا بِالْإِيْمَانِ، وَبَحْرُسَكَ مِنْ نَارِ اللَّطْفِ، وَيُمْكِّنُكَ حَتَّى تَنْظُرَ وَتَرَى، هَذَا لُطْفُ اللُّطِيفِ، بِالْعَبْدِ الضَّعِيفِ»، تَمَّ كَلَامُهُ.

فَيَنْطَبِقُ عَلَى هَذَا تَرْتُّبُ الْحُكْمِ عَلَى الْوَصْفِ، أَي: إِنَّهُ إِنَّمَا يَلُطَّفُ فِي حَقِّ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ دُونَ الَّذِينَ غَضِبَ عَلَيْهِمْ بِمُخْصِ مَشِيئَتِهِ؛ لِأَنَّهُ قَوِيٌّ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْتَصَّ بِرَحْمَتِهِ وَكَرَامَتِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، عَزِيزٌ غَالِبٌ لَا يَمْنَعُهُ عَمَّا يُرِيدُهُ أَحَدٌ، كَمَا قَالَ: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥]، فَيَكُونُ وَزَانُ الْآيَةِ مَعَ قَوْلِهِ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرَتَ الْآخِرَةِ زِدْ لَهُ فِي حَرَّتِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرَتَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾، وَزَانُ قَوْلِهِ: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس: ٧-٨] مَعَ قَوْلِهِ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩-١٠].

وَحِينَئِذٍ لَا يَرِدُ هَذَا السُّؤَالُ الَّذِي ذَكَرَهُ، وَلَا مَا أوردَهُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يَرْزُقُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٧]، وَهُوَ: «قَدْ تَرَى النَّاسَ يَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَمِنْهُمْ مَبْسُوطٌ لَهُمْ، وَمِنْهُمْ مَقْبُوضٌ عَنْهُمْ، فَإِنْ كَانَ الْمَبْسُوطُ لَهُمْ يَبْغُونَ، فَلِمَ يُبْسَطُ لَهُمْ؟ وَإِنْ كَانَ الْمَقْبُوضُ عَنْهُمْ يَبْغُونَ، فَقَدْ يَكُونُ الْبَغْيُ بِلَدُونِ الْبَسْطِ...»، لِأَنَّ هَذَا - كَمَا مَرَّ - فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُصْطَفَيْنَ مِنْ عِبَادِهِ، وَيَنْصُرُهُ التَّنْذِيلُ بِقَوْلِهِ: ﴿ إِنَّهُ

(١) يعني: الإمام العارف أبو القاسم الجُنَيْدَ بنَ مُحَمَّدٍ، الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٢٩٧، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

وله أوصاف، والقِسْمَةُ بَيْنَ الْعِبَادِ تَتَفَاوَتْ عَلَى حَسَبِ تَفَاوُتِ قَضَايَا الْحِكْمَةِ وَالتَّوْبِيرِ، فَيَطِيرُ لِبَعْضِ الْعِبَادِ صِنْفٌ مِنَ الْبِرِّ لَمْ يَطِيرْ مِثْلُهُ لِآخِرٍ، وَيُصِيبُ هَذَا حَظًّا لَهُ وَصُفٌّ لَيْسَ ذَلِكَ الْوَصْفُ لِحَظِّ صَاحِبِهِ، فَمَنْ قُسِمَ لَهُ مِنْهُمْ مَا لَمْ يُقَسِّمْ لِلْآخِرِ فَقَدْ رَزَقَهُ، وَهُوَ الَّذِي أَرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾، كَمَا يَرْزُقُ أَحَدَ الْأَخْوَيْنِ وَلَدًا دُونَ الْآخَرَ، عَلَى أَنَّهُ أَصَابَهُ بِنِعْمَةٍ أُخْرَى لَمْ يَرْزُقْهَا صَاحِبُ الْوَلَدِ.

﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ الْبَاهِرُ الْقُدْرَةَ الْغَالِبُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، ﴿الْعَزِيزُ﴾ الْمَنِيْعُ الَّذِي لَا يُغْلَبُ.

بِعِبَادِهِ، خَيْرٌ بَصِيرٌ ﴿[الشورى: ٢٧]، وَوَضِعُ الْمُظْهَرِ - وَهُوَ ﴿بِعِبَادِهِ﴾ - مَوْضِعُ الْمَضْمَرِ (١)، أَي: إِنَّهُ خَيْرٌ بِأَحْوَالِ عِبَادِهِ الْمُكْرَمِينَ، بَصِيرٌ بِمَا يُصْلِحُهُمْ وَمَا يُرْدِيهِمْ، وَإِلَيْهِ يَنْظُرُ مَا وَرَدَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا حَمَاهُ الدُّنْيَا، كَمَا يَنْظُرُ أَحَدُكُمْ يَحْمِي سَقِيمَةَ الْمَاءِ»، أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢) عَنْ قَتَادَةَ.

وَعَنِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ (٣) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزَيْتِنِهَا».

قَوْلُهُ: (فَيَطِيرُ لِبَعْضِ الْعِبَادِ): اسْتَعَارَ لِلنَّصِيبِ وَإِصَابَتِهِ لِمَنْ قُدِّرَ لَهُ: الطَّيْرَانُ سَانِحًا وَبَارِحًا (٤)، فَسَلَّكَ بِهِمْ مَسَلَكَهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣].

(١) أَي: كَانَ الْأَصْلُ أَنْ يُقَالَ: «إِنَّهُمْ خَيْرٌ بَصِيرٌ»، لِتَقَدُّمِ ذِكْرِ «الْعِبَادِ» أَوَّلَ الْآيَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ سَظَّ أَلَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ﴾.

(٢) فِي «الْجَامِعَةِ» (٢٠٣٦) مِنْ حَدِيثِ قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) الْبُخَارِيُّ (١٤٦٥)، وَمُسْلِمٌ (١٠٥٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) تَحَرَّفَ فِي (ح) إِلَى: «سَانِحًا وَنَازِحًا» وَفِي (ف) إِلَى: «سَارِحًا وَبَارِحًا»، وَالْمُثَبَّتُ مِنْ (ط)، وَهُوَ الصَّوَابُ،

قَالَ الْعَلَامَةُ أَبُو مَنْظُورٍ فِي «لِسَانِ الْعَرَبِ» مَادَّةَ (بِرْح): «الْبَارِحُ: مَا مَرَّ مِنَ الطَّيْرِ وَالْوَحْشِ مِنْ يَمِينِكَ إِلَى

يَسَارِكَ، وَالْعَرَبُ تَطَيَّرُ بِهِ، وَالسَّانِحُ: مَا مَرَّ بَيْنَ يَدَيْكَ مِنْ جِهَةِ يَسَارِكَ إِلَى يَمِينِكَ، وَالْعَرَبُ تَتَيَّمَنُ بِهِ».

[﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ [٢٠]

سَمِيَ مَا يَعْمَلُهُ الْعَامِلُ مِمَّا يَبْغِي بِهِ الْفَائِدَةَ وَالزَّكَاةَ حَرْثًا عَلَى الْمَجَازِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ عَمَلِي الْعَامِلِينَ؛ بَأَنَّ مَنْ عَمِلَ لِلْآخِرَةِ وَوَقَّفَ فِي عَمَلِهِ، وَضَوِّعَتْ حَسَنَاتِهِ، وَمَنْ كَانَ عَمَلُهُ لِلدُّنْيَا أُعْطِيَ شَيْئًا مِنْهَا، لَا مَا يُرِيدُهُ وَيَبْتَغِيهِ، وَهُوَ رِزْقُهُ الَّذِي قُسِمَ لَهُ وَفُرِغَ مِنْهُ، وَمَا لَهُ نَصِيبٌ قَطُّ فِي الْآخِرَةِ. وَلَمْ يَذْكُرْ فِي مَعْنَى عَامِلِ الْآخِرَةِ: وَلَهُ فِي الدُّنْيَا نَصِيبٌ، عَلَى أَنَّ رِزْقَهُ الْمَقْسُومَ لَهُ وَاصِلٌ إِلَيْهِ لَا مَحَالَةَ؛ لِلْإِسْتِهَانَةِ بِذَلِكَ إِلَى جَنْبِ مَا هُوَ بِصَدَدِهِ مِنْ زَكَاةِ عَمَلِهِ، وَفَوْزِهِ فِي الْمَأْبُوتِ.

[﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [٢١]

مَعْنَى الْهَمْزَةِ فِي ﴿ أَمْ ﴾: التَّقْرِيرُ وَالتَّقْرِيعُ، وَشُرَكَاءُ هُمْ: شَيَاطِينُهُمُ الَّذِينَ زَيَّنُوا لَهُمُ الشُّرْكَ وَانْكَارَ الْبَعْثِ وَالْعَمَلَ لِلدُّنْيَا،

قَوْلُهُ: (وَمَا لَهُ نَصِيبٌ قَطُّ): هَذِهِ الْمُبَالَغَةُ نَشَأَتْ مِنْ أَنَّ «نَصِيبًا» نَكْرَةٌ، وَقَدْ نُفِيتَ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِغْرَاقِ.

قَوْلُهُ: (مَعْنَى الْهَمْزَةِ فِي ﴿ أَمْ ﴾: التَّقْرِيرُ وَالتَّقْرِيعُ): يُرِيدُ: أَنَّ ﴿ أَمْ ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾ مُنْقَطِعَةٌ، فِيهَا مَعْنَى: «بَل» وَالْهَمْزَةُ، وَلَا بُدَّ مِنْ سَبْقِ كَلَامِ إِخْبَارٍ أَوْ إِنْشَاءٍ يُضْرَبُ عَنْهُ، حَتَّى يُقَرَّرَ مَا بَعْدَهُ، وَمَا سَبَقَ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾ [الشورى: ١٣]، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «هُوَ الدِّينُ الَّذِي شَرَعَتْ لَهُمُ الشَّيَاطِينُ»، سَمَّاهُ دِينًا مُشَاكَلَةً أَوْ تَهَكُّمًا، أَي: أَتَى عَلَيْهِمْ مَا شَرَعَ لَهُمْ مِنَ الدِّينِ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ، وَوَصَّى بِهِ الْأَنْبِيَاءَ الْمُتَقَدِّمَةَ، وَأَذَنَ بِالْتَّمَسُّكِ بِهِ، وَقَرَّرَهُمْ - عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيعِ - مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ الَّذِي شَرَعَتْ لَهُمُ الشَّيَاطِينُ.

لأنهم لا يعلمون غيرها، وهو الدين الذي سَرَعَتْ لَهُمُ الشياطين، وتعالى الله عن الإذن فيه والأمر به، وقيل: سُرَكَؤُهُم: أوثانهم، وإنما أُضِيفَتْ إليهم لأنهم مُتَّخِذُوها سُرَكَاءَ الله، فتارة تُضَافُ إليهم لهذه المَلَابَسَةِ، وتارة إلى الله، ولَمَّا كَانَتْ سَبَبًا لِضَلَالَتِهِمْ وَافْتِنَانِهِمْ جُعِلَتْ شَارِعَةً لِذِيَنِ الكُفْرِ، كما قَالَ إِبْرَاهِيمُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ: ﴿إِنِّي أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ أي: القضاء السابق بتأجيل الجزاء، أو: ولولا العِدَّةُ بَأَنَّ الْفَصْلَ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الكافرين والمؤمنين، أو بين المشركين وسُرَكَائِهِمْ.

وقرأ مُسْلِمٌ بِنُ جُنْدُبٍ: «وَأَنَّ الظَّالِمِينَ» بِالْفَتْحِ؛ عَطْفًا لَهُ عَلَى ﴿كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾، يعني: ولولا كلمة الْفَصْلِ وتقديرُ تعذيبِ الظالمين في الآخرة، لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرَفْ حَسَنَةً نَّرِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [٢٣-٢٢]

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ في الآخرة، ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين خوفًا شديدًا أَرَقَ قُلُوبَهُمْ، ..

قوله: (عطفًا له على ﴿كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾): و«الكلمة»: فُسِّرَ أَوَّلًا بِالْقَضَاءِ السَّابِقِ، فالمعنى: لولا القضاء والقَدْرُ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ، والفرقُ بَيْنَ الْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ قد مضى بيانه (١)، وفُسِّرَ ثَانِيًا بِالْعِدَّةِ بَأَنَّ الْفَصْلَ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فالمعنى: لولا العِدَّةُ وتقديرُ التعذيب، فالعطفُ قَرِيبٌ مِّنَ الْعَطْفِ الْبَيِّنِيِّ بِالْوَاوِ.

قوله: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ في الآخرة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين خوفًا شديدًا: فإن

(١) في مواضع، من ذلك ما تقدّم في تفسير الآية ٩٧ من سورة يونس (٧: ٥٦٩).

﴿مَمَّا كَسَبُوا﴾ مِنَ السَّيِّئَاتِ، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ يُرِيدُ: وَوَبَالَهُ وَاقِعٌ بِهِمْ وَوَاوَصِلُ إِلَيْهِمْ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ، أَشْفَقُوا أَوْ لَمْ يُشْفَقُوا. كَأَنَّ رَوْضَةَ جَنَّةِ الْمُؤْمِنِ أَطْيَبُ بُقْعَةً فِيهَا، وَأَنْزَهُهَا. ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ مَنْصُوبٌ بِالظَّرْفِ، لَا بِ﴿يَشَاءُونَ﴾.

قلت: إِذَا كَانَ مَعْنَى الْخَوْفِ: عَمٌّ^(١) يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ لِتَوَقُّعِ مَكْرُوهِ، فَكَيْفَ الْجَمْعُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾؟ قلت: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ اسْتِحْضَارٌ لِصُورَةِ حَالِ الظَّالِمِينَ فِي مُشَاهَدَةِ السَّامِعِ؛ لِيَنْظُرَ إِلَى تِلْكَ الْحَالَةِ الْعَجِيبَةِ الشَّانِ، وَهُوَ أَنَّهُمْ خَائِفُونَ مُشْفِقُونَ يَجَاوِلُونَ الْحَذَرَ حِينَ لَا يَنْفَعُهُمُ الْحَذَرُ، لِأَنَّ الْخَائِفَ إِذَا اسْتَشَعَرَ بِهَا يَتَوَقَّعُ مِنْهُ الْمَكْرُوهُ، وَأَخَذَ فِي الدَّفْعِ؛ رِيَاءً تَخَلَّصَ مِنْهُ، وَمَنْ تَرَكَ الْحَذَرَ حَتَّى إِذَا أَلَمَّ بِهِ الْمَحْذُورُ زَاوَلَ الدَّفْعَ؛ كَانَ مَظَنَّةً لِلتَّعَجُّبِ مِنْهُ وَالتَّعَجُّبِ، وَإِلَيْهِ يَنْظُرُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

أَنْتَ وَحِيَاضُ الْمَوْتِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَجَادَتْ بَوْضِلٍ حِينَ لَا يَنْفَعُ الْوَضْلُ

وهو المراد بقوله: «لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ، أَشْفَقُوا أَوْ لَمْ يُشْفَقُوا».

قوله: (كَأَنَّ رَوْضَةَ جَنَّةِ الْمُؤْمِنِ أَطْيَبُ بُقْعَةً فِيهَا): لِأَنَّ الْإِضَافَةَ تُنْبِئُ عَنِ امْتِيَازِ الرَّوْضَةِ عَنِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ تَعْقِيبُهَا بِقَوْلِهِ: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وَإِرْدَافُهَا بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ يُشْعِرُ بِمَزِيدِ ذَلِكَ الْامْتِيَازِ.

قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ مَنْصُوبٌ بِالظَّرْفِ لَا بِ﴿يَشَاءُونَ﴾: عَنِ بَعْضِهِمْ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى: عَلَى أَنَّ مَا يُزِيدُونَهُ عَلَى سَبِيلِ الْعُمُومِ مُطْلَقًا كَأَنَّ مَا كَانَ حَاصِلًا لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، أَي: حَاصِلٌ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ، وَلَوْ نُصِبَ بِ﴿يَشَاءُونَ﴾ تَصْيِيرُ مَشِيئَتِهِمْ مُقَيَّدَةً بِ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، فَلَا يَبْقَى الْعُمُومُ فِيهَا يُرِيدُونَ، وَيَحْتَمِلُ ذَلِكَ حُصُولَ ذَلِكَ عِنْدَ غَيْرِ رَبِّهِمْ، وَهُوَ عَكْسُ الْمَعْنَى.

وقلت: لَا رَيْبَ أَنَّ أَهْلَ السَّعَادَةِ صِنْفَانِ: الْمُقَرَّبُونَ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ، فَإِذَا أُرِيدَ بِأَوْلِيكَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ كَانَ عَلَى مَا قِيلَ، وَأَمَّا إِذَا أُرِيدَ بِهِ الْمُقَرَّبُونَ فَلَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ فِي جَنَّتِ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقَدَّرٍ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

(١) كَذَا فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ؛ بِالرَّفْعِ، وَيَصِحُّ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ فِي اسْمِ «كَانَ» وَخَبَرِهَا.

وروينا عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لِيَرَاهُمْ مَنْ تَحْتَهُمْ، كَمَا تَرَوْنَ النَّجْمَ الطَّالِعَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ مِنْهُمْ، وَأَنْعَمًا»، أخرجه أبو داود والترمذي^(١).

وفي «الجامع»: «أَنْعَمَ فُلَانٌ النَّظَرَ فِي الْأَمْرِ: إِذَا بَالَعَ فِي تَدْبِيرِهِ وَالْفِكْرِ فِيهِ وَزَادَ فِيهِ، وَأَحْسَنَ فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ وَأَنْعَمَ؛ أَي: أَفْضَلَ وَزَادَ فِي الْإِحْسَانِ، وَكَذَا هَذَا، أَي: هُمَا مِنْهُمْ، وَزَادَ فِي هَذَا الْأَمْرِ، وَتَنَاهَيَا فِيهِ إِلَى غَايَتِهِ»^(٢).

وقلت: لَعَلَّهُ مَأْخُودٌ مِنَ النُّعُومَةِ، قَالَ فِي «الْأَسَاسِ»: «دَقَّهَ دَقًّا نِعَمًا، وَأَنْعَمَ دَقَّهُ، فَإِذَا عَمِلْتَ عَمَلًا فَأَنْعِمْتَهُ: فَأَجِدْهُ، وَأَحْسَنَ فُلَانٌ وَأَنْعَمَ: وَأَجَادَ وَزَادَ عَلَى الْإِحْسَانِ»، فَمَعْنَى: أَنْعَمَ النَّظَرَ: أَدَقُّ، فَلَا يُذْهَبُ إِذْنٌ إِلَى الْعَمَلِ بِالْمَفْهُومِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الْمُضْتَفَقَةَ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

وفي تخصيص ﴿رَوْضَاتٍ﴾ - كما قال: «كَأَنَّ رَوْضَةَ جَنَّةِ الْمُؤْمِنِ أَطْيَبُ بُقْعَةٍ فِيهَا وَأَنْزَهُهَا» -: إِيهَاءٌ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى. وَقَالَ فِي «فَاطِرٍ»^(٣): «وَقُرِيءَ «جَنَّةُ عَدْنٍ» عَلَى الْإِفْرَادِ، كَأَنَّهَا جَنَّةٌ مُخْتَصَّةٌ بِالسَّابِقِينَ»، وَلِذَلِكَ عَقَّبَ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَيِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ﴾، أَي: أَوْلِيَائِهِ - كَمَا مَرَّ مِرَارًا - ، وَيَحْصُلُ مِنْ هَذَا التَّقْدِيرِ قُرْبُ الْمَعْمُولِ مِنْ عَامِلِهِ، وَمَعْنَى الْقُرْبِ وَالزُّلْفَى عِنْدَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْعَامِلِينَ، وَالْجُمْلَةُ خَبَرٌ ثَانٍ لِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وفي «الكواشي»: الْوَقْفُ الْكَافِي عَلَى ﴿الْجَنَاتِ﴾. ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾ جُمْلَةٌ مِنْ مُبْتَدَأٍ وَخَبَرٍ، فَعَلَى هَذَا تَكُونُ الْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةً.

(١) أبو داود (٣٩٨٧)، والترمذي (٣٦٥٨). وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٩٦).

(٢) «جامع الأصول» لابن الأثير (٨: ٦٢٧).

(٣) أي: قال الزمخشري في تفسير الآية ٣٣ من سورة فاطر (١٢: ٦٥٩).

قُرِي: ﴿بَيِّشُرُ﴾ من: بَشَّرَهُ، و«يُيَشِّرُ» من: أَبَشَّرَهُ، و«يَيْشُرُ» من: بَشَّرَهُ، والأصل: ذلك الثواب الذي يُيَشِّرُ اللهُ به عِبَادَهُ، فَحَذَفَ الجَارَ، كقوله تعالى: ﴿وَإِخْرَاجَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، ثم حَذَفَ الرَّاجِعَ إِلَى المَوْصُولِ، كقوله تعالى: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]، أو: ذلك التبشير الذي يُيَشِّرُهُ اللهُ عِبَادَهُ.

رُوي: أنه اجْتَمَعَ المُشْرِكُونَ فِي مَجْمَعٍ لَهُمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَتَرُونَ مُحَمَّدًا يَسْأَلُ عَلِيًّا مَا يَتَعَاطَاهُ أَجْرًا؟ فَتَزَلَّتِ الآيَةُ.

﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ يجوزُ أن يَكُونَ اسْتِثْنَاءً مُتَّصِلًا، أَي: لَا أَسْأَلُكُمْ أَجْرًا إِلَّا هَذَا، وَهُوَ أَنْ تَوَدُّوا أَهْلَ قُرَابَتِي، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا أَجْرًا فِي الْحَقِيقَةِ، لِأَنَّ قُرَابَتَهُ قُرَابَتُهُمْ، فَكَانَتْ صِلَتُهُمْ لَازِمَةً لَهُمْ فِي الْمُرُوءَةِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُنْقَطِعًا، أَي: لَا أَسْأَلُكُمْ أَجْرًا قَطًّا، وَلَكِنِّي أَسْأَلُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا قُرَابَتِي الَّذِينَ هُمْ قُرَابَتُكُمْ وَلَا تَوَدُّوهُمْ.

فإن قلت: هَلَّا قِيلَ: إِلَّا مَوَدَّةَ الْقُرْبَى، أَوْ: إِلَّا الْمَوَدَّةَ لِلْقُرْبَى؟ وَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؟ قلت: جُعِلُوا مَكَانًا لِلْمَوَدَّةِ وَمَقَرَّأَهَا،

قوله: (قُرِي: ﴿بَيِّشُرُ﴾): نافعٌ وعاصمٌ وابنُ عامرٍ: ﴿بَيِّشُرُ﴾ بِضَمِّ البَاءِ وَقَتْحِ البَاءِ وَكَسْرِ الشَّيْنِ مُشَدَّدَةً، وَالباقونَ: بِفَتْحِ البَاءِ وَإِسْكَانِ البَاءِ وَضَمِّ الشَّيْنِ مُخَفَّفَةً^(١). رُوي أَنَّهُ قَالَ: المُتَعَدِّي ثَلَاثَةٌ، وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَ فِي المَتْنِ، وَالمُطَاوَعُ خَمْسَةٌ: بَشَّرَ^(٢) وَأَبَشَّرَ^(٣) وَتَبَشَّرَ وَاسْتَبَشَّرَ. قوله: (ذلك الثواب الذي يُيَشِّرُ اللهُ به عِبَادَهُ): المُشَارُ إِلَيْهِ ﴿رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ الآيَةُ.

قوله: (أو: ذلك التبشير): فَالمُشَارُ إِلَيْهِ: «الَّذِي يُيَشِّرُهُ»، نَحْوُ: هَذَا أَخْوَلُكَ، وَالعَائِدُ إِلَى المَوْصُولِ أَيْضًا مَحذُوفٌ، وَلَكِنْ لَا يُقَدَّرُ الجَارُ.

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٥، و«حجة القراءات» ص ٦٤١.

(٢) أي: بَشَّرَ وَبَشَّرَ، كَمَا فِي مَعَاجِمِ اللُّغَةِ، وَإِلَّا فَالمَذْكُورُ أَرْبَعَةٌ لَا خَمْسَةَ.

(٣) زاد في (ط) هنا: «وبشّر»، وَضَبَطَتْ بِتَشْدِيدِ الشَّيْنِ، وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ، فَالمُشَدَّدُ مِنَ المَتَعَدِّي لَا مِنَ المَطَاوَعِ.

كقولك: لي في آل فلان مودة، ولي فيهم هوى وحُبٌّ شديد، تُريد: أُحِبُّهُمْ وهم مكان حُبِّي ومحله، وليست ﴿في﴾ بصلة للمودة، كاللام إذا قلت: إلا المودة للقُرْبى، إنها هي مُتعلِّقة بمحذوفٍ تَعَلَّقَ الظَّرْفُ به في قولك: المال في الكيس، وتقديره: إلا المودة ثابتة في القُرْبى ومُتمكِّنة فيها.

و«القُرْبى»: مصدر، كالزُّلفى والبُشرى، بمعنى: قرابة، والمراد: في أهل القُرْبى، ورُوي: أنها لما نزلت قيل: يا رسول الله، مَنْ قرابتك هؤلاء الذين وَجَبَتْ علينا مودتهم؟ قال: «عليٌّ وفاطمةُ وابناهما». ويدلُّ عليه ما رُوي عن عليٍّ رضي الله عنه: سَكَوتُ إلى رسولِ الله ﷺ حَسَدَ النَّاسِ لي، فقال: «أما ترضى أن تكونَ رابعُ أربعة؟ أوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أنا وأنتَ والحسنُ والحسين، وأزواجنا عن أيماننا وشهائنا، ودُرَيْتُنَا خَلْفَ أَزْوَاجِنَا»، وعن النَّبِيِّ ﷺ: «حُرِّمَتِ الْجَنَّةُ عَلَيَّ مَنْ ظَلَمَ أَهْلَ بَيْتِي، وَأَذَانِي فِي عِترتي، وَمَنْ اصْطَنَعَ صَنِيعَةً إِلَى أَحَدٍ مِنْ وَلَدِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَلَمْ يُجَازِهِ عَلَيْهَا، فَأَنَا أُجَازِيهِ عَلَيْهَا غَدًا إِذَا لَقَيْتَنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

ورُوي: «أَنَّ الْأَنْصَارَ قَالُوا: فَعَلْنَا وَفَعَلْنَا، كَأَنَّهُمْ افْتَحَرُوا، فَقَالَ عَبَّاسٌ - أَوْ ابْنُ عَبَّاسٍ -: لَنَا الْفَضْلُ عَلَيْكُمْ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَاهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ،

قوله: (وليست ﴿في﴾ بصلة): أي: ﴿فِي الْقُرْبَى﴾ ليس بظرف لغو، بل هو ظرفٌ مُستَقَرٌّ حَالٌ مِنَ الْمَوَدَّةِ ﴿، وَفِيهَا﴾ مُبالغة.

قوله: (أن تكونَ رابعُ أربعة): عن بعضهم: رابعُ أربعة^(١)، أي: واحدُ أربعة، قال: رابعُ الثلاثة: غيرُها، وهو الذي رَبَعَهُمْ، أي: كَمَّلَهُمْ أربعة. ورابعُ أربعة: أحدهم، كقوله تعالى: ﴿ثَافِتٍ أَتَيْنِ﴾ [التوبة: ٤٠] ^(٢).

(١) قوله: «عن بعضهم: رابعُ أربعة» سقط من (ف).

(٢) زاد في (ح) و(ف) هنا: «ثان ثلاثة!» وفي (ط): «ثالث ثلاثة!»

فقال: يا معشر الأنصار، ألم تكونوا أذلةً فأعزكم الله بي؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ألم تكونوا ضللاً فهداكم الله بي؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «أفلا تُجيبونني؟ قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: ألا تقولون: ألم يُخرِجك قومك فأويناك؟ أو لم يكذبوك فصدقناك؟ أو لم يخذلوك فنصرناك؟ قال: فما زال يقول حتى جثوا على الركب، وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لله ولرسوله، فنزلت الآية».

قوله: (يا معشر الأنصار، ألم تكونوا أذلةً فأعزكم الله) الحديث: من رواية البخاري ومسلم^(١) عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال: «إن رسول الله ﷺ لَمَّا فَتَحَ حُنَيْنًا قَسَمَ الْغَنَائِمَ، فَأَعْطَى الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ، فَبَلَغَهُ أَنَّ الْأَنْصَارَ يُحِبُّونَ أَنْ يُصَيَّبُوا مِثْلَ مَا أَصَابَ النَّاسَ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُهُمْ، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَمُتَفَرِّقِينَ فَجَمَعَكُمْ اللَّهُ بِي؟ وَيَقُولُونَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنَ^(٢)، فقال: ألا تُجيبونني؟ فقالوا: الله ورسوله آمن، قال: أما إنكم لو شئتم أن تقولوا: جئنا طريداً فأويناك، وشريداً فنصرناك، وكان من الأمر كذا وكذا»، الحديث.

وأما شكاية العباس إلى رسول الله ﷺ: فهو ما روى الترمذي^(٣) عن علي رضي الله عنه: «أن العباس دخل على رسول الله ﷺ مُغْضَبًا، فقال له رسول الله ﷺ: ما أغضبك؟ فقال: يا رسول الله، أرى قوماً من قريش يتلاقون بينهم بوجوه مسفرة، فإذا لقونا لقونا بغير ذلك، فغضب رسول الله ﷺ حتى احمر وجهه، وقال: والذي نفسي بيده، لا يدخل قلب رجل إيمان حتى يحبكم الله ورسوله، ثم قال: أيها الناس، من أذى عمي فقد أذاني، فإنما عم الرجل صنو^(٤) أبيه».

(١) البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

(٢) قوله: «أمن» - هنا وفيها سياقي بعد كلمات - تحرف في (ح) و(ف) إلى: «أمر».

(٣) في «جامعه» برقم (٣٧٥٨).

(٤) الصنو: المثل، وأصله: أن تطلع نخلتان من عرق واحد، يُريد: أن أصل العباس وأصل أبي واحد، وهو مثل أبي. قاله ابن الأثير في «النهاية»، مادة (صنو).

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ شَهِيداً، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ مَغْفُوراً لَهُ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ تَائِباً، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ مُؤْمِناً مُسْتَكْمِلاً الْإِيْمَانَ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ بَشَرَهُ مَلَكَ الْمَوْتِ بِالْجَنَّةِ، ثُمَّ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ يُرْفُ إِلَى الْجَنَّةِ كَمَا تُرْفُ الْعَرُوسُ إِلَى بَيْتِ زَوْجِهَا، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ فَتُحَّحَ لَهُ فِي قَبْرِهِ بَابَانِ إِلَى الْجَنَّةِ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ جَعَلَ اللَّهُ قَبْرَهُ مَرَارَ مَلَائِكَةِ الرَّحْمَةِ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ عَلَى السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ: آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ كَافِراً، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ لَمْ يَشَمَّ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ».

وقيل: لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ بَطُونِ قُرَيْشٍ إِلَّا وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَهُمْ قُرْبَى، فَلَمَّا كَذَّبُوهُ وَأَبَوْا أَنْ يُيَايِعُوهُ، نَزَلَتْ. وَالْمَعْنَى: إِلَّا أَنْ تَوَدُّونِي فِي الْقُرْبَى،

قوله: (يُرْفُ إِلَى الْجَنَّةِ)، النِّهَايَةُ: «رَفَقَتْ الْعَرُوسُ أَرْفُهَا؛ إِذَا أَهْدَيْتَهَا إِلَى زَوْجِهَا».

قوله: (مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ): عَنْ بَعْضِهِمْ: «بَيْنَ عَيْنَيْهِ»: خَبَرٌ مُقَدَّمٌ عَلَى الْمُبْتَدَأِ، وَ«مَكْتُوبٌ» مُبْتَدَأٌ، كَأَنَّهُ قَالَ: مَكْتُوبٌ «آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ» بَيْنَ عَيْنَيْهِ. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ سَهَوُ، بَلْ «بَيْنَ عَيْنَيْهِ» ظَرْفٌ «مَكْتُوبٌ»، وَ«مَكْتُوبٌ»: خَبَرٌ مُقَدَّمٌ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ «جَاءَ».

قوله: (وقيل: لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ [بَطُونِ] قُرَيْشٍ) إِلَى آخِرِهِ: يُوَافِقُهُ مَا رَوَيْنَا عَنْ الْبَخَارِيِّ (١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَلَمُودَةَ فِي الْقُرَيْشِ﴾، فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: قُرْبَى آلِ مُحَمَّدٍ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَجَلْتُ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا كَانَ لَهُ فِيهِمْ قَرَابَةٌ، فَقَالَ: إِلَّا أَنْ تَصِلُوا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ».

(١) فِي «صَحِيحِهِ» (٤٨١٨).

أي: في حَقِّ الْقُرْبَىٰ أَوْ مِنْ أَجْلِهَا، كما تقول: الحُبُّ في الله والبُغْضُ في الله، بمعنى: في حَقِّهِ وَمِنْ أَجْلِهِ، يعني: أنكم قومي وأحقُّ مَنْ أَجَابَنِي وَأَطَاعَنِي، فإذا قد أُبِيْتُمْ ذَلِكَ فاحفظوا حَقَّ الْقُرْبَىٰ، وَلَا تُؤْذُونِي وَلَا تُهَيِّجُوا عَلَيَّ.

وقيل: أتت الأنصارُ رسولَ الله ﷺ بهالِ جَمْعِهِ، وقالوا: يا رسولَ الله، قد هدانا الله بك، وأنت ابنُ أُخْتِنَا، وتَعَرُّوكَ نَوَائِبُ وَحَقُوقٌ، وما لَكَ سَعَةٌ، فاستَعِنَ بهذا على ما يَتَوَبُّوكَ، فنزلت، وردَّه.

وقيل: ﴿الْقُرْبَىٰ﴾: التَقَرُّبُ إلى الله تعالى، أي: إلا أن تُحِبُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ في تَقَرُّبِكُمْ إليه بِالطَّاعَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ. وقرئ: «إِلَّا مَوَدَّةً فِي الْقُرْبَىٰ».

﴿وَمَنْ يَفْتَرِفْ حَسَنَةً﴾: عن السُّدِّيِّ: أنها المودَّةُ في آلِ رسولِ الله ﷺ، نزلت في أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه ومودَّتهِ فيهم، والظاهرُ العُمومُ في أيِّ حَسَنَةٍ كانت، إلا أنها لَمَّا ذُكِرَتْ عَقِبَ ذِكْرِ المودَّةِ في الْقُرْبَىٰ؛ دَلَّ ذَلِكَ على أنها تناولتِ المودَّةَ تناوِلاً أَوْلِيَاءَ، كأنَّ سائرَ الحَسَنَاتِ لها تَوَابِعٌ.

قوله: (وَأنتَ ابْنُ أُخْتِنَا): لَأَنَّ أَمَنَةَ أُمِّ رسولِ الله ﷺ كانت مِنَ الأنصارِ مِنْ بني زُهْرَةَ^(١).
قوله: (والظاهرُ العُمومُ في أيِّ حَسَنَةٍ كانت): فعلى هذا ﴿وَمَنْ يَفْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ إلى آخِرِهِ: تذييلٌ، وعلى الأول: تتميمٌ.

(١) كذا وردت العبارةُ في الأصولِ الخطيَّةِ، وهو سبقُ قلمِ من المولِّفِ رحمه الله تعالى - إن لم يكن ثَمَّةَ خَلَلٌ في النسخِ -، فبنو زُهْرَةَ من قُرَيْشٍ، لا من الأنصارِ، وأمنةُ أُمِّ النبيِّ ﷺ قُرَشِيَّةٌ زُهْرِيَّةٌ، وليست أنصاريَّةً، فإنها أمنةُ بنتُ وَهَبِ بنِ عبدِ منافِ بنِ زُهْرَةَ بنِ كِلَابِ بنِ مِرَّةٍ، كما في «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١: ٥٩)، بل أُمُّ أمنةُ وأُمُّ أمِّها: قُرَشِيَّتَانِ أيضاً، كما في «الطبقات».

وقد اشتهر أنَّ بني النَّجَّارِ مِنَ الأنصارِ: أخوالُ النبيِّ ﷺ، وذلك أنهم أخوالُ عبدِ المطلبِ، فأُمَّهُ سلمى بنتُ عمرو من بني عَدِيِّ بنِ النَّجَّارِ، فهم أخوالُ عبدِ المطلبِ حقيقةً، ولعلَّ وَصَفَهُم بِ«أخوالِ النبيِّ ﷺ» هو السَّبَبُ في توَهُمِهِمْ أَنَّ أُمَّه عليه السلامُ أنصاريَّةٌ، والله أعلم.

وَقُرئ: «يَزِدُّ»، أي: يَزِدُ اللهُ. وزيادةُ حُسْنِهَا مِنْ جِهَةِ اللهِ: مُضَاعَفْتُهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَصْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وَقُرئ: «حُسْنِي»، وهي مصدرٌ كَالْبُشْرَى. الشُّكُورُ فِي صِفَةِ اللهِ: مجازٌ لِلإِعْتِدَادِ بِالطَّاعَةِ، وَتَوْفِيَةِ ثَوَابِهَا، وَالتَّفْضِيلِ عَلَى المُنَابِ.

[﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحْيِي الْحَيَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [٢٤]

﴿أَمْ﴾ مُنْقَطِعَةٌ، وَمَعْنَى الهمزة فِيهِ: التَّوْبِيخُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَيَسْتَمَالُ كُونَ أَنْ يَنْسُبُوا مِثْلَهُ إِلَى الْإِفْتِرَاءِ، ثُمَّ إِلَى الْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الْفِرَى وَأَفْحَشُهَا، ﴿فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ فَإِنْ يَشَأُ اللَّهُ يُجْعَلُكَ مِنَ الْمُخْتَمِ عَلَى قُلُوبِهِمْ، حَتَّى تَقْتَرِيَ عَلَيْهِ الْكُذْبَ، فَإِنَّهُ لَا يَجْتَرِي عَلَى إِفْتِرَاءِ الْكُذْبِ عَلَى اللَّهِ إِلَّا مَنْ كَانَ فِي مِثْلِ حَالِهِمْ.

قَوْلُهُ: ﴿﴿أَمْ﴾ مُنْقَطِعَةٌ، وَمَعْنَى الهمزة فِيهِ: التَّوْبِيخُ﴾: أَقُولُ: لَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيمِ كَلَامِ بَصِيحٍ أَنْ يُضْرَبَ عَنْهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾﴾ [الشورى: ٢١]، وَيَبَاطِلُهُ: أَنَّهُ تَعَالَى لَسَأَ أَمْرَهُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ بِأَنْ يَتَلَوَّ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣]، وَسَاقَ الْكَلَامَ إِلَى أَنْ انْتَهَى إِلَى الْإِضْرَابِ الْأَوَّلِ^(١)، فَأَضْرَبَ عَنِ الْأَمْرِ بِالتَّلَاوَةِ إِلَى السُّؤَالِ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيرِ وَالتَّهْكُمِ، وَأَجْرَى عِنَانَ الْكَلَامِ حَتَّى بَلَغَ إِلَى مَقَامِ الْإِضْرَابِ الثَّانِي^(٢)، فَوَبَّخَهُمْ عَلَى أَمْرِ آخَرَ أَعْظَمَ مِنَ الْأَوَّلِ، وَهُوَ نِسْبَةُ الْإِفْتِرَاءِ إِلَى أَكْرَمِ خَلْقِ اللهِ، فَقَالَ: ﴿﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾﴾، أَي: يَتَقَوَّهُونَ هَذِهِ الْعَظِيمَةَ؛ أَنْ مُحَمَّدًا شَرَعَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ هَذَا الَّذِي تَلَا عَلَيْكُمْ وَسَمَّاهُ دِينًا، وَذَكَرَ أَنَّ اللَّهَ آذَنَ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ أَنْ يَتَمَسَّكُوا بِهِ وَوُصُّوا أُمَّهُمْ بِهِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾﴾.

(١) وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾﴾ [الشورى: ٢١].

(٢) وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى﴾﴾ [الشورى: ٢٤].

وهذا الأسلوب مُؤداهُ استبعادُ الافتراءِ مِنْ مثله، وأنه في البُعْدِ مِثْلُ الشَّرْكِ بالله والدخولِ في جُمْلَةِ المختومِ على قُلُوبِهِمْ. ومِثَالُ هذا: أن يُخَوِّنَ بَعْضُ الأُمَماءِ، فيقول: لَعَلَّ اللهُ خَذَلَنِي، لَعَلَّ اللهُ أَعْمَى قَلْبِي، وهو لا يُريدُ إثباتَ الخِذْلانِ وَعَمَى القَلْبِ، وإنما يُريدُ استبعادَ أن يُخَوِّنَ مِثْلَهُ، والتنبيةَ على أنه رُكِبَ مِنْ تخوينِهِ أمرٌ عظيمٌ.

ثم قال: ومن عادةِ الله أن يَمْحُوَ الباطلَ وَيُثَبِّتَ الحَقَّ ﴿بِكَلِمَتَيْهِ﴾ بَوَحِيهِ أَوْ بَقَضَائِهِ، كقولِهِ تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء: ١٨]، يعني: لو كان مُقْتَرِباً كما تَرَعُمُونَ لَكَشَفَ اللهُ افْتِرَاءَهُ، وَحَقَّقَهُ، وَقَذَفَ بِالْحَقِّ عَلَى بَاطِلِهِ فَدَمَغَهُ.

قوله: (وهذا الأسلوبُ مُؤداهُ استبعادُ الافتراءِ مِنْ مثله): وهو أنه تعالى وَيَبْخَهُمْ عَلَى الافتراءِ - المُؤدِّي إلى إيجابِ الخِثْمِ والطَّبَعِ الذي هو مِنْ صِفَةِ أَعْبَدِ خَلْقِ اللهِ وَالْعَيْنِمْ - على مِثْلِ أَكْرَمِ خَلْقِ اللهِ وَأَحَبِّهِمْ إِلَيْهِ، هَيْهَاتَ، وَأَدُمُ وَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِيَوَائِهِ. هذا هو معنى الاستبعادِ الذي صَرَّحَ بِهِ، ومعنى المِثْلَيْنِ في قوله: «في مِثْلِ حَالِهِمْ» و«الافتراءِ مِنْ مثله». وعن بَعْضِهِمْ: «وفي هذا تذكيرٌ لِنَعْمِ اللهِ بِذِكْرِ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِ وَفَضْلِهِ لَه بِمَا أَكْرَمَهُ بِأَنْوَاعِ الكِرَامَاتِ الَّتِي أَكْرَمَهُ بِهَا؛ لِيَشْكُرَ رَبَّهُ عَلَى ذَلِكَ، وَيَرْحَمَ عَلَى أَوْلَئِكَ بِمَا خُتِمَ عَلَى قُلُوبِهِمْ»، انتهى كلامُهُ.

ثم جِيءَ بقوله: ﴿وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ﴾ إلى آخِرِهِ؛ تذييلاً للكلامِ وتتميماً للمعنى الاستبعادِ، أي: ليس مِنْ شأنِهِ صلواتُ اللهِ عليه ذلك، ولا مِنْ عادةِ اللهِ، إلا مَحْوُ البَاطِلِ وإثباتُ الحَقِّ، ولا مِنْ صِفَاتِ هذا الكِتَابِ الكَرِيمِ أن يَمْحُوَ الافتراءَ حَوْلَهُ، وأنه مِنْ كَلِمَاتِ اللهِ الَّتِي لا يَأْتِيهَا البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ، وفيه تعريضٌ بافترائِهِمْ، وَأَنَّهُمْ المَخْتومُونَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَأَنَّهُمْ أَحْسَنُ خَلْقِ اللهِ وَأَنْدَهُمْ وَأَبْعَدُهُمْ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، أَوْلَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ.

لله دَرَّةٌ! ما أَلْطَفَ بَيَانُهُ، وما أَدَقَّ نَظَرَهُ! ولو لم يكنْ في كِتَابِهِ إلا هذا التلويحُ لَكَفَاهُ

مَزِيَّةٌ وَقَضَاءٌ.

ويجوزُ أن يكونَ عِدَّةَ لرسولِ الله ﷺ بأنه يَمْحُو الباطلَ الذي هم عليه مِنَ البَهْتِ والتكذيبِ، وَبُيِّنَ الحَقُّ الذي أنتَ عليه بالقرآنِ وبِقَضَائِهِ الذي لا مَرَدَّ له مِنْ نُصْرَتِكَ عليهم، إنَّ اللهَ عَلِيمٌ بما في صَدْرِكَ وَصُدُورِهِمْ، فيُجْرِي الأمرَ على حَسَبِ ذلكِ.

وعن قتادة: ﴿يَخْتَمِرُ عَلَى قَلْبِكَ﴾: يُنْسِكُ القرآنَ وَيَقْطَعُ عنكَ الوَحْيَ، يعني: لو افترى على الله الكَذِبَ لَفَعَلَ به ذلك، وقيل: ﴿يَخْتَمِرُ عَلَى قَلْبِكَ﴾: يَرِبُّ عليه بالصَّبْرِ، حتى لا يَشُقَّ عليك أذاهم.

فإن قلت: إن كان قوله: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ كلاماً مُبْتَدَأً غيرَ معطوفٍ على ﴿يَخْتَمِرُ﴾، فما بال الواوِ ساقطةً في الخطأ؟ قلت: كما سَقَطَتْ في قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ﴾ [الإسراء: ١١]، وقوله تعالى: ﴿سَدَّعُ الرَّبَّانِيَّةَ﴾ [العلق: ١٨]، على أنها مُثَبِّتَةٌ في بعضِ المصاحفِ.

قوله: (وَيُبَيِّنُ الحَقَّ الذي أنتَ عليه بالقرآنِ وبِقَضَائِهِ): فإن قلت: لِمَ خَالَفَ بَيْنَ العِبَارَتَيْنِ، فجاءَ في الوَجْهِ الأولِ بـ«أو» حيثُ قال: «بِوَحْيِهِ أَوْ بِقَضَائِهِ»، وفي الثاني بالواوِ حيثُ قال^(١): «بالقرآنِ وبِقَضَائِهِ»؟ قلت: على الأول: الكلامُ تذييلٌ وبيانٌ لعادةِ الله الجاريةِ في إثباتِ الحَقِّ ومَحَقِّ الباطلِ فيما عَبَّرَ مِنَ الزمانِ وفيما يُتْرَقَّبُ منه، وكان لا يخلو ذلكُ مِنْ أَحَدِ هذينِ الأمرينِ، وعلى هذا الوجه: عِدَّةُ حبيبِ الله صلواتُ الله عليه، والجملةُ حالٌ مُقَرَّرَةٌ لمزيدِ التوبيخِ، والمقامُ اقتضى الجمعَ بينهما، لا سيما وقد تَحَقَّقَ في الواقعِ ذلكُ.

قوله: (إن كانَ قوله: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ كلاماً مُبْتَدَأً): يعني^(٢): و﴿يَخْتَمِرُ﴾ مجزومٌ جوابٌ للشَّرْطِ، ﴿وَيَمْحُ﴾ أيضاً قد سَقَطَ منه الواوُ علامةُ الجزمِ، فيكونُ معطوفاً عليه، وأنتَ جَعَلْتَهُ كلاماً مُبْتَدَأً؟ وأجاب: أن الواوِ ساقطةٌ خطأً لا معنى، قال أبو البقاء: «﴿يَخْتَمِرُ﴾ جوابٌ للشَّرْطِ، ﴿وَيَمْحُ﴾ مرفوعٌ مُسْتَأْنَفٌ وليسَ مِنَ الجوابِ؛ لأنه يَمْحُو الباطلَ مِنْ غيرِ شَرْطِ، وَسَقَطَتِ الواوُ مِنَ اللفظِ لِالتِّقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، وَمِنَ المَصْحَفِ حَمَلًا عَلَى اللفظِ»^(٣).

(١) من قوله: «بِوَحْيِهِ أَوْ بِقَضَائِهِ» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) في (ح) و(ف): «معنى»، والمُثَبِّتُ من (ط).

(٣) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٣٢).

[﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ ٢٥]

يُقَالُ: قَبِلْتُ مِنْهُ الشَّيْءَ، وَقَبِلْتُهُ عَنْهُ؛ فَمَعْنَى «قَبِلْتُهُ مِنْهُ»: أَخَذْتُهُ مِنْهُ وَجَعَلْتُهُ مَبْدَأَ قَبُولِي وَمَنْشَأَهُ، وَمَعْنَى «قَبِلْتُهُ عَنْهُ»: عَزَلْتُهُ عَنْهُ وَأَبْتَيْتُهُ عَنْهُ. وَالتَّوْبَةُ: أَنْ يُرْجَعَ عَنِ الْقَبِيحِ وَالْإِخْلَالِ بِالْوَاجِبِ؛ بِالنَّدَمِ عَلَيْهَا وَالْعَزْمِ عَلَى أَنْ لَا يُعَاوِدَ، لِأَنَّ الْمَرْجُوعَ عَنْهُ قَبِيحٌ وَإِخْلَالٌ بِالْوَاجِبِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ.....

وَرَوَى مُحَمَّدِي السُّنَّةِ عَنِ الْكِسَائِيِّ نَحْوَ مَا ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ ^(١)، وَمَا يَقْوِي أَنَّهُ مَرْفُوعٌ: عَطْفٌ قَوْلُهُ: ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ عَلَيْهِ، وَهُوَ مَرْفُوعٌ.

قَوْلُهُ: (وَالْعَزْمُ عَلَى أَنْ لَا يُعَاوِدَ، لِأَنَّ الْمَرْجُوعَ عَنْهُ قَبِيحٌ وَإِخْلَالٌ بِالْوَاجِبِ): أَي: يَجْعَلُهَا غَرَضًا فِي عَدَمِ الْمَعَاوِدَةِ.

قَوْلُهُ: (وَإِنْ كَانَ فِيهِ): أَي: فِي الْمَرْجُوعِ عَنْهُ أَوْ الْوَاجِبِ (لِالْعَبِيدِ حَقٌّ: لَمْ يَكُنْ بُدًّا مِنَ التَّفْصِي عَلَى طَرِيقِهِ): قِيلَ: فِي قَوْلِهِ: «لِأَنَّ الْمَرْجُوعَ عَنْهُ قَبِيحٌ وَإِخْلَالٌ بِالْوَاجِبِ»، وَقَوْلُهُ: «أَنْ يَرْجَعَ عَنِ الْقَبِيحِ»: إِشَارَةٌ إِلَى مَذْهَبِهِ؛ لِأَنَّ أَكْثَرَهُمْ ^(٢) قَالُوا: التَّوْبَةُ عَنْ بَعْضِ الْمَعَاصِي مَعَ الْإِصْرَارِ عَلَى الْبَعْضِ غَيْرُ صَحِيحَةٍ، قَالَ أَبُو هَاشِمٍ: لَوْ تَابَ عَنِ ذَلِكَ الْقَبِيحِ لِكُونِهِ قَبِيحًا وَجَبَ أَنْ يَتُوبَ عَنِ كُلِّ الْقَبَائِحِ، وَإِنْ تَابَ عَنْهُ لَا مُجَرَّدَ قُبْحِهِ، بَلْ لِعَرَضِ آخَرَ لَمْ تَصِحَّ تَوْبَتُهُ. وَعِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ: التَّوْبَةُ عَنْ بَعْضِ الْمَعَاصِي مَعَ الْإِصْرَارِ عَلَى الْبَعْضِ صَحِيحَةٌ.

وَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيُّ: «التَّوْبَةُ ثَلَاثَةٌ أَشْيَاءُ: النَّدَمُ وَالْإِعْتِدَارُ وَالْإِقْلَاعُ» ^(٣). وَقُلْتُ: النَّدَمُ: إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى مَا فَاتَ فِي الزَّمَانِ الْمَاضِي، فَيُرْجَعُ عَنْهُ بِالْقَلْبِ، لِأَنَّ التَّوْبَةَ سَعْيٌ مِنَ مَسَاعِي الْقَلْبِ، وَهُوَ تَنْزِيهُهُ عَنِ الْقَبَائِحِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «أَنْ يَرْجَعَ عَنِ الْقَبِيحِ وَالْإِخْلَالِ بِالْوَاجِبِ بِالنَّدَمِ عَلَيْهِمَا».

(١) انظر: «معالم التنزيل» للبعوي (٧: ١٩٢).

(٢) أي: أكثر المعتزلة.

(٣) «منازل السائرين» (١: ١٨٢) مع شرحه «مدارج السالكين» لابن القيم.

لِعَبْدٍ حَقٍّ: لم يكن بُدًّا مِنَ التَّفْضِي عَلَى طَرِيقِهِ.

وروى جابر: أَنَّ أَعْرَابِيًّا دَخَلَ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، وَكَبَّرَ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ صَلَاتِهِ قَالَ لَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا هَذَا، إِنَّ سُرْعَةَ اللِّسَانِ بِالْإِسْتِغْفَارِ تَوْبَةُ الْكَذَّابِينَ، وَتَوْبَتُكَ تَحْتَاجُ إِلَى التَّوْبَةِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا التَّوْبَةُ؟ قَالَ: اسْمٌ يَقَعُ عَلَى سِتَّةٍ مَعَانَ: عَلَى الْمَاضِي مِنَ الذُّنُوبِ: النَّدَامَةُ، وَلِتَضْيِيعِ الْفَرَائِضِ: الْإِعَادَةُ، وَرَدُّ الْمَظَالِمِ، وَإِذَابَةُ النَّفْسِ فِي الطَّاعَةِ كَمَا رَبَّيْتَهَا فِي الْمَعْصِيَةِ، وَإِذَاقَةُ النَّفْسِ مَرَارَةَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذْقَهَا حَلَاوَةَ الْمَعْصِيَةِ، وَالْبُكَاءُ بَدَلٌ كُلُّ ضَحِكٍ ضَحِكَتَهُ.

﴿وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ عَنِ الْكِبَائِرِ إِذَا تَيْبَ عَنْهَا،.....

والاعتذار: هو التلافي لِمَا فَاتَ فِي الْحَالِ بِقِضَاءِ الْوَاجِبِ؛ إِنْ كَانَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ بِأَدَاءِ الْفَرَائِضِ، وَرَدِّ الْمَظَالِمِ إِنْ كَانَ مِنْ حَقِّ الْعِبَادِ، فَلَا بُدَّ مِنَ التَّفْضِي عَلَى طَرِيقِهِ، أَي: يَجْتَهِدُ عَلَى طَرِيقَةِ التَّخْلُصِ مِنْهُ بِأَيِّ وَجْهِ أَمَكَنَ؛ إِنْ كَانَ الْمَظْلُومُ فِي قَيْدِ الْحَيَاةِ: فَالْتَّفِضِي عَنْهُ بِأَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ أَوْ يَسْتَحِلَّ مِنْهُ، وَإِنْ مَاتَ يَرُدُّهَا عَلَى وَرَثَتِهِ، وَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ فَيَتَصَدَّقُ عَنْهُ، وَإِلَّا فَيَدْعُو لَهُ وَيَسْتَغْفِرُ.

والإقلاع: هو أَنْ يَعْرِزَ عَلَى الْأَيُّعَاوِدِ إِلَى الذَّنْبِ، وَهُوَ يَتَعَلَّقُ بِالْمُسْتَقْبَلِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُحْمَلَ قَوْلُهُ: «أَنْ لَا يُعَاوِدَ؛ لِأَنَّ الْمَرْجُوعَ عَنْهُ قَبِيحٌ وَإِخْلَالٌ بِالْوَاجِبِ» عَلَى أَنَّهُ لَا تَصِحُّ التَّوْبَةُ إِذَا رَجَعَ عَنِ الْقَبِيحِ مُحَابَاةً^(١) أَوْ خَوْفًا مِنَ النَّاسِ أَوْ ضَعْفًا حَصَلَ فِي بَدَنِهِ، فَلَا يَكُونُ تَوْبَةً، وَلَوْ قَالَ: «تَعْظِيمًا لِلَّهِ وَحَذَارًا مِنْ سَخَطِهِ» لَكَانَ أَوْلَى؛ لِأَنَّهُ دَخَلَ فِي كَلَامِهِ: مَا إِذَا رَجَعَ عَنْهَا طَالِبًا لِلنَّوَاءِ وَالْمُدْحَةِ وَالرِّيَاءِ وَالسُّنْمَةِ.

قوله: (مِنَ التَّفْضِي عَلَى طَرِيقِهِ): الْأَسَاسُ: «وَقَعَ فِيهَا لَا يَقْدِرُ عَلَى التَّفْضِي مِنْهُ، وَلَيْسَنِي أَنْفَضِي مِنْ فُلَانٍ؛ أَي: أَنْخَلَصُ مِنْهُ وَأُبَايِنُهُ».

وَقَدَّرَ صَاحِبُ «الْمَطْلَعِ»: «لَمْ يَكُنْ بُدًّا مِنَ التَّفْضِي عَنْهُ بِطَرِيقَةٍ».

قوله: (﴿وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ عَنِ الْكِبَائِرِ إِذَا تَيْبَ عَنْهَا): وَقَلْتُ: إِذَنْ لَا فَرْقَ بَيْنَ «يَقْبَلُ

(١) فِي (ط) وَ(ح): «مَجَابَا»، وَفِي (ف): «مَجَابَا!» وَلَعَلَّ مَا أَثْبَتَهُ هُوَ الصَّوَابُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وعن الصغائر إذا اجْتُنِبَتِ الكِبائر، ﴿وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُوا﴾ ﴿قُرِئَ بِالنَّاءِ وَالْيَاءِ، أَي: يَعْلَمُهُ فَيُثِبُّ عَلَى حَسَنَاتِهِ، وَيُعَاقِبُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ.

[﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ءَ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [٢٦]

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَي: يَسْتَجِيبُ لَهُمْ، فَحَدَفَ اللَّامَ كَمَا حُدِفَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا كَانُوا لَهُمْ﴾ [المطففين: ٣]، أَي: يُثِبُّهُمْ عَلَى طَاعَتِهِمْ وَيَزِيدُهُمْ عَلَى الثَّوَابِ تَفَضُّلاً، أَوْ: إِذَا دَعَوْهُ اسْتَجَابَ دُعَاءَهُمْ، وَأَعْطَاهُمْ مَا طَلَبُوا، وَزَادَهُمْ عَلَى مَطْلُوبِهِمْ.....

التَّوبَةُ» وَيَبِينُ «يَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ»؛ لِأَنَّ قَبُولَ التَّوْبَةِ لَيْسَ إِلَّا الْعَفْوُ عَنِ السَّيِّئَاتِ، بَلِ الْمَعْنَى: مِنْ شَأْنِهِ قَبُولُ التَّوْبَةِ عَنْ عِبَادِهِ إِذَا تَابُوا، وَالْعَفْوُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ مَحْضٌ رَحْمَتِهِ أَوْ بِشَفَاعَةِ شَافِعٍ، قَالَ الْإِمَامُ: «إِنَّهُ تَعَالَى تَارَةً يَعْفُو بِوَسِطَةِ التَّوْبَةِ، وَأُخْرَى يَعْفُو ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ»^(١).

قوله: ﴿قُرِئَ بِالنَّاءِ وَالْيَاءِ﴾: حَفْصٌ وَحَمَزَةٌ وَالْكِسَائِيُّ: بِالنَّاءِ الْفَوْقَانِيَّةِ، وَالْباقونَ: بِالْيَاءِ^(٢).

قوله: (أَي: يَعْلَمُهُ فَيُثِبُّ عَلَى حَسَنَاتِهِ، وَيُعَاقِبُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ): بِعَنِي: ﴿وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُوا﴾ ﴿جَاءَ تَذِيلاً لِلسَّابِقِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ دَلٌّ عَلَى أَنَّ الْعَفْوَ تَعَلَّقَ بِالسَّيِّئَاتِ الْمَتُوبِ عَنْهَا، فَلَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ سَيِّئَاتٍ غَيْرِ مَتُوبٍ وَغَيْرِ مَعْفُوعٍ عَنْهَا، فَاتَّصَلَ قَوْلُهُ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُوا﴾ ﴿بِهَا بِحَسَبِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَفِيهِ تَعَسُّفٌ.

وقال القاضي: ﴿وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُوا﴾ ﴿فِي جَازِيٍّ وَيُجَاوِزُ عَنْ إِتْقَانٍ وَحِكْمَةٍ»^(٣)، أَي: يُجَاوِزِي النَّائِبَ وَيُجَاوِزُ عَنْ غَيْرِ النَّائِبِ، وَصُدُورُهُمَا عَنْهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ إِتْقَانٍ مِنْهُ وَحِكْمَةٍ، وَإِنْ لَمْ نُدْرِكْ ذَلِكَ بِعَقُولِنَا، فَلَا اعْتِرَاضَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ.

(١) «مفاتيح الغيب» للرازي (٢٧: ٥٩٧).

(٢) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٥، و«حجة القراءات» ص ٦٤١.

(٣) «أنوار التنزيل» لليضاوي (٥: ١٣٠).

وقيل: الاستجابة فعلهم، أي: يستجيبون له بالطاعة إذا دعاهم إليها، ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ هو ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ على ثوابهم، وعن سعيد بن جبير: هذا من فعلهم: يُجيبونه إذا دعاهم، وعن إبراهيم بن أدَهَمَ أنه قيل له: ما بالنا ندعو فلا نجاب؟ قال: لأنه دعاكم فلم تُجيبوه، ثم قرأ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥]، ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

[﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنزِّلُ بَقْدَرًا مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ

بَصِيرٌ﴾ [٢٧]

قوله: (وقيل: الاستجابة فعلهم): قال أبو البقاء: «على هذا: ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع رفع، أي: يتقادون له»^(١).

وقلت: على الوجه الأول: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عطف على ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾، فتشتمل الآيتان على أصناف المكلفين؛ الموافقين منهم والمخالفين، فإن المؤمن: إما عاصي أو غير عاصي، والأول: تائب أو غير تائب، والكافر من صنف المخالفين، وقد بين في الآيتين ما لكل من الأصناف، ومعاملة الله مع كل فريق من قبول التوبة والعفو والاستجابة والعذاب^(٢).

وعلى الوجه الثاني: ﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾ عطف على مجموع قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾، وقوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ عطف على مقدر هو مسبب عن قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، على منوال قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل: ١٥]، أي: عملاً به وعرفاً حق النعمة وقالوا: الحمد لله، فالمعنى: ويستجيبون لله بالطاعة حين دعاهم، فيستجيب لذلك دعاءهم، ويوفيهم أجورهم، ويزيدهم من فضله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠].

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٣٣).

(٢) في كلامه رحمه الله تعالى لف وتشر؛ فقبول التوبة: للمؤمن العاصي التائب، والعفو: للمؤمن العاصي غير التائب، والاستجابة: للمؤمن الطائع، والعذاب: للكافر.

﴿لَبَغَوْا﴾ مِنَ الْبَغْيِ؛ وَهُوَ الظُّلْمُ، أَي: لَبَغَىٰ هَذَا عَلَىٰ ذَاكَ، وَذَاكَ عَلَىٰ هَذَا، لِأَنَّ الْغِنَىٰ مَبْطَرَةٌ مَأْسُورَةٌ، وَكَفَىٰ بِحَالِ قَارُونَ عِبْرَةً، وَمِنَ قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي زَهْرَةَ الدُّنْيَا وَكَثْرَتُهَا»، وَبَعْضُ الْعَرَبِ:

وَقَدْ جَعَلَ الْوَسْمِيُّ يُنْبِتُ بَيْنَنَا
وَيَيْنَ بَنِي رُومَانَ تَبْعًا وَشَوْحَطًا

وَمِنْ هَذَا الْمَقَامِ أَجَابَ السَّيِّدُ الْجَلِيلُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهَمَ عَنْ قَوْلِ السَّائِلِ: مَا بَالُنَا نَدْعُو فَلَا نُجَابُ؟ بِقَوْلِهِ: «لِأَنَّهُ دَعَاكَ فَلَمْ تُجِيبُوهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥]، ﴿وَسَتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾. وَإِلَّا فَلَا سِتْجَابَةَ فِي هَذَا الْوَجْهِ اسْتِجَابَةُ الْمُؤْمِنِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ بِالطَّاعَةِ إِذَا دَعَاهُ إِلَيْهَا.

قَوْلُهُ: (أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي) الْحَدِيثُ: مِنْ رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَالنَّسَائِيِّ (١) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: «جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، فَقَالَ: إِنَّ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزَيْتِيهَا. فَقَالَ رَجُلٌ: أَوْيَأِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟» الْحَدِيثُ بِطَوِيلِهِ ذَكَرْنَاهُ.

قَوْلُهُ: (وَقَدْ جَعَلَ الْوَسْمِيُّ) الْبَيْتُ (٢): سُمِّيَ الْمَطَرُ وَسْمِيًّا؛ لِأَنَّهُ يَسِمُ الْأَرْضَ بِالنَّبَاتِ، وَ«النَّعْمُ»: شَجَرٌ يَتَّخَذُ مِنْهُ الْقَيْسِيُّ، وَ«الشَّوْحَطُ»: يَتَّخَذُ مِنْهُ السَّهَامُ، يَعْنِي: أَنَّهُمْ إِذَا أَمْطَرُوا وَأَخْصَبُوا، فَتَذَكَّرُوا الدُّحُولَ (٣)، وَطَلَبُوا الْأَوْتَارَ (٤). وَفِي هَذَا الْبَيْتِ مِنْ حُسْنِ التَّعْلِيلِ مَا بَلَغَ غَايَتَهُ، فَكَأَنَّ الْمَطَرَ أَنْبَتَ لَهُمْ آلَةَ الْحَرْبِ مِنَ الْقَيْسِيِّ وَالسَّهَامِ.

(١) البخاري (١٤٦٥) و(٢٨٤٢) و(٦٤٢٧)، ومسلم (١٠٥٢)، والنسائي (٢٥٨١). وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٣٩٩٥).

(٢) البيت في «المختصر» لابن سيده (٣: ١١٥)، و«لسان العرب» لابن منظور، مادة (شحط)، ولم يُنسب فيهما، ولفظه في «اللسان»: «ويين بني دودان».

(٣) جمع «دحل»، وهو الثأر، وقيل: طلب مكافأة بجنابة جُنيت عليك أو عداوة أتيت إليك، وقيل: هو العداوة والحقْد. انظر: «لسان العرب» لابن منظور، مادة (دحل).

(٤) يُريدُ بها هنا: الأقواس والسَّهَامَ، ونقل ابنُ منظور في «لسان العرب»، مادة (شحط)، عن ابن بري قوله: «كانت العربُ لا تطلبُ نازها إلا إذا أخصبت بلادها».

يعني: أنهم أحيوا فحدّثوا أنفسهم بالبغي والتفان.

أو من البغي؛ وهو البدخ والكبر، أي: لتكبروا في الأرض، وفعلوا ما يتبع الكبر من العلو فيها والفساد. وقيل: نزلت في قوم من أهل الصفة تمنوا سعة الرزق والغنى، قال خباب بن الأرت: فينا نزلت، وذلك أننا نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع، فتمنيناها.

﴿بِقَدْرٍ﴾ بتقدير، يُقال: قدره قدرًا وقدرًا، ﴿خَيْرٌ بِصِيرٍ﴾ يعرف ما تؤول إليه أحوالهم، فيقدر لهم ما هو أصلح لهم وأقرب إلى جمع شملهم، فيفقر ويغني، ويمنع ويعطي، ويقبض ويسط، كما توجب الحكمة الربانية، ولو أغناهم جميعاً لبغوا، ولو أفقرهم هلكوا.

فإن قلت: قد نرى الناس يبغي بعضهم على بعض، ومنهم مبسوط لهم، ومنهم مقبوض عنهم، فإن كان المبسوط لهم يبعون فلم بسط لهم؟، وإن كان المقبوض عنهم يبعون فقد يكون البغي بدون البسط، فلم شرطه؟ قلت: لا شبهة في أن البغي مع الفقر أقل، ...

قوله: (أحيوا)، الجوهري: «أحيا القوم؛ إذا صاروا في الحيا والحضب».

قوله: (التفان): وهو التقاتل والتهارج.

قوله: (وهو البدخ)، الجوهري: «البدخ: الكبر، وقد بدخ - بالكسر - وتبدخ: إذا تكبر وعلا».

قوله: (لا شبهة في أن البغي مع الفقر أقل): هذا الجواب مُكَلَّف، والسؤال قوي. وعلى ما فسّرنا الآية عند قوله: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى: ١٩]: السؤال غير وارد، والذي يشد من عضده هاهنا قول المصنف: «قيل: نزلت في قوم من أهل الصفة»، وعليه تفسير محيي السنة^(١)، وذكر أيضاً حديثاً طويلاً، وفي آخره: «وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك»^(٢).

(١) انظر: «معالم التنزيل» للبعوي (٧: ١٩٤).

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٦: ١٤). وانظر: «العلل المتناهية» لابن الجوزي (١: ٤٤-٤٥).

وَمَعَ البَسْطِ أَكْثَرُ وَأَغْلَبُ، وكلاهما سَبَبٌ ظاهرٌ للإقدام على البغي والإحجام عنه، فلو
عَمَّ البَسْطُ لَعَلَّبَ البغي حتى يَنْقَلِبَ الأمرُ إلى عَكْسِ ما عليه الآن.

[﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ٢٨]

قُرئ: ﴿قَنَطُوا﴾ بفتح النون وكسرها، ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أي: بركات الغيث
ومنافعه وما يحصلُ به مِنَ الخِضْبِ. وعن عُمَرَ رضيَ اللهُ عنه أنه قيل له: اشْتَدَّ القَحْطُ
وقَطَّ الناسُ، فقال: مُطِرُوا إذن. أراد هذه الآية. ويجوزُ أن يُريد: رحمته في كُلِّ شيءٍ،
كأنه قال: يُنَزِّلُ الرحمةَ التي هي الغيثُ، وَيَنْشُرُ غيرها من رحمته الواسعة.

﴿الْوَلِيُّ﴾ الذي يتولى عباده بإحسانه ﴿الْحَمِيدُ﴾ المحمودُ على ذلك، يَحْمَدُهُ أهلُ طاعته.

[﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ

قَدِيرٌ﴾ ٢٩]

﴿وَمَا بَتْ﴾ يجوزُ أن يكونَ مرفوعاً ومجروراً؛ يُحْمَلُ على المضافِ إليه أو المضاف.

قوله: (والإحجام عنه): النهاية: «أحجم القوم: نكصوا وتأخروا»، وهو مُطابِقٌ لقوله:
«للإقدام على البغي».

قوله: ﴿قَنَطُوا﴾ بفتح النون وكسرها): بالفتح: السبعة، والكسر: شاذ.

قوله: (ويجوز أن يُريد: رحمته في كُلِّ شيءٍ): فعلى هذا: هو من عَطَفِ العامِّ على الخاصِّ،
فيكونُ قوله: ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ تذيلاً للقرينتين على طريقة الجمع، أي: هو المتولي للغيث
ونَشُرِ سائرِ الرحمة، وله الحمدُ على هذا الإحسان، وله الشاءُ والمحمدةُ على كُلِّ الأفضال^(١).

قوله: (على المضافِ إليه أو المضاف): أي: ومن آياته خَلَقَ السماواتِ وخالقُ ما بَتْ
فيهما، ومن آياته ما بَتْ فيهما، ويُمكنُ أن يُقال: ومن آياته بَتْ ما فيهما، على أن «ما»
مصدرية، والمضافُ إليه محذوف.

(١) تحرّف في (ح) و(ف) إلى: «الاتصال».

فإن قلت: لِمَ جاز ﴿فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾، والدَّوَابُّ في الأرضِ وحدها؟ قلت: يجوزُ أن يُنسَبَ الشيءُ إلى جميعِ المذكور، وإن كانَ مَلْتَبِساً بَبَعْضِهِ، كما يُقال: بنو تميم فيهم شاعرٌ مجيدٌ أو شجاعٌ بطلٌ، وإنما هو في فخذٍ من أفخاذهم، أو فصيلةٍ من فصائلهم، وبنو فلانٍ فَعَلُوا كذا، وإنما فَعَلَهُ نُؤيسٌ منهم. ومنه قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَاتُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وإنما يخرجُ مِنَ المِلحِ.

ويجوزُ أن يكونَ للملائكةِ عليهم السَّلَامُ مشيٌّ مَعَ الطَّيْرانِ، فيوصَفُوا بالدَّيِّبِ، كما يوصَفُ به الأناسي. ولا يبيدُ أن يخلقَ في السماواتِ حيواناً يمشي فيها مشي الأناسي على الأرض، سُبْحانَ الذي خلقَ ما نَعْلَمُ وما لا نَعْلَمُ من أصنافِ الخلقِ.

قوله: (في فخذٍ من أفخاذهم): النهاية: «أَوَّلُ العَشِيرَةِ: الشَّعْبُ»^(١)، ثم القَبيلة، ثم الفَصيلة، ثم العِمارة، ثم البَطْن، ثم الفَخْدُ»^(٢).

قوله: (ويجوزُ أن يكونَ للملائكةِ مشيٌّ مَعَ الطَّيْرانِ): الانتصاف: «إطلاقُ الدَّابَّةِ على الأناسي بعيدٌ من عُرْفِ اللُّغَةِ، فكيفَ بالملائكةِ؟ والأوَّلُ أصحُّ، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤]، فدلَّ هذا على اختصاصِ الدوابِّ بالأرضِ»^(٣).

وقال صاحبُ «الإنصافِ»^(٤): «ذَكَرَ الزمخشريُّ في قوله: ﴿بَثَّ﴾ قولين: أحدهما: أنه معطوفٌ على ﴿فَأَخْيَا﴾، أي: فأخيا وبثَّ فيها من كُلِّ دابَّةٍ، لأنَّ الماءَ سبَّبَ حياةَ الحيوانِ، إذ به يَبْتُ العُشْبُ الذي به حياتهم، فعلى هذا لا حُجَّةَ لِصاحبِ «الانتصافِ» في الآية، إذ المرادُ ذَكَرَ الماءِ وما حَصَلَ منه مِنَ النَّباتِ وحياةِ الحيوانِ. والثاني: أن يُعطَفَ على ﴿أَنْزَلَ﴾، فيكونُ

(١) تحرّف في (ح) إلى: «العشيم»، وفي (ف) إلى: «العشب»، والمثبت من (ط) و«النهاية» لابن الأثير، (فخذ).

(٢) وسيأتي مثله عند الزمخشري رحمه الله تعالى في تفسير الآية ١٣ من سورة الحجرات.

(٣) «الانتصاف» (٣: ٤٧٠) بحاشية «الكشاف».

(٤) أي: علّم الدين العراقي رحمه الله تعالى، وتقدّم التعريف بـ«الإنصاف» عند تفسير الآية ٦٠ من سورة التوبة (٧: ٢٨٠) تعليقا.

﴿إِذَا﴾ تَدْخُلُ عَلَى الْمَضَارِعِ كَمَا تَدْخُلُ عَلَى الْمَاضِي، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَلَيْلٌ إِذَا بَعَثْنَا﴾

[الليل: ١]، وَمِنْهُ ﴿إِذَا يَشَاءُ﴾، وَقَالَ الشَّاعِرُ:

وَإِذَا مَا أَشَاءَ أَبَعَثْتُ مِنْهَا آخِرَ اللَّيْلِ نَاشِطاً مَدْعُورَا

[﴿وَمَا أَصْبَحَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ * وَمَا أَنْتُمْ

بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ٣٠-٣١]

فِيهِ بَعْضُ التَّمَسُّكِ، وَإِنْ كَانَ تَخْصِيصُ الشَّيْءِ بِالذِّكْرِ لَا يَدُلُّ عَلَى تَفْيِهِ عَمَّا عَدَاهُ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ ضَمِيرًا يَبْعُدُ عَلَى اسْمِ جَامِدٍ، فَقَوْلُهُ: ﴿فِيهَا﴾ يَبْعُدُ عَلَى ﴿الْأَرْضِ﴾، وَلَمْ يُجَالَفْ فِي مَفْهُومِ الْاسْمِ الْجَامِدِ إِلَّا أَبُو بَكْرٍ الدَّقَاقُ^(١)، فَلَا تُبْنَى الْحِجَّةُ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْجَرْفِ الْهَآوِي.

وَقُلْتُ: لَا بُدَّ مِنْ اعْتِبَارِ بَثِّ الْمَلَائِكَةِ فِي السَّمَاوَاتِ؛ لِأَنَّ مَقَامَ الْعِظَمَةِ وَالْكَبْرِيَاءِ وَالْقُدْرَةِ التَّامَّةِ وَتَفَاضُلِ الْمَشِيئَةِ يُوجِبُ التَّهَآوُونَ وَالتَّخْفِيرَ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَمَا بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ مُتَحَرِّكٍ ذِي رُوحٍ، وَكَثِيرًا مَا تُسْتَعْمَلُ لَفْظَةُ «مَا» - الَّتِي لغير ذَوِي الْعُقُولِ - فِيهِمْ^(٢) تَخْفِيرًا، وَلِتَسْمِيَةِ هَذَا الْمَعْنَى عَبَّرَ عَنِ إِتْيَانِ الْأَمْرِ الْوَاقِعِ الْجَازِمِ وَقَوَعِهِ، بِلِ الْوَاجِبِ لَوَعْدِهِ، وَهُوَ الْقِيَامَةُ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾، قَالَ عَجَّي السَّنَّةُ: «الْمُرَادُ بِجَمْعِهِمْ: الْجَمْعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣).

قَوْلُهُ: ﴿إِذَا﴾ تَدْخُلُ عَلَى الْمَضَارِعِ كَمَا تَدْخُلُ عَلَى الْمَاضِي: يَعْنِي: إِذَا كَانَ بِمَعْنَى الْوَقْتِ ﴿إِذَا يَشَاءُ﴾ أَي: فِي أَيِّ وَقْتٍ يَشَاءُ.

وَأَمَّا: «إِذَا مَا أَشَاءَ أَبَعَثْتُ مِنْهَا» الْبَيْتُ: «النَّاشِطُ»: الثَّوْرُ الْوَخْشِيُّ الَّذِي يُخْرَجُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ لِشَيْءٍ خَافَهُ، وَهُوَ يَبْعُدُ أَشَدَّ الْعَدُوِّ وَالضَّمِيرُ فِي «مِنْهَا» لِلنَّاقَةِ، وَ«الْمَدْعُورُ»: الْمُخَوَّفُ،

(١) هُوَ الْإِمَامُ الْمُحَدِّثُ الْحَافِظُ الصَّادِقُ الْقَدْوَةُ بَرَكَةُ الْمُحَدِّثِينَ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الْبَاقِي الْبَغْدَادِي الدَّقَاقُ، الْمَوْلُودُ سَنَةَ نَيْفٍ وَثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِ مِئَةٍ، وَاتُّوفِيَ سَنَةَ ٤٨٩، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى. انظُرْ «سِيرَ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ» (١٩: ١٠٩-١١٤).

(٢) أَي: فِي ذَوِي الْعُقُولِ.

(٣) «مَعَالِمُ التَّنْزِيلِ» لِلْبَغْوِيِّ (٧: ١٩٥).

في مصاحف أهل العراق: ﴿فِيمَا كَسَبَتْ﴾ بإثبات الفاء على تضمين «ما» معنى الشَّرْط، وفي مصاحف أهل المدينة: «بما كَسَبَتْ» بغير فاء، على أن «ما» مُبتدأ، و«بما كَسَبَتْ» خبرها من غير تضمين معنى الشَّرْط، والآية مخصوصة بالمُجرمين، ولا يمتنع أن يستوفي الله بعض عقاب المُجرم ويعفو عن بعض، فأما مَنْ لا جُرمَ له؛ كالأنبياء والأطفال والمجانين، فهو لآء إذا أصابهم شيءٌ من ألم أو غيره، فللعوض الموفى والمصلحة.

و«من» - في «منها» -: تجريدية، نحو: هَيَّجْتُ مِنْ فُلَانٍ أَسَدًا، جَرَّدَ الشاعِرُ مِنَ الناقَةِ شَيْئًا يُسَمَّى نَاشِطًا مَدْعُورًا. والبيتُ لِكُتُبِ بْنِ زُهَيْرٍ^(١).

قوله: (في مصاحف أهل العراق: ﴿فِيمَا كَسَبَتْ﴾): قال صاحب «التيسير»: «قرأ نافع وابن عامر: «بما كَسَبَتْ أيديكم» بغير فاء، والباقون: ﴿فِيمَا﴾»^(٢)، قال الزجاج: «بالفاء أجوداً للمجازاة»^(٣)، قال أبو البقاء: «مَنْ حَذَفَ الفَاءَ حَمَلَهُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]»^(٤)، ثم قال: «حَذَفُ الفَاءِ مِنَ الجَوَابِ حَسَنٌ إِذَا كَانَ الشَّرْطُ بَلْفِظِ المَاضِي»^(٥)، ويجوز أن تجعل «ما» بمعنى «الذي» في هذا المذهب، وفيه ضعف.

قوله: (فأما مَنْ لا جُرمَ له كالأنبياء) إلى آخره: على تقدير سؤال، أي: إذا كانت الآية مخصوصة بالمُجرمين، وأنَّ ما أصابهم من مُصيبةٍ فيما كَسَبَتْ أيديهم، فما لنا^(٦) نرى الأنبياء والأطفال تُصيهم مَصائبٌ ولا جُرمَ لهم؟ فأجاب: أن ذلك لأجل الأعراض، أي: يُعَوِّضُهُمْ فِي الآخِرَةِ العِوَضَ التام، أو يكونُ بناءً لمصالح دينية، على ما عُرِفَ مِنْ مَذَهَبِهِ.

(١) انظر: «ديوانه» ص ٢٩.

وهذه الفقرة (من «قوله: إذا تدخل على المضارع» إلى هنا) لم ترد في (ط).

(٢) «التيسير» لأبي عمرو والداني ص ١٩٥.

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤: ٣٩٩).

(٤) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٣٣).

(٥) المصدر السابق (١: ٥٣٦).

(٦) في (ح) و(ف): «فما كنا»، والمثبت من (ط).

وعن النبي ﷺ: «ما من اختلاج عرق، ولا خدش عود، ولا نكبة حجر، إلا بدئ، ولما يعفو الله عنه أكثر».

الانتصاف: «عند هذه يُبلىس^(١) القدرية، فإنهم حملوا ﴿وَنَعَفَرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨ و ١١٦] على التائب، وذلك لا يمكن هاهنا؛ لأنه قد بعص العفو، أي قال: ﴿عَنْ كَثِيرٍ﴾، فإن كان تائباً وجب العفو عن جميع ذنوبه، وإلا وجب الأخذ بالجميع بزعمه^(٢)، فدل على أن العفو راجع إلى المشيئة، وقول الزنجشري: «إن الآلام لها أعواض»، فهو يريد وجوبها على الله^(٣)، وقد أخطأ فرعاً وأصلاً؛ لأن المعتزلة وإن أخطأت في إيجاب العوض، لم يقوله في الأطفال والمجانين، فإن القاضي أبا بكر^(٤) ألزمهم قبح إيلاام الأطفال والبهاائم، وقال^(٥): لا أعواض لها، وليس مُرتباً على استحقاق سابق، وهذا الإلزام إنما يتيم بموافقتهم له^(٦).

قوله: (ما من اختلاج عرق) إلى قوله: (ولما يعفو الله عنه أكثر): روى الترمذي^(٧) عن أبي موسى: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلا بدئ، وما يعفو الله عنه أكثر، وقرأ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ الآية». وروى نحوه أحمد بن حنبل^(٨) عن علي رضي الله عنه.

(١) كذا في الأصول الخطية، أي: يسكت، وفي «الانتصاف»: «تنكسر».

(٢) لأن التوبة عندهم لا تتبع، كما صرح به ابن المنير نفسه، والمؤلف اختصر كلامه.

والقول بأن التوبة لا تتبع: هو قول أكثر المعتزلة، كما سلف عند المؤلف ص ٥٤ (الآية ٢٥).

(٣) أي: وجوب العوض على الله تعالى.

(٤) أي: الباقلاني، رحمه الله تعالى.

(٥) في الأصول الخطية: «وقالوا»، والمثبت من «الانتصاف» لابن المنير.

(٦) «الانتصاف» (٣: ٤٧٠-٤٧١) بحاشية «الكشاف».

(٧) في «جامعه» برقم (٣٢٥٢).

(٨) سيذكره المؤلف بلفظه بعد قليل ص ٦٥.

وعن بعضهم: مَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنَ الْفِتَنِ وَالْمَصَائِبِ بَاكِتْسَابِهِ، وَأَنَّ مَا عَفَا عَنْهُ مَوْلَاهُ أَكْثَرُ، كَانَ قَلِيلَ النَّظَرِ فِي إِحْسَانِ رَبِّهِ إِلَيْهِ. وعن آخر: الْعَبْدُ مُلَازِمٌ لِلجِنَايَاتِ فِي كُلِّ أَوَانٍ، وَجِنَايَاتُهُ فِي طَاعَاتِهِ أَكْثَرُ مِنْ جِنَايَاتِهِ فِي مَعَاصِيهِ، لِأَنَّ جِنَايَةَ الْمَعْصِيَةِ مِنْ وَجْهِهِ، وَجِنَايَةَ الطَّاعَةِ مِنْ وَجْهِهِ، وَاللَّهُ يُطَهِّرُ عَبْدَهُ مِنْ جِنَايَاتِهِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْمَصَائِبِ، لِيُخَفِّفَ عَنْهُ أَثْقَالَهَا فِي الْقِيَامَةِ، وَلَوْلَا عَفْوُهُ وَرَحْمَتُهُ لَهَلَكَ فِي أَوَّلِ خُطْوَةٍ.

وعن عليّ رضي الله عنه وقد رفعه: «مَنْ عَفِيَ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا عَفِيَ عَنْهُ فِي الْآخِرَةِ، وَمَنْ عُوِقِبَ فِي الدُّنْيَا لَمْ تُثَنَّ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةُ فِي الْآخِرَةِ»، وعنه رضي الله عنه: «هَذِهِ أَرْجَى آيَةٍ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْقُرْآنِ».

﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ بفتاتين ما قضي عليكم من المصائب، ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ من متول بالرحمة.

قوله: (وَجِنَايَةَ الطَّاعَةِ مِنْ وَجْهِهِ): منها: لا تخلو قط من نوع خللٍ فيها، ومنها: حصول التواني، والتقصير في الأداء، ومنها: إعاوز حضور القلب المطلوب منها، ومنها: شوائب الرياء التي هي أطمؤها، ومنها: ما يلحقها من استعظام النفس والترفع.

قوله: (وعن عليّ رضي الله عنه، وقد رفعه) الحديث: من رواية الإمام أحمد بن حنبل في «مُسْنَدِهِ»^(١) عن عليّ رضي الله عنه: «أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ حَدَّثَنَا بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾، وَسَأَفْسُرُهَا لَكَ يَا عَلِيُّ: مَا أَصَابَكَ مِنْ مَرَضٍ أَوْ عُقُوبَةٍ أَوْ بَلَاءٍ فِي الدُّنْيَا فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ، وَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُثَنِّيَ عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةَ فِي الْآخِرَةِ، وَمَا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا، وَاللَّهُ أَعْظَمُ أَنْ يَعُودَ بَعْدَ عَفْوِهِ».

قوله: (من متول بالرحمة): قَيْدٌ ﴿وَلِيٍّ﴾ بـ «الرحمة» لَمَّا قَيْدٌ ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ بـ «المصائب»؛

[﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ * إِنَّ يَسَاءَ يَسْكِنَ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ * أَوْ يُوبِقُهُنَّ يَمَّا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ [٣٢-٣٤]

(الجَوَارِي) السفن، وقرئ: ﴿الجَوَارِ﴾، ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ كالجبال، قالت الخنساء:

كَأَنَّهُ عَلَّمَ فِي رَأْسِهِ نَارُ

لأنَّ قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ﴾ الآية: كالتقرير لإثبات معنى العفو لله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾، أي: إنَّ الله ليشمول رحمته وعميم لطفه يعفو لكم عن كثير من المصائب، لأنكم لا قدرة لكم أن تقوتوا^(١) ما قضي عليكم من المصائب، ولا لكم أيضاً من دونه متول بالرحمة يرحمكم إذا أصابكم مضيبة، ولا ناصر غيره ينصركم منه، ولهذا جاء عن علي رضي الله عنه: «هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن».

قوله: (وقرئ: ﴿الجَوَارِ﴾): بغير ياء؛ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي^(٢).

قوله: (كأنه علم في رأسه نار): قبله:

وإنَّ صَخْرًا لَمَوْلَانَا وَسَيِّدُنَا وَإِنَّ صَخْرًا إِذَا نَشْتُو لَنَحَارُ
أغرَّ أبلج تاتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار^(٣)

تمدح أخواها تقول: إذا دخل الشتاء والشدَّة ينحر الإبل للأضياف. «الأبلج»: الطليق الوجه في المعروف، قولها: «في رأسه نار»: تتميم لقولها: «كأنه علم».

(١) في الأصول الخطية: «أن تقولوا»، ولا معنى له، وأثبت ما يناسب قول الزمخشري: ﴿بِمُعْجِزٍ﴾ بفائتين ما قضي عليكم من المصائب.

(٢) أما ابن كثير فأثبت الياء في حالتي الوقف والوصل، وأما نافع وأبو عمرو فأثبتها في الوصل فقط. انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٥، و«حجة القراءات» ص ٦٤٢.

(٣) «ديوان الخنساء» ص ٤٩، وشطره الأول فيه:

وإنَّ صَخْرًا لَتَاتَمَّ الْهُدَاةُ بِهِ

وَقُرِّي: «الرِّيحَ»، ﴿فَيَظْلَنَنَّ﴾ بِفَتْحِ اللّامِ وَكَسْرِهَا؛

قوله: (وَقُرِّي: «الرِّيحَ»): نافع، والباقون: بالتوحيد^(١).

الانْتِصافُ: «يقولون: إِنَّ «الرِّيحَ» لم تَرُدْ في القرآنِ إلا عذاباً، بخِلافِ «الرِّيحِ»، وهذه الآية تُنكرُ الإِطلاقَ، لأنّها هاهنا نِعْمَةٌ ورحمة، وسُكُونٌ شِدَّةٌ على أصحابِ السُّفُنِ^(٢)، ولا يُنكرُ أَنَّ الغالبَ في وُجودِها مُفَرَّدَةٌ ما ذكروا، وكذا في قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْها رِيحاً، ولا تَجْعَلْها رِيحاً»^(٣): بِناءٍ على الأَغلبِ^(٤). قالَ صاحِبُ «الإِنصافِ»^(٥): «وكذلك جاءَ في القِراءاتِ السَّبْعَةِ: (اللَّهُ الذي أرسَلَ الرِّيحَ)، (وهو الذي يُرسلُ الرِّيحَ)^(٦)، والمُرادُ بها: التي تُثيرُ السَّحابَ».

قوله: ﴿فَيَظْلَنَنَّ﴾ بِفَتْحِ اللّامِ وَكَسْرِهَا): بِالْفَتْحِ: السَّبْعَةُ، وَالْكَسْرُ: شاذٌّ. قالَ ابنُ جَنِّي: «الْكَسْرُ قِراءةٌ قِراءةٌ قِراءةً، وهي على: ظَلَلْتُ أَظِلُّ؛ كَفَرَزْتُ أَفِرُّ، والمَشهورُ فيها: فَعَلْتُ أَفْعَلُ؛ ظَلَلْتُ أَظِلُّ، وأما ظَلَلْتُ أَظِلُّ^(٧): فلم يَمُرُّ بنا، لكن قد مرَّ نحو هذا: ضَلَلْتُ أَضِلُّ، وضَلَلْتُ أَضِلُّ، ولم يقرأ قِراءةً إلا بما رُوِيَ، وأقلُّ ما في هذا أن يكونَ قد سَمِعَ لغةً»^(٨).

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ٧٨.

(٢) وَيُؤَيِّدُهُ قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ يَمِينِ رِيحٍ طَيْبَةٍ وَقَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِيفٌ﴾ [يونس: ٢٢]، حيثُ وَصَفَ «الرِّيحَ» مرّةً بأنّها «طَيِّبَةٌ»، وأخرى بأنّها: «عَاصِيفٌ»، والأولى رحمة، والثانية عذاب.

(٣) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٢٤٥٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١٥٣٣)، وضعّفه الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠: ١٣٥). وانظر: «شرح مشكل الآثار» (٢: ٣٧٩).

(٤) «الانْتِصافُ» (٣: ٤٧١-٤٧٢) بحاشية «الكشاف».

(٥) أي: علّمَ الدين العراقي رحمه الله تعالى. وتقدّم التعريف بـ«الإِنصافِ» عند تفسير الآية ٦٠ من سورة التوبة (٧: ٢٨٠) تعليقا.

(٦) أي: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾ [فاطر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ [الأعراف:

٥٧]، قُرئَ بـ«الرِّيحِ» فيها، وهي قِراءةٌ حمزة والكسائي، كما في «النشر في القِراءاتِ العشر» لابن الجزري (٢: ٢٢٣)، وفيه تفصيلُ قِراءاتِ «الرِّيحِ» و«الرِّيحِ» في غير هاتين الآيتين أيضاً.

(٧) قوله: «وأما ظَلَلْتُ أَظِلُّ» سقط من (ح).

(٨) «المحتسب» لابن جَنِّي (٢: ٢٥٢).

من: ظَلَّ يَظُلُّ وَيَظِلُّ، نحو: ضَلَّ يَضِلُّ وَيَضِلُّ، ﴿رَوَاكِدٌ﴾ ثوابت لا تجزي، ﴿عَلَى ظَهْرِهِ﴾ على ظَهْرِ البحر، ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على بلاءِ الله، ﴿شُكْرٍ﴾ لِنِعْمَائِهِ، وهما صِفَتَا الْمُؤْمِنِ الْمُخْلِصِ، فَجَعَلَهَا كِنَايَةً عَنْهُ، وهو الذي وَكَّلَ هِمَّتَهُ بِالنَّظَرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ، فهو يَسْتَمَلِي مِنْهَا الْعِبَرَ.

﴿يُؤَيِّقُهُنَّ﴾ يُهْلِكُهُنَّ، والمعنى: أنه إن يَشَأْ يَبْتَلِي الْمُسَافِرِينَ فِي الْبَحْرِ بِأَحْدَى بَلِيَّتَيْنِ؛ إما أن يُسَكِّنَ الرِّيحَ فَيُرِكَدَ الْجَوَارِي عَلَى مَتْنِ الْبَحْرِ، وَيَمْنَعُهُنَّ مِنَ الْجَزْيِ، وإما أن يُرْسِلَ الرِّيحَ عَاصِفَةً فَيُهْلِكُهُنَّ إِغْرَاقًا بِسَبَبِ مَا كَسَبُوا مِنَ الذُّنُوبِ، ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ مِنْهَا.

فإن قلت: علامَ عطفَ ﴿يُؤَيِّقُهُنَّ﴾؟ قلت: على ﴿يُسَكِّنُ﴾، لأنَّ المعنى: إن يَشَأْ يُسَكِّنُ الرِّيحَ فَيُرِكَدُنَّ، أو يُعَصِفُهَا فَيَعْرِقُنَّ بَعْضُهَا.....

قوله: (وهما صِفَتَا الْمُؤْمِنِ): قال الإمام: «الْمُؤْمِنُ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، فَإِنْ كَانَ فِي الضَّرَّاءِ: كَانَ مِنَ الصَّابِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّرَّاءِ: كَانَ مِنَ الشَّاكِرِينَ»^(١)، روى مُحْيِي السُّنَّةِ فِي «المصابيح» عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا، فَقُلْتُ: لَا يَا رَبِّ، وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا، وَأَجُوعُ يَوْمًا، فإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ حَمِدْتُكَ وَشَكَرْتُكَ»^(٢).

قوله: (فَجَعَلَهَا كِنَايَةً عَنْهُ): ونحوها قولك: الإنسانُ حَيٌّ مُسْتَوِي الْقَامَةِ عَرِيضُ الْأُظْفَارِ. وأقول: حَسَنَ مَوْقِعَ هَذِهِ الْكِنَايَةِ فِي هَذَا الْمَقَامِ: أَنَّ مَوَاجِبَ الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ لَمْ تَبَيَّنْ فِي سَائِرِ الْحَالَاتِ ظُهُورَهُ فِي حَالَتِي الرُّكُوبِ فِي الْبَحْرِ وَالخُرُوجِ مِنْهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِرَبِّكُمْ﴾ [يونس: ٢٢٢] الآيات.

قوله: (يَسْتَمَلِي مِنْهَا الْعِبَرَ)، الجوهرية: «اسْتَمَلَيْتُ الْكِتَابَ: سَأَلْتُهُ أَنْ يُمَلِّئَهُ عَلَيَّ».

(١) «مفاتيح الغيب» للرازي (٢٧: ٦٠٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٤٧) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

فإن قلت: فما معنى إدخال العفو في حكم الإيلاق حيث جُزِمَ جَزَمَهُ؟ قلت: معناه: أو إن يَشَأْ يَهْلِكُ ناساً وَيُنَجِّ ناساً على طريق العفو عنهم. فإن قلت: فمن قرأ «ويعفو»؟ قلت: قد استأنف الكلام.

[وَعَلَّمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾]

فإن قلت: فما وجوه القراءات الثلاث في ﴿وَعَلَّمَ﴾؟ قلت: أما الجزمُ فعلى ظاهر العطف، وأما الرفعُ فعلى الاستئناف، وأما النصبُ فللعطف على تعليل محذوف،

قوله: (فما وجوه القراءات الثلاث في ﴿وَعَلَّمَ﴾؟): الرفع: قراءة نافع وابن عامر، والنصب: الباقون^(١)، والجزم: شاذ.

أما الجزم: فعلى ظاهر العطف، فيكون التشريك بينهما في المسببية، وأما الرفع: فهو ما ذكره ابن الحاجب: إما أن يقصد إلى عطف الجملة على موضع الجزم المتقدم، باعتبار كونها جملة، لا باعتبار عطف مجرد الفعل، فعلى هذا يكونان أيضاً مشتركين في المسببية، أو يكون إخباراً بوقوع ذلك، لا على تشريك بينه وبين ما قبله^(٢). وهو المراد من قول المصنف: «فعلى الاستئناف».

وقلت: مرجع الاستئناف أيضاً إلى التعليل، وتفويض استفادته إلى الذهن، وهذا البحث قريب مما في «المفصل»: «﴿أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾ [الفتح: ١٦]: بالنصب^(٣) على إضمار «أن»، والرفع على الاشتراك بين «﴿يُسَلِّمُونَ﴾» و«﴿نُقَتِّلُوهُمْ﴾»، أو على الابتداء^(٤)، في «الإقليد»^(٥): إن أردت الابتداء قدزت: «أو هم يسلمون»، فالمعنى: أن المؤمنين هم المتولون للقتال، وسيجيء الكلام فيه مستقصى.

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٥، و«حجة القراءات» ص ٦٤٣.

(٢) انظر نحوه في «الأمالي النحوية» لابن الحاجب (١: ٢٩).

(٣) لفظ الزمخشري في «المفصل»: «قرئ قوله تعالى: ﴿نُقَتِّلُوهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾ بالنصب، يعني: «أو يسلموا».

(٤) «المفصل» للزمخشري ص ٢٤٧.

(٥) كتاب في شرح «المفصل»، للعلامة شرف الدين أحمد بن محمود بن عمر السجدي، المتوفى نحو سنة ٧٠٠.

انظر: «كشف الظنون» (٢: ١٧٧٦)، و«الأعلام» للزركلي (١: ٢٥٤).

تقديره: لِيَسْتَقِمَّ مِنْهُمْ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ، ونحوه في العطفِ على التعليل المحذوفِ غيرِ عزيز في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّهَا آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مریم: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢].

وأما قول الزجاج: النَّصْبُ على إضمارِ «أن»، لأنَّ قبلها جزاء؛ تقول: ما تَصْنَعُ أصْنَعُ مثله وأُكْرِمُكَ، وإن شئت: وأُكْرِمُكَ؛ على: وأنا أُكْرِمُكَ، وإن شئت: وأُكْرِمُكَ؛ جَزْماً، ففيه نظر؛ لِمَا أوردَه سيبويه في «كتابه»، قال: «واعلم أنَّ النَّصْبَ بالفاءِ والواوِ في قوله: إن تَأْتِي آتِكَ وَأُعْطِيكَ، ضعيف، وهو نحوُّ من قوله:

وَالْحَقُّ بِالْحِجَازِ فَاسْتَرِيحَا

قوله: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّهَا آيَةً لِلنَّاسِ﴾: يعني: في «مریم»، وتقديره: لِنُبَيِّنَ به قُدْرَتَنَا ولنَجْعَلَنَّ آيةً.

قوله: ﴿وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ﴾: أي: في «الجاثية»، تقديره: وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَدُلَّ بها على قُدْرَتِهِ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ.

قوله: (وَالْحَقُّ بِالْحِجَازِ فَاسْتَرِيحَا): أوله:

سَأْتُرُّكَ مَنزِلِي لِنَبِيِّ تَمِيمٍ^(١)

نَصَبَ «الْحَقِّ»^(٢) وهو ضعيف؛ لأنه ليس في جوابِ الأشياءِ السُّنَّةِ^(٤).

(١) تحرّف في (ف) إلى: «إنه تميم».

(٢) استشهد به سيبويه في «الكتاب» (٣: ٣٩ و٩٢)، وانظر: «شرح شذور الذهب» لابن هشام ص ٣٠١، و«مغني اللبيب» (١: ١٧٥)، و«شرح الرضي على الكافية» (٤: ٦٦)، و«حاشية الصّبّان على شرح الأشموني على الألفية» (٣: ٤٤٧).

(٣) كذا قال المؤلف، والظاهر أنه سبق قلم منه، رحمه الله تعالى، والصواب: «أستريح»، كما يُعلم من المصادر المذكورة في الحاشية السابقة.

(٤) تحرّف في (ح) إلى: «الأساء السُّنَّة»، والمرادُ به «الأشياء السُّنَّة»: «الأمرُ والنهي والنفي والاستفهام والتمني والعرض»، كما في «المفصل» للزمخشري ص ٢٤٦، و«المغرب في ترتيب المعرب» للمطري (٢: ٤٣٧).

فهذا يجوز، وليس بحدّ الكلام ولا وجهه، إلا أنه في الجزاء صار أقوى قليلاً، لأنه ليس بواجب أنه يفعل، إلا أن يكون من الأول فعل، فلما ضارع الذي لا يوجب، كالاستفهام ونحوه، أجازوا فيه هذا على ضعفه، انتهى.

ولا يجوز أن تحمّل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ليس بحدّ الكلام ولا وجهه، ولو كانت من هذا الباب كما أخلّ سيبويه منها «كتابه»، وقد ذكر نظائرهما من الآيات المشكّلة.

قوله: (وليس بحدّ الكلام ولا وجهه): قيل: أراد بالحدّ: الجواز، وبالوجه: الحسن، ويمكن أن يراد بالحدّ: الثابت المقرّر والمؤصل، وبالوجه: ما يحتمل عليه شيء أمثاله له.

قوله: (لأنه ليس بواجب أنه يفعل، إلا أن يكون في^(١) الأول فعل، فلما ضارع الذي لا يوجب كالاستفهام ونحوه، أجازوا): يعني: أن فعل الجزاء يشبه الإنشائيات في أنه غير ثابت إلا أن يثبت الشرط، فجاز لهذا أن يجاب بما تجاب به الأشياء الستة، لأنها ليست بثابتة، لكن على ضعفه.

وأما البيت: فهو خبر محض، فلا يجوز، اللهم إلا أن يقال: إن قوله: «سأترك» فعل مضارع، والمضارع أيضاً غير ثابت كالتمني والترجي، فلذلك جاز أن يتصّب «الحق»، وقيل: التقدير: «وشأنى أن الحق»، فحذف المبتدأ، وقيل في قول سيبويه: «إن النصب بالفاء والواو» إلى آخره: بحث؛ لأن المراد بالضعيف في مثل هذا الموضع قلة وروده في كلام الفصحاء، ونحن نقول: إذا ورد مثله في كلام الله المجيد فالوجه أن يتمسك به، ويُجعل قوياً، فإنه المعيار والمهيمن على جميع الكتب.

(١) كذا في الأصول الخطية، وكذا هو في نص «الكشاف» من (ط)، أما الأصل الخطي من «الكشاف» والمطبوع ففيها: «من».

فإن قلت: فكيف يصح المعنى على جزم «ويعلم»؟ قلت: كأنه قال: أو إن يشأ يجمع بين ثلاثة أمور؛ هلاك قوم ونجاة قوم وتحذير آخرين.

﴿مِنْ مَّحِيصٍ﴾ مِنْ مَحِيدٍ عَنْ عِقَابِهِ.

[﴿مَا أوتيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَغَنَّ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

يَتَوَكَّلُونَ﴾ [٣٦]

«ما» الأولى ضُمَّتْ معنى الشَّرْطِ، فجاءت الفاء في جوابها، بخلاف الثانية، عن علي رضي الله عنه: اجتمع لأبي بكر رضي الله عنه مال، فتصدَّق به كُلِّهِ في سبيلِ الله والخير، فلأمة المسلمون، وخطأه الكافرون، فنزلت.

قوله: (فكيف يصح^(١) المعنى على جزم «ويعلم»؟): يعني: يرجع معنى الجزم إلى قوله: «ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام، إن يشأ يعلم الذين يجادلون في آياتنا»، فما معناه؟ وأجاب: بأن معناه التحذير، وتقريره أن يُقال: ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام، إن يشأ يهلك المؤمن العاصي بسبب عصيانه، ويعف عن كثير، لشمول رحمته وعميم لطفه، وإن يشأ يتتقم من الكافر بكفره، ويُجازيه على صَرف آيات الله المُنْبِتة في الآفاق على اختلاف أنواعها وخياً ونظراً عن مواقعها، ولكن أمهل لصبره وحليمه^(٢)، فكما عبَّر عن المؤمن بقوله: ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، عبَّر عن الكافر بقوله: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِنَا﴾، نعم .. جاء ذكر الكافر مُسْتَطَرِّداً للذكر العاصي وعصيانه، لأنَّ «يعف عن كثير» في الآيتين^(٣): وارد في حقِّ المؤمنين، - كما مرَّ - والله أعلم.

قوله: («ما» الأولى ضُمَّتْ معنى الشَّرْطِ): من حيث إن إيتاء ما أُوتوا سبباً للتمتع في الحياة الدنيا، فجاءت الفاء في جوابها، وأما «ما» الثانية: فموصولة مُبْتَدَأ، والخبر ﴿خَيْرٌ﴾، المعنى: وما استقرَّ عند الله من الثواب في العقبى خيراً للمؤمنين المتوكلين المجتنبين كبائر الإثم

(١) تحرَّفَ في (ح) و(ف) إلى: «فكر نصحي»، والمُثَبَّت من (ط).

(٢) كذا في (ط) و(ح)، وفي (ف): «أمهل تبصرة وحكمة».

(٣) وهما: الآية ٣٠ والآية ٣٤ من هذه السورة.

﴿ وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ كِبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [٣٧]

﴿ وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ ﴾ عطفٌ على ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وكذلك ما بعده. ومعنى ﴿كِبِيرَ الْإِثْمِ﴾ الكبائر من هذا الجنس، وقُرئ: «كبير الإثم»، عن ابن عباس: كبير الإثم هو الشُّرك. ﴿هُم يَغْفِرُونَ﴾ أي: هم الأخصاء بالغفران في حال الغضب، لا يقول الغضب أحلامهم كما يقول حُلوم الناس، والمحيء بـ ﴿هُم﴾، وإيقاعه مُبتدأ، وإسناد ﴿يَغْفِرُونَ﴾ إليه: لهذه الفائدة، ومثله: ﴿هُم يَنْصُرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩].

﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [٣٨]

﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ نزلت في الأنصار، دعاهم الله عزَّ وجلَّ للإيمان به وطاعته، فاستجابوا له بأن آمنوا به وأطاعوه، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ وأتموا الصَّلوات الخمس، وكانوا قبل الإسلام وقبل مقدَّم رسول الله ﷺ المدينة، إذا كان بينهم أمرٌ اجتمعوا وتشاوروا، فأثنى الله عليهم،

الكاظمين الغيظَ المستجيبين لربهم. هذا هو الذي عناه بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ كِبِيرَ الْإِثْمِ ﴾ عطفٌ على ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وكذلك ما بعده.

قوله: (لا يقول الغضب أحلامهم)، الجوهرى: «كُلُّ ما اغتال الإنسان فأهلكه: فهو غُول، و«الغضبُ غُولُ الحِلْمِ»؛ لأنه يَغْتالُه وَيَذْهَبُ به».

قوله: (وكانوا قبل الإسلام ... إذا كان بينهم أمرٌ اجتمعوا وتشاوروا): يريد: أن قوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ جملة اسمية عطفٌ على الفعلية، وعطفٌ عليها الفعلية، فأذن بأن مضمونها مُستورٌ منهم، وهو دأبهم وعادتهم قبل استجابتهم لربهم، وقبل إقامة الصلوة والإنفاق في سبيل الله؛ لاستحداثهم إياها بعد المشورة. وفيها أيضاً حمل المصدر على الأمر والشأن للمبالغة، أي: أمرهم وشأنهم ذو مشورة، أو ذات مشورة، أو عيُنُها، وفيها أن أمرهم مبنية على الرشد والصلاح لِمَا تَقَرَّرَ أنه ما تشاور قومٌ إلا هُدوا لأرشد أمرهم.

أي: لا يَنْفَرُدُونَ برأي حتى يجتمعوا عليه. وعن الحسن: ما تَشَاوَرَ قومٌ إلا هُدُوا لأرشدِ أمرِهِم، والشُّورى: مَصْدَرٌ، كالفْتيا، بمعنى: التَّشاورُ.

ومعنى قوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أي: ذو شُورى، وكذلك قولهم: ترك رسول الله ﷺ وعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه الخِلافةَ شُورى.

[﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [٣٩]

قوله: (والشُّورى: مَصْدَرٌ، كالفْتيا): الجوهري: «اسْتَفْتَيْتُ الْفَقِيهَ فَأَفْتَانِي، وَالاسْمُ: الْفُتْيَا وَالْفُتْيَى».

الراغب: «المُشَوَّرَةُ: اسْتِخْرَاجُ الرَّأْيِ بِمُرَاجَعَةِ الْبَعْضِ إِلَى الْبَعْضِ، مِنْ: شُرْتُ الْعَسَلِ وَأَشْرْتُهُ: اسْتِخْرَجْتَهُ. وَالشُّورى: الأَمْرُ الَّذِي يُتَشَاوَرُ فِيهِ»^(١).

قوله: (ترك رسول الله ﷺ وعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه): وكان من حَدِيثِهِ على ما جاء في «التاريخ الكامل»: «أَنَّ عُمَرَ رضي الله عنه لَمَّا طَعِنَ، قِيلَ لَهُ: اسْتَخْلِفْ، فَقَالَ: لَوْ كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ حَيًّا لاسْتَخْلَفْتُهُ وَقُلْتُ لِرَبِّي إِنْ سَأَلَنِي: سَمِعْتُ نَبِيَّكَ يَقُولُ: «إِنَّ أَمِينَ هَذِهِ الْأُمَّةِ»، وَلَوْ كَانَ سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُدَيْفَةَ حَيًّا لاسْتَخْلَفْتُهُ وَقُلْتُ لِرَبِّي إِنْ سَأَلَنِي: سَمِعْتُ نَبِيَّكَ يَقُولُ^(٢): «إِنَّ سَالِمًا شَدِيدُ الْحُبِّ لِلَّهِ»، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَدُلُّكَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، فَقَالَ: قَاتَلَكُمُ اللَّهُ، مَا أَرَدْتُ هَذَا، وَنَحَكَ؟ كَيْفَ اسْتَخْلِفُ رَجُلًا عَجَزَ عَنِ طَلَاقِ امْرَأَتِهِ؟ وَلَا أَرْبَ لَنَا^(٣) فِي أُمُورِكُمْ، مَا حَمَدْتُهَا لِأَرْعَبَ فِيهَا لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، إِنْ كَانَ خَيْرًا فَقَدْ أَصَبْنَا مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا فَقَدْ صُرِفَ عَنَّا، حَسِبُ آلَ عُمَرَ أَنْ يُحَاسِبَ مِنْهُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَيُسْأَلُ عَنِ أَمْرِ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ، أَمَا لَقَدْ جَهَدْتُ نَفْسِي، وَحَرَمْتُ أَهْلِي، وَإِنْ نَجَوْتُ كَفَافًا، لَا وَرَزَّ وَلَا أَجْرَانِي لَسَعِيدٍ،

(١) «مفردات القرآن» ص ٤٧٠.

(٢) من قوله: «إِنَّ أَمِينَ» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ح).

(٣) أي: لا حاجة لنا.

هو أن يَقْتَصِرُوا في الانتصارِ على ما جعله الله لهم، ولا يَعْتَدُوا.....

أنظر؛ فإن أَسْتَخْلَفَ فقد اسْتَخْلَفَ مَنْ هو خيرٌ مني - يعني: أبا بكرٍ رضي الله عنه -، وإن أترك فقد ترك مَنْ هو خيرٌ مني - يعني: رسولَ الله ﷺ -، ولن يُضَيِّعَ اللهُ دينَه.

فخرجوا، ثم راحوا، فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، لو عَهِدْتَ عَهْدًا، فقال: لقد كنتُ أَجْمَعْتُ بعدَ مقاتلي أن أُولِي رجلاً هو أَجْرُكُمْ أن يَحْمِلَكُمْ على الحق، وأشار إلى علي رضي الله عنه، فَرَهَقْتَنِي غَشِيَةً، فرأيتُ رجلاً دَخَلَ جَنَّةً، فَجَعَلَ يَقْطِفُ كُلَّ غَضَّةٍ وَيَانِعَةٌ، فيَضُمُّهُ إليه وَيُصَيِّرُهُ تَحْتَهُ، فَعَلِمْتُ أَنَّ اللهَ غَالِبٌ [على] (١) أمره، فما أردتُ أن أتَحَمَّلَهَا حَيًّا وَمَيِّتًا، عليكم بهؤلاءِ الرَّهْطِ الذين قال لهم رسولُ الله ﷺ: «إنهم من أهل الجنة»؛ عليٌّ وعُثمانُ وسَعْدُ والزُّبيرُ وطَلْحَةُ وعبدُ الرحمن، فليختاروا منهم رجلاً، فإذا وَلَّوا رجلاً فأحْسِنُوا مُوَاظَرَتَهُ وأَعِينُوهُ» (٢)، إلى آخِرِ القِصَّةِ.

فإن قلت: أيُّ الأمرين أُولِي؟ قلت: الذي اختاره رضي الله عنه، ولَعَلَّ نَظَرَ رسولِ الله ﷺ في تَرْكِ الأَمْرِ سُورِي إلى أن الأَمْرَ نُبُوَّةٌ لا مُلْك، وأن أُمَّتَهُ أختيارٌ إنما يَخْتارُونَ ما هو الدينُ ورضا الله، دونَ هَوَى الأَنْفُسِ، ألا ترى إلى رسولِ الله ﷺ بِمَ قَابَلِ الشُّورَى في قوله: «إذا كانَ أَمْرًاؤُكُمْ خِيَارَكم، وأَغْنِيَاؤُكُمْ أَسْخِيَاءَكم، وأَمْرُكُمْ سُورَى بَيْنَكم، فَظَهَرُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكم من بَطْنِها، وإذا كانَ أَمْرًاؤُكُمْ شِرَارَكم، وأَغْنِيَاؤُكُمْ (٣) بُخْلَاءَكم، وأَمْرُكُمْ إلى نِسَائِكُمْ، فَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكم من ظَهْرِها» (٤)، وفي الآية إِياءٌ إلى هذا المعنى، والله أعلم.

قوله: (هو أن يَقْتَصِرُوا في الانتصارِ على ما جعله الله لهم، ولا يَعْتَدُوا): يعني: دَلَّ التَّركِيبُ على مَزِيدِ اِخْتِصَاصِهِم بِالانْتِصَارِ، وذلك لمَجِيءِ الضميرِ وإيقاعه مُبْتَدَأً، وإِسنادِ

(١) الحرف «على» سقط من الأصول الخطية، وأضفته من «الكامل» لابن الأثير.

(٢) «الكامل في التاريخ» لابن الأثير، حوادث سنة ٢٣هـ.

(٣) من قوله: «وأسخياءكم» إلى هنا، سقط من (ح).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٢٦٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعن النَّخَعِيِّ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَرَأَهَا قَالَ: كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يُذَلُّوا أَنْفُسَهُمْ، فَيَجْتَرِي عَلَيْهِمُ
الْفُسَاقُ. فَإِن قُلْتُ: أَهْمُ مَحْمُودُونَ عَلَى الْإِنْتِصَارِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، لِأَنَّ مَنْ أَخَذَ حَقَّهُ غَيْرَ
مُتَعَدِّ حَدِّ اللَّهِ وَمَا أَمَرَ بِهِ، فَلَمْ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنْ كَانَ وَلِيَّ دَمٍ، أَوْ رَدَّ عَلَى سَفِيهِ، بِمَحَامَاةٍ
عَلَى عَرَضِهِ وَرَدْعاً لَهُ، فَهُوَ مُطِيعٌ، وَكُلُّ مُطِيعٍ مَحْمُودٌ.

[﴿ وَجَزَاؤُهَا سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ ٤٠]

كِلْتَا الْفَعْلَتَيْنِ الْأُولَى وَجَزَاؤُهَا سَيِّئَةٌ، لِأَنَّهَا تَسُوءُ مَنْ تَنْزَلُ بِهِ،

﴿ يَنْصَرُونَ ﴾^(١) عليه، ومثله ﴿ وَإِذَا مَا عَضُّوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٧]، وعليه قول الشاعر:

جُلُوسٌ فِي مَجَالِسِهِمْ رِزَانٌ وَإِنْ صَيَّفَ أَلَمٌ فَهَمْ خُفُوفٌ^(٢)

وَيَبْعُدُ أَنْ يُجْعَلَ مِنْ بَابِ تَقْوَى الْحُكْمِ، لِأَنَّهُ إِذَا قِيلَ: هُمْ يَغْفِرُونَ الْبَتَّةَ، فَهَمَّ أَنَّهُمْ لَا
يَتَجَاوَزُونَ إِلَى الْإِنْتِصَارِ، وَإِذَا قِيلَ: هُمْ يَنْتَصِرُونَ قَطْعاً، فَهَمَّ: أَنَّهُمْ لَا يَغْفِرُونَ الْبَتَّةَ.

وقال القاضي: ﴿ هُمْ يَنْصَرُونَ ﴾ على ما جعله الله لهم كراهة التذلل، وهو وصفهم
بالشجاعة بعد وصفهم بسائر أمهات الفضائل، وهو لا يُخَالِفُ وَصْفَهُم بِالْغُفْرَانِ، فَإِنَّ الْاِقْتِصَارَ
عَلَى الْغُفْرَانِ يُنبِئُ عَنِ الْعَجْزِ، وَالْحِلْمُ عَنِ الْعَاجِزِ مَحْمُودٍ، وَعَنِ الْمُتَغَلَّبِ مَذْمُومٍ^(٣).

وقلت: مثله قوله تعالى: ﴿ آذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَظَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤]، فهو من بابِ

التكميل.

قوله: (كِلْتَا الْفَعْلَتَيْنِ الْأُولَى وَجَزَاؤُهَا سَيِّئَةٌ؛ لِأَنَّهَا تَسُوءُ مَنْ تَنْزَلُ بِهِ): وقلت: بل تَسُوءُ
المُجَازِي؛ لِأَنَّ الْقَصْدَ هُوَ تَحْرِيطُ الْعَفْوِ وَالتَّجَاوُزِ، فَسُمِّيَ الْجِزَاءُ بِالسَّيِّئَةِ تَهْجِيناً، فَهُوَ مِنْ بَابِ
«حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقْرَبِينَ»، لَا مِنْ بَابِ الْمَشَاكَلَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى لِمَا أُثْبِتَ لِلَّذِينَ آمَنُوا

(١) في الأصول الخطية: «يغفرون»، وهو انتقال من قوله: ﴿ هُمْ يَنْصَرُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾.

(٢) هكذا ذكره السكاكي في «مفتاح العلوم» ص ١٩٦، وذكره أبو هلال العسكري «ديوان المعاني» (١: ٣٤)

بلفظ: «وإن صيَّفَ أَلَمٌ فهم وقوف».

(٣) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ١٣٣).

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ نُصِبْتَهُمْ سَيِّئَةٌ يَفْوُلُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [النساء: ٧٨]، يريد: ما يسوؤهم من المصائب والبلايا، والمعنى: أنه يجب إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة، فإذا قال: أخزأك الله، قال: أخزأك الله.

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء، كما قال: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾. عدة مبهمه لا يُقاس أمرها في العظم، وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ دلالة على أن الانتصار لا يكاد يُؤمن فيه تجاوز السيئة والاعتداء، خصوصاً في حال الحرِّد والتهاب الحمية، فربما كان المجازي من الظالمين وهو لا يشعر.

وعلى ربهم يتوكلون صفتين، وأن حالهم تارة إذا ما غضبوا هم يغفرون، وأخرى إذا أصابهم البغي هم ينتصرون، أرشدهم إلى خير الفضيلتين وأولى الحسنتين، فقال: ﴿وَحَرَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾، ولهذا ختم الآيات بقوله: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾، أي: لمن مغزومات الأمور، ومن شيم أولي العزم من الرُّسل.

النهاية: «العزم يجيء لمعنيين؛ بمعنى الجِدِّ والصَّبْرِ، وبمعنى الفرائض».

قوله: (فربما كان المجازي من الظالمين وهو لا يشعر): وقلت: فعلى هذا يكون قوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ اعتراضاً، والفاء مانعة منه، ويُمكن أن يُقال: إن المجازي لما نُسب إلى المساءة في قوله: ﴿وَحَرَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ - كما تقرر -، والمسيء في هذا المقام مُفسدٌ لما في البين، بدليل قوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، علل مفهوم ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، كأنه قيل: من أخرج نفسه بالعفو والإصلاح من الانتساب إلى السيئة والإفساد: كان مُقسطاً - أي: سالياً عن نفسه القسطن، أي: الجور -، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. فوضع موضعه: ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، وهو كما قال: «عدة مبهمه». ومن اشتغل بالمجازاة، وانتسب إلى السيئة، وأفسد ما في البين، وحرّم على نفسه ذلك الأجر الجزيل: كان ظالماً على نفسه ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

وقريب منه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَهُ يَمْهَدُونَ﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ [الروم: ٤٤-٤٥]، قال (١) رحمه الله: «وتكرير ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وترك الضمير إلى الصريح؛ لتقرير أنه لا يفلح عنده إلا المؤمن الصالح، وقوله: ﴿لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ تقريرٌ بعد تقريرٍ على الطرد والعكس (٢)».

ويمكن أن يُحمل كلام المصنف على هذا المعنى، وذلك أنه استشهد بقوله: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، وهو قد عقب قوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]، وقد ذكر أن الحسنه والسئيه متفاوتتان في أنفسهما، فخذ بالحسنه التي هي أحسن من أختها، ومثال ذلك: رجلٌ أساء إليك إساءة، فالحسنه أن تغفوَ عنه، والتي هي أحسن أن تحسن إليه مكان إساءته إليك.

فإن قلت: فعلى هذا كيف يلتئم قوله: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَاعَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ بما قبله، فإنه تعالى رفع عنهم كل حرج وضييق بتكبير ﴿سَبِيلٍ﴾؛ لشيوعه، فضلاً عن الظلم؟ قلت: تلك الآية وإردده في شأن المظلوم، وإرشادله إلى مكارم الأخلاق، وإيثار طريق المرسلين كما سبق، وهذه خطاب للولاية والحكام وتعليم فعل ما ينبغي فعله، بدليل قوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ... أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣)، حيث أعاد «السبيل» المنكر بالتعريف (٤)، وعلق به ﴿يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾، وفسره بقوله: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ويعضده تفسير الإمام: «أي: ما عليهم من سبيل لعقوبة ومؤاخذه؛ لأنهم أتوا بما أبيع لهم من الانتصار، وفائدته: ما ذهب إليه الشافعي رضي الله عنه: أن سريه القود مهدره؛ لأن الشرع أذن للمتصير بالقطع، سواء سرى أو لم يسر» (٥).

(١) أي: الرزخسري في «الكشاف» (١٢: ٢٥٩) في تفسير الآية المذكورة من سورة الروم.

(٢) تقدم بيان معنى الطرد والعكس عند تفسير الآية ٢٥ من سورة الأنفال (٧: ٧٠) تعليقا.

(٣) اختصار الآية من المؤلف رحمه الله تعالى.

(٤) أي: أعاد لفظ «سبيل» الذي ورد بالتكبير في قوله: ﴿مَاعَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾، أعاده مُعرفاً في قوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾.

(٥) «مفاتيح الغيب» للرازي (٢٧: ٦٠٧).

وعن النبي ﷺ: «وإذا كان يوم القيامة نادى مُناد: مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى اللَّهِ أَجْرٌ فَلْيَقُمْ. قال: فيقوم خلق، فيقال لهم: ما أجرُكم على الله؟ فيقولون: نحنُ الذين عَفَوْنَا عَمَّنْ ظَلَمْنَا، فيقال لهم: ادخلُوا الجنةَ بإذنِ الله».

[﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٤١-٤٢]

﴿بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ من إضافة المصدرِ إلى المفعول، وتفسرُه قراءةٌ مَنْ قَرَأَ: «بعدَ ما ظلم»، ﴿فَأُولَئِكَ﴾ إشارةٌ إلى معنى «مَنْ» دونَ لفظه، ﴿مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ للمعاقبِ ولا للعائبِ والعائبِ.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ يَتَدَبَّرُونَ بِالظُّلْمِ، ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يَتَكَبَّرُونَ فِيهَا وَيَعْلُونَ وَيُفْسِدُونَ.

[﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ٤٣]

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ﴾ على الظلم والأذى، ﴿وَغَفَرَ﴾ ولم يَتَّصِرْ وَقَوَّصَ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ، ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ منه ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾، وَحَدَفَ الرَّاجِعَ لِأَنَّهُ مَفْهُومٌ، كَمَا حُدِفَ مِنْ قَوْلِهِم: «السَّمْنُ مَتَوَانٌ بِدِرْهَمٍ».

وَيُحْكِي: أَنَّ رَجُلًا سَبَّ رَجُلًا مِثْلَهُ فِي مَجْلِسِ الْحَسَنِ،

وأما قوله: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: فتعليمٌ لِلوَلَاةِ طَرِيقَ الْحَكْمِ، يَعْنِي: أَنَّ صَاحِبَ الْحَقِّ إِذَا عَدَلَ مِنَ الْأَوَّلَى، وَانْتَصَرَ مِنَ الظَّالِمِ، فَلَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ؛ لِمَا قَدْ رُخِّصَ لَهُ ذَلِكَ، وَإِذَا اخْتَارَ الْأَفْضَلَ فَلَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَى الظَّالِمِ؛ لِأَنَّ عَفْوَ المَظْلُومِ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ، فَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالعُدْوَانِ.

قوله: (وَيُحْكِي: أَنَّ رَجُلًا سَبَّ رَجُلًا مِثْلَهُ): أوردَ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ في «مُسْنَدِهِ»^(١)

(١) برقم (٩٦٢٤)، وأخرجه أيضاً أبو داود في «سننه» (٤٨٩٦) و(٤٨٩٧).

فَكَانَ الْمَسْبُوبُ يَكْظُمُ وَيَعْرِقُ فَيَمَسُحُ الْعَرَقَ، ثُمَّ قَامَ، فَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ، فَقَالَ الْحَسَنُ: عَقَلَهَا - وَاللَّهِ - وَفَهِمَهَا إِذْ ضَيَّعَهَا الْجَاهِلُونَ. وَقَالُوا: الْعَفْوُ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ.

ثُمَّ الْأَمْرُ قَدْ يَنْعَكِسُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ، فَيَرْجِعُ تَرْكُ الْعَفْوِ مَنْدُوباً إِلَيْهِ، وَذَلِكَ إِذَا احْتِيَجَ إِلَى كَفِّ زِيَادَةِ الْبَغْيِ، وَقَطَعَ مَادَةَ الْأَذَى. وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَهُوَ: أَنَّ زَيْنَبَ أَسْمَعَتْ عَائِشَةَ بِحَضْرَتِهِ، وَكَانَ يَنْهَاهَا فَلَا تَنْتَهِي،

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «أَنَّ رَجُلًا سَتَمَ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالنَّبِيَّ ﷺ جَالِسٍ يَتَعَجَّبُ وَيَتَبَسَّمُ، فَلَمَّا أَكْثَرَ رَدَّ عَلَيْهِ بَعْضُ قَوْلِهِ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَامَ، فَلَحِقَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَانَ يَسْتُمْنِي وَأَنْتَ جَالِسٌ، فَلَمَّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ غَضِبْتَ وَقُمْتَ؟ قَالَ: إِنَّهُ كَانَ مَعَكَ مَلَكٌ يَرُدُّ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَدَدْتَ عَلَيْهِ^(١) وَقَعَ الشَّيْطَانُ، فَلَمْ أَكُنْ لِأَقْعُدَ مَعَ الشَّيْطَانِ».

قَوْلُهُ: (عَقَلَهَا وَاللَّهِ) أَي: عَمِلَ بِهَا. الْأَسَاسُ: «عَقَلَ فُلَانٌ بَعْدَ الصَّبَا، أَي: عَرَفَ الْخَطَأَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ».

قَوْلُهُ: (وَهُوَ أَنَّ زَيْنَبَ أَسْمَعَتْ عَائِشَةَ) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: رَوَيْنَا عَنْ أَبِي دَاوُدَ^(٢) عَنْ ابْنِ عَوْنٍ^(٣) قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَعِنْدَنَا زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ، فَجَعَلَ يَصْنَعُ بِيَدِهِ شَيْئًا، فَقَلْتُ بِيَدِي حَتَّى فَطَنْتُهُ لَهَا، فَأَمْسَكَ، وَأَقْبَلَتْ زَيْنَبُ تَقْحُمُ لِعَائِشَةَ، فَنَهَاهَا، فَأَبَتْ أَنْ تَنْتَهِيَ، فَقَالَ لِعَائِشَةَ: سُبِّهَا. فَسَبَّتُهَا، فَعَلَّبْتُهَا»، الْحَدِيثُ.

«أَسْمَعَتْ»: أَي: سَبَّتْ، يُقَالُ: أَسْمَعُ فُلَانٌ فُلَانًا؛ إِذَا سَبَّهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ [النساء: ٤٦]؛ أَي: غَيْرَ مَسْبُوبٍ.

(١) مِنْ قَوْلِهِ: «بَعْضُ قَوْلِهِ» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ح).

(٢) فِي «سُنَنِهِ» بِرَقْمٍ (٤٨٩٨) مِنْ طَرِيقِ ابْنِ عَوْنٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدِ بْنِ جُدْعَانَ، عَنْ أُمِّ مُحَمَّدٍ امْرَأَةِ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ. وَبِهِ يُعْلَمُ أَنَّ فِيمَا ذَكَرَهُ الْمُؤَلِّفُ اخْتِصَارًا يُؤْهِمُ أَنَّ ابْنَ عَوْنٍ يَرُوي عَنْ عَائِشَةَ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ.

(٣) تَحَرَّفَ فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةَ إِلَى: «عَوْفٍ»، وَالْمُثَبَّتِ مِنْ «سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ»، وَهُوَ الصَّوَابُ، فَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَوْنِ الْبَصْرِيِّ، الْعَالِمُ الْفَاضِلُ الثَّقِيُّ، الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ١٥٠، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، كَمَا فِي «تَقْرِيبِ التَّهْذِيبِ» لِلْحَافِظِ ابْنِ حَجَرَ (٣٥١٩).

فَقَالَ لِعَانِثَةَ: «دُونِكَ فَانْتَصِرِي».

[﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَرَئِهِ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ

إِلَىٰ مَرَرٍ مِنْ سَبِيلِ﴾ [٤٤]

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ وَمَنْ يَخْذُلِ اللَّهُ، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ وَرَئِهِ مِنْ بَعْدِهِ﴾ فليس له من ناصرٍ

يَتَوَلَّاهُ مِنْ بَعْدِ خِذْلَانِهِ.

[﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ

ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ * وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ

سَبِيلٍ﴾ [٤٥-٤٦]

﴿خَشِيعَاتٍ﴾ مُتَضَائِلِينَ مُتَقَاصِرِينَ مَا يَلْحَقُهُمْ ﴿مِنَ الذَّلِيلِ﴾، وَقَدْ يُعَلَّقُ ﴿مِنَ

الذَّلِيلِ﴾ بـ ﴿يَنْظُرُونَ﴾، وَيُوقَفُ عَلَىٰ ﴿خَشِيعَاتٍ﴾.

الجوهري: «للخصومة فُحْمٌ، أَي: تَفَحَّمُ بِصَاحِبِهَا عَلَىٰ مَا يُرِيدُهُ».

قوله: (دُونِكَ): أَي: خُذِي، الجوهري: «يُقَالُ فِي الإِغْرَاءِ بِالشَّيْءِ: دُونَكَ، وَقَالَ تَمِيمٌ

لِلْحَجَّاجِ: أَقْبِرْنَا صَالِحًا - وَكَانَ قَدْ صَلَبَهُ -، فَقَالَ: دُونَكُمْوهُ».

وَيُوقَفُ عَلَىٰ ﴿خَشِيعَاتٍ﴾، وَفِي «الكواشي»: يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ خَاشِعِينَ دَلِيلِينَ،

لَا وَقَفَ هَاهُنَا إِنْ عَلَّقْتَ ﴿مِنَ الذَّلِيلِ﴾ بـ ﴿خَشِيعَاتٍ﴾، وَتَقَفُ عَلَىٰ ﴿الذَّلِيلِ﴾، وَيَكُونُ

حَسَنًا إِنْ اسْتَأْنَفْتَ مَا بَعْدَ، وَإِنْ نَصَبْتَهُ حَالًا فَلَا أُحِبُّهُ، وَتَقَفُ عَلَىٰ ﴿خَشِيعَاتٍ﴾ إِنْ عَلَّقْتَ

﴿مِنَ الذَّلِيلِ﴾ بـ ﴿يَنْظُرُونَ﴾^(١). نَحْوُهُ فِي «المُرْشِدِ»^(٢).

(١) فِي الأَصُولِ الخَطِيئَةُ: «بـ (يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا)»، وَهُوَ مُخَالَفٌ لِلْفِظِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ، وَالتَّصْوِيبُ مِنْ «المُرْشِدِ» عَلَىٰ

مَا فِي مَخْتَصَرِهِ «المَقْصِدِ».

(٢) «المُرْشِدُ فِي الوَقْفِ وَالابْتِدَاءِ» لِأبي مُحَمَّد العُمَانِي، وَقَدْ لَخَّصَهُ العَلَامَةُ شَيْخُ الإِسْلَامِ زَكَرِيَا الأَنْصَارِيُّ

رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي «المَقْصِدِ لِتَلْخِيصِ مَا فِي المُرْشِدِ فِي الوَقْفِ وَالابْتِدَاءِ»، وَانظُرْ مِنْهُ ص ٦٩٤.

﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: يَتَدَيُّ نَظْرُهُمْ مِنْ تَحْرِيكِ لِأَجْفَانِهِمْ ضَعِيفٍ خَفِيٍّ بِمُسَارِقَةٍ، كما ترى المصْبُورَ يَنْظُرُ إِلَى السَّيْفِ، وَهَكَذَا نَظَرَ النَّاطِرُ إِلَى الْمَكَارِهِ، لَا يَقْدِرُ أَنْ يَفْتَحَ أَجْفَانَهُ عَلَيْهَا، وَيَمَلَأُ عَيْنِيهِ مِنْهَا، كَمَا يَفْعَلُ فِي نَظَرِهِ إِلَى الْمَحَابِّ. وَقِيلَ: يُحْسِرُونَ عُمِيًّا فَلَا يَنْظُرُونَ إِلَّا بِقُلُوبِهِمْ، وَذَلِكَ نَظْرٌ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ، وَفِيهِ تَعَسُفٌ.

﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِ﴿خَسِرُوا﴾، وَيَكُونُ قَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ وَإِقَاعًا فِي الدُّنْيَا، وَإِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِ«قَالَ»، أَي: يَقُولُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا رَأَوْهُمْ عَلَى تِلْكَ الصِّفَةِ.

[﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّنْ مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّكِيرٍ﴾ [٤٧]

﴿مِنَ اللَّهِ﴾ مِنْ صِلَةٍ ﴿لَا مَرَدَّ﴾، أَي: لَا يُرُدُّهُ اللَّهُ بَعْدَمَا حَكَمَ بِهِ،

قوله: (كما ترى المصْبُورَ)، المُغْرِبُ: «يُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا شَدَّتْ يَدَاهُ وَرَجَلَاهُ وَأَمْسَكَهُ رَجُلٌ آخَرُ حَتَّى يَضْرِبَ عُنُقَهُ: قُتِلَ صَبْرًا، وَمِنْهُ: «نَهَى عَنِ الْمَصْبُورَةِ»، وَهِيَ الْبَهِيمَةُ الْمَحْبُوسَةُ عَلَى الْمَوْتِ».

قوله: (وَإِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِ«قَالَ»): وَالْمَعْنَى عَلَى الْأَوَّلِ: أَيُّهَا النَّاطِرُ تَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ خَاشِعِينَ مِنَ الدَّلِّ، وَقَدْ صَدَّقَ فِيهِمْ قَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا: إِنَّ الْخَاسِرِينَ هُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَهَاهُنَا وَجْهٌ ثَالِثٌ، وَهُوَ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِ﴿خَسِرُوا﴾، وَالْقَوْلُ^(١) وَاقِعٌ فِي الْقِيَامَةِ، وَاخْتِصَاصٌ ذَكَرَ الْقِيَامَةَ لِلتَّهْوِيلِ، وَأَنَّ هَذَا الْخَسَارَ لَا خَسَارَ بَعْدَهُ، خَسَارٌ ضَرْبُهُ لِازِبٍ^(٢)، يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ: ﴿الْآنَ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾، لِأَنَّهُ تَذْيِيلٌ.

قوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: مِنْ صِلَةٍ ﴿لَا مَرَدَّ﴾: يَجُوزُ بِالْكَسْرِ وَالضَّمِّ، وَالْكَسْرُ أَظْهَرُ مِنَ الضَّمِّ فِي الْمَوْضِعَيْنِ^(٣).

(١) من هنا إلى آخر الفقرة التالية لهذه (إلى قوله: «في الموضعين») سقط من (ط).

(٢) أي: لازم، يُقال: هذا الأمرُ ضَرْبُهُ لِازِبٍ، أَي: لِأَزْمٍ شَدِيدٍ. «لسان العرب» لابن منظور، مادة (لذب).

(٣) يُريد: أَنَّهُ يَجُوزُ ضَبْطُ قَوْلِهِ: «صِلَةٌ بِالْكَسْرِ وَالضَّمِّ، وَعَلَيْهِ فَالتَّقْدِيرُ: «مِنَ اللَّهِ﴾ مِنْ صِلَةٍ ﴿لَا =

أو من صِلَةٍ ﴿يَأْتِي﴾، أي: من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحدٌ على رَدِّه، والنيكير: الإنكار، أي: ما لكم من مَحَلِّصٍ مِنَ الْعَذَابِ، ولا تقدرون أن تُنْكِرُوا شيئاً مما اقترفتُموه ودُونَ فِي صَحَائِفِ أَعْمَالِكُمْ.

[﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَفَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يِمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [٤٨]

أراد بـ«الإنسان»: الجمع لا الواحد؛ لقوله: ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ﴾، ولم يُرَدِّ إِلَّا الْمُجْرِمِينَ، لأنَّ إصَابَةَ السَّيِّئَةِ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِنَّمَا تَسْتَقِيمُ فِيهِمْ، والرحمة: النعمة من الصَّحَّةِ وَالغِنَى وَالْأَمْنِ، والسَّيِّئَةُ: البلاء من المَرَضِ وَالْفَقْرِ وَالْمَخَافِ، والكفور: البليغ الكُفْران، ولم يقل: فإنه كُفُور؛ لِيُسَجَّلَ عَلَى أَنَّ هَذَا الْجِنْسَ مُوسُومٌ بِكُفْرَانِ النَّعْمِ، كما قال: ﴿وَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَأَطْلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، والمعنى: أنه يذُكِّرُ الْبَلَاءَ وَيَنْسَى النَّعْمَ وَيَغْمِطُهَا.

قوله: (ولم يقل: فإنه كُفُور؛ لِيُسَجَّلَ عَلَى أَنَّ هَذَا الْجِنْسَ مُوسُومٌ بِكُفْرَانِ النَّعْمِ): فالتعريفُ في «الإنسان» الأول: للعهد، وفي الثاني: للجنس، والقريئة الدالَّة على العهد قوله: ﴿يِمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، والمعنيون: الكفارُ الْمُخَاطَبُونَ؛ لِتَرْتُبِ قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ على قوله: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾، فهو من إقامة المظهر موضع المضمَر^(١)؛ للإشعار بتصميمهم على الكُفْران، والإيدان بأنهم لا يَرْعَوْنَ مِمَّا هُمْ فِيهِ.

وأفرد الضمير في ﴿فَرِحَ﴾، وجمع في ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ﴾، وعمَّ في ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكُفُورٌ﴾، لمفهوم واحد على الترقِّي في معنى: ليس يبدع من هذا الإنسان المعهود: الإصرار؛ لأنَّ هذا

= مَرَدٌ، أو «مِنْ اللَّهِ»: «مِنْ»: صِلَةٌ «لَا مَرَدَ»، أي: هي صِلَةٌ... إلخ. والله تعالى أعلم.

أما الموضعان: فهما قولُ الزمخشري: «مِنْ صِلَةٍ «لَا مَرَدَ»، وقوله: «أَوْ مِنْ صِلَةٍ «يَأْتِي»».

(١) يعني: كان الأصل أن يُقال: «وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّهُمْ كُفُورُونَ»، فعَدَلَ عنه إلى قوله: ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كُفُورٌ﴾.

[﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنشَاءً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَاقِبَةً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ ٤٩-٥٠]

لَمَّا ذَكَرَ إِذَاقَةَ الْإِنْسَانِ الرَّحْمَةَ وَإِصَابَتَهُ بِضِدِّهَا، أَتَبَعَ ذَلِكَ أَنَّ لَهُ الْمُلْكَ، وَأَنَّهُ يَقْسِمُ النِّعْمَةَ وَالْبَلَاءَ كَيْفَ أَرَادَ، وَيَهَبُ لِعِبَادِهِ مِنَ الْأَوْلَادِ مَا تَقْتَضِيهِ مَشِيئَتُهُ، فَيَخُصُّ بَعْضًا بِالْإِنثَاءِ، وَبَعْضًا بِالذُّكُورِ، وَبَعْضًا بِالصَّنْفَيْنِ جَمِيعًا، وَيُعْقِمُ آخَرِينَ، فَلَا يَهَبُ لَهُمْ وَلَدًا قَطًّا. فَإِن قُلْتُ: لِمَ قَدَّمَ «الْإِنثَاءَ» أَوْلَى عَلَى «الذُّكُورِ»، مَعَ تَقَدُّمِهِمْ عَلَيْهِنَّ، ثُمَّ رَجَعَ فَقَدَّمَهُمْ، وَلِمَ عَرَّفَ «الذُّكُورَ» بَعْدَ مَا نَكَرَ «الْإِنثَاءَ»؟ قُلْتُ: لِأَنَّهُ ذَكَرَ الْبَلَاءَ فِي آخِرِ الْآيَةِ الْأُولَى، وَكُفْرَانَ الْإِنْسَانِ بِنِسْيَانِهِ الرَّحْمَةَ السَّابِقَةَ عِنْدَهُ، ثُمَّ عَقَّبَهُ بِذِكْرِ مُلْكِهِ وَمَشِيئَتِهِ،

الْجِنْسَ مَوْسُومٌ بِكُفْرَانِ النَّعْمِ، فَجَعَلَ ذَمَّ «الْإِنْسَانِ» الثَّانِي الْمَطْلُوقِ دَلِيلًا عَلَى ذَمِّ هَذَا الْمُقَيَّدِ، وَلِذَلِكَ قَالَ: «لِيُسَجَّلَ».

قَوْلُهُ: (لَمَّا ذَكَرَ إِذَاقَةَ الْإِنْسَانِ الرَّحْمَةَ وَإِصَابَتَهُ بِضِدِّهَا، أَتَبَعَ ذَلِكَ أَنَّ لَهُ الْمُلْكَ): شَرَعَ فِي بَيَانِ النَّظْمِ، وَلَمْ يُبَيِّنْ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَنَّ لَيْسَ مُوجِبُ إِذَاقَةِ النَّعْمَةِ مِنَ اللَّهِ الْفَرَحَ وَالْبَطْرَ وَالْأَشْرَ، بَلْ هِيَ مُوجِبَةٌ لِلْحَمْدِ وَالشُّكْرِ لِمَوْلِيهَا، كَمَا لَيْسَ إِصَابَةُ السَّيِّئَةِ مِنْهُ تَعَالَى سَبَبًا لِلْكَفْرَانِ، بَلْ لِلْإِنَابَةِ وَالرَّجُوعِ إِلَى مُنْبِلِهَا، لِأَنَّ لَهُ الْمُلْكَ وَالْمَلَكُوتَ، وَلَهُ التَّصَرُّفُ فِي مُلْكِهِ مَا يَشَاءُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَلَيْسَ عَلَى الْإِنْسَانِ إِلَّا الشُّكْرُ عِنْدَ الْآلَاءِ، وَالصَّبْرُ عِنْدَ الْبَلَاءِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «لِأَنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ أَنَّهُ فَاعِلٌ مَا يَشَاءُ، لَا مَا يَشَاءُهُ الْإِنْسَانُ».

قَوْلُهُ: (لِأَنَّهُ ذَكَرَ الْبَلَاءَ فِي آخِرِ الْآيَةِ الْأُولَى) إِلَى آخِرِهِ: قَالَ صَاحِبُ «التَّقْرِيبِ»: وَفِيهِ بَحْثٌ، إِذْ يُمَكِّنُ مُعَارَضَتَهُ بِأَنَّ الْآيَةَ السَّابِقَةَ ذَكَرَ فِيهَا الرَّحْمَةَ مُقَدِّمَةً عَلَى الْبَلَاءِ، فَنَاسَبَ هَذَا تَقْدِيمَ الذُّكُورِ عَلَى الْإِنثَاءِ، لَا يُقَالُ: سِيَاقُ الْكَلَامِ أَنَّهُ فَاعِلٌ مَا لَا يَشَاءُهُ الْإِنْسَانُ، فَكَانَ ذِكْرُ مَا لَا يَشَاءُهُ الْإِنْسَانُ - وَهُوَ الْإِنثَاءُ - أَهَمًّا، فَيَكُونُ أَحَقَّ بِالتَّقْدِيمِ؛ لِأَنَّا نَقُولُ: السِّيَاقُ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ مَا يَشَاءُهُ الْإِنْسَانُ، لَا أَنَّهُ يَفْعَلُ مَا لَا يَشَاءُهُ الْإِنْسَانُ.

فإن قلت: إنه فاعلٌ ما يشاؤه، وقد شاء تقديم الإناث. قلت: شاء لحكمة أو لا لحكمة^(١)؟ فإن كان الثاني سقط أصل سؤال حكمة تقديم الإناث، وإن كان الأول كفت تلك الحكمة لتقديم الإناث، بدون هذا التطويل والتَّمحُّل. والأولى أن يقال: قدَّم الإناث توصيةً برعايتهنَّ لضعفهنَّ، لاسيما وقد كانوا قريبى العهد بالوآد.

وقال الزَّجاج: «ويجعل ما يهبه من الولد ذكراً وإناثاً، أي: يقرئهم، وكلُّ شيتين يقرئ أحدهما بالآخر فهما زَوْجان»^(٢)، فالتقدير: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا﴾ يعني: البنات ليس معهنَّ ذكر، ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾ يعني: البنين ليس معهم أنثى، ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا﴾ أي: يُولِّدُ لِرَجُلٍ ذُكُورًا وَإِنثًا، ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ لا ولد له.

وقال القاضي: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ بدلٌ من ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ بدلَ البعْضِ مِنَ الكُلِّ، والمعنى: يجعل أحوال العباد في الأولاد مختلفَةً على مُقتضى المشيئة^(٣)، يهبُ لبعضٍ إما صنفًا واحداً ذكراً أو أنثى، أو الصنفين جميعاً، ويُعقمُ آخرين، ولعلَّ تقديم الإناث لأنها أكثر لتكثير النسل، أو لتطبيب قلوب آبائهنَّ، أو المحافظة على الفواصل، ولذلك عرَّف الذكور^(٤)، وذكر الوجهين اللذين في «الكشاف» أيضاً.

وقلت: أما قضيَّة النظم: فإنَّ قوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وإردُّ على نَمَطِ الآياتِ السابقة، وهي: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥]، ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِلُّ الْعَاقِبَةَ﴾ [الشورى: ٢٨]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، ولما ذكر بَثَّ الحيوان، وأراد أن يُبيِّن كيفية البَثِّ قدَّم استبداده بالملك، واستقلاله بالملكوت، ثم ثبَّتْ بأنه خالقٌ لِمَا يشاء، فاعلٌ لِمَا يُريد، له التَّصَرُّفُ في ملكه ما يشاء كيف

(١) قوله: «أو لا لحكمة» سقط من (ف).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤: ٤٠٢).

(٣) تحرَّف في الأصول الخطية إلى: «المشبه»، والمثبت من «تفسير البيضاوي».

(٤) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ١٣٥).

وذكر قِسْمَةَ الأولاد، فَقَدَّمَ الإناثَ لأنَّ سِياقَ الكلامِ أنه فاعلٌ ما يَشَاؤُهُ، لا ما يَشَاؤُهُ الإنسان، فكانَ ذِكْرُ الإناثِ اللاتي من جُمْلَةِ ما لا يَشَاؤُهُ الإنسانُ أهمُّ، والأهمُّ واجبُ التقديم، وليكي الجِنْسُ الذي كانتِ العربُ تُعَدُّه بلاءً ذَكَرَ البلاءَ، وأخَرَ الذُّكُورَ، فلما أَخْرَجَهُمَ لذلكَ تَدَارَكَ تَأخِيرَهُمَ - وَهُمَ أَحَقُّاءُ بالتقديم - بتعريفهم، لأنَّ التعريفَ تنويهٌ وتشهير، كأنه قال: وَيَهَبُ لمن يَشَاءُ الفُرْسَانَ الأعلامَ المذكورينَ الذين لا يَخْفَوْنَ عليكم، ثم أعطى بعدَ ذلكَ كِلا الجِنْسَيْنِ حَقَّهُ مِنَ التقديم والتأخير، وعَرَّفَ أنَّ تقديمَهُنَّ لم يكن لِقَدَمِهِنَّ، ولكن لِمُقْتَضَى آخر، فقال: ﴿ذُكِّرْنَا وَإِنشَاءُ﴾، كما قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿جَعَلْنَاهُ الرِّزْقَيْنِ الذُّكْرَ وَالْأُنْثَى﴾ [القيامة: ٣٩].

وقيل: نزلت في الأنبياءِ صَلَّواتُ اللهُ عليهم وسلامُهُ، حيثُ وَهَبَ لِشُعَيْبٍ وَلُوطٍ إِنائاً، ولإبراهيمَ ذكوراً، ولحمَّداً ذكوراً وإناثاً، وجَعَلَ يحيى وعيسى عَقِيمَيْنِ.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِمَصَالِحِ العبادِ، ﴿قَدِيرٌ﴾ على تَكْوِينِ ما يُصَلِحُهُم.

[﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحياً أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى حَكِيمٍ﴾ ٥١]

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ وما صَحَّ لأحدٍ مِنَ البَشَرِ، ﴿أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا﴾ على ثلاثة أوجه:

إما على طريقِ الوَحْيِ، وهو الإلهامُ والقَدْفُ في القلبِ أو المنام،

يشاء، ثم ثَلَّثَ بقوله: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، فترَقَّى من ذلكَ العامِّ إلى ذِكْرِ الإناثِ، ثم إلى إفرادِ الذُّكُورِ، ثم إلى جَمْعِهِما، فلا يَدْخُلُ في الكلامِ إرادةُ الإنسانِ وكرهتُهُ.

وأما قوله: ﴿وَجَعَلَ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾: كالأستدراكِ وتتميمِ معنى الاستبداد، ولذلك عَيَّرَ العبارةَ إلى ﴿وَجَعَلَ مَنْ يَشَاءُ﴾، ثم ذَبَّلَ الكُلَّ وَعَلَّلَهُ بقوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾؛ ليكونَ ذريعةً إلى ذِكْرِ فَضْلِ مَنْ فَضَّلَ هذا النوعَ مِنَ المخلوقِ، ومُنْتَهَى كمالِهِ وغايةَ دَرَجاتِهِ؛ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحياً﴾ لِيُؤْذَنَ بأنَّ المقصودَ مِنَ الخَلْقِ: البَثُّ والدَّعوةُ إلى الله والتَّوجُّهُ إليه والعبادةُ له، وَخَتَمَ السُّورَةَ بِذِكْرِ أَفْضَلِهِمْ وَأَكْمَلِهِمْ وَأَشْرَفَهُمْ صَلَّواتُ اللهُ عليه وعليهم أجمعين.

قوله: (إما على طريقِ الوَحْيِ، وهو الإلهام): الراغب: «أصلُ الوَحْيِ: الإشارةُ السريعةُ،

كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده. وعن مجاهد:
 أوحى الله الزبور إلى داود عليه السلام في صدره، قال عبيد بن الأبرص:
 وأوحى إلى الله أن قد تأمروا بإبل أبي أوفى فقتل على رجل
 أي: ألهمني وقذف في قلبي.

وإما على أن يُسمعه كلامه الذي يخلقه في بعض الأجرام،

إما بالكلام رمزاً وتغريضاً، وإما بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح
 والكتابة^(١)، ويُقال للكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبيائه وأوليائه: وحي، وذلك أضرب حسب
 ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَشْرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾ الآية، وذلك إما برسولٍ مُشاهد يرى ذاته
 ويسمع كلامه؛ كتبليغ جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ في صورة معينة، وإما بسماع كلام
 من غير معاينة؛ كسماع موسى عليه السلام كلام الله، وإما بإلقاء في الرُوع، كما قال ﷺ: «إِنَّ
 رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي»، وإما بإلهام نحو: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:
 ١٧]، وإما بتسخير؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، أو بمنام؛ كما قال ﷺ:
 (انقطع الوحي وبقيت المبشرات: رؤيا المؤمن)^(٢).

و«أوحى» في البيت: يقول: ألهمني الله تعالى أن قوماً استولوا وغصبوا إبل أبي أوفى،
 وصاروا أمراء عليها، فقتل بجده واجتهاد في مددهم وتغصبهم لأرذها عليهم، ويروى:
 «تأجروا».

قوله: (وإما على أن يُسمعه كلامه الذي يخلقه في بعض الأجرام)، الانتصاف: «الحق أن

(١) كلام العلامة الراغب الأصبهاني - رحمه الله تعالى - عن «الوحي» من حيث معناه في اللغة، ولذلك قال:
 «أصل الوحي»، لا من حيث إضافته إلى الله تعالى، وإلا فالصوت وإشارة الجوارح مما تستحيل إضافته
 إلى الله تبارك وتعالى، فتنبه.

(٢) انظر: «مفردات القرآن» ص ٨٥٨. والحديث أخرجه البخاري (٦٩٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله
 عنه بلفظ: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة».

من غير أن يُبصر السامع من يكلمه، لأنه في ذاته غير مرئي، وقوله: ﴿مِنْ وَرَائِي حِجَابٌ﴾: مثل، أي: كما يكلم الملك المحتجب بعض خواصه، وهو من وراء الحجاب، فيسمع صوته ولا يرى شخصه، وذلك كما كلم موسى ويكلم الملائكة.

وإما على أن يرسل إليه رسولا من الملائكة، فيوحي الملك إليه، كما كلم الأنبياء غير موسى. وقيل: وحيًا كما أوحى إلى الرسل بواسطة الملائكة.

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي: نبيًا، كما كلم أمم الأنبياء على ألسنتهم.

و﴿وَحِيًّا﴾ و﴿أَنْ يُرْسِلَ﴾: مَصْدَرَانِ واقِعَانِ مَوْقِعِ الْحَالِ، لِأَنَّ «أَنْ يُرْسِلَ» فِي مَعْنَى: إِرْسَالًا. و﴿مِنْ وَرَائِي حِجَابٌ﴾: ظَرْفٌ واقِعٌ مَوْقِعِ الْحَالِ أَيْضًا - كقوله: ﴿وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١] - والتقدير: وما صحَّ أن يكلم أحداً إلا موحياً، أو مُسْمِعاً مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، أَوْ مُرْسِلاً.

كلام الله قديم، سمعه موسى، وسمعه نبينا صلوات الله عليهما، والحجاب المذكور باعتبار المخلوق لا باعتبار الخالق، ويستنبط من هذه الآية أن من حلف ألا يكلم فلاناً، فإسأله حنث؛ لاستثنائه تعالى الإرسال من الكلام^(١).

وقال القاضي: «معنى: ﴿إِلَّا وَحِيًّا﴾: كلاماً خفياً يدرك بسرعة، ليس في ذاته مركباً من حروف مقطعة تتوقف على تموجات متعاقبة، وهو أعم من المشافهة، كما روي في حديث المعراج، وكما اتفق لموسى عليه السلام في الطور، وفي قوله: ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٌ﴾ دليل على جواز الرؤية، لا على امتناعها^(٢).

قوله: (والتقدير: وما صحَّ أن يكلم أحداً إلا موحياً، أو مُسْمِعاً مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، أَوْ مُرْسِلاً): هاهنا سؤالان: أحدهما: أن قضية الترقّي من الأدنى إلى الأعلى أن يكون قوله: ﴿أَوْ

(١) ليس في المطبوع من «الانتصاف» لابن المنير، عند هذه الآية. والله أعلم.

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ١٣٦)، وفي نقل المؤلف رحمه الله تعالى كلام القاضي البيضاوي هذا، وفيه الاستدلال بالآية على تجويز الرؤية لا على امتناعها: تعقب منه لقول الزمخشري هنا: «لأنه في ذاته غير مرئي».

ويجوز أن يكون ﴿وَحِيًّا﴾ موضوعاً موضع: كلاماً، لأنَّ الوَحْيَ كلامٌ خَفِيٌّ في سُرْعَةٍ، كما تقول: لا أَكَلِمُهُ إِلاَّ جَهْرًا وإِلاَّ خُفَاتًا، لأنَّ الجَهْرَ والخُفَاتَ ضَرْبانِ مِنَ الكَلامِ، وكذلك «إرسالاً»، جُعِلَ الكَلامُ على لِسَانِ الرِّسُولِ بِمَنْزِلَةِ الكَلامِ بغيرِ واسِطَةٍ، تقول: قُلْتُ لِفُلانٍ كذا، وإِنما قالَهُ وَكَيْلَكَ أو رَسولَكَ. وقولُهُ: ﴿أَوْ مِنَ وَرَآئِي حِجَابٍ﴾ معناه: أو إِسْماعاً مِنَ وِراءِ حِجَابٍ.

وَمَنْ جَعَلَ ﴿وَحِيًّا﴾ فِي مَعْنَى: أَنْ يُوحَى، وَعَطَفَ ﴿يُرْسِلُ﴾ عَلَيْهِ،

مِن وَرَآئِي حِجَابٍ ﴿مُؤَخَّرًا عَنِ قَوْلِهِ: ﴿أَوْ يُرْسِلُ رَسُولًا﴾، لِأَنَّ الْمُكَامَلَةَ وَالرُّؤْيَا حَصَلَتِ مِنَ وِراءِ حِجَابٍ، وَإِنَّهُ أَرْفَعُ مَنْزِلَةً مِنَ المُرَاسَلَةِ، وَلِذَلِكَ مَدَحَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وَسَمَّاهُ «كَلِيمًا». وَثانِيها: ما فَائِدَةُ تَغْيِيرِ العِباراتِ؟

وقلتُ - والعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ -: يُمَكِّنُ أَنْ يُقالَ: إِنَّهُ لَوْ حُمِلَ الوَحْيُ عَلى ما قالَهُ القاضِي: ﴿إِلاَّ وَحِيًّا﴾: كَلاماً خَفِيًّا لَيْسَ فِي ذاتِهِ مُرَكَّباً مِنَ حُرُوفٍ مُقَطَّعَةٍ، كما رُوِيَ فِي حَدِيثِ المِراجِ، وَهُوَ المُشافِهُةُ، المَعْنى بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَوْحَى إِلى عَبْدِيهِ ما أَوْحَى﴾ [النجم: ٩]، لِحَصلِ مِنْهُ التَّنزِيلِ^(١)، وَلِظَهَرِ مِنْهُ الرَّمزُ فِي تَقْليلِ العِباراتِ وَخَفِيِّ التَّلويحاتِ، مَرْتَبَةٌ غِيبٌ^(٢) مَرْتَبَةٌ، بِحَسَبِ قِلَّةِ الوِسايطِ وَكَثْرَتِها، وما اجْتَمَعَتِ تِلْكَ المَرابِطُ التَّلَاثُ إِلاَّ لِسَيِّدِنَا صَلَواتُ اللَّهِ عَليه، حَيْثُ قالَ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِمَّنْ آمَرنَا﴾ الآية. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأسرارِ كَلامِهِ.

قوله: (وَمَنْ جَعَلَ ﴿وَحِيًّا﴾ فِي مَعْنَى: أَنْ يُوحَى): قال الرَّجَّاجُ: «قال سيبويه: سألتُ الخليلَ عَن قَوْلِهِ: ﴿أَوْ يُرْسِلُ رَسولًا﴾ بِالنَّصْبِ؟ فقال: هُوَ مَحْمولٌ عَلى أَنْ يَسوَى فِي هَذِهِ الَّتِي فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾، لِما يَلزَمُ مِنْهُ أَنْ يُقالَ: ما كانَ لِيَسْئِرَ أَنْ يُرْسِلَ اللَّهُ رَسولاً، وَذَلِكَ غَيْرُ جائِزٍ، وَالْمَعْنى: ما كانَ لِيَسْئِرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ بِأَنْ يُوحَى أو أَنْ يُرْسِلَ، وَيَجوزُ الرِّفْعُ فِي

(١) تحرف في (ح) إلى: «التزئيل».

(٢) أي: مرتبة بعد مرتبة. قال ابن منظور في «لسان العرب»، مادة (غيب): «غيب الأمر ومغيبته: عاقبته وأخزه...، وغيب كل شيء: عاقبته، وجثته غيب الأمر، أي: بعده».

على معنى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ أي: إلا بأن يُوحِيَ أو بأن يُرْسِل، فعليه أن يُقدَّر قوله: ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾ تقديرًا يُطابِقُهُمَا عليه، نحو: أو أن يُسْمِعَ مِنْ وراءِ حِجَابٍ.

وَقُرِي: «أَوْ يُرْسِلُ رَسُولًا فَيُوحِي» بِالرَّفْعِ؛ على: أو هو يُرْسِل، أو بمعنى: مُرْسِلًا، عَطْفًا عَلَى «وَحْيًا» فِي مَعْنَى: مُوْحِيًا.

«يُرْسِلُ» عَلَى مَعْنَى الْحَالِ، أَي: مُوْحِيًا أَوْ مُرْسِلًا رَسُولًا، وَذَلِكَ كَلَامُهُ، وَمِثْلُ «أَنْ يُرْسِلَ» بِالنَّصْبِ: قَوْلُ الْحَصِينِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمُرِّيِّ:

وَلَوْلَا رَجَالٌ مِنْ رِزَامِ أَعَزَّةَ وَأَلْ سُبَيْعِ أَوْ أَسْوَأَكَ عَلَقَمَا (١) (٢)

وَقَالَ صَاحِبُ «الْكَشْفِ»: «مِنْ» - فِي «مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ» -: تَتَعَلَّقُ بِمُضْمَرٍ، وَالتَّقْدِيرُ: إِلَّا مُوْحِيًا أَوْ مُكَلِّمًا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، فَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى «وَحْيًا»، وَ«وَخِي»: مَصْدَرٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، وَلَا تَتَعَلَّقُ «مِنْ» بِقَوْلِهِ: «أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ»، لِأَنَّهُ قَبْلَ حَرْفِ الْاسْتِثْنَاءِ، فَلَا يَعْمَلُ فِيهَا بَعْدَهُ، مَعَ أَنَّهُ جُوزَ تَعَلُّقُهُ بِهِ؛ لِأَنَّهُ ظَرْفٌ، وَالظَّرْفُ يَعْمَلُ فِيهِ الْوَهْمُ، «أَوْ يُرْسِلُ رَسُولًا» فِي تَقْدِيرٍ: أَوْ أَنْ يُرْسِلَ، وَهُوَ عَطْفٌ عَلَى «وَخِي»، أَي: إِلَّا وَخِيًا أَوْ إِرسَالًا رَسُولًا، وَلَا يَكُونُ عَطْفًا عَلَى «أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ»، لِأَنَّهُ فَاسِدٌ (٣).

قَالَ مَكِّي: «لِأَنَّهُ يَلْزَمُهُ نَفْيُ الرَّسُولِ أَوْ نَفْيُ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ» (٤).

قَوْلُهُ: (وَقُرِي: «أَوْ يُرْسِلُ رَسُولًا فَيُوحِي» بِالرَّفْعِ): قَرَأَهَا نَافِعٌ (٥).

(١) انظر: «الكتاب» لسيبويه (٣: ٤٩-٥٠)، و«المفصليات» ص ٦٦، و«لسان العرب» لابن منظور، مادة (رزم).

ومحل الشاهد فيه قوله: «أو أسوأك» بالنصب، على تقدير: «لولا ذاك أو لولا أن أسوأك».

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤: ٤٠٣).

(٣) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٢٠٣-١٢٠٥).

(٤) «مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب (٢: ٦٤٨).

(٥) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٥، و«حجة القراءات» ص ٦٤٤.

وروي: أن اليهود قالت للنبي ﷺ: «ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً، كما كلمه موسى ونظر إليه، فإننا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك، فقال: لم ينظر موسى إلى الله، فنزلت». وعن عائشة رضي الله عنها: «من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية»، ثم قالت: «أولم تسمعوا ربكم يقول» فتلت هذه الآية.

﴿إِنَّهُمْ عَلَىٰ﴾ عن صفات المخلوقين، ﴿حَكِيمٌ﴾ تجري أفعاله على موجب الحكمة، فيكلم تارة بواسطة، وأخرى بغير واسطة؛ إما إلهاماً، وإما خطاباً.

[﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ ٥٢-٥٣]

قوله: (وعن عائشة رضي الله عنها): روي عن البخاري ومسلم والترمذي^(١) عن عائشة رضي الله عنها: «من زعم أن محمداً رأى ربه فقد كذب»، ثم قرأت: ﴿لَا تَدْرِيكَ الْأَبْصَرُ وَهُوَ يَدْرِيكَ الْأَبْصَرُ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾، وسيجيء الكلام فيه في «النجم» إن شاء الله تعالى.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ عَلَىٰ﴾ عن صفات المخلوقين، ﴿حَكِيمٌ﴾ تجري أفعاله على موجب الحكمة): يعني: هذه الفاصلة تعليل لما سبق، أي: ما صح لأحد من البشر أن يكلمه الله إلا على هذه الأوجه، والمعنى: كما أنه عز شأنه عليّ عن أن يكون جنابه مشرع كل أحد، كذلك حكيم لا يصل إلى ببداء حكمته في إرسال الرسل وهم كل متوهم، ومن ثم نودي أفضل خلق الله وأكرمهم عليه بقوله: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾، قال القاضي: ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل ما تقتضيه حكمته، يكلم تارة بوسط، وتارة بغير وسط، إما عياناً أو من وراء حجاب^(٢).

(١) البخاري (٣٢٣٤) و(٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧)، والترمذي (٣٠٦٨).

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (١٣٦:٥).

﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يُريد: ما أَوْحِيَ إِلَيْهِ، لِأَنَّ الْخَلْقَ يَحْيَوْنَ بِهِ فِي دِينِهِمْ، كَمَا يَحْيَى الْجَسَدُ بِالرُّوحِ.

فإن قلت: قد عَلِمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ما كَانَ يَدْرِي ما الْقُرْآنُ قَبْلَ نُزُولِهِ عَلَيْهِ، فما مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾، وَالْأَنْبِيَاءُ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِمْ إِذَا عَقَلُوا وَتَمَكَّنُوا مِنَ النَّظَرِ وَالاسْتِدْلَالِ أَنْ يُخْطِئَهُمُ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونُوا مَعْصُومِينَ مِنْ ارْتِكَابِ الْكِبَائِرِ، وَمِنَ الصَّغَائِرِ الَّتِي فِيهَا تَنْفِيرٌ، قَبْلَ الْمَبْعَثِ وَبَعْدَهُ، فَكَيْفَ لَا يُعْصَمُونَ مِنَ الْكُفْرِ؟

قلت: الْإِيمَانُ اسْمٌ يَتَنَاوَلُ أَشْيَاءَ، بَعْضُهَا الطَّرِيقُ إِلَى الْعَقْلِ، وَبَعْضُهَا الطَّرِيقُ إِلَى السَّمْعِ، فَعَنَى بِهِ ما الطَّرِيقُ إِلَى السَّمْعِ دُونَ الْعَقْلِ، وَذَلِكَ ما كَانَ لَهُ فِيهِ عِلْمٌ حَتَّى كَسَبَهُ بِالْوَحْيِ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ فَسَّرَ الْإِيمَانَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] بِالصَّلَاةِ، لِأَنَّهَا بَعْضُ ما يَتَنَاوَلُهُ الْإِيمَانُ.

﴿مَنْ نَشَأْ مِنْ عِبَادِنَا﴾ مَنْ لَهُ لُطْفٌ، وَمَنْ لَا لُطْفَ لَهُ فَلَا هِدَايَةَ تُجْدِي عَلَيْهِ.

﴿صَرَّطَ اللَّهُ﴾ بَدَلَ، وَقُرِيَ: «لَتَهْدِي»، أَي: يَهْدِيكَ اللَّهُ. وَقُرِيَ: «لَتَدْعُو»

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ ﴿حَمْدَ * عَسَقَ﴾ كَانَ مِمَّنْ تُصَلِّي عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ، وَيَسْتَرْحِمُونَ لَهُ».

قوله: (الْإِيمَانُ اسْمٌ يَتَنَاوَلُ أَشْيَاءَ): قَالَ مُحْيِي السُّنَّةِ: «مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكُتُبُ وَلَا الْإِيمَانُ»: يَعْنِي: سُرَائِعَ الْإِيمَانِ وَمَعَالِمَهُ، وَأَهْلُ الْأَصُولِ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مُؤْمِنُونَ قَبْلَ الْوَحْيِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْلَ الْوَحْيِ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ، وَلَمْ تَتَّيَّنْ لَهُ سُرَائِعُ دِينِهِ^(١). وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: «لَمْ يُرَدْ بِهِ الْإِيمَانُ الَّذِي هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللَّهِ؛ لِأَنَّ آبَاءَهُ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الشِّرْكِ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَيَحُجُّونَ لَهُ مَعَ شُرَكَاهُمْ. وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: لَمْ تَزَلِ الْعَرَبُ عَلَى بَقَايَا مِنْ دِينِ إِسْمَاعِيلَ، مِنْ ذَلِكَ الْحُجِّ وَالْحِثَانِ وَإِيقَاعِ الطَّلَاقِ وَالغُسْلِ مِنَ الْجَنَابَةِ وَتَحْرِيمِ ذَوَاتِ

(١) «معالم التنزيل» للبخاري (٧: ٢٠١).

المحارم بالقراءة والصُّهر، فكانَ رسولُ الله ﷺ على ما كانوا عليه مِنَ الإيِّانِ باللهِ والعملِ بِشَرائِعِهِم تلكَ»^(١).

الانتِصاف: «مُعْتَقِدُ الزمخشرِيِّ: أَنَّ فِعْلَ الطاعاتِ مِنَ الإيِّانِ، حتَّى يَخْرُجَ تاركُها ومُرتكِبُ الكِبيْرةِ مِنَ الإيِّانِ، فَظَنَّ أَنَّ هذِهِ الآيَةَ حُجَّةٌ لَهُ، إِذْ لَوْ كَانَ لِمُجَرِّدِ التَّوْحِيدِ والتَّصْدِيقِ لَمَّا انْتَفَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ الْمَبْعَثِ، لِكَوْنِهِ مُصَدِّقًا قَبْلَ الْمَبْعَثِ، فَوَجَبَ حَمْلُ الإيِّانِ الْمَنْفِيِّ عَلَى التَّصْدِيقِ وَفِعْلِ الطاعاتِ الَّتِي لَمْ تَتَحَقَّقْ قَبْلَ النُّبُوَّةِ. وَجَوَابُهُ: أَنَّ التَّصْدِيقَ إِنَّمَا يُعْنَى بِهِ الإيِّانُ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ مُحَاطَبٌ بِالْإيِّانِ بِرِسَالَةِ نَفْسِهِ، فَاسْتَقَامَ نَفْيُ الإيِّانِ عَنْهُ قَبْلَ الْوَحْيِ»^(٢).

قال مكي: «﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكَيْتُ﴾: «ما» الأولى: نفي، والثانية: استفهام، رفعٌ بالابتداء، و﴿الْكَيْتُ﴾ الخبر، والجملة في موضع نصبٍ بـ﴿تَدْرِي﴾»^(٣).

تَمَّتِ السُّورَةُ بِحَمْدِ اللَّهِ وَعَوْنِهِ وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ

حَامِدًا وَمُصَلِّيًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ^(٤).



(١) «زاد المسير» لابن الجوزي (٧: ٢٩٩).

(٢) «الانتصاف» (٣: ٤٧٦ - ٤٧٧) بحاشية «الكشاف».

(٣) «مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب (٢: ٦٤٨).

(٤) قوله: «تمت السورة... إلخ: من (ف)، وفي (ح): «والحمد لله وحده»، ولا شيء في (ط).

سورة الزُّخْرُفِ

مَكِّيَّة، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: إِلا قَوْلُهُ: ﴿ وَسَأَلْنَا مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾

وَهِيَ تِسْعٌ وَثَمَانُونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿ حَمِّمٌ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ * وَإِنَّهُ فِي
أُورِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا عَلَى حَكِيمَةٍ ﴿ ١-٤ ﴾]

أَقْسَمَ بِالْكِتَابِ الْمُبِينِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَجَعَلَ قَوْلَهُ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ جَوَابًا
لِلْقَسَمِ، وَهُوَ مِنَ الْإِيمَانِ الْحَسَنَةِ الْبَدِيعَةِ؛ لِتَنَاسُبِ الْقَسَمِ وَالْمُقْسَمِ عَلَيْهِ، وَكَوْنِهِمَا مِنْ
وَإِدٍ وَاحِدٍ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُ أَبِي تَمَامٍ:

وثنايك إنما إغريضُ

سورةُ الزُّخْرُفِ

مَكِّيَّة، وَهِيَ تِسْعٌ وَثَمَانُونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَوْلُهُ: (وثنايك إنما إغريضُ): تَمَامُهُ لِأَبِي تَمَامٍ:

وَلَا لِ تَوْمٍ وَيَزِقُّ وَمِيضُ

.....

وأَفَاحٍ مُنْوَرٍ فِي بَطَاحٍ هَزَّهٗ فِي الصَّبَاحِ رَوْضٍ أَرِيضٍ^(١)

«الإغريض» والغريض: الطَّلُعُ والبرَدُ وكُلُّ أبيضٍ طَرِيٍّ، «توم»: واحده: ثومة، وهي حَبَّةٌ تَعْمَلُ مِنَ الْفِصَّةِ كَالدَّرَّةِ، وَأَرْضٌ أَرِيضَةٌ: زَكِيَّةٌ، وَأَرْضَتِ الْأَرْضُ - بِالضَّمِّ -: زَكَتْ.

قال صاحبُ «التقريب»: المُقَسَّمُ به: ذَاتُ الْقُرْآنِ الْمَصْحُوحِ^(٢) بِالْمُعْجَزِ، وَالْمُقَسَّمُ عَلَيْهِ: وَضْفُهُ، وَهُوَ جَعَلُهُ عَرَبِيًّا، فَتَغَايِرًا، وَفِي قَوْلِهِ: «الْمُقَسَّمُ بِهِ ذَاتُ الْقُرْآنِ» نَظْرٌ، لِأَنَّهُ وَصَفَ الْكِتَابَ بِـ«الْمُيِّنِ»، فَأَقْسَمَ تَعَالَى بِالْكِتَابِ الْمُيِّنِ عَلَى إِثْبَاتِ كَوْنِهِ مُيِّنًا؛ أَي: عَرَبِيًّا غَيْرَ عَجْمِي لِكَيْ تَعْقِلَهُ الْعَرَبُ، فَظَهَرَ أَنَّ الْمُقَسَّمُ بِهِ وَالْمُقَسَّمُ عَلَيْهِ لَيْسَا مُتَغَايِرَيْنِ^(٣)، قَالَ نَجْمِي السُّنَّةُ: «أَقْسَمَ بِالْكِتَابِ الَّذِي أَبَانَ طَرِيقَ الْهُدَى مِنْ طَرِيقِ الضَّلَالَةِ، وَأَبَانَ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ مِنَ الشَّرِيعَةِ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾^(٤)»، وَقَالَ الْإِمَامُ: «التَّقْدِيرُ: هَذِهِ ﴿حَمَّ﴾، ثُمَّ ابْتَدَأَ وَقَالَ: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُيِّنِ﴾، وَالْمُرَادُ بِهِ: الْكِتَابَةُ وَالْخَطُّ، أَقْسَمَ بِالْكِتَابَةِ لِكَثْرَةِ مَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ، فَإِنَّ الْعُلُومَ إِنَّمَا تَكَامَلَتْ بِسَبَبِ الْخَطِّ، فَإِنَّ الْمُتَقَدِّمَ إِذَا اسْتَنْبَطَ عَلِيمًا أَثْبَتَهُ فِي كِتَابٍ، وَجَاءَ الْمُتَأَخِّرُ وَزَادَ عَلَيْهِ، فَتَكَاثَرَتْ بِهَا الْفَوَائِدُ^(٥).

وَالْمُصَنِّفُ سَلَكَ مَسَلَكَ أَهْلِ الذُّوقِ، فَإِنَّ الْمُحِبَّ الْمُسْتَهْتَرَّ^(٦) لَا يَرَى الدُّنْيَا إِلَّا بَعِيْنٍ مَحْبُوبَةٍ، وَلَا يُؤَثِّرُ عَلَيْهِ شَيْئًا، قَالَ:

إِنَّ الْمَحَبَّةَ أَمْرًا عَجَبٌ^(٧)

(١) «ديوان أبي تمام» للخطيب التبريزي (١: ٣٨١).

(٢) كذا في الأصول الخطية!

(٣) من قوله: «وفي قوله: المقسم به ذات القرآن» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

(٤) «معالم التنزيل» للبغوي (٧: ٢٠٢).

(٥) «مفاتيح الغيب» (٢٧: ٦١٦).

(٦) قال الفيروزآبادي في «القاموس»، مادة (هتر): «المستهتر بالشيء - بالفتح -: المولعُ به، لا يُبالي بما فُعِلَ فِيهِ وَشَيْئًا لَهُ، وَقَدْ اسْتَهْتَرَ بِكَذَا».

(٧) صَدْرُ بَيْتٍ مِنَ الشُّعْرِ، وَتَمَامُهُ - كَمَا فِي «الزُّهْرَةِ» لِابْنِ دَاوُدَ الْأَصْبَهَانِيِّ (١: ٥٤) -:

تَلَقَى عَلَيْكَ وَمَا لَهَا سَبَبٌ

كما أَنَّ الشاعِرَ لَمَّا أَرَادَ المُبَالَغَةَ فِي وَصْفِ نَعْرِ المَحْبُوبَةِ جَعَلَهُ مُقَسِّمًا بِهِ، وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ شَيْءٌ أَعَزَّ مِنْهُ أَقْسَمَ بِهِ عَلَيْهِ، وَلَعَمْرِي إِنَّ آلَ «حَم» جَدِيدٌ بِذَلِكَ، رَوَيْنَا عَنِ الدَّارِمِيِّ^(١) عَنِ سَعْدِ^(٢) بْنِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: «كُنَّ الحَوَامِيمُ يُسَمَّيْنَ العَرَائِسَ»، وَرَوَى الزَّجَّاجُ مَرْفُوعًا: «مَثَلُ الحَوَامِيمِ فِي القُرْآنِ مَثَلُ الحَبْرَاتِ فِي الثِّيَابِ»^(٣).

وَقَالَ الحَرِيرِيُّ فِي «دُرَّةِ الغَوَاصِّ»: «وَوَجَّهَ الكَلَامَ فِي «حَوَامِيمَ»: أَلَا يُقَالُ: قَرَأْتُ «حَم»، بَلْ: آلَ «حَم»، وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ: «آلَ (حَم) دِيَابُجُ القُرْآنِ»^(٤)، وَكَمَا رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا وَقَعْتُ فِي آلَ (حَم) وَقَعْتُ فِي رَوْضَاتِ دِمَثَاتٍ أَتَانَتْ فِيهِنَّ»^(٥)، قَالَ الكُمَيْتُ فِي «الهاشِمِيَّاتِ»^(٦):

وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَمِ آيَةً
تَأَوَّهَا مِنَّا تَقِيٌّ وَمُعْرِبٌ^(٧)

(١) فِي «سَنَنِهِ» (٣٤٢٢).

(٢) تَحَرَّفَ فِي (ح) وَ(ف) إِلَى: «سَعِيدٍ»، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ط) وَ«سَنَنِ الدَّارِمِيِّ»، وَهُوَ الصَّوَابُ، فَإِنَّهُ سَعْدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، قَاضِي المَدِينَةِ، تَوَفِيَ سَنَةَ ١٢٥، رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، كَمَا فِي «تَقْرِيبِ التَّهْذِيبِ» لِلْحَافِظِ ابْنِ حَجْرٍ (٢٢٢٧).

(٣) مِنْ قَوْلِهِ: «وَرَوَى الزَّجَّاجُ إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ح) وَ(ف)، وَانظُرْ: «مَعَانِي القُرْآنِ وَإِعْرَابِهِ» (٤: ٣٦٥)، وَالحَدِيثُ أَوْرَدَهُ الثَّعْلَبِيُّ فِي «الكَشْفِ وَالبَيَانِ» (٨: ٢٦٢)، وَلَمْ يُسَيِّدْهُ، وَتَبِعَهُ عَلَيْهِ جَمْعٌ مِنَ المُفَسِّرِينَ.

(٤) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «المُصَنَّفِ» (٣٠٩١٣)، وَالحَاكِمُ فِي «المُسْتَدْرَكِ» (٢: ٤٣٨).

(٥) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ» (٣٠٩١٥). وَقَالَ شَيْخُنَا العَلَامَةُ مُحَمَّدُ عَوَامَةَ حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى فِي التَّعْلِيقِ عَلَيْهِ: «الرَّوْضَةُ: المَوْضِعُ المَعْجَبُ بِأَزَاهِيرِهِ، وَالدِّمَثُ: الأَرْضُ السَّهْلَةُ الرَّخْوَةُ، وَأَتَانَتْ فِيهِنَّ: أَعْجَبَ بِهِنَّ، وَأَسْتَلِدُّ قِرَاءَتَهُنَّ، وَأَتَّبَعْتُ حَامِسَتَهُنَّ».

(٦) أَي: فِي قِصَائِدِهِ الَّتِي يَمْدَحُ بِهَا بَنِي هَاشِمٍ.

(٧) انظُرْ: «الکِتَابُ» لِلسَّيْبَوِيِّ (٣: ٢٥٧)، وَ«المَقْتَضِبُ» لِلْمُبَرِّدِ (١: ٢٣٨، ٣: ٣٥٦)، وَ«الصَّحَاحُ»

لِلجَوْهَرِيِّ، مَادَةٌ (عَرَبٍ) وَ(حَمَمٍ)، وَ«لِسَانُ العَرَبِ» لِابْنِ مَنْظُورٍ، مَادَةٌ (عَرَبٍ) وَ(طَسَنٍ) وَ(حَوَا).

﴿الْمُيِّنِ﴾ الْبَيِّنِ لِلَّذِينَ أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُ بَلَّغْتَهُمْ وَأَسَالِيَهُمْ، وَقِيلَ: الْوَاضِحُ لِلْمُتَدَبِّرِينَ، وَقِيلَ: ﴿الْمُيِّنِ﴾ الَّذِي أَبَانَ طُرُقَ الْهُدَى مِنْ طُرُقِ الضَّلَالَةِ، وَأَبَانَ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ فِي أَبْوَابِ الدِّيَانَةِ.

﴿جَعَلْتَهُ﴾ بِمَعْنَى: صَيَّرْتَهُ؛ مُعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ، أَوْ بِمَعْنَى: خَلَقْتَهُ؛ مُعَدَّى إِلَى وَاحِدٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، و﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حَالٌ، و﴿لَعَلَّ﴾ مُسْتَعَارٌ لِمَعْنَى الْإِرَادَةِ؛ لِتَلَاحِظَ مَعْنَاهَا وَمَعْنَى التَّرْجِي، أَي: خَلَقْتَهُ عَرَبِيًّا غَيْرَ عَجَمِيٍّ إِرَادَةً أَنْ تَعْقِلَهُ الْعَرَبُ، وَلِتَلَّا يَقُولُوا: لَوْلَا فَصَّلْتَ آيَاتَهُ.

يعني: قوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣] (١).

قوله: (أو بمعنى: خَلَقْتَهُ): هذا التفسيرُ يَأْبَاهُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مِنْ تَعْظِيمِ الْكِتَابِ، وَقَوْلُهُ: «مُقَسَّمًا بِهِ وَعَلَيْهِ»؛ لِأَنَّهُ مِنْ سِمَاتِ النَّقْصِ، وَمِنْ وَصْفِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾، رَوَى مُحْيِي السُّنَّةِ: «قَدْ مَضَى سَلْفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَعُلَمَاءُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ وَوَحْيُهُ لَيْسَ بِخَالِقٍ وَلَا مَخْلُوقٍ، وَالْقَوْلُ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ ضَلَالَةٌ وَبِدْعَةٌ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ أَحَدٌ فِي عَهْدِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَعَنْ جَعْفَرِ الصَّادِقِ: أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْقُرْآنِ فَقَالَ: أَقُولُ فِيهِ مَا يَقُولُ أَبِي وَجَدِّي: لَيْسَ بِخَالِقٍ وَلَا مَخْلُوقٍ، وَلَكِنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى» (٢).

قوله: (و﴿لَعَلَّ﴾ مُسْتَعَارٌ بِمَعْنَى الْإِرَادَةِ): الْإِنْتِصَافُ: «الصَّحِيحُ أَنَّ مَعْنَاهُ: لِنَتَكُونُوا بَحِيثٌ يُرْجَى مِنْكُمْ التَّعَقُّلُ، وَهُوَ تَأْوِيلٌ مُطَّرَدٌ، قَالَ سَيِّبَوَيْه» (٣).

(١) «دُرَّةُ الْغَوَاصِ فِي أَوْهَامِ الْخَوَاصِ» لِلْحَرِيرِيِّ ص ٢٢.

(٢) «شَرْحُ السُّنَّةِ» لِلْبَغَوِيِّ (١: ١٨٦-١٨٧).

(٣) لَمْ أَفْقِدْ عَلَيْهِ فِي «الْإِنْتِصَافِ» فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَعَلَى كُلِّ فَقْدٍ أَطَالَ ابْنُ الْمُثَنَّى فِي الْكَلَامِ عَلَى «لَعَلَّ» فِي أَوَّلِ مَوْضِعٍ مِنْ رَوْدِهَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَهُوَ الْآيَةُ ٢١ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. انظُرْ: «الْإِنْتِصَافُ» (١: ٢٣٠-٢٣١) بِحَاشِيَةِ «الْكَشَافِ».

وَقُرئ: «إمَّ الْكِتَاب» بالكسر، وهو اللَّوْح، كقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]، سُمِّيَ بِأَمِّ الْكِتَابِ؛ لِأَنَّهُ الْأَصْلُ الَّذِي أُثْبِتَتْ فِيهِ الْكُتُبُ، مِنْهُ تُنْقَلُ وَتُسْتَنْسَخُ، «عَلِيٌّ» رَفِيعُ الشَّانِ فِي الْكُتُبِ؛ لِكَوْنِهِ مُعْجِزاً مِنْ بَيْنِهَا، ﴿حَكِيمٌ﴾ ذُو حِكْمَةٍ بِالْغَةِ، أَي: مَنْزِلَتُهُ عِنْدَنَا مَنْزِلَةُ كِتَابِ هِمَا صِفَتَاهُ، وَهُوَ مُثَبَّتٌ فِي أَمِّ الْكِتَابِ هَكَذَا.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ [٥]

قوله: («عَلِيٌّ» رَفِيعُ الشَّانِ) يُؤَدِّنُ بِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَعَلِّيُّ حَكِيمٌ﴾ خَبْرَانِ لـ«إِنَّ»، وَقَوْلُهُ: «مَنْزِلَتُهُ عِنْدَنَا مَنْزِلَةُ كِتَابِ هِمَا صِفَتَاهُ»: يُشْعِرُ بِأَنَّهَا صِفَتَانِ لِكِتَابٍ آخَرَ، وَقَوْلُهُ: «هُوَ مُثَبَّتٌ فِي أَمِّ الْكِتَابِ» عَلَى أَنَّ ﴿فِي أَمْرِ الْكِتَابِ﴾ أَيْضًا خَبَرٌ، فَكَيْفَ التَّأْلِيفُ؟

قلت: تَأْلِيفُهُ: أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ - الَّذِي لَدَيْكُمْ أَبَانَ طَرِيقَ الْهُدَى، وَأَبَانَ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ فِي أَبْوَابِ الدُّنْيَا - بِمَنْزِلَةِ عَظِيمَةٍ عِنْدَنَا، بِمَنْزِلَةِ كِتَابِ مَوْصُوفٍ بِهَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ، وَهُوَ كَوْنُهُ رَفِيعُ الشَّانِ ذَا^(١) حِكْمَةٍ بِالْغَةِ، وَهُوَ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ وَالْبَيَانِ مُثَبَّتٌ فِي اللَّوْحِ، وَالْمُرَادُ بِ«كِتَابِ هِمَا صِفَتَاهُ» هُوَ هُوَ، فَفِيهِ لَمِحَةٌ مِنَ التَّجْرِيدِ^(٢).

قال صاحبُ «الكشف»: «لَعَلِّيُّ حَكِيمٌ﴾ خَبْرَانِ لـ«إِنَّ»، وَقَوْلُهُ: ﴿فِي أَمْرِ الْكِتَابِ﴾ مِنْ صِلَةِ «عَلِيٌّ»، أَي: إِنَّهُ لَعَلِّيٌّ فِي هَذَا الْمَحَلِّ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ لِمَكَانِ اللَّامِ، نَحْوُهُ قَوْلُكَ: إِنَّ زَيْدًا فِي الدَّارِ لِقَائِمٌ^(٣). وقال أبو البقاء: «﴿فِي أَمْرِ الْكِتَابِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ«لَعَلِّيٌّ»، وَاللَّامُ لَا تَمْنَعُ ذَلِكَ^(٤). وقال القاضي: «﴿فِي أَمْرِ الْكِتَابِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ«عَلِيٌّ» أَوْ حَالٌ مِنْهُ، وَ«لَدَيْنَا﴾ بَدَلٌ مِنْهُ أَوْ حَالٌ مِنْ «﴿فِي أَمْرِ الْكِتَابِ﴾»^(٥).

(١) في الأصول الخطية: «ذو».

(٢) سيأتي بيان معنى «التجريد» ص ٢٤٧ في تفسير الآية ١٤ من سورة الجاثية، فانظره مع التعليق عليه.

(٣) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٢٠٦-١٢٠٧).

(٤) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٣٧).

(٥) «أنوار التنزيل» لليضاوي (٥: ١٣٩).

﴿ أَفَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا ﴾ بمعنى: أفنتحي عنكم الذكر ونذوده عنكم، على سبيل المجاز، من قولهم: ضَرَبَ الْغَرَائِبَ عَنِ الْحَوْضِ، ومنه قولُ الْحَجَّاجِ: وَلَاضْرِبَتْكُمْ ضَرَبَ غَرَائِبِ الْإِبِلِ، وَقَالَ طَرْفَةُ:

اضْرِبْ عَنْكَ الْهُمُومَ طَارِقَهَا ضَرَبَكَ بِالسَّيْفِ قَوْنَسَ الْفَرَسِ

والفاءُ لِلْعَطْفِ عَلَى مَحذُوفٍ، تَقْدِيرُهُ: أَتُهْمِلُكُمْ فَتَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ،

قوله: (وَنَذُودُهُ عَنْكُمْ، عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ): أَي: الْاسْتِعَارَةَ التَّمثِيلِيَّةَ، اسْتِعَارَ لِتَنْحِيَةِ «الضَّرْبِ» الَّذِي بِمَعْنَى الدِّيَادِ، بَعْدَ أَنْ شَبَّهَ حَالَةَ هَذِهِ التَّنْحِيَةِ بِحَالَةِ ذَوْدِ غَرَائِبِ الْإِبِلِ عَنِ الْحَوْضِ، وَبُوْلَغَ فِيهِ، ثُمَّ اسْتَعْمَلَ هُنَا مَا كَانَ مُسْتَعْمَلًا هُنَاكَ. قَالَ الْمِيدَانِيُّ: «ضَرَبَهُ ضَرَبَ غَرَائِبِ الْإِبِلِ، وَيُرْوَى: أَضْرِبُهُ ضَرَبَ غَرِيْبَةِ الْإِبِلِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْغَرِيْبَةَ تَزْدَجُمُ عَلَى الْحِيَاضِ عِنْدَ الْوَزْدِ، وَصَاحِبُ الْحِيَاضِ يَطْرُقُهَا وَيَضْرِبُهَا بِسَبَبِ إِبِلِهِ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْحَجَّاجِ فِي خُطْبَتِهِ يُهْدِدُ أَهْلَ الْعِرَاقِ: «وَاللَّهِ لِأَضْرِبَتْكُمْ ضَرَبَ غَرَائِبِ الْإِبِلِ»، قَالَ الْأَعْمَشِيُّ:

كَطَوْفِ الْغَرِيْبَةِ وَسَطَ الْحِيَاضِ تَخَافُ الرَّدَى وَتُرِيدُ الْجِفَارَ^(١)

يُضْرَبُ فِي دَفْعِ الظَّالِمِ عَنِ ظُلْمِهِ بِأَشَدِّ مَا يُمَكِّنُ^(٢).

قوله: (اضْرِبْ عَنْكَ الْهُمُومَ) الْبَيْتُ^(٣): أَي: «اضْرِبْنِ»، فَحُذِفَتِ النَّوْنُ الْخَفِيْفَةُ، وَحُرِّكَتِ الْبَاءُ بِالْفَتْحِ، وَ«طَارِقَهَا»: مَا يَطْرُقُ بِاللَّيْلِ، وَهُوَ بَدَلُ اسْتِحْتِمَالٍ مِنْ «الْهُمُومِ». وَ«الْقَوْنَسُ»: مَنَبْتُ شَعْرِ النَّاصِيَةِ، وَهُوَ عَظْمٌ نَاتِيٌّ بَيْنَ أُذُنَيْ الْفَرَسِ، وَالْبَيْتُ يَحْتَمِلُ الْمَشَاكِلَةَ أَيْضًا.

(١) «ديوان الأعشى» ص ٨٣، والجفار: جمع جفر، وهو الجمل الصغير.

(٢) «مجمع الأمثال» للميداني (١: ٤١٩).

(٣) انظر: «الخصائص» لابن جني (١: ١٢٦)، و«أساس البلاغة» للزمخشري، مادة (قنس)، و«الصحاح» للجوهري، مادة (قنس) و(نون)، و«لسان العرب» لابن منظور، مادة (قنس) و(هول) و(نون)، و«معني اللبيب» لابن هشام (٢: ٦٤٣)، و«حاشية الصبان على شرح الأشموني على الألفية» (٣: ٣٣٤). وقد تقدم عند الزمخشري (١٢: ٢٧٠) في تفسير الآية ٢٤ من سورة (ص).

إنكاراً لأن يكون الأمر على خلاف ما قدّم؛ من إنزاله الكتاب، وخلقِه قرآناً عربياً؛ ليعقلوه ويعملوا بمواجهه.

و﴿صَفْحًا﴾ على وجهين؛ إما مصدر؛ من: صَفَحَ عنه: إذا عَرَضَ، مُتَّصِبٌ على أنه مفعولٌ له، على معنى: أفنَعَزَلُ عنكم إنزال القرآن والزام الحجّة به إعراضاً عنكم، وإما بمعنى الجانب؛ من قولهم: نَظَرَ إليه بَصْفَحٍ وَجْهه وَصَفْحٍ وَجْهه، على معنى: أفنَحِّيهِ عنكم جانباً، فَيَتَّصِبُ على الظرف، كما تقول: صَعَهُ جانباً،

قوله: (وخلقِه قرآناً عربياً): يُريد: أن «جَعَلَ» في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ بمعنى: خلق، وربما تُعَدَّر له حين فَسَّرَه في مقامه بمعنى الخلق، لكن إعادته هنا بمُجَرَّدِ التَّعْصِبِ والتَّبَجُّحِ^(١) لذمّه، هذا عند أهل الأصول سهل؛ لأنهم يُوافِقُونَهُم في الحروفِ المُتَوَالِيَةِ والكلماتِ المُتَعاقِبَةِ^(٢)، ونحن - معاشِرَ السُّنَّةِ - نَقْتَضِي آثارَ السَّلَفِ الصَّالِحِ في الإمساكِ عن أمثالِ هذه الجِراءِ، وبذَلِ الجُهدِ في تعظيمِ جانبِ كلامِ الله السَّمجِدِ، لا سِيَّما وقد وُضِعَ ﴿الذِّكْرُ﴾ مَوْضِعَ الضَّميرِ، والمقامُ يَقْتَضِي التَّفخِيمَ لقوله: ﴿وإِنَّهُ فِي أَرْبَعِ الْكُتُبِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾.

(١) في (ح) و(ف): «والتصحيح»، والمثبت من (ط).

(٢) يُريد بـ«أهل الأصول»: علماء أصول الدين، يعني المتكلمين على وجه الخصوص، حيث يرون قدّم الكلام النفسي، وحدوث اللفظ (الحروف والكلمات)، ومال المؤلف رحمه الله تعالى إلى الإمساك عن ذلك اقتفاءً لأثار السلف، كما قال، إلا أنه لم يقل بقدّم الحروف والكلمات، فتنبه. بل نقل المؤلف في تفسير الآية ١٤٣ من سورة الأعراف عن صاحب «الانتصاف» قوله في كلام الله: «وإن لم يكن حرفاً»، ولم يتعقبه بشيء، كما صرح بإثبات الكلام النفسي في مواضع من هذه الحاشية، منها ما في تفسير الآية ٧٧ من سورة يوسف، وما في تفسير الآية ٢٧ من سورة لقمان. ويتبع أمثال هذه المواضع جميعاً يظهر جلياً مذهب المؤلف في مسألة كلام الله تعالى. ومسألة الكلام طويلة، يُنظر تفصيل القول فيها في المطولات، ولا سيَّما «الإنصاف» لأبي بكر الباقلاني، ومُقدِّمة «روح المعاني» للألوسي.

وامش جانباً. وتعضده قراءة مَنْ قرأ: «صُفْحاً» بالضم، وفي هذه القراءة وَجْهٌ آخر، وهو أن يكون تخفيف «صُفْح»؛ جمع «صَفُوح»، ويتصّب على الحال، أي: صافِحِينَ مُعْرِضِينَ. ﴿أَنْ كُنْتُمْ﴾ أي: لأن كنتم، وقرئ: «إِنْ كُنْتُمْ»، و«إِذْ كُنْتُمْ».

فإن قلت: كيف استقام معنى «إِنْ» الشرطية، وقد كانوا مُسْرِفِينَ على البتّ؟ قلت: هو مِنَ الشَّرْطِ الذي ذكرت أنه

قوله: (وتعضده قراءة مَنْ قرأ «صُفْحاً»): لأنه - على هذا - ليس بمصدر، فلا يصلح أن يكون منصوباً مفعولاً له. الجوهري: «نَظَرَ إِلَيْهِ بِصُفْحٍ وَجْهَهُ، أَي: بَعَرَضِهِ. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: صَرَبَهُ بِصُفْحِ السَّيْفِ، وَالْعَامَّةُ تَقُولُ مَفْتُوحَةً^(١)، أَي: بَعَرَضِهِ».

قوله: (تخفيف «صُفْح»، جمع «صَفُوح»): النهاية: (في حديث عائشة رضي الله عنها تصف أباهما رضي الله عنه: «صَفُوحٌ عَنِ الْجَاهِلِينَ»، أَي: كَثِيرُ الصَّفْحِ وَالْعَفْوِ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْإِعْرَاضِ بِصَفْحَةِ الْوَجْهِ، كَأَنَّهُ أَعْرَضَ بِوَجْهِهِ عَنِ ذَنْبِهِ، وَهِيَ مِنَ ابْنِيَةِ الْمُبَالَغَةِ).

الراغب: «صَفْحُ الشَّيْءِ: عَرَضُهُ وَجَانِبُهُ، كَصَفْحَةِ الْوَجْهِ، وَصَفْحَةِ السَّيْفِ. وَالصَّفْحُ: تَرْكُ الشَّرِيبِ، وَهُوَ أْبْلَغُ مِنَ الْعَفْوِ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْفُواْ وَأَصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرٍ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وَصَفَحْتُ عَنْهُ: أَوْلَيْتُهُ مِنْ صَفْحَةٍ جَمِيلَةٍ مُعْرِضاً عَنِ ذَنْبِهِ، أَوْ لَقِيتُ صَفْحَتَهُ مُتَجَافِئاً عَنْهُ، أَوْ تَجَاوَزْتُ الصَّفْحَةَ الَّتِي أُثْبِتُ فِيهَا ذَنْبَهُ مِنَ الْكِتَابِ إِلَى غَيْرِهَا، مِنْ قَوْلِكَ: تَصَفَّحْتُ الْكِتَابَ^(٢)».

قوله: ﴿أَنْ كُنْتُمْ﴾ (نافع وحزرة والكسائي: بكسر الهمزة، والباقون: بفتحها)^(٣).

(١) أي: بصفح السيف، بفتح الصاد.

(٢) «مفردات القرآن» ص ٤٨٦.

(٣) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٥، و«حجة القراءات» ص ٦٤٤.

يَصْدُرُ عَنِ الْمُدَلِّ بِصِحَّةِ الْأَمْرِ الْمُتَحَقِّقِ لثُبُوتِهِ، كَمَا يَقُولُ الْأَجِيرُ: إِنْ كُنْتُ عَمِلْتُ لَكَ فَوْفَنِي حَقِّي، وَهُوَ عَالِمٌ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ يُحِيلُ فِي كَلَامِهِ أَنَّ تَفْرِيطَكَ فِي الْخُرُوجِ عَنِ الْحَقِّ فِعْلٌ مَنْ لَهُ شَكٌّ فِي الْاسْتِحْقَاقِ، مَعَ وُضُوحِهِ؛ اسْتِجْهَالًا لَهُ.

[﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍِّّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍِّّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَاهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ ٦-٨]

قوله: (عن المدلل بصحة الأمر): أي: المتوثق^(١). الأساس: «أدّل على قرّنه، وهو مدلل بفضله وشجاعته، ومنه أسد مدلل». المغرب: «التدلل: تفعلل من الدلال والدالة، وهما الجرأة».

قوله: (استجهالاً له): وكذلك قوله: ﴿أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾^(٢) استجهالاً لهم في أنهم مع معرفتهم أنّ القرآن عربيّ مبين، وقد أبان طرق الهدى من طرق الضلالة، وأبان ما تحتاج إليه الأمة في أبواب الديانة، فرطوا فيه مثل تفریط من لم يعرف ذلك وشك فيه، فالتعريف في ﴿الذِّكْرَ﴾ للعهد الخارجي التقديري، لأنّ قوله: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ في معنى الذِّكْر، قال في سورة (ص)^(٣): «أو ذكر ما يحتاج إليه في الدين من الشرائع وغيرها»، بل نضرب عن هذا التقرير صفحاً، ونقول: إنّ الذِّكْرَ مُظْهَرٌ وَضِعَ مَقَامَ الْمُضْمَرِ مِنْ غَيْرِ لَفْظِهِ السَّابِقِ إِشْعَارًا بِالْعِلِّيَّةِ، وَالْمُرَادُ بِهِ الشَّرْفُ وَالصِّيتُ، وَأَنَّ هَذَا الشَّرْطَ لَيْسَ مِنَ الْمَثَالِ الْمَذْكُورِ فِي الْمَثَلِ فِي شَيْءٍ، بَلْ هُوَ مِنْ قَبِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَنَبِينَ﴾ [القلم: ١٤] بالكسر على قراءة نافع من طريق الزبيدي، أي: لا تُطْعَمُ كُلُّ حَلَاظٍ شَارِطاً يَسَارَهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥١]، فَهُوَ كَالْتَعْلِيلِ، فَيُؤَافِقُ قِرَاءَةَ الْفَتْحِ فِي ﴿أَنْ كُنْتُمْ﴾، وَإِذْ كُنْتُمْ، وَأَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُسْرِفِينَ: الْمُسْتَهْزِئُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَكِتَابِهِ، لِقَوْلِهِ بَعْدَهُ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍِّّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، فَإِنَّهُ تَهْدِيدٌ مُرْتَبِّ عَلَيْهِ، وَهَذَا مَا

(١) في الأصول الخطية: «الموثق»، وفي «لسان العرب» لابن منظور، مادة (دل): «أدّل عليه: وثق بمحبته فأفرط عليه».

(٢) في الأصول الخطية: «أن كنتم مسرفين»، وأضفت إليه «قوماً» من لفظ الآية الكريمة.

(٣) في تفسير الآية الأولى منها.

﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ ﴾ حِكَايَةُ حَالِ مَاضِيَةٍ مُسْتَوْرَةٍ، أَي: كَانُوا عَلَى ذَلِكَ، وَهَذِهِ تَسْلِيَةٌ

لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ اسْتِهْزَاءِ قَوْمِهِ.

الضَّمِيرُ فِي ﴿ أَشَدَّ مِنْهُمْ ﴾ لِلْقَوْمِ الْمُسْرِفِينَ، لِأَنَّهُ صَرَفَ الْخِطَابَ عَنْهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُخَبِّرُهُ عَنْهُمْ،

يَقْتَضِيهِ النَّظْمُ الْأَنِيقُ، وَبَيَانُهُ: أَنَّهُمْ لَمَّا اسْتَهْزَؤُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَحَفُّوا بِهِ لِيَدْفَعُوهُ عَنْ أَنفُسِهِمْ عِنَادًا، فَوَصَفَ الْكِتَابَ أَوْلَى بِقَوْلِهِ: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾، وَثَانِيًا بِقَوْلِهِ: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أَرْبِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴾، عَقَّبَ ذَلِكَ كُلَّهُ مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ ﴾ الْآيَةَ، يَعْنِي: أَنَّهُ فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ عَرَبِيٌّ فَصِيحٌ بَلِيغٌ، عَجَزَ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ الْجَنُّ وَالْإِنْسُ، مَحْتَوٍ عَلَى أَسْرَارٍ وَمَعَانٍ إِذَا تَفَكَّرَ فِيهَا أَوْلُو الْأَلْبَابِ حَصَلُوا عَلَى الْبَحْرِ الْخِصْمِ وَكَتُورِ الْحِكْمِ، وَأَنَّهُ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ لَدَى الْمَلِكِ ذِي الْجَبُرُوتِ عَلَى الْمَرْتَبَةِ رَفِيعِ الشَّانِ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ وَجَبَ أَنْ يَشْرُفَ قَدْرُهُ، وَيَعْظُمَ شَأْنُهُ، وَيَتَغَلَّغَلَ صَبِيئُهُ فِي كُلِّ مَدْرٍ وَوَبْرٍ، فَبَسْبَبِكُمْ تَرَكْتُمْ مُهْمَلًا وَنَضْرِبُ عَنْكُمْ ذِكْرَهُ صَفْحًا؟! كَلَّا.

فَالهَمْزَةُ أَقْحَمَتَ بَيْنَ السَّبَبِ وَالْمُسَبَّبِ لِزَيْدِ الْإِنكَارِ، لِأَنَّ ﴿ حَمَّ ﴾ وَالْكِتَابِ الْتَمِينِ ﴿ إِلَى آخِرِهَا، فَسَمِيَّةٌ وَارِدَةٌ لِرَدِّ الْمُنْكَرِينَ كَمَا تَرَى، وَهُوَ مِنَ الْإِبْيَانِ الْحَسَنَةِ؛ حَيْثُ إِنَّ الْمَقْسَمَ بِهِ وَالْمَقْسَمَ عَلَيْهِ شَيْءٌ وَاحِدٌ.

وَمَا سَلَكَ هَذَا الْمَسْلَكَ إِلَّا لِیُؤَدِّنَ بَانَ كِتَابًا هَذَا شَأْنُهُ حَقِيقٌ بَانَ يُعْزَرَ وَيُكْرَمُ وَلَا يُتَجَاوَزُ عَنِ الْإِقْسَامِ بِهِ.

قَوْلُهُ: (لِأَنَّهُ صَرَفَ الْخِطَابَ عَنْهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ): يَعْنِي: خَاطَبَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴾، بِمَعْنَى: أَتُهْلِكُكُمْ فَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا بِسَبَبِ اسْتِهْزَائِكُمْ، وَفِي إِنْزَالِ هَذَا الْكِتَابِ الْعَظِيمِ سَبَبٌ حَيَاةِ الْخَلَائِقِ أَجْمَعِينَ، بَلْ لَا تَنْتَرِكُكُمْ، وَنُلْزِمُ بِهِ الْحِجَّةَ عَلَيْكُمْ، فَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْنَا مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْكُمْ بَطْشًا، وَلِتَسْلِيَةٍ

﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: سَلَفَ فِي الْقُرْآنِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْهُ ذِكْرُ قِصَّتِهِمْ وَحَاجَةِ الْعَجِيْبَةِ الَّتِي حَقَّقَهَا أَنْ تَسِيرَ مَسِيرَ الْمَثَلِ، وَهَذَا وَعْدٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَوَعِيدٌ لَهُمْ.

[﴿وَلَيْنَ سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوهَا﴾ ٩-١١]

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾، وَمَا سَرَدَ مِنَ الْأَوْصَافِ عَقِيْبِهِ، إِنْ كَانَ مِنْ قَوْلِهِمْ، فَمَا تَصْنَعُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوهَا﴾، وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ، فَمَا وَجْهُهُ؟ قُلْتَ: هُوَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ لَا مِنْ قَوْلِهِمْ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾. الَّذِي مَنْ صِفَتُهُ كَيْتٌ وَكَيْتٌ، لَيْسَبُنَّ خَلْقَهَا إِلَى الَّذِي هَذِهِ أَوْصَافُهُ وَلَيْسَبُنَّ إِلَيْهِ.

﴿يَقْدَرُ﴾ بِمَقْدَارٍ يَسَلِّمُ مَعَهُ الْبِلَادُ وَالْعِبَادُ، وَلَمْ يَكُنْ طُوفَانًا.

الرَّسُولِ ﷺ عَنْ اسْتِهْزَائِهِمْ فِيهِمْ، أَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانْتَفَتْ إِلَيْهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ قَائِلًا: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾، وَأَتَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا﴾ الْآيَتِينَ مُعْتَرِضًا بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ، مُؤَكِّدًا لِمَعْنَى التَّسْلِيَةِ.

قَوْلُهُ: (لَيْسَبُنَّ خَلْقَهَا إِلَى الَّذِي هَذِهِ أَوْصَافُهُ): وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤-٤٥]، فَوَصَّفَهُمْ وَهُمْ فِي النَّارِ بِمَا عُرِفَ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَكَانُوا مَنَسُوبِينَ إِلَيْهِ. وَإِذَا كَانَ مِنْ كَلَامِ الْقَوْمِ فَالْمَعْنَى: وَلِئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ: اللَّهُ. وَقَوْلُهُمْ: «اللَّهُ» مُتَضَمِّنٌ لِهَذِهِ الْأَوْصَافِ وَمُسْتَلْزِمٌ لَهَا، فَكَانَهُمْ ذَكَرُوا عِنْدَ ذِكْرِهِمْ هَذَا هَذِهِ الْأَوْصَافَ كُلَّهَا ضِمْنًا، وَاللَّهُ تَعَالَى يُفَسِّرُ قَوْلَهُمْ: «اللَّهُ» بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ.

﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ * لَسْتُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ إِذْ تُدْعَوْنَ بِرَحْمَةِٰ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحٰنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ * وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿ ١٢-١٤ ﴾

﴿ الْأَزْوَاجِ ﴾ الأَصْنَافِ، ﴿ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ أَي: تَرْكَبُونَهُ. فَإِنْ قُلْتَ: يُقَالُ: رَكِبُوا الْأَنْعَامَ، وَرَكِبُوا فِي الْفُلِّكَ، وَقَدْ ذَكَرَ الْجَنَسِيِّينَ، فَكَيْفَ قَالَ: «مَا تَرْكَبُونَهُ»؟ قُلْتَ: غَلَبَ الْمُتَعَدِّي بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ لِقُوَّتِهِ، عَلَى الْمُتَعَدِّي بِوَاسِطَةٍ،

روى الأزهرى عن أبي الهيثم أنه قال: لا يكون إلهاً حتى يكون معبوداً، وحتى يكون لعابده خالقاً ورازقاً ومُدبِّراً وعليه مُقتدراً، فَمَنْ لم يكن كذلك فليس بإله وإن عبده. وقال المالكي^(١): إِنَّ «الله» عَلِمَ لِلإلهِ بِالْحَقِّ، جَامِعٌ لِمَعَانِي الْأَسْمَاءِ الْحَسَنَى، مَا عَلِمَ وَمَا لم يُعَلِّمْ، وَنَظِيرٌ تَضَمَّنَ اسْمَ «الله» هَذِهِ الْمَعَانِي فِي هَذَا الْمَقَامِ تَضَمَّنَ اسْمَ «حَاتِمِ» الْجُودِ. رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: وَهَذَا حَسَنٌ، وَلَهُ نَظِيرٌ عَرَفْنَا، وَهُوَ أَنَّ وَاحِدًا لَوْ أَخْبَرَ مِثْلًا أَنَّ الشَّيْخَ قَالَ كَذَا، وَعَنَى بِالشَّيْخِ زَيْدًا، ثُمَّ لَقِيَتْ زَيْدًا وَقُلْتَ لَهُ: إِنَّ فُلَانًا أَخْبَرَني أَنَّ زَيْدًا قَالَ كَذَا، مَعَ أَنَّ فُلَانًا لم يُخْبِرْ عَلَى لِسَانِهِ: زَيْدًا، وَإِنَّمَا قَالَ: الشَّيْخُ، وَلَكِنَّكَ ذَكَرْتَ ألقَابَهُ وَأوصَافَهُ، كَذَا هُنَا، الكُفَّارُ يَقُولُونَ: «خَلَقَهُنَّ اللهُ»، لَا يُنْكِرُونَ ذَلِكَ، ثُمَّ إِنَّ اللهُ ذَكَرَ صِفَاتِهِ، أَي: إِنَّ اللهُ الَّذِي يُحِيلُونَ عَلَيْهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ: مِنْ صِفَتِهِ كَيْتٌ وَكَيْتٌ.

الانْتِصَافُ: «بَلْ بَعْضُهُ مِنْ قَوْلِهِمْ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾، ثُمَّ وَصَفَ اللهُ نَفْسَهُ بِذَلِكَ، وَسَبَقَ سِياقًا وَاحِدًا، فَلِذَلِكَ حَذَفَ الْمُوصُوفَ مِنْ كَلَامِهِ، كَمَا لَوْ قُلْتَ لِرَجُلٍ: مَنْ أكرمَكَ؟ فَقَالَ: أكرمني زيد. قُلْتَ لزيد وهو حاضِر: أنتَ الجوادُ الكريم. ثُمَّ جَاءَ أَوْلُهُ عَلَى الغَيْبَةِ، وَأَخْرَجَهُ عَلَى الْإِنْتِقَالِ إِلَى التَّكَلُّمِ فِي قَوْلِهِ: «أَنشَرْنَا» افْتِنَانًا فِي الْبَلَاغَةِ، وَمِثْلُهُ قَوْلُ مُوسَى: ﴿لَا يَبْضُلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ الَّذِي جَعَلَ ﴿ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ [طه: ٥٢-٥٣] عَلَى الغَيْبَةِ وَالتَّكَلُّمِ، وَهِيَ مُطَابَقَةٌ لِهَذِهِ»^(٢).

قَوْلُهُ: «غَلَبَ الْمُتَعَدِّي بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ لِقُوَّتِهِ، عَلَى الْمُتَعَدِّي بِوَاسِطَةٍ»، الْإِنْتِصَافُ: «قَوْلُهُ: «غَلَبَ

(١) يعني: ابن مالك، الإمام النحوي صاحب «الألفية» المشهورة.

(٢) «الانتصاف» (٣: ٤٧٩) بحاشية «الكشاف».

فقيل: تَرَكَّبُوهُ. ﴿عَلَى ظُهُورِهِ﴾ على ظهور ما تَرَكَّبُوهُ، وهو الفُلُكُ والأنعام.

ومعنى ذِكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ: أَنْ يَذْكُرُوا فِي قُلُوبِهِمْ مُعْتَرِفِينَ بِهَا مُسْتَعْظِمِينَ لَهَا، ثُمَّ يَحْمَدُوا عَلَيْهَا بِالسِّتِّهِمْ،

المُتَعَدِّي «لَيْسَ مُحَرَّرًا»^(١)، فَإِنَّ الْفِعْلَ الْمُتَعَدِّي إِلَى «الْفُلُكِ» هُوَ الْمُتَعَدِّي إِلَى «الْأَنْعَامِ»، غَيْرَ أَنَّ الْعَرَبَ خَصَّتْهُ فِي بَعْضِ مَفَاعِيلِهِ بِوَاسِطَةِ، وَالِاخْتِلَافُ فِي آلَاتِ التَّعَدِّي أَوْ فِي عَدَدِ الْمَفَاعِيلِ لَا يُوجِبُ اخْتِلَافَ الْمَعْنَى، فَالْفِعْلُ الْوَاحِدُ يُعَدُّوهُ تَارَةً وَيَقْصُرُوهُ أُخْرَى، نَحْوُ «شَكَرْتُ»^(٢) وَأَخْوَاتِبِهَا، وَيَجْعَلُونَ الْأَفْعَالَ مُتْرَادِفَةً وَإِنْ اخْتَلَفَتْ مُتَعَلِّقَاتُهَا، وَيَجْعَلُونَ «عَلِمَ» وَإِنْ تَعَدَّى إِلَى مَفْعُولِينَ مُرَادِفًا لـ «عَرَفَ» الْمُتَعَدِّي إِلَى وَاحِدٍ، فَالْأَوَّلَى أَنْ يُقَالَ: تَقْدِيرُهُ: وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرَكَّبُونَ فِيهِ، أَوْ يُقَالَ: غَلَبَ أَحَدًا عَتَبَارِي الْفِعْلِ عَلَى الْآخَرِ، وَهُوَ أَسْهَلُ مِنَ التَّغْلِيْبِ»^(٣). قلت: لَيْسَ غَرَضُ الْمُصَنِّفِ مِنَ التَّغْلِيْبِ هَاهُنَا إِلَّا هَذَا الْمَعْنَى.

قوله: (ثُمَّ يَحْمَدُوا عَلَيْهَا بِالسِّتِّهِمْ): فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ دَلَّ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ عَلَى قَوْلِ الْحَمْدِ؟ قلت: مِنْ حَيْثُ إِنَّ اسْتِحْضَارَ النُّعْمَةِ مُوجِبٌ لِلشُّكْرِ، وَفِي الْعُدُولِ مِنَ «تَحْمَدُوا» إِلَى «تَذْكُرُوا» تَصْوِيرُ حَالَةِ كَوْنِ الْمَرْكُوبِ مُدَلَّلًا مُنْقَادًا، وَأَنَّهُ لَوْلَا تَمَكُّنُ اللَّهِ لَمْ يُتِمَّكُنْ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ قَرَنَ بِهِ كَلِمَةَ التَّعَجُّبِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿سَبِّحْنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾، وَفِي لَفْظِ «هَذَا» مَزِيدٌ تَقْرِيرٌ لِمَعْنَى التَّعَجُّبِ.

(١) تَحَرَّفَ فِي (ح) إِلَى: «تَجَوَّزًا»، وَفِي (ط): «مَجُوزًا»، وَالْجُمْلَةُ - وَهِيَ «لَيْسَ مُحَرَّرًا فَإِنَّ الْفِعْلَ الْمُتَعَدِّي» - سَاقِطَةٌ مِنْ (ف)، وَلَفْظُ ابْنِ الْمُنِيرِ: «لَمْ يُجَرَّرِ الْعِبَارَةُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ»، فَقَدَّرْتُ أَنَّ «تَجَوَّزًا» وَ«مَجُوزًا» تَحْرِيفٌ عَنِ «مُحَرَّرًا».

(٢) يُقَالُ: شَكَرْتُهُ وَشَكَرْتُ لَهُ، فَمِنَ الْأَوَّلِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ [النحل: ١١٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [النمل: ١٩، الأحقاف: ١٥]، وَمِنَ الثَّانِي: قَوْلُهُ: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ﴾ [لقمان: ١٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ أَشْكُرْ لِي وَلَوْلَا ذِيكَ﴾ [لقمان: ١٤].

(٣) «الانصاف» (٣: ٤٨٠-٤٨١) بحاشية «الكشاف».

وهو ما يروى عن النبي ﷺ: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرَّكَابِ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، فَإِذَا اسْتَوَى عَلَى الدَّابَّةِ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَمُنْقَلِبُونَ﴾، وَكَبَّرَ ثَلَاثًا، وَهَلَّلَ ثَلَاثًا»، وَقَالُوا: إِذَا رَكِبَ فِي السَّفِينَةِ قَالَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبْنَهَا وَمُرْسِنَهَا إِنْ رَزَقْنَاهُ رِزْقًا رَحِيمًا﴾ [هود: ٤١].

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما: أنه رأى رجلاً ركب دابة فقال: سبحان الذي سخر لنا هذا. فقال: أبهذا أمرتم؟ فقال: وبم أمرنا؟! قال: أن تذكروا نعمة ربكم. كان قد أغفل التحميد، فنبهه عليه، وهذا من حسن مراعاتهم لآداب الله، ومحافظةهم على دقيقتها وجليلها، جعلنا الله من المقتدين بهم، والسائرين بسيرتهم،

روينا عن أحمد والترمذي وأبي داود^(١) عن علي رضي الله عنه: أنه أتى بدابته، فلما وضع رجله في الركاب، قال: بسم الله، فلما استوى على ظهره، قال: الحمد لله، ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ الآية، ثم حمد الله وكبر ثلاثاً، ثم قال: لا إله إلا أنت، ظلمت نفسي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ثم صحك، فقيل له، فقال: «رأيت رسول الله ﷺ صنع كما صنعت ثم صحك»، فقيل: من أي شيء صحك؟ فقال: «إن ربك ليعجب من عبده، قال: رب اغفر لي ذنوبي، يعلم أن الذنب لا يغفرها غيري».

قوله: (عن النبي ﷺ: أنه كان إذا وضع رجله) الحديث: من رواية مسلم والترمذي وأبي داود والدارمي^(٢) عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر، حمد الله تعالى وسبح وكبر ثلاثاً، ثم قال: «﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الْبِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى»، الحديث.

(١) أحمد (٧٥٣) و(٩٣٠) و(١٠٥٦)، والترمذي (٣٤٤٦)، وأبو داود (٢٦٠٢).

(٢) مسلم (١٣٤٢)، والترمذي (٣٤٤٧)، وأبو داود (٢٥٩٩)، والدارمي (٢٦٧٣).

فما أحسنَ بالعاقلِ النَّظَرَ في لَطَائِفِ الصَّنَاعَاتِ، فكيفَ بالنَّظَرِ في لَطَائِفِ الدِّيَانَاتِ؟

﴿مُقَرَّرِينَ﴾ مُطِيقِينَ، يُقَالُ: أَقْرَنَ الشَّيْءُ: إِذَا أَطَاقَهُ، قَالَ ابْنُ هَرْمَةَ:

وَأَقْرَنْتُ مَا حَمَلْتَنِي وَلَقَلَّمَا يُطَاقُ احْتِمَالُ الصَّدِّ - يَدْعُدُ - وَالهِجْرُ

وحقيقةُ «أقرنَه»: وَجَدَهُ قَرِينَتَهُ وما يُقَرَّنُ به؛ لأنَّ الصَّعْبَ لا يكونُ قَرِينَةً للضعيفِ،

ألا ترى إلى قولهم في الضعيف: لا تُقَرَّنُ به الصَّعْبَةُ. وقُرِّي: «مُقَرَّرِينَ»، والمعنى واحد.

فإن قلت: كيفَ اتَّصَلَ بِذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾؟ قلت: كم من رَاكِبٍ

دَابَّةٌ عَثَرَتْ به أو شَمَسَتْ أو تَفَحَّحَمَتْ أو طَاحَ مِنْ ظَهْرِهَا فَهَلَكَ،

قوله: (فما أحسنَ بالعاقلِ النَّظَرَ): الباءُ مُتَعَلِّقَةٌ بـ «أحسنَ»، وجاز تقديمُه على «النَّظَرَ»،

يعني: كما نَظَرْتَ إلى صَنَعَةٍ مِنَ الصَّنَاعَاتِ الْمُتَقَنَةِ الْمُؤَنَّقَةِ وَتَعَجَّبْتَ مِنْهَا، فَانظُرْ إلى كُلِّ لَطِيفَةٍ مِنَ لَطَائِفِ الدِّيَانَةِ وَمَحَاسِنِ الشَّرِيعَةِ، وَتَعَجَّبْ مِنْهَا، فَإِنَّ كُلَّ نَطْقٍ وَسُكُوتٍ، بَلْ كُلِّ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ، فِيهِ مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْحِكْمِ مَا يُقْضَى مِنْهُ الْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْفَلَ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا إِهْمَالًا، فَتَحْرِمَ عَلَى نَفْسِكَ كِمَالَاتٍ لَا غَايَةَ لَهَا.

قوله: (وَأَقْرَنْتُ مَا حَمَلْتَنِي) البيت: «الهِجْرُ»: تَرَكُ مَا يَلْزَمُكَ تَعَاهُدُهُ، يَقُولُ: قَلَّمَا يُطَاقُ

احْتِمَالُ الْإِعْرَاضِ وَالهِجْرِ، وَقَدْ أَطَقْتُ ذَلِكَ.

قال الزجَّاجُ: ﴿مُقَرَّرِينَ﴾: مُطِيقِينَ، وَاشْتِقَاقُهُ مِنْ قَوْلِكَ: أَنَا لِفُلَانٍ مُقَرَّنٌ، أَي: مُطِيقٌ،

أَي: قَدْ صِرْتُ قَرْنًا لَهُ^(١).

قوله: (وقرِّي: «مُقَرَّرِينَ») بالتشديد، يُرْوَى بِكَسْرِ الرَّاءِ وَفَتْحِهَا. المَطْلَعُ: المُقَرَّنُ: الَّذِي

يُجْعَلُ مُقَرَّنًا لِلشَّيْءِ، أَي: مُطِيقًا لَهُ، يَقَالُ: قَرَنَهُ فَاقْتَرَنَ لَهُ.

قوله: (أو تَفَحَّحَمَتْ)، الجوهري: «قَحَمَ الْفَرَسُ فَارْسَهُ تَفْحِيمًا عَلَى وَجْهِهِ؛ إِذَا رَمَاهُ».

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجَّاج (٤: ٤٠٦).

وكم من راكبين في سفينة انكسرت بهم فغرِقوا، فلما كان الرُّكوبُ مُباشرةً أمرٌ مُحْطَرٌ، واتصالاً بسببٍ من أسباب التَّلَفِ، كانَ مِنْ حَقِّ الرَّاكِبِ - وقد اتَّصَلَ بِسَبَبٍ مِنْ أسبابِ التَّلَفِ -: أَنْ لَا يَنْسَى عِنْدَ اتِّصَالِهِ بِهِ يَوْمَهُ، وَأَنَّهُ هَالِكٌ لَا مَحَالَةَ، فَمُنْقَلِبٌ إِلَى اللَّهِ غَيْرُ مُنْقَلِبٍ مِنْ قَضَائِهِ، وَلَا يَدَعُ ذِكْرَ ذَلِكَ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ، حَتَّى يَكُونَ مُسْتَعِدًّا لِلِقَاءِ اللَّهِ بِإِصْلَاحِهِ مِنْ نَفْسِهِ، وَالْحَذَرُ مِنْ أَنْ يَكُونَ رَكُوبُهُ ذَلِكَ مِنْ أسبابِ مَوْتِهِ فِي عِلْمِ اللَّهِ، وَهُوَ غَافِلٌ عَنْهُ. وَيَسْتَعِيدُ بِاللَّهِ مِنْ مَقَامٍ مَنْ يَقُولُ لِقُرْنَائِهِ: تَعَالَوْا تَنْتَزِعُوا عَلَيَّ الْخَيْلَ، أَوْ فِي بَعْضِ الزَّوَارِقِ، فَيُرَكَّبُونَ حَامِلِينَ مَعَهُ أَنْفُسَهُمْ أَوْانِي الْخَمْرِ وَالْمَعَارِيفِ، فَلَا يَزَالُونَ يَسْقُونَ، حَتَّى تَمِيلَ طِلَاحُهُمْ وَهُمْ عَلَى ظُهُورِ الدَّوَابِّ، أَوْ فِي بُطُونِ السُّفُنِ، وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ، لَا يَذْكُرُونَ إِلَّا الشَّيْطَانَ، وَلَا يَمْتَثِلُونَ إِلَّا أَوْامِرَهُ.

وقد بَلَغَنِي: أَنَّ بَعْضَ السَّلَاطِينِ رَكِبَ وَهُوَ يَشْرَبُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ شَهْرٍ، فَلَمْ يَصُحْ إِلَّا بَعْدَمَا اطمَآنَتْ بِهِ الدَّارُ، فَلَمْ يَشْعُرْ بِمَسِيرِهِ وَلَا أَحْسَسَ بِهِ، فَكَمَ بَيْنَ فِعْلِ أَوْلَيْكَ الرَّاكِبِينَ وَبَيْنَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

قوله: (انكسرت بهم): حال، نحوه قول أبي الطيب:

تَدُوسُ بِنَا الْجَمَاجِمَ وَالتَّرِيبَا^(١)

قوله: (أَنْ لَا يَنْسَى عِنْدَ اتِّصَالِهِ بِهِ يَوْمَهُ): مفعولٌ «ينسى»: أي: هلاكه، فيكون قوله: «وأنه هالكٌ لا محالة» عطفًا تفسيريًا.

قوله: (والمعارف): الجوهري: «المعارف: الملامهي، والمعارف: اللاعب بها والمغني»^(٢).

قوله: (اطمأننت به الدار)، الأساس: «اطمأن إليه: سكن إليه، ووثق به، واطمأن عمًا

(١) انظر: «شرح ديوان المتنبي» للواحدي (١: ٤٢٣)، وأولُه:

فَمَرَّتْ غَيْرَ نَافِرَةٍ عَلَيْهِمْ

قال الواحدي: «أي: وطئت رؤوسهم وصدورهم، ونحن عليها، ولم تنفر عليهم».

(٢) هذه الفقرة (من «قوله: المعارف» إلى هنا) سقطت من (ف).

وقيل: يذكرون عند الركوب ركوب الجنابة.

[﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ * أَمْ أَخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْغَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ ١٥-١٨]

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ مُتَّصِلٌ بقوله: ﴿ وَلَيْنَ سَاءَ النَّهْمُ ﴾ [الزخرف: ٩]، أي: ولئن سألتهم عن خالق السماوات والأرض ليعترفنَّ به، وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عبادِهِ جُزْءًا، فوصفوه بصفات المخلوقين.

ومعنى: ﴿ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ أن قالوا: الملائكة بناتُ الله، فجعلوهم جُزْءًا له وبعضاً منه، كما يكون الولدُ بضعةً من والديه وجُزْءًا له.

ومن بدع التفاسير: تفسيرُ «الجُزْءِ» بالإناث، وادّعاءُ أن «الجُزْءَ» في لغة العرب اسمٌ للإناث، وما هو إلا كذبٌ على العرب، ووضعٌ مُستحدثٌ منحول، ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه: أجزاء المرأة، ثم صنعوا بيتاً وبيتاً:

إن أجزاء حُرَّةً يوماً فلا عجبُ
زوّجتها من بناتِ الأوسِ مُجزئةً

كان يفعلُه: بتركه، واطمأنَّ به القرارُ، أسندَ الاطمئنانُ إلى «الدار»، وهو لصاحبها، على المجاز، والجارُّ والمجرور: حال.

قوله: (بيتاً وبيتاً): أي: بيتاً بعد بيت، البيتُ الأولُ أنشدَه الزجاج:

إن أجزاء حُرَّةً يوماً فلا عجبُ قد تُجزئُ الحُرَّةُ المذكارُ أحياناً^(١)

«أجزاء»: وَصَعَتْ أنثى. وقال الزجاج: «ولا أدري: البيتُ قديمٌ أم مصنوعٌ؟»^(٢).

(١) البيتُ في «لسان العرب» لابن منظور، مادة (جزأ).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤: ٤٠٧).

وَقُرِّئَ: «جُزْءًا» بَضْمَتَيْنِ.

﴿لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ لَجَحُودٌ لِلنَّعْمَةِ ظَاهِرٌ جُحُودُهُ، لِأَنَّ نِسْبَةَ الْوَالِدِ إِلَيْهِ كُفْرٌ، وَالْكَفْرُ أَصْلُ الْكُفْرَانِ كُلِّهِ.

﴿أَمِ اتَّخَذَ﴾ بل اتخذ، والهمزة للإنكار؛ تجهيلاً لهم وتعجبياً من شأنهم، حيث لم يَرْضُوا بِأَنْ جَعَلُوا اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا، حَتَّى جَعَلُوا ذَلِكَ الْجُزْءَ شَرًّا الْجُزْأَيْنِ، وَهُوَ الْإِنَاثُ دُونَ الذَّكَورِ، عَلَى أَنَّهُمْ أَنْفَرُوا خَلَقَ اللَّهُ عَنِ الْإِنَاثِ وَأَمَقَّتَهُمْ لهنَّ، وَلَقَدْ بَلَغَ بِهِمُ الْمَقْتُ إِلَى أَنْ وَأَدُوهُنَّ، كَأَنَّهُ قِيلَ: هَبُوا أَنْ إِضَافَةَ اتِّخَاذِ الْوَالِدِ إِلَيْهِ جَائِزَةٌ فَرْضًا وَتَمَثِيلًا، أَمَا تَسْتَحْيُونَ مِنْ الشَّطْطِ فِي الْقِسْمَةِ؟ وَمِنْ ادِّعَائِكُمْ أَنَّهُ آتَرَكُمْ عَلَى نَفْسِهِ بِخَيْرِ الْجُزْأَيْنِ وَأَعْلَاهُمَا، وَتَرَكَ لَهُ شَرَّهُمَا وَأَدْنَاهُمَا؟!!

وتنكير ﴿بَنَاتٍ﴾ وتعريف ﴿الْبَنِينَ﴾ وتقديمهنَّ في الذَّكْرِ عليهم؛ لِمَا ذَكَرْتُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾ [الشورى: ٤٩].

والبيت الثاني:

رُؤِجَتْهَا مِنْ بَنَاتِ الْأَوْسِ مُجْرِيَةً لِلْعَوَسِجِ اللَّذْنِ فِي آيَاتِهَا رَجَلٌ^(١)

«المجريئة»: المرأة التي تَلِدُ البنات، وعنى بـ«العوسج»: المغازل؛ اللَّيْنُ عُوْدُهُ وَمَتَانِيَتُهُ لِعَزْلِ الصُّوفِ، وَ«رَجَلٌ»: صَوْتُ دَوْرِ الْمِغْزَلِ، وَكَانَ هَذَا الشَّاعِرُ تَزَوَّجَ امْرَأَةً لَهَا بَنَاتٌ يَجْتَمِعْنَ عِنْدَهَا وَيَغْزِلْنَ.

قوله: (وَقُرِّئَ: «جُزْءًا» بَضْمَتَيْنِ): أبو بكر عن عاصم^(٢).

قوله: (وتعريف ﴿الْبَنِينَ﴾ وتقديمهنَّ في الذَّكْرِ عليهم لِمَا ذَكَرْتُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَهَبُ لِمَنْ

(١) البيت في «لسان العرب» أيضاً، مادة (جزأ). واللذن: اللين من كل شيء، كما في «اللسان»، مادة (لذن).

(٢) انظر: «التيسير» للذاني ص ٨٢.

﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ بِالْجِنْسِ الَّذِي جَعَلَهُ لَهُ مَثَلًا، أَي: شَبَّهَهَا؛ لِأَنَّهُ إِذَا جَعَلَ الْمَثَلَةَ جُزْءًا لِلَّهِ وَبَعْضًا مِنْهُ، فَقَدْ جَعَلَهُ مِنْ جِنْسِهِ وَمُثَالًا لَهُ، لِأَنَّ الْوَالِدَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ جِنْسِ الْوَالِدِ، يَعْنِي: أَنَّهُمْ نَسَبُوا إِلَيْهِ هَذَا الْجِنْسَ، وَمِنْ حَالِهِمْ: أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا قِيلَ لَهُ: قَدْ وُلِدَتْ لَكَ بِنْتٌ، اغْتَمَّ وَارْبَدَّ وَجْهُهُ غَيْظًا وَتَأْسَفًا، وَهُوَ مَمْلُوءٌ مِنَ الْكَرْبِ. وَعَنْ بَعْضِ الْعَرَبِ: أَنَّ امْرَأَتَهُ وَضَعَتْ أُثْنِيًّا، فَهَجَرَ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الْمَرْأَةُ، فَقَالَتْ:

مَا لِأَبِي حِمْرَةَ لَا يَأْتِينَا يَظُلُّ فِي الْبَيْتِ الَّذِي يَلِينَا
غَضْبَانٌ أَنْ لَا تَلِدَ الْبَنِينَا لَيْسَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا مَا شِينَا
وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا

وَالظُّلُولُ: بِمَعْنَى: الصَّيْرُورَةِ، كَمَا تُسْتَعْمَلُ أَكْثَرُ الْأَفْعَالِ النَّاقِصَةِ بِمَعْنَاهَا، وَقُرِئَ: «مُسْوَدًا» وَ«مُسْوَادًا»، عَلَى أَنَّ فِي ﴿ظَلَّ﴾ ضَمِيرَ الْمُبَشَّرِ، وَ﴿وَجْهَهُ مُسْوَدًا﴾ جُمْلَةٌ وَقَعَةٌ مَوْقِعُ الْخَبَرِ.

ثم قال: أَوْ يُجْعَلُ لِلرَّحْمَنِ مِنَ الْوَالِدِ مَنْ هَذِهِ الصِّفَةُ الْمَذْمُومَةُ صِفَتُهُ؟

يَشَاءُ إِنْسَانًا وَيَهْتَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿﴾: التَّقْدِيمُ فِي تِلْكَ الْآيَةِ لِلرَّدِّ عَلَى الْمُعْرِضِينَ الْمُسْتَوْجِبِينَ لِكُلِّ إِهَانَةٍ، وَأَنْ يَفْعَلَ بِهِمْ مَا لَا يَشَاؤُونَ، وَفِي هَذِهِ: الرَّدُّ وَإِرَادُ عَلَى نِسْبَةِ الْبَنَاتِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَكَانَ ذِكْرُ «الْبَنَاتِ» هُوَ الَّذِي سَبَقَ لَهُ الْكَلَامُ أَصَالَةً، وَذِكْرُ «الْبَنِينَ» مُسْتَطَرَّدًا لِمَزِيدِ الْإِنْكَارِ وَالتَّمْيِيمِ فِيهِ، وَيَحْتَمِلُ التَّقْدِيمُ وَالتَّعْرِيفُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ لِمُرَاعَاةِ الْفَوَاصِلِ، لَكِنَّ الْوَجْهَ هُوَ الْأَوَّلُ.
قوله: (واربَدَّ وَجْهَهُ): الجوهري: «تربَدَّ وَجْهُ فُلَانٍ: تَغَيَّرَ مِنَ الْغَضَبِ، وَتَرَبَدَّ الرَّجُلُ: أَي: تَعَبَسَ».

قوله: (ثم قال: أَوْ يُجْعَلُ لِلرَّحْمَنِ مِنَ الْوَالِدِ مَنْ هَذِهِ الصِّفَةُ الْمَذْمُومَةُ صِفَتُهُ): آذَنَ بَأَنَّ الْوَاوِيَّ فِي ﴿أَوْ مِنْ﴾ تَسْتَدْعِي الْمَعْطُوفَ وَالْمَعْطُوفَ عَلَيْهِ، وَالْمَعْطُوفُ عَلَيْهِ جُمْلَةٌ قَوْلِهِ: ﴿أَوْ إِتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾، فَيُقَدَّرُ الْمَعْطُوفُ أَيْضًا فِعْلًا يُنَاسِبُهُ، وَيَكُونُ عَامِلًا فِي الْمَوْصُولِ،

وهو أنه ﴿يُنشَأُ فِي الْحَلِيَةِ﴾، أي: يترى في الزينة والنعمة، وهو إذا احتاج إلى مجااةة الخصوم ومجاراة الرجال، كان غير مبین، ليس عنده بيان، ولا يأتي ببرهان يحتج به من يخصمه؛ وذلك لضعف عقول النساء وتقصاهن عن فطرة الرجال، يقال: قلما تكلمت امرأة فأرادت أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها.

وفيه: أنه جعل النساء في الزينة والتعومة من المعايير والمذام، وأنه من صفة ربات الحجال، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك، ويأنف منه، ويربأ بنفسه عنه، ويعيش كما قال عمر رضي الله عنه: «اخشوشنوا واخشوشبوا وتمعددوا»،

وأفحمت الهمزة بين المعطوفين لمزيد الإنكار الذي يعطيه معنى الهمزة في ﴿أمر﴾ المنقطعة، والجملة الشرطية^(١) معترضة لتأكيد المنكر.

قوله: (ويربأ بنفسه عنه): أي: يرفع، الأساس: «إني لأربأ بك عن الأمر، أي أرفعك عنه، ولا أرضاه لك».

قوله: (اخشوشنوا): النهاية: «اخشوشن الشيء: مبالغة في خشونته، واخشوشن: إذا لبس الخشن - واخشوشب الرجل: إذا كان صلباً خشناً في دينه وملبسه ومطعمه وجميع أحواله - ومنه حديث عمر رضي الله عنه: اخشوشنوا»^(٢).

قوله: (وتمعددوا): النهاية: «يقال: تمعدد الغلام: إذا شبَّ وغلظ، وقيل: أراد تشبهوا بعيش معدد بن عدنان، وكانوا أهل غلظ وقشف، أي: كونوا مثلهم ودعوا التنعيم وزبي العجم، ومنه حديثه الآخر: «عليكم باللبسة المعدية»، أي: خشونة اللباس».

(١) يعني: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾.
(٢) المؤلف يتقل من «النهاية» لابن الأثير من موضعين، فما بين علامتي الاعتراض من مادة (خشب)، وسائره من مادة (خشن).

وإن أراد أن يُزَيِّنَ نفسه زَيَّنَهَا مِنْ بَاطِنٍ بِلِبَاسِ التَّقْوَى.

وَقُرِي: «يُنشَأُ» و«يُنشَوُا» و«يُنشَأُ». ونظيرُ المُنشَأَةِ؛ بمعنى الإنشاء: المغلاة، بمعنى الإغلاء.

[﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِشَاءً أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكُنَّ بِشَهَادَتِهِمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ ١٩]

قد جَمَعُوا في كَفْرَةٍ ثَلَاثَ كَفَرَاتٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ نَسَبُوا إِلَى اللَّهِ الْوَلَدَ، وَنَسَبُوا إِلَيْهِ أَحْسَنَ التَّوَعِينِ، وَجَعَلُوهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ أَكْرَمُ عِبَادِ اللَّهِ عَلَى اللَّهِ، فَاسْتَحَفُّوا بِهِمْ وَاحْتَقَرُّوهُمْ.

الأساس: «رجلٌ مَعُودٌ: دَوِيُّ الْمِعْدَةِ، وَقَدْ مَعِدَ. وَمِنَ الْمَجَازِ: تَمَعَّدَ الصَّبِيُّ: غَلِظَ وَصَلَبَ وَدَهَبَ عَنْهُ رُطُوبَةُ الصَّبَا، قَالَ:

رَبِّيئُهُ حَتَّى إِذَا تَمَعَّدَا
كَانَ جَزَائِي بِالْعَصَا أَنْ أُجْلِدَا».

قوله: (وإن أراد أن يُزَيِّنَ نفسه): عطفٌ على قوله: «أَن يَجْتَنِبَ ذَلِكَ»، وَالْحَاصِلُ أَنَّ فِي ظَاهِرِ قَوْلِهِ: «أَوْ مَن يُنشَوُا فِي الْحَلِيَّةِ» إنكارَ نِسْبَةِ الْبَنَاتِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَفِي الْعُدُولِ إِلَى هَذِهِ الْأَلْفَافِ مِنَ التَّصْرِيحِ بِذِكْرِ «البنات»: إدماجٌ^(١) لمعنى دَمَّ التَّشْبُهَ بِالنِّسَاءِ، وَفِي مَفْهُومِ الْمُدْمَجِ رَمَزٌ إِلَى التَّرغِيبِ فِي التَّرْتِيْنِ بِلِبَاسِ التَّقْوَى، وَالْإِهْتِمَامِ بِعِمَارَةِ الْبَاطِنِ، وَرَفْضِ الْإِلْتِفَاتِ إِلَى الظَّاهِرِ.

قوله: (وَقُرِي: «يُنشَأُ» و«يُنشَوُا» و«يُنشَأُ»): الثَّانِيَةُ: حَفْصٌ وَحِزَّةٌ وَالْكِسَائِيُّ، وَالْأُولَى: الْبَاقُونَ^(٢)، وَالثَّلَاثَةُ: شَاذَةٌ. وَرُوي: «يُنشَأُ» بِضَمِّ الْيَاءِ وَالتَّخْفِيفِ. عَنْ بَعْضِهِمْ: أَنْشَأَ وَنَشَأَ وَنَاشَأَ، نَحْوُ: أَعْلَى وَعَلَا وَعَالَى، يُقَالُ: أَعْلَاهُ اللَّهُ فَعَلَاً، وَعَالَاهُ: أَي: أَعْلَاهُ، وَعَلَاهُ وَأَعْلَاهُ وَعَالَاهُ: بِمَعْنَى.

(١) تقدّم معنى الإدماج في تفسير الآية ١١٥ من سورة التوبة (٧: ٣٨١) تعليقا.

(٢) انظر: «التيسير» للداني، ص ١٩٦، و«حجة القراءات» ص ٦٤٦.

وَقُرِئَ: ﴿عِنْدَ الرَّحْمَنِ﴾ و«عَبِيدُ الرَّحْمَنِ» و«عِنْدَ الرَّحْمَنِ» - وهو مَثَلٌ لِرُفَاهِهِم واختصاصِهِمْ - و«إِنثًا» و«أُنثًا»؛ جَمْعُ الجَمْعِ.

ومعنى «جَعَلُوا»: سَمَّوْا وَقَالُوا: إِنَّهُمْ إِنَاثٌ، وَقُرِئَ: ﴿أَشْهَدُوا﴾، و«أَشْهَدُوا»؛ بِهِمْزَتَيْنِ مَفْتُوحَةٍ وَمُضْمُومَةٍ، و«أَشْهَدُوا»؛ بِالْفَاءِ بَيْنَهُمَا، وَهَذَا تَهَكُّمٌ بِهِمْ، يَعْنِي أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَنِدَ قَوْلُهُمْ إِلَى عِلْمٍ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضْطَرَّهُمْ إِلَى عِلْمِ ذَلِكَ، وَلَا تَطَرَّقُوا إِلَيْهِ بِاسْتِدْلَالٍ، وَلَا أَحَاطُوا بِهِ عَنْ خَبَرٍ يُوجِبُ الْعِلْمَ، فَلَمْ يَبَيِّنْ إِلَّا أَنَّ يُشَاهِدُوا خَلْقَهُمْ، فَأَخْبَرُوا عَنْ هَذِهِ الْمَشَاهِدَةِ.

﴿سَكَتَ كِتَابٌ شَهِدَتْهُمْ﴾ التي شَهِدُوا بِهَا عَلَى الْمَلَائِكَةِ مِنْ أُنُوثَتِهِمْ، ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ وهذا وعيد، وَقُرِئَ: «سَيَكْتُبُ» و«سَنَكْتُبُ»؛ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ، و«شَهِدَتْهُمْ» و«شَهَادَاتُهُمْ»، و«يُسْأَلُونَ»؛ عَلَى: يُفَاعَلُونَ.

قوله: (وَقُرِئَ: ﴿عِنْدَ الرَّحْمَنِ﴾): الْحَرَمِيَّانُ^(١) وَابْنُ عَامِرٍ: «عِنْدَ الرَّحْمَنِ»، بِالنُّونِ سَاكِنَةً وَفَتْحَ الدَّالِ، وَالباقون: ﴿عِنْدَ الرَّحْمَنِ﴾^(٢).

قوله: (ومعنى «جَعَلُوا»: سَمَّوْا وَقَالُوا: إِنَّهُمْ إِنَاثٌ): قَالَ الزَّجَّاجُ: «الجعلُ هنا في معنى القَوْلِ والحكمِ عَلَى الشَّيْءِ، تقول: جَعَلْتُ زَيْدًا أَعْلَمَ النَّاسِ، أَي: قد وَصَفْتَهُ بِذَلِكَ وَحَكَمْتَ بِهِ»^(٣).

قوله: (وَقُرِئَ: ﴿أَشْهَدُوا﴾ و«أَشْهَدُوا»): قالون: بِهِمْزَتَيْنِ؛ الثَّانِيَةُ مُضْمُومَةٌ مُسَهَّلَةٌ بَيْنَ الهمزةِ والواوِ، وقالون - من روايةِ أَبِي نَشِيطٍ بِخِلَافٍ عَنْهُ - يُدْخِلُ قَبْلَهَا أَلْفًا، وَالشَّيْنُ سَاكِنَةٌ، وَالباقون: بِهِمْزَةٌ وَاحِدَةٌ مَفْتُوحَةٌ وَفَتْحَ الشَّيْنِ^(٤).

قوله: (وهذا تَهَكُّمٌ بِهِمْ): يَعْنِي: قَوْلُهُ: ﴿أَشْهَدُوا﴾ مِنْ بَابِ التَّقْسِيمِ الحَاضِرِ، كَمَا سَبَقَ مِرَارًا.

(١) يعني: ابن كثير المكي، ونافعاً المدني.

(٢) انظر: «التيسير» لللداني ص ١٩٦، و«حجة القراءات» ص ٦٤٧.

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤: ٤٠٧).

(٤) انظر: «التيسير» لللداني ص ١٩٦، و«حجة القراءات» ص ٦٤٨.

[﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَالَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عَلِيمٍ إِنَّهُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ ٢٠]
 ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ هما كُفْرَتَانِ أَيْضاً مضمومتانِ إِلَى الكُفْرَاتِ
 الثلاثِ، وهما: عبادتُهُنَّ الملائكةَ مِنْ دونِ الله، وَرَعْمُهُمْ أَنَّ عِبَادَتَهُمْ بِمَشِيئَةِ الله، كما
 يقولُ إِخْوَانُهُم المَجْرِبَةُ.

قوله: (هما كُفْرَتَانِ أَيْضاً): الجوهري: «الكُفْرُ - بِالْفَتْحِ -: التَّغْطِيَةُ، وَقَدْ كَفَرْتُ الشَّيْءَ أَكْفَرُهُ - بِالْكَسْرِ - كُفْرًا؛ أَي: سَتَرْتَهُ. وَالْكَفْرُ أَيْضًا: ظُلْمَةٌ اللَّيْلِ وَسَوَادُهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ عَطَى شَيْئًا فَقَدْ كَفَّرَهُ، قَالَ ابْنُ السَّكَيْتِ: وَمِنْهُ سُمِّيَ الْكَافِرُ، لِأَنَّهُ يَسْتُرُ نِعَمَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى».

قوله: (مضمومتانِ إِلَى الكُفْرَاتِ الثلاثِ): وهي ما عَدَّهَا فِي قَوْلِهِ: إِنَّهُمْ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا، وَإِنَّهُ اتَّخَذَ بَنَاتٍ وَأَصْفَاهُمْ بِالْبَنِينَ، وَإِنَّهُمْ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الْمُكْرَمِينَ إِنَائًا، وَإِنَّهُمْ عَبَدُوهُمْ وَقَالُوا: لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاكُمْ.

واعلم أنه ذهب إلى أن قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾، وعلى قوله: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِنَّمَا ﴾، ولا ارتباط في كَوْنِ قَوْلِهِمْ فِيهِمَا وَاعْتِقَادِهِمْ كُفْرًا، فَكَذَلِكَ يَنْبَغِي حُكْمُ الْمُعْطُوفِ، وَإِذَا كَانَ الْقَوْلُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ كُفْرًا كَانَ قَوْلُ أَهْلِ السُّنَّةِ: «إِنَّ كُفْرَ الْكَافِرِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ» مِثْلَ قَوْلِهِمْ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونُوا أَهْلًا مِنْهُ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «كَمَا يَقُولُ إِخْوَانُهُمُ الْمُجْرِبَةُ».

وَاتَّجَعَّ عَلَيْهِ سُؤَالٌ، وَهُوَ أَنَّهُمْ ذَكَرُوا ذَلِكَ اسْتِهْزَاءً وَسُخْرِيَةً، فَذُمُّوا لِذَلِكَ، نَقَلَ هَذَا الْقَوْلَ الْإِمَامُ عَنْ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ^(١). وَفِي «التيسير»: قَالُوا ذَلِكَ اسْتِهْزَاءً بِقَوْلِ أَهْلِ الْحَقِّ: إِنَّ الْكَائِنَاتِ كُلَّهَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، لَا اعْتِقَادًا مِنْهُمْ، فَلِذَلِكَ كَذَّبَهُمْ وَجَهَّلَهُمْ.

وَأَجَابَ عَنْهُ: بَأَنَّ صَرْفَ الْكَلَامِ مِنَ الْحَقِيقَةِ مِنْ غَيْرِ صَارِفٍ غَيْرُ جَائِزٍ، عَلَى أَنَّا بَيْنَا أَنَّ الْآيَاتِ كُلَّهَا مَسْوُوقَةٌ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ، فِيمَا أَنْ تُجْرَى كُلُّهَا بِمَجْرَى الاسْتِهْزَاءِ، أَوْ تُؤَوَّلَ بِأَسْرِهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، وَإِمَّا أَنْ يُجْعَلَ بَعْضُهَا اسْتِهْزَاءً. وَلَا سَبِيلَ إِلَى الْأَوَّلِ؛ لِأَنَّ الْقَوْلَ بِهِ يُفْضِي إِلَى أَنَّ الْكُفْرَانَ اسْتِهْزَؤُا بِجَعْلِ الْمَلَائِكَةِ جُزْءًا لَهِ، وَبِجَعْلِهَا بَنَاتٍ لَهِ وَإِنَائًا، وَهَذَا عَيْنُ الْإِيْبَانِ،

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» للرازي (٢٧: ٦٢٦).

والقولُ به مُستلزمٌ للمدح - ألا ترى إلى قوله (١) في حِكَايَةِ الْمُنَافِقِينَ: ﴿إِنَّمَا مَعَكُمْ إِيمَانُكُمْ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤]: «المُستَهْزِئُ بالشيءِ المُستَخَفُّ به مُنْكَرٌ له ودَافِعٌ لِكُونِهِ مُعْتَدًّا به، ودَفْعٌ نَقِيضُ الشيءِ تَأكِيدٌ لِثَبَاتِهِ» ، ولا إلى الثالث؛ لأنَّ الذهابَ إليه مما يَحْرِمُ النَّظْمَ، وبأباهُ أيضاً قوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾، لأنَّ المُستَهْزِئَ لا يُكذَّبُ، ولكن يُوبَّخُ على استهزائه، فلا يُقال: ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ إذا استهزَؤا بذلك القول.

ثم إنَّ الرَّجَاحَ ذَكَرَ ما يَصِحُّ أن يَقَعَ جواباً عن هذا، وهو أن قوله: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ عائِدٌ إلى قولهم: «الملائكةُ بناتُ الله»، لا إلى قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ (٢)، فأوردَه المُصنِّفُ على نَفْسِهِ سؤالا، وأجاب: أنه «تمحُّلٌ مُبْطِلٌ وتحريفٌ مُكابِرٌ».

وصَحَّحَ الإمامُ رَدَّ المُصنِّفِ، وقال: «إنَّ ذلكَ يُؤدِّي إلى أنه تعالى حَكى عن القومِ قولينِ باطلين، وبيَّنَ وَجْهَ بَطْلانِهما، ثم حَكى بعدهما مَذْهَباً ثالثاً في مسألةِ أجنبيَّة، ثم حَكَمَ بِبَطْلانِها أيضاً، فَصَرَّفَ هذا الإِطْلالَ عن المذكورِ عَقِيْبَهُ، إلى كِلامٍ مُتقدِّمٍ عليه: غايةُ البُعدِ»، وقرَّرَ أيضاً رَدَّ المُصنِّفِ القولَ بالاستهزاء، ثم قال: «والحقُّ عندي: هو أن القومَ لَمَّا ذكروا هذا الكلامَ استدلُّوا بِمَشِيئَةِ اللهِ للكُفْرِ على أنه لا يَجُوزُ ورودُ الأمرِ بالإيمان، واعتقدوا أن الأمرَ والإرادةَ يجبُ كونهما مُتطابِقين، وهذا عندنا باطلٌ، والقومُ لم يَسْتَحِقُّوا الذَّمَّ بِمُجَرَّدِ قولهم: إنَّ الله يُريدُ الكُفْرَ مِنَ الكافرِ، بل لأجلِ أنهم قالوا: لَمَّا أرادَ الكُفْرَ مِنَ الكافرِ وَجَبَ أن يَقْبَحَ منه أمرُ الكافرِ بالإيمان» (٣).

ويَقْرُبُ منه ما روى الواحِدِيُّ عن صاحبِ النَّظْمِ: «أنَّ هذا القولَ حَقٌّ، وإن كانَ مِنَ الكُفَّارِ، وهذا كقولهِ: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، وإن جَعَلْتَ قولَهُ: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ رَدًّا لِقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾، كانَ المعنى: أنهم قالوا: إنَّ الله قَدَّرَنا على عِبادَتِها، فَلِمَ يُعاقِبُنَا؟ لأنَّهُ رَضِيَ بِذلكَ هنا. وهذا كذبٌ منهم، لأنَّ الله

(١) أي: قول الزمخشري في تفسير الآية المذكورة من سورة البقرة.

(٢) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤: ٤٠٨).

(٣) «مفاتيح الغيب» للرازي (٢٧: ٦٢٦-٦٢٧).

تعالى وإن أراد كُفَرَ الكافر فإنه لا يرضاه، وتقديره الكافر على الكفر لا يكون عن رضا منه»^(١).
ومأل هذين القولين يرجع إلى أن التكذيب في قوله: ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ راجع إلى
مؤدى قوله: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ﴾، لا إلى معناه الظاهر.

وقال صاحب «الفرائد»: «لأهل السنة فيه ثلاثة أوجه: أحدها: أنهم ادَّعَوْا أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُمْ
بعبادة الملائكة، وقالوا: لو شاء أن لا نعبد لنهاننا، فإذا لم ينهنا عنها فقد أمرنا. وثانيها: لو
شاء الله أن لا نعبدهم لمنعنا عن عبادتهم منع قهر واضطرار، وإذا لم يفعل ذلك فقد أباح لنا.
وثالثها: أنهم قالوا هذا القول استهزاء بقول أهل الحق: إن الكائنات كلها بمشيئة الله تعالى،
وحيث لم يعتقدوا بما قالوا، فأكذبهم الله فيه وجعلهم، كما أخبر عنهم: ﴿أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ
أَطَعْتُمْ﴾ [يس: ٤٧]، هذا حق في الأصل، ولكن قالوا ذلك استهزاء، فأكذبهم بقوله: ﴿إِنْ
أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧]، وكذلك قوله: ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾، ثم قال:
﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، فقولهم: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ
هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾: معناه: ليس لهم عليه حجة، وهو جهل منهم وكذب.

أما قوله^(٢): «لا دليل على أنهم قالوه مستهزين»: ففي غاية البعد، لأنه قد دلّ الدلائل
عليه، منها قوله تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]،
وأمثال هذا من المنقول وغيره كثير.

وقال صاحب «التقريب»: «قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْتَهُمْ﴾ على الاستهزاء، ولو قالوه
جادين كانوا مؤمنين؛ لِمَا ثَبَتَ فِي الْأَصُولِ مِنْ تَوَقُّفِ الْأُمُورِ عَلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ، وَحَمْلِهِ عَلَى
الاستهزاء لهذا الدليل دون ما قبله^(٣) ليس فيه تعويج».

(١) «الوسيط» للواحدى (٤: ٦٨).

(٢) أي: الزمخشرى.

(٣) وهو قولهم: إن الملائكة بنات الله، وإنما إناث، فلا يحتمل على أنهم يقولونه استهزاء.

وقال القاضي: «معناه: لو شاء عَدَمَ عِبَادَةِ الْمَلَائِكَةِ ﴿مَا عَبَدْتَهُمْ﴾، فاستدلوا بنفي مشيئة عَدَمَ الْعِبَادَةِ عَلَى امْتِنَاعِ النَّهْيِ عَنْهَا، أَوْ عَلَى حُسْنِهَا^(١)، وَذَلِكَ بَاطِلٌ، لِأَنَّ الْمَشِيئَةَ تَرْجِيحٌ بَعْضِ الْمُمْكِنَاتِ عَلَى بَعْضِ، مَأْمُورًا كَانَ أَوْ مَنْهِيًا، حَسَنًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ، وَلِذَلِكَ جَهَّلَهُمْ. وَبِجُورٍ أَنْ تَكُونَ الْإِشَارَةُ إِلَى أَصْلِ الدَّعْوَى، كَأَنَّهُ لَمَّا أَبَدِي وَجُوهَ فَسَادِهَا، وَحَكِي شُبُهَهُمُ الْمَزِيغَةَ، نَفَى أَنْ يَكُونَ لَهُمْ بِهَا عِلْمٌ عَلَى طَرِيقِ الْعَقْلِ، ثُمَّ أَضْرَبَ عَنْهُ إِلَى إِنْكَارِ أَنْ يَكُونَ لَهُ سَنَدٌ مِنْ جِهَةِ النَّقْلِ، فَقَالَ: ﴿أَمْ آتَيْنَاكُمْ كِتَابًا﴾^(٢)».

وقال صاحب «الانتيصاف»: «هذه الآية تزيد معتقدنا تمهيداً، وقول الكافر: «لو شاء الله ما فعلت»: كلمة حق يريد بها باطلاً، أما إنها كلمة حق: فلقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الرعد: ٢٧] وأمثالها، ولأدلة العقل. وأما إرادته بها الباطل: فزعمه أنها حجة له على الله في أن لا يعاقبه، كما توهم القدرة ذلك، فأشركوا بربهم، بل اعتقدوا أن مشيئتهم تغلب مشيئة ربهم، فالذين أشركوا بالملائكة أرفع درجة منهم، فإنما رد الله في هذه الآية احتجاجهم، فإن مقالتهم صدرت عن ظن كاذب وتحرص، فلذلك قال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ و﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وقال في أختها في الأنعام: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فشبه حالهم في الخرص واتباع الظن بحال أوائلهم، وبين أن مقالتهم ناشئة عن خيال وتوهم، فلا حجة فيها على الله، بل لله الحجة البالغة عليهم، وبين أن التكذيب راجع إلى اعتقادهم، لا إلى نفس ما قالوه بتصحيح قولهم، بقوله: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَمْجُورِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، فإن «لو» معناها الامتناع للامتناع، فلم يشأ هدايتهم، ولو شاءها لَمَا ضَلُّوا.

ولكنسب العبد وتميئه صارت الأفعال مناطاً للتكليف، للفرق الضروري بين الاختياري

(١) في الأصول الخطية: «أو عن جنسها»، وله معنى، ولكن ليس فيه كبير فائدة، والمثبت من «تفسير نيساوي».

(٢) «أنوار التنزيل» لليضاوي (٥: ١٤٢-١٤٣).

والقَسْرِي، وَلَمَّا دَقَّ هَذَا عَلَى الْأَفْهَامِ غَلَّتِ الْقَدْرِيَّةُ فَاعْتَقَدُوا أَنَّ الْعَبْدَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ، وَحَارَتِ الْجَبْرِيَّةُ فَاعْتَقَدَتْ أَنَّ لَا قُدْرَةَ لِلْعَبْدِ وَلَا اخْتِيَارًا^(١).

قوله^(٢): «بَلْ اعْتَقَدُوا أَنَّ مَشِيئَتَهُمْ تَغْلِبُ مَشِيئَةَ رَبِّهِمْ»: يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ الْمُصَنِّفِ بَعْدُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨]: «إِرَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى غَيْرَهُ: لَيْسَ إِلَّا أَنْ يَأْمُرَهُ بِهِ وَيَطْلُبَ مِنْهُ إِيجَادَهُ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْقَسْرِ وَجِدٍ، وَإِلَّا دَارَ بَيْنَ أَنْ يُوجَدَ وَأَنْ لَا يُوجَدَ عَلَى حَسَبِ اخْتِيَارِ الْمُكَلَّفِ».

قلت - وبالله التوفيق -: المقصودُ من إيرادِ أقوالِ الأئمةِ - شَكَرَ اللَّهُ سَعْيَهُمْ - إظهارُ ما يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ الْمَقَامُ مِنَ الْمَعْنَى، فَإِنَّ التَّلْفِيْقَ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنَ الْمُعْضَلَاتِ، فَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَ أَوْلَى مَوَاقِعِ التَّرَاكِيْبِ فِي الْآيَاتِ السَّتِّ؛ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلُوا اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾؛ أَمَا مَوَاقِعُ التَّرَاكِيْبِ بِحَسَبِ الْحَلِّ: فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِ شَاءَ﴾ عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلُوا اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾^(٣) وَهُمَا الْكُفْرَتَانِ، وَالِاسْتِفْهَامُ الْأَوَّلُ - وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿أَوِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ﴾ - تَوْبِيْحٌ مُتَوَجِّهٌ إِلَى الْكُفْرَةِ الْأُولَى، وَهِيَ ﴿وَجَعَلُوا اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾^(٤)، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ﴾ اعْتِرَاضٌ - كَمَا مَرَّ - أَوْ حَالٌ مَفْعُولٍ ﴿اتَّخَذَ﴾ أَوْ فَاعِلٍ ﴿جَعَلُوا﴾ الْمُقَدَّمُ: مُقَرَّرَةٌ لِجِهَةِ الْإِشْكَالِ، وَيَنْصُرُهُ قَوْلُهُ: «إِنَّهُمْ نَسَبُوا إِلَيْهِ هَذَا الْجِنْسَ، وَمِنْ حَالِهِمْ: أَنْ أَحَدَهُمْ إِذَا قِيلَ لَهُ: «قَدْ وُلِدَتْ لَكَ بِنْتُ» اغْتَمَّ»، وَالِاسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَشْهَدُوا﴾ تَوْبِيْحٌ مُتَوَجِّهٌ إِلَى الْكُفْرَةِ الثَّانِيَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِ شَاءَ﴾.

وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ كُفْرَةٌ أُخْرَى؛ لَكِنْ عَلَى مَنَوَالٍ أُخْرَى غَيْرِ الْأَوَّلِينَ،

(١) «الانصاف» (٣: ٤٨١-٤٨٢) بحاشية «الكشاف».

(٢) أي: قول ابن المنير صاحب «الانصاف» في كلامه السابق الذي نقله المؤلف، لا الزمخشري، كما قد يؤوهم.

(٣) من قوله: «إلى قوله: ﴿وَإِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

(٤) من قوله: «وهما الكفرتان» إلى هنا، سقط من (ح).

هذا معنى قول الإمام: «حكى عن القوم قَوْلَيْنِ باطِلَيْنِ، وَبَيَّنَّ وَجْهَ بَطْلَانِيهِمَا، ثُمَّ حَكَى بَعْدَهُمَا مَذْهَبًا ثَالِثًا»^(١).

أما تقرير الكفرة الثالثة: فإنه تعالى لَمَّا حَكَى عَنْهُمْ الكُفْرَتَيْنِ، وَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ أَبْلَغَ الإنكارِ، جَاءَ بِكُفْرَةٍ أُخْرَى لَهُمْ أَطَمَّ مِنَ الْأَوَّلَيْنِ مُسْتَطَرِدًّا، وَهِيَ عِبَادَتُهُمُ الْمَلَائِكَةَ، وَوِزَانُ هَذِهِ وَزَانُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]، والمعنى: إِذَا فَعَلُوا أَمْرًا مُنْكَرًا بِالِغَايَةِ فِي الْقُبْحِ غَايَتَهُ، وَوَبَّخُوا عَلَيْهِ، وَبَيَّنَّ لَهُمْ قُبْحَهُ، قَالُوا مُعْتَدِرِينَ: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَيْهَا، وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا.

فإذن لا استِقلالَ لهذه الكفرة استِقلالَ أُخْتِيهَا، وَلَا بُدَّ مِنْ إنْكَارِ سَابِقِ، وَهُوَ اعْتِدَاؤُ مِنْهُ، فَإِذَنْ لَا اسْتِقلالَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فَحَيْثُ يُدْرِكُ أَنْ يُحْمَلَ قَوْلُهُمْ: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ عَلَى الاستِهْزاءِ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ تَهْيِيلًا لَهُمْ؛ لِأَنَّ الْمُسْتَهْزِئَ جَاهِلٌ، ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]^(٢)، أَوْ يُحْمَلَ عَلَى مَا قَالُوا مِنْ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ مُخَالَفَةُ الْأَمْرِ لِلْمَشِيئَةِ، كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْإِمَامُ وَصَاحِبُ «الْفَرَائِدِ»، وَهُوَ الْوَجْهُ؛ لِتَنْصِيصِ اللَّهِ الْأَمْرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]، وَتَصْرِيحِ الرَّدِّ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

﴿أَمْ﴾ - فِي قَوْلِهِ: ﴿أَمْ ءَأَنبَأَكُمُ﴾ - مُنْقَطِعَةٌ^(٣)، وَ«بَل» فِيهَا إِضْرَابٌ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ تَكْذِيبًا لَهُمْ، وَنَفْيًا لِلْعِلْمِ عَنْهُمْ إِلَى مَا هُوَ أَبْلَغُ

(١) «مفاتيح الغيب» للرازي (٢٧: ٦٢٦).

(٢) محلّ الشاهد من الآية: هو أنّ القطعة المذكورة منها هنا جاءت جواباً من موسى عليه السلام لقومه عندما قالوا له: ﴿أَلَنَجِدُنَا هُرُوجًا﴾، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الاستِهْزاءَ جَهْلٌ.

(٣) وعليه فيكون التقدير: بل آتيناهم كتاباً... إلخ. ولذلك قال: «(بل) فيها إضراب»، يعني: «بل» التي تَصَمَّتْهَا «أَمْ» فِي مَعْنَاهَا.

منه في نفي العلم، وعلى هذا الإضراب الثاني^(١).

فظهر من هذا البيان أن قول المصنف: «فإن قالوا: نجعل هذا الأخير وحده مقولاً على وجه الهُزء، دون ما قبله، فما بهم إلا تعويج كتاب الله: غير مُستقيم، وأن قوله: «هما كُفْرَتَانِ أيضاً مضمومتان إلى الكُفْرَاتِ الثلاث» - على معنى أن قوله: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ ﴿مُتَّصِلٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾، وهما مُتَضَمَّانِ إِلَى الكُفْرَاتِ الثلاث، وهي: اتخاذ البنات، واصطفاء البنين، وجعل الملائكة إناثاً - تعويج، لأن الآيات غير واردة على نسق واحد، ولا على وتيرة الترتيب، فبعضها إنشائية، أي: قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ أَنَّى﴾، وقوله: ﴿أَوْ مَن يُنشِئُ﴾، وبعضها حال، أي: قوله: ﴿وَأَصْفَكُم﴾، ﴿وَإِذَا بُشِرَ﴾، وبعضها عطف^(٢)، فدل الاختلاف على التباين من هذه الجهة، وقد مرَّ تقرير مواقعها، وأن الكُفْرَاتِ ثلاثٌ لا غير.

ويمكن تصحيح قول الزجاج، وهو أن قوله: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ عائد إلى قولهم: «الملائكة بنات الله»، لا إلى قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْتَهُمْ﴾، وذلك بأن يجعل ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْتَهُمْ﴾ جواباً لما تَضَمَّنَتْ تلك الآيات من معنى الإنكار والاحتجاج عليهم بعبادة الملائكة، فيكون قولهم هذا أمانة انجزاهم^(٣) وانقطاعهم، ودلالة على أن الحجَّة قد بهرتهم، ولم يبق لهم مُتَسَبِّتٌ إلا هذا القول، كما هو ديدن المحجوج، وقد مرَّ في «الأنعام» من هذا النوع سُبْدٌ وقريب منه قول القاضي: «كانه لَمَّا أبدى وجوه فساد أقوالهم، وحكى شبههم المُزَيِّفة، نفى أن يكون لهم بها علم»^(٤)، والله أعلم.

(١) وهو الوارد في قوله تعالى - بعد هذه الآية مباشرة -: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مَنَاقِبٍ عَلِيمَةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ مَا نُنزِّلُ مِنْهُ مُتَّعِدُونَ﴾.

(٢) وهي قوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾، وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْتَهُمْ﴾.

(٣) في (ط): «انجزاهم»، والانجزال والانجزال: كلاهما بمعنى الانقطاع، يقال: جزَّله يَجْزِلُهُ جَزْلاً، وأجزَّله: أي: قطعته. ويقال: خزَلته فانخزل؛ أي: قطعته فانقطع. كما في «لسان العرب» لابن منظور، مادة (جزل) ومادة (خزل).

(٤) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ١٤٣).

فإن قلت: ما أنكرت على من يقول: قالوا ذلك على وجه الاستهزاء، ولو قالوه جاديين لكانوا مؤمنين؟ قلت: لا دليل على أنهم قالوه مُستهزين، وأدعاء ما لا دليل عليه باطل، على أن الله تعالى قد حكى عنهم على سبيل الذم والشهادة بالكفر: أنهم جعلوا له من عباده جزءاً، وأنه اتخذ بنات وأصفاهم بالبنين، وأنهم جعلوا الملائكة المكرمين إناثاً، وأنهم عبدوهم وقالوا: لو شاء الرحمن ما عبدناهم. فلو كانوا ناطقين بها على طريق الهُزء، لكان النطق بالمحكيات قبل هذا المحكي - الذي هو إيمان عنده لو جدوا في النطق به - مدحاً لهم، من قبل أنها كلمات كُفِرَ نطقوا بها على طريق الهُزء، فبقي أن يكونوا جاديين، وتشارك كلها في أنها كلمات كُفِرَ.

فإن قالوا: نجعل هذا الأخير وحده مقولاً على وجه الهُزء، دون ما قبله، فما بهم إلا تعويج كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لتسوية مذهبيهم الباطل، ولو كانت هذه كلمة حق نطقوا بها هُزءاً لم يكن لقوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ معنى؛ لأن من قال: «لا إله إلا الله» على طريق الهُزء، كان الواجب أن يُنكر عليه استهزأؤه ولا يكذب، لأنه لا يجوز تكذيب الناطق بالحق جاداً كان أو هازئاً.

فإن قلت: ما قولك فيمن يُفسر ﴿مَالَهُمْ﴾ بقولهم: إن الملائكة بنات الله، ﴿مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ في ذلك القول، لا في تعليق عبادتهم بمشيئة الله؟ قلت: تمحل مُبطل وتحريف مُكابِر، ونحوه قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

قوله: (ونحوه قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾): يعني: في أن التكذيب مُتعلق به، لا بشيءٍ آخر. وقلت: من علقه بالأول، لم يفصله من الثاني (١) فصلاً كلياً،

(١) يُريد بالأول: قوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً﴾، وقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾، وبالثاني: قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾، يعني: الذي جعل قوله تعالى: ﴿مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ تحيلاً لهم في دعواهم أن الملائكة بنات الله وأنها إناث، لم يفصله أيضاً عن تعليقهم عبادتهم بمشيئة الله.

[﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ ٢١-٢٢]

الضميرُ في ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ للقرآن أو الرسول، والمعنى: أنهم الصَّقُوا عِبَادَةَ غير الله بِمَشِيئَةِ الله، قَوْلًا قَالُوهُ غيرَ مُسْتَنِدٍ إِلَى عِلْمٍ، ثم قال: أم آتيناهم كِتَابًا قَبْلَ هَذَا الْكِتَابِ، نَسَبْنَا فِيهِ الْكُفْرَ وَالْقَبَائِحَ إِلَيْنَا، فَحَصَلَ لَهُمْ عِلْمٌ بِذَلِكَ مِنْ جِهَةِ الْوَحْيِ، فَاسْتَمْسَكُوا بِذَلِكَ الْكِتَابِ وَاحْتَجُّوا بِهِ؟! بل لا حُجَّةَ لَهُمْ يَسْتَمْسِكُونَ بِهَا إِلَّا قَوْلُهُمْ: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ على دين، وقرئ: «على إمة» بالكسْر، وكِلْتَاهُمَا مِنَ الْأُمَّ وَهُوَ الْقَصْدُ، فَالْأُمَّةُ: الطَّرِيقَةُ الَّتِي تُؤَمُّ، أَي: تُقَصَّدُ، كَالرُّحْلَةِ لِلْمَرْحُولِ إِلَيْهَا، وَالْإُمَّةُ: الْحَالَةُ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا الْأُمَّ وَهُوَ الْقَاصِدُ. وقيل: على نِعْمَةٍ وَحَالَةٍ حَسَنَةٍ.

﴿عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ خَبْرٌ «إِنَّ»، أَوْ الظَّرْفُ صِلَةٌ لـ ﴿مُهْتَدُونَ﴾.

فلا يكونُ تَمَحُّلاً وَتَحْرِيفًا؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ دَلِيلٌ عَلَى انْقِطَاعِهِمْ مِنَ الْحُجَّةِ، وَعَلَى بَطْلَانِ مَذْهَبِهِمْ، وَظُهُورِ افْتِرَائِهِمْ، وَنَفْيِ الْعِلْمِ عَنْهُمْ آخِرًا كَالْتَمِيمِ وَالتَّسْجِيلِ عَلَى السَّابِقِ.

قوله: (قَوْلًا قَالُوهُ): قيل: هو حَالٌ مِنْ وَاو «الصَّقُوا»، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ مِنْ مَعْنَى «الصَّقُوا» إِلَى آخِرِهِ؛ لِأَنَّهُ تَفْسِيرٌ لِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾، فَيَكُونُ «قَالُوهُ» صِفَةً لـ «قَوْلًا».

قوله: (وقيل: على نِعْمَةٍ وَحَالَةٍ حَسَنَةٍ): قال القاضي: «قوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية: تَسْلِيَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَدَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ التَّقْلِيدَ فِي نَحْوِ ذَلِكَ ضَلَالٌ قَدِيمٌ، وَأَنَّ مُقَدِّمِيهِمْ أَيْضًا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَنَدٌ مَنْظُورٌ إِلَيْهِ، وَتَخْصِيصُ الْمُتَرْفِعِينَ إِشْعَارًا بِأَنَّ التَّنْعَمَ هُوَ الَّذِي أَوْجَبَ الْبَطَالََةَ^(١)، وَصَرَّفَهُمْ عَنِ النَّظَرِ إِلَى التَّقْلِيدِ^(٢)».

(١) في المطبوع من «تفسير البيضاوي»: «إشعارًا بأنَّ التَّنْعَمَ وَحُبَّ الْبَطَالََةِ صَرَّفَهُمْ»، وَهِيَ وَجْهٌ أَيْضًا، وَالَّذِي نَقَلَهُ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ أَحْسَنَ، وَالْبَطَالََةُ: الْجَهَالَةُ وَاللَّهُو، كَمَا فِي «لسان العرب» لابن منظور، مادة (بطل).

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ١٤٣).

[﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ ٢٣]

﴿مُتْرَفُوهَا﴾ الذين أترفَهُم النعمة، أي: أبطرتهم، فلا يُحِبُّون إلا الشَّهَوَاتِ والمَلاهي، وَيَعَافُونَ مَشَاقِّ الدِّينِ وتكاليفه.

[﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ * فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ ٢٤-٢٥]

قُرِي: «قُل» و﴿قَالَ﴾، و﴿جِئْتُمْ﴾ و«جِئْنَاكُمْ»، يعني: أتبعون آباءكم ولو جئتم بدين أهدى من دين آباؤكم؟! قالوا: إنا ثابتون على دين آباؤنا لا ننفك عنه، وإن جئتنا بما هو أهدى وأهدى.

[﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ. لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ٢٦-٢٨]

قوله: (ويعافون): أي: يكرهون.

قوله: (قُرِي: «قُل»): ابنُ عامرٍ وحَفْص: ﴿قَالَ﴾ بالالف، والباقون: «قُل» بغير ألف^(١).

قوله: (إنا ثابتون على دين آباؤنا، لا ننفك عنه، وإن جئتنا بما هو أهدى وأهدى): دلَّ على هذه المبالغة الجملة الاسمية وتضمُّنها معنى الكناية، انظر كم بين دعوة الأنبياء وبين مُقَابَلَةِ الكُفْرَةِ مِنَ التَّبَائِنِ؟ الأنبياءُ تَفَادَوْا عن لفظ الأمر، وعدلوا إلى الاستفهام، ومع ذلك ما استوفوا تمام الحق، حيث أتوا بحرف التقرير، وصموا إليه «أفعل» التفضيل، وكان الجواب المطابق: تَبِعُ دِينَ آبَائِنَا وَلَا تَتَّبِعُ دِينَكُمْ، فعدلوا إلى ما دلَّ على نفي دين الحق وإثبات الباطل بالطريق البرهاني.

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٦، و«حجة القراءات» ص ٦٤٨.

قُرِي: ﴿بِرَاءً﴾ بفتح الباءِ وضمِّها، و«بريء» فبريءٌ وبراءٌ؛ نحو: كريمٌ وكُرامٌ، وبراءٌ: مصدرٌ كظَّماء، ولذلك استوى فيه الواحدُ والاثنانِ والجماعةُ، والمذكرُ والمؤنثُ، يُقال: نحنُ البراءُ منك، والخلاءُ منك.

﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فيه غيرُ وجهٍ: أن يكونَ منصوباً على أنه استثناءٌ مُنقَطعٌ، كأنه قال: لكن الذي فَطَرَنِي فإنه سيَّهدين، وأن يكونَ مجروراً بدلاً من المجرورِ بـ«من»، كأنه قال: إني براءٌ مما تعبُدون إلا من الذي فَطَرَنِي.

فإن قلت: كيف تجعله بدلاً، وليس من جنس ما يعبدون من وجهين؛ أحدهما: أن ذات الله مُخالفةٌ لجميع الذوات، فكانت مُخالفةً لذوات ما يعبدون. والثاني: أن الله تعالى غيرُ معبودٍ بينهم، والأوثانُ معبودة؟ قلت: قالوا: كانوا يعبدون الله مع أوثانهم.

قوله: (قُرِي: ﴿بِرَاءً﴾ بفتح الباء): وهي المشهورة، وبالضَّمِّ: شاذة. قال الزجاج: ﴿بِرَاءً﴾: بمعنى: بريء، والعربُ تقولُ للمواحدِ والاثنينِ والجماعةِ والأُنثى: البراءُ، والمعنى: أنا ذو البراء^(١)، ونحنُ ذوو البراء^(٢)، نحو: رجلٌ عدلٌ، وامرأةٌ عدلٌ^(٣).

قوله: (والخلاءُ منك)، الجوهري: «تقول: أنا منك خلاء، أي: براء. إذا جعلته مصدرًا: لم تُثنَّ ولم تجمع، وإذا جعلته اسماً على «فَعِيل»: تُثَنَّتْ وجمعت وأنتت، تقول: أنا خِليُّ منك، أي: بريء». وعن بعضهم: في المثل: «أنا منه فالجُ بنُ خِلاوة»، أي: براءٌ منه^(٤). فُلج: أي: قَطَعَ نِصفَه، والفالج: البعيرُ ذو السَّنَمينِ.

قوله: (كانوا يعبدون الله مع أوثانهم): قال صاحبُ «الفرائد»: لِمَا كانوا يعبدون الله مع الآلهة، فبالنظرِ إلى كونه معبوداً، يصحُّ أن يكونَ بدلاً، يُعرفُ بالتأملِ إن شاء الله تعالى.

(١) تحرّف في (ف) إلى: «أنازل والبراء».

(٢) قوله: «نحن ذوو البراء» سقط من (ح) و(ط).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤: ٤٠٩).

(٤) قال الميداني في «مجمع الأمثال» (١: ٤٦): «وذلك أن فالج بن خِلاوة الأشجعيّ قيل له يوم الرِّقَم، لِمَا قَتَلَ أنيسَ الأسرى: أنتصر أنيساً؟ فقال: أنا منه بريء، فصار مثلاً لكلِّ مَنْ كان بمَعزِلٍ عن أمر، وإن كان في الأصل اسماً لذلك الرجل».

وَأَنْ تَكُونَ ﴿إِلَّا﴾ صِفَةً بِمَعْنَى: غَيْرِ، عَلَى أَنَّ «مَا» فِي «مَا تَعْبُدُونَ» موصوفة،
تَقْدِيرُهُ: إِنِّي بَرَاءٌ مِنْ آلِهَةِ تَعْبُدُونَهَا غَيْرِ الَّذِي فَطَرَنِي، فَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا
ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿سَيِّدِينَ﴾ عَلَى التَّسْوِيفِ؟ قُلْتَ: قَالَ مَرَّةً: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾
[الشعراء: ٧٨]، وَمَرَّةً: ﴿فَأَنَّهُ سَيِّدِينَ﴾، فَاجْمَعْ بَيْنَهُمَا وَقَدِّرْ، كَأَنَّهُ قَالَ: فَهُوَ يَهْدِينِ وَسَيِّدِينَ،
فَيَدُلُّانِي عَلَى اسْتِمْرَارِ الْهُدَايَةِ فِي الْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ.

﴿وَجَعَلَهَا﴾ وَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ الَّتِي تَكَلَّمَ بِهَا - وَهِيَ
قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ - ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ فِي ذُرِّيَّتِهِ، فَلَا
يَزَالُ فِيهِمْ مَنْ يُوحِّدُ اللَّهَ وَيَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِهِ، لَعَلَّ مَنْ أَشْرَكَ مِنْهُمْ يَرْجِعُ بِدُعَاؤِ مَنْ وَحَّدَ
مَنْهُمْ، وَنَحْوُهُ: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ [البقرة: ١٣٢].....

قَوْلُهُ: (فَاجْمَعْ بَيْنَهُمَا وَقَدِّرْ): كَأَنَّهُ قَالَ: فَهُوَ يَهْدِينِ وَسَيِّدِينَ، يَعْنِي: لَمَّا عَبَّرَ عَنِ الْعِبَارَةِ
الْوَاحِدَةِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ بِلَفْظَيْنِ مُخَالَفَيْنِ حَالًا وَاسْتِقْبَالًا، لَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ كُلًّا عَلَى ظَاهِرِهِ،
بَلْ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَهُمَا، وَيُعْتَبَرَ اسْتِمْرَارُ الْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ، أَي: أَنَّهُ تَعَالَى يَهْدِينِي فِيمَا أَنَا فِيهِ مِنْ
الزَّمَانِ حَالًا فَحَالًا، كَمَا سَيَهْدِينِي فِيمَا يَجِيءُ زَمَانًا غَيْبَ زَمَانٍ^(١)، فِإِذَا كُتِلَ وَاحِدٍ مِنْ «يَهْدِينِ»
و«سَيِّدِينَ» فِي مَكَانِهِ مُفِيدًا لِمَعْنَى الْاسْتِمْرَارِ.

قَوْلُهُ: (لَعَلَّ مَنْ أَشْرَكَ مِنْهُمْ يَرْجِعُ بِدُعَاؤِ مَنْ وَحَّدَ مِنْهُمْ): إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ «لَعَلَّهُمْ» تَعْلِيلٌ
لِجَعْلِ الْكَلِمَةِ بَاقِيَةً فِي عَقْبِ إِبْرَاهِيمِ؛ لِيَدْعُوَ الْمُوحِّدُ الْمُشْرِكَ تَسْلَابًا بَعْدَ تَسْلِيلِ إِلَى الْمِلَّةِ الْخَنِيفَةِ.

قَوْلُهُ: (وَنَحْوُهُ: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا
تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾): أَي: فِي أَنَّ الضَّمِيرَ فِي «وَصَّى بِهَا» يَرْجِعُ إِلَى مَعْنَى «الْكَلِمَةِ» فِي

(١) أَي: زَمَانًا بَعْدَ زَمَانٍ، وَعَقِبَ زَمَانٍ.

وقيل: وجعلها الله. وقرئ: «كلمة» على التخفيف. و﴿فِي عَقِبِهِ﴾ كذلك، و﴿فِي عَاقِبِهِ﴾: أي: فيمن عقبه، أي: خلفه.

[﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَقًّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ ٢٩]

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: أهل مكة - وهم من عقب إبراهيم - بالمد في العمر والنعمة، فاغترروا بالمهلة، وشغلوا بالتنعم واتباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد، ﴿حَقًّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ وهو القرآن، ﴿وَرَسُولٌ﴾ مبین الرسالة واضحا بما معه من الآيات البيّنة، فكذبوا به وسّموه ساحرا وما جاء به سحرا، ولم يوجد منهم ما رجاه إبراهيم. وقرئ: «بل متعنا».

فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ: «متعت» بفتح التاء؟ قلت: كأن الله تعالى اعترض على ذاته في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾،

قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، كما أن الضمير في «جعلها» عائذ على قوله: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ على تأويل «الكلمة».

قوله: (يعني: أهل مكة، وهم من عقب إبراهيم): إشارة إلى معنى الإضراب في قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾ عن قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: جعلت كلمة التوحيد باقية في عقبه زمانا بعد زمان، لا يزال يدعو من وحد منهم من أشرك إلى التوحيد من أمة موسى وعيسى وغيرهما، ودع قصة أولئك وانظر إلى هؤلاء المشركين؛ كيف متعناهم بالعمر والنعمة، وبعثنا فيهم من يدعوهم إلى التوحيد، بدعاء أبيهم إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ [البقرة: ١٢٩]، فاغترروا بالمهلة وشغلوا بالتنعم واتباع الشهوات عن داعيته وما يدعو إليه من كلمة التوحيد؟ وإليه الإشارة بقوله: «ولم يوجد منهم ما رجاه إبراهيم». وهذه الشكاية نحو قوله تعالى: ﴿وَتَجْمَعُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

قوله: (كأن الله تعالى اعترض على ذاته): يعني: هذا الأسلوب من باب التجريد في

فقال: بل مَتَّعْتَهُمْ بما مَتَّعْتَهُمْ به مِنْ طُولِ العُمُرِ والسَّعةِ فِي الرِّزْقِ، حتَّى شَغَلَهُمْ ذلكَ عن كلمةِ التوحيدِ، وأرادَ بذلكَ الإطنابَ فِي تعييرهم، لأنَّهُ إذا مَتَّعَهُمْ بزيادةِ النِّعمِ وَجَبَ عليهم أنْ يجعلوا ذلكَ سَبباً فِي زيادةِ الشُّكْرِ والثباتِ على التوحيدِ والإيمانِ، لا أنْ يُشركُوا بهِ ويجعلوا له أنداداً، فمثالُهُ: أنْ يَشْكُوَ الرجلُ إساءةَ مَنْ أَحْسَنَ إليه، ثم يُقْبَلُ على نفسه فيقول: أنتَ السَّبَبُ فِي ذلكَ بِمَعْرِوفِكَ وإحسانِكَ، وغَرَضُهُ بهذا الكلامِ توبيخُ المَسِيءِ لا تقييحُ فعِلِهِ.

[﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ٣٠-٣١]

فإن قلت: قد جعل مجيء الحق والرسول غاية التمتع،

الخطاب، على منوال قول امرئ القيس:

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بِالْأَثْمِدِ وَنَامَ الْخَلِيُّ وَلَمْ تَرُقْدِ^(١)

وفائدته مذكورة في «التيان»^(٢).

قوله: (قد جعل مجيء الحق والرسول غاية التمتع): يُريد: أن الواجب في الغاية أن يكون بين الغاية والمغيا نوع مناسبة، ولا مناسبة بين التمتع وبين مجيء القرآن والرسول؟

(١) تقدم عند الزمخشري في تفسير الآية ٥ من سورة الفاتحة.

(٢) «التيان في علم البيان» للمؤلف العلامة الطيبي رحمه الله تعالى ص ٢٣٥-٢٣٨.

وسيات أيضاً بيان معنى «التجريد» ص ٢٤٧ في تفسير الآية ١٤ من سورة الجاثية، فانظره مع التعليق عليه. واعلم أنه إذا فهم كلام الزمخشري على التجريد كما حمله عليه المؤلف، فلا إشكال فيه ولا نكارة، إلا أن تعبيره عن ذلك بقوله: «اعترض على ذاته» غير مناسب، وكان هذا المحيل لم يظهر للعلامة الشيخ عبد الله بن الصديق الغماري رحمه الله تعالى، فأكرر كلام الزمخشري لفظاً ومعنى، حيث قال في «بدع التفسير» ص ١٣٩: «القراءة المشار إليها شاذة، وتوجيهها بما ذكره قبيح، وكيف يعترض الله على ذاته؟! وقد أغنانا الله بالقراءة المتواترة المعروفة عن هذا التوجيه الذي هو أفيح من بدع التفسير». انتهى، ولو اكتفى بإنكار لفظه لكان أولى، والله أعلم.

وأيضاً إنما يَسْتَقِيم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ أن لو عرفوا أنه الحق، ولو عرفوا أنه الحق ما قالوا: هذا سحر؟

وأجاب عن الأول بأنه من إطلاق السبب وإرادة المسبب، وعن الثاني بما يُنبى أنه من باب الرجوع غب الإطاع^(١)، قال الشاعر^(٢):

وَإِخْوَانٍ حَسِبْتَهُمْ دُرُوعاً وَكَأَنُوهَا، وَلَكِنْ لِلْأَعَادِي
وَقَالُوا: قَدْ صَفَّتْ مِنَّا قُلُوبٌ لَقَدْ صَدَقُوا، وَلَكِنْ عَن وِدَادِي^(٣)

فإن الشاعر لمّا أوهم بقوله: «وكأنوها» تحقيق الموالاة، رجّع إلى عكسه من إثبات المعادة، ولمّا قال: «لقد صدقوا» خيّل إلى المصافاة، فرجّع إلى ما دلّ على المناوأة، وكذلك هاهنا؛ لمّا قال: «متعت هؤلاء» فاشتغلوا عن التوحيد بالاستمتاع بالملاذ، وعقّب بقوله: ﴿حَقٌّ جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ خيّل أنهم تنبّهوا عن تلك الغفلة، ثم ابتدأ فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ﴾، رجّع إلى ما هو شرٌّ من حالهم الأولى.

وفيه: أن من كان دُهوّه عن التوحيد بسبب الانهماك في التمتع بهذه العاجلة، لا يُغنيه مجيء الحقّ وتحقّق الباطل؛ لأنّ العزوف عن ملاذ الدنيا صعبٌ شديد.

(١) أي: بعد الإطاع.

(٢) وهو عليّ بن فضالة أو ابن الرّوميّ، كما في «معاهد التنصيص على شواهد التلخيص» للعباسي (٣):

(١٨٥).

(٣) في (ف): «عن فؤادي»، وهي من بيت آخر من هذه الأبيات، والأبيات بتامها:

وَإِخْوَانٍ حَسِبْتَهُمْ دُرُوعاً فَكَانُوهَا، وَلَكِنْ لِلْأَعَادِي
وَخَلَسْتَهُمْ بِهَا مَا صَائِبَاتٍ فَكَانُوهَا، وَلَكِنْ فِي فُؤَادِي
وَقَالُوا: قَدْ صَفَّتْ مِنَّا قُلُوبٌ لَقَدْ صَدَقُوا، وَلَكِنْ عَن وِدَادِي
وَقَالُوا: قَدْ سَعَيْنَا كُلَّ سَعْيٍ لَقَدْ صَدَقُوا، وَلَكِنْ فِي فَسَادِي

ثم أردفه قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ﴾، فما طريقة هذا النظم ومؤداه؟ قلت: المراد بالتمتع ما هو سبب له، وهو اشتغالهم بالاستمتاع عن التوحيد ومقتضياته، فقال عزّ وعلا: بل اشتغلوا عن التوحيد حتى جاءهم الحق ورسول مبين، فحِيلَ بهذه الغاية أنهم تنبّهوا عندها عن غفلتهم لاقتضائها التنبه.

ثم ابتدأ قصّتهم عند مجيء الحق فقال: وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ جَاؤُوا بِمَا هُوَ شَرٌّ مِنْ غَفْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، وهو أن ضمّوا إلى شركهم مُعَانَدَةَ الْحَقِّ، ومُكَابَرَةَ الرَّسُولِ ومُعَادَاةَهُ، والاسْتِخْفَافَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَشُرَائِعِهِ، والإصرار على أفعال الكفرة، والاحتكام على حكمة الله في تخيير محمد من أهل زمانه، بقولهم: ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، وهي الغاية في تشويه صورة أمرهم.

قُرئ: «على رجل» بسكون الجيم، ﴿مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ من إحدى القريتين، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، أي: من أحدهما، والقريتان: مكة والطائف. وقيل: من رجلي القريتين، وهما: الوليد بن المغيرة المخزومي وحبيب بن عمرو بن عُمَيْرِ الثقفِيّ؛ عن ابن عباس. وعن مجاهد: عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل. وعن قتادة: الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي، وكان الوليد يقول: لو كان حقا ما يقول محمد نزل هذا القرآن عليّ أو على أبي مسعود الثقفي، وأبو مسعود: كنية عروة بن مسعود.

قوله: (والاحتكام): يُقال: حَكَمْتُهُ فِي مَالِي: إِذَا مَا جَعَلْتَ إِلَيْهِ الْحَكَمَ فِيهِ، فَاحْتَكَمَ عَلَيَّ

فِي ذَلِكَ.

قوله: (وهي الغاية في تشويه صورة أمرهم): أي هذه الأمور المذكورة؛ من مُعَانَدَةِ الْحَقِّ مَعَ الشَّرْكِ، ومُكَابَرَةَ الرَّسُولِ، والمُعَادَاةَ، والاسْتِخْفَافَ، والإصرار، والاحتكام.

قوله: (من رجلي القريتين): قال أبو البقاء: «قيل: التقدير: على رجلٍ من رجُلَيْنِ مِنَ

الْقَرْيَتَيْنِ. وقيل: كان الرجل يسكن مكة والطائف، ويتردد إليهما، فصار كأنه من أهلها»^(١).

(١) «البيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٣٩).

ما زالوا يُنكروْنَ أن يبعثَ اللهُ بَشْرًا رَسولًا، فلما عَلِمُوا بتكريرِ اللهُ الحَجَجِ.....

قوله: (ما زالوا يُنكروْنَ أن يبعثَ اللهُ بَشْرًا رَسولًا): أي: كانوا يُصِرُّونَ على أن الرِّسالةَ مُختَصَّةٌ بالملك، ويُنكروْنَ أن البَشَرَ يُبعثُ رَسولًا، أشارَ إلى أن الكلامَ فيه نَزَل، وهو كذلك، لكنَّ على تخصيصِ هذا المعنى - وهو إنكارُ رسالةِ البَشَرِ - لا دليلَ فيه، ولا التَّنزُّلُ يَقْتَضِي أن يكونَ ذِكْرُ القرآنِ فيه للتعظيمِ لا الاستهانة^(١)، والظاهرُ أن ذلكَ التقديرَ غيرُ مُفْتَقِرٍ إليه؛ لأنَّ في عَطْفِ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ﴾ على ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ﴾ استِغناءٌ عنه، وذلكَ أنه تعالى لَمَّا وَصَفَ القرآنَ بالحقِّ، وأسندَ إليه المِجْيءَ، ونَعَتَ الرِّسولَ بالمُبينِ، دلَّ على إظهارِ حَقِّيَّتِها بالدلائلِ الظاهرةِ والمُعْجِزَاتِ القاهرةِ، فعندَ ذلكَ عَجَزُوا وانخزلُوا^(٢)، وقالوا مُكابِرِينَ مُعاندِينَ: ﴿هَذَا سِحْرٌ﴾، أي: باطلٌ، سَمَّوْا الحقَّ باطلاً، وزادوا شَرارةَ فِضْمُوا إليه: ﴿وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾، نحو قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢]، قال^(٣): «والذي تَعَجَّبوا منه أن يُوحَى إلى بَشَرٍ، وأن يكونَ من أُنفاءِ رِجالِهِم، دونَ عَظِيمٍ من عَظَمائِهِم، وكانوا يقولون: العَجَبُ أن اللهُ لم يَجِدْ رَسولًا يُرسلُهُ إلى الناسِ إلا يَتِيمَ أبي طالبٍ»، وقال في قوله: ﴿إِنَّا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾^(٤): «وهو دليلٌ عَجَزِهِم واعتِرافِهِم به، وإن كانوا كاذِبِينَ في تَسْمِيَةِ سِحْرًا».

ثم قالوا على سبيلِ التَّنزُّلِ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرَبَاتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، يعني: هَبُوا أنه حَقٌّ وِصْدُقٌ، فهَلَّا نُزِّلَ على أَحَدِ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ لَتَقَدَّمَهُمَا ورثاستِهِمَا، فهما بذلكَ أَحَقُّ به من مُحَمَّدٍ، لأنه يَتِيمٌ فقيرٌ، وما يَدُلُّ على أن كلامَهُم كانَ مَبْنِيًّا على الحَسِدِ لا على استِهانةِ القرآنِ: قوله تعالى: ﴿أَمْ هُرِّيقَسِيمُونَ رَحِمَتْ رَبِّكَ إِذْ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾، ونحوه عن أبي جَهْلٍ: والله

(١) في (ح) و(ف): «للتعظيمِ الخصمِ لا الاستهانة»، والمُثَبِّتُ من (ط).

(٢) أي: انقطعوا، كما في «القاموس»، مادة (خزل).

(٣) أي: الزرخشري، في تفسير الآية المذكورة من سورة يونس (٧: ٤١٣).

(٤) في الآية الثانية من سورة يونس أيضًا، لكنَّ على قراءة «سِحْرٌ».

أَنَّ الرُّسُلَ لَمْ يَكُونُوا إِلَّا رَجَالًا مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ، جَاءُوا بِالْإِنكَارِ مِنْ وَجْهِ آخِرٍ، وَهُوَ تَحَكُّمُهُمْ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ هَذِينَ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿هَذَا الْقُرْآنُ﴾ ذِكْرٌ لَهُ عَلَىٰ وَجْهِ الْإِسْتِهَانَةِ بِهِ، وَأَرَادُوا بِعِظَمِ الرَّجُلِ: رِئَاسَتَهُ وَتَقَدُّمَهُ فِي الدُّنْيَا، وَعَزَبَ عَنْ عُقُولِهِمْ أَنَّ الْعَظِيمَ مَنْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا.

[﴿أَمْهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [٣٢]

﴿أَمْهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ هذه الهمزة للإنكارِ المُسْتَقِلِّ بالتَّجْهِيلِ والتَّعْجِيبِ مِنْ اعْتِرَاضِهِمْ وَتَحَكُّمِهِمْ،

إِنَّ مُحَمَّدًا لَصَادِقٌ، وَمَا كَذَبَ قَطًّا، وَلَكِنْ إِذَا ذَهَبَ بَنُو قُصَيٍّ بِاللَّوَاءِ وَالسَّقَايَةِ وَالثُّبُورَةِ، فَمَاذَا يَكُونُ لِسَائِرِ قُرَيْشٍ؟

وقال القاضي: «رَعَمُوا أَنَّ الرِّسَالَةَ مَنْصِبٌ عَظِيمٌ لَا يَلِيقُ إِلَّا بِعَظِيمٍ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهَا رُتْبَةٌ رُوحَانِيَّةٌ، تَسْتَدْعِي عِظَمَ النَّفْسِ بِالتَّحَلِّيِ بِالْفَضَائِلِ وَالْكَمَالَاتِ الْقُدْسِيَّةِ، لَا التَّزَخُّرُفَ بِالزَّخَارِفِ الدُّنْيَوِيَّةِ»^(١).

قوله: (وقولهم: ﴿هَذَا الْقُرْآنُ﴾ ذِكْرٌ لَهُ عَلَىٰ وَجْهِ الْإِسْتِهَانَةِ): «قولهم»: مُبْتَدَأٌ، وَ«ذِكْرٌ لَهُ»: خَبْرُهُ، وَالْإِسْتِهَانَةُ تَفْهِيمٌ مِنْ لَفْظَةِ «هَذَا»، وَمِنْ تَسْمِيَتِهِ بِ«الْقُرْآنِ»، كَقَوْلِ فِرْعَوْنَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ﴾ [الشعراء: ٢٧]، قَالَ الزَّجَّاجُ: «﴿هَذَا﴾ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ، وَ«الْقُرْآنُ﴾ مُبَيَّنٌّ عَنْهُ، وَيُسَمِّيهِ سَيِّوِيَّةً: عَطْفَ الْبَيَانِ، لِأَنَّ لَفْظَهُ لَفْظُ الصِّفَةِ، وَيَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ عَطْفُ بَيَانٍ قَوْلُكَ: مَرَرْتُ بِهَذَا الرَّجُلِ، وَهَذِهِ الدَّارُ»^(٢).

قوله: (لِلْإِنكَارِ المُسْتَقِلِّ بِالتَّجْهِيلِ): النِّهَايَةُ: «الْإِسْتِقْلَالُ: بِمَعْنَى الْإِرْتِفَاعِ وَالْإِسْتِبْدَادِ، يُقَالُ: تَقَلَّلَ الشَّيْءُ وَاسْتَقَلَّهُ».

(١) «أنوار التنزيل» لليضاوي (٥: ١٤٤).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤: ٤٠٩).

وأن يكونوا هم المدبّرين لأمر النبوة والتخيّر لها من يصلح لها ويقوم بها، والمتولّين لقسمه رحمة الله التي لا يتولاها إلا هو بباهر قدرته وبالبحر حكيمته.

ثم ضرب لهم مثلاً، فأعلم أنهم عاجزون عن تدبير خويصة أمرهم وما يصلحهم في دنياهم، وأن الله عزّ وعلا هو الذي قسم بينهم معيشتهم وقدرها، ودبّر أحوالهم تدبير العالم بها، فلم يسوّ بينهم، ولكن فاوت بينهم في أسباب العيش، وغاير بين منازلهم، فجعل منهم أقوياء وضعفاء، وأغنياء ومحاويج، وموالي وخداماً، ليصرف بعضهم بعضاً في حوائجهم، ويستخدموهم في مهنتهم، ويتسخروهم في أشغالهم، حتى يتعاشوا ويترافلوا، ويصلوا إلى منافعهم، ويحصلوا على مرافقهم، ولو وكلهم إلى أنفسهم، وولاهم تدبير أمرهم، لضاعوا وهلكوا، وإذا كانوا في تدبير المعيشة الدنيّة في الحياة الدنيا على هذه الصفة، فما ظنك بهم في تدبير أمور الدين الذي هو رحمة الله الكبرى، ورأفته العظمى، وهو الطريق إلى جيازة حظوظ الآخرة، والسلم إلى حلول دار السلام؟

ثم قال: ﴿وَرَحِمْتَ رَبِّكَ﴾ يريد: وهذه الرحمة - وهي دين الله وما يتبعه من الفوز في المآب - خير مما يجمع هؤلاء من حطام الدنيا.

قوله: (ثم ضرب له مثلاً): أي: جيء بقوله: ﴿تَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾ عامّاً بعد قوله: ﴿أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾، أي: أمر النبوة، وسماه «مثلاً»؛ لأنّ القصد منه إظهار عجزهم في تدبير أمر المعيشة الدنيوية، فكيف في تدبير أمور الدين.

قوله: (خويصة أمرهم): النهاية: «خويصة أحدكم: حادثة الموت التي تخصّ كل إنسان، وهي تصغير «خاصة»، وصغرّت لاحتقارها في جنب ما بعدها من البعث والعرض والحساب وغير ذلك».

قوله: (ويترافلوا): الجوهري: «الترافد: التعاون، والمرافدة: المعاونة».

قوله: (ويحصلوا على مرافقهم): أي: منافعهم، الأساس: «أرفقني بكذا: نفعتني، وارتفعت به: انتفعت، وما لي فيه مرفق».

فإن قلت: معيشتهم: ما يعيشون به من المنافع، ومنهم من يعيش بالحلal، ومنهم من يعيش بالحرام، فإذا قد قسم الله تعالى الحرام كما قسم الحلال؟ قلت: الله تعالى قسم لكل عبده معيسته - وهي مطاعمه ومشاربه وما يصلحه من المنافع - وأذن له في تناولها، ولكن شرط عليه وكلفه أن يسلك في تناولها الطرُق التي شرعها، فإذا سلكها فقد تناول قسمته من المعيشة حلالاً، وسماها: رزق الله، وإذا لم يسلكها تناولها حراماً، وليس له أن يسميها: رزق الله، فالله تعالى قاسم المعاش والمنافع، ولكن العباد هم الذين يكسونها صفة الحرمة بسوء تناولهم، وهو عدوهم فيه عما شرعه الله إلى ما لم يشرعه.

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِيُوتِيَهُمْ أَنْوَابًا وَمُرْرًا عَلَيْهِمْ لِتَكُونُوا * وَزُخْرَفًا وَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٣-٣٥﴾

﴿لِيُوتِيَهُمْ﴾ بدل اشتغال من قوله: ﴿لِمَنْ يَكْفُرُ﴾، ويجوز أن يكونا بمنزلة اللامين في قولك: وهبت له ثوباً لقميصه.

وقرى: «سُقْفًا» بفتح السين وسكون القاف، وبضمها وسكون القاف، وبضمهما - جمع سَقْف، كرهن ورهن ورهن. وعن الفراء: جمع سَقِيفَة -، و«سُقْفًا» بفتح الحين؛

قوله: (الله تعالى قسم لكل عبده معيسته): أجاب بما يؤدي أن يكون التراج لفظياً، الانتصاف: «الرزق عند أهل السنة: ما تقوم به البنية، حراماً كان أو حلالاً»^(١).

قوله: (ثوباً لقميصه): أي: لأجل قميصه، والمعنى: سُقْفًا لأجل بيوتهم، وقال الزجاج: اللام بمعنى: على، أي: سُقْفًا على بيوتهم.

قوله: (وقرى: «سُقْفًا»): ابن كثير وأبو عمرو: بفتح السين وإسكان القاف على التوحيد، والباقون: بضمهما على الجمع^(٢).

(١) «الانتصاف» (٤٨٦:٣) بحاشية «الكشاف».

(٢) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٦، و«حجة القراءات» ص ٦٤٩.

كأنه لغة في سَقْف، و«سُقُوفاً»، و«مَعَارِجَ» و«مَعَارِيحَ». والمعارج: جمع مَعْرَج، أو اسم جمع مِعْرَاج، وهي المصاعدُ إلى العلابي.

﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي: على المَعَارِجِ يَظْهَرُونَ السُّطُوحَ يَعْلُونَهَا، ﴿فَمَا أَسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾.

و«سُرراً» بفتح الراء؛ لاستِثقالِ الضَّمَّتَيْنِ مع حَزْفِ التضعيف.

﴿لَمَّا مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ اللامُ هي الفارقةُ بينَ «إِن» المُخَفَّفَةِ والنافية، وقرئ بكسْرِ اللام، أي: لِلَّذِي هو متاعُ الحياة، كقوله تعالى: «مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ» [البقرة: ٢٦]،

قوله: (مَعْرَج) بالكسْرِ والفتح، قال الأخفش: إن شئتَ جَعَلْتَ الواحدَ مَعْرَجًا، أو مِعْرَجًا، كَمِرْقَاةٍ وَمِرْقَاةٍ.

قوله: (وَقُرِئَ بِكَسْرِ اللام): قال ابنُ جَنِّي: «وهي قراءةُ أبي رجاء، و«ما» موصولة، والعائدُ محذوف، أي: وإنْ كُلُّ ذلكَ لِلَّذِي هو متاعُ الحياةِ الدُّنْيَا، والمعنى: وإنْ كُلُّ ذلكَ لِمَا يُتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ أحوالِ الدُّنْيَا، وهذا الحذفُ على انفصالِ الضمير، وليسَ بِمُسْتَحْسَن، ومثله قراءةُ مَنْ قرأ: «مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ» بالرفع، أي: ما هو بَعُوضَةٌ، و«كُلُّ» منصوب؛ لأنَّ «إِن» هذه مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، ومتى خُفِّفَتْ لَزِمَتْهَا اللامُ لِلفَرْقِ بَيْنَها وَبَيْنَ «إِن» النافية، ولا يجوزُ أن يكونَ مرفوعاً، لأنه لا بُدَّ معها مِنَ اللامِ-الفارقةِ بَيْنَ المُخَفَّفَةِ والنافية، ولا لامَ معك، لأنَّ هذه اللامُ هي الجارَّة، ولو قُدِّرَ معها الفارقةُ^(١) لقليل: «وإنْ كُلُّ ذلكَ لَلِمَّا متاعُ الحياةِ الدُّنْيَا»، كقولك: إنَّ زَيْدًا لَمِنَ الكِرَامِ.

فإن قلت: يجوزُ أن تكونَ اللامُ هي الفاصِلةُ، لكنَّها خُفِّفَتْ وحُذِفَتْ وصارت هذه الجارَّةُ كالعَوَضِ منها، والحقُّ أنَّ هذا باطلٌ، و«كُلُّ»: نَصَبٌ على لغةٍ مَنْ نَصَبَ مَعَ التَّخْفِيفِ، فقال: إنَّ زَيْدًا قائمٌ، لأنه إذا نَصَبَ زالَ الشُّكُّ في أنها ليست بالنافية، لأنها غيرُ ناصبة»^(٢).

(١) من قوله: «بين المُخَفَّفَةِ والنافية» إلى هنا، سقط من (ف).

(٢) «المحتسب» لابن جَنِّي (٢: ٢٥٥-٢٥٦).

و﴿لَمَّا﴾ بالتشديد بمعنى: إلا، و﴿إِنْ﴾ نافية. و﴿قِرِئْ﴾ و﴿قِرِئْ﴾: «وما كُلُّ ذَلِكَ إِلَّا». لَمَّا قال: ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، فَقَلَّلَ أَمْرَ الدُّنْيَا وَصَغَّرَهَا، أَرَدَفَهُ مَا يُعْرَرُ قِلَّةَ الدُّنْيَا عِنْدَهُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، أَي: وَلَوْلَا كِرَاهَةُ أَنْ يَجْتَمِعُوا عَلَى الْكُفْرِ وَيُطَبِّقُوا عَلَيْهِ، لَجَعَلْنَا لِحِقَارَةِ زَهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عِنْدَنَا لِلْكَفَّارِ سُقُوفًا وَمَصَاعِدَ وَأَبْوَابًا وَسُرُرًا كُلُّهَا مِنْ فِضَّةٍ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ زُخْرُفًا، أَي: زِينَةً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَالزُّخْرُفُ: الذَّهَبُ وَالزَّيْنَةُ.

ويجوزُ أن يكونَ الأصلُ: سُقُوفًا مِنْ فِضَّةٍ وَزُخْرُفًا،

قوله: و﴿لَمَّا﴾ بالتشديد: عاصمٌ وحمزةٌ وهشامٌ^(١)، والباقون: بتخفيفها، قال الزجاج: «مَنْ قَرَأَ بِالتَّخْفِيفِ كَانَتْ «مَا» لَعْوَاءَ، الْمَعْنَى: لَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَنْ قَرَأَهَا مُثَقَّلًا فَمَعْنَاهُ: وَمَا كُلُّ ذَلِكَ إِلَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»^(٢).

قوله: (أَي: وَلَوْلَا كِرَاهَةُ أَنْ يَجْتَمِعُوا عَلَى الْكُفْرِ): الْإِنْتِصَافُ: «هِيَ مِثْلُ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ [القصص: ٤٧]، إِمَّا أَنْ يُصَحِّحَهَا بِتَقْدِيرِ: كِرَاهَةُ، وَإِمَّا أَنْ لَا يُقَدَّرَ مَحْذُوفًا، وَمَعْنَاهَا: اجْتِمَاعُهُمْ عَلَى الْكُفْرِ مَانِعٌ مِنْ بَسْطِ الدُّنْيَا، وَهُوَ مَعْنَى «لَوْلَا» الْمَطْرُدُ، لَكِنَّ الْمَانِعَ قَدْ يَكُونُ مَوْجُودًا تَحْقِيقًا، فَيَمْتَنِعُ الْجَوَابُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٤]، وَقَدْ يَكُونُ تَقْدِيرًا فَيَمْتَنِعُ الْجَوَابُ، لِأَنَّهُ لَوْ وُجِدَ مَانِعُهُ مُقَدَّرًا مَعَهُ، وَعَلِيهِ الْآيَةُ، أَي: لَوْ وُجِدَ بَسْطُ الرِّزْقِ لِلْكَافِرِ مُقَدَّرًا لَوْجِدَ مَانِعُهُ وَهُوَ الْاجْتِمَاعُ عَلَى الْكُفْرِ مَعَهُ، وَمَا أَدَّى وَجُودُهُ إِلَى^(٣) وَجُودِ مَانِعِهِ: إِذْنٌ لَمْ يُوجَدِ^(٤).

(١) بخلاف عنه، كما في: «التيسير» للداني ص ١٩٦، و«حجة القراءات» ص ٦٤٩.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤: ٤١١).

(٣) تحرف في (ح) و(ف) إلى: «أي»، والمثبت من (ط)، وهو الموافق لما في «الانتصاف».

(٤) «الانتصاف» (٣: ٤٨٧) بحاشية «الكشاف».

يعني: بعضها من فضية وبعضها من ذهب، فنصب عطفاً على محل ﴿مِنْ فَضَّةٍ﴾، وفي معناه قول رسول الله ﷺ: «لَوْ وَرَّزَّتِ الدُّنْيَا عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى الْكَافِرَ مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ».

فإن قلت: فحين لم يُوسَّعْ على الكافرين للفتنة التي كان يُؤدِّي إليها التَّوسُّعُ عليهم، من إطباقِ الناسِ على الكُفْرِ؛ لِحُبِّهِم الدُّنْيَا وتهاكُمِها عليها، فهَلَّا وُضِعَ على المُسْلِمِينَ؛ لِيُطَبِّقَ النَّاسُ على الإسلام؟

قوله: (لَوْ وَرَّزَّتِ [الدُّنْيَا] عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ) الحديث: من رواية الترمذي وابن ماجه^(١) عن سهل: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَرِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ». ولَمَّا كَانَ مَعْنَى الْآيَةِ: لَوْلَا كِرَاهَةُ اجْتِمَاعِ النَّاسِ عَلَى الْكُفْرِ لَمَتَّعْنَا الْجَمِيعَ تَمْتِيعًا بَلِغًا، فَيَسْتَعْمِلُوا بِالدُّنْيَا وَرُخْرُفِهَا عَنِ الْإِيمَانِ وَذِكْرِ الْمَوْلَى، لَكِنْ أَرَدْنَا إِيَابَانَ بَعْضٍ وَكُفْرَ بَعْضٍ، فَلَمْ نَمْتَعْ كُلَّهُمْ، فَرَجَعَ بَعْضُهُمْ مُؤْمِنِينَ زَاهِدِينَ، وَبَعْضُهُمْ كَافِرِينَ مُتَمَتِّعِينَ، فَعَلِمَ مِنْهُ أَنَّ الدُّنْيَا لَا تَصْلُحُ لِأَهْلِ اللَّهِ، وَلَيْسَ مِنْ شِيَمَتِهِمُ التَّمَتُّعُ بِهَا، وَلَكِنْ مِنْ شِيَمَةِ مَنْ بَعُدَ مِنَ اللَّهِ وَمِنَ الْمَقَامَاتِ الزُّلْمَى، مِثْلَ الْكَافِرِ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ: «وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»، وَلِهَذَا خَتَمَ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

قال القاضي: «فيه دلالة على أن العظيم هو العظيم في الآخرة لا في الدنيا، وإشعاراً بما لأجله لم يُجْعَلْ ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ أَنَّهُ تَمَتُّعٌ قَلِيلٌ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَإِخْلَالٌ فِي الْأَغْلَبِ^(٢)؛ لِإِمَّا فِيهِ مِنَ الْآفَاتِ، قَلٌّ مَنْ يَتَخَلَّصُ عَنْهَا، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا﴾^(٣)».

(١) الترمذي (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤١١٠).

(٢) لفظ البيضاوي: «مُحَلٌّ بِهِ فِي الْأَغْلَبِ»، وَهُوَ أَوْضَحُ مِنْ لَفْظِ الْمُؤَلَّفِ.

(٣) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ١٤٥).

قلت: التَّوَسُّعَةُ عليهم مَفْسَدَةٌ أَيْضاً؛ لِمَا تُؤَدِّي إِلَيْهِ مِنَ الدُّخُولِ فِي الإِسْلَامِ لِأَجْلِ الدُّنْيَا، وَالدُّخُولُ فِي الدِّينِ لِأَجْلِ الدُّنْيَا مِنْ دِينِ الْمُنَافِقِينَ، فَكَانَتِ الْحِكْمَةُ فِيهَا دَبْرًا، حَيْثُ جَعَلَ فِي الْفَرِيقَيْنِ أَغْنِيَاءَ وَفُقَرَاءَ، وَغَلَّبَ الْفَقْرَ عَلَى الْغِنَى.

[﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ * حَتَّى إِذَا جَاءَ نَا قَالِ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسُ الْقَرِينُ ﴾ * وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَتُكْرَمُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ ٣٦-٣٩].

قُرِي: ﴿ وَمَنْ يَعِشْ ﴾ بِضَمِّ الشَّيْنِ وَفَتْحِهَا، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا: أَنَّهُ إِذَا حَصَلَتِ الْآفَةُ فِي بَصَرِهِ، قِيلَ: عَشِيَ، وَإِذَا نَظَرَ نَظَرَ الْعَشِيِّ وَلَا آفَةٌ بِهِ، قِيلَ: عَشَا، وَنَظِيرُهُ: عَرَجَ؛ لِأَنَّ بِهِ الْآفَةَ، وَعَرَجَ؛ لِأَنَّ مَشَى مِشْيَةَ الْعُرْجَانِ مِنْ غَيْرِ عَرَجٍ، قَالَ الْحَطِيبَةُ:

مَتَى تَأْتِيهِ تَعَشُوا إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ

قوله: (التَّوَسُّعَةُ عليهم مَفْسَدَةٌ أَيْضاً؛ لِمَا تُؤَدِّي إِلَيْهِ مِنَ الدُّخُولِ فِي الإِسْلَامِ لِأَجْلِ الدُّنْيَا): الْإِنْتِصَافُ: «قَاعِدَتَانِ»^(١) فَاسِدَتَانِ: مِرَاعَاةُ الْمَصْلَحَةِ، وَيُبْطَلُهَا: ﴿ لَا يُسْتَلُّ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وَأَنَّهُ أَرَادَ الْإِيمَانَ مِنَ الْخَلْقِ، وَيُبْطَلُهَا: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩]^(٢).

قوله: (قُرِي: ﴿ وَمَنْ يَعِشْ ﴾ بِضَمِّ الشَّيْنِ): وَهِيَ السَّبْعَةُ، وَالْفَتْحُ: شَاذٌ.

قوله: (مَتَى تَأْتِيهِ تَعَشُوا إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ): تَمَامُهُ:

تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مَوْقِدٍ^(٣)

(١) تَحَوَّرَ فِي (ح) وَ(ف) إِلَى: «وَأَعِدَتَانِ»، وَالْمَثْبُوتُ مِنْ (ط)، وَهُوَ الْمَوْافِقُ لِمَا فِي «الانتصاف».

(٢) «الانتصاف» (٣: ٤٨٨) بِحَاشِيَةِ «الْكَشَاف».

(٣) «ديوان الحطبية» ص ٥٣.

أي : تَنْظُرُ إِلَيْهَا نَظَرَ الْعَيْشِيِّ لِمَا يُضْعِفُ بَصَرَكَ مِنْ عِظَمِ الْوَقُودِ وَاتْسَاعِ الصُّوَاءِ، وهو يَبِينُ فِي قَوْلِ حَاتِمٍ:

أَعْشُو إِذَا مَا جَارِي بَرَزَتْ حَتَّى يُوَارِي جَارِي السَّخْدُرُ

وَقُرِي: «يَعْشُو»؛ عَلَى أَنَّ «مَنْ» مَوْصُولَةٌ غَيْرُ مُضْمَنَةٍ مَعْنَى الشَّرْطِ، وَحَقُّ هَذَا الْقَارِي أَنْ يَرْفَعَ «نُقِيضَ».

ومعنى القراءة بالفتح: وَمَنْ يَعْمَ، ﴿عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ وهو القرآن،

«تَعْشُو» فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَي: عَاشِيًا، رُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا أُنشِدَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَذَبَ، تِلْكَ نَارُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله: (أَعْشُو إِذَا مَا جَارِي) الْبَيْتِ: أَي: أَنْظُرْ نَظَرَ الْعَيْشِيِّ، وَ«مَا» زَائِدَةٌ، يَصِفُ نَزَاهَةَ نَفْسِهِ وَعِفَّتَهُ، أَوْلَهُ:

مَا ضَرَّرَنِي جَارًا أَجَاوِرُهُ أَنْ لَا يَكُونَ لِإِبَاهِ سِتْرُ (١)

أَخْبَرَ عَنِ نَفْسِهِ بِحُسْنِ الْمَجَاوِرَةِ، وَأَنَّ جَارَهُ آمِنٌ فِي كُلِّ أَسْبَابِهِ؛ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَأَهْلِهِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بِوَاتِقِهِ» (٢).

قوله: (وَقُرِي: «يَعْشُو»): فِي «الْكُوشِيِّ»: «يَعْشُو» بَوَاوٍ، قَالُوا: فـ«مَنْ» مَوْصُولَةٌ، وَجَزْمٌ ﴿نُقِيضَ﴾ عَلَى لُغَةٍ مَنْ يَجْزُمُ الْمَرْفُوعَ تَخْفِيفًا، وَيَرْفَعُ الْمَجْزُومَ وَالْمَنْصُوبَ مِنَ الْفِعْلِ اتْسَاعًا وَنَظَرًا إِلَى الْأَصْلِ، كَمَا سُمِعَ مِنَ الْعَرَبِ: الْوَقْفُ عَلَى آخِرِ الْأَسْمِ الصَّحِيحِ وَالْمُعْتَلِّ فِي حَالَةِ النَّضْبِ بِلا أَلْفٍ.

قوله: (ومعنى القراءة بالفتح: وَمَنْ يَعْمَ): وَفِي «الْكُوشِيِّ»: فَالضَّمُّ مِنْ: عَشَا يَعْشُو؛ نَظَرَ الْعَيْشِيِّ بِلا آفَةٍ بَعَيْنِهِ، وَالْفَتْحُ مِنْ: عَشَى يَعْشَى، كَعَمَى يَعْمَى وَزَنَا، وَقَرِيبُهُ مَعْنَى:

(١) «ديوان حاتم الطائي» ص ٢٤، ولفظه فيه:

وما ضَرَّرَ جَارًا يَا ابْنَةَ الْقَوْمِ فَاعْلَمِي يُجَاوِرُنِي أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ سِتْرُ

(٢) أخرجه بهذا اللفظ أحمد في «مسنده» (٧٨٧٨) و(٨٤٣٢) من حديث أبي هريرة.

وأخرجه مسلم في «صحيحه» (٤٦) بلفظ: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بواتقه».

كقوله تعالى: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَى﴾ [البقرة: ١٨ و ١٧١]. وأما القراءة بالضمِّ فمعناها: ومن يتعام عن ذكره، أي: يعرف أنه الحقُّ وهو يتجاهل ويتغابي، كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

﴿نُقِضَ لَهُ شَيْطَانًا﴾ نَحْدُلُهُ وَنُحَلِّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّيَاطِينِ، كقوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرُونًا﴾ [فصلت: ٢٥]، ﴿الَّذِينَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [مريم: ٨٣]. وقُرئ: «يُقَيِّضُ»؛ أي: يُقَيِّضُ لَهُ الرَّحْمَنَ، و«يُقَيِّضُ لَهُ شَيْطَانًا».

فإن قلت: لِمَ جَمَعَ ضَمِيرَ «مَنْ» وَضَمِيرَ «الشَّيْطَانِ» فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ﴾؟ قلت: لِأَنَّ «مَنْ» مُبْهَمٌ فِي جِنْسِ الْعَاشِي، وَقَدْ قُيِّضَ لَهُ شَيْطَانٌ مُبْهَمٌ فِي جِنْسِهِ، فَلَمَّا جَازَ أَنْ يَتَنَاوَلَا - لِإِبْهَامِهِمَا - غَيْرَ وَاحِدَيْنِ، جَازَ أَنْ يَرْجَعَ الضَّمِيرُ إِلَيْهِمَا مَجْمُوعًا.

﴿حَقٌّ إِذَا جَاءَنَا﴾ الْعَاشِي،.....

قوله: ﴿نُقِضَ لَهُ شَيْطَانًا﴾ نَحْدُلُهُ وَنُحَلِّ بَيْنَهُ: مجازٌ عن قوله: تُتِيحُ وَنُقَدَّرُ؛ بناءً على مذهبه، قال ابن عباس: يُسَلِّطُ عَلَيْهِ، فهو معه في الدنيا والآخرة.

قوله: (لأنَّ «مَنْ» مُبْهَمٌ فِي جِنْسِ الْعَاشِي): قال صاحبُ «الفرائد»: يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ: لَا مَقَالَ فِي أَنَّ «مَنْ» يَصِحُّ أَنْ يَرْجَعَ إِلَيْهِ ضَمِيرُ الْجَمْعِ، فَمَا اعْتَبِرَ جَمْعًا، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَاشِي، فَمَعَ كُلُّ وَاحِدٍ شَيْطَانًا، فَلَزِمَ الْجَمْعُ أَيْضًا، فَرَجَعَ ضَمِيرُ الْجَمْعِ إِلَى الْمَدْلُولِ، وَهِيَ الشَّيَاطِينُ.

الانْتِصَافُ: «فِي هَذِهِ الْآيَةِ نُكْتَتَانِ: إِحْدَاهُمَا: أَنَّ النُّكْرَةَ فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ تَعْمٌ، وَفِيهَا اضْطِرَابٌ لِلْأَصُولِيِّينَ، وَإِمَامُ الْحَرَمِيِّينَ يَخْتَارُ الْعُمُومَ، وَاسْتَدْرَكَ عَلَى الْأُمَّةِ قَوْلَهُمْ: إِنَّ النُّكْرَةَ فِي سِيَاقِ الْإِبْتَاتِ تَخُصُّ، بِأَنَّ الشَّرْطَ يَعْمُ فِيهِ، وَهُوَ إِثْبَاتٌ، وَرَدَّ عَلَيْهِ الْأُبَيَّارِيُّ شَارِحُ كِتَابِهِ^(١)

(١) يعني: «البرهان» في أصول الفقه، قال العلامة تاج الدين السبكي في «طبقات الشافعية» (٢: ١٩٢): «هذا =

رداً عنيفاً، وهذه الآية حُجَّةٌ للإمام من وجهين: لأنه وحَّدَ «الشَّيْطَانَ»، ولم يُرِدْ إلا الكُلَّ، لأنَّ كُلَّ إنسانٍ له شيطان، فكيفَ بالعاشي عن ذِكْرِ الله، والثاني: أنه أعادَ عليه الضميرَ مجموعاً في قوله: ﴿وَأَتَتْهُمْ﴾، ولولا عُمومُ الشُّمولِ لَمَّا جازَ عَوْدُ ضميرِ الجمعِ على واحدٍ، فهذه نكتةٌ تُوجِبُ للمُخالفينَ سَكْتةً.

الثانية: أن فيها حُجَّةً على مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ العَوْدَ على معنى «مَنْ» يَمْنَعُ مِنَ العَوْدِ على لَفْظِهَا، مُحْتَجّاً بأنه إجمالٌ بعدَ البيان، وقد نَقَضَ الكِنْدِيُّ هذا بقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً﴾ [الطلاق: ١١]، ونُقِضَ أيضاً بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ﴾ [لقبان: ٦-٧].

واستخرجَ جَدِّي^(١) من هذه الآية نَقَضَ ذلك، لأنه أعادَ على اللفظِ في قوله: ﴿يَعْتَشُ﴾ و﴿لَهُ﴾ مرَّتين، ثم على المعنى ﴿لِيَصُدُّوهُمْ﴾، ثم على اللفظِ في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا﴾، وقَدِّمْتُ أن الذي مَنَعَ ذلك قد يكونُ قد اقتصَرَ بِمَنَعِهِ إذا جاءَ في جُمْلَةٍ واحدة، أما إذا استَقَلَّتْ

= الكتابُ من مُفْتَحَرَاتِ الشافعية، وأنا أعجبُ لهم، فليس منهم من انتدَبَ لشرحه ولا للكلامِ عليه، إلَّا مواضع يسيرة تكلم عليها أبو المظفر ابن السمعاني في كتاب «القواطع»، وردَّها على الإمام، وإنما انتدَبَ له المالكية، فشرحه الإمام أبو عبد الله المازري شرحاً لم يُتمه، وعمل عليه أيضاً مشكلات، ثم شرحه أبو الحسن الأبياري من المالكية...».

وتحرَّفَ «الأبياري» إلى «الأنباري» في المطبوع من «طبقات الشافعية»، والصواب: الأبياري، وهو شمس الدين علي بن إسماعيل، المتوفى سنة ٦١٦ هـ رحمه الله تعالى.

(١) يريدُ: جدُّه لأمه نجيب الدين أحمد بن إسماعيل بن فارس التميمي الإسكندراني، كما صرح به الصفدي في ترجمة ابن المُنبَرِّ من «الوفاي بالوفيات»، وقد توفي النجيب سنة ٦٣٨ هـ كما في «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢٣: ٧٤).

وَقُرِّي: «جاءانا»؛ على أَنَّ الْفِعْلَ لَهُ وَلشَيْطَانِهِ، ﴿قَالَ﴾ لِشَيْطَانِهِ: ﴿يَنَالِيَتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ يُرِيدُ: الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ، فَغَلَبَ، كَمَا قِيلَ: الْعُمَرَانُ وَالْقَمَرَانُ. فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا ﴿بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾؟ قُلْتَ: تَبَاعُدُهُمَا، وَالْأَصْلُ: بَعْدَ الْمَشْرِقِ مِنَ الْمَغْرِبِ، وَالْمَغْرِبِ مِنَ الْمَشْرِقِ، فَلَمَّا غَلَبَ وَجَمَعَ الْمُفْتَرِقَيْنِ بِالتَّشْبِيهِ، أَضَافَ الْبُعْدَ إِلَيْهِمَا.

كُلُّ وَاحِدَةٍ بِنَفْسِهَا، فَلَا يُمْنَعُ، وَرَدَدْتُ عَلَى الزَّمْخَشَرِيِّ، فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اخْتَدَّ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧]، [فَإِنَّ^(١)] الْجُمْلَةُ وَاحِدَةٌ، فَانظُرْهُ فِي مَوْضِعِهِ^(٢).
قَوْلُهُ: (وَقُرِّي: «جاءانا»): الْحَرَمِيَّانُ^(٣) وَابْنُ عَامِرٍ وَأَبُو بَكْرٍ: «جاءانا»؛ عَلَى التَّشْبِيهِ، وَالباقون: عَلَى التَّوْحِيدِ^(٤).

قَوْلُهُ: (تَبَاعُدُهُمَا، وَالْأَصْلُ: بَعْدَ الْمَشْرِقِ مِنَ الْمَغْرِبِ)، الْإِنْتِصَافُ^(٥): أَلْجَاءُ إِلَى تَقْدِيرِ الْبُعْدِ بِالتَّبَاعُدِ: إِضَافَتُهُ إِلَى ﴿الْمَشْرِقَيْنِ﴾ جَمِيعًا، فَلَوْ بَقِيَ عَلَى ظَاهِرِهِ لِأَفَادَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ مِنْ غَيْرِهِمَا، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مِنَ اللَّفِّ، وَأَصْلُهُ: بَعْدَ الْمَشْرِقِ مِنَ الْمَغْرِبِ، وَبَعْدَ الْمَغْرِبِ مِنَ الْمَشْرِقِ، ثُمَّ لَفَّهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾ [البقرة: ١١١].

وَقُلْتَ: مَعْنَى سْؤَالِهِ: «فَمَا ﴿بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾؟»: الْإِنْكَارُ عَلَى مَا سَبَقَ، بِدَلَالَةِ الْفَاءِ، أَيْ: هَبْ أَنْ مَعْنَى «الْمَشْرِقَيْنِ» عَلَى التَّغْلِيْبِ، فَمَا مَعْنَى تَمَنِّيهِمْ بَعْدَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ؟ وَأَجَابَ: أَنْ مَعْنَى «الْبُعْدِ» مِنَ: التَّبَاعُدِ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْأَصْلَ: بَعْدَ الْمَشْرِقِ عَنِ الْمَغْرِبِ، وَالْمَغْرِبِ عَنِ الْمَشْرِقِ، فَإِنَّ التَّبَاعُدَ يَقْتَضِي الْمُرَاوَلَةَ طَبْعًا، فَإِذَنْ لَا يَجْتَمِعَانِ أَبَدًا، بِخِلَافِ مُطَلَقِ الْبُعْدِ، أَيْ: يَا لَيْتَ بَيْنِنَا بَعْدًا مِثْلَ بَعْدِ الْمَشْرِقَيْنِ فِي أَنَّهُمَا لَا يَجْتَمِعَانِ أَبَدًا لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّبَاعُدِ، وَمَنْ نَمَّ رَتَّبَ عَلَيْهِ: ﴿فَيَنْسَ الْقَرِينُ﴾.

(١) قَوْلُهُ: «فَإِنَّ» لَمْ يَرِدْ فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ، وَاسْتَدْرَكْتُهُ مِنَ «الْإِنْتِصَافِ»، وَلَا بُدَّ مِنْهُ.

(٢) «الْإِنْتِصَافُ» (٣: ٤٨٩). بِحَاشِيَةِ «الْكَشَافِ».

(٣) يَعْنِي: ابْنَ كَثِيرِ الْمَكِّيِّ، وَنَافِعًا الْمَدِينِيَّ.

(٤) انظُرْ: «التَّيْسِيرَ» لِلدَّانِي ص ١٩٦، وَ«حِجَةَ الْقِرَاءَاتِ» ص ٦٥٠.

(٥) لَيْسَ فِي الْمَطْبُوعِ مِنَ «الْإِنْتِصَافِ»! وَلَعَلَّ «الْإِنْتِصَافَ» مُحَرَّفَةٌ عَنِ «الْإِنْصَافِ»، وَهُوَ لَعَلَّمُ الدِّينِ الْعِرَاقِيَّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ التَّعْرِيفُ بِهِ عِنْدَ تَفْسِيرِ الْآيَةِ ٦٠ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ (٧: ٢٨٠) تَعْلِيْقًا.

﴿أَنْتُمْ﴾ في محلِّ الرَّفْعِ عَلَى الفاعلية، يعني: ولن يَنْفَعَكُمْ كَوْنُكُمْ مُشْتَرِكِينَ فِي العذاب، كما يَنْفَعُ الوَاقِعِينَ فِي الأَمْرِ الصَّعْبِ اشْتِرَاكُهُمْ فِيهِ، لِتَعَاوُضِهِمْ فِي تَحْمُلِ أَعْبَائِهِ، وَتَقْسِيمِهِمْ لِشِدَّتِهِ وَعَنَائِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ بِهِ مِنَ العذاب ما لا تَبْلُغُهُ طاقته.

ولك أن تجعل الفعلَ التَّمَنِّيَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾، عَلَى معنَى: ولن يَنْفَعَكُمْ اليَوْمَ ما أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ تَمَنِّي مَبَاعَدَةِ القَرِينِ، وَقَوْلِهِ: ﴿أَنْتُمْ فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ تَعْلِيلٌ، أَي: لَنْ يَنْفَعَكُمْ تَمَنِّيكُمْ؛ لِأَنَّ حَقَّكُمْ أَنْ تَشْتَرِكُوا أَنْتُمْ وَقَرْنَاؤُكُمْ فِي العذاب، كما كُنْتُمْ مُشْتَرِكِينَ فِي سَبَبِهِ وَهُوَ الكُفْرُ. وَتُقْوِيهِ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: «إِنْكُمْ» بِالكَسْرِ.

وقيل: إِذَا رَأَى السَّمْنُو بَشِدَةً مِنْ مُنِي بِمِثْلِهَا،

وقريبٌ منه ما قال صاحبُ «التيسير»: كَأَنَّهُ قَالَ: يَا لَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ صَاحِبَتِكَ وَلَا عَرَفْتُكَ، وَلَا كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ وُضْلَةٌ وَلَا تَقَارُبٌ، حَتَّى كُنَّا فِي التَّبَاعُدِ كَأَنَّ أَحَدَنَا بِالْمَشْرِقِ وَالآخَرَ بِالْمَغْرِبِ، لَا يَلْتَقِيَانِ وَلَا يَتَقَارِبَانِ، فَجَعَلَهُمَا «مَشْرِقَيْنِ»: كَالْقَمَرَيْنِ وَالْعَمَرَيْنِ، وَأَنْشَدَ الرَّجَاجُ (١):

لَنَا قَمَرَاهَا وَالنُّجُومُ الطَّوَالِجُ (٢)

وَأما قولُ صاحبِ «الانْتِصَافِ»: «إِنَّهُ مِنَ اللَّفِّ»: فَضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ مَعْنَى اللَّفِّ: هُوَ أَنْ يَلْفَ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ فِي الذِّكْرِ، ثُمَّ يُتْبَعُهُمَا كَلَامًا مُشْتَمِلًا عَلَى مُتَعَلِّقٍ بوَاحِدٍ وَبِآخَرَ مِنْ غَيْرِ تَعْيِينِ، كما فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانِي﴾ [البقرة: ١١١]، فَقَوْلُهُ: ﴿وَقَالُوا﴾ لَفٌّ مِنْ حَيْثُ المَعْنَى، لِأَنَّهُ ضَمِيرُ القَرِيْقَيْنِ بِدَلَالَةِ النُّشْرِ عَلَيْهِ، وَأَيْنَ هَاهُنَا ذَاكَ؟!

قَوْلُهُ: (السَّمْنُو): الأَسَاسُ: «مُنِي بِكَذَا: بِلِيَّ بِهِ، وَهُوَ مَمْنُو بِهِ»، رَوَى الرَّجَاجُ عَنِ المُبَرِّدِ:

(١) فِي «مَعَانِي القُرْآنِ وَإِعْرَابِهِ» (٤: ٤١٢).

(٢) البَيْتُ لِلْفَرَزْدَقِ، كما فِي «الكامل» لِلْمُبَرِّدِ (١: ١١٩)، وَأَوَّلُهُ:

أَخَذْنَا بِأَفَاقِ السَّاءِ عَلَيْكُمْ

رَوَّحَهُ ذَلِكَ وَنَفَسَ بَعْضَ كُرْبِهِ، وَهُوَ التَّائِسِيُّ الَّذِي ذَكَرْتُهُ الْخَنَسَاءُ:

أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّائِسِيِّ

فهؤلاء لا يؤسسيهم اشتراكهم ولا يروحهم؛ لعظم ما هم فيه.

فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾؟ قلت: معناه: إذ صحَّ ظلمكم وتبين

ولم يبق لكم ولا لأحدٍ شبهةٌ في أنكم كنتم ظالمين،

«أنهم مُنِعُوا رُوحَ التَّائِسِيِّ، لِأَنَّ التَّائِسِيَّ يُسَهِّلُ الْمُصِيبَةَ، فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْاِشْتِرَاكُ فِي الْعَذَابِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَجْعَلُ لَهُمْ فِيهَا أُسْوَةً، وَأَنْشَدَ لِلْخَنَسَاءِ:

يُذَكِّرُنِي طُلُوعَ الشَّمْسِ صَخْرًا وَأَذْكَرُهُ بِكُلِّ مَغِيبِ شَمْسٍ

ولولا كثرةُ الباكينِ حَوِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّائِسِيِّ (١)» (٢)

وقلت: فعلى هذا القول: فاعل ﴿لَنْ يَنْفَعَكُمْ﴾: ﴿أَنْتُمْ﴾، كما في الوجه الأول، والمعنى:

اليوم لا يَنْفَعُكُمْ هذا المعنى، وهو أنكم (٣) في العذابِ مُشْتَرِكُونَ، وقد عَلِمَ عُرْفًا أَنَّهُ لَيْسَ فِي

اِشْتِرَاكِ الْعَذَابِ (٤) النَّفْعُ الْبَتَّةَ إِلَّا التَّائِسِيُّ، وَهَؤُلَاءِ حَرِمُوا التَّائِسِيَّ أَيْضًا، لِعِظَمِ مَا هُمْ فِيهِ.

قوله: (ما معنى قوله: ﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾؟): قال أبو البقاء: «أما «إذ» فمُشْكِلَةٌ الْأَمْرُ؛ لِأَنَّهَا

ظَرَفُ زَمَانٍ مَاضٍ، وَ«لَنْ يَنْفَعَكُمْ»، وَفَاعِلُهُ، وَالْيَوْمُ الْمَذْكُورُ: لَيْسَ بِمَاضٍ، قَالَ ابْنُ جِنِّي فِي

مُسَاءَلَتِهِ أَبَا عَلِيٍّ (٥): رَاجَعْتُهُ فِيهَا مِرَارًا، فَأَخْرَجْتُ مَا حَصَلَ مِنْهُ: أَنَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَى مُتَّصِلَتَانِ،

(١) «ديوان الخنساء» ص ٨٥.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤: ٤١٣).

(٣) في الأصول الخطية: «كونكم»، ولا يستقيم معها «مشترون» بالرفع، وأثبت ما يؤايق لفظ الآية.

(٤) من قوله: «مشترون» إلى هنا، سقط من (ح).

(٥) يُرِيدُ: أَبَا عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ، الْحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ، الْمَوْلُودُ سَنَةَ ٢٨٨، وَتُوفِيَ سَنَةَ ٣٧٧، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

وذلك يوم القيامة. و﴿إِذْ﴾ بَدَلٌ مِّنَ ﴿الْيَوْمِ﴾، ونظيره:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لثيمة

أي: تبيّن أني ولدٌ كريمة.

[﴿أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّخْرَةَ أَوْ تَهْدِي الْعُمْىَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٤٠﴾]

وهما سواءٌ في حُكْمِ الله تعالى وعِلْمِهِ، فتكون «إِذْ» بَدَلًا مِّنَ «اليوم»، حتى كأنها مُسْتَقْبَلَةٌ، أو كأنَّ اليومَ ماضٍ. وقال غيره: الكلامُ محمولٌ على المعنى، والمعنى: أنَّ ثبوتَ ظُلْمِهِمَ عِنْدَهُمَ يكونُ يومَ القيامة، فكانه قال: ولن يَنْفَعَكُمُ اليومَ إِذْ صَحَّ ظُلْمُكُمْ عندكم، فهو بَدَلٌ أَيْضًا^(١).

هذا هو الذي عناه المصنّف: «إِذْ صَحَّ ظُلْمُكُمْ»^(٢) وتبيّن...، و﴿إِذْ﴾ بَدَلٌ مِّنَ ﴿الْيَوْمِ﴾. وقال أبو البقاء: «وقال آخرون: التقدير: بعد إِذْ ظَلَمْتُمْ، فَحَذَفَ الْمُضَافَ لِلْعِلْمِ بِهِ، وَقِيلَ: «إِذْ» بِمَعْنَى «أَنْ»، أَي: لِأَنَّ ظَلَمْتُمْ»^(٣).

قوله: (إذا ما انتسبنا لم تلدني لثيمة): بعده:

ولم تجدي من أن تقرّي به بدًا^(٤)

عن بعضهم: استشهد أن «إِذَا» بَدَلٌ مِّنَ «اليوم»، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾، و«ما» زائدة، وهو سَهْوٌ؛ لأنَّ «لم تلدني» جوابُ «إِذَا»، وهو ليس للاستقبال، لأنَّ الولادة كانت قبل، والمعنى على التبيين، فلاشتراك بين المُسْتَشْهِدِ والمُسْتَشْهِدِ هو التبيين، يقول: إذا انتسبنا تبيّن لك أني ولدٌ كريمة، وتقرّين بذلك لا محالة.

(١) «التيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٣٩-١١٤٠).

(٢) من قوله: «عندكم فهو بدل أيضاً إلى هنا، سقط من (ح).

(٣) «التيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٤٠).

(٤) الشَّطْرُ الْأَوَّلُ تقدّم عند الزمخشري في تفسير الآية ٧٩ من سورة مريم (١٠: ٩٦). وانظر: «مغني اللبيب»

لابن هشام (١: ٢٦).

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجِدُ وَيَجْتَهِدُ وَيَكُدُّ رُوحَهُ فِي دُعَاءِ قَوْمِهِ، وَهُمْ لَا يَزِيدُونَ عَلَى دُعَائِهِ إِلَّا تَصْمِيمًا عَلَى الْكُفْرِ وَتَمَادِيًا فِي الْعِيِّ، فَانكَرَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ إنكارًا تعجبٍ مِنْ أَنْ يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى هِدَايَتِهِمْ، وَأَرَادَ: أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ عَلَى سَبِيلِ الْإِلْجَاءِ وَالْقَسْرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

[﴿فَأَمَّا نَذَهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾ * أَوْ نُزَيِّنَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ * فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوْحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ٤١-٤٣]

«ما» في قوله: ﴿فَأَمَّا نَذَهَبَنَّ بِكَ﴾ بمنزلة لام القسم؛ في أنها إذا دَخَلَتْ دَخَلَتْ مَعَهَا النَّوْنُ الْمُؤَكِّدَةُ، والمعنى: فَإِنْ قَبَضْنَاكَ قَبْلَ أَنْ نَنْصُرَكَ عَلَيْهِمْ وَتَشْفِي صُدُورَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ، ﴿فَأِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾ أَشَدَّ الْإِنْتِقَامِ فِي الْآخِرَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ نَتَوَقَّئِكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ [غافر: ٧٧]، وَإِنْ أَرَدْنَا أَنْ نُنْجِزَ فِي حَيَاتِكَ مَا وَعَدْنَا مِنْ الْعَذَابِ النَّازِلِ بِهِمْ - وَهُوَ يَوْمُ بَدْرٍ - فَهَمَّ تَحْتَ مَلَكِنَا وَقُدْرَتِنَا لَا يَفُوتُونَا.

وَصَفَّهَم بِشِدَّةِ الشَّكِيمَةِ فِي الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ شِدَّةَ الْوَعِيدِ بِعَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَقُرِئَ: «نُزَيِّنَنَّكَ» بِالنُّونِ الْخَفِيفَةِ، وَقُرِئَ: «بِالَّذِي أُوْحِيَ إِلَيْكَ» عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ، وَهُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْمَعْنَى: وَسَوَاءٌ عَجَّلْنَا لَكَ الظَّفَرَ وَالْغَلْبَةَ أَوْ أَخْرَجْنَا إِلَى الْيَوْمِ الْآخِرِ، فَكُنْ مُتَمَسِّكًا بِهَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَبِالْعَمَلِ بِهِ،

قوله: (لا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ): هَذَا الْحَصْرُ مُسْتَفَادٌ مِنْ إِبْلَاءِ الضَّمِيرِ حَرْفِ الْإِنْكَارِ (١).

(١) أي: قال: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾، ولم يقل: «أَفَتُسْمِعُ أَنْتَ الصُّمَّ». وانظر: «مفتاح العلوم» للعلامة السكاكي ص ٣١٥-٣١٦.

فإنه الصراط المستقيم الذي لا يحيدُ عنه إلا ضالُّ شقيٍّ، وزدَّ كُلَّ يومٍ صلابَةً في المحاماةِ على دينِ الله، ولا يُخْرِجُكَ الضَّجْرُ بِأَمْرِهِمْ إلى شيءٍ مِنَ اللَّيْنِ وَالرَّخَاوَةِ فِي أَمْرِكَ، وَلَكِنْ كَمَا يَفْعَلُ الثَّابِتُ الَّذِي لَا يُنْشِطُهُ تَعْجِيلُ ظَفَرٍ، وَلَا يُبْطِئُهُ تَأْخِيرُهُ.

[﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ * وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٤-٤٥﴾]

﴿وَإِنَّهُ﴾ وإنَّ الذي أَوْحِيَ إِلَيْكَ ﴿لَذِكْرٌ﴾ لَشَرَفٍ، ﴿لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾، ﴿و﴾ لَـ ﴿سَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ عنه يومَ القيامةِ، وعن قيامِكُم بحَقِّه، وعن تعظيمِكُم له، وشُكْرِكُم على أنْ رَزَقْتُمُوهُ وَخُصَّصْتُمُ بِهِ مِنْ بَيْنِ الْعَالَمِينَ.

قوله: (لا يحيدُ عنه): الجوهري: «حَادَ عَنِ الشَّيْءِ يَحِيدُ حَيْدًا وَحَيْدَةً وَحَيْدُودَةً: مَالَ عَنْهُ».

قوله: (وزدَّ كُلَّ يومٍ صلابَةً في المحاماة): قيل: الزيادةُ مُستفادَةٌ مِنْ «السَّيْنِ» فِي «اسْتَمْسِكَ»، قُلْتُ: بَلْ هِيَ مُسْتَفَادَةٌ مِنَ الْأَمْرِ بِالْإِسْتِمْسَاكِ بِالْوَحْيِ لِمَنْ هُوَ مُسْتَمْسِكٌ بِهِ، وَيَعْضُدُّهُ تَعْلِيلُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُدًى يَنْفِقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، قَالَ الْمُصَنِّفُ: «هُوَ كَقَوْلِكَ لِلْعَزِيزِ الْمُكْرَمِ: أَعَزَّكَ اللَّهُ وَأَكْرَمَكَ، تُرِيدُ طَلَبَ الزِّيَادَةِ إِلَى مَا هُوَ ثَابِتٌ فِيهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]».

قوله: (ولكن كما يفعل الثابت): عَطَفَ عَلَى قَوْلِهِ: «يُخْرِجُكَ» مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، أَي: كُنْ مُتَمَسِّكًا بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَلَا تَفْعَلْ كَمَا يَفْعَلُ الضَّالُّ الشَّقِيٌّ، فَإِنَّهُ يَمِيلُ عَنِ الْحَقِّ، وَلَا يُبْتِئُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ عَادَةَ الْمُتْرَلِّزِ أَنْ لَا يَصْبِرَ عَلَى شَيْءٍ، يُنْشِطُهُ تَعْجِيلُ ظَفَرٍ، وَيُبْطِئُهُ تَأْخِيرُهُ، وَلَكِنْ أَفْعَلْ كَمَا يَفْعَلُ الثَّابِتُ الَّذِي لَا يُنْشِطُهُ تَعْجِيلُ ظَفَرٍ، وَلَا يُبْطِئُهُ تَأْخِيرُهُ، وَكُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي مُسْتَبْطَأَةٌ مِنْ أَرْتِبَاطِ ﴿فَاسْتَمْسِكَ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمْرَ﴾، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَى لِمَا نَبَّهَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - أَنْ جِدَّهُ وَاجْتِهَادَهُ فِي دُعَاءِ قَوْمِهِ غَيْرُ نَافِعٍ، وَأَنَّهُمْ صَمٌّ عُمِّيٌّ فِي صَلَالِ مُبِينٍ، لَا يَرِجِعُونَ وَلَا يَرِعُونَ، وَيَبَيِّنُ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْهَلَاكِ وَقَطْعِ دَابِرِهِمْ، فَفَسَمَ الْأَمْرَ بَيْنَ أَنْ

ليس المراد بسؤال الرُّسُل: حقيقة السؤال؛ لإحاليته، ولكنه مجازٌ عن النَّظَرِ في أديانهم، والفحص عن مللهم، هل جاءت عبادة الأوثان قَطُّ في ملةٍ من ملل الأنبياء؟ وكفاهُ نظراً وفحصاً: نظرُهُ في كتابِ الله المعجزِ المصدقِ لِمَا بين يديه، وإخبارُ الله فيه بأنهم يعبدون من دونِ الله ما لم يُنزلْ به سلطاناً، وهذه الآية في نفسها كافيةٌ لا حاجة إلى غيرها.

والسؤال الواقع مجازاً عن النَّظَرِ، حيث لا يصحُّ السؤال على الحقيقة: كثير، منه مُسألةُ الشعراءِ الديارِ والرُّسومِ والأطلال، وقولُ مَنْ قال: سَلِ الأَرْضِ: مَنْ سَقَى أنهارك، وعَرَسَ أشجارك، وجَنَى ثمارك؟ فإنها إن لم تُجِبْكَ حواراً أجابتك اعتباراً.

يَنْصَرَهُ عليهم في الدنيا وَيَشْفِي صُدُورَ الْمُؤْمِنِينَ، وبين أن يَتَّقِمَ منهم في الآخرة أشدَّ الانتقام، أَرشده^(١) إلى المتاركةِ والموادعةِ والاشتغالِ بما يَهُمُّهُ مِنَ التمسكِ بالغرورةِ الوثقى، وهو هذا القرآنُ الكريمُ الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، وَعَلَّلَ ذلك بقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وَيَعُضُدُ معنى المتاركةِ والتسلية: قوله: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾، والشروعُ في قصّةِ موسى عليه السلام، فتأمل وتَعَجَّبْ من إدراكِهِ اللَّمَحَاتِ التزليّةِ التي لَطَفَ شأنها، وخَفِيَ مكائنها، واشكُرْ سَعِينَا في استنباطها من مظائنها، بطلبِ الرُّفَى عند الله الكريم.

قوله: (وهذه الآية في نفسها كافية): ترقى في تأويل السؤال بالنظر والفحص، يعني: أمرَ صَلَوَاتُ الله عليه بقوله: ﴿وَسَلِّ﴾ بأن يَتَفَكَّرَ في أديانِ الأُممِ السالفة، ديناً بعد دين، وأمةً بعد أمة، هل جاءت عبادة الأوثان قَطُّ في ملة، ثم ترقى منه إلى النَّظَرِ في هذا الكتاب الكريم، فإنه كافٍ في التفحص، ثم ترقى منه إلى التَّفَكُّرِ في هذه الآية الفأدة الكافية في المقصود.

قوله: (كثير): خَبِرَ، و«السؤال الواقع» مُبْتَدَأُ، و«منه» خَبِرَ أيضاً، و«مساءلة الشعراء»

مُبْتَدَأُ.

(١) قوله: «أَرشده»: هو جوابُ «لِمَا» المُتقدِّمة في قوله: «لِمَا نَبَّهَ...».

وقيل: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ جُمِعَ لَهُ الْأَنْبِيَاءُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَأَمَّهُمْ، وَقِيلَ لَهُ: سَلَّمَهُمْ، فَلَمْ يَشْكُوكُمْ وَلَمْ يَسْأَلْ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: سَلَّ أُمَّمَ مَنْ أَرْسَلْنَا، وَهُمْ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ؛ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ. وَعَنِ الْفَرَّاءِ: هُمْ إِذَا يُخْبِرُونَ عَنْ كُتُبِ الرُّسُلِ، فَإِذَا سَأَلَهُمْ فَكَأَنَّهُ سَأَلَ الْأَنْبِيَاءَ.

[﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ ٤٦-٤٧]

ما أجابوه به عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: محذوف، دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ وَهُوَ مُطَالِبَتُهُمْ إِيَّاهُ بِاحْتِضَارِ الْبَيْتِ عَلَىٰ دَعْوَاهُ وَإِبْرَازِ الْآيَةِ، ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ أَي: يَسْخَرُونَ مِنْهَا وَيَهْزُؤُونَ بِهَا وَيُسَمُّونَهَا سِحْرًا، وَ«إِذَا» لِلْمُفَاجَأَةِ.

فإن قلت: كَيْفَ جَازَ أَنْ يُجَابَ «لَسْنَا» بـ«إِذَا» الْمُفَاجَأَةِ؟ قلت: لِأَنَّ فِعْلَ الْمُفَاجَأَةِ مَعَهَا مُقَدَّرٌ، وَهُوَ عَامِلُ النَّصْبِ فِي مَحَلِّهَا، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا فَاجَؤُوا وَقَتَّ ضَحِكِهِمْ.

[﴿وَمَا تُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾]

[٤٨]

قوله: (فَلَمْ يَشْكُوكُمْ وَلَمْ يَسْأَلْ): أَي: ظَاهِرُ الْأَمْرِ الْوَجُوبِ، فِيمَا أَنْ يُحْمَلَ السُّؤَالُ عَلَى النَّظَرِ مَجَازًا، وَالْكَلَامُ مَبْنِيٌّ عَلَى الشَّرْطِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنْ شَكَّكَتَ فَاسْأَلْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ﴾ [يونس: ٩٤]، فَلَمْ يَشْكُوكُمْ وَلَمْ يَسْأَلْ.

قوله: (وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: سَلَّ أُمَّمَ مَنْ أَرْسَلْنَا): وَهُمْ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ. الْإِتِّصَافُ: «يَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ: ﴿فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]»^(١).

(١) «الانتصاف» (٣: ٤٩٠) بحاشية «الكشاف».

فإن قلت: إذا جاءتهم آية واحدة من جملة التسع، فما أختها التي فضلت عليها في الكبر من بقية الآيات؟ قلت: أختها التي هي آية مثلها، وهذه صفة كل واحدة منها، فكان المعنى على أنها أكبر من بقية الآيات على سبيل التفصيل والاستقراء واحدة بعد واحدة، كما تقول: هو أفضل رجل رأيت؛ تريد تفضيله على أمة الرجال الذين رأيتهم إذا قرؤتهم رجلاً رجلاً.

فإن قلت: هو كلام متناقض، لأن معناه: ما من آية من التسع إلا هي أكبر من كل واحدة منها، فتكون كل واحدة منها فاضلة ومفضولة في حالة واحدة؟ قلت: الغرض بهذا الكلام أنهم موصوفات بالكبر، لا يكذن يتفاوتن فيه، وكذلك العادة في الأشياء التي تتلاقى في الفضل، وتتقارب منازلها فيه التقارب اليسير: أن تختلف آراء الناس في تفضيلها، فيفضل بعضهم هذا، وبعضهم ذاك، فعلى ذلك بنى الناس كلامهم فقالوا: رأيت رجلاً بعضهم أفضل من بعض،

قوله: (تريد تفضيله على أمة الرجال): يعني: من حق «أفعل» التفضيل هنا، أن يكون المفضل عليه أعم منه، لأن الآيات تسع، فينبغي أن يقال: وما من آية إلا وهي أكبر من بقية الآيات، وفي الآية: ﴿أختها﴾: مثل، وكذا في المثال، فيحمل على استغراق الجنس ليتناول فرداً فرداً منه.

قوله: (إذا قرؤتهم رجلاً رجلاً): الجوهري: «قرؤت البلاد قرؤاً، وقرئتها، واقتريتها، واستقرئتها: إذا تتبعتها؛ تخرج من أرض إلى أرض».

قوله: (الغرض بهذا الكلام أنهم موصوفات بالكبر، لا يكذن يتفاوتن فيه): يعني: «أفعل» محمول على الزيادة مطلقاً روماً للمبالغة، كقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [النجم: ٣٣]، ف﴿أعلم﴾ بمعنى: عالم؛ إذ لا مشاركة لله تعالى في علمه بذلك، وسبق بيان ذلك في سورة «الزمر» مستقصى.

وربما اختلقت آراء الرجل الواحد فيها، فتارة يُفضّل هذا، وتارة يُفضّل ذلك. ومنه بيت
«الحماسة»:

مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ تَقْلًا: لَاقَيْتَ سَيِّدَهُمْ مِثْلُ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي

وقد فاضلت الأنارية بين الكملة من بينها، ثم قالت لَمَّا أَبْصَرَتْ مَرَاتِبَهُمْ مُتَدَانِيَةً
قليلة التفاوت: تَكَلِّمْتُهُمْ إِنْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَيُّهُمْ أَفْضَلُ، وَهُمْ كَالْحَلْقَةِ الْمَفْرَغَةِ لَا يُدْرِي
أَيْنَ طَرَفَاهَا.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إرادة أن يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان. فإن قلت: لو أراد
رُجُوعَهُمْ لَكَانَ؟

الانتصاف: «الظاهر أن الذي سَوَّغَ هذا الإطلاق أن كل آية إذا أُفردت استغرقت عظمتهَا
الفكر، وبهرته، حتى يجزم أنها النهاية، وأن كل آية دونها، فإذا نُقل الفكر إلى الأخرى كانت
كذلك، وحاصلها أنه لا يقدر الفكر أن يجمع بين آيتين لتتميز الفاضلة من المفضولة»^(١).

وقال صاحب «الفرائد»: «نحوه قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾
[الصفات: ١٤٧]، فإن الناظر إذا نظَرَ إلى آية ظَهَرَتْ بعد أخرى، يقول: هي أكبر من أختها،
لكون كل واحدة في غاية من الكمال والقوة».

قوله: (وقد فاضلت الأنارية): قيل: هي فاطمة بنت الخزّسب الأنمارية، كانت في
الجاهلية، وبنوها يلقبون «الكملة»^(٢)، تصف أبناءها حين سُئِلت: أيهم أفضل؟ فقالت:
عمارة، لا بل فلان، لا بل فلان، ثم قالت: تَكَلِّمْتُهُمْ إِنْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَيُّهُمْ أَفْضَلُ، كَالْحَلْقَةِ
الْمَفْرَغَةِ لَا يُدْرِي أَيْنَ طَرَفَاهَا.

(١) «الانتصاف» (٣: ٤٩١) بحاشية «الكشاف».

(٢) تحرف في (ح) و(ف) إلى: «الكلمة»، والمثبت من (ط).

قلت: إرادته فعلٌ غيره ليس إلا أن يأمره به ويطلب منه إيجاده، فإن كان ذلك على سبيل القسرِ ووجد، وإلا دار بين أن يوجد وأن لا يوجد على حسب اختيار المكلف، وإنما لم يكن الرجوع لأن الإرادة لم تكن قسراً ولم يختاروه.

والمراد بـ«العذاب»: السنون والطوفان والجراد وغير ذلك.

[وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرِ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ

الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٤٩-٥٠﴾]

وقرى: «يا أيه الساحر»؛ بضم الهاء، وقد سبق وجهه.

فإن قلت: كيف سمّوه بالساحر مع قولهم: ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾؟

قوله: (إرادته فعلٌ غيره) إلى آخره: جعل الأمر والإرادة سيان، وآل حاصل كلامه أنه حصل مراد العبد دون مراد الله، وقد مرّ غير مرة^(١) أن «لعل» في أمثال هذه المقامات مستعارة تمثيلاً، أي: عاملهم الله عزّ وجلّ معاملة من يرجو ويتوقع.

قوله: (قرى: «يا أيه الساحر»؛ بضم الهاء): ابن عامر، والباقون: بفتحها^(٢). ووجهها: أنها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الألف، فلما سقطت الألف لالتقاء الساكنين، أتبع حركتها حركة ما قبلها، هكذا قاله في سورة «النور»^(٣)، وقالوا: وجهه: أنه لما لزم هاء التنبيه «أي»^(٤) المنادى صابر معه كالشيء الواحد، فحذف ألفها، ثم جعل الهاء كجزء منه، فبنى «أيه» في النداء على الضم، كما قالوا: يا زيد.

قوله: (كيف سمّوه بالساحر): أي: تسميتهم بـ«الساحر» مؤذناً بأنه ضالّ مضلّ، ووعدهم

(١) من أول هذه الفقرة إلى هنا سقط من (ح) و(ف).

(٢) انظر: «التيسير» للداني ص ٦١، و«حجة القراءات» ص ٦٥٠.

(٣) (٧٢: ١١) في تفسير الآية ٣١ منها.

(٤) في الأصول الخطية: «أيا»، والصواب ما أثبت، يريد أن «أي» الذي يعرب منادى في قولك: «يا أيها...»،

تلزمه هاء التنبيه.

قلت: قولهم: ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ وَعَدُّ مَنْوِيٍّ إِخْلَافُهُ، وَعَهْدٌ مَعْرُومٌ عَلَى نَكْبِهِ، مُعَلَّقٌ بِشَرْطٍ أَنْ يَدْعَوْهُمْ وَيَنْكَشِفَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾، فَمَا كَانَتْ تَسْمِيَتُهُمْ إِيَّاهُ بِالسَّاحِرِ بِمُنَافِيَةٍ لِقَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾. وَقِيلَ: كَانُوا يَقُولُونَ لِلْعَالِمِ الْمَاهِرِ: سَاحِرٌ؛ لِاسْتِعْظَامِهِمْ عِلْمَ السَّحْرِ.

﴿بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ﴾ أَي: بِعَهْدِهِ عِنْدَكَ مِنْ أَنْ دَعَوْتَكَ مُسْتَجَابَةً،

بقوله: ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ إِعْلَامٌ بِأَنَّهُ هَادٍ مُهْتَدٍ، وَأَجَابَ: بِأَنَّ قَوْلَهُمْ: ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ تَعْلِيْقٌ مُخَالِفٌ لِمَا فِي الضَّمَانِ، وَقَالَ الْقَاضِي: «نَادَوْهُ بِالسَّاحِرِ فِي تِلْكَ الْحَالِ لِشِدَّةِ شَكِيمَتِهِمْ، وَقَرَّبَ حِمَاقَتِهِمْ»^(١)، وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ هَذَا الْمَقَامَ مَقَامُ تَضَرُّعٍ وَابْتِهَالٍ^(٢)، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ﴾، فَيَنْبَغِي أَنْ يَقُولُوا: يَا مُوسَى، كَمَا فِي نَظِيرَتِهَا^(٣)، لَكُنْهُمْ مِنْ إِفْرَاطِ حَيْرَتِهِمْ وَدَهْشَتِهِمْ سَبَقَ لِسَأْتِهِمْ إِلَى مَا تَعَوَّدُوهُ وَأَلْفَوْا بِهِ مِنْ تَسْمِيَتِهِمْ بِالسَّاحِرِ، وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ لَهُمْ بَلَّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٤-١٣٥].

قوله: ﴿بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ﴾ أَي: بِعَهْدِهِ عِنْدَكَ: أَي: ادْعُ اللَّهَ بِسَبَبِ أَنْكَ مُسْتَجَابٌ الدَّعْوَةَ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَاهَدَ لَكَ أَنْ يُجِيبَ دَعْوَتَكَ، أَوْ بِحَقِّ مَا عِنْدَكَ مِنْ عَهْدِ اللَّهِ وَكَرَامَتِكَ بِالنُّبُوَّةِ، أَوْ بِحَقِّ الْإِيْبَانِ وَالطَّاعَةِ، أَوْ بِسَبَبِ مَا عَاهَدَهُ اللَّهُ مِنْ كَشْفِ الْعَذَابِ لِمَنْ آمَنَ، قَالَ الرَّجَّاجُ: ﴿بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ﴾ فَيَمَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ كَشْفِ الْعَذَابِ عَنْهُ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾^(٤).

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (١٤٨: ٥).

(٢) في (ح) و(ف): «وإمهال»، والمثبت من (ط).

(٣) يعني الآية التي في سورة الأعراف، وسيذكرها المؤلف بعد قليل.

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤: ٤١٤).

أَوْ بَعْهْدِهِ عِنْدَكَ وَهُوَ النَّبُوءَةُ، أَوْ بِمَا عَهْدَ عِنْدَكَ فَوَفَّيْتَهُ بِهِ، وَهُوَ الْإِيْمَانُ وَالطَّاعَةُ، أَوْ بِمَا عَهْدَ عِنْدَكَ مِنْ كَشْفِ الْعَذَابِ عَمَّنْ اهْتَدَى.

[﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أَلْفِي عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ ٥١-٥٣]

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾ جَعَلَهُمْ مَحَلًّا لِّدِنَائِهِ وَمَوْعِعًا لَهُ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ أَمَرَ بِالنَّدَاءِ فِي مَجَامِعِهِمْ وَأَمَاكِنِهِمْ مِّنْ نَّادِي فِيهَا بِذَلِكَ، فَأَسْنَدَ النَّدَاءَ إِلَيْهِ، كَقَوْلِكَ: قَطَعَ الْأَمِيرُ اللَّصَّ؛ إِذَا أَمَرَ بِقَطْعِهِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ عُظْمَاءُ الْقِبْطِ، فَيَرْفَعُ صَوْتَهُ بِذَلِكَ فِيهَا بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يُنْشِرَ عَنْهُ فِي جُمُوعِ الْقِبْطِ، فَكَأَنَّهُ نُودِيَ بِهِ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي﴾، يَعْنِي: أَنهَارُ النَّيْلِ، وَمُعْظَمُهَا أَرْبَعَةٌ: نَهْرُ الْمَلِكِ، وَنَهْرُ طُولُونِ، وَنَهْرُ دِمْيَاطِ، وَنَهْرُ تَيْسِ. قِيلَ: كَانَتْ تَجْرِي تَحْتَ قَصْرِهِ، وَقِيلَ: تَحْتَ سَرِيرِهِ لِارْتِفَاعِهِ، وَقِيلَ: بَيْنَ يَدَيْ فِي جَنَانِي وَبَسَاتِينِي.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْوَاوُ عَاطِفَةً «لِلْأَنْهَارِ» عَلَى «مُلْكِ مِصْرَ»، وَ«تَجْرِي» نَصْبٌ عَلَى الْحَالِ مِنْهَا، وَأَنْ تَكُونَ الْوَاوُ لِلْحَالِ، وَاسْمُ الْإِشَارَةِ مُبْتَدَأً، وَ«الْأَنْهَارُ» صِفَةٌ لِاسْمِ الْإِشَارَةِ، وَ«تَجْرِي» حَبْرٌ لِلْمُبْتَدَأِ.

وَلَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ ارْتَقَتْ إِلَى دَعْوَةِ الرَّبُّوبِيَّةِ هِمَّةٌ مِّنْ تَعْظَمَ بِمُلْكِ مِصْرَ، وَعَجَبَ النَّاسَ مِنْ مَدَى عَظَمَتِهِ، وَأَمَرَ فَنُودِيَ بِهَا فِي أَسْوَاقِ مِصْرَ وَأَرْقِيهَا؛ لِثَلَا تَحْفَى تِلْكَ الْأَبْهَةُ وَالْجَلَالَةُ عَلَى صَغِيرٍ وَلَا كَبِيرٍ، وَحَتَّى يَتَرَبَّعَ فِي صُدُورِ الدَّهْمَاءِ مِقْدَارُ عِزَّتِهِ وَمَلَكُوتِهِ! وَعَنْ الرَّشِيدِ: أَنَّهُ لَمَّا قَرَأَهَا قَالَ: لِأَوْلِيِّئِهَا أَحْسَنُ عِبِيدِي،

قوله: (يَتَرَبَّعُ): أَي: يَتَمَكَّنُ فِي قُلُوبِ الْجَمَاعَةِ فَضْلَ تَمَكُّنٍ تَمَثِيلًا، وَعَنْ بَعْضِهِمْ: «مِقْدَارٌ» بِالنَّصْبِ؛ مِنْ قَوْلِهِمْ: تَرَبَّعَ الْمَكَانَ: اتَّخَذَهُ رُبْعًا، أَي: مَنَزَلًا، وَقِيلَ: الْإِقَامَةُ فِي الْمَكَانِ، وَبِمَعْنَى:

فَوَلَّاهَا الْخَصِيبَ، وكان على وضوئه. وعن عبد الله بن طاهر: أنه وَلَّيَهَا، فخرَجَ إليها، فلما شارَفَهَا ووقعَ عليها بَصَرُهُ، قال: أهيَ القريةُ التي افتخرَ بها فرعونُ حتى قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ؟! واللهِ لهيَ أَقْلُ عِنْدِي مِن أن أدخُلَهَا، ففتنى عِنَانَهُ.

الأخذ للمكان^(١)، و«مقدار» بالرَّفْعِ في بعضِ النُّسخِ؛ على أنه فاعِلٌ «يترَبِّعُ»، من قولهم: ترَبَّعَ في جُلوسِهِ.

قوله: (فَوَلَّاهَا الْخَصِيبَ): وهو خَصِيبُ بنِ حُمَيْدٍ، كذا في «ديوان أبي نُواسٍ»، ومدَحَهُ بقصيدة، منها:

أما دُونَ مِصْرٍ لِلغِنَى مُتَطَلَّبٌ	بلى إنَّ أسبابَ الغِنَى لكثيرُ
فقلتُ لها واستعجَلتْها بَواوِدِرُ	جَرَتْ فجرى في جَرِيهِنَّ عَبِيرُ
دَرِينِي أَكْثَرَ حاسِدِيكَ بِرِحْلَةٍ	إلى بَلَدٍ فيه الخَصِيبُ أميرُ
إذا لم تَزُرْ أَرْضَ الخَصِيبِ رِكاِبُها	فأيُّ فتى غيرِ الخَصِيبِ تَزورُ؟!
فتى يَشْتَرِي حُسْنَ الثناءِ بِمالِهِ	ويَعْلَمُ أنَّ الدائِرَاتِ تَدورُ
فما حازَهُ جُودٌ ولا حَلَّ دُونَهُ	ولكن يَصِيرُ الجودُ حيثُ يَصِيرُ ^(٢)

وذكرَ ابنُ الأثيرِ في «التاريخِ الكاملِ»: «أنَّ الرشيدَ لَمَّا أرادَ عَزَلَ موسىَ بنَ عيسىَ عن مِصْرٍ، قال: واللهِ لا أعزِلُهُ إلا بأخسِّ مَنْ على بابي، فأحضرَ عُمَرَ بنَ مِهْرانٍ، وكان أَحولَ مُشَوَّةَ الخَلقِ رَثَ الثيابِ، فَوَلَّاهُ، فسارَ فوافى دارَ موسىَ، وجَلَسَ في أُخْرِياتِ الناسِ، فلما تَفَرَّقُوا دَفَعَ الكِتابَ إلى موسىَ، فقال: تَقَدَّمَ أبا حَفْصٍ أبقاك اللهُ، لَعَنَ اللهُ فرعونَ حيثُ قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ؟!، ثم سَلَّمَ له العَمَلُ، وَرَحَلَ»^(٣).

(١) قوله: «وبمعنى: الأخذ للمكان» سقط من (ح).

(٢) «ديوان أبي نواس» ص ٣٥.

(٣) «الكامل في التاريخ» لابن الأثير، حوادث سنة ١٧٦ هـ.

﴿ أَمْ ﴾ هذه مُتَّصِلَةٌ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى: أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ تُبْصِرُونَ، إِلَّا أَنَّهُ وَضَعَ قَوْلَهُ: ﴿أَنَا خَيْرٌ﴾ مَوْضِعَ «تُبْصِرُونَ»، لِأَنَّهُمْ إِذَا قَالُوا لَهُ: أَنْتَ خَيْرٌ، فَهَمَّ عِنْدَهُ بُصْرَاءٌ، وَهَذَا مِنْ إِنْزَالِ السَّبَبِ مَنْزِلَةَ الْمُسَبَّبِ. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مُنْقَطِعَةً؛ عَلَى: بَلْ أَنَا خَيْرٌ، وَالْهَمْزَةُ لِلتَّقْرِيرِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدَّمَ تَعْدِيدَ أَسْبَابِ الْفَضْلِ وَالتَّقَدُّمَ عَلَيْهِمْ؛ مِنْ مُلْكٍ مِضْرٍ وَجَرِي الْأَنْهَارِ تَحْتَهُ، وَنَادَى بِذَلِكَ، وَمَلَأَ بِهِ مَسَامِعَهُمْ، ثُمَّ قَالَ: أَنَا خَيْرٌ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: أَتَبَّتْ عِنْدَكُمْ وَاسْتَقَرَّ أُنِي أَنَا خَيْرٌ وَهَذِهِ حَالِي.

﴿مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ أَي: ضَعِيفٌ حَقِيرٌ. وَقُرِي: «أَمَّا أَنَا خَيْرٌ».....

قوله: ﴿ أَمْ ﴾ هذه مُتَّصِلَةٌ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى: أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ تُبْصِرُونَ): قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: ﴿ أَمْ ﴾ هذه مُنْقَطِعَةٌ فِي اللَّفْظِ؛ لَوْ قَوَّعَ الْجُمْلَةَ بَعْدَهَا، وَهِيَ فِي الْمَعْنَى مُتَّصِلَةٌ مُعَادِلَةٌ، إِذِ الْمَعْنَى: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ أَمْ لَا^(١)، وَمُرَادُ الْمُصَنِّفِ: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ ﴾ بَعَثَ لَهُمْ عَلَى الْإِسْتِبْصَارِ وَالتَّفَكُّرِ فِي أَحْوَالِهِ؛ مِنْ بَسْطَةِ الْمُلْكِ وَاسْتِعْدَادِ الرَّئِيسَةِ وَمِنْ الْجُرْيَانِ فِي النَّطْقِ، وَأَحْوَالِ مُوسَى؛ مِنْ الْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ وَعَدَمِ اسْتِعْدَادِهِ الرَّئِيسَةَ مِنَ الرَّتَّةِ^(٢) فِي النَّطْقِ، ثُمَّ عَلَى أَنْ يَقُولُوا لَهُ^(٣): أَنْتَ خَيْرٌ. وَيَنْصُرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَاذُ بَيِّنٌ﴾.

وَلَمَّا كَانَ هَذَا التَّرْكِيبُ حَامِلًا عَلَى الْإِسْتِبْصَارِ، وَعَلَى الْقَوْلِ، قَالَ: «وَهَذَا مِنْ إِنْزَالِ السَّبَبِ مَنْزِلَةَ الْمُسَبَّبِ»، عَنْ بَعْضِهِمْ: لِأَنَّ كَوْنَهُ خَيْرًا عِنْدَهُمْ مُسَبَّبٌ^(٤) كَوْنِهِمْ بُصْرَاءً، لِأَنَّ الْإِبْصَارَ سَبَبٌ لِقَوْلِهِمْ: أَنْتَ خَيْرٌ.

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٤٠).

(٢) عِي الْعُجْمَةِ وَالْحُبْسَةِ فِي اللِّسَانِ. كَمَا فِي «القاموس» لِلْفَيْرُوزِ أَبَادِي، وَ«المصباح المنير» لِلْفَيُّومِيِّ، كِلَاهِمَا فِي مَادَّةِ (رَت).

(٣) أَي: ثُمَّ هُوَ بَعَثَ لَهُمْ عَلَى أَنْ يَقُولُوا.

(٤) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةُ: «سَبَبٌ»، وَأَصْلُحْتُهُ بِحَسَبِ السِّيَاقِ.

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ الكلام لِمَا بِهِ مِنَ الرُّثَّةِ، يُريد: أنه ليس معه مِنَ العُدَدِ وآلاتِ المُلْكِ والسِّيَاسَةِ مَا يَعْتَصِدُّ بِهِ، وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مُخِلٌّ بِمَا يُنْعَتُ بِهِ الرِّجَالُ مِنَ اللِّسَنِ والفصاحة، وكانت الأنبياءُ كلُّهم أئبياءً بُلْغَاءً.

وأراد بِالقَاءِ الأَسْوِرَةَ عَلَيْهِ: إلقاء مَقَالِيدِ المُلْكِ إِلَيْهِ، لأنهم كانوا إذا أرادوا تسويدَ الرجلِ سَوَّرُوهُ بِسَوَارٍ، وَطَوَّقُوهُ بِطَوِّقٍ مِنْ ذَهَبٍ، ﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ إِمَّا مُقْتَرِنِينَ بِهِ؛ مِنْ قَوْلِكَ: قَرْنَتْهُ فَاقْتَرَنَ بِهِ، وَإِمَّا مِنْ: اقْتَرَنُوا؛ بِمَعْنَى: تَقَارَنُوا. لِمَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِالمُلْكِ والعِزَّةِ، وَوَارَزَنَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُوسَى صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ، فَوَصَفَهُ بِالضَّعْفِ وَقِلَّةِ الأَعْضَادِ، اعْتَرَضَ فَقَالَ: هَلَّا إِنْ كَانَ صَادِقًا مَلَكَهُ رَبُّهُ وَسَوَّدَهُ وَسَوَّرَهُ، وَجَعَلَ الملائكةَ أَعْضَادَهُ وَأَنْصَارَهُ.

وَقُرِي: «أَسَاوِرُ»؛ جَمْعُ أُسْوِرَةٍ، وَ«أَسَاوِيرُ»؛ جَمْعُ إِسْوَارٍ، وَهُوَ السَّوَارُ، وَ«أَسَاوِرَةٌ»؛ عَلَى تَعْوِضِ التَّاءِ مِنْ يَاءِ «أَسَاوِيرٍ». وَقُرِي: «أَلْقَى عَلَيْهِ أُسْوِرَةٌ» وَ«أَسَاوِرُ»، عَلَى البِنَاءِ لِلفَاعِلِ، وَهُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

[﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ، فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ ٥٤]

قوله: (أئبياء): قيل: جمع بين، وهو ذو البيان.

قوله: (مقاليد الملك): الجوهري: «الإقليد: المفتاح، والمقلد: مفتاح».

قوله: (وإما من: اقترنوا): بمعنى: تقارنوا، قال محيي السنة: «أي: متتابعين، يُقَارَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ يَشْهَدُونَ لَهُ بِصِدْقِهِ، وَيُعِينُونَهُ عَلَى أَمْرِهِ»^(١).

قوله: (وقرئ: «أساور»): حفص: ﴿أُسْوِرَةٌ﴾ بِأَسْكَانِ السِّينِ مِنْ غَيْرِ أَلْفٍ، وَالباقون: بِفَتْحِهَا وَأَلْفٍ بَعْدَهَا^(٢).

(١) «معالم التنزيل» للبغوي (٧: ٢١٧).

(٢) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٧، و«حجة القراءات» ص ٦٥١.

﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ ﴾ فاستفزهم، وحقيقته: حملهم على أن يخفوا له ولما أراد منهم، وكذلك: استفز، من قولهم للخفيف: فز.

[﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿ ٥٥-٥٦ ﴾]

﴿ آسَفُونَا ﴾ منقول من: أسف أسفاً: إذا اشتد غضبه، ومنه الحديث في موت الفجأة: «رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر». ومعناه: أنهم أفرطوا في المعاصي وعدوا طورهم، فاستوجبوا أن نُعجل لهم عذابنا وانتقامنا، وأن لا نحلم عنهم.

قوله: (حملهم على أن يخفوا له): يعني: السين للطلب، وما طلب منهم في الحقيقة أن يخفوا له، بل احتال في تنكب آرائهم حتى يطيعوه فيما أراد منهم، مما ياباه أرباب العقول وأولو البصائر، قال محيي السنة: «يقال: استخفه على رأيه؛ إذا حمله على الجهل»^(١)، وعن بعضهم: أي: حملهم بتمويهه على أن خفوا لأمره غير مستقلين له، فأطاعوه في تكذيب موسى ومخالفته، وجمع الجموع لمحاربتة.

قوله: (وكذلك: استفز): أي: كما جاء «استخف» من الحفة لهذا المعنى، كذلك جاء «استفز» من فز؛ له.

قوله: (ومنه الحديث في موت الفجأة): روي عن رجل من الصحابة: أن رسول الله ﷺ قال: «موت الفجأة أخذة أسف ورحمة للمؤمن»، وفي رواية: قال رسول الله ﷺ: «موت الفجأة أخذة أسف»، أخرج الثانية أبو داود^(٢)، والأولى رواها رزين، وذكرهما صاحب «جامع الأصول»^(٣).

(١) «معالم التنزيل» للبغوي (٧: ٢١٧).

(٢) في «سننه» برقم (٣١١٠).

(٣) (١١: ٨٧).

وَقُرِي: ﴿سَلَفًا﴾؛ جَمْعُ سَالِفٍ، كَخَادِمٍ وَخَدَمٍ، وَ«سُلْفًا» بَضْمَتَيْنِ؛ جَمْعُ سَلِيفٍ، أَي: فَرِيقٍ قَدْ سَلَفَ، وَ«سُلْفًا»؛ جَمْعُ سُلْفَةٍ، أَي: ثَلَاثَةٌ قَدْ سَلَفَتْ. وَمَعْنَاهُ: فَجَعَلْنَاهُمْ قُدُورَةً لِلْآخِرِينَ مِنَ الْكُفَّارِ، يَقْتَدُونَ بِهِمْ فِي اسْتِحْقَاقِ مِثْلِ عِقَابِهِمْ وَنُزُولِهِ بِهِمْ، لِإِتْيَانِهِمْ بِمِثْلِ أَفْعَالِهِمْ، وَحَدِيثًا عَجِيبَ الشَّأْنِ سَائِرًا مَسِيرَ الْمَثَلِ، يُحَدِّثُونَ بِهِ وَيُقَالُ لَهُمْ: مِثْلُكُمْ مِثْلُ قَوْمِ فِرْعَوْنَ.

[﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ٥٧-٥٩]

لَمَّا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى قُرَيْشٍ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، اِمْتَعَضُوا مِنْ ذَلِكَ اِمْتِعَاضًا شَدِيدًا، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّبْعَرِيُّ: يَا مُحَمَّدُ، أَحَاصِبَةٌ لَنَا وَآلِهَتِنَا أَمْ لِجَمِيعِ الْأُمَّمِ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «هُوَ لَكُمْ وَآلِهَتِكُمْ وَجَمِيعِ الْأُمَّمِ»، فَقَالَ: خَصَمْتِكَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّ عَيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ نَبِيٍّ، وَتُنِي عَلَيْهِ خَيْرًا وَعَلَى أُمَّه، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ النَّصَارَى يُعْبُدُونَهُمَا، وَعُزَيْرٌ يُعْبَدُ، وَالْمَلَائِكَةُ يُعْبَدُونَ، فَإِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ فِي النَّارِ فَقَدْ رَضِينَا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ وَآلِهَتُنَا مَعَهُمْ، فَفَرِحُوا وَضَحِكُوا،

قوله: (وَقُرِي: ﴿سَلَفًا﴾): حمزة والكسائي: «سُلْفًا»؛ بَضْمِ السَّيْنِ وَاللَّامِ، وَالْباقون: بَفَتْحِهِمَا^(١).

قوله: (أَي: ثَلَاثَةٌ): الجوهري: «الثَّلَاثَةُ - بِالضَّمِّ -: الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ».

قوله: (اِمْتَعَضُوا مِنْ ذَلِكَ): الجوهري: «مَعَضْتُ مِنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ أَمْعَضُ مَعْضًا، وَامْتَعَضْتُ مِنْهُ: إِذَا غَضِبْتَ وَشَقَّ عَلَيْكَ».

قوله: (خَصَمْتِكَ): خَاصَمْتُ فَلَانًا فَخَصَمْتُهُ، أَي: غَلَبْتَهُ فِي الْخِصُومَةِ.

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٧، و«حجة القراءات» ص ٦٥١.

وَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، ونزلت هذه الآية.

والمعنى: ولَمَّا ضَرَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّبْعَرِيُّ عَيْسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ مَثَلًا، وَجَادَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِعِبَادَةِ النَّصَارَىٰ إِيَّاهُ، ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ قُرَيْشٍ، ﴿مِنَهُ﴾ مِنْ هَذَا الْمَثَلِ، ﴿يَصُدُّونَ﴾ تَرْتَفِعُ لَهُمْ جَلْبَةٌ وَضَجِيحٌ فَرَحًا وَجَدَلًا وَضَحِكًا بِمَا سَمِعُوا مِنْهُ مِنْ إِسْكَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِجَدَلِهِ، كَمَا يَرْتَفِعُ لَغَطُ الْقَوْمِ وَلَجِبَهُمْ إِذَا تَعَيَّوْا بِحُجَّةٍ ثُمَّ فُتِحَتْ عَلَيْهِمْ.

وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ: «يَصُدُّونَ» بِالضَّمِّ: فَمِنَ الصُّدُودِ، أَي: مِنْ أَجْلِ هَذَا الْمَثَلِ يَصُدُّونَ عَنِ الْحَقِّ وَيُعْرِضُونَ عَنْهُ. وَقِيلَ: مِنَ الصَّدِيدِ، وَهُوَ الْجَلْبَةُ، وَأَنْهَمَا لِفَتَانٍ نَحْوِ: يَعْكَفُ وَيَعْكُفُ، وَنَظَائِرَ لِهَمَا.

﴿وَقَالُوا أَلَهْتُمْنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يَعْنُونَ: أَنْ أَلَهْتَنَا عِنْدَكَ لَيْسَتْ بِخَيْرٍ مِنْ عَيْسَى، وَإِذَا كَانَ عَيْسَىٰ مِنْ حَصَبِ النَّارِ، كَانَ أَمْرُ أَلَهْتِنَا هَيْئًا.
﴿مَا صَرِيئُهُ﴾ أَي: مَا ضَرَبُوا هَذَا الْمَثَلِ، ﴿لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ إِلَّا لِأَجْلِ الْجَدَلِ.....

قوله: (ثم فُتِحَتْ عَلَيْهِم): النهاية: «وفي الحديث: «لا يُفْتَحُ عَلَى الْإِمَامِ؛ إِذَا أُرْتَجَّ عَلَيْهِ فِي الْقِرَاءَةِ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ، لَا يَفْتَحُ لَهُ الْمَأْمُومُ مَا أُرْتَجَّ عَلَيْهِ، أَي: لَا يُلْقَنُهُ».

قوله: (وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ «يَصُدُّونَ» بِالضَّمِّ): نافع وابن عامر والكسائي، والباقون: بكسرها^(١). قَالَ الزَّجَّاجُ: «الْكَسْرُ أَكْثَرُ، وَمَعْنَاهُمَا جَمِيعًا: يَصْجُونُ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الْمَضْمُومَةِ: يُعْرِضُونَ»^(٢)، رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ السُّنَّةِ عَنِ الْكِسَائِيِّ: «هُمَا لِفَتَانٍ، مِثْلَ يُعْرِشُونَ وَيُعْرِشُونَ، وَشَدَّ يَشُدُّ وَيَشُدُّ، وَنَمَّ يَنْمُ وَيَنْمُ»^(٣).

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٧، و«حجة القراءات» ص ٦٥٢.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤: ٤١٦).

(٣) «معالم التنزيل» للبغوي (٧: ٢١٨).

والغَلْبَةِ فِي الْقَوْلِ، لَا لِطَلْبِ السَّمِيزِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ لُدُّ شِدَادُ الْخَصُومَةِ دَأْبُهُمُ اللَّجَاجُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَوْمًا لُدًّا﴾ [مریم: ٩٧]،

قوله: (لَا لِطَلْبِ السَّمِيزِ): تَأْكِيدٌ لِمَا نَفَيْ فِي الْمُسْتَنْبِ مِنْهُ فِي قَوْلِهِ: «مَا صَرَبُوا هَذَا السَّمَلُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا»، أَي: لَيْسَ قَوْلُهُمْ: ﴿إِنَّا إِلَهُتُنَا خَيْرٌ أَمْرٌ هُوَ﴾، إِلَّا جَدَلًا صِرْفًا، لَيْسَ فِيهِ سِوَى طَلْبِ الْبَاطِلِ وَالْغَلْبَةِ فِي الْقَوْلِ، لِأَنَّ «مَا» فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٩٨] عَامٌّ يَحْتَمِلُ التَّخْصِصَ بِحَسَبِ الْمُخَاطَبِينَ وَاقْتِضَاءِ الْمَقَامِ، فَلِلْمُحَقِّ وَالْمُبْطِلِ مَجَالٌ التَّأْوِيلِ، فَإِنَّ الْمُحَقَّ حِينَ سَمِعَ النُّصُوصَ الدَّالَّةَ عَلَى تَعْظِيمِ الْمَلَائِكَةِ وَعِيسَى، وَأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ خِطَابٌ مُشَافِهَةٌ مَعَ الْمُشْرِكِينَ: لَا يَتَّصِرُ دُخُولُهُمْ فِي هَذَا الْعَامِّ، وَالْمُعَانِدُ الْمُكَابِرُ لَا يَلْتَمِثُ إِلَى الْمَقَامِ، وَحِينَ رَأَى لِلجِدَالِ مَجَالًا أَنْتَهَرَ الْفُرْصَةَ.

أما المقام: فَإِنَّ الْخِطَابَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فِي الْمُشْرِكِينَ، وَمَنْ نَمَّ قَدَّرَ مُجِيبِي السُّنَّةِ: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يَعْنِي: الْأَصْنَامَ، ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾^(١).

وأما توجيه كلامهم: ﴿وَقَالُوا إِنَّا إِلَهُتُنَا خَيْرٌ أَمْرٌ هُوَ﴾، فَإِنَّكَ تَزَعُمُ أَنَّ إِلَهُتَنَا لَيْسَ فِيهَا خَيْرٌ، وَأَنَّ عِيسَى نَبِيٌّ مُكْرَمٌ، فَقَوْلُكَ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ يُوجِبُ الْمُسَاوَاةَ، فَإِنَّ كَانَ الَّذِي تَقُولُ بِفَضْلِهِ وَتُبَوِّتُهُ حَصَبُ جَهَنَّمَ، كَانَ أَمْرُ إِلَهُتِنَا هَيْئًا. وَأما قَوْلُهُ: «هُوَ لَكُمْ وَلَا إِلَهَ لَكُمْ وَاجْتَمَعِ الْأُمَمُ»: فَلَيْسَ بَيِّنَةٌ^(٢).

(١) «معالم التنزيل» للبغوي (٥: ٣٥٦).

(٢) هكذا ضبطت في (ط)، وفي (ح) و(ف): «فليس يثبت»، وعلى كُلِّ فُلُو قَالَ: «فليس يُوجَد» أو «لا أصل له» لكان أحسن، لأنَّ نَفْيَ الثبوتِ يَعْنِي أَنَّهُ مَرْوِيٌّ فِي كِتَابِ السُّنَّةِ أَوْ غَيْرِهَا مُسْتَدًّا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَوْفِ شُرُوطَ الْقَبُولِ، وَالْحَالُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ لَيْسَ كَذَلِكَ، فَقَدْ اسْتغْرَبَهُ الْحَافِظُ الزَيْلَعِيُّ فِي «تَحْرِيجِ أَحَادِيثِ الْكُتَّافِ» (٣: ٢٥٤) - وَ«الغرابة» مُصْطَلَحُهُ فِيمَا لَمْ يَجِدْهُ - ثُمَّ أَشَارَ إِلَى أَنَّ سَائِرَ قِصَّةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ قَدْ تَقَدَّمَتْ فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ ٩٨-١٠١ مِنْ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ.

وذلك أن قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٩٨]: ما أريد به إلا الأصنام، وكذلك قوله عليه السَّلام: «هو لكم ولاهتكم وجميع الأمم»، إنما قُصِدَ به الأصنام، ومُحَالٌّ أَنْ يُقْصَدَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ وَالْمَلَائِكَةُ، إِلَّا أَنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ بِخَبْرِهِ وَخِدَاعِهِ وَحُبِّهِ دُخْلِيتهِ، لَمَّا رَأَى كَلَامَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مُحْتَمِلًا لَفْظَهُ وَجَهَ الْعُمُومِ، مَعَ عِلْمِهِ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ أَصْنَامُهُمْ لَا غَيْرَ، وَجَدَ لِلْحِيلَةِ مَسَاغًا، فَصَرَفَ مَعْنَاهُ إِلَى الشُّمُولِ وَالْإِحَاطَةِ بِكُلِّ مَعْبُودٍ غَيْرِ اللَّهِ، عَلَى طَرِيقَةِ الْمَحْكِ وَالْجِدَالِ وَحُبِّ الْمَغَالِبَةِ وَالْمُكَابَرَةِ، وَتَوَقَّعَ فِي ذَلِكَ، فَتَوَقَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى أَجَابَ عَنْ رَبِّهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ [الأنبياء: ١٠١]، فَدَلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْآيَةَ خَاصَّةٌ فِي الْأَصْنَامِ، عَلَى أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ لغير العقلاء.

وروى محيي السنة في «المعالم»: أن ابن الزُّبَيْرِ قال: «أنت قلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ﴾؟ قال: نعم، قال: أليسَتِ الْيَهُودُ تَعْبُدُ عُزَيْرًا، وَالنَّصَارَى تَعْبُدُ الْمَسِيحَ، وَبَنُو مُلَيْحٍ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ هُمْ يَعْبُدُونَ الشَّيْطَانَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ [الأنبياء: ١٠١]»^(١).

قوله: (بخبته): النهاية: «الحَبُّ - بِالْفَتْحِ - الخِدَاعُ، وَهُوَ الْجُرْبُزُ الَّذِي يَسْعَى بَيْنَ النَّاسِ بِالْفَسَادِ، وَأَمَّا الْمَصْدَرُ فَبِالْكَسْرِ لَا غَيْرَ».

قوله: (وخبث دخلته): الجوهري: «دَاخِلَةُ الرَّجُلِ: بَاطِنُ أَمْرِهِ، وَكَذَلِكَ الدُّخْلَةُ بِالضَّمِّ»، الْأَسَاسُ: «إِنَّهُ لَخَبِيثُ الدُّخْلَةِ، وَعَفِيفُ الدُّخْلَةِ، وَهِيَ بَاطِنُ أَمْرِهِ».

قوله: (على طريقة المحك): الْأَسَاسُ: «رَجُلٌ مَحْكٌ: لَسْجُوجٌ عَسِيرٌ، وَمَا حَكَّ وَمَحْكَانٌ، وَقَدْ مَحَكَّ مَحْكًا، وَمَا حَكَّ صَاحِبَهُ».

(١) «معالم التنزيل» للبغي (٣: ٣٥٦-٣٥٧).

وقيل: لَمَّا سَمِعُوا قَوْلَهُ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩]، قالوا: نحنُ أهْدَىٰ مِنَ النَّصَارَىٰ؛ لأنهم عبدوا آدميًّا، ونحنُ نعبُدُ الملائكة، فنزلت. وقوله: ﴿إِنَّ إِلَهَنَا خَيْرٌ أَمْرُهُ﴾ على هذا القول: تفضيلٌ لأهتيم على عيسى، لأن المراد بهم الملائكة، و﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾: معناه: وما قالوا هذا القول - يعني: ﴿إِنَّ إِلَهَنَا خَيْرٌ أَمْرُهُ﴾ - إلا للجدال.

قوله: (وقيل: لَمَّا سَمِعُوا قَوْلَهُ): ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ﴾: معطوفٌ على قوله: «لَمَّا قرأ رسولُ الله ﷺ على قُرَيْشٍ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]»، في تفسير قوله: ﴿وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ الآية.

يعني: يجوزُ أن يُرادَ بضاربِ ابنِ مريمَ مثلاً: عبدُ الله بنُ الزبَعْرَى، كما في الوجهِ الأول، بدليلِ قوله: «وَلَمَّا ضَرَبَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ الزبَعْرَى عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ مَثَلًا»، وأن يُرادَ اللهُ سبحانه وتعالى، كما في هذا الوجهِ، والمثَلُ - على قولِ ابنِ الزبَعْرَى - قوله: فلو كان هؤلاء في النار، فقد رَضِينَا أن نكونَ نحنُ وأهْلُنَا معهم، وإنما سُمِّيَ مَثَلًا لِمَا فِيهِ مِنَ الْغَرَابَةِ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، ولذلك فرحَ به المُشْرِكُونَ، وَضَحِكُوا، وَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ، وعلى هذا قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وفي قولِ المصنِّف: «هو - على هذا القول - تفضيلٌ لأهتيم على عيسى؛ لأن المراد بهم الملائكة»: إذماجٌ لذهبه في غايةِ مِنَ الدَّقَّةِ في القولِ بتفضيلِ المَلِكِ على الأنبياء، وذلك لِزَعْمِهِ أَنَّهُ نَبَتْ بقوله: ﴿خَلَقْتَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]: أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مخلوقٌ مِنْ تُرَابٍ، وَاتَّفَقْنَا عَلَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ رُوحَانِيُونَ، فَلَا شَكَّ بِتُفْضِيلِهِمْ، وَجَوَابُ الْفَرِيقَيْنِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ الآية، يعني: ليسَ التفضيلُ بالقياس، بل باصطِفائنا واختيارنا لمن نشاء، فَإِنَّ عِيسَى إِنَّمَا كَانَ نَبِيًّا مُخْتَارًا لِأَنَّا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ بِالْكَرَامَةِ وَالنَّبُوَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ إِنَّمَا كَانُوا مُقَرَّبِينَ بِاخْتِيَارِنَا وَمَشِيئَتِنَا سَبِّحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلَوْ نَشَاءُ لَجَلَعْنَا^(١) مِنْكُمْ - وَأَنْتُمْ سَرُّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ -

(١) من قوله: «مختاراً لأننا أنعمنا» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

وَقُرِي: ﴿ءَأَلْهَتُنَا خَيْرٌ﴾ بإثبات همزة الاستفهام وبإسقاطها؛ لدلالة «أم» العديلة عليها، وفي حَرْفِ ابن مسعود: «خيرٌ أم هذا»، ويجوزُ أن يكونَ ﴿جَدَلًا﴾ حالاً، أي: جَدَلِينَ.

وقيل: لَمَّا نزلت: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٩]، قالوا: ما يُريدُ مُحَمَّدٌ بهذا إلا أن نَعْبُدَه، وأنه يَسْتَأْهِلُ أن يُعْبَدَ، وإن كَانَ بَشَرًا، كما عَبَدَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحَ وهو بَشَرٌ. ومعنى: ﴿يَصِدُّونَ﴾ يَصْجُونَ وَيَصْجِرُونَ، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿أَمْرُهُ﴾ لِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَغَرَضُهُم بِالْمُؤَاذَنَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ آلِهَتِهِمْ: السُّخْرِيَّةُ بِهِ وَالاسْتِهْزَاءُ.

ويجوزُ أن يقولوا - لَمَّا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُم: الملائكةُ بناتُ الله، وَعَبَدُوهُم -: ما قُلْنَا بِدَعَا مِنَ الْقَوْلِ، وَلَا فَعَلْنَا نَكْرًا مِنَ الْفِعْلِ، فَإِنَّ النَّصَارَى جَعَلُوا الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ،

أيضاً ملائكة، وهذا من باب رَدِّ القياس بالنص، كقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الزِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥].

قوله: (وَقُرِي: ﴿ءَأَلْهَتُنَا خَيْرٌ﴾ بإثبات همزة الاستفهام): بالإثبات: السبعة، وبإسقاطها: شاذة.

قوله: (ويجوزُ أن يقولوا لَمَّا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُم: الملائكةُ بناتُ الله، وَعَبَدُوهُم): قوله: «وعبدوهم» حالٌ مِنَ الضميرِ المُضَافِ إليه في «قولهم»، ومقولُ «يقولوا»^(١): «ما قُلْنَا بِدَعَا»، وعلى هذا فاعلُ ﴿ضَرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾: ابنُ الزَّبْعَرِيِّ، كما في الوجهِ الأولِ.

والحاملُ على ضَرْبِ المثلِ الرَّدُّ على الكُفْرَاتِ الثلاثِ في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥] الآيات، وهو قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ [الزخرف: ١٦]، وقوله: ﴿أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقوله: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الزخرف: ٢٠]، والآياتُ المُتَخَلِّلَةُ فِي الْبَيِّنِ^(٢) مُتَّصِلَاتٌ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ بِالْأَفَانِينِ الْمُتَنَوِّعَةِ.

(١) في (ح): «ومقول لهم بقوله»، وفي (ف): «ومقول بقوله»، والمثبت من (ط).

(٢) أي: الآيات الواردة بين الآيات التي دُرِّجَتْ فِيهَا الكُفْرَاتُ الثلاثِ، وهذه الآية ﴿وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾.

وهذا الوجهُ وارِدٌ على القياسِ المبنيِّ على أصلِ فاسِدٍ، وذلك أنَّ النَّصارى ما عَبَدُوا عيسى عليه السَّلامُ عن عِلْمٍ ودليلٍ، بل عَبَدُوهُ لآنه وُجِدَ مِنْ غيرِ أبٍ، ولو نشاءُ أَيُّهَا الكَفَرَةُ وَلَدْنَا مِنْكُمْ، كما وُلِدَ عيسى مِنْ غيرِ أبٍ، ولو نشاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ ملائكةَ، يعني: أنَّ حَالِ عيسى وإنَّ كانتِ عَجيبَةً، فاللهُ تعالى قادرٌ على ما هو أعجَبُ مِنْ ذلك، وأنَّ الملائكةَ مِنْكُمْ، مِنْ حيثُ إنَّها مخلوقةٌ، فيَحْتَمَلُ أنْ يُخْلَقُوا توليداً، كما جاز خَلَقُهَا إبداعاً، فَمِنْ أَيْنَ لَهُمْ اسْتِحْقَاقُ الألوهِيةِ، والانتسابِ إلى الله تعالى!؟

وإنما فَسَّرَ ﴿لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ بقوله: «لَوْلَدْنَا»؛ لِقُوعِهِ مُقَابِلًا لقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، ومعناه: وَخَلَقْنَاهُ مِنْ غيرِ سَبَبٍ، وَصَيَّرْنَاهُ عَجيبَةً كالمَثَلِ السَّائِرِ.

فإن قلت: ذَكَرَ في «المعالم»: «أنَّ المعنى: لو نشاءُ لأهْلَكْنَاكُمْ، وَجَعَلْنَا بِدَلِّكُمْ ملائكةَ خَلْفاً مِنْكُمْ، يَعْمُرُونَ الأَرْضَ وَيَعْبُدُونَنِي، وقيل: يَخْلُقُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً»^(١)، وقال أبو البقاء: «لَحَوَّلْنَا بَعْضَكُمْ ملائكةَ»^(٢)، فَلِمَ عَدَلَ المُصَنِّفُ عن البَدَلِيَّةِ إلى ما ذَكَرَ؟ قلت: لأنَّ المُقَامَ له أَدْعَى، وأنَّ التَّبْدِيلَ^(٣) دَلَّ على التَّوَعُّدِ بالهَلَاكِ والاستِئْصالِ، وهو لا يَدْخُلُ في المعنى، إذ المعنى: إنَّ هو إلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ، وَجَعَلْنَاهُ عِبْرَةً عَجيبَةً، ولو شِئْنَا لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ أيضاً عِبْرَةً عَجيبَةً، دَلالةً على قُدْرَتِنَا على عَجَائِبِ الأُمُورِ، وَبِدَائِعِ الفِطْرِ، والله أعلم.

فإن قلت: قد عَلِمَ في الوَجْهَيْنِ الآخِرَيْنِ تَنْزِيلُ^(٤) الجوابِ، وهو قوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ الآية، على قولهم: ﴿إِنَّ إِلَهَهُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾، فَمَا وَجْهُ التَّنْزِيلِ على الوَجْهِ الأَوَّلِ، وهو أنْ يَكُونَ الحَامِلُ على هَذَا القَوْلِ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]؟

(١) «معالم التنزيل» للبيهقي (٧: ٢١٩).

(٢) «التيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٤١).

(٣) في (ح): «التذيل»، وفي (ف): «التدليل» أو «التدليل»، والمثبت من (ط).

(٤) في (ف): «تبدليل»، وفي (ح) كذلك إلا أنها لم تُنْقَطْ، والمثبت من (ط).

وَعَبْدُوهُ، وَنَحْنُ أَشْفُ مِنْهُمْ قَوْلًا وَفِعْلًا، فَإِنَّا نَسْبُنَا إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةَ، وَهَمَّ نَسْبُوا إِلَيْهِ الْإِنْسِي، فَقِيلَ لَهُمْ: مَذْهَبُ النَّصَارَى شِرْكٌ بِاللَّهِ، وَمَذْهَبُكُمْ شِرْكٌ مِثْلُهُ، وَمَا تَتَّصِلُكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِمَا أوردْتُمُوهُ إِلَّا قِيَاسُ بَاطِلٍ بِبَاطِلٍ، وَمَا عَيْسَى ﴿إِلَّا عَبْدٌ﴾ كَسَائِرِ الْعَبِيدِ، ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ حيثُ جَعَلْنَاهُ آيَةً؛ بِأَنْ خَلَقْنَاهُ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، كَمَا خَلَقْنَا آدَمَ، وَشَرَفْنَاهُ بِالنَّبُوَّةِ، وَصَيَّرْنَاهُ عِبْرَةً عَجِيبَةً كَالْمَثَلِ السَّائِرِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ.

قلت: وَجْهُهُ وَجْهٌ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي تِلْكَ السُّورَةِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وَإِلَيْهِ أَشَارَ الْمُصَنِّفُ بِقَوْلِهِ: «فَإِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ فِي النَّارِ، فَقَدْ رَضِينَا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ وَأَهْلَتُنَا مَعَهُمْ، فَفَرِحُوا وَضَحَّكُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ﴾، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ».

وَتَقْرِيرُهُ: أَنَّ جَدَلَكُمْ هَذَا بَاطِلٌ، لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا دَخَلَ فِي هَذَا النَّصِّ الصَّرِيحِ، لِأَنَّ الْكَلَامَ مَعَكُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ، وَأَنْتُمْ الْمُخَاطَبُونَ بِهِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِ«مَا تَعْبُدُونَ»: الْأَصْنَامَ الَّتِي تَنْجِتُونَهَا بِأَيْدِيكُمْ، وَأَمَا عَيْسَى مَا هُوَ إِلَّا عَبْدٌ مُكْرَمٌ مُنْعَمٌ عَلَيْهِ بِالنَّبُوَّةِ مَرْفُوعُ الْمَنْزِلَةِ وَالذِّكْرِ، مَشْهُورٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ كَالْمَثَلِ السَّائِرِ، فَمِنْ أَيْنَ يَدْخُلُ فِي قَوْلِنَا: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؟ ثُمَّ لَا اعْتِرَاضَ عَلَيْنَا أَنْ نَجْعَلَ قَوْمًا أَهْلًا لِلنَّارِ، وَأَخْرِينَ أَهْلًا لِلْجَنَّةِ، إِذْ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ وَمِنْ أَنْفُسِكُمْ - أَيُّهَا الْكُفْرَةُ - مَلَائِكَةَ، أَيُّ: عَبِيدٌ مُكْرَمُونَ مُهْتَدُونَ إِلَى الْجَنَّةِ صَابِرُونَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [السجدة: ١٣]، وَكَمَا لَوْحٌ فِي تِلْكَ الْآيَةِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَوْلُهُ: (أَشْفُ مِنْهُمْ قَوْلًا): الْجَوْهَرِيُّ: «الشَّفُّ - بِالْكَسْرِ -: الْفَضْلُ وَالرِّبْحُ، تَقُولُ مِنْهُ: شَفٌّ يَشْفُ شَفًّا».

قَوْلُهُ: (وَمَا تَتَّصِلُكُمْ): وَ«التَّصُّلُ»: الْخُرُوجُ مِنَ الذَّنْبِ بِالْإِعْتِدَارِ.

[وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٦٠﴾]

﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ لقدرتنا على عجائب الأمور وبدائع الفطر، ﴿لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ لولّدنا منكم يا رجال ﴿مَلَائِكَةً﴾ يَخْلُقُونَكُمْ في الأرض، كما يَخْلُقُكُمْ أولادكم، كما ولّدنا عيسى من أنثى من غير فحل، لتعرفوا تميّزنا بالقُدرة الباهرة، ولتعلموا أنّ الملائكة أجسام لا تتولّد إلا من أجسام، وذات القديم مُتعالية عن ذلك.

[وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ السَّاعَةَ فَلَا تَمْتَرُ بِهَا وَأَتَّبِعُونَ هَذَا صِرْطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾]

﴿وَإِنَّهُ﴾ وإنّ عيسى عليه السّلام ﴿لَعَلَّمَ السَّاعَةَ﴾ أي: شرّط من أشراطها تعلّم به، فسَمِيَ الشَّرْطَ عِلْمًا لِحْصُولِ الْعِلْمِ بِهِ. وقرأ ابن عباس: «لَعَلَّمَ»، وهو العلامة، وقُرئ: «لَلْعَلَّمَ»، وقرأ أبي: «لِذِكْرٍ»؛ على تسمية ما يُذكرُ به: ذِكْرًا، كما سَمِيَ ما يُعَلَّمُ به: عِلْمًا. وفي الحديث: «أنّ عيسى عليه الصّلاة والسّلام ينزل على.....»

قوله: (فَسَمِيَ الشَّرْطَ عِلْمًا لِحْصُولِ الْعِلْمِ بِهِ): النهاية: «أشراط الساعة: علاماتها، واحدها: شَرَطٌ - بالتحريك -، ومنه سُمِّيَتْ شُرْطُ السُّلْطَانِ، لأنهم جَعَلُوا لَأَنْفُسِهِمْ عِلْمَاتٍ يُعْرَفُونَ بِهَا، قاله أبو عبيدة، وحكى الخطابي عن بعضهم: أنه أنكر هذا التفسير، وقال: أشراط الساعة: ما يُنْكِرُهُ النَّاسُ مِنْ صِغَارِ أُمُورِهَا قَبْلَ أَنْ تَقُومَ، وشُرْطُ السُّلْطَانِ: نُخْبَةٌ أَصْحَابُهُ الَّذِينَ يُقَدِّمُهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنْ جُنْدِهِ».

قوله: (على تسمية ما يُذكرُ به): المطلع: قال: الذّكر، لأنه تُذَكَّرُ به الساعة.

قوله: (أنّ عيسى ينزل) الحديث: من رواية البخاريّ ومُسلمٍ والترمذيّ وأبي داود وابن ماجه^(١) عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَيَنْزِلَنَّ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فليَكْسِرَنَّ الصَّليبَ، وليَقْتَلَنَّ الْخَنزِيرَ، وليَصْعَنَنَّ الْجِزْيَةَ، ولتُشْرَكَنَّ الْقِلاصَ، فلا يُسْعَى عليها، ولتَذْهَبَنَّ الشَّخْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاوُسُ، وليُدْعَوْنَّ إِلَى الْمَالِ فلا يقبله أحد».

(١) البخاري (٢٢٢٢) و(٢٤٧٦) و(٣٤٨٨)، ومُسلم (١٥٥) و(٢٤٢) و(٢٤٣)، والترمذي (٢٢٣٣)، وأبو داود (٤٣٢٤)، وابن ماجه (٤٠٧٨).

ثَنِيَّةٍ بِالْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، يُقَالُ لَهَا: أَفِيقٌ، وَعَلَيْهِ مُمَصَّرَتَانِ، وَشَعْرُ رَأْسِهِ ذَهَبِيْنٌ، وَبِيَدِهِ حَرْبَةٌ، وَبِهَا يَقْتُلُ الدَّجَالَ، فَيَأْتِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَالنَّاسُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ، وَالْإِمَامُ يُؤْمُّ بِهِمْ، فَيَتَأَخَّرُ الْإِمَامُ، فَيُقَدِّمُهُ عَيْسَى، وَيُصَلِّي خَلْفَهُ عَلَى شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ يَقْتُلُ الْخَنَازِيرَ، وَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيُخَرِّبُ الْبَيْعَ وَالْكَنَائِسَ، وَيَقْتُلُ النَّصَارَى إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ».

وعن الحسن: أن الضمير للقرآن، وأن القرآن به تُعلم الساعة، لأن فيه الإعلان بها.

﴿فَلَا تَمْتَرْتُمْ بِهَا﴾ مِنَ الْمِزْيَةِ، وَهِيَ الشَّكُّ، ﴿وَأَتَّبِعُونَ﴾ وَاتَّبِعُوا هُدَايَ وَشَرْعِي،

أورسولي.....

وفي رواية: «فإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجلٌ مربوعٌ إلى الحمرة والبياض، ينزل بين ممصرتين، كأن رأسه يقطر، وإن لم يصبه بلل، فليقاتل الناس على الإسلام»، وفيه: «ويهلك المسيح الدجال»^(١).

وفي رواية أخرى قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم، وإمامكم منكم»^(٢)، وفي رواية: «فأممكم منكم»، قال ابن أبي ذئب: تدري ما «أممكم منكم»؟ قال: تُخْبِرُنِي، قال: «فأممكم بكتاب الله عز وجل وسنة نبيكم ﷺ»^(٣).

قوله: (ممصرتان)^(٤): أي: حلتان ممصرتان من مضر، والمغرة: الطين الأحمر^(٥). النهاية: «الممصرة من الثياب: التي فيها صفرة خفيفة».

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» (٤٣٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٩)، ومسلم (١٥٥) (٢٤٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٥٥) (٢٤٦).

(٤) في الأصول الخطية: «الممصرتان»، وحذفت «ال» موافقة لِمَا فِي «الكشاف».

(٥) والمصّر أيضاً: هو الطين الأحمر. «لسان العرب» لابن منظور، مادة (مضر).

وقيل: هذا أمرٌ لرسول الله أن يقوله. ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: هذا الذي أدعوكم إليه، أو هذا القرآن، إن جعلَ الضميرُ في ﴿وَإِنَّهُ﴾ للقرآن.

[﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ٦٢]

﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ قد أبانت عداوته لكم، إذ أخرجَ أباكم مِنَ الْجَنَّةِ، ونزَعَ عنه لِيَاسَ النُّورِ. [﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ آيَةِ الْكُرْسِيِّ﴾ ٦٣-٦٥]

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات، أو بآياتِ الإنجيل والشرائع البيِّنات الواضحات، ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ يعني: الإنجيلَ والشرائع. فإن قلت: هَلَا بَيَّنَّ لَهُمْ كُلَّ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، وَلَكِنْ بَعْضُهُ؟ قلت: كانوا يَخْتَلِفُونَ فِي الدِّيَانَاتِ، وما يَتَعَلَّقُ بِالتَّكْلِيفِ، وفيما سِوَى ذَلِكَ مما لَمْ يَتَعَبَّدُوا بِمَعْرِفَتِهِ والسُّؤَالِ عَنْهُ،

قوله: (وقيل: هذا أمرٌ لرسول الله ﷺ): عَطَفَ عَلَى قَوْلِهِ: «وَاتَّبِعُوا هُدَايَ»، فالضميرُ المنصوبُ عَلَى الْأَوَّلِ: اللهُ تَعَالَى؛ عَلَى تَقْدِيرِ حَذْفِ الْمُضَافِ، ولهذا قال: «هُدَايَ وَشَرْعِي أَوْ رَسُولِي».

قوله: (أو هذا القرآن، إن جعلَ الضميرَ في «إِنَّهُ» للقرآن)، المعنى: أَنَّ الْقُرْآنَ فِيهِ الْإِعْلَامُ بِالسَّاعَةِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَا تَمْتَرَنَّ بِهَا، لِأَنَّ إِعْلَامَهُ صِدْقٌ، وَاتَّبِعُونِي أَيْضاً لِأَنْجِحِكُمْ مِنْ أَمْوَالِهَا، لِأَنِّي مُتَّبِعٌ لِهَذَا الصَّادِقِ الْمُصَدِّقِ الْهَادِي إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ، فَتُكْرَرُ لِيَدُلَّ عَلَى اسْتِقَامَةِ لَا يَكْتَنُّهَا كُنْهًا.

قوله: (كانوا يَخْتَلِفُونَ فِي الدِّيَانَاتِ، وما يَتَعَلَّقُ بِالتَّكْلِيفِ، وفيما سِوَى ذَلِكَ): قال القاضي: ﴿بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ هو ما يَكُونُ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ، لا ما يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ تُبْعَثْ لِيَابِنِهِ، وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ: (أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ) (١) «(٢)».

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ١٥١).

وإنها بُعِثَ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِمَّا يَعْنِيهِمْ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ.

﴿الْأَحْزَابُ﴾ الْفِرْقُ الْمُتَحَرِّبَةُ بَعْدَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقِيلَ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وَعَيْدٌ لِلْأَحْزَابِ. فَإِنْ قُلْتَ: ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾: إِلَى مَنْ يَرْجِعُ الضَّمِيرُ فِيهِ؟ قُلْتَ: إِلَى الَّذِينَ خَاطَبَهُمْ عَيْسَى فِي قَوْلِهِ: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾، وَهُمْ قَوْمُهُ الْمَبْعُوثُ إِلَيْهِمْ.

[﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ * الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بِعَضُهُمْ لِبَعْضِ عَدُوٍّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ * يَبْعَادُ لَا حَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ * الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ * ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ * وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ٦٦-٧٣]

﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿السَّاعَةَ﴾، وَالْمَعْنَى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا إِيَّانَ السَّاعَةِ. فَإِنْ قُلْتَ: أَمَا أَدَى قَوْلُهُ: ﴿بَغْتَةً﴾ مُؤَدَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فَيَسْتَعْنِي عَنْهُ؟ قُلْتَ: لَا، لِأَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: وَهُمْ غَافِلُونَ لِاسْتِغْلَافِهِمْ بِأُمُورِ دُنْيَاهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩]، وَيَجُوزُ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ فَطِنُونَ.

قَوْلُهُ: (الْفِرْقُ الْمُتَحَرِّبَةُ بَعْدَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ): الْمَلَكَانِيَّةُ وَالْيَعْقُوبِيَّةُ وَالنُّسْطُورِيَّةُ (١).

قَوْلُهُ: (مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: وَهُمْ غَافِلُونَ): يَعْنِي: جِيءَ الشَّيْءُ فِجَاءً: رَبِّهَا يَكُونُ مَعَ الشُّعُورِ بِهِ، وَرَبِّهَا جِيءَ وَالشَّخْصُ غَافِلٌ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾: الْإِثْبَاتُ، لِأَنَّ الْكَلَامَ وَارِدًا عَلَى الْإِنْكَارِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: هَلْ تَزْعُمُونَ أَنَّهَا تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، أَيْ: لَا يَكُونُ ذَلِكَ، بَلْ تَأْتِيَهُمْ وَهُمْ فَطِنُونَ.

(١) هِيَ أَكْبَرُ فِرْقِ النَّصَارَى، وَمِنْهَا تَنْشَعِبُ سَائِرُ فِرْقِهِمْ، وَانظُرْ تَفْصِيلَ الْكَلَامِ فِيهِمْ فِي «الْمَلَلِ وَالنَّحْلِ»

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ منصوبٌ بـ ﴿عَدُوٌّ﴾، أي: تَنْقَطِعُ في ذلكَ اليومِ كُلَّ خَلَّةٍ بَيْنَ الْمُتَخَالِفِينَ في غيرِ ذاتِ الله، وتَنْقَلِبُ عداوةٌ ومَقْتًا، إلا خَلَّةَ الْمُتَصَادِقِينَ في الله، فإنها الخَلَّةُ الباقيةُ المَزْدَادَةُ قُوَّةً إذا رَأَوْا ثوابَ التَّحَابِّ في الله، والتَّبَاغُضِ في الله. وقيل: ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ إلا الْمُجْتَنِبِينَ أَخْلَاءَ السُّوءِ، وقيل: نزلت في أَبِي بِنِ خَلْفٍ وَعُقْبَةَ بِنِ أَبِي مُعَيْطٍ.

(يا عبادي) حِكَايَةٌ لِمَا يُنَادِي بِهِ الْمُتَّقُونَ الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ يَوْمَئِذٍ.

قوله: (منصوبٌ بـ ﴿عَدُوٌّ﴾): أي: يُعَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا، مِنَ الْعُدْوَةِ مِنَ الْجَانِينِ.

قوله: (وقيل: ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾: إلا الْمُجْتَنِبِينَ أَخْلَاءَ السُّوءِ): فالتعريفُ في ﴿الْأَخْلَاءِ﴾ على هذا: للجنس، والاستثناءُ مُتَّصِلٌ، وعلى الأول: المرادُ بِالْأَخْلَاءِ: الْمُتَخَالِفِينَ في غيرِ ذاتِ الله، لقوله: «كُلُّ خَلَّةٍ بَيْنَ الْمُتَخَالِفِينَ في غيرِ ذاتِ الله»، والاستثناءُ مُنْقَطِعٌ، ولذلك قال: «إلا خَلَّةَ الْمُتَصَادِقِينَ في الله، فإنها الخَلَّةُ الباقيةُ».

وفي «الحقائق» عن ابنِ عطاء: كُلُّ وُضْلَةٍ وَأُخْوَةٍ مُنْقَطِعَةٌ إلا ما كانَ في الله والله، فإنه كُلُّ وقتٍ في زيادة، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، أي: في انقطاعِ وُبُغْضَةٍ، ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾^(١) فإنهم في راحةٍ آخرتهم يرونَ فَضْلَ الله وثوابه.

قوله: (يا عبادي): حِكَايَةٌ لِمَا يُنَادِي بِهِ الْمُتَّقُونَ الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ يَوْمَئِذٍ، يُوافِقُهُ ما روى أبو داود^(٢) عن عَمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لِأَنْاسٍ مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءٍ وَلَا شُهَدَاءَ، يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ. قالوا: يا رسولَ اللهِ، تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ؟ قال: هُمْ قومٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ على غيرِ أرحامِ بينهم، ولا أموالٍ يَتَعَاطَوْنَها، فوالله إنَّ وُجُوهُهُم كُنُورٌ، وإنهم لعلَى نورٍ، لا يخافونَ إذا خافَ الناسُ، ولا يَحْزَنُونَ إذا حَزَنَ الناسُ، وقرأ: ﴿الْأَنْبِيَاءُ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].»

(١) في الأصول الخطية: «إلا المتقون»، وأثبت لفظ الآية الكريمة.

(٢) في «سننه» برقم (٣٥٢٧).

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ منصوبٌ المحلِّ صِفَةً لـ«عباد»، لأنه مُنادى مُضَافٌ، أي: الذين صَدَقُوا ﴿بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ مُخْلِصِينَ وَجُوهَهُمْ لَنَا، جَاعِلِينَ أَنْفُسَهُمْ سَالِمَةً لَطَاعَتِنَا. وقيل: إِذَا بَعَثَ اللَّهُ النَّاسَ فَرَعَ كُلُّ أَحَدٍ، فَيُنَادِي مُنَادًا: يَا عِبَادِي، فَيَرْجُوها النَّاسُ كُلَّهُمْ، ثُمَّ يُتَّبِعُها: الَّذِينَ آمَنُوا، فَيَأْسُ النَّاسُ مِنْها غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ. وَقُرِئَ ﴿بِعِبَادٍ﴾.

﴿تُحَبَّرُونَ﴾ تُسَرُّونَ سُرورًا يَظْهَرُ حَبَارُهُ - أي: أثره - عَلَيَّ وَجُوهَكُمْ، كقولهِ تَعَالَى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]، وقال الرَّجَّاحُ: تُكْرَمُونَ إِكْرَامًا يُبَالِغُ فِيهِ، وَالْحَبْرَةُ: الْمُبَالِغَةُ فِيهَا وَصِفَ بِجَمِيلٍ.

والكُوبُ: الكُورُ لَا عُرْوَةَ لَهُ، ﴿وَفِيهَا﴾: الضَّمِيرُ لِلجَنَّةِ، وَقُرِئَ: «تَشْتَهِي» وَ﴿تَشْتَهِيهِ﴾، وَهَذَا حَضَرٌ لِأَنْوَاعِ النَّعْمِ، لِأَنَّها إِما مُشْتَهَاةٌ فِي القُلُوبِ، وَإِما مُسْتَلَذَّةٌ فِي العُيُونِ.

قوله: (إِذَا بَعَثَ اللَّهُ النَّاسَ) إِلَى قَوْلِهِ: (ثُمَّ يُتَّبِعُها: الَّذِينَ آمَنُوا): يُرِيدُ: أَنْ قَوْلَهُ: «يَا عِبَادِي» عَامٌّ إِنْ يُخَصَّصُ بِالآيَةِ السَّابِقَةِ فَالْمُرَادُ الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ، أَوْ بِاللَّاحِقَةِ فَالْمُرَادُ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ، عَلَى إِرَادَةِ الْمَدْحِ أَوْ الْاِخْتِصَاصِ، أَي: اذْكُرْ مَنْ لَا يَخْفَى شَأْنُهُمْ، وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَسْلَمُوا.

قوله: (فَيَرْجُوها): قيل: أي: الإِضَافَةُ^(١).

قوله: (وَقُرِئَ: ﴿بِعِبَادٍ﴾): حَفْصٌ وَحَمزةٌ وَالْكَسَائِيُّ^(٢).

قوله: (وَهَذَا حَضَرٌ لِأَنْوَاعِ النَّعْمِ): قال الواحدي: «يُقَالُ: لَدَذْتُ الشَّيْءَ أَلَذَّةً، مِثْلُ: اسْتَلَذَذْتُهُ، وَالْمَعْنَى: مَا مِنْ شَيْءٍ تَشْتَهِيهِ نَفْسٌ، أَوْ تَسْتَلِدُّ بِهِ عَيْنٌ، إِلَّا وَهُوَ فِي الجَنَّةِ، وَقَدْ

(١) الظاهر أنه يُرِيدُ أَنَّهُمْ يَرْجُونَ دُخُولَهُمْ فِي مُسَمًّى «العِبَادِ» المُضَافِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: «يَا عِبَادِي».

(٢) وَأَثَبَتِ الْباقُونَ الْبَاءَ، إِلَّا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ سَكَّنَهَا فِي الْوَقْفِ، وَفَتَحَهَا فِي الْوَصْلِ، بَيْنَمَا سَكَّنَهَا فِي الْحَالِينَ: نَافِعٌ وَأَبُو عَمْرٍو وَابْنُ عَمَرَ، كَمَا فِي: «التيسير» لِلدَّانِي ص ١٩٧، وَ«حجة القراءات» ص ٦٥٣-٦٥٤، وَالَّذِي يُفْهَمُ مِنْ كَلَامِها أَنَّ قِراءَةَ ابْنِ كَثِيرٍ بِحَذْفِ الْبَاءِ أَيْضًا.

عَبَّرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذَيْنِ اللَّفْظَيْنِ عَنِ جَمِيعِ نَعَمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ نِعْمَةٍ إِلَّا وَهِيَ تُصِيبُ النَّفْسَ أَوْ الْعَيْنَ»^(١).

وقد أجادَ صاحبُ «التيسير» حيثُ قال: قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾: دَلٌّ عَلَى الْأَطْعِمَةِ، وقوله: ﴿وَأَكْرَابٍ﴾: عَلَى الْأَشْرَبَةِ، وقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾: عَلَى أَنَّ فِي الْجَنَّةِ وَرَاءَهُمَا مِنْ أَصْنَافِ النَّعْمِ شَيْئًا آخَرَ.

وقلت: وعلى هذا: لا يبعدُ أن يُحْمَلَ قوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ﴾ عَلَى الْمَنَكِحِ وَالْمَلْبَسِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِمَا؛ لِتَكَامُلِ جَمِيعِ الْمُشْتَهَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ، فَبَقِيَتِ اللَّذَّةُ الْكُبْرَى، وَهِيَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ، فَيُكْنَى عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾، وَهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حُبُّ الْإِلَى الطَّيِّبِ وَالنِّسَاءِ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»، رَوَاهُ النَّسَائِيُّ^(٢) عَنْ أَنَسٍ. وَقَالَ قَيْسُ بْنُ الْمُلَوَّحِ:

وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِقَتْلِهَا مِنْ حُبِّهَا كَيْ مَا تَكُونَ خَصِيمَتِي فِي الْمَحْشَرِ
حَتَّى يَطُورَ عَلَى الصَّرَاطِ وَقُوفُنَا وَتَلَذُّ عَيْنِي مِنَ لَذِيذِ الْمَنْظَرِ

ثم وافقَ هذا التَّأْوِيلَ كَلَامُ جَعْفَرِ الصَّادِقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سَتَانِ بَيْنَ مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ، وَبَيْنَ مَا تَلَذُّ الْأَعْيُنُ»، لِأَنَّ جَمِيعَ مَا فِي الْجَنَّةِ مِنَ النَّعِيمِ وَالشَّهَوَاتِ فِي جَنبِ مَا تَلَذُّ الْأَعْيُنُ: كَأَصْبَعٍ يُعَمَّسُ فِي الْبَحْرِ، لِأَنَّ شَهَوَاتِ الْجَنَّةِ لَهَا حَدٌّ وَنَهَايَةٌ، لِأَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ، وَلَا تَلَذُّ الْأَعْيُنُ فِي الدَّارِ الْبَاقِيَةِ، إِلَّا بِالنَّظَرِ إِلَى الْبَاقِيِ جَلَّ وَعَزَّ، وَلَا حَدٌّ لِدَلِّكَ وَلَا صِفَةٌ وَلَا نَهَايَةٌ فِي الْحَقَائِقِ.

وقال القاضي في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ما معناه: «أَنَّ كُلَّ نَعِيمٍ زَائِلٍ مُوجِبٌ لِكُلْفَةِ الْحِفْظِ لِخَوْفِ الزَّوَالِ، وَمُسْتَعَقِبٌ لِلتَّحْشُرِ فِي ثَانِي الْحَالِ، وَقَدْ أَمِنَ ذَلِكَ نَعِيمُ الْجَنَّةِ»^(٣).

(١) «الوسيط» للواحد (٤: ٨١).

(٢) في «سننه» برقم (٣٩٣٩) و(٣٩٤٠).

(٣) «أنوار التنزيل» لليضاوي (٥: ١٥٣).

﴿ وَتِلْكَ ﴾ إشارة إلى الجنة المذكورة، وهي مُبتدأ، و﴿ الْجَنَّةُ ﴾ خبر، و﴿ الَّتِي أَوْرِثْتُمُوهَا ﴾ صفة الجنة، أو: ﴿ الْجَنَّةُ ﴾ صفة للمبتدأ الذي هو اسم الإشارة، و﴿ الَّتِي أَوْرِثْتُمُوهَا ﴾ خبر المبتدأ، أو: ﴿ الَّتِي أَوْرِثْتُمُوهَا ﴾ صفة، و﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ الخبر، والباء تتعلّق بمحذوف، كما في الظُروف التي تقع أخباراً، وفي الوجه الأول تتعلّق بـ ﴿ أَوْرِثْتُمُوهَا ﴾، وشبّهت في بقائها على أهلها بالميراث الباقي على الورثة. وقرئ: «وَرِثْتُمُوهَا».

﴿ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾: «من» للتبعض، أي: لا تأكلون إلا بعضها، وأعقابها باقية في شجرها، فهي مُزينة بالثمار أبداً موقرة بها،

وقلت: دُقْ مَعَ طَبْعِكَ الْمُسْتَقِيمِ معنَى الْخِطَابِ وَاللِّتْفَاتِ وَتَقْدِيمِ الظَّرْفِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَأَنْتُمْ خَلِدُونَ ﴾، لِتَقَفَ عَلَى مَا لَا يَكْتَنِبُهُ الْوَصْفُ، قَالَ النَّصْرَابَادِيُّ: إِنْ كَانَ خُلُودُهُمْ لِشَهْوَةِ النُّفُوسِ وَلَذَّةِ الْأَعْيُنِ، فَالْفَنَاءُ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ لِفَنَاءِ الْأَوْصَافِ، وَالْإِتِّصَافِ بِصِفَةِ الْحَقِّ، وَالْمَقَامِ فِيهَا عَلَى سُرُورِ الرِّضَا وَالْمُشَاهَدَةِ، فَأَنْتُمْ إِذَنْ أَنْتُمْ.

قوله: (وَشُبِّهَتْ فِي بَقَائِهَا): يعني: استعيرَ لاستحقاقهم الجنة بسبب أعمالهم «الميراث» على رأيه^(١)، أو لإفضال الله إياها بواسطة أعمالهم: «الميراث»، ويجوز أن يقال: أَوْرِثْتُمُوهَا بِوَسْطَةِ الْأَعْمَالِ^(٢) الَّتِي فَنَيْتَ، فَإِنَّ الْجِزَاءَ كَالْمِيرَاثِ مِنَ الْأَعْمَالِ. قوله: (مُوقِرَةٌ): أَوْقَرَتِ النَّخْلَةَ؛ أَي: كَثُرَ حَمْلُهَا، يُقَالُ: نَخَلَةٌ مُوقِرَةٌ، وَمُوقِرٌ، وَمُوقِرَةٌ، وَحُكْيِي: مُوقِرٌ، وَهُوَ غَيْرُ الْقِيَاسِ^(٣).

(١) أي: على رأي الزمخشري ومذهبه الاعتزالي، يُريدُ بالذي هو على رأيه: «الاستحقاق»، لأن المعتزلة يقولون بأن العبد يستحق الثواب، وإثابته واجبة على الله. أما أهل السنة: فيرون الإثابة بمحض الفضل من الله تعالى، والعبد لا يستحق على عمله شيئاً، ولذلك قال: «أو لإفضال الله إياها بواسطة أعمالهم»، أي: على رأينا. وعلى الأمرين: فإن «الميراث» مستعارٌ لهذا الإفضال أو ذلك الاستحقاق.

(٢) تحرف في (ح) إلى: «الأفضال».

(٣) هذا كلامُ الجوهري في «الصحاح»، مادة (وقر)، والمؤلفُ رحمه الله تعالى كثيرُ النقلِ عنه تصریحاً، فُستغربُ إغفالُ نسبتِهِ إليه هنا، ولعله من النَّسَاحِ.

لا ترى شجرة عُرْيَانَةٌ مِنْ ثَمَرِهَا، كَمَا فِي الدُّنْيَا. وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا يَنْزِعُ رَجُلٌ فِي الْجَنَّةِ مِنْ ثَمَرِهَا، إِلَّا نَبَتَ مَكَانَهَا مِثْلَهَا».

[إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ * وَنَادَاؤُا بِمَمْلِكِكَ لِيَقْضِيَ عَلَيْكَ قَالَ إِنَّكُمْ تَكْفُرُونَ * لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ] [٧٤-٧٨]

﴿لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ﴾ لَا يُخَفَّفُ وَلَا يُنْقِصُ، مِنْ قَوْلِهِمْ: فَتَرَّتْ عَنْهُ الْحُمَّى: إِذَا سَكَنَتْ عَنْهُ قَلِيلًا وَنَقَصَ حَرُّهَا، وَالْمُبْلِسُ: الْيَائِسُ السَّاكِئُ سُكُوتَ يَأْسٍ مِنْ فَرَجٍ. وَعَنِ الضَّحَّاكِ: يُجْعَلُ الْمَجْرِمُ فِي تَابُوتٍ مِنْ نَارٍ، ثُمَّ يُرَدُّ عَلَيْهِ، فَيَقِي فِيهِ خَالِدًا، لَا يَرَى وَلَا يُرَى.

﴿وَهُمْ﴾ فَضَّلَ عِنْدَ الْبَصْرِيِّينَ، عِمَادٌ عِنْدَ الْكُوفِيِّينَ. وَقُرِي: «وَهُمْ فِيهَا»، أَي: فِي النَّارِ.

وَقَرَأَ عَلِيُّ بْنُ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يَا مَالٍ» بِحَذْفِ الْكَافِ لِلتَّرْخِيمِ،

قوله: (ثم يُرَدُّم): الجوهري: «رَدَمْتُ الثَّلْمَةَ أَرَدْتُهَا - بِالْكَسْرِ - رَدْمًا: إِذَا سَدَدْتَهَا».

قوله: ﴿هُمُ﴾ فَضَّلَ عِنْدَ الْبَصْرِيِّينَ: قَالَ الرَّجَّاجُ: «وَهِيَ عِنْدَ الْبَصْرِيِّينَ تَأْتِي دَلِيلًا عَلَى أَنَّ مَا بَعْدَهَا لَيْسَ بِصِفَةٍ لِمَا قَبْلَهَا، بَلْ هُوَ خَبَرٌ، وَلَا مَوْضِعٌ لَهَا مِنَ الْإِعْرَابِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهَا بِمَنْزِلَةِ «مَا» فِي قَوْلِهِ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]»^(١).

قوله: (وقرأ عليُّ وابنُ مسعودٍ رضي الله عنهما: «يا مالٍ» بِحَذْفِ الْكَافِ لِلتَّرْخِيمِ): رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ^(٢) عَنْ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ عَلَى الْمِنْبَرِ: ﴿وَنَادَاؤُا بِمَمْلِكِكَ لِيَقْضِيَ عَلَيْكَ﴾، قَالَ سُفْيَانُ^(٣): «وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: «وَنَادَاؤُا يَا مَالٍ».

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤: ٤٢٠).

(٢) البخاري (٣٢٣٠) و(٣٢٦٦) و(٤٨١٩)، ومسلم (٨٧١)، والترمذي (٥٠٨)، وأبو داود (٣٩٩٢).

(٣) وهو ابنُ عيينة، وهذه الزيادة أخرجه البخاري (٣٢٣٠).

كقول القائل:

والحقُّ - يا مالٍ - غيرُ ما تصفُ.

وقيل لابن عباس: إن ابن مسعود قرأ: «ونادوا يا مالٍ»، فقال: ما أشغل أهل النار عن الترخيم. وعن بعضهم: حسن الترخيم أنهم يقتطعون بعض الاسم لضعفهم وعظم ما هم فيه. وقرأ أبو السرار الغنوي: «يا مالٍ» بالرفع، كما يقال: يا حارُ. ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ من: قضى عليه: إذا أماته، ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]، والمعنى: سل ربك أن يقضي علينا.

قال ابن جني: «وللترخيم في هذا الموضع سرٌّ، وذلك أنهم - لعظم ما هم عليه - خفيت قواهم، وذلت أنفسهم، وصغر كلامهم، فكان هذا من موضع الاختصار ضرورة»^(١).

وقلت: هذا اعتذار منه لقراءة ابن مسعود حيث ردّها ابن عباس بقوله: «ما أشغل أهل النار عن الترخيم»، فإن «ما» للتعجب، وفيه معنى الصّد، مثاله قولك لمن كان في شدة واشتغل عنها بما لا يلائمه: ما أشغلك عن هذا وصدك ما أنت فيها. وخلاصة اعتذار ابن جني أن هذا الترخيم لم يصدّر عنهم من التكليف، بل عن العجز وضيق المجال^(٢).

قوله: (والحقُّ - يا مالٍ - غيرُ ما تصفُ): أوله:

[خالفت في الرأي كل ذي فجبر]^(٣)

(١) «المحتسب» لابن جني (٢: ٢٥٧).

(٢) من قوله: «وقلت: هذا اعتذار» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

(٣) في الأصول الخطية: «يحيي رفات العظام بالية»! وهو كلام ليس بموزون، فضلاً عن خلل بين فيه، فحذفته، وأثبت الصواب من «ديوان قيس بن الخطيم» ص ١١٥، وهو الموافق لِمَا في «الصحاح» للجوهري، و«لسان العرب» لابن منظور، كلاهما في مادة (فجر)، إلا أن الجوهري ذكره بلفظ: «والبغي يا مالٍ...»، وعُلِّط فيه، كما في «اللسان».

فإن قلت: كيف قال: ﴿وَنَادَا يَمْلِكُ﴾ بعدما وصفهم بالإبلاس؟ قلت: تلك أزمّة متطاولةٌ وأحقابٌ ممتدّة، فتختلفُ بهم الأحوال، فيسكتون أوقاتاً لغلبيّة اليأسِ عليهم، وعلمهم أنه لا فرجَ لهم، ويُعوّثون أوقاتاً لشدّة ما بهم.

﴿مَكْتُوتٌ﴾ لابنون، وفيه استهزاء، والمراد: خالدون. عن ابن عباس: إنما يُجيبهم بعد ألف سنة. وعن النبي ﷺ: «يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب، فيقولون: ادعوا مالِكاً، فيدعون: يا مالِكُ ليَقضِ علينا ربُّك».

﴿لَقَدْ حِجَّتْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ كلامُ الله عزَّ وجلَّ، بدليل قراءة من قرأ: «لقد حجّتكم»، ويجب أن يكون في ﴿قَالَ﴾ ضميرُ الله عزَّ وجلَّ. لمّا سألوا مالِكاً أن يسأل الله تعالى القضاء عليهم، أجابهم الله بذلك. ﴿كَرِهُونَ﴾ لا تقبلونه وتنفرون منه وتشمئزون منه، لأنَّ مع الباطل الدعة، ومع الحقّ التعب.

[﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ * أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ ٧٩-٨٠]

﴿أَمْ﴾ ﴿أَبْرَمَ مُشْرِكُو مَكَّةَ﴾ ﴿أَمْراً﴾ من كَيْدِهِمْ وَمَكْرِهِمْ برسولِ الله ﷺ،

قوله: (ويُعَوِّثُونَ): أي: يقولون: واعوثاه.

قوله: (وفيه استهزاء): أي: في قول مالك: ﴿مَكْتُوتٌ﴾، لأنَّ حَقَّه: «خالدون»، لأنَّ المَكْتُتَ مِنَ الانتظارِ، ولا انتظارَ لهم، يُعلمُ من «الصَّحاح»^(١).

قوله: (﴿أَمْ﴾ ﴿أَبْرَمَ مُشْرِكُو مَكَّةَ﴾ ﴿أَمْراً﴾)، الراغب: «الإبرام: إحكامُ الأمر، وأصله من إبرام الحبل، وهو ترديدُ قتله، والبريم: المُبرَم، أي: المفتولُ قتلاً مُحكماً، والمُبرِم: المُلحَّ؛ تشبيهاً له بمُبرِم الحبل، ومن هذا قيلَ للبخيلِ الذي لا يَدْخُلُ في الميسر: بَرَم، كما يُقالُ للبخيل: مَغْلُولُ اليَدِ»^(٢).

(١) ولفظه: «المكْتُت: اللَّبْتُ والانتظار، وقد مكَّتْ ومكَّتْ، والاسم: المكْتُت والمكْتُت».

(٢) «مفردات القرآن» ص ١٢٠.

﴿إِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ كَيْدَنَا كَمَا أْبْرَمُوا كَيْدَهُمْ، كقوله: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢]؟ وكانوا يَتَنَادَوْنَ فَيَتَنَاجَوْنَ فِي أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فإن قلت: ما المراد بالسُّرِّ والنَّجْوَى؟ قلت: السُّرِّ: ما حَدَّثَ به الرجلُ نفسه أو غيره في مكانٍ خالٍ، والنَّجْوَى: ما تكلَّموا به فيما بينهم. ﴿بَلَى﴾ نَسَمَهُمَا وَنَطَّلَعُ عَلَيْهِمَا، ﴿وَرُسُلَنَا﴾ يُرِيدُ: الحَفِظَةَ عِنْدَهُمْ ﴿يَكْتُمُونَ﴾ ذلك. وعن يحيى بن مُعَاذِ الرَّازِيِّ: مَنْ سَتَرَ مِنَ النَّاسِ ذُنُوبَهُ، وَأَبْدَاهَا لِلَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي السَّمَاوَاتِ، فَقَدْ جَعَلَهُ أَهْوَنَ النَّاطِرِينَ إِلَيْهِ، وَهُوَ مِنْ عِلَامَاتِ النَّفَاقِ.

[﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ * سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨١-٨٢﴾]

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ وَصَحَّ ذَلِكَ وَثَبَتَ بِيُرْهَانٍ صَحِيحٍ تُورِدُونَهُ، وَحُجَّةٍ وَاضِحَةٍ تُدَلُّونَ بِهَا، ﴿فَأَنَا أَوَّلُ﴾ مَنْ يُعْظَمُ ذَلِكَ الْوَلَدُ، وَأَسْبَقُكُمْ إِلَى طَاعَتِهِ وَالانْقِيَادِ لَهُ، كَمَا يُعْظَمُ الرَّجُلُ وَلَدَ الْمَلِكِ لِتَعْظِيمِ أَبِيهِ.

وهذا كلامٌ واردٌ على سبيلِ الفَرَضِ والتمثيلِ لِعَرَضٍ، وَهُوَ الْمُبَالِغَةُ فِي نَفْيِ الْوَلَدِ وَالْإِطْنَابِ فِيهِ، وَأَنْ لَا يَتْرُكَ النَّاطِقُ بِهِ شُبُهَةً إِلَّا مُضْمَحَلَّةً، مَعَ التَّرْجِمَةِ عَنْ نَفْسِهِ بِبَيِّنَاتِ الْقَدَمِ فِي بَابِ التَّوْحِيدِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلَّقَ الْعِبَادَةَ بِكَيْفِيَّةِ الْوَلَدِ، وَهِيَ مُحَالٌ فِي نَفْسِهَا، فَكَانَ الْمُعْلَقُ بِهَا مُحَالًا مِثْلَهَا، فَهُوَ فِي صُورَةِ إِثْبَاتِ الْكَيْفِيَّةِ وَالْعِبَادَةِ، وَفِي مَعْنَى نَفْيِهَا، عَلَى أْبْلَغِ الْوَجُوهِ وَأَقْوَاهَا.

ونظيره: أن يقول العَدْلِيُّ لِلْمُجْبِرِ: إِنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى خَالِقًا لِلْكَافِرِ فِي الْقُلُوبِ،

قوله: (وكانوا يتنادون): الجوهري: «تنادوا؛ أي: تجالسوا في النادي، والتدي: فعيل؛ مجلس القوم ومُتحدِّثهم، وكذلك التَّدْوَةُ والنادي والمُتَدِي».

قوله: (أن يقول العَدْلِيُّ لِلْمُجْبِرِ: إِنْ كَانَ اللَّهُ خَالِقًا لِلْكَافِرِ) إِلَى آخِرِهِ: الْإِتِّصَافُ: «لَقَدْ اقْتَحَمَ عَظِيمًا فِي تَمَثِيلِهِ، فَيُقَالُ لَهُ: وَقَدْ ثَبَّتَ عَقْلًا وَسُرْعًا أَنَّهُ خَالِقٌ لَذَلِكَ فِي الْقُلُوبِ، وَفَاءً بِأَنَّهُ

لا خالِقَ إِلا هُوَ، ﴿هَلْ مِنْ خَلْقِي غَيْرَ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦، الزُّمَر: ٦٢]، فَيَلْزِمُهُ لِفَرْطِ أَدْبِهِ أَنْ يُلْجِدَ فِي اللَّهِ إِحْدَاداً لَمْ يَسْبِقْ إِلَيْهِ أَحَدٌ^(١).

وقيل: قوله هذا يضاهاى قول الكفرة: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ آلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، فهَلَّا قَالَ - عفا الله عنه -: إِنْ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَالِقاً لِلْكَافِرِ فِي الْقُلُوبِ، وَمُعَذِّباً عَلَيْهِ، فَهُوَ الْحَاكِمُ، لَهُ الْمُلْكُ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ^(٢).

وقلت: بل نقول: إِنْ كَانَ اللَّهُ خَالِقاً لِلْكَافِرِ فَأَنَا أَوْلُ مَنْ أَسْتَجِيرُ بِهِ مِنْهُ، وَأَتَّبِعُ سُنَّةَ نَبِيِّنَا صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، عَلَى مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ^(٣) عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي آخِرِ وَتَرِهِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ». وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ^(٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ، وَدَرْكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ، وَشِمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ».

وَأَسْلُوبُ الْآيَةِ قَرِيبٌ مِنَ الْمَشَاكِلَةِ وَإِطْبَاقُ الْجَوَابِ عَلَى السُّؤَالِ؛ فَإِنَّهُمْ لَمَّا قَالُوا: اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا، حَسَنٌ مِنْهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ: ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوْلُ الْعَبِيدِ﴾،

(١) «الانتصاف» (٣: ٤٩٨) بحاشية «الكشاف».

(٢) على حاشية النسخة (ح) هنا ما نصّه: «الزخشرئى وإن بنى الكلام على الحكاية عن لسان العنلى فهو من العنلى، فيكون هو أيضاً من آحاد القائلين بتلك الكلمة الشنيعة، على أنه قصده به إظهار تعصبه وتضليل أهل السنة والجماعة، كما هو ديدنه في كل ما يتعلق بالنزاع بين أهل السنة والمعتزلة، ثم إن العلماء شنعوا أيضاً بأن المثال الذي مثل به لا أساس له بالذي في الآية، وكم له أمثال ذلك في «تفسيره»، إلا أن الذي ارتكبه هاهنا لم يسبق إليه أحد، كما صرح به العلامة الطيبي عليه الرحمة والمغفرة». انتهى.

(٣) أبو داود (١٤٢٧)، والتِّرْمِذِيُّ (٣٥٦٦)، والنَّسَائِيُّ (١٧٤٧). وأخرجه أيضاً ابن ماجه (١١٧٩).

(٤) البخاري (٦٣٤٧) و(٦٦١٦)، ومسلم (٢٧٠٧)، والنَّسَائِيُّ (٥٤٩١) و(٥٤٩٢).

ومُعَدَّبًا عَلَيْهِ عَذَابًا سَرْمَدًا، فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقُولُ: هُوَ شَيْطَانٌ وَلَيْسَ بِإِلَهِ. فَمَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ وَمَا وُضِعَ لَهُ أَسْلُوبُهُ وَنَظْمُهُ: نَفْيُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى خَالِقًا لِلْكَفْرِ، وَتَنْزِيهُهُ عَنِ ذَلِكَ وَتَقْدِيسُهُ، وَلَكِنْ عَلَى طَرِيقِ الْمُبَالَغَةِ فِيهِ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَا، مَعَ الدَّلَالَةِ عَلَى سَهَابَةِ الْمَذْهَبِ، وَضَلَالَةِ الذَّاهِبِ إِلَيْهِ، وَالشَّهَادَةِ الْقَاطِعَةِ بِإِحَالَتِهِ، وَالْإِفْصَاحِ عَنِ نَفْسِهِ بِالْبَرَاءَةِ مِنْهُ، وَغَايَةِ النَّفَارِ وَالِاشْتِمَازِ مِنْ أَرْكَابِهِ.

وَنَحْوُ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ لِلْحَجَّاجِ - حِينَ قَالَ لَهُ: أَمَا وَاللَّهِ لِأُبْدِلَنَّكَ بِالْدُّنْيَا نَارًا تَلْظِيْ - : لَوْ عَرَفْتُ أَنَّ ذَلِكَ إِلَيْكَ مَا عَبَدْتُ إِلَّا مَا غَيْرَكَ.

وَقَدْ تَمَحَّلَ النَّاسُ بِمَا أَخْرَجُوهُ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَسْلُوبِ الشَّرِيفِ الْمَلِيءِ بِالنُّكْتِ وَالْفَوَائِدِ الْمُسْتَقْبَلِ بِإثْبَاتِ التَّوْحِيدِ عَلَى أْبْلَغِ وُجُوهِهِ، فَقِيلَ: إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَوَلَدٌ فِي زَعْمِكُمْ، وَقِيلَ: إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَوَلَدٌ فِي زَعْمِكُمْ، فَأَنَا أَوَّلُ الْآئِفِينَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَوَلَدٌ،

وَكذَلِكَ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ لِلْحَجَّاجِ، قَالَ الْقَاضِي: ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَوَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أَي: مِنْكُمْ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَعْلَمُ بِاللَّهِ، وَبِمَا يَصْحُحُ لَهُ، وَمَا لَا يَصْحُحُ لَهُ، وَأَوَّلِيَّ بِتَعْظِيمِ مَا يَجِبُ تَعْظِيمُهُ، وَمِنْ تَعْظِيمِ الْوَالِدِ تَعْظِيمُ الْوَلَدِ، وَلَا يَلْزَمُ صِحَّةُ ثُبُوتِ الْوَلَدِ، إِذِ الْمَحَالُ يَسْتَنْزِهُ الْمَحَالِ، وَالْمُرَادُ نَفْيُهُ عَلَى أْبْلَغِ الْوَجُوهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، غَيْرَ أَنَّ «لَوْ» تَمَّ تُشْعِرُ بِانْتِفَاءِ الطَّرْفَيْنِ، وَ«إِنْ» هَاهُنَا لَا تُشْعِرُ بِانْتِفَاءِ الطَّرْفَيْنِ وَلَا بِنَقِيضِهِ (١). فَبِنَبْ مُجَرَّدِ الشَّرْطِيَّةِ، وَفِيهِ: أَنَّ إِنكَارَهُ لِلْوَلَدِ لَيْسَ لِعِنَادِ، بَلْ لِنَظَرٍ وَاسْتِدْلَالٍ (٢).

قَوْلُهُ: (وَقِيلَ: إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَوَلَدٌ فِي زَعْمِكُمْ، فَأَنَا أَوَّلُ الْآئِفِينَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَوَلَدٌ): هَذَا الْمِثَالُ أَقْرَبُ إِلَى الْمِثَالِ (٣) الَّذِي ذَكَرَهُ، وَبُنِيَ قَاعِدَةُ الْأَعْتِزَالِ عَلَيْهِ مِنَ الْوَجْهِ الْأَوَّلِ. فَصَحَّ الْمِثَالُ اللَّائِقُ هُوَ مَا قَدَّرْنَا: إِنْ كَانَ اللَّهُ خَالِقًا لِلْكَفْرِ، فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ أَسْتَجِيرُ بِهِ.

(١) تَحَرَّفَ فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةَ إِلَى: «بِنَفْيِهِ»، وَالْمُثَبَّتُ مِنْ «تَفْسِيرِ الْبِيضَاوِيِّ».

(٢) «أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ» لِلْبِيضَاوِيِّ (٥: ١٥٤).

(٣) مِنْ أَوَّلِ الْفَقْرَةِ إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ح).

من: عَبْدٌ يَعْبُدُ: إذا اشتدَّ أنْفُهُ، فهو عَبْدٌ وَعَابِدٌ، وقرأ بعضهم: «العَبِيدِينَ».
وقيل: هي «إِنْ» النافية، أي: ما كَانَ للرحمنِ وَكَلْدٌ، فأنا أَوْلُ مَنْ قَالَ بِذَلِكَ وَعَبَدَ
وَوَحَّدَ، وَرُوي: أَنَّ النَّضْرَ بْنَ عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قُصَيِّ قَالَ: إِنَّ الملائكةَ بناتُ الله، فنزلت،
فقال النَّضْرُ: ألا تَرَوْنَ أَنَّهُ قد صدَّقني، فقالَ له الوليدُ بنُ المُغيرة: ما صدَّقك، ولكن قال:
ما كَانَ للرحمنِ وَكَلْدٌ، فأنا أَوْلُ الموحِّدينِ مِنْ أَهلِ مَكَّةَ؛ أَن لا وَكَلْدَ له.

وَقُرِي: «وُلْدٌ» بضمِّ الواو.

ثم نَزَّهَ ذَاتَه - موصوفةً برُبُوبِيَّةِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ والعَرَّشِ - عن اتِّخَاذِ الوَلَدِ، لِيَدُلَّ
على أَنَّهُ مِنْ صِفَةِ الأَجْسَامِ، وَلَوْ كَانَ جِسْمًا لَمْ يَقْدِرْ على خَلْقِ هَذَا العَالَمِ وتَدْبِيرِ أمرِهِ.

[﴿فَدَرَّهْمٌ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ [٨٣]

﴿فَدَرَّهْمٌ يَخُوضُوا﴾ في باطِلِهِمْ، ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دُنْيَاهُمْ، ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ﴾ وهذا
دليلٌ على أَن ما يقولونه مِنْ بابِ الجَهْلِ والخَوْضِ واللَّعِبِ، وإِعْلَامٌ لرسولِ الله ﷺ أَنَّهُمْ
مِنَ المَطْبُوعِ على قُلُوبِهِم الذين لا يَرِجِعُونَ البتَّةَ، وَإِنْ رَكِبَ في دَعْوَتِهِمْ كُلَّ صَعْبٍ وَذُلُولٍ،
وَخِذْلَانٍ لَهُمْ، وَتَحْلِيَّةٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الشَّيْطَانِ، كقولِهِ: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٠]، وإِعَادًا
بِالشَّقَاءِ في العاقِبَةِ.

وقوله: (وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: «العَبِيدِينَ»): قال ابنُ جَنِّي: «وهي قِراءةُ عبدِ الرحمنِ اليماني،
معناه: أَوْلُ الأَنْفِينِ، يُقالُ: عِيدْتُ مِنَ الأَمْرِ أَعْبَدُ عَبْدًا: أَنْفَتُ مِنْهُ، وهذا يَشْهَدُ لِقَوْلِ مَنْ قال:
معنى: ﴿أَوْلُ العَبِيدِينَ﴾: الأَنْفِينِ»^(١).

قوله: (وَقُرِي: «وُلْدٌ» بضمِّ الواو): حمزةٌ والكِسائيُّ^(٢).

قوله: (ولو كَانَ جِسْمًا لَمْ يَقْدِرْ على خَلْقِ هَذَا العَالَمِ): مضى بَيَانُهُ في «الأَنْعَامِ» عِنْدَ قولِهِ:
﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَكَلْدٌ﴾ [الأَنْعَامِ: ١٠١].

(١) «المحتسب» لابنِ جَنِّي (٢: ٢٥٧).

(٢) انظر: «التيسير» للذاني ص ١٥٠، و«حجة القراءات» ص ٦٥٥.

[﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ * وَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٤-٨٥﴾]

ضَمَّنَ اسْمَهُ تَعَالَى مَعْنَى وَصْفٍ، فَلِلذَلِكَ عَلَّقَ بِهِ الظَّرْفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾
﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾، كَمَا تَقُولُ: هُوَ حَاتِمٌ فِي طَيِّءٍ حَاتِمٌ فِي تَغْلِبٍ، عَلَى تَضْمِينِ مَعْنَى الْجَوَادِ
الَّذِي شَهَرَ بِهِ، كَأَنَّكَ قُلْتَ: هُوَ جَوَادٌ فِي طَيِّءٍ جَوَادٌ فِي تَغْلِبٍ.

وَقَرِئَ: «وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ، وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ»، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ
فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]، كَأَنَّهُ ضَمَّنَ مَعْنَى الْمَعْبُودِ أَوْ الْمَالِكِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ،
وَالرَّاجِعُ إِلَى الْمَوْصُولِ مَحذُوفٌ لِطُولِ الْكَلَامِ، كَقَوْلِهِمْ: مَا أَنَا بِالَّذِي قَائِلٌ لَكَ شَيْئاً،
وَزَادَهُ طُولاً أَنَّ الْمَعْطُوفَ دَاخِلٌ فِي حَيْزِ الصَّلَةِ.

قَوْلُهُ: (ضَمَّنَ اسْمَهُ تَعَالَى مَعْنَى وَصْفٍ، وَلِلذَلِكَ عَلَّقَ بِهِ الظَّرْفَ): قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «صِلَةُ
الَّذِي» لَا يَكُونُ إِلَّا جَمَلَةً، وَالتَّقْدِيرُ: «وَهُوَ الَّذِي هُوَ إِلَهٌُ فِي السَّمَاءِ»، وَ﴿فِي﴾ مُتَعَلِّقَةٌ بِ﴿إِلَهُ﴾،
أَيُّ: هُوَ مَعْبُودٌ فِي السَّمَاءِ وَمَعْبُودٌ فِي الْأَرْضِ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يُجْعَلَ ﴿إِلَهُ﴾ مُبْتَدَأً، وَ﴿فِي السَّمَاءِ﴾
خَبْرُهُ^(١)؛ لِأَنَّهُ لَا يَبْقَى فِي الصَّلَةِ عَائِدٌ، وَهُوَ كَقَوْلِكَ: هُوَ الَّذِي فِي الدَّارِ زَيْدٌ، وَكَذَلِكَ إِنْ
رَفَعْتَ ﴿إِلَهُ﴾ بِالظَّرْفِ^(٢).

قَوْلُهُ: (وَالرَّاجِعُ إِلَى الْمَوْصُولِ مَحذُوفٌ)، الْإِتِّصَافُ: «وَمَا سَهَّلَ حَذْفَ الرَّاجِعِ: وَقَوْعُ
الْمَوْصُولِ خَبَرًا عَنْ مُضْمَرٍ، لَوْ ظَهَرَ الرَّاجِعُ لَكَانَ كَالتَّكْرَارِ الْمُسْتَكْرَهِ، إِذِ التَّقْدِيرُ: وَهُوَ الَّذِي
هُوَ إِلَهٌُ فِي السَّمَاءِ، وَلَا يُنْكَرُ أَنَّ الرَّاجِعَ إِذَا حُذِفَ كَانَ الْكَلَامُ أَخْفَى، وَإِنَّمَا حُذِفَ عَلَى قِلَّةِ حَذْفِ
مِثْلِهِ لِأَمْرِ مُتَأَكِّدٍ، فَإِنَّهُ لَمْ يَرِدْ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ إِلَّا فِي ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤].
وَفِي «أَيُّ» فِي مَوْضِعَيْنِ^(٣).

(١) من قوله: «معنى وصف» إلى هنا، سقط من (ط).

(٢) «التيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٤٢).

(٣) «الانتصاف» (٣: ٤٩٩) بحاشية «الكشاف».

ويحتمل أن يكون ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ صِلَةً ﴿الَّذِي﴾، و﴿إِلَهُ﴾ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ محذوف، على أن الجملة بيانٌ للصِّلة، وأن كَوْنَهُ في السماء على سبيلِ الإلهية والرُّبوبيَّة، لا على معنى الاستِقرار. وفيه نفْيُ الآلهة التي كانت تُعْبَدُ في الأرض.

﴿تُرْجَعُونَ﴾ قُرِئَ بِضَمِّ التَّاءِ وَفَتْحِهَا، و«يُرْجَعُونَ» بياءٌ مضمومة، وقُرِئَ: «مُحْشَرُونَ» بالتاء.

[﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ *
وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ٨٦-٨٧]

قوله: (ويحتمل أن يكون ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ صِلَةً ﴿الَّذِي﴾، و﴿إِلَهُ﴾ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ محذوف، على أن الجملة بيانٌ للصِّلة): قال أبو البقاء: «إِنْ جَعَلْتَ فِي الظَّرْفِ ضميراً يرجعُ على ﴿الَّذِي﴾، وأبدلت ﴿إِلَهُ﴾ منه، جاز على ضَعْفٍ، لأنَّ الغَرَضَ الكُلِّيَّ إثباتُ الإلهية، لا كَوْنُهُ في السماوات والأرض، وكان يَفْسُدُ أيضاً مِنْ وَجْهِ آخَرَ، وهو قوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾، لأنه معطوفٌ على ما قبله، وإذا لم تُقَدَّرْ ما ذَكَرْنَا صارَ مُنْقَطِعاً عنه، وكان المعنى: إنَّ في الأرضِ لها»^(١).

ورَدَّ هذا الوَجْهَ صاحبُ «الكشف» فقال: «إِنْ جَعَلْتَهُ بَدَلاً مِنْهُ، أَوْ مِنْ ﴿الَّذِي﴾، فَذَلِكَ يُوجِبُ البَدَلَ قَبْلَ تمامِ الموصولِ بالصِّلة، ألا ترى إلى: أنَّ «فِي الأرضِ إِلَهُ» معطوفٌ على ﴿فِي السَّمَاءِ﴾، فهو في الصِّلة»^(٢).

قوله: (قُرِئَ بِضَمِّ التَّاءِ وَفَتْحِهَا): ابنُ كثيرٍ وحمزةٌ والكِسائيُّ: «يُرْجَعُونَ» بالياءِ التَّحتانيةِ، والباقونَ: بالتاءِ، مَضْمُومَتَيْنِ^(٣).

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٤٢).

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٢١٣).

(٣) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٧، و«حجة القراءات» ص ٦٥٥.

﴿وَلَا يَمْلِكُ﴾ أهتهم ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ من دون الله الشفاعة، كما زعموا أنهم شفعاءؤهم عند الله، ولكن ﴿مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ - وهو توحيد الله، وهو يعلم ما يشهد به عن بصيرة وإيقان وإخلاص - : هو الذي يملك الشفاعة، وهو استثناء منقطع. ويجوز أن يكون متصلاً، لأن في جملة الذين يدعون من دون الله: الملائكة. وقرئ: «تدعون» بالتاء، و«تدعون» بالتاء وتشديد الدال.

[﴿وَقِيلَهُ﴾ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ * فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾]

[٨٨-٨٩]

﴿وَقِيلَهُ﴾ ﴿قُرِئَ بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ، وَذُكِرَ فِي النَّصْبِ عَنِ الْأَخْفَشِ أَنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ وقيله. وعنه - أي: عن الأخفش - وقال قيله.

قوله: ﴿﴿وَقِيلَهُ﴾﴾ [قُرِئَ] بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ): حمزة وعاصم: بخفض اللام وكسر الهاء، والباقون: بنصب اللام وضم الهاء^(١)، وضم اللام: شاذ.

قوله: (وعنه - أي: عن الأخفش - وقال قيله): أي: هو مصدرٌ لفعلٍ محذوف، أي: وقد الرسول ﷺ قَيْلاً، وفي «الكواشي»: «والقيل والقول والقال: واحد».

وقلت: يُمكن أن يُقال: إنه تعالى يحكي عن حال رسول الله ﷺ، كأنه قيل: إنه آيس عن إيمانهم عند سماع قولنا له: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَإِنَّ يُوَفِّكُونَ﴾، وقال قولاً. وهو: ﴿يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وينصُرُ هذا التأويل ترتب قوله: ﴿فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ﴾، لأنه أمرٌ بالتأريكة والإعراض الكلي، وقوله أيضاً: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، فإنه وعيدٌ. ووعدٌ له صلواتُ الله عليه في أنه تعالى يتتقّم لك منهم، ويجازيك وإياهم على حسنيتك وسيئاتهم، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّهَا فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [احجر: ٨٥]، وإيه الإشارة بقوله: «فأعرض عن دعوتهم يائساً عن إيمانهم، وودّعهم، وتاركهم» إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ للكفار، وتسليةٌ للرسول ﷺ.

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٧، و«حجة القراءات» ص ٦٥٥.

وَعَطَفَهُ الرَّجَاجُ عَلَى مَحَلِّ ﴿السَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٨٥]، كما تقول: عَجِبْتُ مِنْ ضَرْبِ زَيْدٍ وَعَمْرَأَ، وَحَمَلَ الْجُرَّ عَلَى لَفْظِ ﴿السَّاعَةِ﴾، وَالرَّفْعَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، وَالْخَبْرُ مَا بَعْدَهُ، وَجَوَزَ عَطَفَهُ عَلَى ﴿عِلْمِ السَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٨٥]، عَلَى تَقْدِيرِ حَذْفِ الْمُضَافِ، مَعْنَاهُ: عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَعِلْمُ قَبِيلِهِ.

والذي قالوه لَيْسَ بِقَوِيٍّ فِي الْمَعْنَى، مَعَ وَقُوعِ الْفَضْلِ بَيْنَ الْمُعْطُوفِ وَالْمُعْطُوفِ عَلَيْهِ بِمَا لَا يَحْسُنُ اعْتِرَاضاً، وَمَعَ تَنَافُرِ النَّظْمِ، وَأَقْوَى مِنْ ذَلِكَ وَأَوْجَهُ: أَنْ يَكُونَ الْجُرُّ وَالنَّصْبُ عَلَى إِضْمَارِ حَرْفِ الْقَسَمِ وَحَذْفِهِ، وَالرَّفْعَ عَلَى قَوْلِهِمْ: أَيْمُنُ اللَّهُ، وَأَمَانَةُ اللَّهِ، وَيَمِينُ اللَّهِ، ...

وفي هذا التقريب التفاتٌ في غايةٍ مِنَ اللَّطْفِ، لِأَنَّ أَصْلَ الْمَعْنَى: وَقُلْنَا لَكَ: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ﴾ الْآيَةَ، وَقُلْتُ: ﴿يَتَرَبَّإِنَّ هَتَوْلَاءَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وَقُلْنَا لَكَ: ﴿فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ فَإِنَّا نَسْتَقِيمُ مِنْهُمْ. فَعَدَلْتُ إِلَى الْغَيْبَةِ، فَقَالَ: وَقَالَ قَبِيلاً؛ لِيُؤْذِنَ بَأَنَّ ذَلِكَ الْقَوْلَ إِنَّمَا صَدَرَ عَنْهُ مِنَ الْيَأْسِ التَّامِّ، فَكَانَهُ كَانَ غَائِباً عَنِ نَفْسِهِ مُتَحَسِّراً عَلَيْهِمْ وَإِيمَانِهِمْ وَقَوَاتِ سَعْيِهِ فِيهِمْ.

وقريبٌ مِنْ هَذَا التَّقْرِيرِ: تَوَجُّهُهُ عَلَى الْقَسَمِ؛ لِأَنَّ إِتْيَانَ الْمَصْدَرِ لِتَعْظِيمِ الْقَوْلِ، أَي: قَالَ قَوْلَهُ الَّذِي فِيهِ فَخَامَةٌ وَشَأْنٌ، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿يَتَرَبَّإِنَّ هَتَوْلَاءَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الْمُوْذِنِ بِالْإِقْنَانِ الْكَلْبِيِّ الْمُسْتَلْزِمِ لِاسْتِثْصَالِ الْقَوْمِ، وَتَطْهِيرِ الْأَرْضِ مِنْ أَنْجَاسِ إِفْسَادِهِمْ، وَإِلْصَاحِ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِظْهَارِ دِينَ الْحَقِّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]، فَحَقِيقٌ بَأَنَّ يُقَسَّمُ بِهَذَا الدُّعَاءِ وَأَنْ يَكُونَ مَظْنَةً لِلتَّفْخِيمِ وَالتَّعْظِيمِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «وَإِقْسَامُ اللَّهِ بِقَبِيلِهِ رَفَعٌ مِنْهُ وَتَعْظِيمٌ لِدُعَائِهِ».

قوله: (وَعَطَفَهُ الرَّجَاجُ عَلَى مَحَلِّ ﴿السَّاعَةِ﴾): كما تقول: عَجِبْتُ مِنْ ضَرْبِ زَيْدٍ وَعَمْرَأَ، عَطَفًا عَلَى الْمَحَلِّ، تَقْدِيرُهُ: عَجِبْتُ مِنْ ضَرْبِ زَيْدٍ وَعَمْرَأَ، قَالَ الرَّجَاجُ: «وَالَّذِي أَخْتَارَهُ أَنَا أَنْ يَكُونَ نَصْبًا عَلَى مَعْنَى: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ وَيَعْلَمُ قَبِيلَهُ، لِأَنَّ مَعْنَى: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾: يَعْلَمُ السَّاعَةَ وَيَعْلَمُ قَبِيلَهُ، وَمَعْنَى «السَّاعَةِ» فِي الْقُرْآنِ: الْوَقْتُ الَّذِي تَقُومُ فِيهِ الْقِيَامَةُ» (١).

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٤٢١).

ولعمرُك، ويكونَ قوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جوابُ القَسَمِ، كأنه قيل: وأقسمُ بقبيلهِ يارب، أو: وقبيلُهُ - يارب - قَسَمِي، إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ.

﴿فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عن دَعْوَتِهِمْ يائِساً من إيمانهم، وودَّعَهُمْ وتارِكَهُمْ، ﴿وَقُلْ﴾ لهم ﴿سَلِّمٌ﴾ أي: تَسَلَّمٌ منكم ومُتَارِكَةٌ، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ من الله لهم وتسليةٌ لرسولِهِ ﷺ.

والضميرُ في ﴿وَقِيلَهُ﴾ لرسولِ الله ﷺ، وإقسامُ الله بقبيلِهِ رفعٌ منه وتعظيمٌ لدُعائِهِ والتجائهِ إليه.

عن النبي ﷺ: «مَنْ قرأ سُورَةَ الزُّخْرُفِ كَانَ مَنْ يُقَالُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا عِبَادِي لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

قوله: ﴿﴿وَقُلْ﴾﴾ لهم ﴿سَلِّمٌ﴾ أي: تَسَلَّمٌ منكم ومُتَارِكَةٌ): قال مكِّي: «تقديرُهُ: قل: أمري مُسألَةٌ منكم، ولم يُؤمَرِ بالسَّلَامِ عليهم، وإنما أُمِرَ بالتَّبَرِّيِ منهم ومن دينهم»^(١).

تَمَّتِ السُّورَةُ بِحَمْدِ اللَّهِ وَعَوْنِهِ

مُصَلِّياً عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٢).

* * *

(١) «مُشْكِلُ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ» لمكِّي بن أبي طالب (٢: ٦٥٣).

(٢) اقتصر في (ح) على: «تَمَّتِ السُّورَةُ»، والمُتَّبَعُ من (ف)، ولا شيء من ذلك في (ط).

سُورَةُ الدُّخَانِ

مَكِّيَّةٌ، إِلا قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ الْآيَةُ

وَهِيَ سَبْعٌ وَخَمْسُونَ آيَةً، وَقِيلَ: تِسْعٌ وَخَمْسُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿حَمَّ﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْمُبْرَكَةِ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١-٨﴾]

الواوُ في ﴿وَالْكِتَابِ﴾: واوُ القَسَمِ؛ إِنْ جَعَلْتَ ﴿حَمَّ﴾ تَعْدِيداً لِلْحُرُوفِ، أَوْ اسماً لِلسُّورَةِ مَرْفوعاً عَلَى خَبَرِ الْإِبْتِدَاءِ الْمَحذُوفِ، وَواوُ الْعَطْفِ؛ إِنْ كَانَتْ ﴿حَمَّ﴾ مُقْسَمًا بِهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ جَوَابُ الْقَسَمِ، وَالكِتَابُ الْمُبِينُ: الْقُرْآنُ.

سُورَةُ الدُّخَانِ

مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ سَبْعٌ وَخَمْسُونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ جَوَابُ الْقَسَمِ: قَالَ صَاحِبُ «الْكَشْفِ»: جَوَابُ الْقَسَمِ ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، دُونَ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾، لِأَنَّكَ لَا تُقْسِمُ بِالشَّيْءِ عَلَى نَفْسِهِ، لِأَنَّ الْقَسَمَ تَأْكِيدُ

والليلة المباركة: ليلة القدر، وقيل: ليلة النصف من شعبان، ولها أربعة أسماء: الليلة المباركة وليلة البراءة وليلة الصك وليلة الرحمة، وقيل: بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة، وقيل في تسميتها ليلة البراءة والصك: أن البندار إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة، كذلك الله عز وجل يكتب لعباده المؤمنين البراءة في هذه الليلة.

خبرٍ بخبرٍ آخر، فقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ اعتراض بين القسم وجوابه^(١). وقال أبو البقاء: «الجواب» ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾، و﴿إِنَّا كُنَّا﴾ مُستأنف، وقيل: هو جواب آخر من غير عاطف^(٢). والجواب عن قول صاحب «الكشف»: «لأنك لا تقسم بالشيء على نفسه»: أنه من باب قول الشاعر:

وثناياك إنها إغريض^(٣)

كما سبق في «الزخرف».

قوله: (البندار): مُعرب، وما وجدت له ذكراً سوى في الحاشية^(٤): «البندار: من في يده القانون، وهو أصل الخراج»، ثم وجدت في «كتاب ابن الصلاح» في معرفة الحديث: «البندار: من يكون مكثراً من شيء يشتريه منه من هو دونه، ثم يبيعه، قاله^(٥) السمعاني - ووجدته بخطه - وبندار: لقب به محمد بن بشار البصري^(٦)، روى عنه البخاري ومسلم، قال ابن الفلكي: إنما لقب بهذا لأنه كان بندار الحديث»^(٧).

(١) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٢١٩).

(٢) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٤٤).

(٣) تقدم ص ٩٤ في تفسير الآية ٣ من سورة الزخرف.

(٤) أي: في حاشية «الكشف»، والمؤلف رحمه الله تعالى ينقل عن الحاشية في مواضع، صرح في بعضها بأن الكلام فيها للزخرفي نفسه.

(٥) تحرف في (ح) و(ف) إلى: «قال»، وصوبته من لفظ ابن الصلاح، وقوله: «قاله السمعاني» سقط من (ط).

(٦) تحرف في (ح) إلى: «المصري».

(٧) «علوم الحديث» لابن الصلاح (ص ٢٩٨ مع «التقييد والإيضاح» للعراقي)، والذي فيه: من قوله: «وبندار: لقب به... إلى آخره. أما ما قبله فقد ورد في بعض النسخ الخطية على الحاشية منسوباً إلى ابن =

وقيل: هي مُحْتَصَةٌ بِخَمْسٍ خِصَالٍ:

تفريق كُلِّ أمرٍ حَكِيمٍ، وفضيلة العِبَادَةِ فيها، قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ مِئَةَ رَكَعَةٍ أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ مِئَةَ مَلَكٍ؛ ثَلَاثُونَ يُبَشِّرُونَهُ بِالْجَنَّةِ، وَثَلَاثُونَ يُؤْمِنُونَهُ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَثَلَاثُونَ يَدْفَعُونَ عَنْهُ آفَاتِ الدُّنْيَا، وَعِشْرَةٌ يَدْفَعُونَ عَنْهُ مَكَائِدَ الشَّيْطَانِ».

قوله: (قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ») إلى آخِرِهِ: ما وَرَدَ فِيما يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى فِي الْأَصُولِ سِوَى ما رواه ابنُ ماجَةَ^(١) عن عليِّ رضيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِذَا كَانَتْ لَيْلَةُ النَّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، فقومُوا ليلَها، وِصومُوا نهارَها، فإنَّ اللهَ تعالى يَنْزِلُ فِيها لِغُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فيقول: أَلَا مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ، أَلَا مِنْ مُسْتَرْزِقٍ فَأَرْزُقَهُ، أَلَا مِنْ مُبْتَلًى فَأَعافِيهِ، أَلَا كَذَا، أَلَا كَذَا، حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ».

= الصَّلَاحُ نَفْسِهِ - كما نَبَّهَتْ إِلَيْهِ الدُّكْتُورَةُ عائِشَةُ بنتُ الشَّاطِئِ فِي تَحْقِيقِها لِكِتابِ ابنِ الصَّلَاحِ ص ٥٨٦ -
قلت: فَكانَهُ ما أَحَقَّهُ ابنُ الصَّلَاحِ بأَصْلِ كِتابِهِ، أو ذَكَرَهُ فِي الإِمْلَاءِ تَوْضِيحاً، فَقَيَّدَ عَنْهُ.
أما قولُ المُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «إنَّهُ لَمْ يَجِدْ لَهُ ذِكْراً»: فَمُنْتَعَبٌ؛ ففِي كِتابِ «العَيْنِ» لِلإِمَامِ الخَلِيلِ بنِ أَحْمَدَ الفَراهِيدِيِّ (٨: ١٠٤): «الْبَنادِرَةُ: دَخِيلٌ، وَهَمَّ النَّجَّارُ الَّذينَ يَلْزَمُونَ المَعادِنَ، واحِدُهُم بُنْدارَةٌ»، ومثْلُهُ فِي «القاموسِ»، مادَّة (بندر)، إلا أَنَّهُ قال: «جَمْعُ بُنْدارٍ»، وَزادَ فِي مَعنَا: «أو الَّذينَ يَحْزَنُونَ البِضائِعَ لِلْغَلَاءِ».

(١) بِرقم (١٣٨٨)، لَكِن قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١: ٢٤٧): «إِسنادُهُ ضَعيفٌ لِضَعْفِ ابنِ أَبِي سَبْرَةَ، واسمُهُ أبو بكرِ عَبْدِ اللهِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ أَبِي سَبْرَةَ، قالَ فِيهِ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ وَابنُ مَعِينٍ: يَضَعُ الحَدِيثَ».
قلت: ومثْلُ هَذَا الضَّعْفِ لا يُقْبَلُ حَتَّى فِي فِضائِلِ الأَعْمالِ.

وَيُعْنِي عَنْهُ ما رواه ابنُ ماجَةَ (١٣٩٠) عَنْ أَبِي موسى الأشعري مرفوعاً: «إِنَّ اللهَ لِيَطْلُعُ فِي لَيْلَةِ النَّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، فيغْفِرُ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ، إلا المُشْرِكِ أو مُشاحِنِ»، وَروى ابنُ حبانٍ فِي «صحيحِهِ» (٥٦٦٥) نَحْوَهُ مِنْ حَدِيثِ مَعاذِ بنِ جَبَلٍ.

ونزولِ الرحمة، قال عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ: «إِنَّ اللّهَ يَرْحَمُ أُمَّتِي فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ بَعْدَ شَعْرِ أَغْنَامِ بَنِي كَلْبٍ».

وحُصُولِ المغفرة، قال عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ: «إِنَّ اللّهَ تَعَالَى يَغْفِرُ لْجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ إِلَّا لِكَاهِنٍ، أَوْ سَاحِرٍ، أَوْ مُشَاحِنٍ، أَوْ مُدْمِنٍ خمر، أَوْ عَاقٍ لِلْوَالِدَيْنِ، أَوْ مُصِرٍّ عَلَى الزُّنَى».

وما أُعْطِيَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ تَمَامِ الشَّفَاعَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ سَأَلَ لَيْلَةً.....

قوله: (إِنَّ اللّهَ يَرْحَمُ أُمَّتِي فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ) الحديث: مِنْ رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ وَابْنِ مَاجَةَ^(١) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَتٍ﴾: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللّهَ تَعَالَى يَنْزِلُ لَيْلَةَ النُّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَغْفِرُ لِأَكْثَرِ مَنْ عَدَدَ شَعْرٍ غَنَمٍ كَلْبٍ».

قوله: (إِنَّ اللّهَ يَغْفِرُ لْجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ): رَوَيْنَا فِي «مُسْنَدِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ»^(٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَطَّلِعُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى خَلْقِهِ لَيْلَةَ النُّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، فَيَغْفِرُ لِعِبَادِهِ إِلَّا اثْنَيْنِ؛ مُشَاحِنٍ وَقَاتِلِ نَفْسٍ».

قوله: (مُشَاحِنٍ): النِّهَايَةُ: «الْمُشَاحِنُ: الْمُعَادِي، وَالشَّحْنَاءُ: الْعَدَاوَةُ، وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: أَرَادَ بِالْمُشَاحِنِ هَاهُنَا: صَاحِبَ الْبِدْعَةِ الْمَفَارِقِ لْجَمَاعَةِ الْأُمَّةِ».

قوله: (وما أُعْطِيَ فِيهَا... مِنْ تَمَامِ الشَّفَاعَةِ): عَطَفَ عَلَى قَوْلِهِ: «تَفْرِيقُ كُلِّ أَمْرٍ حَكِيمٍ»، وَهِيَ خَامِسَةُ الْخِصَالِ الَّتِي اخْتَصَّتْ هَذِهِ اللَّيْلَةُ بِهَا.

(١) الترمذي (٧٣٩)، وابن ماجه (١٣٨٩). ونقل الترمذيّ تضعيفَ هذا الحديث عن البخاري.

(٢) برقم (٦٦٤٢)، وقال الحافظ الهيثمي في «جمع الزوائد» (٨: ٦٥) «فيه ابنُ لُيعة، وهو لُبُّنُ الحديث، وبقية رجاله وثقوا».

قلت: والحديثُ صَحَّ بِلَفْظِ «إِلَّا لِمُشْرِكٍ أَوْ مُشَاحِنٍ»، كَمَا تَقَدَّمَ تَحْرِيجُهُ قَرِيباً مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ وَمَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَهُوَ مَا وَرَدَ فِي عِدَّةِ أَحَادِيثَ أُخْرَى، انظُرْهَا فِي التَّعْلِيقِ عَلَى «مُسْنَدِ أَحْمَدَ» عِنْدَ هَذَا الْحَدِيثِ.

الثالث عَشَرَ مِنْ شَعْبَانَ فِي أُمَّتِهِ، فَأُعْطِيَ الثُّلُثَ مِنْهَا، ثُمَّ سَأَلَ لَيْلَةَ الرَّابِعِ عَشَرَ فَأُعْطِيَ الثُّلُثِينَ، ثُمَّ سَأَلَ لَيْلَةَ الْخَامِسِ عَشَرَ فَأُعْطِيَ الْجَمِيعَ، إِلَّا مَنْ شَرَدَ عَنِ اللَّهِ شِرَادَ الْبَعِيرِ.

ومن عادة الله في هذه الليلة: أن يزيد فيها ماء زمزم زيادة ظاهرة.

والقول الأكثر: أن المراد بالليلة المباركة: ليلة القدر، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، ولطابقة قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ لقوله: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَّمَ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ٤-٥]، وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وليلة القدر في أكثر الأقاليم في شهر رمضان.

فإن قلت: ما معنى إنزال القرآن في هذه الليلة؟ قلت: قالوا: أنزل جملة واحدة من السماء السابعة إلى سماء الدنيا، وأمر السفرة الكرام باتساعه في ليلة القدر، وكان جبريل عليه السلام ينزله على رسول الله ﷺ نجوماً نجوماً.

فإن قلت: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾: ما موقع هاتين الجملتين؟ قلت: هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان، فسّر بهما جواب القسم.....

قوله: (قالوا: أنزل جملة واحدة): روى محيي السنة عن قتادة وابن زيد^(١): «هي ليلة القدر، أنزل الله تعالى القرآن في ليلة القدر من أم الكتاب إلى السماء الدنيا، ثم نزل به جبريل عليه السلام نجوماً في عشرين سنة»^(٢).

قوله: (ملفوفتان): وهو نوع غريب من اللف والنشر، لفّ أولاً في قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ ثُبْرَكَةَ﴾ معنيين: إنزال القرآن، واختصاصه بليلة مباركة، ثم علل المعنى الأول بقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، والمعنى الثاني بقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، ولما كان المعنى الثاني

(١) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم المدني، المتوفى سنة ١٨٢.

(٢) «معالم التنزيل» للبغوي (٧: ٢٢٧).

الذي هو قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ﴾، كأنه قيل: أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب، وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصاً؛ لأن إنزال القرآن من الأمور الحكيمة، وهذه الليلة مفرق كل أمر حكيم.

والمباركة: الكثيرة الخير؛ لِمَا يُتِيحُ اللهُ فِيهَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِهَا مَنَافِعُ الْعِبَادِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة.

ومعنى ﴿ يُفْرَقُ ﴾: يُفْصَلُ وَيُكْتَبُ، ﴿ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم، منها إلى الأخرى القابلة. وقيل: يُبْدَأُ فِي اسْتِنْسَاخِ ذَلِكَ مِنَ اللَّوْحِ الْمُحْفُوظِ فِي لَيْلَةِ الْبَرَاءَةِ، وَيَقَعُ الْفَرَاغُ فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ، فَتُدْفَعُ نُسْخَةُ الْأَرْزَاقِ إِلَى مِيكَائِيلَ، وَنُسْخَةُ الْحُرُوبِ إِلَى جِبْرِيلَ، وَكَذَلِكَ الزَّلَازِلُ وَالصَّوَاعِقُ وَالْخُسُوفُ، وَنُسْخَةُ الْأَعْمَالِ إِلَى إِسْمَاعِيلَ صَاحِبِ سَمَاءِ الدُّنْيَا، وَهُوَ مَلَكٌ عَظِيمٌ، وَنُسْخَةُ الْمَصَائِبِ إِلَى مَلَكِ الْمَوْتِ. وعن بعضهم: يُعْطَى كُلُّ عَامِلٍ بَرَكَاتِ أَعْمَالِهِ،

مُعْتَبِقًا^(١) بالأول غير مُسْتَقْبَلٍ بِنَفْسِهِ - كما عليه النَّشْرُ الْمُتَعَارَفُ، لأنه لا يتم إلا بأن يقال: إنما حُصِّصَ إِنْزَالُهُ بِهَذِهِ اللَّيْلَةِ لِأَنَّهُ مِنَ الْأُمُورِ الْمُحْكَمَةِ، وَهَذِهِ اللَّيْلَةُ مَفْرُقُ كُلِّ أَمْرٍ حَكِيمٍ، فَنَاسَبَ إِنْزَالُهُ فِيهَا - قال: «جملتان مُستأنفتان ملفوفتان»، وأعجب بنشر فيه لف.

قوله: ﴿ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ من أرزاق العباد): روى محيي السنة بإسناده عن النبي ﷺ أنه قال: «تُقَطَّعُ الْأَجَالُ مِنْ شَعْبَانَ إِلَى شَعْبَانَ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْكُحُ وَيُوَلِّدُ لَهُ، وَقَدْ أُخْرِجَ اسْمُهُ فِي الْمَوْتَى»^(٢).

(١) لفظة «مُعْتَبِقًا»: رُسِمَتْ فِي (ج) و(ف): «مَعْسِفًا».

(٢) «معالم التنزيل» للبغوي (٧: ٢٢٨). ورواه بإسناده إلى عثمان بن المغيرة بن الأحنس مرفوعاً. وعبه فالحديث مُرْسَلٌ، بل مُعْضَلٌ، لِأَنَّ عُثْمَانَ هَذَا عَدَّهُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجْرٍ فِي «التقريب» (٤٥١٥) مِنْ ضَبْغَةِ مَنْ عَاصَرَ صِغَارَ التَّابِعِينَ.

والحديث رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٨٣٩) عن عثمان بن المغيرة مُرْسَلًا أَيْضًا.

فَيُلْقَى عَلَى السِّنَةِ الْخَلْقِ مَذْحُهُ، وَعَلَى قُلُوبِهِمْ هَيْبَتُهُ.

وَقُرِي: «يُفَرِّقُ» بالتشديد، و«يَفَرِّقُ كُلُّ» على بنائه للفاعل وَنَصَبِ «كُلِّ»، والفارق: اللُّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وقرأ زيد بن علي رضي الله عنه: «نَفَرُّقُ» بالنون.

﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ كُلُّ شَأْنٍ ذِي حِكْمَةٍ، أَي: مَفْعُولٍ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ، وَهُوَ مِنَ الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ؛ لِأَنَّ الْحَكِيمَ صِفَةً صَاحِبِ الْأَمْرِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَوَصَفُ الْأَمْرِ بِهِ مَجَازٌ.

﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾ نَصَبٌ عَلَى الْإِخْتِصَاصِ، جَعَلَ كُلُّ أَمْرٍ جَزْلاً فَخَمَلاً بِأَنَّ وَصَفَهُ بِالْحَكِيمِ، ثُمَّ زَادَهُ جِزَالَةً وَكَسَبَهُ فَخَامَةً بِأَنَّ قَالَ: أَعْنِي بِهَذَا الْأَمْرَ أَمْرًا حَاصِلاً مِنْ عِنْدِنَا، كَاتِبًا مِنْ لَدُنَّا، وَكَمَا اقْتِضَاهُ عِلْمُنَا وَتَدْبِيرُنَا. وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهِ: الْأَمْرُ الَّذِي هُوَ ضِدُّ النَّهْيِ، ثُمَّ إِمَّا أَنْ يُوضَعَ مَوْضِعُ «فُرْقَانًا» الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ «يُفَرِّقُ»، لِأَنَّ مَعْنَى الْأَمْرِ وَالْفُرْقَانَ وَاحِدٌ؛

قوله: (فَيُلْقَى عَلَى السِّنَةِ الْخَلْقِ مَذْحُهُ): وهو من قوله صلوات الله عليه: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ، نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ^(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

قوله: (وَهُوَ مِنَ الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ): قَالَ الْإِمَامُ: «الْحَكِيمُ: ذُو الْحِكْمَةِ، وَذَلِكَ أَنْ تُخَصِّصَ اللَّهُ كُلُّ أَحَدٍ بِحَالَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنَ الرِّزْقِ وَالْأَجَلِ وَالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ: يَدُلُّ عَلَى حِكْمَةِ بِالْغَةِ»^(٢)، فَأَسْنَدَ إِلَى اللَّيْلَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [الزُّمَرُ: ١٧]^(٣).

(١) البخاري (٣٢٠٩) و(٦٠٤٠) و(٧٤٨٥)، ومسلم (٢٦٣٧)، والتِّرْمِذِيُّ (٣١٦١).

(٢) «مفاتيح الغيب» للرازي (٢٧: ٦٥٥).

(٣) زاد في (ح) و(ف) هنا: «أَي: يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ فِيهَا شِيبًا!» وفيه خَلَلٌ ظَاهِرٌ، وَلَعَلَّ صَوَابَهُ: «يَجْعَلُ مَا فِيهِ الْوِلْدَانَ شِيبًا»، وَلَمْ تَرِدْ هَذِهِ الزِّيَادَةُ فِي (ط). وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ إِذَا حَكَّمَ بِالشَّيْءِ وَكَتَبَهُ فَقَدْ أَمَرَ بِهِ وَأَوْجَبَهُ، أَوْ يَكُونُ حَالًا مِنْ أَحَدِ الضَّمِيرَيْنِ فِي ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾؛ إِمَّا مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ، أَيْ: أَنْزَلْنَاهُ آمِرِينَ أَمْرًا، أَوْ مِنْ ضَمِيرِ الْمَفْعُولِ، أَيْ: أَنْزَلْنَاهُ فِي حَالِ كَوْنِهِ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا بِمَا يَجِبُ أَنْ يُفْعَلَ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ بِمَنْ يَتَعَلَّقُ؟ قُلْتَ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾، وَ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ مَفْعُولًا لَهُ، عَلَى مَعْنَى: إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِنَا إِسْرَالَ الرُّسُلِ بِالْكِتَابِ إِلَى عِبَادِنَا لِأَجْلِ الرَّحْمَةِ عَلَيْهِمْ، وَأَنْ يَكُونَ تَعْلِيلًا لـ﴿يُفَرِّقُ﴾، أَوْ لِقَوْلِهِ: ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾،

قَوْلِهِ: (مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ إِذَا حَكَّمَ بِالشَّيْءِ وَكَتَبَهُ فَقَدْ أَمَرَ بِهِ): يَعْنِي: أَنْ مَعْنَى ﴿يُفَرِّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾: يُفَصِّلُ وَيُكْتَبُ كُلُّ أَمْرٍ مَفْعُولٍ عَلَى مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ، كَمَا هُوَ مَعْنَى «الْأَمْر» الَّذِي هُوَ ضِدُّ «النَّهْي»، لِأَنَّهُ تَعَالَى إِذَا حَكَّمَ بِالشَّيْءِ وَكَتَبَهُ فَقَدْ أَوْجَبَهُ، فَكَانَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿يُفَرِّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾، وَكَانَ مِنْ حَقِّ الظَّاهِرِ - لِقَوْلِهِ: «أَنْ يُوضَعَ مَوْضِعَ فُرْقَانًا» - أَنْ يُقَالَ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾ بِمَعْنَى: يُفَرِّقُ وَيُفَصِّلُ وَيُكْتَبُ، لِأَنَّ أَمْرَهُ النَّازِلَ مِنْ عِنْدِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَكُونُ إِلَّا فَضْلًا وَفُرْقَانًا، لَكِنْ لَمَّا قَالَ: «مَعْنَى الْأَمْرِ وَالْفُرْقَانِ وَاحِدٌ»، جَعَلَ الْأَوَّلَ بِمَعْنَى الثَّانِي؛ لِاتِّحَادِهِمَا فِي الْمَعْنَى.

وَإِنَّمَا سَنَلَّكَ هَذَا الْمَسَلَّكَ لِيَجْمَعَ بَيْنَ قَوْلِي الرَّجَاحِ حَيْثُ قَالَ: «وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَنْصُوبًا بِـ﴿يُفَرِّقُ﴾»، أَيْ: يُفَرِّقُ فُرْقَانًا، لِأَنَّ ﴿أَمْرًا﴾ بِمَعْنَى «فُرْقَانًا»، أَوْ الْمَعْنَى: يُؤْتَمَرُ فِيهَا أَمْرًا. قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «أَمْرُنَا أَمْرًا، دَلَّ عَلَى هَذَا مَا اسْتَمَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ مِنَ الْأَوَامِرِ، وَ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾: إِمَّا صِفَةً لـ«أَمْرٍ» أَوْ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِـ﴿يُفَرِّقُ﴾»^(٢).

قَوْلِهِ: (تَعْلِيلًا لـ﴿يُفَرِّقُ﴾ أَوْ لِقَوْلِهِ: ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾): هَذَا جَمْعٌ، وَقَوْلُهُ: «أَيْ: يُفَصِّلُ

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤: ٤٢٤).

(٢) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٤٤).

و﴿رَحْمَةً﴾ مفعولاً به،

في هذه الليلة كُلُّ أمرٍ»، وقوله: «أَوْ تَصْدُرُ الْأَمْرُ مِنْ عِنْدِنَا»: تقسيم، وقوله: «لَأَنَّ مِنْ عَادِتِنَا» إلى آخره، وقوله: «وكذلك الأمر الصادر»: تفریق (١).

قوله: (و﴿رَحْمَةً﴾ مفعولاً به): أي إذا كَانَ ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ تَعْلِيلًا لـ﴿يُنْفِرُ﴾، أو لِقَوْلِهِ: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا﴾، يَكُونُ ﴿رَحْمَةً﴾ مفعولاً به (٢) لـ﴿مُرْسِلِينَ﴾، قال أبو البقاء: ﴿رَحْمَةً﴾ مفعولٌ ﴿مُرْسِلِينَ﴾، ويُرادُ بها النبي ﷺ (٣).

فإن قلت: هل الاختصاصُ كونه مفعولاً له في الأول، ومفعولاً به في الثاني، من عائدِهِ؟ قلت: أجل، لأنَّ المُبَدَّلَ مُطْلَقٌ، فالْمُنَاسِبُ أن يكونَ البَدَلُ كذلك، أعني: ﴿مُنْذِرِينَ﴾ و﴿مُرْسِلِينَ﴾ (٤)، وهو من بَدَلِ الكُلِّ؛ لأنَّ الإِنْذَارَ والإِرْسَالَ يَنْتَضِيانِ المُنْذِرَ والمُرْسَلَ، وهو عبارةٌ عن المُخْتَارِ المبعوثِ إلى الخَلْقِ للإِرشَادِ، ولا يَسْتَقِيمُ أن يُقالَ: إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ رَحْمَةً، إلا أن يكونَ مفعولاً له.

وأما التعليل: فإنه إما أن يكونَ لـ﴿يُنْفِرُ﴾، ولا شَكَّ أن تفریقَ كُلِّ أمرٍ حكيمٍ أمرٌ عظيمٌ يحتاجُ إلى أن يُعَلَّلَ بإرسالِ رَحْمَةٍ للعالمين، وإما أن يكونَ تَعْلِيلًا لـ﴿أَمْرًا﴾، فهو أَوْلَى منه، إذ

(١) انظر تفصيل الكلام في «الجمع» و«التقسيم» و«التفریق» في «التبيان في البيان» للمؤلف العلامة الطيبي ص ٣٣١-٣٤٠، فقد ذكر صورة «الجمع» وحده، وصورة «التقسيم» وحده، وصورة «التفریق» وحده، ثم ذكر صورة «الجمع مع التفریق»، وصورة «الجمع مع التقسيم»، وصورة «الجمع مع التفریق والتقسيم»، وفيه فوائد.

(٢) من قوله: «أي: إذا كان» إلى هنا، سقط من (ح).

(٣) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٤٥).

وسَيُؤَيِّدُ المؤلِّفُ رَحْمَةَ الله تعالى هذا القولَ في كلامِهِ آخرَ السُّورَةِ.

(٤) المعنى: أنَّ المُبَدَّلَ منه - وهو قوله: ﴿مُنْذِرِينَ﴾ - مُطْلَقٌ، فَالبَدَلُ - وهو قوله: ﴿مُرْسِلِينَ﴾ - كذلك، فيكونُ قوله: ﴿رَحْمَةً﴾ مفعولاً له، لا مفعولاً به، لأنَّ في جَعْلِهِ مفعولاً به تقييدُ الإرسالِ بالرحمة.

وقد وَصَفَ الرَّحْمَةَ بِالْإِرْسَالِ، كما وَصَفَهَا به في قوله: ﴿وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]، أي: يُفَصِّلُ في هذه اللَّيْلَةِ كُلُّ أَمْرٍ، أو تَصَدَّرُ الْأُمُورُ مِن عِنْدِنَا؛ لِأَنَّ مِن عَادَتِنَا أَنْ نُرْسِلَ رَحْمَتَنَا.

التقديرُ حينئذٍ: أعني بهذا الأمرِ أَمْرًا كائِنًا مِن لَدُنَّا، وَيَلِيقُ بِجَلَالِنَا وَكِبْرِيَانِنَا، وَلَا يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ ﴿أَمْرًا﴾ عَلَى هَذَا مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ، بَلْ مَنْصُوبًا عَلَى الْاِخْتِصَاصِ مُعَلَّلًا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾؛ لِيَسْتَقِلَّ بِالْتَعْلِيلِ.

قوله: (وَصَفَّ الرَّحْمَةَ بِالْإِرْسَالِ): أي: أَوْقَعَ الْإِرْسَالَ عَلَى الرَّحْمَةِ، وَجُعِلَتْ مَفْعُولًا بِهِ، كَمَا أَوْقَعَ الْإِمْسَاكَ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]، فَعَلِمَ مِنْ هَذِهِ الدَّقِيقَةِ: أَنَّ الْفِعْلَ وَصَفٌ لِلْفَاعِلِ وَلِلْمَفْعُولِ بِهِ، وَكَذَلِكَ يُقَالُ فِي قَوْلِنَا: «ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْرًا»: أَنَّ زَيْدًا ضَارِبٌ، وَعَمْرًا مَضْرُوبٌ.

فإن قلت: ذَكَرَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾: إِمَّا بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾، أَوْ تَعْلِيلٌ لـ ﴿يُفَرِّقُ﴾، أَوْ لِقَوْلِهِ: ﴿أَمْرًا﴾، فَأَيُّ الْوَجْهَيْنِ هُوَ الْمُخْتَارُ؟ قُلْتُ - وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ -: الثَّانِي؛ لِأَنَّ الْجَمَلَ كُلَّهُا حَيْثُودَ وَارِدَةٌ عَلَى التَّعْلِيلِ الْمُتَدَاخِلِ، كَمَا يُفْهَمُ مِنْ كَلَامِهِ، فَكَأَنَّهُ لَمَّا قِيلَ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾، فَقِيلَ: لِمَ؟ فَأُجِيبَ: لِأَنَّهُ مِنْ شَأْنِنَا التَّحْذِيرُ وَالْعِقَابُ، فَقِيلَ: لِمَ خُصِّصَ الْإِنْزَالُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ؟ فَقِيلَ: لِأَنَّهُ مِنَ الْأُمُورِ الْمُحْكَمَةِ، وَمِنْ شَأْنِ هَذِهِ اللَّيْلَةِ أَنْ يُفَرِّقَ فِيهَا كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ، فَقِيلَ: لِمَ كَانَ مِنَ الْأُمُورِ الْمُحْكَمَةِ؟ فَأُجِيبَ: لِأَنَّ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ أَرَادَ إِرْسَالَ رَحْمَةٍ لِلْعَالَمِينَ، وَمِنْ حَقِّ الْمُنْزَلِ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ حَكِيمًا؛ لِكُونِهِ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، فَقِيلَ: لِمَاذَا رَحِمَهُمُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ؟ فَأُجِيبَ: لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ وَحْدَهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، يَعْلَمُ جُزْئِيَّاتِ أَحْوَالِ عِبَادِهِ وَكَلِّيَّاتِهَا، وَيَعْلَمُ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ دُنْيَا وَآخِرَةً، وَهُوَ وَحْدَهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يُرَبِّبُهُمْ وَيَرْزُقُهُمْ وَيَمْنَحُهُمْ مَرَافِقَهُمْ، وَهُوَ وَحْدَهُ يُحْيِيهِمْ وَيُمِيتُهُمْ، وَيُحْيِيهِمْ وَيُعَاقِبُهُمْ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وَمَا بَعْدَهُ تَحْقِيقُ لِرُبُوبِيَّتِهِ، وَأَمَّا لَا تَسْحِقُ إِلَّا لِمَنْ هَذِهِ أَوْصَافُهُ.

وَفَضَّلَ كُلَّ أَمْرٍ مِنْ قِسْمَةِ الْأَرْزَاقِ وَغَيْرِهَا: مِنْ بَابِ الرَّحْمَةِ، وَكَذَلِكَ الْأَوْامِرُ الصَّادِرَةُ مِنْ جِهَتِهِ عَزَّ وَعَلَا، لِأَنَّ الْغَرَضَ فِي تَكْلِيفِ الْعِبَادِ تَعْرِضُهُمْ لِلْمَنَافِعِ، وَالْأَصْلُ: إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنَّا، فَوَضَعَ الظَّاهِرَ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ؛ إِذْ نَأْنَى أَنَّ الرَّبُّوِيَّةَ تَقْتَضِي الرِّحْمَةَ عَلَى الْمَرْبُوبِينَ.

وفي قراءة زيد بن علي: «أمر من عندنا»؛ علي: هو أمر، وهي تنصُرُ انتصابه على الاختصاص. وقرأ الحسن: «رحمة من ربك»، علي: تلك رحمة، وهي تنصُرُ انتصابها بأنها مفعول له.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وما بعده: تحقيق لرُبُوبِيَّتِهِ، وَأَنَّهَا لَا تَحِقُّ إِلَّا لِمَنْ هَذِهِ أَوْصَافُهُ، وَقُرئ: «رَبِّ السَّمَاوَاتِ» «رَبِّكُمْ وَرَبِّ آبَائِكُمْ» بِالْجَرِّ؛ بَدَلًا مِنْ ﴿رَبِّكَ﴾.

فإن قلت: ما معنى الشَّرْطِ الَّذِي هُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾؟ قلت: كانوا يُقَرُّونَ أَنَّ لِلْسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبًّا وَخَالِقًا،

قوله: (علي: تلك رحمة من ربك) (١): وهي تنصُرُ انتصابها مفعولاً له (٢)، وقال صاحب «التقريب»: إذ لو كانت مفعولاً به لَدَلَّ اللَّفْظُ عَلَى أَنَّ الْمُرْسَلَ رَحْمَةً، لَا الْإِرْسَالَ، وَفِيهِ نَظَرٌ. وَقَلْتُ: كَلَامُ الْمُصَنِّفِ لَا يُشْعِرُ بِذَلِكَ، بَلْ فِيهِ: أَنَّ ﴿رَحْمَةً﴾ إِذَا قُطِعَتْ وَجُعِلَتْ جُمْلَةً مُسْتَأْنَفَةً تَعَيَّنَتْ لِيَبَانِ الْمَوْجِبِ لِلْإِرْسَالِ.

قوله: (كانوا يُقَرُّونَ أَنَّ لِلْسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبًّا): هَذَا الْفَضْلُ إِلَى آخِرِهِ فِي بَيَانِ الْإِشَارَاتِ وَالتَّلْوِيحَاتِ الَّتِي تَصَمَّنَتْ الْآيَاتُ؛ بِدَأِ اللّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِتَعْظِيمِ الْأَلُوْهِيَةِ، وَتَعْظِيمِ كِتَابِهِ الْحَكِيمِ، وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ، حَيْثُ أَتَى بِالصَّبِيغَةِ الْمُنْبَهَةِ عَلَى الْجَلَالِ وَالْكَبْرِيَاءِ، وَهِيَ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، ثُمَّ حَصَّ الْخِطَابَ بِرَسُولِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَالْمُرَادُ

(١) كذا في الأصول الخطية، وكذا هو في نص «الكشاف» من (ط)، لكن قوله «من ربك» ليس في الأصل الخطي من «الكشاف» ولا في المطبوع.

(٢) في الأصول الخطية: «مفعول له»، وله وجه، ولكن النصب أولى.

فَقِيلَ لَهُمْ: إِنَّ إِرْسَالَ الرُّسُلِ وَإِنزَالَ الكُتُبِ رَحْمَةٌ مِنَ الرَّبِّ، ثُمَّ قِيلَ: إِنَّ هَذَا الرَّبُّ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ الَّذِي أَنْتُمْ مُقَرَّرُونَ بِهِ، وَمُعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، إِنَّ كَانَ إِقْرَارُكُمْ عَنْ عِلْمٍ وَإِيقَانٍ، كَمَا نَقُولُ: إِنَّ هَذَا إِنْعَامٌ زَيْدٌ الَّذِي تَسَامَعُ النَّاسُ بِكَرَمِهِ،

الْعُمُومِ، وَأَنَّ الْأَصْلَ: ﴿مَنْ زَيَّرَكَ﴾، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «فَقِيلَ لَهُمْ: إِنَّ إِرْسَالَ الرُّسُلِ وَإِنزَالَ الكُتُبِ رَحْمَةٌ مِنَ الرَّبِّ»، فَوَضَعَ «الرَّبَّ» مَوْضِعَ «الرَّبِّ» مَوْضِعَ «مِنَّا»؛ لِيُؤْذِنَ بِأَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ تَقْتَضِي الرَحْمَةَ عَلَى الْمَرْبُوبِينَ، وَلِيَكُونَ تَمْهِيداً يَبْنِي عَلَيْهِ التَّعْلِيلَ الْمُتَضَمِّنَ لِلتَّعْرِيزِ؛ بِتَوْسِيطِ ضَمِيرِ الْفَضْلِ وَتَعْرِيفِ الْخَبَرِ، لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ أَهْلَهُمْ لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئاً، وَإِلَى التَّعْلِيلِ وَالتَّعْرِيزِ أَشَارَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. وَمَا بَعْدَهُ تَحْقِيقُ لِرُبُوبِيَّتِهِ، وَأَنَّهَا لَا تَحِقُّ إِلَّا لِمَنْ هَذِهِ أَوْصَافُهُ، وَفِي تَخْصِيسِ ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ إِدْمَاجٌ^(١) لِمَعْنَى التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ لِلْكَفَّارِ، وَالْوَعْدِ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ تَلَقَّوْا هَذِهِ النِّعْمَةَ بِأَنْوَاعِ الشُّكْرِ.

ثُمَّ نَبَّهَ الْكَفَّارَ عَنْ سِنَةِ الْعَقْلَةِ وَالتَّقَاعُدِ عَنْ مُوجِبَاتِ الشُّكْرِ، فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ مِنْ خِطَابِ الرُّسُولِ ﷺ، مُوَبِّحاً بِمَا اشْتَهَرَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْوَصْفِ الَّذِي لَا بُدَّ لَهُمْ أَنْ يُقَرُّوا بِهِ، فَأَبْدَلَ مِنْ ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ، يَعْنِي: هَذَا الْمَذْكُورُ مِنْ إِنزَالِ الكُتُبِ وَإِرْسَالِ الرُّسُولِ ﷺ رَحْمَةٌ وَإِنْعَامٌ مِمَّنْ تُقَرُّونَ بِهِ، وَتَقُولُونَ: إِنَّهُ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، فَمَا هَذَا التَّهَاؤُنُ، فَاقْبَلُوهَا وَاعْتَمِنُوا الْفُرْصَةَ إِنْ كُنْتُمْ تَدْعُونَ الْإِيقَانَ.

وَقَدْ أَشَارَ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: «إِنَّ بَلَغَكَ حَدِيثُهُ»؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مَشْهُورٌ عِنْدَهُ، وَلَمْ يَكُنِ الْإِعْلَامُ إِلَّا لِلتَّنْبِيهِ عَلَى التَّهَاؤُنِ؛ لِيَقَامَ الشُّكْرُ عَلَى إِنْعَامِهِ، وَالشَّرْطُ يَقْتَضِي ذَلِكَ، لِأَنَّهُ مِنْ بَابِ قَوْلِ الْعَامِلِ^(٢): إِنْ كُنْتُ عَمِلْتُ فَأَعْطِنِي حَقِّي.

(١) تَقَدَّمَ مَعْنَى الْإِدْمَاجِ عِنْدَ تَفْسِيرِ الْآيَةِ ١١٥ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ (٧: ٣٨١) تَعْلِيقاً.

(٢) تَحَرَّفَ فِي (ح) إِلَى: «الْقَاتِلُ».

واشتهروا سخاءه، إن بلغك حديثه وحُدثت بقصته.

[﴿بَلْ هُمْ فِي شَكِّ يَلْعَبُونَ﴾ * فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشى النَّاسُ

هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿٩-١٢﴾]

ثم ألزمهم بعد هذا التقرير البليغ كلمة التقوى، وهي: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، ثم خصَّ التريبة بهم وبأسلافهم جارياً على سنن الخطاب ﴿رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾، ومقررراً لزيد توخى شكر تلك الرحمة السننية، وهذه النعمة الجليلة.

ثم لفرط عنادهم وعدم إيقانهم التفت من الخطاب في قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكِّ يَلْعَبُونَ﴾، فبعدهم وطردهم؛ إيداناً بأنهم مع إيقانهم ذلك منزّلون منزلة الشاكين، حيث لم يعملوا بموجبه، وخلطوا مع اليقين الهزء واللعب، كما قال: «قول مخلوط بهزء ولعب».

ثم التفت إلى حبيبه صلوات الله عليه مسلياً له وإقناطاً من إيمانهم، بقوله: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾، فقابل إنزال الكتاب بإنزال العقاب من السماء، يعني: إنزال الكتاب رحمة لهم، وحين أعرضوا عنه انتظر إنزال العذاب، وأسند «العذاب» إلى «السماء»، وإن كان هو الفاعل حقيقة؛ ليكون على وزان قوله تعالى: ﴿أَنسَتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾^(١) [الفاحة: ٧]، والله أعلم بأسرار كلامه.

قوله: ﴿إِنْ بَلَغَكَ حَدِيثُهُ﴾: عن بعضهم: فائدة قوله: ﴿إِنْ بَلَغَكَ حَدِيثُهُ﴾: التنبيه للمخاطب أن من حَقَّك أن تكون عالماً به، ولا تكون غافلاً عن مثله، فتغتر به، فإنه من أمر عظيم، فكذلك الشرط في الآية، ويراد تعيير المخاطب على الغفلة عنه.

ويروى: «واشتهروا سخاءه» بالنصب^(٢)؛ لأن «اشتھر» يستعمل لازماً ومتعدياً.

(١) أي: من نسبة الخير والنفع إليه، وعدم نسبة الشر والضر إليه، سبحانه وتعالى، وإن كان الأمر في الحالين منه، كما هو اعتقاد أهل السنة والجماعة، ولذلك حكّم - تنظراً في الآيات التي وقع فيها مثل ذلك تفصيلاً -، فضلاً عن التأدب معه تبارك وتعالى.

(٢) وكذا هو في الأصل الخطي من «الكشاف»، وفي متنه من (ط)، ووقع في المطبوع: «واشتهروا سخاؤه»، ولعل وجهه أن يكون «إسخاؤه» معطوفاً على «إنعام زيد»، لكن لم تقف على استعمال الفعل «أسخى إسخاء».

ثم ردّ أن يكونوا موقنين بقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكِّ يَلْعَبُونَ﴾، وأن إقرارهم غير صادرٍ عن علم وتيقن، ولا عن جدّ وحقيقة، بل قولٌ مخلوطٌ بهزءٍ ولعبٍ.

﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ﴾ مفعولٌ به مُرتَقِبٌ، يُقال: رَقِبْتُهُ وارتَقَبْتُهُ، نحو: نَظَرْتُهُ وانتَظَرْتُهُ. واختُلِفَ في الدُّخَانِ: فعن عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه، وبه أخذ الحسن: أنه دُخَانٌ يأتي مِنَ السَّمَاءِ قَبْلَ يومِ القِيَامَةِ، يَدْخُلُ في أَسْمَاعِ الكُفْرَةِ، حتّى يَكُونُ رَأْسُ الوَاحِدِ مِنْهُمْ كَالرَّأْسِ الحَنِيذِ، وَيَعْتَرِي المُؤْمِنَ مِنْهُ كَهَيْئَةِ الرُّكَامِ، وتكونُ الأَرْضُ كُلُّهَا كَبَيْتٍ أُوقِدَ فِيهِ، لَيْسَ فِيهِ خِصَاصٌ.

وعن رسولِ الله ﷺ: «أولُ الآياتِ: الدُّخَانُ، وتُزُولُ عيسىُ ابنُ مريمَ، ونازٌ تخرجُ مِنَ قَعْرِ عَدَنَ ابْنِ، تَسُوقُ النَّاسَ إلى المَحْشَرِ»، قال حُذَيْفَةُ: يا رسولَ الله، وما الدُّخَانُ؟ فتلا رسولُ الله ﷺ الآيةَ، وقال: «يَمَلَأُ ما بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ، يَمَكُثُ أربعينَ يوماً وليلةً، أما المُؤْمِنُ فيُصِيبُهُ كَهَيْئَةِ الرُّكْمَةِ، وأما الكافرُ فهو كَالسَّكْرانِ، يَخْرُجُ مِنْ مَنْخَرِهِ وَأُذُنَيْهِ وَدُبْرِهِ».

وعن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه: خَمْسٌ قَدْ مَضَّتْ: الرُّومُ، والدُّخَانُ،

قوله: (ليس فيه خصاص): النهاية: «الخصاص: الفرجُ والأنقاب».

قوله: (أبين): بكسر الهمزة وفتحها، وهو اسمُ رجلِ بنى هذه المدينة، والمشهورُ الفَتْحُ، و«عَدَن»: غيرُ مُنْصَرَفٍ.

قوله: (خمسٌ قد مضت)، وقوله: (إن قاصاً عند أبواب كِنْدَةَ): الحديثُ معَ تغييرٍ في الألفاظِ والمعاني أخرجهُ البخاريُّ ومُسلمٌ والترمذيُّ^(١) عن مسروق، وعنه قال: «كُنَّا جُلُوساً عندَ عبدِ الله بنِ مسعودٍ، وهو مُضْطَجِعٌ، فأتاه رجلٌ»، الحديث.

(١) البخاري (٤٧٧٤) و(٤٨٠٩)، ومسلم (٢٧٩٨) (٣٩)، والترمذي (٣٢٥٤).

وانظر أيضاً ما أخرجهُ البخاري (١٠٠٧) و(٤٦٩٣) و(٤٧٦٧) و(٤٨٢٠-٤٨٢٤)، ومسلم (٢٧٩٨).

والقَمَر، والبَطْشَة، واللِّزَام. ويُروى أنه قيل لابن مسعود: إن قاصاً عند أبواب كِنْدَةَ يقول: إنه دُخَانٌ يأتي يومَ القيامة، فيأخذُ بأنفاسِ الخلق، فقال: مَنْ عَلِمَ علماً فليقلْ به، ومَنْ لم يَعْلَمْ فليقلْ: اللهُ أعلم، فإنَّ منِ علمِ الرجلِ أن يقولَ لشيءٍ لا يَعْلَمُه: اللهُ أعلم، ثم قال: ألا وسأحدِّثُكم، إن قُرَيْشاً لَمَّا اسْتَعَصَتْ على رسولِ اللهِ ﷺ دعا عليهم، فقال: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ على مُضْر، واجعلها عليهم سِنِينَ كَسَنِي يُوْسُفَ»، فأصابهم الجهد، حتى أكلوا الجِيفَ والعِلْهَز، وكان الرجلُ يرى بين السماء والأرضِ الدُّخَانَ، وكان يُحدِّثُ الرجل، فيسمعُ كلامه ولا يراهُ مِنَ الدُّخَانَ، فمَشَى إليه أبو سَفِيانَ ونَفَرَ معه، وناشَدوه اللهُ والرَّحِمَ، وواعدوه إن دعا لهم وكُشِفَ عنهم أن يؤمنوا، فلما كُشِفَ عنهم رَجَعُوا إلى شِرْكِهِم.

﴿بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ ظاهر حاله لا يشكُّ أحدٌ في أنه دُخَان.

﴿يَعْتَشَى النَّاسُ﴾ يشتملُهم ويلبسُهم، وهو في محلِّ الجرِّ؛ صفةٌ لـ «دُخَانٍ». و﴿هَذَا عَذَابٌ﴾ إلى قوله: ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ منصوبٌ المحلُّ بفعلٍ مُضمر، وهو: يقولون، و«يقولون» منصوبٌ على الحال، أي: قائلين ذلك، ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ موعدةٌ بالإيمان إن كُشِفَ عنهم العذاب.

قوله: (واللِّزَام): اللِّزَام: فسَّرَ بأنه يومٌ بَدْر، وهو في اللغة: الملازمةُ للشيءِ والمداومةُ عليه. و«اشْدُدْ وَطَأَتَكَ على مُضْر»: أي: خُذْهُم أخذاً شديداً. والوَطْءُ في الأصل: الدَّوْسُ بالقدَم، فسُمِّيَ به في الغزوِ والقَتْلِ، لأنَّ مَنْ يَطَأُ على الشيءِ برجله فقد استقصى في هلاكِهِ وإهانتِهِ. و«العِلْهَز»: شيءٌ يتَّخِذُونَهُ في المجاعة، يخلطونَ الدَّمَ بأوبارِ الإبل، ثم يشوونَه بالنارِ ويأكلونَه، وقيل: كانوا يخلطونَ فيه القِرْدانَ، والعِلْهَز: القِرَادُ الضَّخْمُ^(١)، وقيل: العِلْهَز: شيءٌ يَبْتُتُ له أصلٌ كأصلِ البَرْدِيِّ^(٢). كَلَهُ في «النهاية».

(١) القِرَاد: ما يتعلَّقُ بالبعيرِ ونحوه، وهو كالقَمَلِ للإنسان. «المصباح المنير» للفيومي، مادة (قرد).

(٢) نباتٌ تُعملُ منه الحُصْر. «المصباح المنير»، مادة (برد).

﴿ أَفَنُكْفَرُ بِمَا كُفِرْنَا بِهِ قَدِمْتُمْ بِهِ عَلَيْنَا وَنُكْفَرُ بِهِ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [١٣-١٦]

﴿ أَفَنُكْفَرُ بِمَا كُفِرْنَا بِهِ قَدِمْتُمْ بِهِ عَلَيْنَا وَنُكْفَرُ بِهِ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ وَيَتَعَطَّوْنَ وَيَفُونَ بِهَا وَعَدُوهُ مِنَ الْإِيمَانِ عِنْدَ كَشْفِ الْعَذَابِ، ﴿ وَقَدْ جَاءَهُمْ ﴾ مَا هُوَ أَعْظَمُ وَأَدْخَلَ فِي وَجُوبِ الْأَذْكَارِ مِنْ كَشْفِ الدُّخَانِ، وَهُوَ مَا ظَهَرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ؛ مِنَ الْكِتَابِ الْمُعْجِزِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ، فَلَمْ يَذْكُرُوا، وَتَوَلَّوْا عَنْهُ، وَبَهْتُوهُ بِأَنَّ عَدَاسًا - غُلَامًا أَعْجَمِيًّا لِبَعْضِ ثَقِيفٍ - هُوَ الَّذِي عَلَّمَهُ، وَنَسَبُوهُ إِلَى الْجَنُونَ.

ثم قال: ﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا أَتَّكَّرَ عَابِدُونَ ﴾ أَي: رَبَّنَا نَكْشِفُ عَنْكُمْ الْعَذَابَ تَعُودُونَ إِلَى شِرْكِكُمْ، لَا تَلْبَثُونَ غَيْبَ الْكَشْفِ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّضَرُّعِ وَالِابْتِهَالِ. فَإِنْ قُلْتُمْ: كَيْفَ يَسْتَقِيمُ عَلَى قَوْلِ مَنْ جَعَلَ الدُّخَانَ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ قَوْلُهُ: ﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ﴾؟

فإن قلت: فسرت اللزام بيوم بدر، وكذا فسره المصنف في آخر الفرقان، ثم لا يخلو أن يراد بـ«البطشة الكبرى»: يوم القيامة أو يوم بدر، فيلزم من الأول أن البطشة الكبرى مترتبة، ولقد روي في الحديث أنها قد مضت، ومن الثاني أن لا يكون المعدود خمسا؟ قلت: إذا وُصِفَ يَوْمٌ بِأَمْرَيْنِ: بِأَنَّ الْعَذَابَ كَانَ شَدِيدًا كَثِيرًا، وَأَنَّ ذَلِكَ الْعَذَابَ كَانَ مُلَازِمًا لِلْقَتْلِ كَمَا ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ؛ يَسْتَقِيمُ الْمَعْدُودُ، وَأَمَّا تَفْسِيرُ «الْبَطْشَةِ الْكُبْرَى» بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَهُوَ مُشْكِلٌ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُذْهَبَ إِلَى التَّغْلِيْبِ، أَوْ أَنْ مَا هُوَ كَاتِنٌ بِمَنْزِلَةِ الْكَاتِنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف: ٤٤] (١).

قوله: ﴿ فَإِنْ قُلْتُمْ: كَيْفَ يَسْتَقِيمُ عَلَى قَوْلِ مَنْ جَعَلَ الدُّخَانَ ﴾: تَحْرِيرُ السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ مَا ذُكِرَ فِي «التفسير الكبير»: «أَنَّهُ تَعَالَى حَكَمِي عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾،

(١) من قوله: «فإن قلت: فسرت اللزام» إلى هنا، سقط من (ح)، وأثبت من (ط)، وورد أوله في (ف) إلى قوله: «ثم لا يخلو أن يراد بالبطشة»، وانقطع الكلام.

قلت: إذا أتت السماء بالدخانِ تَصَوَّرَ الْمُعَذَّبُونَ به مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وقالوا: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ مُنِيبُونَ، فَيَكْشِفُهُ اللَّهُ عَنْهُمْ بَعْدَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَرَيْثَمَا يَكْشِفُهُ عَنْهُمْ يَرْتَدُّونَ لَا يَتَمَهَّلُونَ.

ثم قال: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ يُرِيدُ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْ الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى﴾ [النازعات: ٣٤]، ﴿إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ أَي: نَنْتَقِمُ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

فإن قلت: بِمَ انْتَصَبَ ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ﴾؟ قلت: بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ ﴿إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾،

هذا إِذَا حَمَلْنَاهُ عَلَى الْقَحْطِ الَّذِي وَقَعَ بِمَكَّةَ اسْتِقَامَ، فَإِنَّهُ يُقَالُ: أَنَّهُ لَمَّا اسْتَدَّتَّ الْقَحْطُ فِيهَا مَشَى أَبُو سُفْيَانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَنَاشَدَهُ الرَّحِمَ، وَوَعَدَهُ - إِنْ دَعَا لَهُمْ وَأَزَالَ اللَّهُ عَنْهُمْ تِلْكَ الْبَلِيَّةَ - أَنْ يُؤْمِنُوا، فَلَمَّا أَزَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَجَعُوا إِلَى شِرْكِهِمْ، أَمَا إِذَا حَمَلْنَاهُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ ظَهُورُ عِلْمِ الْقِيَامَةِ لَمْ يَصِحَّ ذَلِكَ، لِأَنَّ عِنْدَ ظَهُورِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ لَا يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يَقُولُوا: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾، وَلَمْ يَصِحَّ أَيْضًا أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا أَنْزَلْنَاهُ مِنْ عَالَمٍ مَعُونٍ﴾.

والجواب: لِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ظَهُورُ هَذِهِ الْعِلْمَةِ جَارِيًا مَجْرَى ظَهُورِ سَائِرِ عِلْمَاتِ الْقِيَامَةِ فِي أَنَّهُ لَا يُوجِبُ انْقِطَاعَ التَّكْلِيفِ، فَتَحْدُثُ هَذِهِ الْحَالَةُ، ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ يَخَافُونَ فَيَتَضَرَّعُونَ، فَإِذَا زَالَتْ تِلْكَ الْوَاقِعَةُ عَادُوا إِلَى الْكُفْرِ وَالْفِسْقِ، وَإِذَا كَانَ هَذَا مُحْتَمَلًا اسْتِقَامَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ﴾ مَعَ الْقَوْلِ بِأَنَّ الدُّخَانَ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَي: هُوَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ^(١).

قوله: (تَصَوَّرَ الْمُعَذَّبُونَ): الجوهري: «التَّصَوَّرَ: الصَّيَّحُ وَالتَّلَوِّيُّ عِنْدَ الضَّرْبِ أَوْ الْجُوعِ»، وَعَنْ بَعْضِهِمْ: تَصَوَّرَ: أَي غَلَبَ عَلَيْهِمُ الضَّعْفُ، مِنْ قَوْلِهِمْ: رَجُلٌ ضَوْرَةٌ، أَي: ضَعِيفٌ^(٢).

قوله: (لَا يَتَمَهَّلُونَ): تَمَهَّلَ فِي أَمْرٍ: أَي: أَتَادَ، وَتَمَهَّلَ: أَي: تَقَدَّمَ.

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٧: ٦٥٧).

(٢) هذه الفقرة (من: قوله: (تَصَوَّرَ الْمُعَذَّبُونَ)) إلى هنا، أُخْرِتْ فِي (ح) وَ(ف) بَعْدَ الَّتِي تَلِيهَا، وَوُرِدَتْ فِي

(ط) فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِتَرْتِيبِ الْكَلَامِ فِي «الْكَشَافِ».

وهو «نَتَمِّم»، ولا يَصِحُّ أَنْ يَتَّصِبَ بِ﴿مُنْتَقِمُونَ﴾، لَأَنَّ «إِنَّ» تَحْجُبُ عَنْ ذَلِكَ.
 وَقُرئ: «نَبْطُش» بِضَمِّ الطاء، وَقَرَأَ الْحَسَنُ: «نُبْطُش» بِضَمِّ التَّوْنِ، كَأَنَّهُ يَجْمَلُ الْمَلائِكَةَ
 عَلَى أَنْ يَبْطِشُوا بِهِمُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى، أَوْ يَجْعَلُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى بَاطِشَةً بِهِمْ.
 وَقِيلَ: ﴿الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾: يَوْمٌ بَدْر.

قوله: (لَأَنَّ «إِنَّ» تَحْجُبُ عَنْ ذَلِكَ): قَالَ الرَّجَّاحُ: ﴿يَوْمٌ﴾ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَنْصُوبًا
 بِقَوْلِهِ: ﴿مُنْتَقِمُونَ﴾؛ لِأَنَّ مَا بَعْدَ «إِنَّا» لَا يَجُوزُ أَنْ يَعْمَلَ فِيهَا قَبْلَهُ^(١). قَالَ: وَصَاحِبُ «الْكَشْفِ»
 نَصَبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ﴾^(٢). وَقَلْتُ: لَا يُسَاعِدُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا كَرَّ عَاهِدُونَ﴾، لِأَنَّ
 الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى: إِمَّا أَنْ تَكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقَدْ عَقَّبَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾.
 قوله: (كَأَنَّهُ يَجْمَلُ الْمَلَائِكَةَ عَلَى أَنْ يَبْطِشُوا): قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: يُقَالُ: أَبْطَشْتُهُ: إِذَا أَمَكَّتَهُ مِنْ
 الْبَطْشِ، أَي: نُبْطِشُ الْمَلَائِكَةَ^(٣)، فَعَلِي هَذَا: الْمَفْعُولُ بِهِ مَحذُوفٌ، وَيَجُوزُ أَنْ تَجْعَلَ ﴿الْبَطْشَةَ
 الْكُبْرَى﴾ مَفْعُولًا بِهِ عَلَى الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ، نَحْوُ: جَدَّ جَدَّهُ، وَ﴿يَسُّ الرِّقْدُ الْمَرْقُودُ﴾ [هود: ٩٩].
 وَقَالَ ابْنُ جَنِّي: «وَهِيَ قِرَاءَةُ الْحَسَنِ وَأَبِي رَجَاءٍ وَطَلْحَةَ بِخِلَافٍ، وَهَذَا مِنْ: بَطَّشَ هُوَ،
 وَأَبْطَشْتُهُ أَنَا، كَقَدَّرَ وَأَقْدَرْتُهُ، وَأَمَّا انْتِصَابُ ﴿الْبَطْشَةَ﴾ فَبفِعْلِ مُضْمَرٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ الظَّاهِرُ، أَي:
 يَوْمٌ نُبْطِشُ مَنْ نُبْطِشُهُ، فَيَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى، وَلِئِكَ أَنْ تَنْصِبَ ﴿الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ عَلَى أَنَّهُ
 مَفْعُولٌ بِهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: يَوْمٌ نُقَوِّي الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى عَلَيْهِمْ، وَنَمَكَّنْهَا مِنْهُمْ، كَقَوْلِكَ: يَوْمٌ نُسَلِّطُ
 الْقَتْلَ عَلَيْهِمْ، وَنُوسِعُ الْأَخْذَ مِنْهُمْ»^(٤).

الراغب: «البطش: تناول الشيء بصولة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطْشَتُمْ جَبَّارِينَ﴾

[الشعراء: ١٣٠]»^(٥).

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤: ٤٢٥).

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٢٢٠).

(٣) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٤٦).

(٤) «المحتسب» لابن جني (٢: ٢٦٠-٢٦١).

(٥) «مفردات القرآن» ص ١٢٩.

[«وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكَرَّمٌ رَسُولٌ آمِينَ * وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ * وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ * وَإِنَّ لَكُمْ لَكُمْ نَوْمًا لِي فَاتَمَرُونَهُ» ﴿١٧-٢١﴾]

وَقُرِي: «ولقد فَتَنَّا» بالتشديد؛ للتأكيد أو لوقوعه على القوم. ومعنى الفِتنَة: أنه أمهالهم ووسّع عليهم في الرزق، فكان ذلك سبباً في ارتكابهم المعاصي واقترافهم الآثام، أو: ابتلاهم بإرسال موسى إليهم ليؤمّنوا، فاختاروا الكفر على الإيمان، أو: سلبهم ملكهم وأغزفهم.

﴿كَرِيمٌ﴾ على الله وعلى عباده المؤمنين، أو كريم في نفسه، لأن الله لم يبعث نبياً إلا من سُراة قومه وكرامهم.

﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ﴾ هي «أن» المفسرة، لأن مجيء الرسول من بعث إليهم

قوله: («فَتَنَّا» بالتشديد؛ للتأكيد أو لوقوعه على القوم): يُريد: أنه على منوال المبالغة في قوله: «وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ» [ق: ٢٩]، أي: «فَعَلَّ» للتكثير، وهو إما بحسب ذنوبهم العظيمة، يُعذبهم عذاباً شديداً، أو بحسب كثرتهم، لوقوعه على كثيرين، فيورغ فيهم.

الراغب: نحوه: قَتَلَ الرَّجُلَ وَقَتَلَ الْقَوْمَ.

قوله: (أو كريم في نفسه): الأساس: «كَرُمَ فُلَانٌ عَلَيْنَا كِرَامَةً، وَهُوَ عَلَيْنَا كِرَامَةً، وَأَكْرَمَ نَفْسَهُ بِالتَّقْوَى، وَأَكْرَمَهَا عَنِ الْمَعَاصِي، وَهُوَ يَتَكْرَّمُ عَنِ الشَّوَائِنِ، قَالَ أَبُو حِيَةَ^(١):

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنِّي إِذَا نَفْسُ أَشْرَفَتْ عَلَى طَمَعِ^(٢) لَمْ أُنْسَ أَنْ أَتَكْرَّمَا»
وقلت: وعليه قوله تعالى: «وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا» [الفرقان: ٧٢].

قوله: (مَنْ بُعِثَ إِلَيْهِمْ): نَصَبٌ بِنَزْعِ الْخَافِضِ، أَي: إِلَى مَنْ بُعِثَ إِلَيْهِمْ.

(١) كذا في الأصول الخطية، وذكر البيت بعده، والبيت لنافع بن سعد الطائي، كما في «الحجاسة» ص ٢١٤، لا

لأبي حية، وفي «أساس البلاغة»: «قال أبو حية: وإن أجَلَّ المكارم اجتناب المحارم».

(٢) تحرف في (ح) و(ف) إلى: «على طبع»، والمثبت من (ط) و«أساس البلاغة» للزمخشري.

مُتَّصَمِّنٌ لِمَعْنَى الْقَوْلِ، لَأَنَّهُ لَا يَجِيئُهُمْ إِلَّا مُبَشَّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ. أَوْ الْمُخَفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَمَعْنَاهُ: وَجَاءَهُمْ بِأَنَّ الشَّأْنَ وَالْحَدِيثَ: أَدُّوا إِلَيَّ.

﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ مفعولٌ به، وهم بنو إسرائيل، يقول: أَدُّوهُمْ إِلَيَّ وَأَرْسِلُوهُمْ مَعِيَ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧]، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نِدَاءً لَهُمْ؛ عَلَى: أَدُّوا إِلَيَّ - يَا عِبَادَ اللَّهِ - مَا هُوَ وَاجِبٌ لِي عَلَيْكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ لِي وَقَبُولِ دَعْوِي وَأَتْبَاعِ سَبِيلِي، وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ غَيْرُ ظَنِينٍ، قَدْ اتَّصَمَنَهُ اللَّهُ عَلَى وَحْيِهِ وَرِسَالَتِهِ.

﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا﴾: «أَنْ» هَذِهِ مِثْلُ الْأُولَى فِي وَجْهَيْهَا، أَي: لَا تَسْتَكْبِرُوا، ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ بِالْإِسْتِهَانَةِ بِرَسُولِهِ وَوَحْيِهِ، أَوْ: لَا تَسْتَكْبِرُوا عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ، ﴿سُلْطَنٌ مُبِينٌ﴾ بِحُجَّةٍ وَاضِحَةٍ.

﴿أَنْ تَرْجُمُونَ﴾ أَنْ تَقْتُلُونَ، وَقُرِئَ: «عُدَّتْ» بِالْإِدْغَامِ،

قوله: (أَوْ الْمُخَفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ): وَعَنْ بَعْضِهِمْ: إِذَا كَانَتْ مُخَفَّفَةً مِنَ الثَّقِيلَةِ يَجِبُ أَنْ تُعَوَّضَ بِأَحَدِ الْحُرُوفِ الْأَرْبَعَةِ: النَفْيِ، وَقَدْ، وَسَوْفَ، وَالسَّيْنِ؛ بَدَلًا مِمَّا ذَهَبَ مِنْهَا، وَهَاهُنَا مَا عَوَّضَ، وَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ «أَنْ» الَّتِي مَعَهَا الْفِعْلُ فِي تَأْوِيلِ الْمَصْدَرِ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ الْأَفْعَالِ سِوَاءٍ فِي هَذَا الْحُكْمِ، أَمْرًا كَانَ أَوْ مَضَارِعًا أَوْ غَيْرَهُمَا.

قوله: ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ غَيْرُ ظَنِينٍ: النِّهَايَةُ: «وَفِي الْحَدِيثِ: «لَا تَجُوزُ شَهَادَةُ ظَنِينٍ»^(١)، أَي: مُتَّهَمٌ فِي دِينِهِ، فَعِيلٌ بِمَعْنَى: مَفْعُولٌ؛ مِنَ الظَّنِّ: التُّهْمَةُ، يُرِيدُ: أَنَّ التَّعْلِيلَ بِقَوْلِهِ: ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ تَرْشِيحٌ لِاسْتِعَارَةِ ﴿أَدُّوا إِلَيَّ﴾ لِقَبُولِ الدَّعْوَةِ، وَمَنْ ثَمَّ قَالَ: «أَدُّوا إِلَيَّ مَا هُوَ وَاجِبٌ عَلَيْكُمْ». قوله: «(أَنْ) هَذِهِ مِثْلُ الْأُولَى فِي وَجْهَيْهَا»: أَي: فِي أَنْ تَكُونَ مُفَسَّرَةً أَوْ مُخَفَّفَةً مِنَ الثَّقِيلَةِ. قوله: «(عُدَّتْ) بِالْإِدْغَامِ»: وَهِيَ الْمَشْهُورَةُ^(٢).

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٢٩٨) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) كَذَا فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ! وَمَعْنَاهُ: أَنَّ الْقِرَاءَةَ بِالْإِظْهَارِ شَاذَةٌ، لَيْسَتْ فِي السَّبْعَةِ وَلَا فِي الْعَشْرِ - كَمَا هُوَ مِنْهُجُ الْمُؤَلَّفِ فِي مِثْلِ هَذَا الْإِطْلَاقِ - وَلَيْسَ كَذَلِكَ، فِدَاغَامُ الذَّالِ فِي التَّاءِ: هِيَ قِرَاءَةُ أَبِي عَمْرٍو وَحَمَزَةٌ =

ومعناه: أنه عائذٌ بربِّه مُتَكِلٌ على أنه يَعِصُمُهُ منهم ومن كَيْدِهِمْ، فهو غيرُ مُبَالٍ بما كانوا يَتَوَعَّدُونَهُ به مِنَ الرَّجْمِ وَالْقَتْلِ.

﴿فَاعْتَرِضُوا﴾ يُريد: إن لم تُؤْمِنُوا لي، فلا مَوَالاةَ بيني وبين مَنْ لا يُؤْمِن، فَتَنَحَّوا عني، واقطَعُوا أسبابَ الوُضلةِ عني، أو فَحَلُّوني كَفَافاً لا لي ولا عليّ، ولا تَتَعَرَّضُوا لي بِشَرِّكُمْ وأذاكم، فليسَ جزاءً مَنْ دعاكم إلى ما فيه فلاحكم ذلك.

[﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ تُجْرِمُونَ﴾ * فَأَسْرِبَعَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ * وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُعْرَفُونَ﴾ ٢٢-٢٤]

قوله: (فلا مَوَالاةَ بيني وبين مَنْ لا يُؤْمِن): يُريد: أن قوله: ﴿فَاعْتَرِضُوا﴾ مُسَبَّبٌ عن جواب الشَّرْطِ، وأقيمَ مقامه، وإنما عَمَّ ولم يقل: فلا مَوَالاةَ بيني وبينكم؛ لِيُؤذَنَ بأنَّ هذا دأبه وعادته، وليسَ مُخْتَصِصاً بهم.

الراغب: «الاعتزال: تَجَنُّبُ الشيء؛ عَمَالَةً كانت أو براءةً أو غيرهما، بِالْبَدَنِ كَانَ أَوْ بِالْقَلْبِ، يُقَالُ: عَزَلْتُهُ وَتَعَزَّلْتُهُ فَاعْتَرَلَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾: أَي: مَمْنُوعُونَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا يُمَكِّنُونَ، وَالْأَعْزَلُ: الَّذِي لَا رُمُحَ مَعَهُ»^(١).

قوله: (أو فَحَلُّوني كَفَافاً): عطف على: «فَتَنَحَّوا عني»، وعلى هذا الوجه: ﴿فَاعْتَرِضُوا﴾: كِنَايَةٌ عَنِ تَرْكِه، وَإِنْ لَمْ يُوجَدِ الْعِتْرَالُ بِالْأَبْدَانِ.

النهاية: «وفي حديثِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَدِدْتُ أَنِّي سَلِمْتُ مِنَ الْخِلَافَةِ كَفَافاً، لَا عَلِيَّ وَلَا لِي»؛ الْكِفَافُ: هُوَ الَّذِي لَا يَفْضُلُ عَنِ الشَّيْءِ، وَيَكُونُ بِقَدْرِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَهُوَ نَصْبٌ عَلَى الْحَالِ، وَقِيلَ: أَرَادَ بِهِ: مَكْفُوفاً عَنِّي شَرُّهَا، وَقِيلَ: مَعْنَاهَا: أَنْ لَا تَنَالَ مِنِّي وَلَا أَنَالَ مِنْهَا، أَي: تَكُفُّ عَنِّي وَأَكُفُّ عَنْهَا».

= والكسائي، وإظهار الذال والتاء: هي قراءة ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر. انظر: «التيسير في القراءات السبع» لأبي عمرو الداني ص ٤٤، و«النشر في القراءات العشر» لابن الجزري (٢: ١٦).

(١) «مفردات القرآن» ص ٥٦٤.

﴿أَنْ هَتُولَاءِ﴾ بَأَنَّ هَوْلَاءِ، أي: دعا ربّه بذلك، قيل: كَانَ دَعَاؤُهُ: اللَّهُمَّ عَجِّلْ لِمَنْ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ بِإِجْرَامِهِمْ، وقيل: هو قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥]، وإنما ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى السَّبَبَ الَّذِي اسْتَوْجَبُوا بِهِ الْهَلَاكَ، وهو كَوْنُهُمْ مُجْرِمِينَ. وَقُرِي: «إِنَّ هَوْلَاءِ» بِالْكَسْرِ؛ عَلَى إِضْمَارِ الْقَوْلِ، أَي: فدعا ربّه فقال: إِنَّ هَوْلَاءِ.

﴿فَأَسْرٍ﴾ قُرِيَّ بِقَطْعِ الْهَمْزَةِ؛ مِنْ: أُسْرِي، وَوَصَلِهَا؛ مِنْ: سَرَى، وَفِيهِ وَجْهَانُ: إِضْمَارُ الْقَوْلِ بَعْدَ الْفَاءِ؛ فَقَالَ: أُسْرٍ بَعْدَادِي، وَأَنْ يَكُونَ جَوَابَ شَرْطٍ مَحذُوفٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: قَالَ: إِنَّ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ فَأُسْرٍ، ﴿بِعِبَادِي﴾ يَعْنِي: فَأُسْرٍ بِنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَدْ دَبَّرَ اللهُ أَنْ تَتَقَدَّمُوا وَيَتَّبِعَكُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، فَيُنَجِّي الْمُتَقَدِّمِينَ، وَيُغْرِقُ التَّالِبِينَ. الرَّهْوُ: فِيهِ وَجْهَانُ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ السَّاكِنُ، قَالَ الْأَعْمَشِيُّ:

يَمْشِينَ رَهْوًا فَلَا الْأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ
وَلَا الصُّدُورُ عَلَى الْأَعْجَازِ تَتَكَلِّ

قوله: (قيل: كَانَ دَعَاؤُهُ: اللَّهُمَّ عَجِّلْ): يَعْنِي: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ دَعَاؤُهُ هَذَا الْمَذْكُورَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ عَلَى تَقْدِيرِ الْبَاءِ، أَي: دَعَا رَبَّهُ بِأَنَّ - يَا رَبِّ - هَوْلَاءِ الْمُشْخَصُونَ الْمُشَاهِدُونَ تَنَاهَى أَمْرُهُمْ فِي الْكُفْرِ غَايَتَهُ، فَافْعَلْ بِهِمْ مَا هُمْ أَهْلُهُ، لِأَنَّ الْكَافِرَ إِذَا وُصِفَ بِالْإِجْرَامِ كَانَ مُتَنَاهِيًا فِي الْكُفْرِ.

أَوْ يَكُونَ الدُّعَاءُ مَحذُوفًا، وَالْمَذْكُورُ تَعْلِيلًا لَهُ، أَي: عَجَّلْ لِمَنْ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ؛ لِأَنَّهُمْ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ، أَوْ: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا، أَي: مِحْنَةً وَبَلَاءً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ؛ لِأَنَّ هَوْلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ، وَإِلَيْهِ أَشَارَ بِقَوْلِهِ: «وَأِنَّمَا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى السَّبَبَ الَّذِي اسْتَوْجَبُوا بِهِ الْهَلَاكَ»، أَي: اكْتَفَى بِالسَّبَبِ عَنِ الْمَسَبِّ لِظُهُورِهِ، فَأَجَابَ اللهُ دَعَاءَهُ، وَعَزَمَ عَلَى إِهْلَاكِهِمْ، وَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أُسْرٍ بَعْدَادِي لَيْلًا».

قوله: (﴿فَأَسْرٍ﴾ قُرِيَّ بِقَطْعِ الْهَمْزَةِ): بِالْوَصْلِ: نَافِعٌ وَابْنُ كَثِيرٍ، وَالباقون: بِقَطْعِهَا^(١).

قوله: (يَمْشِينَ رَهْوًا) الْبَيْتِ: وَالضَّمِيرُ فِي «يَمْشِينَ» لِلْإِبِلِ، «خَاذِلَةٌ»: أَي: تَارِكَةٌ، خَذَلَ

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ١٢٥، و«حجة القراءات» ص ٣٤٧.

أي: مَشِيًّا سَاكِنًا عَلَى هَيْئَةٍ، أَرَادَ مُوسَى لَمَّا جَاوَزَ الْبَحْرَ أَنْ يَضْرِبَهُ بَعْصَاهُ فَيَنْطَبِقَ، كَمَا ضَرَبَهُ فَانْفَلَقَ، فَأَمَرَ بِأَنْ يَتْرُكَهُ سَاكِنًا عَلَى هَيْئَتِهِ، قَارًّا عَلَى حَالِهِ؛ مِنْ انْتِصَابِ الْمَاءِ، وَكَوْنِ الطَّرِيقِ يَبَسًا، لَا يَضْرِبُهُ بَعْصَاهُ، وَلَا يُغَيِّرُ مِنْهُ شَيْئًا، لِيَدْخُلَهُ الْقَبْطُ، فَإِذَا حَصَلُوا فِيهِ، أَطْبَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

والثاني: أَنَّ الرَّهْوَ: الْفَجْوَةُ الْوَاسِعَةُ، وَعَنْ بَعْضِ الْعَرَبِ: أَنَّهُ رَأَى جَمَلًا فَالْجَا، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، رَهْوٌ بَيْنَ سَنَامَيْنِ. أَي: اتْرُكُهُ مَفْتُوحًا عَلَى حَالِهِ مُنْفَرِّجًا.

يَخْذُلُ خِذْلَانًا، وَهُوَ تَرْتُكُ نُضْرَةَ أَخِيكَ، يَصِفُ نُوْقًا سَالِكَاتِ أَرْضِ الْفَلَاةِ، أَي: يَمْشِيَنَّ مَشِيًّا عَلَى هَيْئَةٍ، فَلَا الْأَعْجَازُ تَخْذُلُ قَوَائِمَهَا، وَلَا الصُّدُورُ تَتَكَلَّمُ عَلَى أَعْجَازِهَا، أَي: لَسَنَّ بِكَثِيرَاتِ اللَّحْمِ. وَبَعْدَهُ:

فَهِنَّ مُعْتَرِضَاتُ وَالْحَصَى رَمِضٌ وَالرَّيْحُ سَاكِنَةٌ وَالظَّلُّ مُعْتَدِلٌ (١)

الراغب: «رَهْوًا: أَي: سَاكِنًا؛ وَقِيلَ: سَعَةٌ، وَهُوَ الصَّحِيحُ، وَمِنْهُ: الرَّهَاءُ: الْمَفَازَةُ الْمُسْتَوِيَّةُ، وَيُقَالُ: لِكُلِّ جَوْبَةٍ (٢) مُسْتَوِيَّةٍ يَجْتَمِعُ فِيهَا (٣) الْمَاءُ: رَهْوٌ، وَمِنْهُ قِيلَ: لَا شُقْعَةَ فِي رَهْوٍ» (٤).

قوله: «الْفَجْوَةُ الْوَاسِعَةُ»: الْجَوْهَرِيُّ: «الْفَجْوَةُ: الْفُرْجَةُ، وَالْمُتَّسِعُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ».

قوله: «جَمَلًا فَالْجَا»: الْجَوْهَرِيُّ: «الْفَالِجُ: الْجَمَلُ الضَّخْمُ ذُو السَّنَامَيْنِ، يُحْمَلُ مِنَ السُّنْدِ لِلْفِخْلَةِ (٥)».

(١) البیتان للقطامي، عمير بن شبيب التغلبي، كما في «الزهرة» لابن داود الأصبهاني (٢: ٧١١)، و«ديوان المعاني» لأبي هلال العسكري (٢: ١١٩).

وَالرَّمِضُ: شِدَّةُ الْحَرِّ، يُقَالُ: رَمِضَتِ الْأَرْضُ فِيهِ رَمِضَةٌ، كَمَا فِي «لِسَانِ الْعَرَبِ» لابن منظور (رمض).

(٢) هِيَ الْحَفْرَةُ الْمُسْتَدِيرَةُ الْوَاسِعَةُ. «لِسَانِ الْعَرَبِ» لابن منظور، مَادَةٌ (جوب).

(٣) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةُ: «فِيهِ»، وَالتَّصْوِيبُ مِنْ «مَفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ».

(٤) «مَفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ» ص ٣٦٨.

(٥) أَي: لِلضَّرَابِ وَطَلَبِ النَّسْلِ.

﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ وقرئ بالفتح؛ بمعنى: لأنهم.

[﴿كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ﴾ ٢٥-٢٧]

والمقام الكريم: ما كان لهم من المجالس والمنازل الحسنة، وقيل: المناير.

والنعمة: بالفتح: من التَّعْم، وبالكسر: من الإِنْعَام. وقرئ: ﴿فَكَاهِينَ﴾ و«فَكَاهِينَ».

[﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾]

[٢٨-٢٩]

﴿كَذَلِكَ﴾ الكاف منصوبة على معنى: مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها

﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾، أو في موضع الرفع؛ على: الأمر كذلك،

قوله: (والمقام الكريم: ما كان لهم من المجالس): الراغب: «كل شيء يشرف في بابه يُوصف

بالكرم، قال تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [القمان: ١٠]، وقال: ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ

كَرِيمٍ﴾، ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧]، ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وإذا

وُصِفَ اللهُ بِالكَرَمِ: فهو اسمٌ لإِحْسَانِهِ وَإِنْعَامِهِ الْمُتَظَاهِرِ، كقوله: ﴿إِن رَّبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]،

وإذا وُصِفَ بِهِ الْإِنْسَانُ: فهو اسمٌ لِلْأَخْلَاقِ وَالْأَفْعَالِ الْمَحْمُودَةِ الَّتِي تَظْهَرُ مِنْهُ^(١).

قوله: (وقرئ: ﴿فَكَاهِينَ﴾): وهي المشهورة.

قوله: (مثل ذلك الإخراج أخرجناهم): المُشَارُ إِلَيْهِ: الإِخْرَاجُ، ولم يَسْبِقْ فِي اللَّفْظِ مُصْرَحًا

به، لكن في الكلام ما دلَّ عليه، وهو قوله: ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾، وقوله: ﴿كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَّاتٍ

وَعُيُونٍ﴾، لأنه إنما تكونُ المُتَابَعَةُ إِذَا حَصَلَ الإِخْرَاجُ، قال أبو البقاء: «و﴿كَذَلِكَ﴾ الأمر^(٢)،

أي: الأمرُ كذلك، وقيل: التقدير: تَرَكَوْا كَذَلِكَ^(٣)».

(١) «مفردات القرآن» ص ٧٠٧.

(٢) لفظة «الأمر» ليست في «البيان».

(٣) «البيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٤٧).

﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ليسوا منهم في شيء من قرابة ولا دين ولا ولاء، وهم بنو إسرائيل، كانوا مُتَسَخَّرِينَ مُسْتَعْبِدِينَ في أيديهم، فأهلكهم الله على أيديهم، وأورثهم ملكهم وديارهم.

إذا مات رجلٌ خطيرٌ قالت العربُ في تعظيم مهلكه: بَكَتْ عليه السماءُ والأرضُ، وبَكَتْهُ الرِّيحُ، وأظلمتْ له الشمسُ، وفي حديثِ رسولِ الله ﷺ: «ما من مؤمنٍ مات في غربةٍ غابت فيها بواكيه، إلا بَكَتْ عليه السماءُ والأرضُ»، وقال جرير:

تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا

قوله: (في تعظيم مهلكه): أي: هلاكه، الجوهرى: «هَلَكَ الشَّيْءُ يَهْلِكُ هَلَاكًا وَهَلُوكًا وَمَهْلِكًا»^(١) وتَهْلُكَةُ، والاسم: الهُلُكُ؛ بِالضَّمِّ.

قوله: (وفي حديثِ رسولِ الله ﷺ): روى الترمذي^(٢) عن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما من مؤمنٍ إلا وله بابان، بابٌ يصعدُ منه عمله، وبابٌ ينزلُ منه رزقه، فإذا مات بكيا عليه، وذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾».

قوله: (تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا): أوله - في «المطلع» -:

الشمسُ طالعةٌ ليستْ بكاسفةٍ^(٣)

وقال: رثى جريرُ عمرَ بنَ عبدِ العزيز، ويروى برفع «النُّجُوم» ونصبها، يُعَاتِبُ الشَّمْسَ في طُلُوعِهَا، وكان من حَقِّهَا أن تكونَ كاسفةً باكيةً لِفَقْدِهِ، والمعنى على النَّصْبِ: تَبْكِي عَلَيْكَ بُكَاءَ النُّجُومِ، فَحَدَفَ المُضَافُ، والواو بمعنى «مع»، وقيل: أي: ليستْ بكاسفةٍ نُجُومَ اللَّيْلِ، وَقَدَّمَ «تَبْكِي عَلَيْكَ» بينَ فِعْلِ الشَّمْسِ ومفعولها، والمعنى: تَبْكِي عَلَيْكَ الشَّمْسُ^(٤)، كأنه

(١) وتَضَبَّطَ اللامُ فيه بالحركات الثلاث، كما في «صحاح» الجوهرى نفسه.

(٢) في «جامعه» برقم (٣٢٥٥).

(٣) «ديوان جرير» ص ٣٠٤.

(٤) توضيحه فيما قاله ابن منظور في «لسان العرب»، مادة (كسف): «ومعناه: أنها طالعةٌ تَبْكِي عَلَيْكَ، ولم تَكْسِفْ ضوءَ النُّجُومِ ولا القَمَرَ، لأنها في طُلُوعِهَا خاشعةٌ باكيةٌ لا تُورِّثُهَا». وفي هذا الموضع من «اللسان»: وجوهٌ أخرى في تفسير هذا البيت، فانظرها إن شئت.

وقالت الخارجية:

أيا شَجَرَ الخَابُورِ مالِكَ مُورِقاً كأنكَ لم تَجْزَعِ على ابنِ طَريفِ

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مُبالغةً في وُجُوب الجَزَع والبكاءِ عليه. وكذلك ما يروى عن ابن عباسٍ رضيَ اللهُ عنه؛ مِنْ بُكاءِ مُصلَّى المؤمنِ، وآثارِهِ في الأرضِ، ومَصاعِدِ عَمَلِهِ، ومَهَابِطِ رِزْقِهِ في السَّماءِ: تمثيل.

يَتَعَجَّبُ مِنَ الطُّلُوعِ، وقيل: كَانَ يَتَهَجَّدُ فبَكَيه النُّجُومُ والقَمَرُ، وَيَعْدِلُ بالنَّهَارِ فبَكَيه الشَّمْسُ، والشَّمْسُ غالبةٌ في البُكاءِ، لأنَّ العَدْلَ أَفْضَلُ، وهو مِنْ قولهم: بَاكَيتُهُ فبَكَيتُهُ؛ أي: كُنْتُ أبْكِي مِنْهُ، أي: طَلَعَتِ الشَّمْسُ ولكنْ مَعَ طُلُوعِهَا تبكي وتَغْلِبُ النُّجُومَ والقَمَرَ في البُكاءِ عَلَيْكَ. وروِيَ ما قَبْلَهُ:

نَعَى النُّعَاةُ^(١) أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِنَسَا
حُمَلَتْ أَمْرًا عَظِيمًا فَاصْطَبْرَتْ لَهُ
يا خَيْرَ مَنْ حَجَّ بَيْتَ اللَّهِ واعْتَمَرَ
وَقُمْتَ فِيهِ بِأَمْرِ اللَّهِ يا عَمْرًا

قوله: (أيا شَجَرَ الخَابُورِ) البيت: وبعده:

فَتَى لا يُحِبُّ الزادَ إِلا مِنَ التَّقَى
فلا تَجْزَعِ يا ابْنَ طَريفِ فإِنِّي
ولا المَسالَ إِلا مِنَ قَناءِ وَسُيوفِ
أرى الموتَ تَزالاً بِكُلِّ شَريفِ^(٢)

(١) تحرّف في (ح) و(ف) إلى: «بغى البغاة»، والمثبت من (ط)، وفي «ديوان جرير»: «تنعى النُّعَاة».

(٢) الأبيات لفارعة بنت طريف من قصيدة لها في رثاء أخيها الوليد بن طريف، كما في «فصل المقال» لأبي عبيد البكري ص ١٦٥، وقد ساقها بتامها العباسي في «معاهد التنصيص» (٣: ١٦١)، إلا أنه ذكر البيت الأخير بلفظ:

عليك سلامُ الله حَتْمًا فإِنِّي أرى الموتَ وَقاعًا بِكُلِّ شَريفِ

وكذا هو في «الأمالي» لأبي علي القالي ص ٢٧٤، وباللفظ الذي ساقه المؤلفُ ذكره أبو هلال العسكري في كتاب «الصناعتين» ص ١٢٣ غير أنه قال: «حَلالًا بِكُلِّ شَريفِ».

ونفى ذلك عنهم في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾، فيه تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقداه، فيقال فيه: بكت عليه السماء والأرض. وعن الحسن: فما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون، بل كانوا بهلاكهم مسرورين، يعني: فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض.

﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ لَمَّا جَاءَ وَقْتُ هَلَاكِهِمْ لَمْ يُنظَرُوا إِلَى وَقْتٍ آخَرَ، وَلَمْ يُمَهَّلُوا إِلَى الْآخِرَةِ، بَلْ عَجَّلَ لَهُمُ فِي الدُّنْيَا.

[﴿وَلَقَدْ بَجْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ٣٠-٣١]

﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾، كَأَنَّهُ فِي نَفْسِهِ كَانَ عَذَاباً مُهِيناً، لِإِفْرَاطِهِ فِي تَعْذِيبِهِمْ وَإِهَانَتِهِمْ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ وَأَقْعاً مِنْ جِهَةِ فِرْعَوْنَ. وَقُرِيءَ: «مِنْ عَذَابِ الْمُهِينِ»، وَوَجْهُهُ: أَنْ يَكُونَ تَقْدِيرُ قَوْلِهِ: ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾: مِنْ عَذَابِ فِرْعَوْنَ، حَتَّى يَكُونَ «الْمُهِينُ» هُوَ فِرْعَوْنَ.

وفي قراءة ابن عباس: «مَنْ فِرْعَوْنَ؟»؛ لَمَّا وَصَفَ عَذَابَ فِرْعَوْنَ بِالشَّدَةِ وَالْفِظَاعَةِ، قَالَ: «مَنْ فِرْعَوْنَ؟»، عَلَى مَعْنَى: هَلْ تَعْرِفُونَهُ مَنْ هُوَ فِي عِتْوِهِ وَشَيْطَانِيَّتِهِ؟ ثُمَّ عَرَفَ حَالَهُ فِي ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أَي: كَبِيراً رَفِيعَ الطَّبَقَةِ مِنْ بَيْنِهِمْ فَائِقاً لَهُمْ، بَلِيغاً فِي إِسْرَافِهِ، أَوْ: عَلِيًّا مُتَكَبِّراً، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]، وَ﴿مَنْ الْمُسْرِفِينَ﴾ خَبَرٌ ثَانٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّهُ كَانَ مُتَكَبِّراً مُسْرِفاً.

قوله: (واقعا من جهة فرعون): قال القاضي: «هو على هذا حال من ﴿الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾»^(١).

قوله: (و﴿مَنْ الْمُسْرِفِينَ﴾ خبر ثان): يؤذن أنه إذا فسّر ﴿عَالِيًّا﴾ بـ «مُتَكَبِّراً» يكون ﴿مَنْ الْمُسْرِفِينَ﴾ خبراً ثانياً، وإذا فسّر بـ «كبير» لا يكون خبراً، قال القاضي: «هو حيثُ أخذ حال من

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ١٦٢).

﴿وَلَقَدْ آخَرْتَنَّهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ * وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَكَاؤٌ مُّبِينٌ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿﴾ ٣٢-٣٤]

الضَّمِيرُ فِي ﴿آخَرْتَنَّهُمْ﴾ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَي: عَالِمِينَ بِمَكَانِ الْخَيْرَةِ، وَبأنهم أَحَقَّاءُ بَأَن يُخْتَارُوا، وَيَجُوزُ أَن يَكُونَ الْمَعْنَى: مَعَ عِلْمِ مَنْ بَأَنهم يَزِيدُونَ وَتَفَرُّطُ مِنْهم الْفَرَطَاتُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ، ﴿عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ عَلَىٰ عَالَمِي زَمَانِهِمْ، وَقِيلَ: عَلَى النَّاسِ جَمِيعاً لِكثْرَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْهم.

﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ مِنْ نَحْوِ فَلَقِ الْبَحْرِ، وَتَظْلِيلِ الْغَمَامِ، وَإِنزَالِ السَّمَنِ وَالسَّلْوَى، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْعِظَامِ الَّتِي لَمْ يُظْهِرِ اللَّهُ فِي غَيْرِهِمْ مِثْلَهَا، ﴿بَلَكَاؤٌ مُّبِينٌ﴾ نِعْمَةٌ ظَاهِرَةٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْلُو بِالنَّعْمَةِ كَمَا يَبْلُو بِالمُصِيبَةِ، أَوْ اخْتِبَارٌ ظَاهِرٌ لِنَتَظَرُّ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].

ضَمِيرُ ﴿عَالِيًا﴾^(١)، وَعَلَيْهِ كَلَامُ أَبِي الْبَقَاءِ^(٢). وَقَوْلُهُ: «رَفِيعُ الطَّبَقَةِ مِنْ بَيْنِهِمْ» إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ التَّرَكِيبَ مِنْ بَابِ قَوْلِهِمْ: «فُلَانٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ، أَي: لَهُ مُسَاهِمَةٌ فِيهِمْ».

قَوْلُهُ: (وَقِيلَ: عَلَى النَّاسِ جَمِيعاً لِكثْرَةِ الْأَنْبِيَاءِ): فَعَلَى هَذَا يَعُمُّ سَائِرَ الْأَزْمِنَةِ، الْمَعْنَى: قَوْمُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُخْتَارُونَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَقْوَامِ بَأَن تَكثُرَ الْأَنْبِيَاءُ مِنْهم، فَهَمَّ بِهَذَا الْمَعْنَى مُخْتَارُونَ. وَليْسَ هَذَا بَوَاجِهُ جَيِّدٌ.

قَوْلُهُ: (أَوْ اخْتِبَارٌ ظَاهِرٌ): يُؤْذِنُ بَأَن «البلاء» إِن فَسَّرَ بِالنَّعْمَةِ لَمْ يَكُنْ اخْتِبَاراً ظَاهِراً، وَقَدْ عَلَّلَهَا بِقَوْلِهِ: «لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْلُو بِالنَّعْمَةِ كَمَا يَبْلُو بِالمُصِيبَةِ»، وَإِن فَسَّرَ بِالمِخْنَةِ كَانَ ظَاهِراً، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ [البقرة: ١٥٥] الْآيَةَ، قَالَ فِي تَفْسِيرِهِ^(٣): «وَلَنُصِيبَنَّكُمْ بِذَلِكَ إِصَابَةً تُشْبِهُ فِعْلَ الْمُخْتَبِرِ لِأَحْوَالِكُمْ، هَلْ تَصْبِرُونَ وَتَتَّبِعُونَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ»

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ١٦٢).

(٢) انظر: «البيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٤٧).

(٣) الضمير في «تفسيره» يرجع إلى «قوله تعالى»، فالمعنى: قال الزمخشري في تفسير هذه الآية.

﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ * فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

[٣٦-٣٥]

﴿هَتُؤَلَاءُ﴾ إشارة إلى كُفَّارِ قُرَيْشٍ.

فإن قلت: كَانَ الْكَلَامُ وَإِعْآ فِي الْحَيَاةِ الثَّانِيَةِ، لَا فِي الْمَوْتِ، فَهَلَّا قِيلَ: إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ، كَمَا قِيلَ: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]؟ وما معنى قوله: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ﴾؟ وما معنى ذِكْرِ «الأولى»؟ كَأَنَّهُمْ وَعِدُوا مَوْتَهُ أُخْرَىٰ، حَتَّى نَفَوْهَا وَجَحَدُوهَا، وَأَثَبُوا الْأُولَىٰ؟

مِنَ الطَّاعَةِ، وَتُسَلِّمُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ أَمْ لَا؟»، وَالْمَعْنَى عَلَى الْأُولَى: لَنَبْلُوتُكُمْ بِالنَّعْمِ الْمُتَوَالِيَةِ الْمُتَظَاهِرَةِ، فَهَلْ تَشْكُرُونَ اللَّهَ وَتَزِيدُونَ فِي طَاعَاتِكُمْ، أَمْ تَتَجَبَّرُونَ وَتَرْمُونَ عُلوًّا فِي الْأَرْضِ وَفَسَادًا.

قوله: ﴿هَتُؤَلَاءُ﴾ إشارة إلى كُفَّارِ قُرَيْشٍ: وفيه تحقيرٌ لِشَأْنِهِمْ وَازْدِرَاءٌ بِهِمْ، وَهَذَا قَالَ: ﴿أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبَّعَ﴾ [الدخان: ٣٧].

اعلم أنه تعالى لَمَّا حَكَىٰ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِعْرَاضَهُمْ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَطَعَنَهُمْ فِيهِ، بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْنُونَ﴾ [الدخان: ١٣-١٤]، وَهَدَّدَهُمْ^(١) بِقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦]، وَضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجِجِيءَ رَسُولِ كَرِيمٍ إِلَيْهِمْ، وَقَصَدَهُمْ إِيَّاهُ، وَتَدْمِيرَ اللَّهِ وَقَطْعَ دَابِرِهِمْ؛ اعْتِبَارًا وَاتِعَاطًا، أَيْ: بِمَا هُوَ أَطْمٌ مِنَ الْأُولَى، وَهُوَ تَكْذِيبُ اللَّهِ بِأَنْ لَا بَعَثَ وَلَا حَشَرَ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ مَا خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، بَلْ خَلَقَهُمَا بِإِطْلَاقٍ، لِأَنَّهُ سَبَقَ مِرَارًا وَأَطْوَارًا أَنَّهُ تَعَالَىٰ مَا خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ إِلَّا لِيُوحَدَّ وَيُعْبَدَ، ثُمَّ لَا بُدَّ أَنْ يَجْزِيَ الْمُطِيعَ وَالْعَاصِيَّ، وَليست هذه دارُ الجزاءِ.

(١) من قوله: «وفيه تحقيرٌ لِشَأْنِهِمْ» إلى هنا، سقط من (ط).

قلت: معناه - والله الموفق للصواب - : أنه قيل لهم: إنكم تموتون مَوْتَةً تَتَعَبُّهَا حياة، كما تَقَدَّمْتُمْ مَوْتَةً قَدْ تَعَقَّبْتَهَا حياة، وذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]،

قوله: (معناه - والله الموفق للصواب - : أنه قيل لهم: إنكم تموتون مَوْتَةً تَتَعَبُّهَا حياة): قال صاحبُ «الانْتِصَافِ»: «أظهرُ من ذلك أنهم وُعدُوا بعدَ الحياةِ الدُّنيا حَالَتَيْنِ: موتٌ ثم بَعثٌ، وآمنوا بأولاهما، وهي الموت، ونَفُوُ الثانية وَسَمَّوها الأولى، وإن لم يَعْتَقِدُوا شيئاً بعدها، لأنهم نَزَلُوا جُهْدَهُم على الإثبات، وهذا أولى من حَمَلِ المَوْتِ الأولى على السابقة على الحياة الدنيا، لأنهم لا يَعْتَقِدُونَ الحَصْرَ في هذه الموتة، لأنهم اعتقدوا المَوْتَةَ التي تَعَقُبُ الحياة الدنيا، وحَمَلُ الحَصْرِ المَبَاشِرِ للمَوْتِ في كلامهم على صِفَةٍ لم تُذَكَرْ: عُدُولٌ عن الظاهر بلا حاجة، لأنَّ الموت السابق على الدنيا لا يُعَبِّرُ عنه بالموتة؛ لأنَّ فيها إشعاراً بالتجدد، والموت السابق مُسْتَصْحَبٌ لم تَقَدَّمْهُ حياة. هذا مع أنه في الآية الأخرى^(١) وافق على أن ما الموت إلا الموتة الأولى، وإنما عني بالموتة الأولى ما بعد الحياة الدنيا»^(٢).

الإنصاف^(٣): «إنما يُعَيَّنُ ذلك في هذه الآية القرينة: ﴿لَا يَذُوقُونَ﴾ [الدخان: ٥٦]، فالموتة الأولى لا يذوقونها، ويُبْطِلُ قول صاحب «الانْتِصَافِ» أن الأولى والأخرى لا تُسْتَعْمَلَانِ إلا فيما يُشْتَرَكُ فيه مَعَ ما قَرِنَتْ به في الشيء المذكور، فلا يَصِحُّ أن يُقال: جاءني رجلٌ وامرأةٌ أخرى، والموتة مُغَايِرَةٌ للحياة، فلا يَصِحُّ أن يُقالَ فيها: «أولى» بالنسبة إلى الحياة».

وقلت: وقوله: «وحمل الحصر المباشِر للموت في كلامهم على صِفَةٍ لم تُذَكَرْ: عُدُولٌ عن الظاهر»: منظورٌ فيه أيضاً؛ لأنَّ التعريفَ في «الموتة الأولى» للعهد، وهو قرينةٌ دالَّةٌ على أن المرادَ بـ«الموتة الأولى» الموتة المعهودة، ولذلك استشهد بقوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، ولأنَّ في إثباتهم أداة الحصر - لأنَّ «إن»

(١) يعني: الآية ٥٦ من هذه السورة، وهي قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا المَوْتِ إِلَّا المَوْتَةَ الأولى﴾.

(٢) «الانْتِصَافِ» (٣: ٥٠٥) بحاشية «الكشاف».

(٣) للعلامة عَلم الدين العراقي، وقد تقدَّم التعريفُ به عند تفسير الآية ٦٠ من سورة التوبة (٧: ٢٨٠) تعليقا.

فقالوا: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَ﴾، يُريدون: ما المَوْتَةُ التي مِن شأنها أن تَتَعَقَّبَهَا حَيَاةٌ إِلَّا المَوْتَةَ الْأُولَى دُونَ المَوْتَةِ الثَّانِيَةِ، وما هَذِهِ الصَّفَةُ التي تَصِفُونُ بِهَا المَوْتَةَ مِن تَعَقُّبِ الحَيَاةِ لها إِلَّا للمَوْتَةِ الْأُولَى خَاصَّةً، فلا فَرْقَ إِذْنِ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٢٨] في المعنى.

يُقال: أُنشِرَ اللهُ المَوْتَى ونَشَرَهُم: إِذَا بَعَثَهُم.

﴿فَأَتُوا بِآبَائِنَا﴾ خَطَابٌ لِلَّذِينَ كَانُوا يَعِدُوهُمْ النُّشُورَ؛ مِنْ رِسُولِ اللهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ، أَي: إِنْ صَدَقْتُمْ فِيمَا تَقُولُونَ، فَعَجِّلُوا لَنَا إِحْيَاءَ مَنْ مَاتَ مِنْ آبَائِنَا سُبُوحِ الكَمِّ رَبِّكُمْ ذَلِكَ، حَتَّى يَكُونَ دَلِيلًا عَلَيَّ أَنْ مَا تَعِدُونَهُ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ وَبَعْثِ المَوْتَى حَقًّا، وَقِيلَ: كَانُوا يَطْلُبُونَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَدْعُوا اللهُ فَيُنشِرَ لَهُمْ قُصَيَّ بْنَ كِلَابٍ لِيُشاورُوهُ، فَإِنَّهُ كَانَ كَبِيرَهُمْ وَمُشاورَهُمْ فِي النُّوازِلِ وَمَعَاظِمِ الشُّؤُونِ.

[﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُنَجِّى وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْتَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ٣٧]

هُوَ تُبَّعُ الحِمَيْرِيِّ، كَانَ مُؤْمِنًا وَقَوْمُهُ كَافِرِينَ، وَلِذَلِكَ ذَمَّ اللهُ قَوْمَهُ وَلَمْ يَذُمَّهُ، وَهُوَ الَّذِي سَارَ بِالْجِيوشِ، وَحَيَّرَ الحِيرَةَ، وَبَنَى سَمَرْقَنْدَ، وَقِيلَ: هَدَمَهَا،

النَّافِيَةُ قُرِئَتْ بِـ«إِلَّا» - وَإِيقَاعُهُمُ الضَّمِيرَ مُبْهِمًا^(١)، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِالْخَبْرِ، عَلَيَّ نَحْوِ قَوْلِهِمْ: هِيَ العَرَبُ تَقُولُ مَا شَاءَتْ: الدَّلَالَةُ^(٢) عَلَيَّ أَنَّ هَذَا الكَلَامَ وَارِدٌ عَلَيَّ مَا لَا يُوَافِقُ آرَاءَهُمْ مِنْ إِبْتِاتِ مَوْتَتَيْنِ، فَهَمْ يُجَاوِلُونَ إِبْطَالَهَ وَرَدَّهُ إِلَى مَوْتَةٍ وَاحِدَةٍ وَيَهْتَمُونَ بِشَأْنِهِ، وَلَا يَصْلُحُ لِذَلِكَ إِلَّا مَا اشْتَمَلَ عَلَيَّ هَذِهِ المَوْتَةُ الموصوفة.

قوله: (كانوا يطلبون إليهم): أي: كانوا يُنْهَوْنَ إِلَيْهِمْ طالِبِينَ أَنْ يَدْعُوا اللهُ.

قوله: (وحَيَّرَ الحِيرَةَ): أي: أَلْفَهَا وَرَتَّبَهَا وَانْخَذَهَا مَدِينَةً تُسَمَّى: حِيرَةَ، كما يُقال: مَدَنَ المَدْنَ، أَي: بَنَى المَدَائِنَ.

(١) الضميرُ المُبْهِمُ هو: «هي» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأَوَّلَ﴾.

(٢) قوله: «الدلالة»: هو اسم «لأن» في قوله: «لأن في إبتاتهم أداة الحصر...».

وكان إذا كَتَبَ قال: باسم الله الذي مَلَكَ بَرًّا وبحرًا. وعن النبي ﷺ: «لا تَسُبُّوا تُبَعًّا، فإنه كان قد أسلم»، وعنه عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام: «ما أدري أكان تُبَعُّ نبيًّا أو غير نبي»، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان نبيًّا، وقيل: نُظِرَ إلى قَبْرَيْنِ بناحيةِ حِمَيْرٍ، قال: هذا قَبْرُ رَضْوَى وقَبْرُ حُبَيْبِ بَنِي تُبَعِّ، لا تُشْرِكِ اللهُ بالله شيئًا. وقيل: هو الذي كَسَا البيت، وقيل لملوك اليمن: التَّبَاعِة، لأنهم يُتَّبِعُونَ، كما قيل: الأقبال؛ لأنهم يُتَّقِيلُونَ،

قوله: (لا تَسُبُّوا تُبَعًّا): قال صاحبُ «النهاية»: «في الحديث: «لا تَسُبُّوا تُبَعًّا، فإنه أولُ مَنْ كَسَا الكَعْبَةَ»^(١): تُبَعُّ: مَلَكَ في الزمانِ الأول، اسمه: سَعْدُ^(٢) أبو كَرِب، والتَّبَاعِة: ملوكُ اليمن، كان لا يُسَمَّى تُبَعًّا حتى يَمْلِكَ حَضْرَمَوْتَ وَسَبَأَ وَحِمَيْرَ. ويُقالُ للرجل إذا أَتَقَنَ الشيءَ وأَحْكَمَهُ: قد تَابَعَ عَمَلَهُ».

قوله: (كما قيل: الأقبال؛ لأنهم يُتَّقِيلُونَ): «النهاية»: «الأقوال: جمعُ «قَيْل»، وهو المَلِكُ النافِذُ القَوْلِ والأمر، وأصلُهُ: قَيْول، فيَعْل، مِنْ القَوْل، فحذفت عينه، ومثله: أمواتُ جمعِ مَيْت، تخفيفُ مَيْت، وأما «أقبال» فمحمولٌ على لَفْظِ «قَيْل»، كما قيل: أرياحُ جمعِ رِيح، والقياس: أرواح».

وفي حاشية «الكشاف»^(٣): معنى «يُتَّقِيلُونَ»: يُتَّبِعُونَ^(٤)، مِنْ: تَقَيْلَ أباه: إذا اتَّبَعَهُ، وقيل: أشبَهَهُ.

الراغب: «سُمِّيَ به مَلِكُ حِمَيْرٍ لِكَوْنِهِ مُعْتَمِدًا على قوله، ومُقْتَدَى به، ولكَوْنِهِ مُتَّقِيلًا لأبيه، يُقال: تَقَيْلَ أباه»^(٥).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٨٨٠) من حديث سهل بن سعد بلفظ: «لا تَسُبُّوا تُبَعًّا، فإنه كان أسلم». وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٩٠٨٦) عن ابن جريج قال: «بلغنا أن تُبَعًّا أولُ مَنْ كَسَا الكَعْبَةَ الوصائل، فسُيِّرَتْ بها»، قال ابن جريج: «وقد زعم بعضُ علمائنا إسماعيلَ النبي ﷺ، والله أعلمُ بذلك».

(٢) كذا في الأصول الخطية، وفي المطبوع من «النهاية» لابن الأثير (١: ١٨٠): «أسعد».

(٣) في (ح) و(ف): «وفي حاشية الكتاب».

(٤) تحرّف في (ح) إلى: «يتسمعون».

(٥) «مفردات القرآن» ص ٦٨٩.

وَسُمِّيَ الظِّلُّ «تُبَعًا» لَأَنَّهُ يَتَّبِعُ الشَّمْسَ.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿أَهْمُ خَيْرٌ﴾، ولا خير في الفريقين؟ قلت: معناه: أهما خيرٌ في القوَّة والمنعة، كقوله تعالى: ﴿أَكْفَرُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيكُمُ﴾ [القمر: ٤٣]، بعد ذِكْرِ آلِ فِرْعَوْنَ. وفي تفسير ابن عباس رضي الله عنه: أهما أشدُّ أم قومُ تَبَعَ؟

[﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنِ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْفًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [٣٨-٤٢]

﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وما بين الجنسين، وقرأ عبيد بن عمير: «وما بينهما».....

قوله: (وَسُمِّيَ الظِّلُّ «تُبَعًا»): قالت سلمى^(١) الجهنية ترثي أخاها أسعد:

يَرِدُ المِیَاةَ حَضِرَةً وَنَفِیضَةً وَرَدَّ القَطَاةِ إِذَا اسْمَالَ التَّبَعِ

أي: الظِّلُّ، وُسُمِيَ الدَّبْرَانُ^(٢): التَّبَعُ؛ لَأَنَّهُ يَدْبُرُهُ، الحَضِرَةُ: الأربعة والخمسة يَغْزُونَ، والجمع: الحَضائر، والنَّفِیضَةُ والنَّفَضُ^(٣): الجماعة يُبْعَثُونَ في الأَرْضِ لِيَنْظُرُوا هَلْ فِيهَا عَدُوٌّ أَوْ خَوْفٌ، واسْمَالٌ: أي: ضَمَرٌ.

قوله: ﴿﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وما بين الجنسين): قال القاضي: «وهو دليلٌ على صحَّةِ الحشر، كما مرَّ في «الأنبياء» وغيرها، وقوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: بسببِ الحقِّ الذي اقتضاهُ الدليلُ مِنَ الإیمان والطاعة»^(٤).

(١) كذا سماها المؤلف رحمه الله تعالى متابعاً للجوهري في «الصَّحاح»، مادة (حضر) و(نفض) و(تبع) و(سمل)، وصَوَّبَهُ ابنُ بري إلى: «سُعْدِي»، كما في «لسان العرب» لابن منظور (في المواد نفسها). قلت: وهو الموافق لِمَا في «الأصمعيات» ص ١٠٣.

(٢) نجم بين الثَّريَّا والجوزاء. «لسان العرب» لابن منظور، مادة (دبر).

(٣) كذا في الأصول الخطية، والذي رأيتُه في «لسان العرب»: «النَّفِیضَةُ» و«النَّفَضَةُ»، والله أعلم.

(٤) «أنوار التنزيل» لليضاوي (٥: ١٦٣).

وقرأ: «مِيقَاتِهِمْ» بالنَّصْب؛ على أنه اسم «إِنَّ»، و«يَوْمَ الْفَصْلِ» خَبَرُهَا، أي: إِنَّ مِيعَادَ حِسَابِهِمْ وَجَزَائِهِمْ فِي يَوْمِ الْفَصْلِ.

﴿لَا يُعْنِي مَوْلَى﴾ أي مَوْلَى كَانَ مِنْ قَرَابَةٍ أَوْ غَيْرِهَا، ﴿عَنْ مَوْلَى﴾ عَنْ أَيِّ مَوْلَى كَانَ، ﴿شَيْئًا﴾ مِنْ إِغْنَاءِ، أَي: قَلِيلًا مِنْهُ، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ الضميرُ للموالي، لأنهم في المعنى كثير، لِتَنَاقُلِ اللَّفْظِ عَلَى الْإِبْهَامِ وَالشَّيَاعِ كُلِّ مَوْلَى.

وقلت: هاهنا المُشْرِكُونَ لِمَا أَنْكَرُوا الْحَشَرَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾، وَبَحَّهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِيعَ﴾؛ إِذْ نَانَا بِأَنَّ هَذَا الْإِنْكَارَ لَيْسَ عَنْ حُجَّةٍ قَاطِعَةٍ وَدَلِيلٍ ظَاهِرٍ، بَلْ عَنْ مُجَرَّدِ حُبِّ الْعَاجِلَةِ، وَالتَّمَتُّعِ بِمَلَذِّ الدُّنْيَا، وَالْإِغْتِرَارِ بِالْمَالِ وَالْمَنَالِ، ثُمَّ قَرَّرَ أَنَّ الْحَشَرَ لَا بُدَّ مِنْهُ؛ لِأَنَّا مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَبَثِ، جَلَّ جَنَابُ الْجَلَالِ عَنْ ذَلِكَ، بَلْ بِالْحَقِّ، وَهُوَ أَنْ أَعْبُدُوا وَوَحَّدُوا، وَلَا بُدَّ لِمَنْ عَبَدَ وَوَحَّدَ، وَلِمَنْ أَعْرَضَ وَأَشْرَكَ، مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، فَكَيْفَ يُقَالُ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾؟!

وقوله: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تَدْيِيلٌ وَتَجْهِيلٌ عَظِيمٌ لِمُنْكَرِي الْحَشْرِ وَتَوْكِيدٌ، لِأَنَّ الْإِنْكَارَ هُمْ يُؤَدِّي إِلَى إِبْطَالِ الْكَائِنَاتِ بِأَسْرِهَا، ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]، وَهَذَا قَالُوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

قوله: ﴿شَيْئًا﴾ مِنْ إِغْنَاءِ: أَي: «شَيْئًا» نَصْبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ، وَعَنْ بَعْضِهِمْ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا بِهِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: أَعْنِ عَنِّي وَجْهَكَ^(١)، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ لَا يَبْعُدُ عَنْهُ شَيْئًا، وَفِي الْكَلَامِ تَسْمِيَةٌ وَمُبَالَغَةٌ، أَي: ﴿لَا يُعْنِي مَوْلَى﴾ أَيِّ مَوْلَى كَانَ، إِغْنَاءٌ أَيِّ إِغْنَاءٍ كَانَ.

قوله: (لِتَنَاقُلِ اللَّفْظَ عَلَى الْإِبْهَامِ وَالشَّيَاعِ): يَعْنِي: جَازَ عَوْدُ الضَّمِيرِ وَهُوَ مَجْمُوعٌ، إِلَى ﴿مَوْلَى﴾ وَهُوَ مُفْرَدٌ؛ لِأَنَّهُ لَفْظٌ مُطْلَقٌ شَائِعٌ فِي جَنَسِهِ مُتَنَاقِلٌ لِلْكَوْنِ وَاللِّبَعْضِ عَلَى سَبِيلِ الْبَدَلِ، فَكَانَ عَوْدُ ضَمِيرِ الْجَمْعِ قَرِينَةً عَلَى إِرَادَةِ الْكُلِّ.

(١) أي: اصْرِفْهُ عَنِّي وَكُفَّهُ، كَمَا فِي «لِسَانِ الْعَرَبِ» لِابْنِ مَنْظُورٍ. مَادَّةُ (غَد).

﴿مَنْ رَجِمَ اللَّهُ﴾ في محلّ الرفع على البدل من الواو في ﴿يُنْصَرُونَ﴾، أي: لا يمنع من العذاب إلا من رجمه الله، ويجوز أن يُنصب على الاستثناء، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ لا يُنصر منه من عصاه، ﴿الرَّجِيمُ﴾ لمن أطاعه.

[﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ﴾ * طَعَامُ الْأَيْمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلِي الْحَمِيمِ * خَذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَّا سَوَاءَ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [٤٣-٥٠]

قُرئ: «إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ» بكسر الشين، وفيها ثلاث لغات: شجرة، بفتح الشين وكسرها، وشيرة، بالياء. وروى: أنه لما نزل: ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ﴾ [الصفات: ٦٢]، قال ابن الزبير: إن أهل اليمن يدعون أكل الزبد والتمر: التزقم، فدعا أبو جهل بتمر وزبد، فقال: تزقموا، فإن هذا هو الذي يخوفكم به محمد، فنزل ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ﴾ * طَعَامُ الْأَيْمِ *، وهو الفاجر الكثير الآثام.

قوله: (ويجوز أن يُنصب على الاستثناء): قال أبو البقاء: ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ﴾ استثناء مُتَّصِل، أي: مَنْ رَجِمَهُ اللَّهُ بَقَبُولِ الشَّفَاعَةِ فِيهِ»^(١). وفي «التيسير»: ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ﴾ أي: المؤمنين رجمهم الله، فإنهم يشفعون للمذنبين، وقيل: لكن مَنْ رَجِمَهُ اللَّهُ، فإنه لا يحتاج إلى قريب ينفعه، ولا إلى ناصر ينصره.

وقال مكِّي: ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ﴾: «مَنْ» في موضع رفع على البدل من المضمَر في ﴿يُنْصَرُونَ﴾، أي: لا يُنصر إلا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ، وقيل: هي بدل من ﴿مَوْلَى﴾ الأولى، أي: يوم لا يُغني إلا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ، أي: لا يشفع إلا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ، وهذا دليل على جواز الشفاعة من المؤمنين للمؤمنين أهل الذنوب»^(٢).

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٤٧).

(٢) «مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب (٢: ٦٥٧).

وعن أبي الدرداء: أنه كان يُقرئ رجلاً، فكان يقول: طعامُ اليشم، فقال: قل: طعامُ الفاجر يا هذا. وبهذا يُستدلُّ على أن إبدالَ كلمةٍ مكانَ كلمةٍ جائزٌ إذا كانت مُؤدِّيةً معناها، ومنه أجاز أبو حنيفةُ القراءةَ بالفارسيَّةِ على شريطة، وهي: أن يُؤدِّيَ القارئُ المعانيَ على كمالها، من غير أن يَخْرِمَ منها شيئاً، قالوا: وهذه الشريطةُ تُشهدُ أنها إجازةٌ كلا إجازة، لأنَّ في كلام العرب - خصوصاً في القرآن الذي هو مُعجَزٌ بفصاحته وُغرابيةِ نظمه وأساليبه - من لطائف المعاني والأغراض، ما لا يستقلُّ بأدائه لسانٌ من فارسيَّةٍ وغيرها، وما كان أبو حنيفةُ رحمه الله يُحسِنُ الفارسيَّة، فلم يكن ذلك منه عن تحقُّقٍ وتبصُّر، وروى عليُّ بنُ الجعدِ عن أبي يوسفَ عن أبي حنيفةٍ مثلَ قولِ صاحبه في إنكارِ القراءةِ بالفارسيَّة.

﴿كَالْمُهْلِ﴾ قُرئَ بِضَمِّ الميمِ وَفَتْحِهَا، وَهُوَ ذُرْدِيُّ الزَيْتِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ [المارج: ٨]، مَعَ قَوْلِهِ: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]، وَقِيلَ: هُوَ ذَائِبُ الْفِضَّةِ وَالنُّحَاسِ.

قوله: (أنه كان يُقرئ رجلاً، فكان يقول: طعامُ اليشم): الانتصاف: «يعني: كان يُقرئ، فلم يستطع أن يقول: الأشم، فكان يقول: اليشم، فأعاد عليه، فلما عجزَ قال: قل: طعامُ الفاجر، وفيه دليلٌ على قراءة القرآن بالمعنى»، وقال: «لا حجةَ فيه، وقولُ أبي الدرداءِ محمولٌ على إيضاح المعنى، عَوْناً على أن يأتي بالقراءة كما أنزلت، هكذا حمَّله القاضي أبو بكر^(١) في كتاب (الانتصار)»^(٢).

قوله: ﴿كَالْمُهْلِ﴾ قُرئَ بِضَمِّ الميمِ: وهي المشهورة، والفتحُ شاذٌ. قوله: (ويدلُّ عليه - أي: على أن المراد بـ «المهل» ذُرْدِيُّ الزَيْتِ - قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾، مَعَ قَوْلِهِ: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾): لأنَّ الأوَّلَ دَلٌّ على أن السماءَ تصيرُ

(١) يعني: الإمام الباقلاني رحمه الله تعالى.

(٢) «الانتصاف» (٣: ٥٠٦) بحاشية «الكشاف». والفقرة الأولى لم أقف عليها فيه.

والكاف رَفَعُ؛ حَبَّرٌ بَعْدَ حَبَّرَ، وكذلك ﴿يَغْلِي﴾، وَقُرِئَ بِالتَّاءِ لِلشَّجَرَةِ، وبالياءِ للطعام. والحَمِيمُ: الماءُ الحَارُّ الَّذِي انْتَهَى غَلْيَانُهُ.

كالمُهْل، والثاني على أنها تصيرُ كالدهان، وهو: إما جمعُ دُهْنٍ أو اسمُ ما يُدَهَّنُ به، ويجبُ التوافقُ بينهما، فيصحُّ تفسيرُ «المُهْل» بِدُرْدِيِّ الزَّيْتِ.

هذا الاستدلالُ في الأصولِ من بابِ دلالةِ النَّصِّ باستِعاةِ نَصِّ آخر، نحو دلالةِ قولِهِ تعالى: ﴿وَحَمَلُهُمْ وَفِصْلُهُمْ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحاف: ١٥] مع قولِهِ: ﴿حَوَالَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]: على أن مُدَّةَ الحملِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ^(١).

قوله: (وَكذلكُ ﴿يَغْلِي﴾): أي: مرفوعُ المَحَلِّ؛ حَبَّرٌ بَعْدَ حَبَّرَ.

قوله: (وَقُرِئَ بِالتَّاءِ): ابنُ كثيرٍ وَحَفْصٌ: بِالياءِ التَّخْتَانِيَّةِ، وَالباقونَ: بِالتَّاءِ^(٢). روى الواحِدِيُّ عن أبي عبيد^(٣): أنه اختار الياء، وقال: لأنَّ المُهْلَ مذكَّرٌ، وهو الَّذِي يلي المُهْلَ^(٤)، فصار أولُيْ به لِلذَّكْرِ والقُرْبِ^(٥). وقال أبو علي: لا يجوزُ أن يَحْمَلَ الغيُّ على المُهْلِ، لأنَّ المُهْلَ إِنما دُكِرَ لِلتَّشْبِيهِ به في الذُّوبِ، أَلَا ترى أَنَّ المُهْلَ لا يَغْلِي في البُطونِ، وَإِنما يَغْلِي ما شَبَّهَ به، وهو كقولِهِ: ﴿كَغَلِي الحَمِيمِ﴾، يعني: الماءَ الحَارَّ إِذَا اشْتَدَّ غَلْيَانُهُ^(٦).

أراد أن هاهنا المُشَبَّهَ واحدٌ، والمُشَبَّهَ به مُتَعَدِّدٌ، شَبَّهْتُ عَصَارَةَ الشَّجَرَةِ تارةً بِالمُهْلِ في غَلْظِهَا وكُدُورِهَا ونَتْنِهَا، وأخرى بِالماءِ في انْفِعَالِهَا بِالغَلْيَانِ، ومن ثَمَّ لم يَذْهَبِ المُصَنِّفُ إلى إِسْنادِ ﴿يَغْلِي﴾ إلى «المُهْلِ»، وقال: «تَغْلِي: بِالتَّاءِ لِلشَّجَرَةِ، وبالياءِ للطعام»، ورُوِيَ في

(١) يُريد: أَقلَّ مُدَّةِ الحملِ.

(٢) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٨، و«حجة القراءات» ص ٦٥٧.

(٣) كذا في (ط) و(ف)، يُريد: القاسمَ بنَ سَلامٍ، وفي (ح): «أبو عبيدة»، يعني: مَعْمَرُ بنَ النُّعْمِيِّ، وَيُرْجَحُ الأوَّلُ أَنه سَيَّأَتِي مرَّةً أُخرى بَعْدَ أسطر: «أبو عبيد» بِاتِّفَاقِ الأَصُولِ الخَطِيَّةِ، وهو المُوافِقُ لِمَا في «الوسيط» للواحدي.

(٤) تَحَوَّفُ في (ط) و(ف) إلى: «علِّ الفعل».

(٥) في (ح): «للتكثير والقرب»، وهو تحريفٌ، وفي (ف): «للتذكُّر والقرب»، والمثبت من (ط).

(٦) «الوسيط» للواحدي (٤: ٩٢).

يُقَالُ لِلزَّبَانِيَةِ: ﴿حُدُوهُ فَاعْتَلُوهُ﴾ فَقُدُوهُ بَعْنَفٍ وَغِلْظَةٍ، وَهُوَ أَنْ يُؤْخَذَ بِتَلْبِيْبِ الرَّجُلِ، فَيُجَرَّ إِلَى حَبْسٍ أَوْ قَتْلِ، وَمِنْهُ: العُتْلُ؛ وَهُوَ الغَلِيْظُ الجَافِي، قُرِيءَ بِكَسْرِ التَّاءِ وَضَمِّهَا، ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيْمِ﴾ إِلَى وَسْطِهَا وَمُعْظَمِهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنَ الحَمِيمِ، كَقَوْلِهِ: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩]، لِأَنَّ الحَمِيمَ هُوَ المَصْبُوبُ لَا عَذَابُهُ؟ قُلْتَ: إِذَا صُبَّ عَلَيْهِ الحَمِيمُ، فَقَدْ صُبَّ عَلَيْهِ عَذَابُهُ وَشِدَّتُهُ، إِلَّا أَنْ صَبَّ العَذَابُ طَرِيقَهُ الِاسْتِعَارَةَ، كَقَوْلِهِ:

صُبَّتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ الدَّهْرِ مِنْ صَبَبٍ

الحاشية^(١): «أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: هَلْ يَجُوزُ بِالْبَيَاءِ صِفَةً لِلْمُهْلِ؟ قَالَ: لَا، لِأَنَّهُ لَا يُوصَفُ الْمُهْلُ، لَكِنِ الطَّعَامُ أَوِ الشَّجَرَةُ».

وقلت: ولناصِرِ قولِ أبي عبيد أن يقول: هو من تداخل التشبيهن، أي: كالمُهْلِ المُشَبَّهِ غَلِيَانُهُ بَغْلِي الحَمِيمِ فِي البُطُونِ، شُبَّهَ طَعَامُ الشَّجَرَةِ بِدُرْدِيٍّ خَارِجٍ عَنِ المُتَعَارَفِ فِي أَنَّهُ إِذَا قُدِّرَ أَنْ يُصَبَّ فِي البُطُونِ يَغْلِي - بغير نارٍ - غَلِيَانِ المَاءِ الحَارِّ فِي المَرَاجِلِ بالنارِ، وَلَا يَبْعُدُ هَذَا التَّأْوِيلَ، فَإِنَّ هَذِهِ الشَّجَرَةَ عَلَى خِلَافِ الأشْجَارِ المُتَعَارَفَةِ، لِأَنَّهَا تَنْبُتُ فِي أَصْلِ الجَحِيمِ، طَلَعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ.

قوله: (بتلييب الرجل): الجوهرى: «لبيت الرجل تلييباً؛ إذا جمعت ثيابه عند صدره ونخره في الخصومة وجرزته».

قوله: (قريء بكسر التاء وضمها): الحرميان^(٢) وابن عامر: «فاعتلوه» بالضم، والباقون: بالكسر^(٣).

قوله: (صبت عليه صروف الدهر من صباب): الأساس: «مشوا في صباب، وفي أصباب:

(١) أي: الزمخشري في حاشية «الكشاف».

(٢) يعني: ابن كثير المكي، ونافعاً المدني.

(٣) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٨.

وكقوله تعالى: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [البقرة: ٢٥٠]، فذكر العذاب مُعَلَّقًا به الصَّبِّ، مُسْتَعَارًا له، ليكون أهول وأهيب.

يقال: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ على سبيل الهُزْءِ والتَّهْكُمِ بِمَنْ كَانَ يَتَعَزَّزُ وَيَتَكْرَمُ على قومه. ورُوي: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَا بَيْنَ جَبَلَيْهَا أَعَزُّ وَلَا أَكْرَمُ مِنِّي، فوالله مَا تَسْتَطِيعُ أَنْتَ وَلَا رَبُّكَ أَنْ تَفْعَلَا بِي شَيْئًا. وقُري: «أَنْتَ» بمعنى: لَأَنْتَ. وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما: أَنَّهُ قَرَأَ بِهِ عَلَى الْمِنْبَرِ.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ العذاب، أو: إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ هُوَ ﴿مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أي: تُشْكُونَ، أو تَتَمَارُونَ وَتَتَلَاجُونَ.

[﴿إِنَّ الْأَمْتَيْنِ فِي مَقَامِ آمِينَ﴾ فِي جَنَّتِ وَعُيُوبٌ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ وَرَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَنَكِهَةٍ آمِنَاتٍ * لَا يَدْخُلْنَ فِيهَا الْمَوْتُ إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَىٰ وَوَقَّهِنَّ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضَلَّامِن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ٥١-٥٧]

وهو الحُدُور، وفي الحديث: «كَأَنَّمَا يَمْشِي فِي صَبَبٍ»^(١)، ومن المجاز: صَبَّ عَلَيْهِ الْبَلَاءُ مِنْ صَبَبٍ، أي: مِنْ فَوْقٍ.

قوله: (مُعَلَّقًا بِهِ الصَّبِّ، مُسْتَعَارًا لَهُ): الْفَاءُ فِي «فَذَكَرَ» مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: «صَبَّ الْعَذَابِ طَرِيقُهُ الْاسْتِعَارَةُ»، وَقَوْلُهُ: «مُعَلَّقًا» وَ«مُسْتَعَارًا»: حَالَانِ مُتَدَاخِلَتَانِ، أَي: جُعِلَ الصَّبُّ لِلْعَذَابِ وَالْعَذَابُ لَا يُصَبُّ، مُسْتَعَارًا لِإِصَابَتِهِ، عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ، شُبَّ الْعَذَابُ بِالْمَانِعِ، ثُمَّ حُيِّلَ لَهُ مَا يُلَازِمُ الْمَانِعَ مِنَ الصَّبِّ، كَمَا حُيِّلَ الْإِفْرَاقُ لِلصَّبْرِ بَعْدَ تَشْبِيهِهِ بِالْمَاءِ.

قوله: (مَا بَيْنَ جَبَلَيْهَا): أَي: جَبَلِي مَكَّةَ، وَهُمَا الْأَخْشَبَانِ؛ أَبُو قُبَيْسٍ وَثُورٌ.

قوله: (وقُري: «أَنْتَ»): الْكِسَائِيُّ: بَفَتْحِ الْهَمْزَةِ، وَالْبَاقُونَ: بِكَسْرِهَا^(٢).

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٣٧) و(٣٦٣٨) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه في وصف رسول الله ﷺ.

(٢) انظر: «التيسير» لللداني ص ١٩٨، و«حجة القراءات» ص ٦٥٧.

قُرِي: ﴿فِي مَقَامٍ﴾ بِالْفَتْحِ، وَهُوَ مَوْضِعُ الْقِيَامِ، وَالْمُرَادُ: الْمَكَانَ، وَهُوَ مِنَ الْخَاصِّ الَّذِي وَقَعَ مُسْتَعْمَلًا فِي مَعْنَى الْعُمُومِ، وَبِالضَّمِّ، وَهُوَ مَوْضِعُ الْإِقَامَةِ، وَ«الْأَمِينُ»: مِنْ قَوْلِكَ: أَمِنَ الرَّجُلُ أَمَانَةً فَهُوَ أَمِينٌ، وَهُوَ ضِدُّ الْخَائِنِ، فَوُصِفَ بِهِ الْمَكَانُ اسْتِعَارَةً، لِأَنَّ الْمَكَانَ الْمُخِيفَ كَأَنَّمَا يَخُونُ صَاحِبَهُ بِمَا يَلْقَى فِيهِ مِنَ الْمَكَارِهِ.

قيل: السُّنْدُسُ: مَارِقٌ مِنَ الدِّيَاجِ، وَالِإِسْتَبْرَقُ: مَا عُلِّقَ مِنْهُ، وَهُوَ تَعْرِيبٌ «اسْتَبْر». فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ سَاغَ أَنْ يَقَعَ فِي الْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ لَفْظٌ أَعْجَمِيٌّ؟ قُلْتَ: إِذَا عُرِّبَ خَرَجَ مِنْ أَنْ يَكُونَ عَجَمِيًّا، لِأَنَّ مَعْنَى التَّعْرِيبِ: أَنْ يُجْعَلَ عَرَبِيًّا بِالتَّصْرُفِ فِيهِ، وَتَغْيِيرُهُ عَنْ مَنَاجِهِ، وَإِجْرَاؤُهُ عَلَى أَوْجِهِ الْإِعْرَابِ.

﴿كَذَلِكَ﴾ الْكَافُ مَرْفُوعٌ عَلَى: الْأَمْرُ كَذَلِكَ،

قوله: ﴿فِي مَقَامٍ﴾ بِالْفَتْحِ: نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ: بِالضَّمِّ، وَبِالْقَوْنِ: بِالْفَتْحِ^(١).

قوله: (وَهُوَ مِنَ الْخَاصِّ الَّذِي وَقَعَ مُسْتَعْمَلًا فِي مَعْنَى الْعُمُومِ): نَحْوُهُ: تَعَالَى، وَأَصْلُهُ: مَوْضِعُ الْقِيَامِ، ثُمَّ عُمِّمَ وَاسْتَعْمِلَ فِي جَمِيعِ الْأَمْكَانَةِ، حَتَّى قِيلَ لِمَوْضِعِ الْقُعُودِ: مَقَامٌ، وَإِنْ لَمْ يُقَمْ فِيهِ أَصْلًا، وَيُقَالُ: كُنَّا فِي مَقَامِ فُلَانٍ، أَي: فِي مَجْلِسِهِ.

قوله: (فَوُصِفَ بِهِ الْمَكَانُ اسْتِعَارَةً): أَي: الْاسْتِعَارَةُ الْمَكْنِيَّةُ. الرَّاعِبُ: «أَصْلُ الْأَمْنِ: طُمَأْنِينَةُ النَّفْسِ، وَزَوَالُ الْخَوْفِ، وَالْأَمْنُ وَالْأَمَانَةُ وَالْأَمَانُ فِي الْأَصْلِ: مَصَادِرُ، وَيُجْعَلُ الْأَمَانُ تَارَةً اسْمًا لِلْحَالَةِ الَّتِي عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ فِي الْأَمْنِ، وَتَارَةً اسْمًا لِمَا يُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَخَوْنُوا أَمْنَتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٧]، أَي: مَا اتُّمِنْتُمْ عَلَيْهِ»^(٢).

قوله: (عَلَى: الْأَمْرُ كَذَلِكَ): رُوِيَ عَنِ الْمُسْتَصَفِّ أَنَّهُ قَالَ: وَالْمَعْنَى فِيهِ: أَنَّهُ لَمْ يُسْتَوْفَ الْوَصْفُ، وَأَنَّهُ بِمَثَابَةِ مَا لَا يُحِيطُ بِهِ الْوَصْفُ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: الْأَمْرُ نَحْوُ ذَلِكَ، وَمَا أَشْبَهَهُ، وَلَيْسَ يُعَيَّنُ الْوَصْفُ وَيَحَقِّقُهُ.

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٨، و«حجة القراءات» ص ٦٥٧.

(٢) «مفردات القرآن» ص ٩٠.

أو منصوبٌ على: مثل ذلك أنبأهم ﴿وَرَوَّجْتَهُمْ﴾، وقرأ عكرمة: «بحور عين» على الإضافة، والمعنى: بالبحور من العين، لأن العين إما أن تكون حوراء أو غير حوراء، فهؤلاء من الحور العين، لا من شهلهن مثلاً، وفي قراءة عبد الله: «بعيس عين»، والعيساء: البيضاء تعلوها حمرة.

وقرأ عبيد بن عمير: «لا يذاقون فيها الموت»، وقرأ عبد الله: «لا يذوقون فيها طعم الموت».

قوله: «بحور عين» على الإضافة: قال ابن جني: «الصفة أوفى من الإضافة، لأن المضاف والمضاف إليه جاريتين مجرى المفرد، والصفة تأتي مع الاختصاص المستفاد منها [مأني]»^(١) الزيادة، وهي مع ذلك أشد إصراراً بالمعنى من المضاف، ألا ترى أنك إذا قلت: «مررت بظريف كرام» جاز الظريف أن يكون كريماً، وجاز أن يكون منسوباً إليهم، وإن لم يكن كريماً، وإذا قلت: «مررت بظريف كريم» فقد أثبت له مذهب الكرم البتة^(٢)، ولهذا جعل الإضافة من باب: خاتم فضة، وباب ساج^(٣).

قوله: «لأن العين إما تكون حوراء أو غير حوراء»: أنشد الجوهري للعجاج:

بأعين محورات حور^(٤)

يعني: الأعين النقيات البيضاء، الشديديات سواد الحدة.

و«الشهلة» في العين: أن يشوب سوادها رزقة، وعين شهلاء، ورجل أشهل العين.

(١) قوله: «مأني» سقط من الأصول الخطية، وأثبتته من «المحتسب» لابن جني.

(٢) «المحتسب» لابن جني (٢: ٢٦١).

(٣) الساج: حَسَبٌ يُجَلَّبُ مِنَ الْهِنْدِ، وَشَجَرٌ عَظِيمٌ يَذْهَبُ طَوَّالاً وَعَرْضاً. كَذَا فِي «لِسَانِ الْعَرَبِ» لِابْنِ مَنْظُورٍ، مَادَّةُ (سُج).

(٤) انظر: «الصحاح» للجوهري، مادة (حور).

وقال ابن منظور في «لسان العرب»، مادة (حور): «يعني: الأعين النقيات البيضاء، الشديديات سواد الحدق».

فإن قلت: كيف استُثِنَتِ المَوْتَةُ الأولى المَذُوقَةُ قَبْلَ دخولِ الجنةِ، مِنَ المَوْتِ المنفِيِّ ذَوْقُهُ فيها؟ قلت: أريدُ أن يُقالَ: لا يَذُوقُونَ فيها المَوْتِ البتَّةَ، فَوَضَعَ قولُه: ﴿إِلَّا المَوْتَةَ الأولى﴾ مَوْضِعَ ذلكَ، لأنَّ المَوْتَةَ المَاضِيَةَ مُحالٌ ذَوْقُهَا في المُسْتَقْبَلِ، فهو من بابِ التعليلِ بالمُحالِ، كأنه قيل: إن كانتِ المَوْتَةُ الأولى يَسْتَقِيمُ ذَوْقُهَا في المُسْتَقْبَلِ، فإنهم يَذُوقُونَهَا. وقرئ: «وَوَقَّاهُمْ» بالتشديد.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ عطاءً مِنْ رَبِّكَ وثواباً، يعني: كُلُّ ما أعطى المُتقينَ مِنْ نعيمِ الجنةِ والنَّجاةِ مِنَ النارِ. وقرئ: «فَضَّلَ»، أي: ذلكَ فَضَّلَ.

[﴿فَأَنمَّا يَسْتَرْنَهُ بِلسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ * فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴿٥٨-٨٩﴾

﴿فَأَنمَّا يَسْتَرْنَهُ بِلسانِكَ﴾ فذلِكةُ للسُّورةِ،

قوله: (أريدُ أن يُقالَ: لا يذوقونَ فيها الموتَ البتَّةَ): الانتِصافُ: هذا مبنيٌّ على أنَّ ﴿المَوْتَةَ﴾ بَدَلٌ؛ على طريقةِ بني تميمِ الذين يُجَوِّزونَ البَدَلَ من غيرِ الجِنسِ، والحِجازيونَ يَنْصِبُونَهُ بالاسْتِثْناءِ المُنْقَطِعِ، وسِرُّ اللُغَةِ التَّمِيمِيَّةِ في قولهم: ما في الدارِ أحدٌ إلا حمارٌ^(١)، أي: إنَّ كانَ الحمارُ مِنَ الأَحَدِ، فيها أَحَدٌ، وبه فَسَّرَ الزمخشريُّ قولَه تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] (٢).

قوله: (فهو من بابِ التعليلِ بالمُحالِ): نظيرُه: قولُه تعالى: ﴿وَلَا نُنَكِّهُوا ما نَكَّحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢]، نظيرُه: أن يَسْتَسْقِيَ أَحَدٌ، فتقون: لا أسقيكَ إلا الجمرَ، والجمرُ لا يُسقى. فمعناه: إنَّ كانَ الجمرُ شيئاً يُسقى فإنما أسقيكَه.

قوله: ﴿فَأَنمَّا يَسْتَرْنَهُ بِلسانِكَ﴾ فذلِكةُ (٣) للسُّورةِ، إلى آخره، يعني: هو إجمالٌ بعدَ تفصيلِ.

(١) كذا في الأصول الخطية، وفيه غموضٌ شديد، ولفظُ ابنِ المنبِّرِ في «الانتِصافِ»: «وسِرُّ اللُغَةِ التَّمِيمِيَّةِ: بَدَلُ النِّفْيِ المُرادِ على وَجْهِه لا يُبقي للسامعِ مَطْمَعاً في الإثباتِ، فيقولون: ما فيها أحدٌ إلا حمارٌ».

(٢) «الانتِصافِ» (٣: ٥٠٧) بحاشية «الكشاف».

(٣) يُقالُ: فذلِكَ حِسابُه فذلِكةُ، أي: أنْهاه وقرَّعَ منه، وهي كَلِمَةٌ مُحْتَرَعَةٌ - كما قال الصَّغاني - من قولِ الحَسِبِ إذا أَجْمَلَ حِسابَه: فذلِكَ كذا وكذا عدداً، وهي مثلُ قولهم: فَهَرَسَ الأَبوابَ فهِرَسَه. لِأَنَّ أَفْذَنْكَ ضَرْبٌ =

ومعناها: ذكّرهم بالكتاب المبين ﴿فَاتَّمَايَسَّرْنَاهُ﴾ أي: سهّلناه، حيث أنزلناه عربياً ﴿وَبَلَّغْنَاكَ﴾ بلغتك؛ إرادة أن يفهمه قومك فيتذكروا.

﴿فَارْتَقِبْ﴾ فانتظر ما يحلّ بهم، ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ ما يحلّ بك مترصون الدوائر.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ «حَمِ الدُّخَانَ» فِي لَيْلَةٍ أَصْبَحَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ»، وعنه عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ حَمِ التِّي ذُكِرَ فِيهَا الدُّخَانُ فِي لَيْلَةٍ جُمِعَتْ أَصْبَحَ مَغْفُوراً لَهُ».

وقلت: بل خاتمة عزيزة، وردّ للعجز على الصدر، وبها ظهر دقّة نظر من قال: إنّ ﴿رَحْمَةً﴾ - في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الدخان: ٥-٦] - مفعول به، والمراد بها سيّد المرسلين وخاتم النبيّين ورحمة العالمين، وأنّ قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠] مقابل لقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَرَّكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، ولذلك ضمّ مع التبشير قوله: ﴿فَارْتَقِبْ﴾.

قوله: (مَنْ قَرَأَ «حَمِ الدُّخَانَ»): رويناه عن الترمذي^(١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ «حَمِ الدُّخَانَ» فِي لَيْلَةٍ أَصْبَحَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ»، وفي رواية: «فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ غُفِرَ لَهُ».

تَمَّتِ السُّورَةُ.

* * *

= يعرق في العربية، و«فَهْرَسَ» مُعَرَّبٌ، والفَذْلُكَةُ: جملة عدد قد فُضِّلَ. «تاج العروس» للزبيدي، مادة (فذلک). وعليه فمعنى قوله: «فذلکة للسورة» أي: خاتمة تُجْمَلُ ما فَضَّلَتْهُ السورة، ولذا قال الطيبي هنا: «يعني: هو إجمال بعد تفصيل».

وانظر في معنى «الفذلکة» أيضاً ما نقلته عن الكفوي في تفسير الآية ١١١ من سورة التوبة (٧: ٣٧٤).

(١) في «جامعه» (٢٨٨٨) و(٢٨٨٩)، وضعفه. وانظر: «تنزيه الشريعة المرفوعة» لابن عراق (١: ٢٩٠).

سورة الجاثية

مَكِّيَّة، وهي سبعٌ وثلاثون آية، وقيل: ستٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[حَمَّ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابِّهِمْ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَنَصْرَ يَفِ الرِّيحِ * آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَمَا أُبَدِّلُهَا لَكُمْ إِلَّا أَنْ يَأْمُرَ بِعَدَالَةٍ وَأَنْ يَكُنْ مِنْكُمْ حِزْبٌ * لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] [١-٦]

﴿حَمَّ﴾ إِنَّ جَعَلْتَهَا اسماً مُبْتَدَأً مُخْبِراً عَنْهُ بِ﴿تَنْزِيلِ الْكِتَابِ﴾، لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ حَذْفِ مُضَافٍ، تَقْدِيرُهُ: تَنْزِيلُ حَم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ، وَ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ صِلَةٌ لِلتَّنْزِيلِ، وَإِنْ جَعَلْتَهَا تَعْدِيداً لِلحُرُوفِ، كَانَ ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ مُبْتَدَأً، وَالظَّرْفُ خَبِراً.

سورة الجاثية

مَكِّيَّة، وهي سبعٌ وثلاثون آية، وقيل: ستٌ وثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (تنزيل حم تنزيل الكتاب): يعني: تنزيل هذه السورة كتنزِيل سائر القرآن، فيكون في قوله: ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ دلالة على وَجْهِ الشَّبْهِ، فكونُهُ مِنَ اللَّهِ دَلٌّ عَلَى أَنَّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ وَصَوَابٌ، وَكونُهُ مِنَ الْعَزِيزِ دَلٌّ عَلَى أَنَّهُ مُعْجَزٌ يَغْلِبُ وَلَا يُغْلَبُ، وَكونُهُ مِنَ الْحَكِيمِ دَلٌّ عَلَى أَنَّهُ مُشْتَمَلٌ عَلَى الْحِكْمِ الْبَالِغَةِ، وَعَلَى أَنَّهُ مُحْكَمٌ فِي نَفْسِهِ، يَنْسَخُ وَلَا يُنْسَخُ.

﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يجوزُ أن يكونَ على ظاهره، وأن يكونَ المعنى: إنَّ في خَلْقِ السماواتِ والأرضِ؛ لقوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾. فإن قلت: عَلَامَ عَطَفَ ﴿وَمَا يَبُتُّ﴾، أعلَى «الخلقِ» المُضَافِ، أم على الضميرِ المُضَافِ إليه؟ قلت: بل على المُضَافِ، لأنَّ المُضَافَ إليه ضميرٌ مُتَّصِلٌ مجرورٌ يَقْبُحُ العَطْفُ عليه، استتَبَحُوا أن يُقالَ: مَرَرْتُ بِكَ وزيد، وهذا أبوكَ وعمِّرو، وكذلك إن أكَدُوهُ كَرِهُوا أن يقولوا: مَرَرْتُ بِكَ أنتَ وزيد.

قوله: (يجوزُ أن يكونَ على ظاهره): أي: لا يُقدَّرُ مُضَافٌ، قال الإمام: «وذلك أنه حَصَلَ في ذواتِ السماواتِ والأرضِ أحوالٌ دالَّةٌ على وجودِ الله تعالى، مثلِ مَقاديرِها وكيفياتِها وحرَكياتِها، وأيضاً الشمسُ والقَمَرُ والنُّجُومُ والجِبَالُ موجودةٌ فيهما، وهي آياتٌ»^(١).

وقلت: ويجوزُ - على هذا - أن يكونَ قوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ إلى آخِرِ الآيَتِينَ مِنَ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ، لأنَّ المذكورَ بعضُ ما في السماواتِ والأرضِ.

قوله: (وأن يكونَ المعنى: إنَّ في خَلْقِ السماواتِ والأرضِ): روى الواحدِيُّ عن الزَّجَاجِ هذا القولَ^(٢).

قوله: (ضميرٌ مُتَّصِلٌ مجرورٌ يَقْبُحُ العَطْفُ عليه): يعني: العطفُ على المُضَمَّرِ المجرورِ قبيحٌ، سواءً كانَ مجروراً بحرفِ الجرِّ أو بالإضافة، لا فَرْقَ بينَ أن يُوكَّدَ أم لا، قال في «النساء»: «الضميرُ المُتَّصِلُ كاسمِه»^(٣)، والجارُّ والمجرورُ كشيءٍ واحدٍ، فلما اشتدَّ الاتصالُ لِتَكَرُّرِهِ أشبهَ العَطْفَ على بَعْضِ الكَلِمَةِ، فَوَجَبَ تَكَرُّرُ العَاملِ، كقولك: مررتُ به وبزيد^(٤)، وهذا غلامُ زيدٍ.

(١) «مفاتيح الغيب» للرازي (٢٧: ٦٦٩).

(٢) «الوسيط» للواحدِي (٤: ٩٢).

(٣) لفظُ الزمخشري: «الضميرُ المتصل: مُتَّصِلٌ كاسمِه»، وهي أوضحُ مما نقله المؤلفُ عليها رحمةُ الله.

(٤) في (ح): «مررتُ به بزيد»، وفي (ف): «مررتُ بزيد»، والمُتَّبَتُّ من (ط) و«الكشاف».

قُرئ: ﴿ءَايَاتُ لِقَوْمٍ يُوقَتُونَ﴾ بالنَّصْبِ والرَّفْعِ، على قولك: إنَّ زيدا في الدارِ وعمراً في السوق، أو: عمرو في السوق.

وأما قوله: ﴿ءَايَاتُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فَمِنَ العَطْفِ على عاملين، سواءً نَصَبَتْ أو رَفَعَتْ؛ فالعاملان إذا نَصَبَتْ هما: «إنَّ» و«في»، أُقِيمَت الواوُ مقامَهما، فَعَمِلَتِ الجِزِّيَّةُ في ﴿وَأَخْلَيفَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، والنَّصْبُ في «آياتِ»، وإذا رَفَعَتْ فالعاملان: الابتداءُ و«في»، عَمِلَتِ الرَّفْعُ في ﴿ءَايَاتُ﴾، والجِزِّيَّةُ في ﴿وَأَخْلَيفَ﴾. وقرأ ابنُ مسعود: «وفي اختلافِ الليلِ والنَّهارِ».

عن بعضهم: لأنَّ اتِّصَالَ الضَّميرِ له اتِّحَادٌ لفظاً، والجائزُ مَعَ المجرورِ مُتَّحِدٌ معنًى، فلما كانَ فيه اتِّحَادٌ مِن وَجْهين، يَصيرُ في التَّقديرِ كأنه عَطْفٌ على الحرفِ الجارِ، والعطفُ على الحرفِ لا يجوزُ، وكأنه عطفٌ على بعضِ الكلمة، وذلك لا يجوزُ، لأنه ليسَ للمجرورِ ضميرٌ مُنفَصِلٌ.

وذكر ابنُ الحَاجِبِ في «شرح المُفَصَّلِ» في باب الوقفِ منه: «أَنَّ بعضَ النَّحْوِيِّينَ يُجَوِّزُونَهُ في المجرورِ بالإضافةِ دونَ المجرورِ بحرفِ الجِزِّيَّةِ، لأنَّ اتِّصَالَ المجرورِ بالمُضَافِ ليسَ كاتِّصَالِهِ بالجائزِ، لا سِتْقَالَ لِكُلِّ واحدٍ منهما، فلم يَشْتَدَّ اتِّصَالُهُ فيه اشتِدَادُهُ مَعَ الحرفِ، ولذلك رَعَمَ بعضُ النَّحْوِيِّينَ أَنَّ قولَه تعالى: ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠] معطوفٌ على الكافِ والميمِ في قولِه: ﴿كَذِكْرِكُمْ أَبَاءَ كُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠]»^(١) ولذا جَوَّزَهُ المُصَنِّفُ.

قوله: (قُرئ): ﴿ءَايَاتُ لِقَوْمٍ يُوقَتُونَ﴾ بالنَّصْبِ والرَّفْعِ): بالنَّصْبِ: حمزةٌ والكِسائيُّ، والباقون: بالرفعِ^(٢).

قوله: (وأما قوله: ﴿ءَايَاتُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فَمِنَ العَطْفِ على عاملين): يعني: لم يكن قوله: ﴿ءَايَاتُ لِقَوْمٍ يُوقَتُونَ﴾ من العطفِ على عاملين لتكريرِ «في» في قوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾، ولكن

(١) «الإيضاح في شرح المُفَصَّلِ» لابن الحَاجِبِ (٢: ٣٢٠-٣٢١).

(٢) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٨، و«حجة القراءات» ص ٦٥٨.

فإن قلت: العطف على عاملين على مذهب الأخفش شديد لا مقال فيه، وقد أباه سيويوه، فما وجه تخريج الآية عنده؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يكون على إضمار «في»، والذي حسنه تقدم ذكره في الآيتين قبلها، ويعضده قراءة ابن مسعود. والثاني: أن يتصّب «آيات» على الاختصاص بعد انقضاء المجرور معطوفاً على ما قبله أو على التكرير،

في قوله: ﴿ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْتَبُونَ﴾ لا بُدَّ مِنَ الْعَطْفِ عَلَى عَامِلَيْنِ، قال ابن الحاجب: «اختلف الناس في مسألة العطف على عاملين: فمنهم من يمنعه، وهم أكثر البصريين، ومنهم من يجوزه، وهم أكثر الكوفيين، ومنهم من يفضل فيقول: أما مثل قولك: «في الدار زيد والحجرة عمرو» فجائز؛ وأما مثل قولك: «زيد في الدار وعمرو الحجرة» فلا يجوز؛ لأن إحدى المسألتين: المجرور فيها يلي العاطف، فقام العاطف فيها مقام الجار، والأخرى: ليس المجرور فيها يلي العاطف، فكان فيها إضمار الجار من غير عوض. وأما من يمنع العطف على عاملين فيقول في الآيات: إن ﴿ءَايَاتٌ﴾ فيها تأكيد لـ ﴿ءَايَاتٌ﴾ الأولى، ولو كانت موضع «الآيات» الأخيرة لفظاً أخرى لم يجز»^(١).

قوله: (بعد انقضاء المجرور): وهو قوله: «اختلاف» و«ما أنزل» و«تصريف الرياح».

قوله: (أو على التكرير): قال أبو البقاء: «كرّر (آيات) للتوكيد؛ لأنها من لفظ (آيات) الأولى، وإعرابها كإعرابها، كقولك: إن بثوبك دماً وبثوب زيد دماً، ف«دم» الثاني مُكرّر؛ لأنك مُستغني عن ذكره»^(٢).

قال مكّي: «و(آيات) نصب على التكرير لما طال الكلام، كما تقول: ما زيد قائماً ولا جالساً زيد، فنصب «جالساً» على أن زيدا الآخر هو الأول، جيء به مؤكداً، ولو كان غير الأول لم يجز نصب «جالساً»؛ لأن خبر «ما» لا يتقدم على اسمها، بخلاف (ليس)»^(٣).

(١) «الأمالي النحوية» لابن الحاجب (١: ٤٦).

(٢) «التيان في إعراب القرآن» (٢: ١٥٠).

(٣) «مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب (٢: ٦٦٠-٦٦١).

وَرَفَعُهَا بِإِضْمَارِ «هِيَ».

وَقُرِئَ: «وَإِخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» بِالرَّفْعِ، وَقُرِئَ: «آيَةٌ»، وَكَذَلِكَ: «وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَةٌ». وَقُرِئَ: «وَتَضْرِيْفِ الرِّيحِ»، وَالْمَعْنَى: إِنَّ الْمُنْصِفِينَ مِنَ الْعِبَادِ إِذَا نَظَرُوا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ النَّظَرَ الصَّحِيحَ: عَلِمُوا أَنَّهَا مَصْنُوعَةٌ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ صَانِعٍ، فَأَمَنُوا بِاللَّهِ وَأَقْرَبُوا، فَإِذَا نَظَرُوا فِي خَلْقِ أَنْفُسِهِمْ وَتَنَقَّلُوا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَهَيئَةً إِلَى هَيْئَةٍ، وَفِي خَلْقِ مَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ صُنُوفِ الْحَيَوَانَ: أَزْدَادُوا إِيمَانًا وَأَيُّقَنُوا، وَانْتَفَى عَنْهُمْ اللَّبْسُ، فَإِذَا نَظَرُوا فِي سَائِرِ الْحَوَادِثِ الَّتِي تَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ وَقْتٍ - كَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَنُزُولِ الْأَمْطَارِ، وَحَيَاةِ الْأَرْضِ بِهَا بَعْدَ مَوْتِهَا، وَتَضْرِيْفِ الرِّيحِ جَنُوبًا وَشَمَالًا، وَقَبُولًا وَدُبُورًا - : عَقَلُوا وَاسْتَحَكَمَ عِلْمُهُمْ وَخَلَصَ يَقِينُهُمْ.
وَسُمِّيَ الْمَطَرُ رِزْقًا، لِأَنَّهُ سَبَبُ الرِّزْقِ.

قوله: (وَرَفَعُهَا): عطفٌ على قوله: «أَنْ يَتَّصِبَ»، فَكَانَ اتِّصَابُهَا عَلَى الْإِخْتِصَاصِ، وَرَفَعُهَا بِإِضْمَارِ «هِيَ»، وَهُوَ أَيْضًا مَدْحٌ، قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «وَيُقْرَأُ بِالرَّفْعِ عَلَى التَّوَكُّيدِ أَيْضًا»^(١).
وقوله: (وَالْمَعْنَى: إِنَّ الْمُنْصِفِينَ): أَرَادَ بِهِ الْمَعْنَى الْبَيَانِيَّ، يَعْنِي بِالْبَيَانِ: تَرْتِيبَ مَا قَدَّمْتَ وَمَا وَسَّطْتَ وَمَا أَخَّرْتَ.

قوله: (إِذَا نَظَرُوا فِي السَّمَاوَاتِ): اعْلَمْ أَنَّهُ جَعَلَ نَتِيجَةَ النَّظَرِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: الْإِيمَانَ، وَنَتِيجَةَ النَّظَرِ فِي الْأَنْفُسِ وَأَحْوَالِهَا: الْإِزْدِيَادَ فِي الْإِيمَانِ، وَنَتِيجَةَ النَّظَرِ فِي سَائِرِ الْحَوَادِثِ: الْإِخْلَاصَ فِي الْيَقِينِ الَّذِي هُوَ الزِّيَادَةُ فِي الْإِيمَانِ، هَذِهِ طَرِيقَةُ السُّلُوكِ وَالتَّسَرُّقِيِّ.
وقال الراغبُ في «دُرَّةِ التَّنْزِيلِ»^(٢): «مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْآيَاتِ يَدُلُّ عَلَى قَادِرٍ لَا يُشَبَّهُهُ قَادِرٌ، فَمَنْ وَفَى النَّظَرَ فِي ذَلِكَ أَدَاهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى، [فَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿لَا يَلْبَسُ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، فَخَصَّهُمْ لِاتِّفَاعِهِمْ بِهَا]^(٣)، وَإِنْ كَانَتِ الْآيَاتُ مَنْصُوبَةً لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ، فَحِينَ لَمْ يَتَّفَعِ الْغَيْرُ كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٥٠).

(٢) انظر في تخطئة نسبة هذا الكتاب إلى الراغب: ما تقدم تعليقا عند تفسير الآية ٣٥ من سورة إبراهيم عليه السلام.

(٣) ما بين حاصرتين سقط من (ط) و(ح)، وأثبتته من «دُرَّةِ التَّنْزِيلِ».

لهم آيات، وأما قوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ الآية: فَإِنَّ عَجَائِبَ اللَّهِ فِي خَلْقِ الْحَيَوَانِ مِنَ الْأَعْضَاءِ وَالْحَوَاصِّ الَّتِي يُدْرِكُ بِهَا الْمُدْرَكَاتِ، وَمَا فِي بَاطِنِهِ مِنْ جَوَائِبِ الْمَوَادِّ الَّتِي بِهَا قِوَامُ الْحَيَاةِ، ثُمَّ الرُّوحُ الَّتِي بِهَا ثَبَاتُ الْأَجْسَادِ، أَكْثَرُ^(١) مِنْ أَنْ تُحْصَى وَتُعَدَّ، فَإِنَّ عَرَضَتْ شُبُهَةٌ لِلْمُجِدِّ بِأَنْ كَوْنَ الْوَالِدِ مِنَ الْوَالِدِينَ وَمَنْ نُظِفَهُمَا يَأْخُذُ شُبُهَهُمَا، فَإِنَّهُ يَطْرُحُ^(٢) ذَلِكَ، وَيُزَاحُ بِالْآيَاتِ الَّتِي لَيْسَ إِلَى الْوَالِدِ فِعْلُهَا، وَلَا جَارِحَةٌ مِنْ جَوَارِحِهِ تَحِيطُ عِلْمًا بِتَلْفِيْقِهَا، وَحِكْمَةً فِي تَرْكِيْبِهَا، فَثَبَّتَ أَنْ يَكُونَ فَاعِلُهَا مَنْ صَنَعَهَا وَزَيَّنَّهَا بِالْعَقْلِ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ نِعْمَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَهَذَا الْفِكْرُ يَنْتَقِلُ مِنْ ظَنِّ إِلَى عِلْمٍ، وَمَنْ شَكَّ إِلَى يَقِيْنٍ، وَلِذَلِكَ لَا يُوصَفُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ مُوقِنٌ، بَلْ عَالِمٌ. وَخُصِّصَتِ الْآيَةُ الْآخِرَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿يَعْقِلُونَ﴾؛ لِأَنَّهُمْ يَعْقِلُونَ مِنْ إِحْيَاءِ الْأَرْضِ بِالْمَطْرِ حَتَّى تَكْتَسِيَ بِالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ أَنَّهُ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، هَذَا مَوْضِعٌ يُقَالُ فِيهِ: عَقَلَ مِنْ كَذَا كَذَا، أَي: اسْتَدْرَكَهُ بِالْعَقْلِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَدْرِكًا لَهُ، كَمَا أَنَّ أَوَّلَ الْوَصْفِ بِالْعَاقِلِ مَوْضِعٌ لِحَالَةٍ ثَابِتَةٍ وَمَعْرِفَةٍ طَارِئَةٍ^(٣).

وقال الإمام: «ذَكَرَ هُنَا ثَلَاثَةَ مَقَاطِعَ: ﴿زُؤْمِنُونَ﴾ و﴿يُوقِنُونَ﴾ و﴿يَعْقِلُونَ﴾، فَكَأَنَّهُ قِيلَ لَهُمْ: إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَافْهَمُوا هَذِهِ الدَّلَائِلَ، وَإِنْ كُنْتُمْ لَسْتُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، بَلْ أَنْتُمْ مِنْ طُلَّابِ الْجُزْمِ وَالْيَقِيْنِ فَافْهَمُوا تِلْكَ الدَّلَائِلَ، وَإِنْ كُنْتُمْ لَسْتُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ وَلَا مِنْ هَؤُلَاءِ فَلَا أَقْلَ مِنْ أَنْ تَكُونُوا مِنْ زُمْرَةِ الْعَاقِلِينَ، فَاجْتَهِدُوا فِي مَعْرِفَةِ الدَّلَائِلِ»^(٤).

وقلت: وعلى هذا هو من باب التَّنَزُّلِ، وَبَيَانُ ذَلِكَ: أَنَّ النَّاسَ ثَلَاثُ طَبَقَاتٍ: مِنْهُمْ مَنْ سَلِمَتْ فِطْرَتُهُ الْأَصْلِيَّةُ مِنَ الشُّكُوكِ، وَمِنْهُمْ مَنْ اجْتَالَتْهُمْ^(٥) شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَأَبْطَلَتْ اسْتِعْدَادَاتِهِمْ كَالْفَلَاسِفَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ بَقِيَ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ، وَوَقَعَ فِي وَرْطَةِ الشُّكُوكِ وَالشُّبُهَاتِ.

(١) قوله: «أكثر»: هو خبر «إن» في قوله: «إن عجايب الله».

(٢) في (ط) و(ح): «يصرح»، والمثبت من «درة التنزيل».

(٣) «درة التنزيل» للخطيب الإسكافي (٣: ١١٠٣-١١٠٧).

(٤) «مفاتيح الغيب» للرازي (٢٧: ٦٧١).

(٥) أي: استخففتهم، فجالوا معهم في الضلال. «النهاية» لابن الأثير، مادة (جول).

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى الآيات المتقدمة، أي: تلك الآيات ﴿ آيَاتِ اللَّهِ ﴾، و﴿ تَتْلُوهَا ﴾ في محلّ الحال، أي: متلوّة ﴿ عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾، والعاوِلُ ما دلّ عليه ﴿ تِلْكَ ﴾ من معنى الإشارة، ونحوه: ﴿ وَهَذَا بَعْلَى شَيْخًا ﴾. وقرئ: «تتلوها» بالياء.

[﴿ وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * مَن زُرَّ بِهِمُ جَهَنَّمُ وَلَا يَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ٧-١٠]

﴿ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ ﴾ أي: بعد آيات الله، كقولهم: أعجبني زيدٌ وكرمه، يريدون: أعجبني كرم زيد. ويجوز أن يُراد: بعد حديث الله، وهو كتابه وقرآنه،

فالأولون: تكفيهم أدنى إشارة، قال:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا^(١)

فهم المؤمنون، فقليل لهم: ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ﴾.

والفريق الثاني: إن ساعدتهم التوفيق لا يضطرهم إلى المعرفة إلا دليل الأنفس، قال حجة الإسلام: الطبيعيون أكثروا البحث عن عالم الطبيعة، وعن عجائب الحيوان، وأكثروا الخوض في تشريح أعضاء الحيوان، فرأوا فيها من عجائب صنع الله وبدائع حكمته ما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها، فهولاء تودوا بقوله: ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾.

والمترددون بين النفي والإثبات: لا يحتاجون إلى التعمق، ولا يكفيهم أيضاً أدنى تأمل، فنسبوا بقوله: ﴿ وَاتَّخِذُوا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ إلى قوله: ﴿ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾. واللّه أعلم بحقيقة كلامه.

قوله: (و) يجوز أن يُراد: بعد حديث الله، وهو كتابه وقرآنه: كذا عن الواحدي^(٢)، وفي

(١) البيت لديك الجن - وهو عبد السلام بن رغبان الكلبي، المتوفى سنة ٢٣٥ - كما في «ديوانه» ص ١٩٤.

(٢) انظر: «الوسيط» للواحدى (٤: ٩٥).

كقوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴿ [الزمر: ٢٣]. وقرئ: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالياء والتاء.

«الأعراف» وفي آخر «المرسلات»: ﴿فِي آيِ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥، والمرسلات: ٥٠]، وقال في تفسيره^(١): ﴿بَعْدَهُ﴾: بعد القرآن، يعني: أن القرآن من بين الكتب المنزلة آية مبصرة ومُعجزة باهرة، فحين لم يؤمنوا به فبأي كتاب بعده يؤمنون.

ويعضد هذا التأويل عطف ﴿وَأَيْنِي﴾ على ﴿اللَّهِ﴾، أي: بعد كتاب الله وآياته الباهرة وبرايمه الساطعة، وهو من عطف الخاص على العام، وكذا ترتب الفاء في ﴿فِي آيِ﴾ على ما قبله.

فعلى هذا: المناسب في الوجه الأول - وهو أن يراد بقوله: ﴿بَعْدَ اللَّهِ﴾: بعد آيات الله - أن يكون المشار إليه بقوله: ﴿تَلَّكَ﴾: الآيات المتقدمة، وفي الوجه الثاني: الآيات التالية، على نحو: هذا أخوك. وهذا أجمع، لأنه يضم الدلائل المنصوبة من الآفاقية والأنفسية مع النصوص القاهرة، وحصل منه الترفي من الأدنى إلى الأعلى في البيان والكشف، وتبين أن بيانات النصوص هي التي تزيل من ألباب أرباب العقول الشكوك وتُجلي الرب.

ثم في الإيهام في اسم الإشارة^(٢)، وتفسيره بـ ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾، وقرب المشار إليه، وهو موضوع^(٣) للبعيد، وتخصيص اسم «الله» الجامع، وتكريره، وإيثار صيغة الجمع^(٤) للتعظيم: حطبت خطير وشأن جليل في الاستبعاد.

قوله: (وقرئ: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالياء والتاء): بالتاء فوقانية: ابن عامر وأبو بكر وحمة والكسائي، والباقون: بالياء^(٥).

(١) قاله الزمخشري في تفسير الآية المذكورة من سورة المرسلات، لا في الأعراف.

(٢) وهو ﴿تَلَّكَ﴾ في قوله: ﴿تَلَّكَ آيَاتِ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾.

(٣) في (ح) و(ف): «موضع»، وهو تحريف. يُريد: أن اسم الإشارة «تلك» موضوع للبعيد، مع أن المشار إليه - وهو الآيات - قريب، فكان الأصل أن يقال: «هذه آيات الله»، فعَدَلَ عنه وقال: ﴿تَلَّكَ آيَاتِ اللَّهِ﴾.

(٤) في قوله: ﴿تَتْلُوهَا﴾.

(٥) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٨، و«حجة القراءات» ص ٦٥٩.

الأفك: الكذاب، والأثيم: المتبالمغ في اقتراف الآثام.

﴿يُصِرُّ﴾ يُقْبِلُ عَلَى كُفْرِهِ وَيُقِيمُ عَلَيْهِ، وَأَصْلُهُ مِنْ إِصْرَارِ الْحِمَارِ عَلَى الْعَانَةِ، وَهُوَ أَنْ يَنْحَى عَلَيْهَا صَارًّا أُذُنِيهِ، ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عَنِ الْإِيمَانِ بِالآيَاتِ وَالْإِذْعَانِ. لِمَا يَنْطِقُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ، مُزْدَرِيًّا لَهَا، مُعْجَبًا بِهَا عِنْدَهُ. قِيلَ: نَزَلَتْ فِي النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ، وَمَا كَانَ يَشْتَرِي مِنْ أَحَادِيثِ الْأَعَاجِمِ، وَيُسْغِلُ النَّاسَ بِهَا عَنِ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ. وَالآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَا كَانَ مُضَارًّا لِلدِّينِ اللَّهُ. فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى «ثُمَّ» فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾؟

قوله: (العانة): الجوهرى: «العانة: القَطِيعُ مِنْ حُمْرِ الْوَحْشِ، وَالْجَمْعُ: عُونٌ».

قوله: (أَنْ يَنْحَى عَلَيْهَا): الأساس: «انْتَحَاهُ: قَصَدَهُ، وَانْتَحَى لِقَرْنِهِ: عَرَضَ لَهُ، وَمِنْ الْمَجَازِ: وَأَنْحَى عَلَيْهِ بِاللُّوْائِمِ؛ إِذَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ».

قوله: (صَارًّا أُذُنِيهِ): الجوهرى: «صُرَّ إِلَيَّ وَجْهَكَ، أَي: أَقْبَلَ عَلَيَّ»، قَالَ (١): تَقُولُ: صَرَّ الْحِمَارُ أُذُنِيهِ، وَتَقُولُ: أَصَرَ الْحِمَارُ، وَلَا تَقُولُ: أُذُنِيهِ، وَمَعْنَى: أَصَرَ الْحِمَارُ، أَي: صَرَّ أُذُنِيهِ (٢). وَقَالَ مَكِّي: ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ حَالٌ مِنَ الْمَرْفُوعِ فِي ﴿يُصِرُّ﴾، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿كَانَ لَوْ يَسْمَعُهَا﴾، فَهِيَ حَالَانِ مِنَ ذَلِكَ الضَّمِيرِ، أَوِ الثَّانِي مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾، أَي: ثُمَّ (٣) يُصِرُّ عَلَى الْكُفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ فِي حَالِ تَكْبِيرِهِ، وَحَالِ تَصَامُمِهِ (٤) (٥).

(١) الظاهر أنه يريد الزخشي، ولعل المؤلف رحمه الله تعالى ينقل من حاشية «الكشاف» كعادته، وعلى كل فقد ذكر الزخشي رحمه الله تعالى نحو هذا الكلام في «أساس البلاغة»، مادة (صرر).

(٢) من قوله: «وتقول: أصر الحمار» إلى هنا، سقط من (ح).

(٣) تحرف في الأصول الخطية إلى: «لم»، والمثبت من «مشكل إعراب القرآن».

(٤) أي: إظهار نفسه أنه أصم لا يسمع.

(٥) «مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب (٢: ٦٦١-٦٦٢).

قلت: كمعناه في قولِ القائل:

بَرَى غَمْرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا

وذلك أنَّ غَمْرَاتِ الْمَوْتِ حقيقة، بأن يَنْجُو رائيها بنفسه، وَيَطْلُبُ الْفِرَارَ عنها، وأما زيارتها والإقدام على مُزاولتها، فأمرٌ مُسْتَبَعِدٌ، فمعنى «ثم»: الإيذانُ بأنَّ فِعْلَ الْمَقْدِمِ عليها بعدما رآها وعايَنها: شيءٌ يُسْتَبَعَدُ في العاداتِ والطُّبَاعِ، وكذلك آياتُ الله الواضحةُ الناطقةُ بالحق، مَنْ تَلَيَّتْ عليه وَسَمِعَهَا، كَانَ مُسْتَبَعَدًا في الْعُقُولِ إصراره على الضَّلالةِ عِنْدَهَا واستكباره عن الإيمان بها.

﴿كَأَنَّ﴾ مُحْفَفَةٌ، والأصل: كأنه لم يَسْمَعْهَا، وَالضَّمِيرُ ضميرُ الشَّانِ، كما في قوله:

كَأَنَّ ظَنِيَّةً تَعْطُو إِلَى نَاصِرِ السَّلْمِ

ومحلُّ الجملة: النَّصْبُ على الحال، أي: يَصِيرُ مِثْلَ غيرِ السَّامِعِ.

قوله: (برى غمرات الموت ثم يزورها): أوله:

لا يكشفُ الغمَاءُ^(١) إلا ابنُ حُرَّةٍ^(٢)

البيت: أي أنَّ زيارةَ غَمْرَاتِ الْمَوْتِ بعدَ رُؤيتِهِ إياها مُسْتَبَعَدَةٌ مُسْتَنْكَرَةٌ في الْعَقْلِ والعادة، وهو مع ذلك يزورها بعدَ استيقانِهِ إياها، بِالْعِ في مَدْحِهِ. ونظيره في الاستبعاد قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ بِشَايِئِ رَبِّهِ فَرَّعَرَّضَ عَنْهَا﴾ [السجدة: ٢٢].

قوله: (كأن ظنية تعطو إلى ناصر السلم): أوله:

ويوماً توافينا بوجهٍ مُقْسَمٍ^(٣)

(١) تحرف في (ح) و(ف) إلى: «الغمام»، والمثبت من (ط) ومن «الحماسة» لأبي تمام، وما تقدّم عند الزمخشري في تفسير الآية ٢٢ من سورة السجدة.

(٢) البيت لجعفر بن عتبة الحارثي، كما في «الحماسة» ص ١٣.

(٣) تقدّم في تفسير الآية ١٠ من سورة يونس، وذكرت هناك الخلاف في قائله، والوجوه في ضبط قوله: «ظنية» وإعرابه.

﴿وَإِذَا بَلَغَ شَيْءٌ مِنْ آيَاتِنَا، وَعَلِمَ أَنَّهُ مِنْهَا، ﴿اتَّخَذَهَا﴾ أَي: اتَّخَذَ الْآيَاتِ ﴿هُرُوًّا﴾، ولم يقل: اتَّخَذَهُ؛ لِإِشْعَارِهِ بِأَنَّهُ إِذَا أَحَسَّ بِشَيْءٍ مِنَ الْكَلَامِ أَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ الْآيَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، خَاصٌّ فِي الْاسْتِهْزَاءِ بِجَمِيعِ الْآيَاتِ، وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى الْاسْتِهْزَاءِ بِمَا بَلَغَهُ، وَيَحْتَمِلُ: وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَشَبَّهَ بِهِ الْمُعَانِدُ، وَيَجِدَ لَهُ مَحْمَلًا يَسَلِّقُ بِهِ عَلَى الطَّعْنِ وَالغَمِيزَةِ: افْتِرَاصَهُ وَاتَّخَذَ آيَاتِ اللَّهِ هُرُوًّا، وَذَلِكَ نَحْوُ اعْتِرَاضِ ابْنِ الزُّبَيْرِيِّ قَوْلَهُ عَزَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وَمُعَاظَمَتِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَقَوْلُهُ: «خَصَمْتُمْ».

تُوفِينَا: أَي: تَأْتِينَا، وَالْمُقَسَّمُ: الْمُحْسَنُ، يُقَالُ: وَجْهٌ مُقَسَّمٌ؛ إِذَا وَافَى كُلَّ جُزْءٍ مِنْهُ حَظَّهُ مِنَ الْحَسَنِ، تَعَطُّو: أَي: تَنَاوَلُوا وَتَأَخَذُوا، وَالنَّاضِرُ: الطَّرِيقُ، وَالسَّلْمُ: ضَرْبٌ مِنَ الشَّجَرِ، وَالوَاحِدَةُ: سَلْمَةٌ، يَصِفُ يَوْمَ الْوَصْلِ. «تَعَطُّو إِلَى نَاضِرِ السَّلْمِ»، أَي: تَمِيلُ إِلَى الْمُعَانَقَةِ وَالتَّقْيِيلِ. وَقِيلَ فِي «ظَنِيَّةٍ» ثَلَاثَةٌ أَوْجُهُ: الرَّفْعُ عَلَى الْإِغَاءِ «كَأَنَّ» الْمُخَفَّفَةَ، وَالتَّنْصِبُ عَلَى إِعْمَالِهَا، وَالجُرْعُ عَلَى «أَنَّ» زَائِدَةً بَعْدَ الْكَافِ. قَوْلُهُ: (وَيَحْتَمِلُ: وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا): الْفَرْقُ بَيْنَ هَذَا الْوَجْهِ وَالسَّابِقِ: أَنَّ الطَّاعِنَ فِي الْأَوَّلِ طَاعِنٌ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ، فَلَمَّا سَمِعَ أَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ الْآيَاتِ طَعَنَ فِيهِ، وَعَلَى هَذَا: أَنَّهُ مُتَدَبَّرٌ مُسْتَنْبَطٌ مِنْهُ مَا يَتَشَبَّهُ بِهِ عَلَى الطَّعْنِ.

قَوْلُهُ: (يَسَلِّقُ بِهِ): الْجَوْهَرِيُّ: «تَسَلَّقَ الْحَائِطُ؛ أَي: تَسَوَّرَهُ». وَالْأَسَاسُ: «سَلَّقَهُ بِلِسَانِهِ، وَلِسَانٌ مَسْلُوقٌ».

قَوْلُهُ: (وَالغَمِيزَةُ): الْأَسَاسُ: «وَمِنَ الْمَجَازِ: مَا فِيهِ مَغَمَزٌ وَلَا غَمِيزَةٌ، أَي: مُعَابٍ، وَعَمَزَ فِيهِ: طَعَنَ».

قَوْلُهُ: (نَحْوُ اعْتِرَاضِ ابْنِ الزُّبَيْرِيِّ): فِي نُسخة: «نَحْوُ اعْتِرَاضِ النَّضْرِ^(١)»، قَالَ: يَحْتَمِلُ أَنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِيِّ^(٢) قَالَ ذَلِكَ، وَالتَّنْضُرُ أَيْضًا، لَا مُنَافَاةَ فِيهِ.

(١) يعني: النضر بن الحارث.

(٢) من قوله: «في نسخة» إلى هنا، سقط من (ح).

ويجوزُ أن يرجع الضميرُ إلى «شيء»، لأنه في معنى الآية، كقول أبي العتاهية:
 نفسي بشيءٍ من الدنيا مُعلّقة الله والقائمُ المهديُّ يكفيها
 حيث أراد عتبة. وقُرئ: «عَلَم».

﴿أَوْلَيْتِكَ﴾ إشارة إلى «كُلُّ أَفَاكٍ أَثِيمٍ»؛ لِشُمُولِهِ الْأَفَاكِينَ.
 والوراء: اسمٌ لِلجِهَةِ التي يُوارِئها الشَّخْصُ من خَلْفٍ أو قُدَّام، قال:
 أليس ورائي أن تراخت منيَّتي أدبٌ مع الولدانِ أزحفُ كالنَّسْرِ

قوله: (نفسى بشيءٍ من الدنيا مُعلّقة): البيت: قبله:

إني لأياسُ منها ثم يطمئنني فيها احتقارُكَ للدُّنيا وما فيها^(١)

الضميرُ في «يكفيها» يرجعُ إلى «شيء»، لأنه في المعنى مُؤنَّث، وهي عتبة؛ جاريةٌ من جوارى المهديِّ، أهاها^(٢) أبو العتاهية، وأهدى إلى المهديِّ في النيروز^(٣) بَرْنِيَّةً فيها ثوب، وفي حواشيهما البتآن، فهَمَّ المهديُّ أن يدفَع عتبةً إليه، فقالت: يا أميرَ المؤمنين، أتدفعني إليه؟ فانصرفت المهديُّ عن ذلك الرأي، وأمرَ بالبَرْنِيَّةِ^(٤) أن تمتلئ مالا، وناقش أبو العتاهية الخزانَ بأنَّ المأمورَ الدنانير، وقد أملاها دراهم، وتراجعا إلى المهديِّ، فقالت عتبة: لو كانَ عاشِقاً كما وَصَف، لَمَا فَرَّقَ بينَ الدَّرَاهِمِ والدَّنَانِيرِ، وما صَرَفَ هَمَّهُ إليها.

قوله: ﴿أَوْلَيْتِكَ﴾ إشارة إلى «كُلُّ أَفَاكٍ»: أي: إلى معنى «كُلُّ»، ولهذا جمع ﴿مِنَ وِرَائِهِمْ جَهَمٌ﴾، وقوله: «يسمع» إلى لفظه.

قوله: (أليس ورائي) البيت: الوراء: بمعنى قُدَّام، وتراخت: تَبَاعَدت، أدبٌ: أمشي على

(١) انظر: «الكامل» للمبرد (٢: ٢٢٣)، والقصة الآتية مذكورة فيه أيضاً.

(٢) كذا في الأصول الخطية، ولعل الصواب: «هَوَيْهَا».

(٣) وهو أول يوم من السنة الفارسية، مُعَرَّبُ نوروز، كما في «القاموس»، مادة (نرز).

(٤) البَرْنِيَّة: شِبْهُ فِخَّارَةٍ صَحْمَةٍ خَضْرَاءَ، وربما كانت من القوارير الثخان الواسعة الأفواه، والبَرْنِيَّة: إناءٌ من

خَرْف. كذا في «لسان العرب» لابن منظور، مادة (برن).

ومنه قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مِن رَّوَاهِمٍ﴾ أي: من قدامهم، ﴿مَا كَسَبُوا﴾ من الأموال في رحلهم ومتاجرهم، ﴿وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأوثان.

[هَذَا هَدَى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَيَّاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾]

﴿ هَذَا ﴾ إشارة إلى القرآن، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَيَّاتِ رَبِّهِمْ﴾،

هيئة، أزحف: من: أزحف الصبي: إذا مشى على استه، ويروى: «أرجف» بالجيم، أي: أرعد واضطرب، قال بعضهم: خبر «ليس» أنا، أي: أنا أدب، لأن «أدب» لا يصلح خبراً لـ «ليس»، لأن «ليس» فعل، و«أدب» فعل، والفعل لا يصلح أن يكون خبراً للفعل. وليس بذلك. وقيل: «أدب»: اسم «ليس»، أي: ليس ورائي أن أدب، فحذف «أن»، قال شارح الآيات: استشهد به هذا البيت غير مناسب، لأنه لا مناسبة بين المضارعين من حيث اللفظ؛ المصراع الأول من قول لبيد بن ربيعة:

ليس ورائي إن تراخت مئيتي	لُزومُ العصا تُخني عليها الأصابع
أخبر أخبار القرون التي مضت	أدب كأي كلما قمت راجع
لعمرك ما تدري الضوارب بالحصي	ولا زاجرات الطير ما الله صانع ^(١)

ولعل اشتبه على المصنف الأمر، حتى ما فرق بين قوله:

أدب كأي كلما قمت راجع

وبين قول القائل:

أدب مع ولدان أزحف كالنسر

وأبيات القصيدة تسعة عشر بيتاً، أولها:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

وآخرها: «لعمرك» البيت، وليس فيها هذا.

قوله: ﴿ هَذَا ﴾ إشارة إلى القرآن، يدل عليه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَيَّاتِ رَبِّهِمْ﴾: وقال الواحدي:

﴿ هَذَا هُدًى ﴾: هذا القرآن بيان من الضلالة، والذين كفروا به ﴿ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ رِجْزِ آيَاتِهِ ﴾^(١). وقلت: والآيات السابقة أيضاً - أعني قوله: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ - تدل عليه.

واعلم أنه تعالى لما عد أنواع استخفافهم وتكذيبهم بالقرآن، ووصفهم بالكذب والإفك والإثم والاستكبار، ورتب عليه البشارة بالعذاب، وحكى عن استهزائهم وانتهاز فرصتهم ليستخفوا به، ورتب عليه: ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾، عينه تعيناً، وميزه تمييزاً، وجعله كالعلم المشار إليه بالحس، ونكر خبره تنكير تهويل، فقال: ﴿ هَذَا هُدًى ﴾، أي: هذا المُمَيِّزُ الْمُشَخَّصُ كَامِلٌ فِي الْهُدَايَةِ، ليس بخاف على كل ذي بصيرة: أنه ليس بمكان للتكذيب والاستهزاء، والذين كذبوا به، واستكبروا عن قبوله، وأعرضوا عنه بالاستهزاء: لهم عذاب بعد العذاب، أي: عذاب مُضَاعَفٌ، لأن الرجز والعذاب شيء واحد، والمراد: التكرير لا التحديد، ثم نئى إلى ما بدأ السورة به من ذكر الآيات: ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ ﴾.

ويمكن أن يقال - والله أعلم -: إن المشار إليه بقوله: ﴿ هَذَا ﴾ المذكور، يعني: ما ذكر من أول السورة من الآيات الدالة على الوحدانية، كالوحي النازل من العزيز الحكيم، وكأفعاله الخاصة الآفاقية والأنفسية، ﴿ هُدًى ﴾ أي: هدى لا يُقَادَرُ قَدْرُهُ، ولا يُكْتَنَى كُنْهَهُ. يؤيده قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾، وتفسير المصنف: «﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى الآيات المتقدمة»، فيكون المراد بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أيضاً: تلك الآيات.

وفي اقتران ذكر «الرب» معه، وذكر «الله» في قوله: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ ﴾: إشعار بأن تلك التلاوة وذلك الإرشاد لم يكن إلا لِمَحْضِ الْإِنْعَامِ، والكافرون عكسوا القضية، فكفروا بدل الشكر، ولذلك جيء بقوله: ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ ﴾، وبقوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَوَاتِ ﴾، وقصّل الأولى^(٢) بقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، والثانية بقوله: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يُعَلِّمُ الْبَشَرَ مَا كَانُوا لَا يَشْعُرُونَ ﴾؛ لئبسه

(١) «الوسيط» للواحدى (٤: ٩٥).

(٢) أي: جعل فاصلة الآية الأولى، والفاصلة: الكلمة التي تحتم بها الآية، كالفافية في الشعر.

لأنَّ «آياتِ ربِّهم» هي القرآن، أي: هذا القرآنُ كاملٌ في الهداية، كما تقول: زيدٌ رجلٌ، تُريد: كاملٌ في الرجولية، وأيما رجل. و«الرَّجْزُ»: أشدُّ العذاب، وقُرئَ بجرٍّ «أليم» ورَفِعِهِ.

[«اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِيَجْرِيَ أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ. وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» * وَسَخَّرَ

لَكُمْ مَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٢-١٣﴾

﴿وَلِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ بالتجارة، أو بالغوصِ على اللؤلؤِ والمرجان، واستخراج اللحم

الطريِّ وغير ذلك من منافع البحر.

فإن قلت: ما معنى ﴿مِّنْهُ﴾ في قوله: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾، وما موقعها من الإعراب؟ قلت:

هي واقعةٌ موقعٌ الحال، والمعنى: أنه سَخَّرَ هذه الأشياءَ كائنةً منه، وحاصلةٌ من عنده، يعني: أنه مكوِّنها وموجدُها بقدرته وحكمته، ثم مُسَخَّرُها لِخَلْقِهِ. ويجوزُ أن يكونَ

خَبَرٌ مُّبْتَدَأٌ محذوف، تقديره: هي جميعاً منه، وأن يكونَ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ﴾ تأكيداً لقوله: ﴿سَخَّرَ لَكُمْ﴾، ثم ابتدأ قوله: ﴿مَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾، وأن يكونَ ﴿مَاءَ فِي الْأَرْضِ﴾

مُبتدأ، و﴿مِّنْهُ﴾ خبره.

بالشُّكْرِ على الإنعام، وبالتشكُّرِ على أن ذلك^(١) الإنعام أيضاً دليلٌ من الدلائل السابقة، وأُخِّرَتْ من أخواتها تطرئةً للتنبيه، وعِلْمٌ من ذلك أن التَّفَكُّرَ ملاكُ التَّعْقُلِ والإيقانِ والإيمان، والله أعلم.

قوله: (وأيضاً رجلٌ): تفسيرٌ ثانٍ لقوله: «زيدٌ رجلٌ». فإن قلت: ليس ما في الآية كالمثال،

لأنَّ «رجلٌ» هو «زيد»؟ قلت: بل الكتابُ هو هُدىٌ مُبَالِغَةٌ، قال صاحبُ «المفتاح»: «وَأَنْتَ تَعَلَّمُ أَنَّ شَأْنَ الكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ الهُدَايَةُ لا غير، وبَحَسَبِهَا يَتَفَاوَتْ شَأْنُهُنَّ فِي دَرَجَاتِ

الكمال»^(٢).

قوله: (تقديره: هي جميعاً منه): أي: المذكوراتُ كائنةً منه جميعاً.

(١) في الأصول الخطية: «تلك».

(٢) «مفتاح العلوم» للسكاكي ص ٢٦٨.

وقرأ ابن عباس: «مِنَّة»، وقرأ سلمة بن محارب: «مَنَّة»، على أن يكون «مَنَّة» فاعلُ ﴿سَخَّرَ﴾ على الإسناد المجازي، أو على أنه خبرٌ مُبتدأٌ محذوف، أي: ذلك - أو: هو - مَنَّة.

[قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٤-١٥﴾]

حَذَفَ الْمُقُولَ لِأَنَّ الْجَوَابَ دَالٌّ عَلَيْهِ، وَالْمَعْنَى: قُلْ لَهُمْ: اغْفِرُوا يَغْفِرُوا، ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ لَا يَتَوَقَّعُونَ وَقَائِعَ اللَّهِ بِأَعْدَائِهِ، مِنْ قَوْلِهِمْ لِقَائِعِ الْعَرَبِ: أَيَّامُ الْعَرَبِ. وَقِيلَ: لَا يَأْمُلُونَ الْأَوْقَاتِ الَّتِي وَقَّتَهَا اللَّهُ لِثَوَابِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَعَدَهُمُ الْفَوْزَ فِيهَا. قِيلَ: نَزَلَتْ قَبْلَ آيَةِ الْقِتَالِ، ثُمَّ نَسِخَ حُكْمُهَا. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَدْ شَتَّمَهُ رَجُلٌ مِنْ غِفَارٍ، فَهَمَّ أَنْ يَبْطِشَ بِهِ. وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ: كُنَّا بَيْنَ يَدَيْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَرَأَ قَارِئٌ هَذِهِ الْآيَةَ، فَقَالَ عُمَرُ: لِيَجْزِيَ عُمَرَ بِمَا صَنَعَ.

(لِنَجْزِي) تَعْلِيلٌ لِلأَمْرِ بِالْمَغْفِرَةِ، أَي: إِنَّمَا أُمِرُوا بِأَنْ يَغْفِرُوا لِمَا أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْ تَوْفِيقِهِمْ جَزَاءً مَغْفِرَتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

قوله: (وقرأ ابن عباس: «مِنَّة»): قال ابن جني: «وقراها أيضاً [عبدُ الله بن] (١) عَمِرُو الْجَحْدَرِي، فَهِيَ مَنْصُوبَةٌ عَلَى الْمَصْدَرِ، دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ مِنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، أَي: مَنْ عَلَيْهِ مِنَّةٌ» (٢).

قوله: (على أن يكون «مَنَّة» فاعلُ ﴿سَخَّرَ﴾ على الإسنادِ المجازي): وَوَجْهُهُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَخَّرَ ذَلِكَ لِلْمِنَّةِ عَلَيْنَا، فَكَأَنَّ الْمِنَّةَ هُوَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ.

قوله: (لأنَّ الجوابَ دالٌّ عليه): أَوْ ﴿يَغْفِرُوا﴾ دَالٌّ عَلَى أَنَّ الْمُقُولَ: اغْفِرُوا، كَقَوْلِهِ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾، أَي: فِي الْقِتَالِ، فَحَذَفَ، لِأَنَّ ﴿يُقْتَلُونَ﴾ دَلَّ عَلَيْهِ.

(١) ما بين حاصرتين سقط من الأصول الخطية، واستدركته من «المحتسب» لابن جني.

(٢) «المحتسب» لابن جني (٢: ٢٦٢).

فإن قلت: قوله: ﴿قَوْمًا﴾ ما وجه تنكيره، وإنما أراد الذين آمنوا، وهم معارف؟ قلت: هو مدح لهم وثناء عليهم، كأنه قيل: ليجزي أيما قوم وقوماً مخصوصين؛ لصبرهم وإغصائهم على أذى أعدائهم من الكفار، وعلى ما كانوا يجرو عوتهم من الغصص.

قوله: (هو مدح لهم وثناء عليهم): وهو من باب التجريد^(١)، وأنشد ابن جني عن أبي علي الفارسي:

أفاءت بنو مروان ظلماً دماءنا وفي الله إن لم يعدلوا حكماً عدل^(٢)

وقال: «وهو تعالى أعرّف المعارف، وسماه الشاعر حكماً عدلاً، وأخرج اللفظ مخرج التنكير، ألا ترى كيف آل الكلام من لفظ التنكير إلى معنى التعريف»^(٣).

وقلت: وإليه أشار المصنف بقوله: «أيما قوم وقوماً مخصوصين» إلى آخره، وكذا جرّد عمر رضي الله عنه من نفسه شخصاً اسمه عمر، كأنه غيره، وحكم عليه بأنه ليجزي ما صنع من صبره واحتماله من الرجل الذي ستمه من غفار، وهم أن يبطل به.

(١) عقّد ابن جني في «الخصائص» (٢: ٤٧٣-٤٧٦) باباً في «التجريد»، ويبيّن في أوله معناه فقال: «العرب قد تعتقد أنّ في الشيء من نفسه معنى آخر، كأنه حقيقته ومحصوله...، وذلك نحو قولهم: لئن لقيت زيدا لتلقين منه الأسد، ولئن سألته لتسألنّ منه البحر، فظاهر هذا أنّ فيه من نفسه أسداً وبحراً، وهو عينه هو الأسد والبحر، لا أنّ هناك شيئاً مُنفصلاً عنه وممتازاً منه، وعلى هذا يخاطب الإنسان منهم نفسه، حتى كأنها تقابله أو تخاطبه».

(٢) ذكره ابن جني في «الخصائص» (٢: ٤٧٥)، وفي «المحتسب» (١: ٤٢ و ١٠٦)، وقال في «الخصائص» (٢: ٤٧٥) مبيّناً معنى التجريد فيه: «لا يجوز أن يُعتقد أنّ الله سبحانه ظرّف لشيء، فهو إذن على حذف المضاف، أي: في عدل الله عدلٌ حكّم»، وقال في «المحتسب» (١: ١٠٦): «هذا وإن كان مما لا ينبغي أن يُجرى في الحقيقة مثله على الله سبحانه، لأنه لا تجزؤ هناك، فإنه يُجرى على عادة القوم ومذهب خطابهم، وقد تطقوا بهذا نفسه معه تقدّست أسماؤه...، فجرى اللفظ على أنه جرّد منه شيء يُسمى حكماً عدلاً، وهو على حذف المضاف...».

(٣) «المحتسب» لابن جني (١: ٤٢).

﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الثواب العظيم بكظم الغيظ واحتمال المكروه.

ومعنى قول عمر: «لِيُجْزَى عُمَرُ بِمَا صَنَعَ»: لِيُجْزَى بِصَبْرِهِ وَاحْتِمَالِهِ وَقَوْلِهِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ نُزُولِ الْآيَةِ: «وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا تَرَى الْغَضَبَ فِي وَجْهِهِ».

وَقُرِي: ﴿لِيُجْزَى قَوْمًا﴾؛ أي: اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، و«لِيُجْزَى قَوْمٌ»، و«لِيُجْزَى قَوْمًا»، على معنى: وَلِيُجْزَى الْجُزَاءُ قَوْمًا.

[وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَعَايَنَاهُمْ يَتَنَّبَتِ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا يَبْنُهُمْ إِنْ رُبِّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٦-١٧﴾]

﴿الْكِتَابَ﴾ التَّوْرَةَ، ﴿وَالْحُكْمَ﴾ الْحِكْمَةَ وَالْفِقْهَ، أَوْ فَضَّلَ الْخُصُومَاتِ بَيْنَ النَّاسِ، لِأَنَّ الْمَلِكَ كَانَ فِيهِمُ وَالنَّبُوءَ، ﴿مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ مِمَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ وَأَطَابَ مِنَ الْأَرْزَاقِ، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ حَيْثُ لَمْ نُؤْتِ غَيْرَهُمْ مِثْلَ مَا آتَيْنَاهُمْ.

قوله: (وَقُرِي: ﴿لِيُجْزَى قَوْمًا﴾): ابنُ عامرٍ وحمزةٌ والكِسَائِيُّ: بِالنُّونِ، وَالباقونَ: بِالْيَاءِ (١).

قوله: (على معنى: وَلِيُجْزَى الْجُزَاءُ قَوْمًا): قال صاحبُ «التقريب»: وفي المجهولِ في نَصْبِ ﴿قَوْمًا﴾ على: لِيُجْزَى الْجُزَاءُ قَوْمًا: نَظَرٌ؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: إِذَا وُجِدَ الْمَفْعُولُ بِهِ تَعَيَّنَ، فَالْأَوَّلَى أَنْ يَتَنَصَّبَ بِـ«أعني» أو «يَجْزِي» لِإِدْلَالَةِ الْمَجْهُولِ عَلَى جَازِ، وَقَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «الْجَيِّدُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ: لِيُجْزَى الْخَيْرُ قَوْمًا، عَلَى أَنَّ «الْخَيْرَ» مَفْعُولٌ بِهِ فِي الْأَصْلِ، كَقَوْلِكَ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، وَإِقَامَةُ الْمَفْعُولِ الثَّانِي إِقَامَةَ الْفَاعِلِ جَائِزًا، أَوْ التَّقْدِيرُ: لِيُجْزَى الْجُزَاءُ، عَلَى أَنَّ الْقَائِمَ مَقَامَ الْفَاعِلِ الْمَصْدَرِ، وَهُوَ بَعِيدٌ» (٢).

وقال صاحبُ «الكشف»: لِأَنَّ الْمَصْدَرَ لَا يَقُومُ تَقَامَ الْفَاعِلِ، وَمَعَكَ مَفْعُولٌ صَحِيحٌ،

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٨، و«حجة القراءات» ص ٦٦٠.

(٢) «التيبان في إعراب القرآن» (٢: ١١٥٢).

﴿بَيَّنَّتْ﴾ آياتٍ ومُعْجِزَاتٍ، ﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾ من أمرِ الدين، فما وقعَ بينهم الخِلافُ في الدين ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ﴾ ما هو مُوجِبٌ لِزَوَالِ الخِلافِ، وهو ﴿الْعِلْمُ﴾، وإنما اختلفوا لِئَنِّي حَدَّثَ بينهم، أي: لِعِدَاوَةٍ وَحَسَدٍ.

[﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ١٨-١٩]

﴿عَلَى شَرِيعَةٍ﴾ على طَريقَةٍ ومنهاجٍ، ﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾ من أمرِ الدين، فَاتَّبِعْ شَرِيعَتَكَ الثابتةَ بِالدَّلَائِلِ والحججِ، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ﴾ ما لا حُجَّةَ عليه من أهواءِ الجهالِ ودينِهِمُ المَبْنِيَّ على هوى وبيدعةٍ - وهُم رُؤَسَاءُ قُرَيْشٍ حينَ قالوا: ارجعْ إلى دينِ آبائِكَ -، ولا تُوالِهِم؛ إنما يُوالي الظالمينَ مَنْ هو ظالمٌ مثلَهُم، وأما المُتَّقونَ: فوَلِيَهُمُ اللهُ، وهُم مُوَالُوهُ. وما أَيْنَ الفِضْلَ بَيْنَ الوِلايَتَيْنِ.

[﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ٢٠]

﴿هَذَا﴾ القرآنُ ﴿بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى﴾ جُعِلَ ما فيه من مَعالمِ الدينِ والشرائعِ بمنزلةِ البصائرِ في القلوبِ، كما جُعِلَ رُوحاً وحياةً، (و) هو (هُدًى) من الضلالةِ، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ مِنَ العِذابِ لِمَنْ آمَنَ وَأيقَنَ. وقُرئ: «هذه بصائر»، أي: هذه الآياتِ.

[﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ٢١]

فإذن الخبرُ مُضَمَّرٌ، كما أضَمَرَ «الشمس» في قوله: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]، لأنَّ ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ﴾ [ص: ٣٢] دليلٌ على توارِي الشمسِ^(١).

قوله: (بمنزلةِ البصائرِ في القلوبِ): البصيرةُ في القلبِ: ما يَسْتَبصِرُ به الإنسانُ، كما أنَّ البَصَرَ في العينِ: ما يُبصِرُ به. وقيل: إنَّ البصيرةَ نورُ القلبِ، كما أنَّ البَصَرَ نورُ العينِ.

(١) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٢٢٨-١٢٢٩).

﴿أَمْ﴾ مُنْقَطِعَةٌ، ومعنى الهمزة فيها إنكارُ الحِسبان، والاجترَاح: الاكْتِسَاب. ومنه: الجوارح، وفلانٌ جارِحَةٌ أهله، أي: كاسِبُهُمْ، ﴿أَنْ يُجْعَلَهُمْ﴾ أي: نُصَيَّرَهُمْ، وهو من «جَعَلَ» المُتَعَدِّي إلى مفعولين، فأولُهُما: الضمير، والثاني: الكاف، والجملة - التي هي (سواءٌ نَحْيَاهُمْ ومماتُهُم) - بَدَلٌ مِنَ الكاف؛ لأنَّ الجملةَ تَقَعُ مفعولاً ثانياً، فكانت في حُكْم المُفْرَد، ألا تَرَكَ لو قُلْتَ: أن نَجْعَلَهُمْ سواءً نَحْيَاهُمْ ومماتُهُم، كان سديداً، كما تقول: ظَنَنْتُ زيدا أبوه مُنطَلِق.

ومن قرأ: ﴿سَوَاءٌ﴾ بِالنَّضْبِ: أَجْرِي «سَوَاءٌ» جَرِي «مُسْتَوِيًّا»، وارتَقَعَ «نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ» عَلَى الفاعلية، وكان مُفْرَداً غيرَ جُمْلَةٍ، ومن قرأ: «ومماتُهُم» بِالنَّضْبِ: جَعَلَ «نَحْيَاهُمْ ومماتُهُم»: ظَرَفَيْنِ، كَمَقْدَمِ الحَاجِّ وَخُفُوقِ النَّجْمِ، أي: سواءً في نَحْيَاهُمْ وفي مَمَاتِهِم. والمعنى: إنكارُ أن يَسْتَوِيَ المُسَيِّئُونَ والمُحْسِنُونَ مَحْيَاً، وأن يَسْتَوُوا مَمَاتًا،

قوله: (والجملة - التي هي «سواءٌ نَحْيَاهُمْ ومماتُهُم» - بَدَلٌ مِنَ الكاف): وقلت: الضميران في «نَحْيَاهُمْ» و«مماتُهُم» للكافرينَ وللمؤمنينَ جميعاً، قال مكي: «(سواءٌ نَحْيَاهُمْ ومماتُهُم)»^(١) مُسْتَوٍ فِي البُعْدِ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، والضميرانِ للكفارِ والمؤمنينَ، وَيَبْعُدُ عِنْدَ سَيِّئِهِ رَفْعُ «نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ» بِ(سواءً)، لأنه ليسَ بِاسْمِ فاعِلٍ ولا مُشَبَّهِ به، وإنما هو مصدرٌ^(٢).

قوله: (ومن قرأ «سَوَاءٌ» بِالنَّضْبِ): حَفْصٌ وَحَمزَةٌ وَالْكِسَائِيُّ، وَالْباقونَ: بِالرَّفْعِ^(٣). قال مكي: «على هذا: «سَوَاءٌ» حَالٌ مِنَ الضميرِ فِي «يُجْعَلُهُمْ»، وَيُرْفَعُ «نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ» به، لأنه بمعنى: مُسْتَوٍ، والمفعولُ الثاني لِـ«جَعَلَ»: الكافُ فِي «كَالَّذِينَ»، والضميرانِ يَعودانِ عَلَى الكُفَّارِ والمُؤْمِنِينَ»^(٤).

(١) من قوله: «بَدَلٌ مِنَ الكاف» إلى هنا، سقط من (ف).

(٢) «مُشْكِلُ إعرابِ القرآن» لمكي بن أبي طالب (٢: ٦٦٢).

(٣) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٨، و«حجة القراءات» ص ٦٦١.

(٤) «مُشْكِلُ إعرابِ القرآن» لمكي بن أبي طالب (٢: ٦٦٣).

لافتراقِ أحوالهم أحياء، حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات، وأولئك على رُكوبِ المعاصي، ومماتاً، حيث مات هؤلاء على البُشرى بالرحمة والوصولِ إلى ثوابِ الله ورضوانه، وأولئك على اليأس من رحمة الله والوصولِ إلى هَوْلٍ ما أعدَّ لهم. وقيل: معناه: إنكاراً أن يستَووا في المماتِ كما استَووا في الحياة، لأنَّ المُسيئينَ والمُحسينينَ مُستَوٍ بحياهم في الرِّزقِ والصَّحَّةِ، وإنما يفتَرِقُونَ في المماتِ، وقيل: (سواءً بحياهم ومماتهم) كلامٌ مُستأنفٌ على معنى: أنَّ حَيَّا المُسيئينَ ومماتهم سواء، وكذلك حَيَّا المُحسينينَ ومماتهم، كُلُّ يَموتُ على حَسَبِ ما عاشَ عليه.

وعن تميم الداريِّ رضي الله عنه: أنه كان يُصَلِّي ذاتَ ليلةٍ عندَ المقامِ، فبلَّغَ هذه الآيةَ، فجعلَ يبكي ويردُّدُ إلى الصَّباحِ: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾. وعن الفُضَّيل: أنه بلَّغها فجعلَ يردُّدها ويبكي ويقول: يا فُضَّيل، ليتَ شعري من أيِّ الفريقينَ أنت؟

[وَحَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾]

﴿وَلِتُجْزَى﴾ معطوفٌ على ﴿بِالْحَقِّ﴾، لأنَّ فيه معنى التعليل،

وقال مكِّي^(١): «(ما) - في قوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ - إن جُعِلَتْ معرفةٌ كانت في موضعِ رَفَعٍ بـ ﴿سَاءَ﴾ فاعلاً، وإن جُعِلَتْ نكرةٌ كانت في موضعِ نَصْبٍ على البيان»^(٢).

قوله: «(سواءً بحياهم ومماتهم)»: كلامٌ مُستأنفٌ، وذلك أنه حينَ أنكرَ حِسبانَ أن يستَوِيَ الكافرُ والمؤمنُ، قيل: فإذاً كيفَ الحال؟ فأجيب: إنَّ المؤمنَ يعيشُ حميداً ويموتُ سعيداً، يعيشُ في طاعةِ الرحمن، ثم المرجعُ إلى الرِّضوانِ، والكافرُ يعيشُ في طاعةِ الشيطانِ، والمآبُ إلى النَّيرانِ، فأني يستَوِيان.

قوله: «﴿وَلِتُجْزَى﴾ معطوفٌ على ﴿بِالْحَقِّ﴾، لأنَّ فيه معنى التعليل»: أي: إنما خلَقها

(١) من قوله: «قال مكِّي» قبل فقرتين إلى هنا، سقط من (ط).

(٢) «مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب (٢: ٦٦٢).

أو على مُعَلَّلٍ محذوف، تقديره: وخلق الله السماوات والأرض ليدلَّ به على قدرته ولتجزى كُلُّ نَفْسٍ.

[﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عِشْنَوةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ٢٣]

﴿مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ﴾ أي: هو مطواع لهوى النفس يتبع ما تدعوه إليه، فكأنه يعبدُه كما يعبدُ الرجلُ إلهه. وقُرئ: «آلهة هواه»، لأنه كان يستحسن الحجر فيعبده، فإذا رأى ما هو أحسن رفضه إليه، فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى، يعبد كل وقت واحدا منها،

لكون حلقها^(١) حقاً «أو على مُعَلَّلٍ محذوف»، ولو قال: «على علة محذوفة» كان أولى، لأنَّ المُقدَّر هو قوله: «ليدلَّ بها على قدرته». ولقائل أن يقول: إنَّ قوله: «ليدلَّ بها على قدرته»: معنى «بالحق» وبيان للوجه الأول، وأما بيان الوجه الثاني: فهو أن يقال: «ولتجزى كُلُّ نفسٍ بما كسبت فعل ذلك»، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقيل: أراد بـ«المُعَلَّل»: التعليل، فيكون المُعَلَّلُ مصدرًا ميميًّا، قال القاضي: «﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾» كأنه دليل على الحكم السابق، من حيث إنَّ خلق ذلك بالحق المُقتضي للعدل يستدعي انتصار المظلوم من الظالم، والتفاوت بين المسيء والمحسن، وإذا لم يكن في المخيا كان بعد الممات^(٢).

قوله: (لأنه كان يستحسن الحجر فيعبده): وفي «التيسير»: كانوا في الجاهلية يعبدون ما يستحسنونه، فإذا استحسنوا غيره تركوا الأول، وعبدوا الثاني، فإنما كان أحد يعبد ما يهواه، فعلى هذا يكون «لهوى» مصدرًا بمعنى المفعول، أي: يجعل إلهه مهويه، كقولك: فلان رجائي، أي: مرجوئي.

(١) تحرّف في (ح) و(ف) إلى: «إنما حلتها لكون حلتها»، والمثبت من (ط).

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ١٧٢).

﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَمْرٍۭ﴾ وَتَرَكَهُ عَنِ الْهُدَايَةِ وَاللُّطْفِ وَخَذَلَهُ، ﴿عَلَىٰ عَمْرٍۭ﴾ عَلِيمًا بِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ مِمَّنْ لَا لُطْفَ لَهُ، أَوْ مَعَ عِلْمِهِ بِوُجُوهِ الْهُدَايَةِ وَإِحَاطَتِهِ بِأَنْوَاعِ الْأَلطَافِ الْمُحْصَلَةِ وَالْمُقَرَّبَةِ، ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ﴾ إِضْلَالِ ﴿اللَّهِ﴾!؟

وَقُرِئَ: ﴿غَشَوَةٌ﴾ بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ، وَ«غَشَوَةٌ» بِالْكَسْرِ وَالْفَتْحِ، وَقُرِئَ: «تَتَذَكَّرُونَ».

[﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا

يَظُنُّونَ﴾ ٢٤]

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ نَمُوتُ نَحْنُ وَيَحْيَا أَوْلَادُنَا، أَوْ يَمُوتُ بَعْضٌ وَيَحْيَا بَعْضٌ، أَوْ نَكُونُ مَوَاتًا نُطْفَأُ فِي الْأَصْلَابِ، وَنَحْيَا بَعْدَ ذَلِكَ، أَوْ يُصَيَّبُنَا الْأَمْرَانِ: الْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ، يُرِيدُونَ: الْحَيَاةَ فِي الدُّنْيَا وَالْمَوْتَ بَعْدَهَا، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ حَيَاةٌ. وَقُرِئَ: «نَحْيَا» بِضَمِّ النُّونِ، وَقُرِئَ: «إِلَّا دَهْرٌ يَمُرُّ».

وَمَا يَقُولُونَ ذَلِكَ عَنْ عِلْمٍ، وَلَكِنْ عَنْ ظَنٍّ وَتَخْمِينٍ، كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ مُرُورَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي هُوَ الْمُؤَثِّرُ فِي هَلَاكِ الْأَنْفُسِ، وَيُنْكِرُونَ مَلَكَ الْمَوْتِ وَقَبْضَةَ الْأَرْوَاحِ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَكَانُوا يُضَيِّفُونَ كُلَّ حَادِثَةٍ تَحْدُثُ إِلَى الدَّهْرِ وَالزَّمَانِ،

قوله: (الألطف المحصلة والمقربة): مضى تفسيرها في أول البقرة.

قوله: (وقرئ: ﴿غَشَوَةٌ﴾ بالحركات الثلاث): حمزة والكسائي: بفتح الغين وإسكان الشين، والباقون: بكسر الغين وفتح الشين وألف بعدها^(١).

قوله: (كانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالي هو المؤثر): هذا تفسير الدهر. قال القاضي: «الدهر: مرور الزمان، والأصل: مُدَّةُ بقاء العالم»^(٢). الراغب: «الدهر في الأصل: اسمٌ مُدَّةُ العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه، واستعير للعادة الباقية مُدَّة الحياة، فقيل: ما دهرى بكذا»^(٣).

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٩، و«حجة القراءات» ص ٦٦١.

(٢) «أنوار التنزيل» لليضاوي (٥: ١٧٢).

(٣) «مفردات القرآن» ص ٣١٩.

وترى أشعارهم ناطقةً بشكوى الزمان، ومنه قوله عليه السلام: «لا تَسْبُوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللّهَ هو الدَّهْرُ»، أي: فإن الله هو الآتي بالحوادث، لا الدهر.

واعلم أنه تعالى لما ذكر خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَقَيَّدَهُ بِالْحَقِّ، وقد تَقَرَّرَ غَيْرَ مَرَّةٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْحَقِّ: الْمَعْرِفَةُ وَالْعِبَادَةُ، وتعليل الخلق هاهنا بقوله: ﴿وَلِشَجْرَى﴾ دلالةً بيّنةً عليه، قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ﴾، يعني: أَلَا تَتَعَجَّبُوا مِنْ هَذَا الَّذِي اتَّبَعَ هَوَاهُ، وَأَضَلَّهُ اللَّهُ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، كَيْفَ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِ الْمَعْرِفَةِ وَرَفُضَ الْعَمَلِ، وَطَعَنَ فِي تِلْكَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، وَادَّعَى الْحِكْمَةَ لِنَفْسِهِ، وَقَالَ: لَا عَمَلٌ وَلَا جَزَاءُ، وَ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُبْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾؟! بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي جَعَلَ هَوَاهُ تَبَعًا لِدِينِهِ، ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا مُبْتَدِنًا قِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، أَلَا تَرَى كَيْفَ رَتَّبَ قَوْلَهُ: ﴿قِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ عَلَى التَّفَكُّرِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْمُؤَدِّيَ إِلَى حَقِيَّةِ خَلْقِهِمَا؟ فَدَلَّ بِعَطْفِ قَوْلِهِ: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ﴾ عَلَى ﴿اتَّخَذَ﴾ عَلَى أَنَّهُمْ إِنَّمَا اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ الْبَاطِلَةَ، وَلَمْ يُسْجِلُوا فِكْرَهُمْ فِي تِلْكَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ الدَّالَّةِ عَلَى تِلْكَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ لِسَبْقِ عِلْمِهِ الْأَرْضِيِّ وَالْقَضَاءِ الْمُقَدَّرِ، وَذَلِكَ الَّذِي جَسَّرَهُمْ أَنْ يُبْطِلُوا حِكْمَةَ اللَّهِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾.

ثم نفى العِلْمَ عَنْهُمْ عَلَى الْاسْتِغْرَاقِ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾، وَذَبَّلَ الْآيَاتِ بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾، وَرَتَّبَ فِيهِ: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تَقْرِيرًا وَتَأْكِيدًا، فَعَلِمَ قَطْعًا أَنَّ مَنْ اقْتَنَى شَيْئًا مِنَ الْهَدْيَانِ، وَسَمَّاهُ حِكْمَةً، وَاتَّبَعَ الْهَوَى، وَرَفُضَ الْعَمَلَ، وَأَنْكَرَ الْهُدَى الَّذِي هُوَ الْقَوْلُ بِالْحُشْرِ: هُوَ مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً، وَمَالَه بِمَا يَقُولُ مِنْ عِلْمٍ، وَهُوَ أَجْهَلُ خَلْقِ اللَّهِ، وَإِنْ جَمَعَ أَسْفَارًا مِنَ الْهُدْيَانِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ.

قوله: (لا تَسْبُوا الدَّهْرَ): روي عن البخاريِّ ومُسلمٍ ومالكٍ وأبي داود^(١) عن أبي هريرة

(١) البخاري (٤٨٢٦) و(٧٤٩١)، ومُسلم (٢٢٤٦)، ومالك (٢: ٩٨٤)، وأبو داود (٥٢٧٤).

[﴿وَإِذَا نزلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيَّنَّتْ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ اللَّهُ يُخَيِّبُكُمْ ثُمَّ يُمَسِّحُ بِرَأْسِكُمْ ثُمَّ يَرُدُّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَنبَبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٢٥-٢٦]

وَقُرئ: ﴿حُجَّتَهُمْ﴾ بِالنَّضْبِ وَالرَّفْعِ؛ عَلَى تَقْدِيمِ خَبَرِ «كَانَ» وَتَأْخِيرِهِ.

فَإِن قُلْتَ: لِمَ سَمَى قَوْلَهُمْ حُجَّةً وَلَيْسَ بِحُجَّةٍ؟ قُلْتَ: لِأَنَّهُمْ أَدْلَوْا بِهِ كَمَا يُنْبِئُ الْمُحْتَجُّ بِحُجَّتِهِ، وَسَاقُوهُ مَسَاقِفَهَا، فَسُمِّيَتْ حُجَّةً عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ، أَوْ لِأَنَّهُ فِي حِسَابِهِمْ وَتَقْدِيرِهِمْ حُجَّةٌ، أَوْ لِأَنَّهُ فِي أَسْلُوبِ قَوْلِهِ:

تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ

كَأَنَّهُ قِيلَ: مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا مَا لَيْسَ بِحُجَّةٍ، وَالْمُرَادُ: نَفْيُ أَن تَكُونَ لَهُمْ حُجَّةً الْبَتَّةَ.

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَهْدِيكُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يُؤَذِّنِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، أَقْلَبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ».

النهاية: «كَانَ مِنْ شَأْنِ الْعَرَبِ ذَمُّ الدَّهْرِ وَسَبُّهُ عِنْدَ النِّوَازِلِ وَالْحَوَادِثِ، أَي: لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ^(١)، فَإِنَّكُمْ إِذَا سَبَبْتُمُوهُ وَقَعَ السَّبُّ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْفَاعِلُ لِمَا يُرِيدُ، لَا الدَّهْرُ». الرَّاضِبُ: «قِيلَ: مَعْنَاهُ: أَنَّ اللَّهَ فَاعِلٌ مَا يُضَافُ إِلَى الدَّهْرِ، فَإِذَا سَبَبْتُمُ الدَّهْرَ تَعَقَّدُونَ أَنَّهُ فَاعِلٌ ذَلِكَ فَقَدْ سَبَبْتُمُوهُ، وَقِيلَ: الدَّهْرُ الثَّانِي فِي الْخَبَرِ غَيْرُ الْأَوَّلِ، وَإِنَّمَا هُوَ مُصَدَّرٌ بِمَعْنَى الْفَاعِلِ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّاهِرُ، أَي الْمُتَصَرِّفُ الْمُدَبِّرُ الْمُقَيِّضُ لِمَا يَحْدُثُ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرَ»^(٢).

قَوْلُهُ: (كَمَا يُنْبِئُ الْمُحْتَجُّ بِحُجَّتِهِ): الْمَغْرِبُ: «أَدْلَيْتُ الدَّلُو: أُرْسَلَتْهَا فِي الْبَثْرِ، وَمِنْهُ: أَذْلَى بِالْحُجَّةِ: أَحْضَرَهَا، وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْخُسُوفِ﴾ [البقرة: ١٨٨]، أَي: تُلْقَوُا أَمْرَهَا وَالْحُكُومَةَ فِيهَا».

قَوْلُهُ: (نَفْيُ أَن تَكُونَ لَهُمْ حُجَّةً الْبَتَّةَ): وَهُوَ عَلَى مَذْهَبِ التَّمِيمِيِّ^(٣) نَحْوُ قَوْلِهِ:

(١) مِنْ قَوْلِهِ: «وَأَنَا الدَّهْرُ» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ح).

(٢) «مَفْرَدَاتُ الْقُرْآنِ» ص ٣١٩.

(٣) أَي: عَلَى لُغَةِ بَنِي تَمِيمٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُ هَذِهِ اللَّغَةِ عِنْدَ الْمُؤَلِّفِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ٥٧ مِنْ سُورَةِ الدُّخَانِ؛ نَقْلًا عَنْ ابْنِ الْمُنَبِّرِ فِي «الْإِتِّصَافِ».

فإن قلت: كيف وَقَعَ قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُخَيِّكُم﴾ جواباً لقولهم: ﴿أَتَتُوا بَابَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟ قلت: لَمَّا أَنْكَرُوا الْبَعْثَ، وَكَذَّبُوا الرَّسُولَ، وَحَسَبُوا أَنَّ مَا قَالُوهُ قَوْلٌ مُبَيَّنٌّ: أَلْزَمُوا مَا هُمْ مُقَرَّرُونَ بِهِ مِنْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي يُحْيِيهِمْ ثُمَّ يُمِيتُهُمْ، وَضَمَّ إِلَى الْإِزَامِ ذَلِكَ الْإِزَامَ مَا هُوَ وَاجِبٌ الْإِقْرَارُ بِهِ إِنْ أَنْصَفُوا وَأَصْغَوْا إِلَى دَاعِي الْحَقِّ، وَهُوَ جَمْعُهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى ذَلِكَ كَانَ قَادِرًا عَلَى الْإِتْيَانِ بِآبَائِهِمْ، وَكَانَ أَهْوَنَ شَيْءٍ عَلَيْهِمْ.

[وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمُطْلِقُونَ * وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنْ كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَسْلَىٰ عَلَيْكَ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمُونَ ﴿٢٧-٣١﴾]

وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس^(١)

يعني: ليس لهم حجة البتة، إذ لو كانت لهم حجة كانت هذه، وهذه ليست بحجة، بل هي استبعاد وعناد، فإذن ليست لهم حجة البتة.

قوله: (أَلْزَمُوا مَا هُمْ مُقَرَّرُونَ بِهِ): يعني: لَمَّا لم يكن لهم حجة عند إيراد الآيات البيِّنات لإثبات الحشر إلا قولهم: «أتوا بآبائنا» عناداً، قيل لهم ذلك لأنهم مُقَرَّرُونَ بأنه المُحْيِي والمُيِّت.

(١) اليعافير: جمع يعفور، وهو ولد البقرة الوحشية، أو تيس الظباء، أو الظبي عامة، والعيس: الإبل التي يُخالطُ بياضها شقرة. ومحلُّ الشاهد فيه: أنه جعل أنيسها اليعافير والعيس، وليست هي فعلاً من الأنيس، فدلَّ على أنه لا أنيس بها مطلقاً.

وانظر: «الكتاب» لسيبويه (٢: ٣٢٢)، و«المقتضب» للمبرِّد (٤: ٤١٤)، و«مفتاح العلوم» للسكاكي ص ٣٧٢ و ٥٠٠، و«حاشية الصَّبَّان على شرح الأشموني على الألفية» (٢: ٢١٧)، و«لسان العرب» لابن منظور، مادة (إلا).

وسياقي عند الزمخشري في تفسير الآية ٢٠ من سورة الليل.

عَامِلِ النَّصْبِ فِي ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ﴾: ﴿يَحْسَرُ﴾، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿يَوْمَ تَقُومُ﴾.

﴿جَاثِيَةً﴾ بَارِكَةٌ مُسْتَوْفِزَةٌ عَلَى الرُّكْبِ، وَقُرِيءُ: «جَاذِيَةٌ»، وَالجُّذُودُ: أَشَدُّ اسْتِيفَازًا مِنَ الجُّثُوثِ، لِأَنَّ الجَاذِيَّ هُوَ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِهِ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: جَاثِيَةٌ: مُجْتَمِعَةٌ، وَعَنْ قَتَادَةَ: جَمَاعَاتٌ؛ مِنَ الجُّثُوثِ، وَهِيَ الجَمَاعَةُ، وَجَمَعُهَا: جُثَا، وَفِي الْحَدِيثِ: «مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ».

وَقُرِيءُ: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾؛ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، وَ«كُلُّ أُمَّةٍ» عَلَى الْإِبْدَالِ مِنْ ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾.

وَقُلْتُ: وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُمْ لَمَّا قَالُوا: «اتَّبُوا آبَاءَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» عِنَادًا وَتَمَرُّدًا، قِيلَ لَهُمْ: دَعُوا آبَاءَكُمْ، فَإِنَّ الْقَاهِرَ الْقَادِرَ الْعَالِمَ بِكُلِّ شَيْءٍ يَفْعَلُ كَيْتَ وَكَيْتَ، فَضْلًا عَمَّا اقْتَرَحْتُمُوهُ، وَلَكِنْ أَنْتُمْ جُهْلَاءٌ لَا تَعْلَمُونَ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾.

وَنَحْوُهُ فِي الْإِنْكَارِ قَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِنْ أَلَّوَلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠] جَوَابًا عَنْ قَوْلِهِمْ: ﴿أَيُّدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِيَّانَا لَمَبْعُوثُونَ * أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧-٤٨].

قَوْلُهُ: (مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ): النِّهَايَةُ: «فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ دَعَا دُعَاءَ الجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ»^(١)، وَفِي آخِرِ: «مَنْ دَعَا: يَا لَفُلَانِ، فَإِنَّا يَدْعُو إِلَى جُثَا النَّارِ»، وَالجُّثَا: جَمْعُ «جُثُوثٍ» بِالضَّمِّ، وَهُوَ الشَّيْءُ المَجْمُوعُ، وَمِنْهُ حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ: «أَنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جُثَا، كُلُّ أُمَّةٍ تَتَّبِعُ نَبِيَّهَا»^(٢)، أَيْ: جَمَاعَةٌ. وَفِي «الْفَائِقِ»: «وَالجُّثُوثُ: مَا جُمِعَ مِنْ تُرَابٍ وَغَيْرِهِ، فَاسْتَعِيرَتْ»^(٣).

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٨٦٣) مِنْ حَدِيثِ الْحَارِثِ الْأَشْعَرِيِّ، بِلَفْظٍ: «مَنْ أَدْعَى دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ...»، وَبِهِ يُفَسِّرُ اللَّفْظَ الْآخَرَ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٧١٨) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) «الْفَائِقِ» لِلزَّمْخَشَرِيِّ (١: ١٦٦)، مَادَةٌ (جُثَا).

﴿إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ إِلَىٰ صَحَائِفِ أَعْمَالِهَا، فَكَتَفَىٰ بِاسْمِ الْجِنْسِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَىٰ الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿الْيَوْمَ نُحْزِنُونَ﴾ مَحْمُولٌ عَلَى الْقَوْلِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ أَضْيَفَ «الْكِتَابُ» إِلَيْهِمْ وَإِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قُلْتَ: الْإِضَافَةُ تَكُونُ لِلْمُلَابَسَةِ، وَقَدْ لَابَسَهُمْ وَلَا بَسَهُ؛ أَمَا مُلَابَسَتُهُ إِيَّاهُمْ: فَلِأَنَّ أَعْمَالَهُمْ مُثَبَّتَةٌ فِيهِ، وَأَمَا مُلَابَسَتُهُ إِيَّاهُ: فَلِأَنَّهُ مَالِكُهُ، وَالْأَمْرُ مُلَابَسَتُهُ أَنْ يَكْتُبُوا فِيهِ أَعْمَالَ عِبَادِهِ.

﴿وَنُطِّقُ عَلَيْكُمْ﴾ يَشْهَدُ عَلَيْكُمْ بِمَا عَمِلْتُمْ، ﴿بِالْحَقِّ﴾ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ، ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ﴾ الْمَلَائِكَةُ ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَي: نَسْتَكْتِيبُهُمْ أَعْمَالَكُمْ.

﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾ فِي جَنَّتِهِ، وَجَوَابُ «أَمَا» مَحذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ مَأْيَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، وَالْمَعْنَى: أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلِي فَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ، فَحَذَفَ الْمَعْطُوفَ عَلَيْهِ.

[﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَأَرْبَبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنَّ نَظْنَؤُا لَاطْنَا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَقْبِرِينَ﴾ وَبَدَأَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَخَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٢-٣٣﴾

وَقُرِئَ: «وَالسَّاعَةُ» بِالنَّضْبِ؛ عَطْفًا عَلَى الْوَعْدِ، وَبِالرَّفْعِ؛ عَطْفًا عَلَى مَحَلِّ «إِنَّ» وَاسْمِهَا، ﴿مَا السَّاعَةُ﴾ أَي شَيْءُ السَّاعَةِ؟

قَوْلُهُ: (الْإِضَافَةُ تَكُونُ لِلْمُلَابَسَةِ): وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْإِضَافَةَ إِلَيْهَا ^(١) تَدُلُّ عَلَى مَعْنَى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣]، أَي: تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا، وَإِلَى مَا يَخْتَصُّ بِهَا مِنَ الْأَعْمَالِ صَالِحِهَا وَسَيِّئِهَا، لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، وَمَنْ نَمَّ ذَبِيلَ بِقَوْلِهِ: ﴿الْيَوْمَ نُحْزِنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وَأَمَّا الْإِضَافَةُ إِلَى اللَّهِ: فَلِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ كُلَّ مَا ثَبِتَ فِيهِ صِدْقٌ وَحَقٌّ وَعَدْلٌ، وَأَنَّهُ تَعَالَى يُجَازِيهَا عَلَى الْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ، وَلِذَلِكَ عَقَّبَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَنُطِّقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾، وَذَبِيلَ بِالْجَمْعِ، ثُمَّ قَسَمَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا﴾ وَ﴿وَأَمَّا﴾. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) أَي: إِلَى الْأُمَّةِ.

فإن قلت: ما معنى ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾؟ قلت: أصله: نَظُنُّ ظَنًّا، ومعناه: إثباتُ الظنِّ فحَسْبُ، فأَدْخَلَ حرفا النفي والاسْتِثْنَاءَ،

قوله: (أصله: نَظُنُّ ظَنًّا، ومعناه: إثباتُ الظنِّ فحَسْبُ): قال صاحبُ «التقريب»: وفيه نظْرٌ؛ لأنَّ مَوْرَدَهُمَا واحِدٌ^(١)، وهو الظنُّ، والحصرُ حيثُ تَغَايَرِ المَوْرَدَانِ، والأوَّلَى أن يُجْمَلَ المنفيُّ على الاعتقادِ المطلقِ؛ تعميماً للخاصِّ، والمُثَبِّتُ على موضوعه^(٢)، أي: لا نَعْتَقِدُ إلا اعتقاداً راجِحاً لا جازماً، ولذلك أكَّده بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُستَيِّقِينَ﴾، أو يُجْمَلَ المنفيُّ على موضوعه، ويُخَصَّصَ المُثَبِّتُ بالظنِّ الضعيفِ.

قلت: أخذَ الوجْهَ الأوَّلَ من قولِ الواحدي: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾: أي: ما نَعْلَمُ ذلكَ إلا حَدْساً^(٣) وتَوْهُمًا، وما نَسْتَيِّقُنُ كوْنَهَا^(٤)، ومن قولِ أبي البقاء: «إِنَّ الظنَّ قد يكونُ بمعنى العِلْمِ والشَّكِّ، فاستثنى الشَّكَّ، أي: ما لنا اعتقادٌ إلا الشَّكَّ»^(٥).

وقلت: معنى سؤالِ المُصنِّفِ رحمه الله: «ما معنى ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾؟»: أنَّ «المصدرَ فائدته كفائدةِ الفِعْلِ، فلو أُجْرِيَ الكلامُ على الظاهرِ لقليل: إن نَظُنُّ إِلَّا نَظُنًّا، وهو ناقصٌ مِنَ الكلامِ، ولم يُجْزِوا: ما صَرَبْتُ إلا صَرَبًا؛ لأنَّ معناه: ما صَرَبْتُ إلا صَرَبْتُ، لأنه لا فائدةَ فيه»، هذا كلامُ مكِّي^(٦). وقال أبو البقاء: «التقدير: إن نحنُ إلا نَظُنُّ ظَنًّا، و«إلا» مؤخِّرة، ولولا هذا التقديرُ لكان المعنى: ما نَظُنُّ إِلَّا نَظُنًّا»^(٧).

(١) أي: مورد النفي والإثبات واحد، وهو الظنُّ، أما النفيُّ ففي قوله: ﴿إِنْ نَظُنُّ﴾، وأما الإثباتُ ففي قوله: ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾.

(٢) أي: وأن يُجْمَلَ المُثَبِّتُ على موضوعه.

(٣) تحرّف في الأصول الخطية إلى: «حديثاً»، والمُثَبِّتُ من «الوسيط» للواحد.

(٤) «الوسيط» للواحد (٤: ١٠١).

(٥) «التيبان في إعراب القرآن» (٢: ١١٥٣).

(٦) «مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب (٢: ٦٦٤).

(٧) «التيبان في إعراب القرآن» (٢: ١١٥٣).

لِيُقَادَ إِثْبَاتُ الظَّنِّ مَعَ نَفْيِ مَا سِوَاهُ، وَزَيْدَ نَفْيِ مَا سِوَى الظَّنِّ توكيداً بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ﴾.

﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: قَبَائِحُ أَعْمَالِهِمْ، أو عَقُوبَاتُ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَاتِ، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٥].

[﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَأُكُمْ كَمَا نَسَأْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّصِيرِينَ﴾ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَخَذْتُم مَّا آتَاكُم بِهِمْ وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ * ٣٤-٣٥] ﴿نَنسَأُكُمْ﴾ تَسْرُكُكُمْ فِي الْعَذَابِ كَمَا تَرَكْتُمْ عُدَّةَ لِقَاءِ ﴿يَوْمِكُمْ هَذَا﴾،

وأما معنى جواب المُصنِّف: فإنه جعل أصل الكلام: نَظُنُّ ظَنًّا، ثم زيد أداة الحصر لمزيد التأكيد، وإثبات الظنِّ ونفي ما سِوَاهُ للمبالغة، لا ليردَّ بـ«ما»^(١) و«إلا» إنكار المنكر كما هو مقتضاهما، ولذلك أكد بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ﴾. ونحوه مجيء «إِنَّ» في قولنا: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَمَّاكُ﴾ [آل عمران: ١٦]، فإنها مُجَرَّدُ التوكيد، ثم بسط الكلام لا لنفي الشكِّ وردَّ الإنكار كما عليه موضوعها.

فإذن مَوْرِدُ التركيبيِّينِ واحد، ولم يتغاير سوى التوكيد، وأما معنى قوله: «وزيد نفي ما سوى الظنِّ توكيداً»: فهو ﴿إِنَّ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ لَمَّا دَلَّ بمفهوميهِ [على] نفي سوى الظنِّ، وهو اليقين، أكد بمنطوق قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ﴾ ذلك المفهوم، فيكون من باب الطرد والعكس^(٢).

قوله: (أو عَقُوبَاتُ أَعْمَالِهِمْ): أي: وُضِعَ «السَّيِّئَاتُ» التي هي أسباب العقوبات مَوْضِعَ مُسَبِّبَاتِهَا، فلا يكون الاستشهادُ بقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٥] لجهة المُشَاكَلَةِ، إذ ليس في الكلام ما يُدْكَرُ فِي صُحْبَتِهِ: السَّيِّئَاتُ المرادُ بها العُقُوبَاتُ.

(١) هي معنى ﴿إِنَّ﴾ الواردة في الآية الكريمة.

(٢) تقدّم بيان معنى الطرد والعكس عند تفسير الآية ٢٥ من سورة يونس تعليقا.

وهي الطاعة، أو نجعلكم بمنزلة الشيء المنسي غير المبالي به، كما لم تُبالوا أنتم بلقاء يومكم، ولم تُحطروه ببال، كالشيء الذي يطرح نسياً منسياً. فإن قلت: فما معنى إضافة اللقاء إلى اليوم؟ قلت: كمعنى إضافة المكر في قوله: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبا: ٣٣]، أي: نسيتم لقاء اليوم في يومكم هذا ولقاء جزائه.

وقرئ: «لا يَخْرُجُونَ» بفتح الباء، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا يُطلب منهم أن يُعتَبُوا بهم، أي: يُرْضَوْه.

[﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ٣٦-٣٧]

قوله: (أو نجعلكم بمنزلة الشيء المنسي): فعلى هذا التسيان وإسناده إلى الله على الاستعارة التمثيلية، ولذلك جاء بكاف التشبيه في قوله: «كالشيء الذي يطرح»، وعلى الأول: محمول على الغاية والنهاية، لأن من نسي شيئاً تركه، فيكون من وضع اسم السبب على المسبب.

قوله: (كمعنى إضافة المكر في قوله: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾): قال (١): «ومعنى ﴿مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: مكرهم في الليل والنهار، فأتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به، وإضافة المكر إليه، أو جعل ليْلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازي».

وما نحن بصدده من القبيل الأول؛ لأن «اليوم» مفعول، وهو ملقَى لا لاقٍ، إلا أن يقال: إن اللقاء مضاف إلى الفاعل، على أن ما تستقبله أنت فهو أيضاً يستقبلك، وعليه قراءة من قرأ: «فَتَلَقَى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ»؛ بنصب «آدم» ورفع «كلمات»، ونحوه قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ [مريم: ٦١]، قال (٢): «﴿مَأْتِيًا﴾ مفعول بمعنى فاعل؛ لأنَّ وَعْدَ اللَّهِ يَأْتِي، وقال أبو البقاء: ﴿﴿مَأْتِيًا﴾ على بابه، لأنَّ ما تأتيه فهو يأتيك» (٣).

(١) أي: الزمخشري في تفسير الآية المذكورة من سورة سبا.

(٢) أي: الزمخشري في تفسير الآية المذكورة من سورة مريم.

(٣) «البيان في إعراب القرآن» (٢: ٨٧٧).

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ فاحمدوا الله الذي هو رَبُّكُمْ وربُّ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
والعالمين، فَإِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الرُّبُوبِيَّةِ الْعَامَّةِ تُوجِبُ الْحَمْدَ وَالثَّنَاءَ عَلَى كُلِّ مَرْبُوبٍ، وَكَبَّرُوهُ،
فقد ظَهَرَتْ أَنَارُ كِبَرِيَّاتِهِ وَعَظَمَتِهِ ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وَحَقٌّ مِثْلُهُ أَنْ يُكَبَّرَ وَيُعْظَمَ.
عن رسولِ الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَمَّ الْجَائِيَةِ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَسَكَنَ رَوْعَتَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ».

الأساس: «لِقَيْتِهِ لِقَاءً وَلِقْيَانًا»^(١)، وَلَا قَيْتُهُ وَالتَّقَيْتُهُ.

ونحوه: «نهاره صائم»؛ أُسِنِدَ «الصَّوْمُ» إِلَى «النَّهَارِ» لِلزُّومِ فِيهَا، وَلَا يَجَابِ الْمَصِيرُ إِلَى اللَّهِ
وَلِقَائِهِ - كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس: ٧]، وَلَا يَقَعُ
ذَلِكَ إِلَّا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ - جُعِلَ «اليوم» بِنَفْسِهِ لَاقِيًا، يَعْنِي: أَنَّ الْأَشْتِغَالَ بِاللَّذَاتِ وَالْإِنْهَمَاكَ
فِي الشَّهَوَاتِ أَذْهَلَكُمْ وَأَهْتَكُمُ عَنْ تَذَكُّرِ الْعَاقِبَةِ، وَسَلَطَ عَلَيْكُمْ نِسْيَانَهَا، فَيَكُونُ قَوْلُهُ:
﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ وَارِدًا عَلَى الْمُشَاكَلَةِ، وَإِنْ تَقَدَّمَ عَلَى صَاحِبِهِ، يَعْنِي: جَازِينَائَكُمْ
جَزَاءَ نِسْيَانِكُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قوله: (فإنَّ مِثْلَ هَذِهِ الرُّبُوبِيَّةِ الْعَامَّةِ تُوجِبُ الْحَمْدَ وَالثَّنَاءَ عَلَى كُلِّ مَرْبُوبٍ): اعْتَبَرَ فِيهِ عُمُومَ
الْحَمْدِ وَعُمُومَ الْوَصْفِ وَعُمُومَ الْحَامِدِ، وَذَلِكَ مِنْ تَرْتُّبِ قَوْلِهِ: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ
السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وَتَكَرُّرِ الْوَصْفِ وَتَعَانُقِهِ بِكُلِّ مِنَ الْمَذْكُورَاتِ بِحَسَبِ مَا
يَقْتَضِيهِ الْوَصْفُ مِنْ مَعْنَى الْمَالِكِيَّةِ وَالتَّرْبِيَةِ، وَمَا يُوجِبُ عَلَى الْمَرْبُوبِينَ مِنَ النَّدَاءِ بِالثَّنَاءِ نُطْقًا وَحَالًا.

وتحريزه: أَنَّ «الحمد» مُطْلَقًا: هُوَ الثَّنَاءُ^(٢) عَلَى الْجَمِيلِ مِنْ نِعْمَةٍ وَغَيْرِهَا مِنَ الْفَضَائِلِ
وَالْكَمَالَاتِ، وَهَذَا الْمَقَامُ يُوجِبُهُ؛ فَإِنَّ الْمَرْبُوبَ عَامٌّ فِي الْعُقْلَاءِ وَغَيْرِ الْعُقْلَاءِ، وَفِيضَانٌ مَعْنَى
الرُّبُوبِيَّةِ عَلَى قَدْرِ قَابِلِيَّةِ كُلِّ مِنْهُمْ ظَاهِرٌ، وَشَهَادَةُ كُلِّ مِنْهُمْ عَلَى حَسَبِ اسْتِعْدَادِهِ مَعْلُومٌ
مَكشُوفٌ، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا لَإِسْبَاحٌ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَأَنْفَقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

(١) بِكُسْرِ اللَّامِ وَضَمِّهَا.

(٢) تَحَرَّفَ فِي (ح) وَ(ف) إِلَى: «النِّدَاءِ»، وَالْمُثَبِّتُ مِنْ (ط).

وَلَعَلَّ الْمُصْنِفَ مَا تَعَرَّضَ لِمَعْنَى الْاسْتِغْرَاقِ الَّذِي يُعْطِيهِ مَعْنَى التَّعْرِيفِ فِي «الْحَمْدِ»،
وتقديم «الله» عليه، كما تَعَرَّضَ فِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ؛ أَنَّهُ مُطْلَقُ الْجِنْسِ، لَا لِلِاسْتِغْرَاقِ؛ فِرَاراً مَا لَا
يُطَاقُ.

واعلم أنك إذا ضَمَمْتَ مَعَ مَعْنَى الزُّبْدَةِ وَالْخِلَاصَةِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وَهُوَ تَصْوِيرُ عَظَمَةِ اللَّهِ، مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾،
وَأَخَذْتَ فَائِدَةَ تَقْدِيمِ الْمُسْنَدِ عَلَى الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ فِيهِمَا، لِمَحْتِ مَسْحَةٍ مِنْ مَعْنَى الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ:
«الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَدَفْتُهُ فِي النَّارِ»، أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ
أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ (١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

وإذا تأملت معنى الفاء في قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾، وترتبته على معاني السورة المحتوية على
آلاء الله وأفضاله، المشتغلة على الدلائل الأفقية والأنفسيّة، المنطوية على البراهين الساطعة
والنصوص القاهرة في المبدأ والمعاد، عثرت على أمور غريبة وأسرار عجيبة.

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) أحمد (٧٣٨٢) و(٨٨٩٤) و(٩٣٥٩) و(٩٥٠٨) و(٩٧٠٣)، ومسلم (٢٦٢٠)، وأبو داود (٤٠٩٠)،
وابن ماجه (٤١٧٤).

وأخرجه ابن ماجه (٤١٧٥) أيضاً من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

سورة الأحقاف

مَكِّيَّة، وهي أربع وثلاثون آية، وقيل: خمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[حَمَّ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿١-٣﴾]

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا خلقاً مُلتبساً بالحكمة والغرض الصحيح وبتقدير أجل مُسمى تنتهي إليه، وهو يوم القيامة، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا﴾ من هول ذلك اليوم.....

سورة الأحقاف

مَكِّيَّة، وهي أربع وثلاثون آية، وقيل: خمس وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (وبتقدير أجل مُسمى تنتهي إليه): فاعل «بتتهي» ضميرٌ راجعٌ إلى ﴿خَلَقْنَا﴾، يُريد: أن قوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ عطفٌ على ﴿بِالْحَقِّ﴾ بتقدير مُضَاف، نحوه قوله تعالى في الحجر: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ﴾ [الحجر: ٨٥]، والمعنى: ما خلقنا السماوات والأرض إلا بأن نُوحَدَ ونُعبد، وبأن نُثيبَ مَنْ أَقْبَلَ على ذلك، ونُعاقِبَ مَنْ أَعْرَضَ عنه، ولذلك أنزلنا الكتاب وأرسلنا الرُّسُلَ، وهؤلاء الكفار يعكسون الأمر ويُعْرِضُونَ، ونحو هذا الأسلوب: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، وقد استقصينا فيه القول في الأنعام.

الذي لا بُدَّ لِكُلِّ خَلْقٍ مِنْ انْتِهَائِهِ إِلَيْهِ ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَلَا يَهْتَمُّونَ بِالْأَسْتِعْدَادِ لَهُ. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ «مَا» مَصْدَرِيَّةً، أَي: عَنْ إِنْذَارِهِمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ.

[﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنذِرُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ٤]

﴿بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أَي: مِنْ قَبْلِ هَذَا الْكِتَابِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، يَعْنِي: أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ نَاطِقٌ بِالتَّوْحِيدِ وَبِإِبْطَالِ الشُّرْكِ، وَمَا مِنْ كِتَابٍ أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ إِلَّا وَهُوَ نَاطِقٌ بِمِثْلِ ذَلِكَ، فَاتُوا بِكِتَابٍ وَاحِدٍ مُنْزَلٍ مِنْ قَبْلِهِ شَاهِدٍ بِصِحَّةِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ، ﴿أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ أَوْ بَقِيَّةٍ مِنْ عِلْمٍ بَقِيَتْ عَلَيْكُمْ مِنْ عُلُومِ الْأَوَّلِينَ؛ مِنْ قَوْلِهِمْ: سَمِنَتِ النَّاقَةُ عَلَى أَثَارَةٍ مِنْ شَحْمٍ، أَي: عَلَى بَقِيَّةِ شَحْمٍ كَانَتْ بِهَا مِنْ شَحْمٍ ذَاهِبٍ.

وَقُرِّي: «أَثَرَةٌ» أَي: مِنْ شَيْءٍ أَوْثَرْتُمْ بِهِ وَخُصِّصْتُمْ مِنْ عِلْمٍ لَا إِحَاطَةَ بِهِ لِغَيْرِكُمْ. وَقُرِّي: «أَثَرَةٌ» بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ فِي الْهَمْزَةِ مَعَ سُكُونِ الثَّاءِ، فَالْأَثَرَةُ - بِالْكَسْرِ - بِمَعْنَى: الْأَثَرَةُ، وَأَمَّا الْأَثَرَةُ: فَالْمَرَّةُ مِنْ مَصْدَرٍ: أَثَرَ الْحَدِيثُ: إِذَا رَوَاهُ، وَأَمَّا الْأَثَرَةُ - بِالضَّمِّ - فَاسْمٌ مَا يُؤَثَّرُ، كَالْحُطْبَةِ: اسْمٌ مَا يُخْطَبُ بِهِ.

قوله: (وإبطال الشُّرك): قال القاضي: «وتخصيص الشُّرك بالسماواتِ احتِرازٌ عما يتوهمُ أنَّ للوسائطِ شِرْكَةً فِي إِيجَادِ الْحَوَادِثِ السُّفْلِيَّةِ»^(١).

قوله: (وقرئ: «أثره»): وفي أكثر النسخ: «قرأ علي: أثره، ولا وَجَهَ لها»، وفي «الكواشي» أيضاً: «وقرئ: «أثره» بفتح الهمزة والثاء»، وفي «المحتسب»: «قرأ ابنُ عباسٍ - بخلافٍ - وعِكرمةٌ وقنادةٌ وعمرو بنُ ميمون: «أو أثره من علم» بغير ألف، وقرأ عليُّ رضي اللهُ عنه والسَّلْمِيُّ: «أو أثره» ساكنة الثاء»^(٢).

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ١٧٦).

(٢) «المحتسب» لابن جني (٢: ٢٦٤).

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ

غفلون ﴾ [٥]

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾ معنى الاستفهام فيه إنكارُ أن يكونَ في الضلالِ كُلِّهِم أَبْلَغُ ضلَالاً من عبدة الأصنام، حيثُ يتركون دعاءَ السَّمِيعِ المُجِيبِ القادرِ على تحصيلِ كُلِّ بُغْيَةٍ ومَرَامٍ، ويدعونَ من دُونِهِ جماداً لا يَسْتَجِيبُ لهم، ولا قُدْرَةَ به على استجابةِ أحدٍ منهم ما دامت الدنيا، وإلى أن تقومَ القيامةُ، وإذا قامتِ القيامةُ وحُشِرَ الناسُ كانوا لهم أعداءُ، وكانوا عليهم ضِدّاً، فليسوا في الدارينِ إلا على نَكِدٍ ومَضْرَةٍ، لا تتولاهُم في الدنيا بالاستجابة، وفي الآخرة تُعاديهم وتَجحَدُ عبادتهم.

وإنما قيل: «مَنْ» و«هُمْ»؛ لأنه أُسِنِدَ إليهم ما يُسندُ إلى أولي العِلْمِ؛ من الاستجابة والغفلة، ولأنهم كانوا يصفونهم بالتمييز جهلاً وغباءة. ويجوزُ أن يُريدَ كُلُّ معبودٍ من دون الله من الجنِّ والإنسِ والأوثان، فغَلَبَ غيرَ الأوثانِ عليها.

قُرئ: «ما لا يَسْتَجِيبُ»، وقُرئ: «يدعو غيرَ الله مَنْ لا يَسْتَجِيبُ»، ووصفهم بتركِ الاستجابة والغفلة طريقيه التَّهْكُمُ بها وبعبدتها. ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

قوله: (وإذا قامتِ القيامةُ وحُشِرَ الناسُ كانوا لهم أعداءُ): الانتِصافُ: «في قوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ نُكْتة، وهي أنه تعالى جعله غايةَ عَدَمِ الاستجابة، وهي مُسْتَمِرَّة^(١)، لكن أشعرتُ بأن ما بعدها أزيدُ منه زيادةً بيّنةً ملحقَّةً بالمباينِ، إذ تتجددُ هناك العداوة^(٢)».

وقلت: نحوه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٨]، يعني: إنَّ عليك الطَّرْدَ والرَّجْمَ إلى يومِ الدِّينِ، فإذا جاء ذلك اليومُ لقيتَ ما تنسى معه اللُّعن.

(١) أي: عَدَمُ الاستجابة مُسْتَمِرَّة، ولفظُ ابنِ المنيرِ في «الانتِصاف»: «لكنَّ عَدَمُ الاستجابة مُسْتَمِرٌّ بعد هذه الغاية، لأنهم في القيامة أيضاً لا يَسْتَجِيبُونَ لهم».

(٢) «الانتِصاف» (٣: ٥١٥) بحاشية «الكشاف».

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ * وَإِذَا نُنزِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْبَتِ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦-٧﴾

﴿يَنْبَتِ﴾ جمع بَيْتَةٍ، وهي الحجَّة والشاهد، أو واضحات مُبينات، واللامُ في ﴿لِلْحَقِّ﴾ مثلها في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا﴾ [الأحقاف: ١١]، أي: لأجل الحق، ولأجل الذين آمنوا، والمرادُ بالحق: الآيات، وبالذين كفروا: المتلُّو عليهم، فوضع الظاهران موضع الضميرين؛ للتسجيل عليهم بالكفر، وللمتلُّو بالحق، ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: بادهوه بالحدود ساعة أتاهاهم، وأول ما سمعوه من غير إجماله فكري ولا إعادة نظر، ومن عنادهم وظلمهم: أنهم سمَّوه سحراً مبيناً ظاهراً أمره في البطلان لا شبهة فيه.

﴿أَمْرٍ يَقُولُونَ أَفْتَرْتَهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ، فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾

﴿أَمْرٍ يَقُولُونَ أَفْتَرْتَهُ﴾ إضرابٌ عن ذكر تسميتهم الآيات سحراً إلى ذكر قولهم: إن محمداً افتراه. ومعنى الهمزة في ﴿أَمْرٍ﴾: الإنكار والتعجب، كأنه قيل: دَع هذا واسمَع قولهم المستنكر. المقضي منه العجب،

قوله: (كأنه قيل: دَع هذا واسمَع قولهم المستنكر): الانتصاف: «هذا الإضراب مثل الغاية التي ذكرها لكونها أزيد من الأول، فنزلت لزيادتها عليها كالمنافية لها، إذ تكذيب الآيات أبلغ من قولهم: إنها سحر، والغاية هي التي ذكرها إنفاً في قوله: ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ﴾»^(١).

قوله: (المقضي منه العجب): قيل: يُقال: يُقضى منه: يُنهي منه، أي: يبلِّغ النهاية؛ من: قضي حاجته، أو يُفعل؛ من: قضي كذا: إذا فعلته، أو يُحكَّم منه بالعجب؛ من: قضيت كذا؛ أي: حكمت به.

(١) «الانتصاف» (٣: ٥١٦) بحاشية «الكشاف».

وذلك أَنَّ مُحَمَّدًا كَانَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ حَتَّى يَقُولَهُ وَيَفْتَرِيَهُ عَلَى اللَّهِ، وَلَوْ قَدَّرَ عَلَيْهِ دُونَ أُمَّةِ الْعَرَبِ لَكَانَتْ قُدْرَتُهُ عَلَيْهِ مُعْجِزَةً لِحَرْقِهَا الْعَادَةَ، وَإِذَا كَانَتْ مُعْجِزَةً كَانَتْ تَصْدِيقًا مِنَ اللَّهِ لَهُ، وَالْحَكِيمُ لَا يُصَدِّقُ الْكَاذِبَ، فَلَا يَكُونُ مُفْتَرِيًا. وَالضَّمِيرُ لِلْحَقِّ، وَالْمُرَادُ بِهِ الْآيَاتُ.

﴿قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ﴾ عَلَى سَبِيلِ الْفَرَضِ: عَاجَلَنِي اللَّهُ تَعَالَى - لَا مَحَالَةَ - بِعُقُوبَةِ الْاِفْتِرَاءِ عَلَيْهِ، فَلَا تَقْدِرُونَ عَلَى كَفِّهِ عَن مُعَاجَلَتِي، وَلَا تُطِيقُونَ دَفْعَ شَيْءٍ مِنِّ عِقَابِهِ عَنِّي، فَكَيْفَ أَفْتَرِيهِ وَأَتَعَرَّضُ لِعِقَابِهِ؟! يُقَالُ: فُلَانٌ لَا يُمَلِّكُ إِذَا غَضِبَ، وَلَا يُمَلِّكُ عِنَانُهُ إِذَا صَمَّمَ، وَمِثْلُهُ: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]، وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا».

قوله: (وذلك أَنَّ مُحَمَّدًا): إشارة إلى «قولهم المُسْتَنَكِر»؛ يعني: أَنَّ قَوْلَهُمْ: إِنَّ مُحَمَّدًا افْتَرَاهُ، بَعْدَ إِقْرَارِهِمْ أَنَّهُ مُعْجِزٌ، مِمَّا يَقْضِي مِنْهُ الْعَجَبَ، وَتَقْرِيرُهُ: أَنَّ مُحَمَّدًا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ حَتَّى يَقُولَهُ وَيَفْتَرِيَهُ عَلَى اللَّهِ، لِأَنَّ هَذَا مُبَايِنٌ لِكَلَامِ الْبَشَرِ، وَلَوْ فُرِضَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى هَذَا الْمُفْتَرَى لَكَانَتْ قُدْرَتُهُ عَلَيْهِ مُعْجِزَةً لِكُونِهِ خَارِقًا لِلْعَادَةِ، وَإِذَا كَانَتْ مُعْجِزَةً كَانَتْ تَصْدِيقًا مِنَ اللَّهِ لَهُ، وَالْحَكِيمُ لَا يُصَدِّقُ الْكَاذِبَ، فَلَا يَكُونُ مُفْتَرِيًا، وَخِلَاصَتُهُ: أَنَّ إِقْرَارَهُمْ بِاعْجَازِهِ، وَنِسْبَتَهُمْ إِيَّاهُ إِلَى الْاِفْتِرَاءِ: مِمَّا يَقْضِي مِنْهُ الْعَجَبَ.

هذا التقريرُ إِنَّمَا يُسْتَحْسَنُ إِذَا أُريدَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ الدَّلَالَةُ عَلَى اعْتِرَافِهِمْ بِهِ، وَعَجْزِهِمْ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، كَمَا قَالَ فِي مُفْتَسِّحِ سُورَةِ يُونُسَ: «قَوْلُهُ: «إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ» (١) [يونس: ٢]: دَلِيلٌ عَجْزِهِمْ وَاعْتِرَافِهِمْ بِهِ، وَإِنْ كَانُوا كَاذِبِينَ فِي تَسْمِيَتِهِ سِحْرًا».

قوله: (لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ): الضَّمِيرُ الْمَجْرُورُ رَاجِعٌ إِلَى ﴿ءَايَاتِنَا﴾ بِاعْتِبَارِ وَضْعِ «الْحَقِّ» مَوْضِعَهَا، وَالْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿هَذَا﴾ فِي التَّنْزِيلِ أَيْضًا إِلَيْهِ هَذَا الْاِعْتِبَارُ.

(١) أي: على قراءة «لسحر».

ثم قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تَدْفِعُونَ فِيهِ؛ مِنَ الْقَدْحِ فِي وَحْيِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالطَّعْنِ فِي آيَاتِهِ، وَتَسْمِيَتِهِ سِحْرًا تَارَةً وَفِرْيَةً أُخْرَى، ﴿كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يَشْهَدُ لِي بِالصِّدْقِ وَالْبَلَاغِ، وَيَشْهَدُ عَلَيْكُمْ بِالْكَذِبِ وَالْجُحُودِ. وَمَعْنَى ذِكْرِ الْعِلْمِ وَالشَّهَادَةِ: وَعَيْدٌ بِجَزَاءِ إِفَاضَتِهِمْ، ﴿وَهُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ مَوْعِدَةٌ بِالْعُفْرَانِ وَالرَّحْمَةِ إِنْ رَجَعُوا عَنِ الْكُفْرِ وَتَابُوا وَأَمَنُوا، وَإِشْعَارٌ بِحِلْمِ اللَّهِ عَنْهُمْ، مَعَ عِظَمِ مَا ارْتَكَبُوا.

فإن قلت: فما معنى إسناد الفعل إليهم في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي﴾؟ قلت: كَانَ فِيهَا أَتَاهُمْ بِهِ النَّصِيحَةُ لَهُمْ وَالإِشْفَاقُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ وَإِرَادَةُ الْخَيْرِ بِهِمْ، فَكَأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: إِنْ افْتَرَيْتَهُ وَأَنَا أُرِيدُ بِذَلِكَ النَّصِيحَ لَكُمْ وَصَدَّقْتُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَلْهَةِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، فَمَا تُغْنُونَ عَنِّي - أَيُّهَا الْمُنْصَوِّحُونَ - إِنْ أَخَذَنِي اللَّهُ بِعُقُوبَةِ الْإِفْتِرَاءِ عَلَيْهِ!؟

قوله: ﴿بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تَدْفِعُونَ فِيهِ): اَنْدَفَعَ الْفَرَسَ؛ أَي: أَسْرَعَ، وَاَنْدَفَعُوا فِي الْحَدِيثِ؛ أَي: خَاضُوا. الرَّاعِبُ: «فَاضَ الْمَاءُ: إِذَا سَالَ مُنْصَبًّا، وَأَفَاضَ إِنَاءً: مَلَأَهُ حَتَّى أَسَالَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾، وَمِنْهُ: فَاضَ صَدْرُهُ بِالسَّرِّ، أَي: سَالَ، وَرَجُلٌ فَيَاضَ: سَخِيَ، وَمِنْهُ اسْتَعِيرَ: أَفَاضُوا فِي الْحَدِيثِ: إِذَا خَاضُوا فِيهِ، وَحَدِيثٌ مُسْتَفِيضٌ: مُتَشِيرٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩]، أَي: اَدْفَعُوا بِكَثْرَةٍ؛ تَشْبِيهًا بِفَيْضِ الْمَاءِ»^(١).

قوله: (وَإِشْعَارٌ بِحِلْمِ اللَّهِ عَنْهُمْ): نَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿حَلِيمًا عَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]، أَي: لَا يُعَاجِلُ بِالْعُقُوبَةِ بَأَنَّ لَا يُمَسِّكُهَا وَيَهْدِمُهَا عَلَيْهِمْ لِعِظَمِ جُرْمِهِمْ.

قوله: (فَكَأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: إِنْ افْتَرَيْتَهُ وَأَنَا أُرِيدُ بِذَلِكَ النَّصِيحَ لَكُمْ): خُلَاصَةُ الْجَوَابِ: أَنَّ إِسْنَادَ «لَا تَمْلِكُونَ» عَلَى الْفَرَضِ، وَهُوَ مِنْ بَابِ إِرْحَاءِ الْعِنَانِ وَالْكَلَامِ الْمُنْصِفِ.

(١) «مفردات القرآن» ص ٦٤٨.

(٢) تَحَرَّفَ فِي (ح) وَ(ف) إِلَى: «بِحُكْمٍ»، وَالْمُبْتَدَأُ مِنْ (ط).

﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا

نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾

البدع: بمعنى: البديع، كالخيف بمعنى: الخفيف، وقري: «بدعاً» بفتح الدال، أي: ذا بدع، ويجوز أن يكون صفة على «فعل»، كقولهم: دين قيم، ولحم زيم.

كانوا يقترحون عليه الآيات، ويسألونه عما لم يوح به إليه من الغيوب، فقيل له: ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ ﴾ فاتيكم بكل ما تقترحونه، وأخبركم بكل ما تسألون عنه من المغيبات، فإن الرسل لم يكونوا يأتون إلا بما آتاهم الله من آياته، ولا يخبرون إلا بما أوحى إليهم، ولقد أجاب موسى صلوات الله عليه عن قول فرعون: ﴿ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ [طه: ٥١]؟ بقوله: ﴿ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ [طه: ٥٢].

الانتصاف: «الكلام جرى فرضاً وتقديراً، ومتى فرض الافتراء امتنع كونه ناصحاً، فلا مصلحة للمكلف في العمل بالمفتري، ويتم ذلك على قاعدة المعتزلة: أن العقل يصل إلى معرفة حكم الله تعالى، فيتصور النصح مع الافتراء إذا أمر بالتوحيد مثلاً، ولو قال: حكّم الله بوجوب التوحيد، وأنا رسول به، كان محققاً عندهم، وهي قاعدة باطلة. والجواب عن الآية عندنا أن إسناد ﴿ تمليكون ﴾ إليهم تشبيه بالشيء على مقابله بالمفهوم، أي: إن كنت مفترياً وأنتم المبحثون، فالعقوبة واقعة لا بد منها، ولا تقدرون على دفعها عني، وإن كنت محققاً وأنتم المفترون، فالعقوبة تقع بكم، ولا أقدر على دفعها عنكم، كقوله: ﴿ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يَنْجُرِثُونَ ﴾ [هود: ٣٥] (١)، انتهى كلامه.

قوله: (دين قيم): أي: قائم، و«البدع» على هذا التقدير بمعنى: مبدع.

قوله: (ولحم زيم): روى الجوهرى عن الأصمعي: «اللحم الزيم: المتفرق، ليس بمجتمع

في مكان».

(١) «الانتصاف» (٣: ٥١٦-٥١٧) بحاشية «الكشاف».

﴿وَمَا أَدْرِى﴾ - لأنه لا عِلْمَ لي بِالْغَيْبِ - مَا يَفْعَلُ اللهُ بِى وَبِكُمْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ مِنَ الزَّمَانِ مِنْ أَفْعَالِهِ، وَيُقَدَّرُ لِي وَلَكُمْ مِنْ قَضَايَاهُ، ﴿إِنْ أَنْعَى إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ﴾، وعن الحسن: وما أدري ما يصيرُ إليه أمري وأمرُكم في الدُّنيا، وَمِنَ الْغَالِبِ مِنَّا وَالْمَغْلُوبِ. وعن الكلبي: قَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ - وَقَدْ ضَعَجُوا مِنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ - حَتَّى مَتَى نَكُونُ عَلَى هَذَا؟ فَقَالَ: «مَا أَدْرِى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ، أَتَرَكَ بِمَكَّةَ أَمْ أَوْمَرُ بِالْخُرُوجِ إِلَى أَرْضٍ قَدْ رُفِعَتْ لِي وَرَأَيْتُهَا - يَعْنِي: فِي مَنَامِهِ - ذَاتَ نَخِيلٍ وَشَجَرٍ؟». وعن ابن عباس: مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَقَالَ: هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نَفِيًّا لِلدَّرَايَةِ الْمَفْصَلَةِ.

قوله: (إلى أرضٍ قد رُفِعَتْ لِي وَرَأَيْتُهَا) إلى قوله: (ذَاتَ نَخِيلٍ وَشَجَرٍ): والحديثُ مِنْ رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ^(١) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْمُسْلِمِينَ بِمَكَّةَ: «إِنِّي أُرَيْتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ سَبِيحَةَ ذَاتِ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ، فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ مِنْ قِبَلِ الْمَدِينَةِ، وَرَجَعَ عَامَةً مَنْ كَانَ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قِبَلِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: عَلَى رِسْلِكَ، فَإِنِّي أُرْجُو أَنْ يُؤَدَّنَ لِي، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلْ تَرَجُّوْا ذَلِكَ بِأَبِي وَأُمِّي أَنْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ»، الحديث.

الأساس: «رَفَعْتُهُ لِأَمْرٍ كَذَا: قَدَّمْتُهُ إِلَيْهِ، وَرَفَعْتُ لَهُ غَايَةَ فَسَمَّا إِلَيْهَا، قَالَ بَشْرٌ^(٢):

إِذَا مَا الْمَكْرُمَاتُ رُفِعْنَ يَوْمًا وَقَصَّرَ مُبْتَغُوهَا عَنْ مَدَاهَا
وَضَاقَتْ أَدْرُغُ الْمَثْرِينَ عَنْهَا سَمَّا أَوْسٌ إِلَيْهَا فَاحْتَوَاهَا

وقال غيره: رُفِعَ لِي شَخْصٌ وَنَارٌ، أَي: لَاحَ لِي وَرَأَيْتُهُ.

قوله: (نَفِيًّا لِلدَّرَايَةِ الْمَفْصَلَةِ): هَذَا يَنْصَرَفُ إِلَى تَفْسِيرِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فَلَا تَكُونُ الْآيَةُ مَنْسُوخَةً.

(١) برقم (٣٩٠٥).

(٢) يعني: بشر بن أبي خازم، كما في «معاهد التنصيص» للعباسي (١: ٣٨٠).

وَقُرِي: «مَا يَفْعَلُ» بَفَتْحِ الْيَاءِ؛ أَي: يَفْعَلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

فَإِنْ قُلْتَ: إِنَّ «يَفْعَلُ» مُثَبَّتٌ غَيْرُ مَنْفِيٍّ، فَكَانَ وَجْهُ الْكَلَامِ: مَا يَفْعَلُ بِي وَبِكُمْ؟ قُلْتَ: أَجَلٌ، وَلَكِنَّ النَّفْيَ فِي «وَمَا أَدْرِي» لَمَّا كَانَ مُشْتَمِلاً عَلَيْهِ لِتَنَاوُلِهِ «مَا» وَمَا فِي حَيْزِهِ، صَحَّ ذَلِكَ وَحَسُنَ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: «أَوْلَتْزِيْرُوا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعَى بِخَلْقِهِنَّ بِقَدْرِ» [الأحقاف: ٣٣]، كَيْفَ دَخَلَتْ الْبَاءُ فِي خَبَرِ «أَنَّ»، وَذَلِكَ لِتَنَاوُلِ النَّفْيِ إِيَّاهَا مَعَ مَا فِي حَيْزِهَا.

و«مَا» - فِي «مَا يَفْعَلُ» - يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مُوَصُولَةً مَنْصُوبَةً، وَأَنْ تَكُونَ اسْتِفْهَامِيَّةً مَرْفُوعَةً، وَقُرِي: «يُوحِي» أَي: اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

[«قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ، فَمَا مَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» ١٠]

الانْتِصَافُ: «أَجُودُ مَا قِيلَ فِيهِ: حَمَلُهُ عَلَى الدَّرَايَةِ الْمُفْصَلَةِ»^(١)، وَإِنْ كَانَ يَدْرِي أَنَّ مُصِيرَهُ إِلَى النَّعِيمِ، وَمُصِيرَهُمْ إِلَى الْعَذَابِ.

قَوْلُهُ: (النَّفْيِ فِي «وَمَا أَدْرِي» لَمَّا كَانَ مُشْتَمِلاً عَلَيْهِ لِتَنَاوُلِهِ «مَا» وَمَا فِي حَيْزِهِ، صَحَّ ذَلِكَ وَحَسُنَ): الْإِنْتِصَافُ: «بُنِيَ عَلَى أَنَّ الْمَجْرُورَ قَدْ عُطِفَ عَلَى مِثْلِهِ، وَأَنَّهَا جَمِيعاً فِي صِلَةِ مُوَصُولٍ وَاحِدٍ، وَلَوْ قِيلَ: الْمَجْرُورُ الثَّانِي مِنْ صِلَةِ مُوَصُولٍ مَحْذُوفٍ عَلَى مِثْلِهِ، أَي: وَمَا أَدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا مَا يَفْعَلُ بِكُمْ، لَمْ يَفْتَقِرْ إِلَى تَأْوِيلٍ، وَحُذِفَ الْمَوْصُولُ وَتَفَاصِيلُهُ صَحِيحٌ، قَالَ:

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سِوَاءِ

أَي: أَفَمَنْ^(٢) يَهْجُوهُ وَمَنْ يَنْصُرُهُ سِوَاءِ؟»^(٣).

(١) «الانتصاف» (٣: ٥١٧) بحاشية «الكشاف».

(٢) قوله: «أَي: أفمن ... سواء ... سقط من (ح)، وأثبتته من (ف)، وفيها: «من يهجو»، وأثبتته: «أفمن» من «الانتصاف».

(٣) «الانتصاف» (٣: ٥١٨) بحاشية «الكشاف».

جوابُ الشَّرْطِ محذوف، تقديره: **إِنْ كَانَ الْقُرْآنُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ أَلْسْتُمْ ظَالِمِينَ**. ويدلُّ على هذا المحذوفِ قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

والشاهدُ من بني إسرائيل: عبدُ الله بنُ سلام، لما قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ نَظَرَ إلى وَجْهِهِ، فعَلِمَ أنه ليسَ بوجهِ كَذَابٍ، وتأمَّلَهُ، فَتَحَقَّقَ أنه هو النبيُّ المُتَنَبِّئُ،

قوله: (والشاهدُ من بني إسرائيل: عبدُ الله بنُ سلام، لما قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينة): هذا القولُ بعدَ قوله: «وما أدري ما يُفَعَّلُ بي ولا بكم، أتتركُ بمَكَّةَ أم أومُرُ بالخروجِ إلى أرضٍ: يُوهِمُ أنَّ إحدى الآيتينِ نازلةٌ بمَكَّةَ، والأخرى بالمدينة، ومن ثمَّ قالَ صاحبُ «الكواشي»: «السورةُ مَكِّيَّةٌ، إلا ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ﴾ الآية، وإلا ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَأُولُوا الْعَرْشِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] الآية، ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١٥]».

وروى مُحمي السُّنَّةِ عن بعضِ المُفسِّرين: «أنَّ الشاهدَ هو موسى بنُ عمرانَ عليه السَّلام، قال مسروقٌ في هذه الآية: والله ما نزلت في عبدِ الله بنِ سلام، لأنَّ آلَ (حم) نزلت بمَكَّةَ، وإنما أسلمَ عبدُ الله بنُ سلامٍ بالمدينة، والآيةُ واردةٌ في مُحاجةٍ كانت من رسولِ الله ﷺ لِقَوْمِهِ، ومثلُ القرآن: التَّوراة، فشَهِدَ موسى على التَّوراة، ومُحمَّدٌ ﷺ على القرآن، وكُلُّ واحدٍ يُصَدِّقُ الآخر»^(١).

وروى مُحمي السُّنَّةِ أيضاً عن قنادةٍ والضَّحَّاك: «أنَّ الشاهدَ هو عبدُ الله بنُ سلام»^(٢).

وقلت: دليلُهُما: أنَّ قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ عطفٌ على الشَّرْطِ، فيكونانِ شَرْطَيْنِ، وجوابُ كُلِّ منهما على البَدَلِ: فلا تكونوا ظالمين، يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، والشَّرْطُ لا يَسْتَدْعِي حُصُولَهُ عندَ التكلُّمِ به، فتَضَمَّنَ الشَّرْطُ الأوَّلُ معنى الاستِدراجِ والكلامِ المُنصِفِ، لأنَّ كَوْنَ الْقُرْآنِ من عِنْدِ اللَّهِ مُتَيَقِّنٌ مُحَقَّقٌ، فلا يُعَلَّقُ بـ«إِنْ» إلا نُكْتةً، واشتَمَلَ الشَّرْطُ الثاني على معنى المُعْجِزَةِ والإخبارِ بِالغَيْبِ، فلا تُتَافَى شهادةُ عبدِ الله ابنِ سلامٍ بالمدينةِ أن تكونَ الآيةُ نازلةً بمَكَّةَ.

(١) «معالم التنزيل» للبغوي (٧: ٢٥٥).

(٢) المصدر السابق (٧: ٢٥٤).

أما تقريره على ما رواه محيي السنة: «أن الآية نزلت في مُحَاجَّةِ كَانَتْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِقَوْمِهِ» فهو أن قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾: أمر له صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِالرَّدِّ عَلَيْهِمْ فِيمَا طَعَنُوا فِي الْقُرْآنِ، وَلَمَّا كَانَ قَوْلُهُ: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَايِمِنَ الرُّسُلِ﴾ قَرِينَةً لَهُ، اقْتَضَى أَيْضًا أَنْ يَكُونَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الرَّدِّ، وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

أما الأول: فهو أن قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أمر لرسول الله ﷺ بِالرَّدِّ عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ أَنْ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا نَتَلَى عَلَيْهِمْ مَا إِنْتَلْنَا يَنْتَلِ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، وَالْإِضْرَابُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرِينَهُ﴾ أَوْ جَبَّ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: أَخْبِرُونِي أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي تَنْسُبُونَهُ إِلَى السَّحْرِ تَارَةً، وَإِلَى الْإِفْتِرَاءِ أُخْرَى - مَعَ أَنْكُمْ عَرَفْتُمْ أَنَّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ مُخَضٌّ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لَمَّا جَرَّبْتُمْ بِهِ قُورَاكُمْ، وَعَجَزْتُمْ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِ أَقْصَرِ سُورِهِ، وَأَنْتُمْ أَرِيَابُ الْبَلَاغَةِ وَقُرْسَانُ الْبَيَانِ، وَلَمَّا تَضَمَّنَ الدَّعْوَةَ إِلَى التَّوْحِيدِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ - إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أَمَا تَكُونُونَ ظَالِمِينَ؟ يَدُلُّ عَلَى هَذِهِ الْمَعَانِي تَصْرِيحُ قَوْلِهِ: ﴿لِلْحَقِّ﴾ بَعْدَ ذِكْرِ ﴿مَا إِنْتَلْنَا يَنْتَلِ﴾.

وَأَخْبِرُونِي أَيْضًا: إِنْ يَشْهَدُ بِذَلِكَ أَعْلَمُ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ مِمَّا يَجِدُهُ فِي الْوَحْيِ النَّازِلِ: أَمَا تَكُونُونَ ظَالِمِينَ وَأَخْسَسَ النَّاسِ وَأَضَلَّهُمْ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ؟، أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ وَتَتَرَكُونَ الْعِبَادَةَ وَالْإِعْرَاضَ؟ فَأُضِيفَ إِلَى دَلِيلِ الْعَقْلِ دَلِيلُ السَّمْعِ.

وَأما الثالث: فهو أن قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ رَدٌّ آخِرٌ، وَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الاحقاف: ٣] دَلَّ عَلَى أَنَّ الْقَوْمَ أَعْرَضُوا عَنْ قَبُولِ الْقَوْلِ بِالْحَشْرِ وَالْإِقْرَارِ بِالتَّوْحِيدِ، وَأَبْوَإِلا الشَّرْكَ وَالْمَعَانِدَةَ، فَقِيلَ: قُلْ لَهُمْ: ﴿مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا حُضِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ [الاحقاف: ٦].

وَأما الثاني: فهو أن قوله: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَايِمِنَ الرُّسُلِ﴾ رَدٌّ آخِرٌ، وَيَبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَالَّذِينَ

وقال له: «إني سأفك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أسرار الساعة؟.....»

كفروا عما أنذروا معرضون ﴿ [الأحقاف: ٥]، دَلَّ بالإدماج وإشارة النَّصِّ (١) على أنه تعالى صَمَّنَ فيه ما به أعرضوا عن التوحيد والبعث والطَّعن في الرسول المنذر، فقليل: قُلْ لهم: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَايِنِ الرُّسُلِ﴾ الآية، فدَلَّ على أَنَّ ذَلِكَ الطَّعْنَ هو أنهم اقترحوا عليه الآيات، وكانوا يسألونه (٢) عما لم يُوحَّ إليه مِنَ الغيوب، كما يُنبئُ عنه كلامُ المُصنِّفِ، ويُؤيِّدُ هذا أنْ فُصِّلَت الآيةُ (٣) بقوله: ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، لأنه مُطابِقُ لقوله: ﴿عَمَا أَنْذَرُوا﴾.

قوله: (عبدُ الله بنُ سَلَامٍ): بالتخفيف، قال (٤): «ليس في الأسماءِ «سَلَامٌ» بالتشديد إلا أبو عبيد القاسم بنُ سَلَامٍ (٥)، وفي النِّساءِ: سَلَامَةٌ بالتشديد»، قال: «إسلامُه شبيهٌ بإسلام أبي بكرٍ رضي اللهُ عنهما، فإنه لم يتلَّعتم، كما أنَّ أبا بكرٍ رضي اللهُ عنه كان كذلك» (٦).

قوله: (إني سأفك عن ثلاث) الحديث: أخرجه البخاري (٧) عن أنس، وفي رواية المُصنِّفِ اختلافٌ وزوائد. «أسرارُ الساعة»: العلاماتُ التي تتقدَّمُها، مثل: خُرُوجُ الدَّجَالِ، وطلُوعُ الشَّمْسِ مِنَ المَغْرِبِ.

(١) تقدَّم معنى الإدماج في تفسير الآية ١١٥ من سورة التوبة (٧: ٣٨١) تعليقا، وفيه أنه ما يُسمِّيهِ الحنفيةُ بـ«إشارة النَّصِّ»، فالعطفُ في قوله هنا: «بالإدماج وإشارة النَّصِّ» للبيان والتفسير.

(٢) في (ط) و(ح): «يميلونه»، وفي (ف): «يميلون»، وأظنُّ أنَّ كُلاَّ منهما تحريفٌ عما أثبت. والله أعلم.

(٣) أي: جُعِلَت فاصلتها.

(٤) الظاهرُ أنَّ القائلَ الزمخشريُّ نفسه، والمؤلفُ ينقلُ عنه في مواضع من حاشية كتابه «الكشاف».

(٥) بل «سَلَامٌ» بالتشديد: كثير، و«سَلَامٌ» بالتخفيف: قليل، كعبد الله بن سَلَامٍ الصحابي، وسَلَام بن محمد المقدسي - مُحدِّث من شيوخ الطبراني - ومحمد بن سَلَام البيكندي - مُحدِّث من شيوخ البخاري - وغيرهم. انظر: «الإكمال» لابن ماكولا (٤: ٤٠٢-٤١٠).

(٦) هذه الفقرة وردت في (ح) و(ف) بعد قوله: «ووصينا الإنسان بالديه» وقبل قوله: «وروي يحيى السنة» - وكلاهما وارد في أول فقرة (والشاهد من بني إسرائيل) - وورد في (ط) هنا، وهو الأنسب.

(٧) في «صحيحه» برقم (٣٣٢٩) و(٣٩٣٨) و(٤٤٨٠).

وما أوَّل طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: أما أول أشراط الساعة فنانٌ تحشُرُهُم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل نزعته، وإن سبق ماء المرأة نزعته. فقال: أشهد أنك رسول الله حقاً.

ثم قال: «يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهت، وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك، فجاءت اليهود، فقال لهم النبي ﷺ: أي رجل عبد الله فيكم؟ فقالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا. قال: رأيتم إن أسلم عبد الله؟ قالوا: أعاده الله من ذلك، فخرج إليهم عبد الله، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا، وانتقصوه. قال: هذا ما كنت أخاف. يا رسول الله - وأحذر».

قوله: (ينزع إلى أبيه أو إلى أمه): أي: إذا جاء يشبه أحدهما ويجذب إليه، ويقال: «العرق نزع»^(١).

قوله: (قوم بُهت): بهت فلان فلاناً: إذا كذب عليه، فهو باهت، وقوم بُهت. قيل: زيادة الكبد: هي شيء نابت على جانب الكبد، وهو ألد من الكبد. كل ذلك في «جامع الأصول»^(٢).

وروى المظهري^(٣) في شرحه عن بعض العلماء: لعل ذلك إشارة إلى إعدام ما يقبل التغير والتأثر، كما في ذبح الموت الذي يؤتى به على صورة الكبش؛ إشارة إلى أن نعيم أهل الجنة في الجنة أبدى بلا انقطاع، وعذاب أهل النار - الذين لهم استحقاق الخلود في النار^(٤) - أبدى بلا انقطاع.

(١) في معناه: ما أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٩٧٤) عن ابن عباس مرفوعاً: «الناس معادن، والعرق دساس»، وفي إسناده ضعف.

(٢) «جامع الأصول» لابن الأثير (١١: ٣٨٢).

(٣) كذا في (ط)، وفي (ح) و(ف): «المطهر»، وهو خطأ، والمظهري أحد شراح «المصابيح» للبخاري.

(٤) الجملة المعترضة احتراز عن يدخل النار من عصاة المؤمنين، فإن عذابهم محدود بغاية ونهاية، وليس أبدياً.

قال سعدُ بنُ أبي وقاصٍ: ما سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ لأحدٍ يمشي على الأرض: «إنه من أهلِ الجنة»، إلا لعبدِ الله بنِ سلام، وفيه نزل: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾.

قوله: (ما سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ لأحدٍ يمشي على الأرض: «إنه من أهلِ الجنة»، إلا لعبدِ الله بنِ سلام): يعني: كُلُّمَا رآه يقول: إنه من أهلِ الجنة، وإلا فإنه صلواتُ الله عليه قال ذلك في حَقِّ كثيرٍ من أصحابه، رضوانُ الله عليهم.

الحديث: أخرجه البخاريُّ ومُسْلِمٌ^(١) عن سعدِ بنِ أبي وقاصٍ، وفيه بدل: «لأحدٍ يمشي»: «لحِيِّ يمشي»^(٢)، وتماؤه: وقال: نزلت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ الآية أو في الحديث^(٣).

وروينا عن الشَّيْخَيْنِ^(٤) أيضاً عن قيسِ بنِ عبادٍ^(٥) في حديثٍ طويلٍ قال: «كنتُ جالساً في مَسْجِدِ المدينة، فجاء رجلٌ فيه أثرٌ مِنَ الخشوع، فقال بعضُ القوم: هذا رجلٌ من أهلِ الجنة، فلما خَرَجَ، فَاتَّبَعْتُهُ، وسألته عن ذلك، فقال: سأحدُّثُك ما ذاك، رأيتُ رؤيا على عهدِ رسولِ الله ﷺ، ففصَّصْتُها عليه، رأيتُني في روضة، ووسطَ الرُّوضةِ عمودٌ من حديد، أسفلهُ في الأرض، وأعلاه في السماء، وفي أعلاه عُرْوَةٌ، فقليلٌ لي: ارقه»، إلى أن قال: «فرقيتُ حتى كنتُ في أعلى العمود، فأخذتُ بالعُرْوَةِ، فقليلٌ لي: استمسك، فلقد استيقظتُ وإنها لفي يدي،

(١) البخاري (٣٨١٢)، ومسلم (٢٤٨٣).

(٢) هي رواية مسلم، أما رواية البخاري ففيها: «لأحدٍ يمشي»، والمؤلفُ رحمه الله تعالى يُجْرِحُ بواسطة «جامع الأصول» لابن الأثير (٩: ٨١)، ولم يسقِ إلا لفظَ مُسْلِمٍ، فظنَّ المؤلفُ أنه لفظُ الشَّيْخَيْنِ جميعاً.

(٣) قال الراوي عند البخاري: «لا أدري قال مالك: الآية أو في الحديث». والمعنى: «لا أدري هل قال مالك: إن نزلت هذه الآية في هذه القصة من قبل نفسه أو هو بهذا الإسناد؟»، كما في «فتح الباري» للحافظ ابن حجر (٧: ١٣٠).

(٤) البخاري (٣٨١٣) و(٧٠١٠) و(٧٠١٤)، ومسلم (٢٤٨٤).

(٥) تحرّف في الأصلين إلى «عبادة»، والمُتَّبِتُ من «الصحيحين».

الضَّمِيرُ لِلْقُرْآنِ، أَي: عَلَى مِثْلِهِ فِي الْمَعْنَى، وَهُوَ مَا فِي التَّوْرَةِ مِنَ الْمَعَانِي الْمُنَاطَبَةِ
لِمَعَانِي الْقُرْآنِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي
زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]، ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [الأعلى: ١٨]، ﴿كَذَلِكَ
يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الشورى: ٣]. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ عَلَى نَحْوِ ذَلِكَ، يَعْنِي: كَوْنَهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

فَقَصَّصْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: تِلْكَ الرَّؤُوسَةُ: الْإِسْلَامُ، وَذَلِكَ الْعُمُودُ: عُمُودُ الْإِسْلَامِ،
وَتِلْكَ الْعُرْوَةُ: الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى، وَأَنْتَ عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى تَمُوتَ.

قَوْلُهُ: (عَلَى نَحْوِ ذَلِكَ، يَعْنِي: كَوْنَهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ): يُرِيدُ: أَنَّ الضَّمِيرَ الْمُضَافَ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ:
﴿مِثْلِهِ﴾ رَاجِعٌ إِلَى الْقُرْآنِ، وَالْمُشَبَّهُ إِمَّا مَا فِي التَّوْرَةِ مِنَ الْأَلْفَاظِ الدَّالَّةِ عَلَى مَعَانِي التَّوْحِيدِ وَالْوَعْدِ
وَالْوَعِيدِ، دُونَ مَا دَلَّ عَلَى بَيَانِ الْفُرُوعِ، وَإِمَّا الْكُتُبُ الْمُنَزَّلَةَ، وَوَجْهُ الشَّبَهَةِ: كَوْنُهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

وَقَالَ مُحْيِي السُّنَّةِ وَالوَاحِدِيُّ: «إِنَّ الْمِثْلَ» صِلَةٌ، مَعْنَاهُ: عَلَيْهِ، أَي: عَلَى أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ^(١).
وَيَجُوزُ أَنْ يُحْمَلَ الْوَجْهَ الْآخَرَ عَلَى هَذَا، وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ «الْمِثْلَ» نَحْوُهُ فِي قَوْلِكَ:
مِثْلُكَ يَجُودُ، أَي: أَنْتَ تَجُودُ، يَعْنِي: مَنْ هُوَ عَلَى صِفَتِكَ مِنَ الْكَرَمِ وَالسَّخَاوَةِ وَبَسْطَةِ الْيَدِ يَجُودُ.

الْمَعْنَى: وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِ، أَي: عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَعَلَى صِفَتِهِ مِنْ كَوْنِهِ
وَخِيًّا مِنَ اللَّهِ، نَازِلًا مِنْ عِنْدِهِ، مُعْجِزًا بِالْغَا فِي فَصَاحَتِهِ، وَفِي إِخْبَارِهِ عَنِ الْمُغَيَّبَاتِ، مُوَافِقًا لِمَا فِي
كُتُبِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ: «وَأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ الْوَحْيِ، وَلَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ».

وَحِينَئِذٍ يَحْسُنُ عَطْفُ قَوْلِهِ: ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عَلَى «آمَنَ»، وَتَرْتِيبُهَا بِالْفَاءِ مَعًا عَلَى الْمَذْكُورِ؛
لِيَكُونَ إِيَّاهُ وَاسْتِكْبَارُهُمْ صَادِرَيْنِ عَنْ أَمْرِ وَاحِدٍ، وَهُوَ عِرْفَانُهُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ وَصِدْقٌ
وَصَوَابٌ، وَأَنَّهُ مُعْجِزَةٌ مِنَ اللَّهِ، وَأَنَّ عَبْدَ اللَّهِ أَنْصَفَ فَاْمَنَ، وَأَنَّ الْمُشْرِكِينَ عَانَدُوا فَكَفَرُوا،

(١) «معالم التنزيل» للبغوي (٧: ٢٥٤)، و«الوسيط» للواحدى (٤: ١٠٤).

فإن قلت: أحزبني عن نظم هذا الكلام لأقف على معناه من جهة النظم. قلت: الواو الأولى عاطفة لـ «كفرتم» على فعل الشرط، كما عطفته «ثم» في قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَتْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ [فصلت: ٥٢]، وكذلك الواو الآخرة عاطفة لـ «استكبرتم» على «شهد شاهد»، وأما الواو في ﴿وَشَهِدْ﴾ فقد عطفت جملة قوله: ﴿وَشَهِدْ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَنَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾، على جملة قوله: ﴿كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾، ونظيره قولك: «إن أحسنت إليك وأسأت،

ويقع قوله: ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ في محزه^(١)، لأنه من وضع العام موضع المضمر؛ للإيدان بأنهم وضعوا الاستكبار^(٢) موضع الإذعان للحق بعد وضوح البيّنات.

قال الواحدي: «معنى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: أن الله جعل جزاء المعاندين للإيمان بعد الوضوح والبيان أن يمدهم في ضلالتهم، ويحرمهم الهداية»^(٣)، والله أعلم.

قوله: (الواو الأولى عاطفة لـ «كفرتم» على فعل الشرط) إلى آخره: الانتصاف: «لم يوجه المعطوفات على جهة واحدة، لأنه قد يكون العطف لمجموع مفردات على مجموع مفردات للتقابل بين المفردات، ومنه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ [فاطر: ١٩-٢٠]، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]»^(٤).

قوله: (ونظيره قولك: إن أحسنت إليك): فقوله: ﴿إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ﴾ نظير قوله: «إن أحسنت إليك وأسأت»، فأذن بأن كونه من عند الله إحسان وإنعام يوجب استقباله بالشكر التام، فعكسوا وكفروا به، وقوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَنَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ نظير قوله: «وأقبلت عليك وأعرضت»، فإن شهادة عبد الله بن سلام الموجبة لإيمانه: إقبال

(١) في (ج): «في محزه»، وفي (ف): «في محره»، والمثبت من (ط).

(٢) في (ج) و(ف): «وضعوا العام الاستكبار»، والمثبت من (ط).

(٣) «الوسيط» للواحدي (٤: ١٠٥).

(٤) «الانتصاف» (٣: ٥١٨-٥١٩) بحاشية «الكشاف».

وَأَقْبَلْتُ عَلَيْكَ وَأَعْرَضْتَ عَنِّي، لَمْ تَنْفِقْ»، فِي أَنْكَ أَخَذْتَ ضَمِيمَتَيْنِ، فَعَطَفْتَهُمَا عَلَى مِثْلِيهِمَا. وَالْمَعْنَى: قُلْ: أَخْبِرُونِي إِنْ اجْتَمَعَ كَوْنُ الْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مَعَ كُفْرِكُمْ بِهِ، وَاجْتِمَاعَ شَهَادَةِ أَعْلَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى نَزُولِ مِثْلِهِ وَإِيْمَانُهُ بِهِ، مَعَ اسْتِكْبَارِكُمْ عَنْهُ وَعَنِ الْإِيْمَانِ بِهِ، أَلَسْتُمْ أَضَلَّ النَّاسِ وَأَظْلَمَهُمْ؟

مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ وَإِرْشَادُهُمْ بِأَنْ أَعْلَمَ أَهْلَ الْكِتَابِ إِذَا شَهِدَ وَأَمِنَ، فَحَقُّ أَمْتَالِهِمُ التَّلَاقِي بِالْخُضُوعِ وَالِاسْتِكَانَةِ، فَعَكَّسُوا أَيْضًا بِالِاسْتِكْبَارِ وَالْإِعْرَاضِ.

وَهَذَا التَّقْرِيرُ يُؤْذِنُ بِأَنَّ «اسْتَكْبَرْتُمْ» عَطَفَ عَلَى «فَقَامَنْ»، وَكِلَاهُمَا مُسَيَّبَانِ عَنِ «وَشَهِدَ شَاهِدٌ»، وَهَذَا أَحْسَنُ مِنْ جَعْلِ الْمُنْصَفِ عَطَفَ «اسْتَكْبَرْتُمْ» عَلَى «وَشَهِدَ»، وَيَعْضُدُهُ قَوْلُ الْقَوْمِ: «شَرَّنَا وَابْنَ شَرَّنَا».

قَوْلُهُ: (ضَمِيمَتَيْنِ): أَي: «أَقْبَلْتُ» وَ«أَعْرَضْتُ» (عَلَى مِثْلِيهِمَا): وَهُمَا «أَحْسَنْتُ» وَ«أَسَأْتُ»، يُقَالُ: ضَمِيمُكَ فِي السَّفَرِ، أَي: رَفِيقُكَ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ: «لَمْ تَنْفِقْ»، وَ«فِي أَنْكَ أَخَذْتَ» مُتَعَلِّقٌ «نَظِيرُهُ».

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ بِالْوَاوِ، عَطْفًا عَلَى مُقَدَّرَاتِ شَتَّى، بَيَانٌ لِبَعْضِ اسْتِكْبَارِهِمُ الَّذِي مَنَعَهُمْ عَنِ الْإِيْمَانِ بِالْقُرْآنِ. قَوْلُهُ: (الَسْتُمْ أَضَلَّ النَّاسِ وَأَظْلَمَهُمْ؟): يُرِيدُ: أَنَّ جَوَابَ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ، وَهُوَ هَذَا، قَالَ الْوَاحِدِيُّ وَمُحِبِّي السُّنَّةِ: «جَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ، عَلَى تَقْدِيرِ: أَلَيْسَ قَدْ ظَلَمْتُمْ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، وَقَالَ الْحَسَنُ: جَوَابُهُ: فَمَنْ أَضَلَّ مِنْكُمْ، كَمَا قَالَ: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ، مَنْ أَضَلَّ﴾ [فُصِّلَتْ: ٥٢] الْآيَةَ، وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ: تَقْدِيرُهُ: أَتَأْمَنُونَ عَقُوبَةَ اللَّهِ» (١).

وَقُلْتُ: تَقْدِيرُ إِثْبَاتِ مُطْلَقِ الظُّلْمِ أَوْفَقُ لِمَا سَبَقَ أَنَّهُمْ وَضَعُوا الْاسْتِكْبَارَ مَوْضِعَ الْإِذْعَانِ وَالْإِيْمَانِ.

(١) «معالم التنزيل» للبغوي (٧: ٢٥٤)، و«الوسيط» للواحدى (٤: ١٠٥).

وقد جعل الإيمان في قوله: ﴿فَأَمَّنْ﴾ مُسَبِّباً عَنِ الشَّهَادَةِ عَلَى مِثْلِهِ، لَأَنَّهُ لَمَّا عَلِمَ أَنَّ مِثْلَهُ أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ الْوَحْيِ، وَلَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ، وَأَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ، فَشَهِدَ عَلَيْهِ وَاعْتَرَفَ، كَانَ الْإِيمَانُ نَتِيجَةَ ذَلِكَ.

[وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسِيْقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيرٌ * وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا نَا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ لِلْمُحْسِنِينَ * إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَالْآخِرَةُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١-١٤﴾]

﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأجلهم، وهو كلامٌ كُفَّارٍ مَكَّةَ، قالوا: عامَّةٌ مَنْ يَتَّبِعُ مُحَمَّدًا السَّقَاتِ، يَعْنُونَ الْفُقَرَاءَ مِثْلَ عِمَارٍ وَصُهَيْبٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ، فَلَوْ كَانَ مَا جَاءَ بِهِ خَيْرًا مَا سَبَقْنَا إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ. وَقِيلَ: لَمَّا أَسْلَمْتَ جُهِينَةَ وَمُرَيْنَةَ وَأَسْلَمَ وَغِفَارَ، قَالَتْ بِنُو عَامِرٍ وَغَطَفَانَ وَأَسَدٌ وَأَشْجَعٌ: لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقْنَا إِلَيْهِ رِعَاءُ الْبَهْمِ. وَقِيلَ: إِنَّ أُمَّةً لِعُمَرَ أَسْلَمَتْ، فَكَانَ عُمَرُ يَضْرِبُهَا حَتَّى يَقْتُرَ، ثُمَّ يَقُولُ: لَوْلَا أَنِي فَتَرْتُ لِرِدَّتِكَ ضَرْبًا، وَكَانَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ يَقُولُونَ: لَوْ كَانَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ حَقًّا مَا سَبَقْنَا إِلَيْهِ فَلَانَةَ. وَقِيلَ: كَانَ الْيَهُودُ يَقُولُونَهُ عِنْدَ إِسْلَامِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ.

فإن قلت: لا بُدَّ مِنْ عَامِلٍ فِي الظَّرْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾، وَمِنْ مُتَعَلِّقٍ لِقَوْلِهِ: ﴿فَمَسِيْقُولُونَ﴾، وَغَيْرُ مُسْتَقِيمٍ أَنْ يَكُونَ ﴿فَمَسِيْقُولُونَ﴾ هُوَ الْعَامِلُ فِي الظَّرْفِ؛ لِتَدَاوُعِ دَلَالَتِي الْمُضِيِّ وَالِاسْتِقْبَالِ، فَمَا وَجَّهَ هَذَا الْكَلَامُ؟

قوله: (لا بُدَّ مِنْ عَامِلٍ فِي الظَّرْفِ): يَعْنِي: «إِذَا» لَازِمَةُ الْإِضَافَةِ، وَقَدْ أَضِيفَتْ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَمْ يَهْتَدُوا﴾ فَلَا يَعْمَلُ فِيهَا، وَأَيْضًا هِيَ لِلْمُضِيِّ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْعَامِلُ: ﴿فَمَسِيْقُولُونَ﴾، لِلاِسْتِقْبَالِ، وَالْفَاءُ فِي ﴿فَمَسِيْقُولُونَ﴾ لِلِاسْتِقْبَالِ، وَالْفَاءُ فِي ﴿فَمَسِيْقُولُونَ﴾ تَقْتَضِي سَبَبًا، وَلَا بُدَّ مِنَ الْبَيَانِ.

وأجاب: أن عاملها مُقدَّر، وهو السَّبَبُ في ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾، والتقدير: إذ لم يهتدوا ظهرَ عنادهم فسيقولون، وحذف عامل الظرفِ جائز، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهٖ﴾ [يوسف: ١٥]، قال أبو البقاء: «تقديره: فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في عَيَاةِ الحُجْبِ عَرَفْنَاهُ، لِدَلَالَةِ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ عليه»^(١)، وكذا في قولِ الناس: حيثُذِ الآن، أي: كانَ ذلكَ حيثُذِ، واسمَعِ الآنَ منه.

وقال الواحدي: «إذ: بمعنى «إن»، والمعنى: إن لم يُصَيَّبُوا الهدايةَ بالقرآنِ فسيقولون إنه كَذِبٌ»^(٢).

وقال ابنُ الحاجبِ في «الأمالي»: «يجوزُ «إذ» أن تكونَ مُتضمِّنةً معنى الشرط؛ لِدَلَالَةِ الفاءِ بعدها، وكونها في معنى «إذا»، وحسنَ تعبيرها بها لِدَلَالَتِهَا على تحقُّقِ ذلك؛ لِكُونِهَا للماضي، ويجوزُ أن تكونَ معمولاً لقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ باعتبارِ إرادةِ الاستمرارِ»^(٣).

الانتصاف: «لم يَمْنَعِ عَمَلٌ ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ إلا الاستقبال، فلا مانع، لأنَّ الاستقبالَ إنما جاءَ للإشعارِ بدوامِ ما وَقَعَ، وأنهم حَرَّفُوا وقالوا: هذا أساطير، وإفكٌ قديم، فمعناها: وقالوا إذ لم يهتدوا به: هذا إفكٌ قديم، وداموا عليه؛ فعبَّرَ عن الوقوعِ والدوامِ والاستقبالِ بالسَّيْنِ، كقولِ إبراهيمَ عليه السَّلام: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٧]، وهذا طريقُ الجمعِ بينَ قوله: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، وبينَ قوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٧]، ولولا دخولُ الفاءِ على الفعلِ^(٤) لتعيَّنَ هذا، لكنَّ الفاءَ دلَّتْ بسببِهَا على محذوفٍ هو السَّبَبُ، وَقَطَعَتِ الفِعْلَ عن الظرفِ، فتعيَّنَ ما ذكره الزمخشريُّ لأجلِ الفاءِ، لا لأجلِ السَّيْنِ»^(٥).

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ٧٢٥).

(٢) «الوسيط» للواحدي (٤: ١٠٥).

(٣) «الأمالي النحوية» لابن الحاجب (١: ١٠٦-١٠٧).

(٤) أي: في قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾.

(٥) «الانتصاف» (٣: ٥١٩-٥٢٠) بحاشية «الكشاف».

قلت: العَامِلُ في «إذ» محذوف، لدلالة الكلام عليه، كما حُذِفَ في قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ [يوسف: ١٥]، وقولهم: حَيْثُذِ الْآنَ، وتقديره: وإذ لم يَهْتَدُوا به ظَهَرَ عِنَادُهُمْ فسيَقُولُونَ: هذا إفاكٌ قديم. فهذا الْمُضْمَرُ صَحَّحَ به الكلام، حيثُ انتَصَبَ به الظَّرْفُ، وكانَ قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ مُسَبِّباً عنه، كما صَحَّحَ بِإِضْمَارِ «أَنْ» قوله: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢١٤]، مُصَادِفَةً «حتى» مجرورها، والمُضَارِعُ ناصِبَهُ.

وقلت: الاستِقبالُ إذا دَلَّ على الاستِمرارِ فيما مضى حالاً فحالاً، نحو: لو نُحَسِنُ إِي لَشَكَرْتَ، كانَ بِمعنى المُضِيِّ، وإذا دَلَّ على الاستِمرارِ فيما يَجِيءُ وقتاً فوقتاً كانَ مُتَوَعِّلاً في معناه، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، وربما دَلَّ على الاستِمرارِ دائماً، نحو: فُلَانٌ يَقْرِي الضَّيْفَ وَيَحْمِي الحَرِيمَ، وهذا مِنَ القَبِيلِ الثاني، ولذلك قُرِنَ بالسَّيْنِ، وذلك أَنَّ قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مُتَّصِلٌ بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾، على معنى: أخبروني إن اجتمعَ كَوْنُ القُرْآنِ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ مَعَ كُفْرِكُمْ به، واجتمعَ شهادةُ أَعْلَمَ بني إسرائيلَ على نزولِ مثله وإيأانه به مَعَ استِكبارِكُمْ عنه وعن الإيِّانِ به، أَلَسْتُمْ ظالِمِينَ؟ ثم إنه تعالى حَكَى عنهم أنهم عندَ سماعِهِم هذا الكلامَ المُنْصِفَ الذي ليسَ بعَدَه إرشادٌ أَظْهَرُوا العِنادَ، ولم يَنْظُرُوا بِنَظَرِ الإِنصافِ، وتكلموا بما هو نَصٌّ على الاستِكبارِ والتجَبُّرِ، وقالوا لأجل الذين آمنوا: لو كان الإيِّانُ خيراً ما سبقونا إليه. ولهذا وُضِعَ المُضْمَرُ.

فنبهَ سُبْحانَه وتعالى بقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَيَقُولُونَ﴾ حِيْبَهُ صلواتُ الله عليه على تماديهِم في العِنادِ، وإقناطاً له عن إيمانِهِم، وتَسْلِيَةً عن طَعْنِهِم، وأنهم حينَ لم يَهْتَدُوا بهذا الكلامَ المُنْصِفَ ظَهَرَ عِنَادُهُمْ، فأَعْلِمَ أنهم لا يَهْتَدُونَ بعدَ ذلك أبداً، وَيَسْتَمِرُّونَ مِنْهُم حيناً بعدَ حينٍ الطَّعْنَ في القُرْآنِ، فتارةً يقولون: أساطيرُ الأولين، وأخرى: إنه سِحْرٌ مُبِينٌ، وإفاكٌ قديم، وأمثالُ ذلك.

قوله: (كما صَحَّحَ بِإِضْمَارِ «أَنْ»): يُريد: أَنَّ «إذ» هاهنا تَقْتَضِي عَامِلاً، نَظِيرَ ﴿يَقُولُ﴾ هناك تَسْتَدْعِي ناصِباً، والفاءُ هنا تَقْتَضِي سَبباً، نحو ﴿حَتَّى﴾ هناك تَسْتَدْعِي مجروراً، فيمَدَّرُ هنا: «ظَهَرَ عِنَادُهُمْ»، ليكونَ عَامِلاً في «إذ» سَبباً لقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾، وهناك «أَنْ» ليكونَ عَامِلاً في ﴿يَقُولُ﴾، ويُجْعَلُ الفِعْلُ في تأويلِ المُصَدَّرِ؛ لِيَصِحَّ أَنْ يَقَعَ مجروراً بـ ﴿حَتَّى﴾.

وقولهم: ﴿إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ كقولهم: أساطير الأولين.

﴿كِتَابٌ مُّوسَىٰ﴾ مُّبْتَدَأٌ، ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ ظَرْفٌ وَاقِعٌ خَبَرًا مُّقَدِّمًا عَلَيْهِ، وهو ناصِبٌ ﴿إِمَامًا﴾ على الحال، كقولك: في الدار زيدٌ قائماً. وقرئ: «وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابُ مُّوسَىٰ»؛ على: وآتينا الذين قَبْلَهُ التَّوْرَةَ. ومعنى ﴿إِمَامًا﴾: قُدْوَةٌ يُؤْتَمُّ بِهِ فِي دِينِ اللَّهِ وَشَرَائِعِهِ، كما يُؤْتَمُّ بِالْإِمَامِ، ﴿وَرَحْمَةً﴾ لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَعَمِلَ بِهَا فِيهِ، ﴿وَهَذَا﴾ الْقُرْآنُ ﴿كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ﴾ لِكِتَابِ مُّوسَىٰ، أَوْ: لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَقَدَّمَ مِنْ جَمِيعِ الْكُتُبِ. وقرئ: «مُصَدِّقٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ».

قوله: ﴿كِتَابٌ مُّوسَىٰ﴾ مُّبْتَدَأٌ، ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ ظَرْفٌ وَاقِعٌ خَبَرًا: وقلت: لو رُوِيَ التناسُبُ بَيْنَ الْقَرِيبَتَيْنِ يُقَالُ: ﴿كِتَابٌ مُّوسَىٰ﴾ فاعلُ الظَرْفِ عَلَى مَذْهَبِ الْأَخْفَشِ، وَقَدْ ذَكَرَهُ صَاحِبُ «الْكَشْفِ»^(١)، كَانَ أَحْسَنَ، وَلَمْ يَلْزِمِ التَّقْدِيمَ الَّذِي^(٢) لَا يُفِيدُ هُنَا مَعْنَى التَّخْصِصِ إِلَيْهِ، وَلَا الْفَضْلَ بَيْنَ الْحَالِ وَعَامِلِهَا، وَيَكُونُ الْمَعْنَى: حَصَلَ وَمَضَى مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُّوسَىٰ إِمَامًا، وَمُيَزَّ وَشُوهِدَ عَيَانًا أَنَّ كِتَابَكَ هَذَا مُصَدِّقٌ مُعْجِزٌ، وَأَطْلَقَ ﴿مُصَدِّقٌ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: «مُصَدِّقٌ لَهُ»، أَي: لِكِتَابِ مُّوسَىٰ؛ تَعْمِيماً وَإِيدَانًا بِأَنَّهُ مُصَدِّقٌ لِلْكِتَابِ السَّاهِيَةِ كُلِّهَا، لَا سِيَّمَا نَفْسَهُ، لِكُونِهِ مُعْجِزًا نَازِلًا بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ، تُحَدِّثِي بِهِ الْعَرَبُ الْعَرَبَاءَ، فَأَفْجِحُوا، وَمَعَ ذَلِكَ أَنَّهُ نَذِيرٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا بِشِيرٍ لِلْمُحْسِنِينَ.

وإنما عدلَ عن «العادلين» إلى «المُحْسِنِينَ» لِيَكُونَ ذَرِيعَةً إِلَى الْبَشَارَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لِمَنْ قَالَ: ﴿رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾، وَقِيلَ: «لِلْمُحْسِنِينَ» دُونَ «الَّذِينَ أَحْسَنُوا»، بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أَي: لِيُنذِرَ الَّذِينَ وُجِدَ مِنْهُمْ الظُّلْمُ، وَيُشِيرَ الَّذِينَ تَبَتُّوا وَاسْتَقَامُوا عَلَى الْإِحْسَانِ وَالْإِحْلَاصِ، إِعْلَامًا بِأَنَّ الْإِنْسَانَ مُفْتَقِرٌ إِلَى مَا يَهْدُبُ بِهِ نَفْسَهُ وَيُقَوِّمُ أَوْدَهُ^(٣) كُلَّ الْإِفْتِقَارِ؛ لِأَنَّ الْاسْتِقَامَةَ عَلَى الصِّرَاطِ السَّوِيِّ لَا تُوجَدُ إِلَّا فِي الْأَفْرَادِ، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣].

(١) كشف المشكلات للباقولي (٢: ١٢٣٥).

(٢) في (ح) و(ف): «إلى لا يفيد»، ولا معنى له، والثبت من (ط).

(٣) تحرف في (ح) و(ف) إلى: «إلى ما مهدت به نفسه والقوم أودته».

﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ الْكِتَابِ فِي «مُصَدِّقٍ»، وَالْعَامِلُ فِيهِ «مُصَدِّقٌ»، وَيَجُوزُ أَنْ يَنْتَصِبَ حَالًا عَنْ: «كَتَبْتُ» لِتَخْصُصِهِ بِالصِّفَةِ، وَيَعْمَلُ فِيهِ مَعْنَى الْإِشَارَةِ، وَجُوزَ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا لـ «مُصَدِّقٌ»، أَي: يُصَدِّقُ ذَا لِسَانٍ عَرَبِيًّا، وَهُوَ الرَّسُولُ.

وَقُرِي: ﴿يُنْذِرُ﴾ بِالْبَاءِ وَالنَّاءِ، وَ«لِيُنْذِرَ»؛ مِنْ: نَذَرَ يُنْذِرُ: إِذَا حَذَرَ.

﴿وَيُنْشِرِي﴾ فِي مَحَلِّ النَّصْبِ، مَعْطُوفٌ عَلَى مَحَلِّ ﴿يُنْذِرُ﴾، لِأَنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ.

وَمِنْ ثَمَّ عَلَّلَ بِإِشَارَةِ الْمُحْسِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا فَالْخَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ * أَوْلَيْكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴿، وَمِنْ هُنَا تَقِفُ عَلَى جَلَالَةِ مَحَلِّ الْعَشْرَةِ الْمُبَشِّرَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ.

قَوْلُهُ: ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ الْكِتَابِ: قَالَ الزَّجَّاجُ: «الْمَعْنَى: مُصَدِّقٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ عَرَبِيًّا، وَذَكَرَ ﴿لِسَانًا﴾ تَوْكِيدًا، كَمَا تَقُولُ: جَاءَنِي زَيْدٌ رَجُلًا صَالِحًا، أَي: جَاءَنِي زَيْدٌ صَالِحًا، وَ«رَجُلًا» تَوْكِيدٌ»^(١)، وَسَمَّى أَبُو الْبَقَاءِ هَذِهِ الْحَالَّ حَالًا مُوَطَّئَةً^(٢)، وَأَمَا قَوْلُهُ: «أَنْ يَنْتَصِبَ [حَالًا] عَنِ كِتَابٍ، وَيَعْمَلُ فِيهِ مَعْنَى الْإِشَارَةِ»، فَفِيهِ خِلَافٌ، ذَكَرْنَاهُ فِي أَوَّلِ الْبَقْرَةِ.

قَالَ الْقَاضِي: «فَانْدَثَمَا الْإِشْعَارُ بِالِدَّلَالَةِ عَلَى أَنْ كَوْنَهُ مُصَدِّقًا لِلتَّوَارَةِ، كَمَا دَلَّ عَلَى أَنَّهُ حَقٌّ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ وَحْيٌ وَتَوْقِيفٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى»^(٣).

قَوْلُهُ: ﴿يُنْذِرُ﴾ بِالْبَاءِ وَالنَّاءِ: نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ وَالْبَرِّيُّ - بِخِلَافِ عَنهِ -: بِالنَّاءِ الْفَوْقَانِيَّةِ، وَالْبَاقُونَ: بِالْبَاءِ^(٤).

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٤٤١).

(٢) انظر: «البيان في إعراب القرآن» (١: ١١٩ و ٣٧٩ و ٤١٠) و (٢: ٨٢٧ و ٨٧٢ و ١١٢٣).

(٣) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ١٧٩).

(٤) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٩، و«حجة القراءات» ص ٦٦٢.

[«وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٥-١٦﴾]

قُرِي: «حُسْنًا»؛ بضم الحاء وسكون السين، وبضمهما، وبفتحهما، و«إِحْسَانًا»، و«كُرْهًا» بالفتح والضم، وهما لغتان في معنى المشقة، كالفقر والفقر، وانتصابه على الحال، أي: ذات كُرْه، أو على أنه صفة للمصدر، أي: حملاً ذا كُرْه.

«وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ»، ومدة حمليه وفضاليه «ثَلَاثُونَ شَهْرًا»، وهذا دليل على أن أقل الحمل ستة أشهر، لأن مدة الرضاع إذا كانت حولين؛ لقوله عز وجل: «حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ» [البقرة: ٢٣٣]، بقيت للحمل ستة أشهر. وقُرِي: «وَفِصْلُهُ»، والفصل والفصال: كالفظم والفظام، بناءً ومعنى.

قوله: (قُرِي: «حُسْنًا» بضم الحاء وسكون السين): الكوفيون: «إِحْسَانًا»، والباقون: «حُسْنًا»، والكوفيون وابن ذكوان: «كُرْهًا» بضم الكاف، والباقون: بفتحها^(١). قال ابن جني: «(حَسَنًا) بالفتح، قراءة علي رضي الله عنه والسلمي، يحتمل أن يكون مصدرًا كالمصادر التي اعتقبت فيها الفعل والفعل، نحو: الشغل والبخل^(٢)، وأن يكون صفة لا مصدرًا، لكونه رسيلاً القبيح^(٣)، أي: وصيئناه بوالديه فعلاً حسناً، وإن شئت نصبته بـ«وصيئنا»، لأنه بمعنى: الزمناه الحسناً في أوبئه، وإن شئت قدزرت: «الزمناه»، ونصبت به لا بـ«وصيئنا» المذكور^(٤).

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٩، و«حجة القراءات» ص ٦٦٣.

(٢) أي: الشغل والشغل، والبخل والبخل. وهو لفظ ابن جني في «المحتسب».

(٣) أي: مقابل القبيح.

(٤) «المحتسب» لابن جني (٢: ٢٦٥).

فإن قلت: المرادُ بيانُ مُدَّةِ الرِّضَاعِ لا الفِطَامِ، فكيفَ عَبَّرَ عنه بالفِصَالِ؟ قلت: لِمَا كَانَ الرِّضَاعُ يَلِيهِ الفِصَالُ وَيُلاِبِسُهُ، لِأَنَّهُ يَنْتَهِي بِهِ وَيَتَمُّ، سُمِّيَ فِصَالًا، كَمَا سُمِّيَ المُدَّةُ بِالأمَدِ مَنْ قَالَ:

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ مُدَّةَ العُمُرِ — رِ ومُؤَدٍ إِذَا انْتَهَى أَمَدُهُ

وفيه فائدة، وهي الدلالة على الرِّضَاعِ التَّامِّ المُتَنَهِي بالفِصَالِ وَوَقْتِهِ.

قوله: (كَمَا سُمِّيَ المُدَّةُ بِالأمَدِ): الرَّاعِبُ: «الأمَدُ والأبَدُ: يتقاربان، لكنَّ الأبَدَ: عبارةٌ عن مُدَّةِ الزمانِ التي ليسَ لها حَدٌّ محدود، ولا يَتَقَيَّدُ، ولا يُقالُ: أبَدُ كَذَا، والأمدُ: مُدَّةٌ لها حَدٌّ مجهولٌ إِذَا أُطْلِقَ، وقد يَنْحَصِرُ، نحوَ أن يُقالَ: أمدُ كَذَا، كما يُقالُ: زمنُ كَذَا، والفرقُ بينَ الزمانِ والأمدِ: أنَّ الأمدَ يُقالُ باعتبارِ الغايةِ، والزمانَ عامًّا في المبدأ والغايةِ، ولذلك قيل: المديُّ والأمدُ يتقاربان»^(١).

قوله: (كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ) البيت^(٢): «مُودٌ: أي هالكٌ؛ مِنْ: أودى: إِذَا هَلَكَ، يقول: كُلُّ حَيٍّ يَسْتَكْمِلُ مُدَّةَ عُمُرِهِ، وَيَهْلِكُ إِذَا انْتَهَى عُمُرُهُ.

قوله: (وفيه فائدة): أي: فيه إشارةُ النَّصِّ وإدماج^(٣) معنى الفِصَالِ والفِطَامِ التَّامِّ المُتَنَهِي بالفِصَالِ، ولو قيل: «وَحَمَلُهُ وَفِطَامُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا» لم يكن نَصًّا في الرِّضَاعِ التَّامِّ المُتَنَهِي بالفِصَالِ، وفي كُلِّ عُدُولٍ عن الظاهرِ إشارةٌ إلى دِقِيقَةٍ.

(١) «مفردات القرآن» ص ٨٨.

(٢) تقدَّم عند الزمخشري في تفسير الآية ٢٣١ من سورة البقرة، وعزاه في «الفائق»، مادة (أمد)، إلى الطُّرْمَاحِ، وهو في «ديوانه» ص ١٣٩، إلا أنه فيه من بيتين:

لا يُرِيشَانِ باخْتِلافِهِمَا المَرَّ ءَ وَإِنْ طَالَ فِيهِمَا أَمَدُهُ
كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ عِدَّةَ العُمُرِ — رِ ومُؤَدٍ إِذَا انْتَهَى عَدَدُهُ

(٣) تقدَّم معنى الإدماج في تفسير الآية ١١٥ من سورة التوبة (٧: ٣٨١) تعليقاً، وفيه أن الذي يُسَمِّيهِ أهلُ البيان بـ«الإدماج»، يُسَمِّيهِ الحنفيةُ بـ«إشارة النَّصِّ».

وَقُرِي: «حتى إذا استوى وبلغ أشده»، ويُلَوِّغُ الأَشُدَّ: أن يَكْتَهِلَ وَيَسْتَوِي السِّنَّ التي تَسْتَحْكِمُ فيها قُوَّتُهُ وَعَقْلُهُ وَتَمِيْزُهُ، وذلك إذا أَنافَ على الثلاثين، وناطَحَ الأربعين. وعن قتادة: ثلاثٌ وثلاثون سنة، ووجهه: أن يكون ذلك أولَ الأَشُدِّ، وغايته الأربعين. وقيل: لم يبعث نبيٌّ قطُّ إلا بعد أربعين سنة.

والمُرَادُ بالنِّعْمَةِ التي اسْتَوَزَعَ الشُّكْرَ عليها: نِعْمَةُ التَّوْحِيدِ والإسلام، وَجَمَعَ بَيْنَ شُكْرِي النِّعْمَةِ عليه وعلى والِدَيْهِ، لأنَّ النِّعْمَةَ عليها نِعْمَةٌ عليه. وقيلَ في العَمَلِ المُرْضِي: هو الصَّلَواتُ الخمس.

قوله: (أَنافَ على الثلاثين): الجوهري: «أَنافَ: أَشْرَفَ».

قوله: (وناطَحَ الأربعين): الأساس: «الناطِح: هو المُسْتَقْبَلُ بما يُزَجَرُ»^(١).

قوله: (استَوَزَعَ الشُّكْرَ): الجوهري: «استَوَزَعْتُ اللهُ شُكْرَهُ، فأوَزَعَنِي، أي: اسْتَلْهَمْتَهُ فأهْمَنِي». الراغب: «أوَزَعَنِي: معناه: أهْمَنِي، وتحقيقه: أولعني بذلك أو اجعلني بحيث أُرْغُ نفسي عن الكُفْران، يقال: وَزَعْتُهُ عن كذا: كَفَفْتُهُ، وقيل: الِوَزوعُ: الِوَلوعُ بالشيء، ورجلٌ وَزَعُ»^(٢).

قوله: (وقيلَ في العَمَلِ المُرْضِي: هو الصَّلَواتُ الخمس): هو معطوفٌ على مُقَدَّر، أي: يجوزُ أن يُقالَ في قوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾: أنه يُرادُ به الأَعْمالُ الصالِحَاتُ مُطْلَقًا، ويجوزُ أن يُرادَ به الصَّلَواتُ الخمس، والأوَّلُ أوجه، لأنه عَلِمَ من قوله تعالى: ﴿نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ الإسلامُ والتوحيد، كما نصَّ عليه، ويُعلَمُ من هذا الأَعْمالُ الصالِحَات، فيعودُ المعنى إلى قوله: ﴿أَوَزَعَنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ الإسلامُ والتوحيد، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ﴾ الأَعْمالُ الصالِحَات، ويجوزُ أن يكونَ من عطفِ الخاصِّ على العام، وفيه إشارةٌ إلى معنى قوله تعالى: ﴿وَأَلْعَمَلُ الصَّالِحِ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

(١) في (ح): «يوتجر»، وفي (ف): «يرتجر»، ومثلها في (ط) لكن دون نقط، والمُثَبِّت من «أساس البلاغة» للزنجشيري. وانظر: «لسان العرب» لابن منظور، مادة (مطح).

(٢) «مفردات القرآن» ص ٨٦٨.

فإن قلت: ما معنى «في» في قوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾؟ قلت: معناه: أن يجعل ذُرِّيَّتَهُ مَوْقِعاً لِلصَّلَاحِ وَمَظَنَّةً لَهُ، كأنه قال: هَبْ لِي الصَّلَاحَ فِي ذُرِّيَّتِي، وأوقعه فيهم ونحوه:

يَجْرَحُ فِي عَرَاقِيهَا نَضْلِي

﴿مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ مِنَ الْمُخْلِصِينَ، وَقُرِي: «يَتَقَبَّلُ» و«يَتَجَاوَزُ» بفتح الباء، والضمير فيها لله عزَّ وجلَّ، وَقُرِثَا بِالنُّونِ.

قوله: (يَجْرَحُ فِي عَرَاقِيهَا نَضْلِي): أوله:

وإن تَعَدَّرَ بِالْمَحَلِّ عَن ذِي ضُرُوعِهَا إِلَى الضَّيْفِ..... (١)

أي: يُحَدِّثُ الْجَرَحَ فِي عَرَاقِيهَا نَضْلِي، المعنى: إن اعتذرت بقلة اللبن بسبب القحط إلى الضيف أعقرها؛ لتكون هي بدل اللبن، «ذِي ضُرُوعِهَا»: أي: لبنها، جعل المتعدّي بمنزلة اللازم لإرادة الحقيقة، ثم عداه كما يعدّي اللازم مُبالغة.

قال ابن الحاجب: «الآية من باب قوله: «فلانٌ يُعْطِي وَيَمْنَعُ»، مما استعمل فيه الفعل المتعدّي محذوفاً مفعوله حذفاً غير مقصود، وهذا أبلغ في المدح من القصد إلى المفعول على طريقة خصوص وعموم، لِمَا فِيهِ مِنَ الْمُبَالِغَةِ، وَجَعَلَ «الذَّرِّيَّةَ» كأنها محلٌّ للصَّلاح» (٢).

قوله: (وَقُرِي: «يَتَقَبَّلُ» و«يَتَجَاوَزُ» بفتح الباء): شاذة، قال الزجاج: «وهي جائزة، ولا أعلم أحداً قرأ بها» (٣)، وقرأ حفص وحزمة والكسائي: ﴿نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ﴾ بالنون فيها مفتوحة، ونَضْبٍ ﴿أَحْسَنَ﴾، والباقون: بالياء مضمومةً فيهما، ورفع «أحسن» (٤).

(١) البيت لذي الرُّمة، كما في «ديوانه» ص ٥٧٥. ولم يُثَمِّه المُولِّفُ رحمه الله تعالى، فوضعتُ النقاط إشارةً إلى ذلك، لا للدلالة على الحذف.

وانظر ما تقدّم تعليقا عند تفسير الآية ٥٧ من سورة الأنفال (٧: ١٣٧).

(٢) «الأمالي النحوية» لابن الحاجب (١: ١٣٠-١٣١).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤: ٤٤٣).

(٤) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٩، و«حجة القراءات» ص ٦٦٤.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾؟ قلت: هو نحو قولك: أكرمني الأمير في ناسٍ من أصحابه، تُريد: أكرمني في جملة من أكرم منهم، ونظمني في عدادهم، ومحلّه النَّصْبُ على الحال، على معنى: كائنين في أصحاب الجنة ومعدودين فيهم.

﴿وَعَدَّ الصِّدِّيقُ﴾ مصدرٌ مؤكَّد؛ لأنَّ قوله: ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾: وَعَدَّ مِنَ اللَّهِ تعالى لهم بالتَّقَبُّلِ والتَّجَاوُزِ. وقيل: نزلت في أبي بكرٍ رضي الله عنه، وفي أبيه أبي قحافة، وأمّه أمُّ الخير، وفي أولاده، واستجابة دعائه فيهم. وقيل: لم يكن أحدٌ من الصحابة، من المهاجرين منهم والأنصار، أسلم هو ووالداه وبنوه وبناته غير أبي بكر.

[﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفِي لَكُمْ أَنْتَ أَنْتَ أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهَذَا يَسْتَفِيئَانِ اللَّهُ وَبِكَ ءَامِنَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِغِيرُ الْأَوْلِيَيْنِ * أَوْلِيَتِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْيَمِينِ وَالْإِنْسِ إِنْتُمْ كَانُوا خَيْرِينَ﴾ ١٧-١٨]

﴿وَالَّذِي قَالَ﴾ مُبْتَدَأٌ خَبْرُهُ: ﴿أَوْلِيَتِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾، والمراد به الذي قال: الجنس القائل ذلك القول، ولذلك وَقَعَ الخبرُ مجموعاً.....

قوله: (لأنَّ قوله: ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾: وَعَدَّ مِنَ اللَّهِ تعالى): الراغب: «التَّقبُّلُ: قَبُولُ الشَّيْءِ عَلَى وَجْهِ يَقْضِي ثَوَاباً كَالْمُهْدِيَةِ وَنَحْوِهَا»^(١)، وقال الواحدي ومجيب السُّنة: «الأحسن: بمعنى: الحسن»^(٢)، وقال القاضي: ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ يعني: طاعتهم، فإنَّ المَبَاحَ حَسَنٌ وَلَا يُثَابُ عَلَيْهِ»^(٣).

قوله: (المراد به الذي قال): الجنس القائل ذلك القول، ولذلك وَقَعَ الخبرُ مجموعاً): الانتِصاف: «وفي الآية رَدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمُفْرَدَ الْجِنْسِيَّ لَا يُعَامَلُ مُعَامَلَةَ الْجَمْعِ، لَا فِي الصِّفَةِ، وَلَا فِي الْخَبَرِ، فَلَا يُقَالُ: الدِّينَارُ الصُّفْرُ خَيْرٌ مِنَ الدَّرْهِمِ الْبَيْضِ»^(٤).

(١) مفردات القرآن ص ٦٥٣.

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٧: ٢٥٨)، و«الوسيط» للواحدي (٤: ١٠٨).

(٣) أنوار التنزيل للبيضاوي (٥: ١٨١).

(٤) الانتصاف (٣: ٥٢٢) بحاشية «الكشاف».

وعن الحسن: هو في الكافر العاق لوالديه المكذب بالبعث. وعن قتادة: هو نعت عبد سوء عاق لوالديه فاجر لربه. وقيل: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه، وقد دعاه أبوه أبو بكر وأمه أم رومان إلى الإسلام، فأفف بها، وقال: ابعثوا لي جدعان ابن عمرو وعثمان بن عمرو، وهما من أجداده، حتى أسألها عما يقول محمد.

ويشهد لبطلانه أن المراد به «الذي قال»: جنس القائلين ذلك، وأن قوله: ﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾: هم أصحاب النار، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم، وعن عائشة رضي الله عنها إنكار نزولها فيه، وحين كتبت معاوية إلى مروان بأن يبايع الناس ليزيد، قال عبد الرحمن: لقد جئتم بها هرقلية، تبايعون لأبنائكم، فقال مروان: يا أيها الناس، هو الذي قال الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَدِيهِ أُنِى لَكُمْ﴾، فسَمِعَت عائشة، فغضبت، وقالت: والله ما هو به، ولو شئت أن أسميه لسميته، ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه، فأنت فضض من لعنة الله.

قلت: يمكن أن يرد هذا قول صاحب «المفتاح» حيث قال: «امتنع لوجوه كثيرة لا تخفى على متقني أنواع الأدب، أدناها: وجوب نحو: الرُّجُلُ الطَّوَالُ، والفرسُ الدُّهُمُ، أو صحته لا أقل، على الاطراد، وكل ذلك على ما ترى فاسد»^(١).

قوله: (وعن عائشة رضي الله عنها إنكار نزولها فيه): عن البخاري^(٢) عن يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز، استعمله معاوية، فخطب، فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنها شيئاً، فقال: فخذوه، فدخل بيت عائشة رضي الله عنها، فلم يقدروا عليه، فقال مروان: هذا الذي أنزل الله تعالى فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَدِيهِ أُنِى لَكُمْ﴾، فقالت عائشة رضي الله عنها من وراء الحجاب: «ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا ما أنزل في سورة النور من براءتي».

(١) «مفتاح العلوم» للسكاكي ص ٢١٥.

(٢) في «صحيحه» برقم (٤٨٢٧).

وَقُرِي: «أَفْ»: بِالكَسْرِ وَالْفَتْحِ بغير تنوين، بالحركاتِ الثلاثِ مَعَ التَّنوينِ، وهو صَوْتُ إِذَا صَوَّتَ بِهِ الْإِنْسَانُ عِلْمَ أَنَّهُ مُنْضَجَّرٌ، كما إِذَا قَالَ: حَسَّ، عُلِمَ مِنْهُ أَنَّهُ مُتَوَجِّعٌ. واللامُ لِلْيَمانِ، معناه: هذا التَأْفِيفُ لَكِما خَاصَّةٌ، ولأَجْلِ كِما دونَ غيرِ كِما.

وَقُرِي: ﴿أَتَعِدَانِي﴾ بِنُونِينِ، و«أَتَعِدَانِي» بأحدِهما، و«أَتَعِدَانِي» بالإدغام،

النهاية: «قال عبد الرحمن: «أَجِئْتُ بِهَا هِرْقَلِيَّةً وَقُوْقِيَّةً!»، أراد: أَنَّ الْبَيْعَةَ لِلأَوْلادِ الْمُلُوكِ سُنَّةٌ مَلُوكِ الرُّومِ وَالْعَجَمِ، وَهِرْقُلُ: اسْمُ مَلِكِ الرُّومِ»، و«قالت عائشة رضي الله عنها لمروان: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَعَنَ أَبَاكَ، وَأَنْتَ فَضَضَ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ»، أي: قِطْعَةٌ وَطائِفَةٌ مِنْهَا»^(١).

قُوقُ: اسْمُ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الرُّومِ، قَالَ فِي «الْفَائِقِ»: «هِرْقُلُ: كَانَ مِنْ مُلُوكِ الرُّومِ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ ضَرَبَ الدِّنانيرَ، وَأَوَّلُ مَنْ أَحْدَثَ الْبَيْعَةَ، يُرِيدُ: أَنَّ الْبَيْعَةَ لِلأَوْلادِ مِنْ عَادَتِهِمْ. الْفَضَضُ: فَعَلٌ بِمَعْنَى: مَفْعُولٌ مِنْ: فَضَّ: إِذَا كَسَرَ، أَي: أَنْتَ طائِفَةٌ مِنَ اللَّعْنَةِ فَضَضْتَ مِنْهَا، وَرَوَى: فَضِيزُ وَفَضُضُ، وَالْفَضُضُ: جَمْعُ فَضِيزِ، وَهُوَ الْمَاءُ الْعَرِيزُ، افْتَضَضْتُ الْمَاءَ: أَخَذْتَهُ سَاعَةً يَخْرُجُ، كَوَرْدِ جَنِيِّ، وَصَبِيٍّ وَلَيْدِ، أَي: قَرِيبِي الْعَهْدِ مِنَ الْجَنِيِّ وَالوِلادَةِ، أَي: سُلِّتَ مِنَ اللَّعْنَةِ حَدِيثَ عَهْدِهَا»^(٢).

قوله: (وَقُرِي: «أَفْ» بِالكَسْرِ وَالْفَتْحِ): نافعٌ وَحَفْصٌ: ﴿أَفْ﴾ بِالتَّنوينِ وَكسْرِ الفاءِ، وابنُ كَثيرٍ وابنُ عامرٍ: بِفَتْحِ الفاءِ مِنْ غيرِ تَنوينِ، والباقونَ: بِكسْرِ الفاءِ مِنْ غيرِ تَنوينِ^(٣).

قوله: (وَقُرِي: ﴿أَتَعِدَانِي﴾): هشامٌ: «أَتَعِدَانٌ» بِنُونِ واحِدَةٍ مُشَدَّدةً، والباقونَ: بِنُونِينِ مَكسُورَتَينِ^(٤)، قال الزَّجَّاجُ: «وَيَجُوزُ «تَعِدَانِي» بِالإدغامِ، وَإِنْ شِئتَ أَظْهَرْتَ التَّنوينِ، وَإِنْ شِئتَ

(١) ما نقله المؤلَّفُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى عَنْ «النهاية»، هو فِيهِ فِي أَكثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ، فَالأوَّلُ فِي (٤: ١٢٢) وَ(٥: ٢٦٠)، والثاني فِي (٣: ٤٥٤).

(٢) «الْفَائِقِ» لِلزَّمخَشَرِيِّ (٣: ٣٩٨-٣٩٩)، مَادَةٌ (هِرْقُل).

(٣) انظر: «التيسير» لِلدَّانِي ص ١٣٩، وَ«حِجَّةُ القِراءاتِ» ص ٣٩٩.

(٤) انظر: «التيسير» لِلدَّانِي ص ١٩٩.

وقد قرأ بعضهم: «أتعدانني» بفتح النون، كأنه استقل اجتماع النونين والكسرتين والياء، ففتح الأولى تحريياً للتخفيف، كما تحراه من أدغم، ومن أطرح أحدهما، «أن أخرج» أن أبعث وأخرج من الأرض، وقرئ: «أخرج».

﴿وَقَدْ حَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ يعني: ولم يبعث منهم أحد، ﴿سَتَعْيِثَانِ اللَّهَ﴾ يقولان: الغيath بالله منك ومن قولك، وهو استعظام لقوله، ﴿وَيْلَكَ﴾ دعاء عليه بالشبور، والمراد به الحث والتحريض على الإيثار، لا حقيقة الهلاك.

﴿فِي أَمْرٍ﴾: نحو قوله: ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ [الأحقاف: ١٦]. وقرئ: «أن» بالفتح، على معنى: آمن بأن وعد الله حق.

[﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوقِبَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ١٩]

﴿وَلِكُلِّ﴾ من الجنسين المذكورين ﴿دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي: منازل ومراتب من جزاء ما عملوا من الخير والشر، ومن أجل ما عملوا منها. فإن قلت: كيف قيل: ﴿دَرَجَةٍ﴾، وقد جاء: «الجنة درجات، والنار دركات»؟ قلت: يجوز أن يقال ذلك على وجه التغليب؛ لاشتغال «كُلِّ» على الفريقين.

أسكنت الياء، وإن شئت فتحتها، ورويت عن بعضهم: «أتعدانني» بالفتح، وذلك لحن لا وجه له، فلا تقرأن به؛ لأن فتح نون الاثنين خطأ، وإن حكيت في شدوذ، فلا تحمل القراءة على الشذوذ^(١).

قوله: ﴿وَيْلَكَ﴾ دعاء عليه بالشبور، والمراد به الحث: قالوا: الويل: بمعنى الهلاك، ودلالته على الحث على الفعل من حيث إن فيه إشعاراً بأن ما هو مرتكب له: حقيق بأن يهلك مرتكبه^(٢)، وأن يطلب له الهلاك، فإذا سمع ذلك كان باعثاً على تزيه.

قوله: (على وجه التغليب؛ لاشتغال «كُلِّ» على الفريقين): جعل مصحح التغليب لفظ

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤: ٤٤٣).

(٢) في (ح) و(ف): «مرتكب»، والمثبت من (ط).

«كُلُّ»؛ لاشتياؤه على فريق المؤمنين الذين لهم الدرجات، وفريق الكافرين أصحاب الدرجات، والمراد بالفريقين ما ذكرهما في قوله، والظاهر أن أحد الجنسين ما دل عليه قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا﴾ [الأحقاف: ١٣]، والآخر قوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفِي لَكُمْ مَا أَتَعَدَّ إِنِّي أَنْ أُخْرَجَ﴾ [الأحقاف: ١٧]، إذ ليس مما يقرب ذكره ويصلح لذلك غيرهما.

وأما تقرير التغليب: فهو أنه تعالى لَمَّا ذكر الفريق الأول، ووصفهم بثبات في القول، واستقامة في الفعل، ورَتَّبَ عليه جزاءهم، وأوقع قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ [الأحقاف: ١٥] استطراداً في البين، وعَقَّبَ ذلك بذكر فريق الكافرين، ووصفهم بعقوق الوالدين، وبإنكارهم البعث، وجعل العقوق أصلاً في الاعتبار وكرَّر في القسم الأول الجزاء، وهو ذكر الجنة مراراً ثلاثاً، وأفرَد جزاء الكافر^(١)، وهو ذكر النار، وأخره بعد ذكر ما يجمعهما من قوله: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ﴾، غَلَّبَ «الدرجات» على «الدرجات» لذلك.

وفيه: أن لا شيء أعظم من التوحيد والثبات عليه، ثم برَّ الوالدين والإحسان إليهما، ولا شيء أفحش من عقوق الوالدين وإنكار الحشر، وفي إيقاع إنكار الحشر مقابلاً لإثبات التوحيد؛ الدلالة على أن المنكر معطل مبطل لحكمة الله في إيجاد العالم.

وهذا الترتيب الأفيق، والنظم الرصين: يُوقِفُكَ عَلَى صَعْفِ قَوْلٍ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْآيَةَ فِي حَقِّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، روى محيي السنة عن الزجاج أنه قال: «قَوْلٌ مَنْ قَالَ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَبْلَ إِسْلَامِهِ: يُبْطِلُهُ قَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ الآية، لأنه تعالى أَعْلَمَ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ، فَلَا يَكُونُ مَمَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ»^(٢).

(١) من قوله: «وكرر في القسم الأول» إلى هنا سقط من (ف)، وأثبت من (ط)، وورد في (ح) بعضه محرّفاً، ففيها: «ذكر في القسم الأول الجزاء» فقط.

(٢) «معالم التنزيل» للبخاري (٧: ٢٥٩)، وانظر: «معاني القرآن وإعراجه» للزجاج (٤: ٤٤٤).

﴿وَلِيُؤْفِقَهُمْ﴾ - وقرئ: بالنون - تعليلٌ مُعلَّلهُ محذوفٌ لدلالةِ الكلامِ عليه، كأنه قيل: وليؤفِقَهُم أعمالَهُم ولا يظلمَهُم حُقوقَهُم قَدَرَ جَزَائِهِم على مقاديرِ أعمالِهِم، فجَعَلَ الثوابَ دَرَجَاتٍ، والعِقَابَ دَرَكَاتٍ.

[﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدَهَبَتُمْ طَيْبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْرُونَ عَذَابَ أَلْهُونٍ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [٢٠]

نَاصِبُ الظَّرْفِ هو القولُ المُضْمَرُ قَبْلَ ﴿أَدَهَبَتُمْ﴾، وعَرَضَهُم على النار: تعذيبُهُم بها؛ مِنْ قَوْلِهِم: عَرَضَ بنو فلانٍ على السَّيفِ؛ إِذَا قَتَلُوا به، ومنه قولُه تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ [غافر: ٤٦]، ويجوزُ أن يُراد: عَرَضَ النارِ عليهم؛ مِنْ قَوْلِهِم: عَرَضْتُ الناقةَ على الحوضِ، يُريدون: عَرَضَ الحوضِ عليها، فقلِّبوا. ويَدُلُّ عليه تفسيرُ ابنِ عباسٍ: يُجاءُ بهم إليها فيُكشَفُ لهم عنها.

قوله: ﴿﴿وَلِيُؤْفِقَهُمْ﴾ وقرئ بالنون): ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو وعاصمٌ وهشامٌ: بالياء، والباقون: بالنون^(١).

قوله: (ويجوزُ أن يُراد: عَرَضَ النارِ عليهم؛ مِنْ قَوْلِهِم: عَرَضْتُ الناقةَ على الحوضِ، يُريدون: عَرَضَ الحوضِ عليها): الانتِصافُ: «إن كان «عَرَضْتُ الناقةَ على الحوضِ» مقلوباً، فعَرَضَ الذينَ كَفَرُوا على النارِ ليس مقلوباً؛ لأنَّ الحوضَ جمادٍ لا إدراكَ له، والناقةُ هي المُدْرِكَةُ، وأما النارُ فقد وَرَدَ أنها مُدْرِكَةٌ إدراكَ أُولي العِلْمِ، فهو كقولك: عَرَضْتُ الأَسْرَى على الأميرِ»^(٢).

وقلت: عَرَضْتُ الناقةَ على الحوضِ: مِنَ القَلْبِ المقبولِ الذي نُزِّلَ فيه الحوضُ منزلةَ المُدْرِكِ، أنشَدَ المُصَنِّفُ رحمه الله تعالى:

إذا ما استَحْيَنَ الماءَ يَعْرِضُ نَفْسَهُ
كَرَعْنَ بِسَبَبِ فِي إِنْاءٍ مِنَ الوَرْدِ^(٣)

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٩، و«حجة القراءات» ص ٦٦٥.

(٢) «الانتصاف» (٣: ٥٢٣) بحاشية «الكشاف».

(٣) أنشده الزمخشري في تفسير الآية ٢٦ من سورة البقرة (٢: ٣٨٣).

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾ أي: ما كُتِبَ لَكُمْ حَظٌّ مِنَ الطَّيِّبَاتِ إِلَّا مَا قَدْ أَصَبْتُمُوهُ فِي دُنْيَاكُمْ، وَقَدْ ذَهَبْتُمْ بِهِ وَأَخَذْتُمُوهُ، فَلَمْ يَبْقَ لَكُمْ بَعْدَ اسْتِيفَاءِ حَظِّكُمْ شَيْءٌ مِنْهَا. وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ شِئْتُ لَدَعَوْتُ بِصَلَاتِي وَصِنَابِي وَكَرَاكِرِي وَأَسْنِمَةَ،

وقال أبو العلاء:

إِذَا اشْتَاقَتِ الْخَيْلُ الْمَنَاهِلَ أَعْرَضَتْ عَنِ الْمَاءِ فَاشْتَاقَتْ إِلَيْهَا الْمَنَاهِلُ

أَلَا تَرَى كَيْفَ أَتْبَعَ - الْأَوَّلُ (١) - عَرَضَ الْمَاءِ نَفْسَهُ قَوْلَهُ: «إِنَاءٌ مِنَ الْوَرْدِ»، وَالثَّانِي: صُرِّحَ بِالاشْتِيَاقِ لِمَا فِي وُرُودِهَا الْمَنَاهِلَ تَرْتِيبًا بِجَمَاهِلِهَا، بِخِلَافِهَا إِذَا تُرِكَتْ غَيْرَ وَاِرْدَةٍ، كَذَلِكَ هُوَ لِأَنَّ الْكُفَّارَ بَلَغَ عِنَادَهُمْ وَتَصْمِيمَهُمْ إِلَى أَنْ جَهَنَّمَ تَسْتَعْرِضُ قُرْبَانَتَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

قوله: (بِصَلَاتِي وَصِنَابِي): وَيُرْوَى: «بِصَلَاةٍ وَصِنَابٍ»، الصَّلَاةُ؛ مِنْ صَلَاةٍ: كَالشَّوَاءِ؛ مِنْ شَوَاهٍ، النَّهْيَاةُ: «فِي حَدِيثِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَمَا - وَاللَّهِ - مَا أَجْهَلُ عَنِ كَرَائِرِ وَأَسْنِمَةَ، وَلَوْ شِئْتُ لَدَعَوْتُ بِصَلَاتِي (٢) وَصِنَابِي وَصَلَاتِي»: الصَّلْفُ: هُوَ الْعُلُوُّ فِي الظَّرْفِ، وَالزِّيَادَةُ عَلَى الْمِقْدَارِ، مَعَ تَكْبُرٍ. وَالصَّلَاتِقُ: الرَّقَاقُ، وَاحِدُهَا: صَلِيقَةٌ، وَقِيلَ: هِيَ الْحِمْلَانُ الْمَشْرُوبَةُ؛

= وَالْبَيْتُ لِأَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّيِّ، كَمَا فِي «دِيوانه» (٢: ١٠٥٦ بشرح الواحدي)، وَالضَّمِيرُ فِي «اسْتَحْيَنَ» لِلْإِبِلِ، قَالَ الْوَاحِدِيُّ فِي «شَرْحِهِ» (٢: ١٠٦٠): «فَسَّرَ أَنَّ الْإِبِلَ اسْتَحْيَتِ الْمَاءَ لِكثْرَةِ عَرَضِ نَفْسِهِ عَلَيْهَا، ذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا مَرَّتْ هَذِهِ الْإِبِلُ بِالْمِيَاهِ الَّتِي غَادَرَتْهَا السُّيُولُ، فَلِكثْرَتِهَا صَارَتْ كَأَنَّهَا تَعْرِضُ أَنْفُسَهَا عَلَى الْإِبِلِ، فَتَشْرَبُ مِنْهَا كَأَنَّهَا مُسْتَحْيِيَةٌ مِنْهَا لِكثْرَةِ عَرَضِهَا نَفْسِهَا عَلَيْهَا، وَإِنْ كَانَ لَا عَرَضَ هُنَاكَ وَلَا اسْتِحْيَاءَ فِي الْحَقِيقَةِ، وَلَكِنَّهُ جَرَى مَثَلًا».

(١) أي: في الأول.

(٢) كَذَا فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ، وَفِي «النَّهْيَاةِ» (٣: ٤٨)، مَادَةٌ (صَلِقُ): «بِصَلَاةٍ وَصِنَابٍ وَصَلَاتِي»، فَكَانَهُ وَقَعَ فِي نَسْخَةِ الْمُؤَلَّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ «النَّهْيَاةِ» تَحْرِيفًا، فَتَابَعَهُ الْمُؤَلَّفُ وَزَادَ عَلَيْهِ أَنْ نَقَلَ تَفْسِيرَ «الصَّلْفِ» مِنْ مَادَتِهِ.

وَسَائِرُ الْكَلَامِ الْمَنْقُولِ مِنَ «النَّهْيَاةِ» لَيْسَ هُوَ فِيهَا فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ، بَلْ جَمَعَهُ الْمُؤَلَّفُ مِنْ مَوَاضِعٍ مُتَفَرِّقَةٍ، أَنْظَرَ الْمَوَادَّ (صَلِقُ) وَ(صِنَابُ) وَ(كَرَكَرُ).

ولكني رأيتُ اللهَ نَعَى على قوم طيباتهم، فقال: أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا»، وعنه: «لو شئتُ لكنتُ أطيبكم طعاماً، وأحسنكم لباساً، ولكني أستبقي طيباتي».

وعن رسول الله ﷺ: «أنه دَخَلَ على أهل الصُّفَّة، وهم يَرَقَعُونَ ثيابهم بالأدَم، ما يَجِدُونَ لها رِقاعاً، فقال: أنتم اليوم خيرٌ أم يومَ يَغْدُو أحدكم في حُلَّة، ويروح في أخرى، ويُغْدِي عليه بجفنة، ويروح عليه بأخرى، ويُستَرُ بيته كما تُستَرُ الكعبة؟ قالوا: نحنُ يومئذٍ خير، قال: بل أنتم اليوم خير».

وقرئ: «أذهبتم» بهمزة الاستفهام، و«أذهبتم» بالفاء بين هزمتين.

من: صَلَفَتُ الشاة: إذا شَوَيْتَها، ويروى بالسَّين، وهو ما سُلِقَ مِنَ البُقُولِ وغيرها، والصَّناب: الخَرْدَلُ المَعْمُولُ بالزَّيْت، وهو صِبَاغٌ يُوتَدَّمُ به، والكِرْكِرَة - بالكسر - زَوْرُ البعير الذي إذا بَرَكَ أَصَابَ الأرض، وجمعها: كَرَاكَر، يُريد: إحضارها للأكل؛ لأنها من أطيب ما يؤكَل مِنَ الإبل.

قوله: (بل أنتم اليوم خير): أي: حالتكم اليوم أنفع لكم في الدين، مما إذا فُتِحَ عليكم البلاد، واستغنيتم، وروينا في «مُسْنَدِ الإمام أحمد بن حنبل»^(١) عن معاوية: أنه دَخَلَ على خاله أبي هاشم بن عتبة يَعودُه، فبكى أبو هاشم، فقال: ما يبكيك يا خال، أوجعاً يُشِيرُك أم حزماً على الدنيا؟ فقال: فكلاً لا، ولكن رسولَ الله ﷺ عهدَ إلينا وقال: «لَعَلَّكَ تُدْرِكُ أموالاً يُؤْتَاهَا أقوام، وإنما يكفيك من جميع المالِ خادِمٌ ومَرْكَبٌ في سبيلِ الله»، وإني أراي قد جمعت.

وفي «صحيح البخاري»^(٢) عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: «أبي عبد الرحمن ابنُ عوفٍ بطعام، وكان صائماً»، فساقَ الحديدَ إلى قوله: «قد بُسِطَ للناسِ مِنَ الدنيا ما بُسِط، ولقد خَشِيتُ أن عَجَلْتُ لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا، ثم جعلَ يبكي حتى تركَ الطعام».

قوله: (وقرئ: «أذهبتم» بهمزة الاستفهام): ابنُ ذُكْوَانَ: «أذهبتم» بهمزتين مُحَقَّقَتَيْنِ مِنْ غير مَدٍّ، وابنُ كثيرٍ وهشامٌ أطولُ مَدًّا على أصله، والباقون: بهمزة واحدةٍ مِنْ غير مَدٍّ على الخبر^(٣).

(١) برقم (١٥٦٦٤).

(٢) برقم (١٢٧٤) و(١٢٧٥) و(٤٠٤٥).

(٣) انظر: «التيسير» للداني ص ١٩٩، و«حجة القراءات» ص ٦٦٥.

﴿الهُون﴾: الهوان، وقرئ: «عذاب الهوان»، وقرئ: ﴿نَفْسُونَ﴾ بضم السين وكسرها. [وَأَذْكَرَ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ، بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾]

الأحقاف: جمع حقف، وهو زمّل مُسْتطِيلٌ مُرْتَفِعٌ فِيهِ انْحِنَاءٌ؛ مِنْ: احقَوْقَفَ الشَّيْءُ: إِذَا اعْوَجَّ، وَكَانَتْ عَادُ أَصْحَابِ عَمَدٍ، يَسْكُنُونَ بَيْنَ رِمَالٍ، مُشْرِفِينَ عَلَى الْبَحْرِ، بِأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا: الشُّحْرُ، مِنْ بِلَادِ الْيَمَنِ. وَقِيلَ: بَيْنَ عُمَانَ وَمَهْرَةَ.

و﴿النُّذُرُ﴾ جمع نذير، بمعنى: المُنْذِرُ أَوْ الْإِنْذَارُ، ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ مِنْ قَبْلِهِ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ وَمِنْ بَعْدِهِ. وقرئ: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ بَعْدِهِ﴾، والمعنى: أَنْ هُوَذَا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَنْذَرَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ: لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ الْعَذَابَ. وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ الرُّسُلَ الَّذِينَ بُعِثُوا قَبْلَهُ وَالَّذِينَ سَيُبْعَثُونَ بَعْدَهُ كُلَّهُمْ مُنْذِرُونَ نَحْوَ إِنْذَارِهِ.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: يعني الرُّسُلَ الَّذِينَ بُعِثُوا قَبْلَهُ وَالَّذِينَ بُعِثُوا فِي زَمَانِهِ. ومعنى ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ على هذا التفسير: وَمِنْ بَعْدِ إِنْذَارِهِ. هَذَا إِذَا عَلَّقْتَ ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ﴾ بقوله: ﴿أَنْذَرَ قَوْمَهُ﴾،

قوله: (وقرئ: ﴿نَفْسُونَ﴾ بضم السين وكسرها): الضم: السبعة، والكسر: شاذ.

قوله: (هذا إذا علقت ﴿وقد خلت النذُر﴾ بقوله: ﴿أنذر قومه﴾): يعني: يحتمل أن يكون ﴿وقد خلت النذُر من بين يديه﴾ حالاً، وأن يكون معترضةً بين المُفسِّر والمُفسَّر، قال القاضي: «أي: لا تعبدوا، فإن النهي عن الشيء إنذارٌ عن مَضَرَّتِهِ، فعلى أن يكون حالاً^(١) ينبغي أن يُقدَّرَ للقوم العِلْمُ بِمُقْتَضَى الْحَالِ؛ لِيَدْخُلَ تَحْتَ الْإِنْذَارِ وَيُفِيدَ الْإِعْتِبَارَ، إِمَّا بِتَعْلِيمِ هُوْدٍ إِيَّاهُمْ قَطْعاً؛ إِذَا أُرِيدَ بِ«مَنْ خَلْفَهُ»: الَّذِينَ سَيُبْعَثُونَ بَعْدَهُ، أَوْ أَنَّهُمْ شَاهَدُوا ذَلِكَ وَعَلِمُوا؛ إِذَا أُرِيدَ بِهِمُ الَّذِينَ بُعِثُوا فِي زَمَانِهِ وَأَنْذَرُوا بَعْدَهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَحْصَلَ لَهُمُ الْعِلْمُ بِذَلِكَ بِالتَّعْلِيمِ، وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمُوتًا﴾ [البقرة: ٢٨]، أي: أَتُكْفِرُونَ وَالْحَالُ أَنْكُمْ عَالِمُونَ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ!؟

(١) من قوله: «وأن يكون معترضةً إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

وَلَكَّ أَنْ تَجْعَلَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ اعْتِرَاضاً بَيْنَ ﴿أَنْذَرَ قَوْمَهُ﴾ وَبَيْنَ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾، وَيَكُونُ الْمَعْنَى: وَادْكُرْ إِذْ نَادَرَ هُوِدَ قَوْمَهُ عَاقِبَةَ الشُّرْكِ وَالْعَذَابِ الْعَظِيمِ، وَقَدْ أَنْذَرَ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الرُّسُلِ وَمَنْ تَأَخَّرَ عَنْهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَادْكُرْهُمْ.

[﴿قَالُوا أَحِثَّنَا نَلَأُفَكَانًا عَنْ ءَاهِنَتِنَا فَأَيْنَمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [٢٢]

الإفك: الصِّرف، يُقال: أَفَكَهُ عَنْ رَأْيِهِ، ﴿عَنْ ءَاهِنَتِنَا﴾ عَنْ عِبَادَتِهَا، ﴿بِمَا تَعِدُنَا﴾ مِنْ مُعَاجَلَةِ الْعَذَابِ عَلَى الشُّرْكِ، ﴿إِنْ كُنْتَ﴾ صَادِقًا فِي وَعْدِكَ.

[﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِنُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ [٢٣]

فإن قلت: من أين طابق قوله: ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾

والحال يجوز أن يكون من فاعل ﴿أَنْذَرَ﴾، أي: أَنْذَرَ قَوْمَهُ مُعَلِّمًا إِذْ نَادَرَ الرُّسُلَ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ، أَوْ مِنْ مَفْعُولِهِ، أَي: أَنْذَرَهُمْ وَهُمْ عَالِمُونَ بِإِنْدَارِ سَائِرِ الرُّسُلِ؛ إِمَّا بِالْمُشَاهَدَةِ أَوْ بِتَعْلِيمِهِ إِيَّاهُمْ.

وعلى أن تكون مُعْتَرِضَةً: الْمَعْنَى: اذْكُرْ - يَا مُحَمَّدُ - إِذْ نَادَرَ هُوِدَ قَوْمَهُ عَاقِبَةَ الشُّرْكِ وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَادْكُرْ أَيْضًا أَنَّهُ قَدْ أَنْذَرَ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الرُّسُلِ، وَمَنْ تَأَخَّرَ عَنْهُ مِثْلَ ذَلِكَ الْإِنْدَارِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «فَادْكُرْهُمْ»، وَإِنَّمَا كَرَّرَ «ادْكُرْ» لِأَنَّ كُلًّا مِنَ الْمُعْتَرِضِ وَالْمُعْتَرِضِ فِيهِ مُسْتَقْلَانِ فِي الْقَصْدِ، بِخِلَافِ الْحَالِ.

وأما قوله: «ومعنى: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ على هذا التفسير»: فإشارة إلى تفسير ابن عباس؛ لِأَنَّ ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ إِذَا فُسِّرَ بِالَّذِينَ بُعِثُوا فِي زَمَانِهِ: يَصِحُّ أَنْ يَقَعَ إِذْ نَادَرَ بَعْضَهُمْ بَعْدَ إِذْ نَادَرَهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ خَلَّتْ﴾ - عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ - جَاءَ بِلَفْظِ الْمَاضِي، وَالْمُرَادُ: الَّذِينَ سَبِعْتُونَ، عَلَى سَنَنِ الْإِخْبَارِ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ بِالْمَاضِي تَحْقِيقًا لَهُ.

قوله: (من أين طابق): تَحْرِيرُ السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ: كَانَهُمْ قَالُوا: أَجِئْنَا لِتَصْرِفِنَا عَنْ آهِنَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا مِنْ نَزُولِ الْعَذَابِ، فَمَتَى هَذَا الْوَعْدُ؟ فَأْتِنَا بِالْمَوْعُودِ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا. فَأَجِيبُوا: إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ لَا يَأْتِيهِ لَوْ قَبْلَهُ إِلَّا هُوَ، فَكَيْفَ آتَيْكُمْ بِهِ - كَمَا قَالَ - ؟

جواباً لقولهم: ﴿فَأَيْنَا يَمَّا تَعْدُنَا﴾؟ قلت: من حيث إنَّ قولهم هذا استعجالٌ منهم بالعذاب، ألا ترى إلى قوله: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، فقال لهم: لا علمَ عندي بالوقت الذي يكون فيه تعذيبكم حكمةً وصواباً، إنما علمُ ذلك عند الله، فكيف أدعوه بأن يأتيكم بعذابه في وقتٍ عاجلٍ تقتَرِحُونَهُ أنتم؟

ومعنى ﴿وَأَبْلَغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ - وقرئ بالتخفيف -: أن الذي هو شأني وشرطي أن أبلغكم ما أرسلت به من الإنذار والتخويف والصرف عما يعرضكم لسخط الله بجهدي، ولكنكم جاهلون لا تعلمون أن الرُّسل لم يُبعثوا إلا مُنذرين، لا مُقتَرِحين، ولا سائلين غير ما أُذن لهم فيه.

[﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرٌ أَبْلٌ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ٢٤-٢٥]

قوله: (حكمةً وصواباً): مفعولٌ له، أي: ما أعلمني الله ذلك إلا لحكمة يعلمها الله، ومصالح لا أعلمها.

قوله: (وقرئ بالتخفيف): أي: «أبلغكم»، بالتخفيف: أبو عمرو، والباقون: بالتشديد^(١).
قوله: (أن الذي هو شأني وشرطي): خبر، والمبتدأ هو: «معنى»، وقوله: «قرئ بالتخفيف» اعتراض، وقوله: «لا مُقتَرِحين ولا سائلين» بعد قوله: «لم يُبعثوا إلا مُنذرين»: نحو: ما زيد إلا قائمٌ لا قاعد، وقد منعه^(٢) صاحبُ «المفتاح»^(٣)، وفيه إيدانٌ بأنَّ قوله: ﴿إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَبْلَغُكُمْ﴾ جوابٌ عن قوله: ﴿أَجِئْنَا لِنَأْفِكَنَّا عَنْ آٰلِهِنَا فَأَيْنَا يَمَّا تَعْدُنَا﴾، وخُلاصته: أن إتيان العذاب ليس إليّ، وأن الذي عليّ وأنا مأمورٌ به: تبليغ ما أرسلت به.

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ١١١، و«حجة القراءات» ص ٢٨٦.

(٢) في (ط): «تبعه»، والمثبت من (ح) و(ف)، وهو الصواب.

(٣) انظر: «مفتاح العلوم» للسكاكي ص ٢٩٣.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ في الضمير وَجْهَان: أَنْ يَرْجِعَ إِلَى ﴿مَا تَعَدْنَا﴾، وَأَنْ يَكُونَ مُبْهَمًا قَدْ وُضِّحَ أَمْرُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿عَارِضًا﴾ إما تمييزاً وإما حالاً، وهذا الِوَجْهُ أَعْرَبُ وَأَفْصَحُ، وَالْعَارِضُ: السَّحَابُ الَّذِي يَعْرِضُ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ، وَمِثْلُهُ: الْحَيِيُّ وَالْعَنَانُ؛ مَنْ: حَبَا وَعَنَ: إِذَا عَرَضَ. وَإِضَافَةُ «مُسْتَقْبِلٍ» وَ«مُطِرٍ» مَجَازِيَةٌ غَيْرُ مُعْرَفَةٍ، بِدَلِيلِ وَقُوعِهِمَا - وَهُمَا مُضَافَانِ إِلَى مَعْرِفَتَيْنِ - وَصَفَاً لِلنَّكْرَةِ.

﴿بَلْ هُوَ﴾ قَوْلٌ قَبْلَهُ مُضْمَرٌ، وَالْقَائِلُ: هُوْدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالِدَلِيلُ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: «قَالَ هُوْدُ: بَلْ هُوَ»، وَقُرِي: «قُلْ: بَلْ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ هِيَ رِيحٌ»، أَي: قَالَ اللهُ: قُلْ.

قوله: (أَعْرَبُ وَأَفْصَحُ): لِمَا فِيهِ مِنَ الْبَيَانِ بَعْدَ الْإِبْهَامِ، وَالْإِيضَاحِ غِبِّ التَّعْمِيَةِ^(١).

قوله: (الْحَيِيُّ): الْجَوْهَرِيُّ: «الْحَيِيُّ: السَّحَابُ الَّذِي يَعْتَرِضُ اعْتِرَاضَ الْجَبَلِ قَبْلَ أَنْ يُطَبِّقَ السَّمَاءَ».

قوله: (وَالْقَائِلُ: هُوْدُ، وَالِدَلِيلُ عَلَيْهِ): هَذَا يُشْعِرُ بِأَنْ فِيهِ خِلَافًا، قَالَ مُحِبِّي السُّنَّةِ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾»^(٢). وَقَلْتُ: يُؤَيِّدُ هَذَا الْقَوْلَ التَّعْقِيبُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا أَمْسَكُنْهُمْ﴾، لِأَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةَ قَوْلٍ، بَلْ هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ سُرْعَةِ اسْتِصْهَالِهِمْ وَحُصُولِ دِمَارِهِمْ مِنْ غَيْرِ رَيْبٍ، وَكَذَلِكَ ذِكْرُ «الْأَمْرِ»، كَمَا قَالَ: «وَذَكَرُ «الْأَمْرِ»، وَكَوْنُهَا مَأْمُورَةٌ مِنْ جِهَتِهِ عَزَّ وَعَلَا يَعْضُدُ ذَلِكَ وَيُقَوِّيه».

وَنَحْوُ هَذَا الْأَسْلُوبِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا﴾ [البقرة: ٢٤٣]، قَالَ^(٣): «مَعْنَاهُ: فَأَمَاتَهُمُ اللهُ، وَإِنَّمَا جِيءَ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُمْ مَاتُوا مَيِّتَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ بِأَمْرِ اللهِ وَمَشِيئَتِهِ».

(١) أَي: عَقِبَ التَّعْمِيَةِ وَبَعْدَهَا.

(٢) «مَعَالِمُ التَّنْزِيلِ» لِلْبَغْوِيِّ (٧: ٢٦٣).

(٣) أَي: الرَّمَحْشَرِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ مِنْ سُورَةِ الْبَقْرَةِ (٢: ٤٥٤).

﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ تَهْلِكُ مِنْ نَفْسِ عَادٍ وَأَمْوَالِهِمُ الْجَمَّ الْكَثِيرَ، فَعَبَّرَ عَنِ الْكَثْرَةِ بِالْكَلْبِيَّةِ، وَقُرِيءَ: «يُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ»، مِنْ: دَمَرَ دَمَارًا: إِذَا هَلَكَ. ﴿لَا تَرَى﴾ الْخِطَابُ لِلرَّائِي مَنْ كَانَ، وَقُرِيءَ: ﴿لَا يَرَى﴾ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ، وَتَأْوِيلُ الْقِرَاءَةِ بِالتَّاءِ - وَهِيَ عَنِ الْحَسَنِ -: لَا تَرَى بَقَايَا وَلَا أَشْيَاءَ مِنْهُمْ إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ. وَمِنْهُ بَيْتُ ذِي الرُّمَّةِ:

وَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضُّلُوعُ الْجَرَاشِعُ

وعلى تقدير المصنّف^(١): الفاء فصيحة، أي: قَالَ لَهُمْ هُوَذَا ذَلِكَ ثُمَّ أَدْرَكْتَهُمُ الرِّيحُ، فَأَبَادَتْهُمْ، فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ.

ولا ارتياب في أن ذلك القول أبلغ وأجرى على قوانين البلاغة، وأنسب للفصاحة التنزيلية.

قوله: (وقرئ: ﴿لَا يَرَى﴾ على البناء للمفعول): عاصمٌ وحزمة: ﴿إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ بالرفع، والباقون: بالتاء المفتوحة وبالنصب^(٢)، قال^(٣): القراءَةُ بِالْيَاءِ أَقْوَى؛ لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ: مَا جَاءَنِي إِلا امْرَأَةٌ، لَكِنْ: مَا جَاءَنِي إِلا امْرَأَةٌ، أَي: شَيْءٌ إِلا امْرَأَةٌ، وَالْأَصْلُ: ﴿لَا يَرَى﴾ بِالتَّذْكِيرِ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى: شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَإِنَّمَا أَنْتَ نَظَرًا إِلَى لَفْظِ «مَسَاكِنَهُمْ».

قوله: (وما بقيت): أوله - من رواية ابن جني^(٤) لذي الرُّمَّةِ -:

بَرَى النَّحْزُ وَالْأَجْرَالُ مَا فِي غُرُوضِهَا فَمَا بَقِيَتْ إِلا الصُّدُورُ الْجَرَاشِعُ^(٥)

(١) أي: على القول بأن قائل: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ هو هودٌ عليه السلام، فالفاء في قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ هي الفاء الفصيحة.

(٢) انظر: «التيسير» لللداني ص ٢٠٠، و«حجة القراءات» ص ٦٦٦.

(٣) الظاهر أن القائل الزخسري، والمؤلف ينقل عنه في مواضع من حاشية كتابه «الكشاف».

(٤) في «المحتسب» (٢: ٢٠٧، ٢٦٦).

(٥) «ديوان ذي الرُّمَّة» ص ٤٣٠، وفيه: «الأجزاء» بدل «الأجرال»، وانظر التعليق على «المحتسب» لابن جني.

وليس بالقوية. وُقِرِي: «لا ترى إلا مسكنهم»، و«لا يرى إلا مسكنهم».

وروي: أن الرِّيحَ كانت تحملُ الفُسطاطَ والطَّعينةَ، فترفعُها في الجوّ حتى تُرى كأنها جِرادَةٌ. وقيل: أولُ مَنْ أبصرَ العذابَ امرأةٌ منهم، قالت: رأيتُ ريحاً فيها كَشُهَبُ النارِ. ورُوي: أولُ ما عرفوا به أنه عذاب: أنهم رأوا ما كان في الصَّخراءِ من رحالِهِم ومواشيهِم تطيرُ به الرِّيحُ بينَ السماءِ والأرضِ، فدخلوا بيوتَهُم وغلقوا أبوابَهُم، فقلعتِ الرِّيحُ الأبوابَ وصرعتَهُم، وأمالَ اللهُ عليهم الأحقافَ، فكانوا تحتها سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ لهم أنين، ثم كَشَفَتِ الرِّيحُ عنهم، فاحتملتَهُم، فطرحتَهُم في البحرِ.

ورُوي: أن هوداً لما أحسَّ بالرِّيحِ حَطَّ على نفسه وعلى المؤمنينَ خطأً إلى جنبِ عَيْنِ تَبْعٍ. وعن ابنِ عباسٍ: اعتزلَ هودٌ مَنْ معه في حَظيرةٍ ما يُصيبُهُم من الرِّيحِ إلا ما يلدنُ على الجلودِ، وتلذُّهُ الأنفُسُ، وإنها لتَمُرُّ من عادٍ بالطَّعُنِ بينَ السماءِ والأرضِ، وتدمغُهُم بالحجارةِ.

وعن النبيِّ ﷺ: أنه كان إذا رأى الرِّيحَ فرَعَ وقال: «اللَّهُمَّ إني أسألكَ خيرَها وخيرَ ما أرسَلتَ به،»

الراكِبُ يَنحَرُ بواسطةِ الرَّحْلِ: أي: يَدُقُّ، والسَّجْرُ - بالتحريك - : الحجارةُ، وأرضُ حَرَكةٍ: أي: ذاتُ جِراوِلٍ، والجمعُ: الأجرالُ، والغَرَضُ: غَرَضُ الدَّابةِ، وهو للرَّحْلِ بمنزلةِ الحِزامِ للسَّرَجِ، والبِطانِ للقتبِ، يُقالُ: غَرَضْتُ البعيرَ: مَدَدْتُ عليه الغَرَضَ، والجِراشِعُ: جمعُ الجُرْشِعِ، وهو مِنَ الإبلِ العظيمِ الصَّدرِ المُتَفِيحِ الجَنِينِ، يَصِفُ النُّوقَ يقولُ: هَزَلْها الاستِحاثُ والأعمالُ فما بَقِيَتْ إلا الصُّدُورُ المُنتَهجةُ.

قوله: (اللَّهُمَّ إني أسألكَ خيرَها) الحديثُ: أخرجه البخاريُّ ومُسلمٌ والترمذيُّ^(١) عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها معَ اختلافٍ يسيرٍ.

(١) البخاري (٣٢٠٦)، ومُسلم (٨٩٩)، والترمذي (٣٤٤٩) و(٣٢٥٧).

وأعوذُ بك من شرِّها وشرِّ ما أُرسلتُ به، وإذا رأى حَيْلَةَ قَامَ وَقَعَدَ، وجاءَ وَذَهَبَ، وَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ، فيُقَالُ له: يا رسولَ الله، ما تخاف؟ فيقول: إني أخافُ أن يكونَ مثلَ قومِ عادٍ حيثُ قالوا: هذا عارضٌ مُمطرٌنا».

فإن قلت: ما فائدةُ إضافةِ «الرَّبِّ» إلى «الرَّيحِ»؟ قلت: الدَّلالةُ على أن الرِّيحَ وتَصْرِيفَ أَعْيُنِهَا مما يَشْهَدُ لِعِظَمِ قُدْرَتِهِ، لأنها من أعاجيبِ خَلْقِهِ وأكابرِ جُنُودِهِ، وَذِكْرُ «الأمرِ» وكونُها مأمورةٌ من جِهَتِهِ عَزَّ وَعَلَا يَعْضُدُ ذَلِكَ وَيُقَوِّبُهُ.

[﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ٢٦]

﴿إِنْ﴾ نافية، أي: فيما ما مَكَّنَّاكُمْ فيه، إلا أن «إِنْ». أَحْسَنُ في اللفظ؛ لِمَا في مُجَامَعَةِ «ما» مِثْلَهَا مِنَ التَّكْرِيرِ المُسْتَبْشِعِ، ومِثْلُهُ مُجْتَنَّبٌ، ألا ترى أن الأَصْلَ في «مَهُمَا»: ماما، فَلِبِشَاعَةِ التَّكْرِيرِ قَلَّبُوا الألفَ هاءً.....

النهاية: «المَخِيلَة»: مَوْضِعُ الخال، وهو الظَّن، كالمَظِنَّة، وهي السَّحَابَةُ الخَلِيقَةُ بالمَطَرِ، ويجوزُ أن تكونَ مُسَمَّاةً بالمَخِيلَة التي هي مَصْدَرٌ، كالمُخِيسَةِ مِنَ الحُبْسِ».

قوله: (يَعْضُدُ ذَلِكَ): أي: لِعِظَمِ قُدْرَتِهِ، فإنَّ في إضافةِ «الرَّبِّ» إلى «الرَّيحِ» في قوله: ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ دلالةً على عِظَمِ شَأْنِهَا، وأنها من جُنُودِ اللَّهِ، ومما يَسْتَقِيمُ أن يُنْسَبَ إلى الرَّبِّ سبحانه وتعالى، ثم دَلَّ ذَلِكَ على عِظَمِ بارئِهَا، وَأَنَّ مِثْلَ هذا الشَّيْءِ العَظِيمِ مملوكٌ له، مُتَقَادٌ لِتَصَرُّفِهِ، ثم أَكَّدَ هذا المعنى باقترانِ الأمرِ معه، تَمِيمًا لتَعْظِيمِ مَنْ أُضِيفَ إليها، لأنَّ المرادُ بالأمر: واحِدُ الأوامر، فيكونُ استِعارةً مَكْنِيَّةً، شُبِّهَتْ - لِكُونِهَا مُتَقَادَةً لتكوينِ الله فيها ما يشاء، وأنها غيرُ مُتَمَتِّعَةٍ على الله - بالعُقلاءِ المُمَيِّزِينَ، فلا يَتَوَقَّفُونَ لامِثَالِ أوامره.

ولقد أَعَثَّ أبو الطَّيِّبِ في قوله:

لَعَمْرُكَ ما ما بانَ مِنْكَ لِضارِبٍ

وما ضَرَّه لو اقتدى بَعْدُوبَةَ لفظِ التنزيل، فقال: لَعَمْرُكَ ما إن بانَ مِنْكَ لِضارِبٍ.

قوله: (ولقد أَعَثَّ أبو الطَّيِّبِ): الأساس: «أَعَثَّ فلانٌ في كلامه: إذا تكلمَ بما لا خيرَ فيه، وفلانٌ لا يَعْثُ عليه شيءٌ: لا يمتنع».

قوله: (لَعَمْرُكَ ما ما بانَ): وفي رواية:

يَرى أَنْ ما ما بانَ مِنْهُ لِضارِبٍ بأقتلَ مما بانَ مِنْهُ لِعايبٍ^(١)

«ما» الأولى: نافية، والثانية: موصولة، وهي اسمُ «ما»^(٢)، و«بأقتلَ» في موضع الخبر، واسمُ «أنَّ»: ضميرُ الشأن، يقول: إنه يرى العيبَ أشدَّ مِنَ القتلِ، قال الواحدي: «معناه: أنه ما الذي بانَ مِنْكَ لِضارِبٍ بأقتلَ مِنَ الذي بانَ مِنْكَ لِعايبٍ»^(٣).

وقال صاحبُ «المثل السائر»: «أَحَدَهُ أبو الطَّيِّبِ من أبي تمام حيث قال:

فَتى لا يَرى أَنْ الفَرِيضَةَ مَقْتَلٌ ولكن يَرى أَنْ العيوبَ مَقائِلُ^(٤)

وَسَرَقَهُ»^(٥).

(١) هكذا هو في «ديوان المتنبي» (١: ٤٧٦ بشرح الواحدي): «يرى أنَّ»، بل قال ابنُ المنير في «الانتصاف»

(٣: ٥٢٥ بحاشية «الكشاف»): إنه «لا يستقيمُ إلا كذلك»، وعلل ذلك، فليُنظر.

(٢) أي: النافية التي ذكرها، وهي المُشَبَّهَةُ بـ«ليس».

(٣) «شرح ديوان المتنبي» (١: ٤٨٢).

(٤) انظر: «المثل السائر» لابن الأثير (٣: ٢٩٠-٢٩١).

(٥) لفظة: «وسرقه» غير واضحة في الأصلين، وهذا أقرب ما تُقرأ عليه، ولفظُ ابن الأثير في «المثل السائر»:

«هو وإن لم يُشَوِّه المعنى، فقد شوَّه الصُّورة... وهذا من أزدلِّ السَّرقات».

وقد جُعِلَتْ «إِنْ» صِلَةً، مثلها فيما أُنشده الأَخْفَشُ:

يُرْجِي الْمَرْءُ مَا إِنْ لَا يَرَاهُ وَتَعْرِضُ دُونَ أَدْنَاهُ الْخُطُوبُ

وَتُوْوَلُّ ب: أَنَا مَكَّنَاهُمْ فِي مِثْلِ مَا مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ. وَالْوَجْهُ هُوَ الْأَوَّلُ،

قوله: (لَعَمْرُكَ مَا إِنْ بَانَ): وفي بعض النسخ: «إِنْ مَا بَانَ»، ولا يجوزُ الْوَجْهَانِ؛ لِأَنَّ «مَا» إِذَا قَدِّمَتْ كَانَتْ مَوْصُولَةً مُبْتَدَأً، وَلَا تَسْتَقِيمُ الْبَاءُ فِي خَبَرِهِ، وَإِذَا أُخِّرَتْ تَقَعُ الْبَاءُ فِي خَبَرِ «إِنْ» النَّافِيَةِ، وَلَا يَجُوزُ أَيْضاً، لِأَنَّ الْبَاءَ لَا تَسْتَقِيمُ إِلَّا فِي خَبَرِ «لَيْسَ»، أَوْ «مَا» بِمَعْنَى «لَيْسَ»، أَوْ «هَلَّ»^(١).

قوله: (يُرْجِي الْمَرْءُ مَا إِنْ لَا يَرَاهُ) الْبَيْت: قِيلَ: هُوَ مَا خُوذَ مِنْ قَوْلِهِ: «تُوْمَلُونَ مَا لَا تُدْرِكُونَ»^(٢)، وَقَرِيبٌ مِنْ مَعْنَاهُ قَوْلُ الْآخَرِ:

الْمَرْءُ قَدْ يَرْجُو الرَّجَاءَ ءَ مُؤَمَّلًا وَالْمَوْتُ دُونَهُ^(٣)

قوله: (وَالْوَجْهُ هُوَ الْأَوَّلُ): لِأَنَّ الْمَعْنَى الثَّانِي يُؤَدِّي إِلَى أَنْ يُقَالَ: مَكَّنَاهُمْ فِي مِثْلِ مَا مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ، فَيَلْزَمُ تَفْضِيلُ تَمْكِينِ هُوَ لِأَنَّ الْمُسَبَّبَ بِهِ أَقْوَى فِي الْوَجْهِ غَالِباً، وَعَلَى الْأَوَّلِ: مَعْنَاهُ: وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ^(٤) فِي الَّذِي مَا مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ، وَالَّذِي سَبَقَ لَهُ الْكَلَامُ أَنَّ كُفَّارَ مَكَّةَ دُونَ أَوْلَيْكَ الْكُفَّارِ فِي التَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَرَوْنَ كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ فِيهَا﴾ [الأنعام: ٦]، وَالْمَعْنَى: لَمْ نُعْطِ أَهْلَ مَكَّةَ نَحْوَ مَا أُعْطِينَا عَادًا وَثَمُودَ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْبَسْطَةِ فِي الْأَجْسَامِ، وَالسَّعَةِ فِي الْأَمْوَالِ، وَالِاسْتِظْهَارِ بِأَسْبَابِ الدُّنْيَا.

(١) أصل هذا الكلام لابن المنير في «الانتصاف» (٣: ٥٢٥) بحاشية «الكشاف».

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٥: ١٧٢) رقم (٤٢١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٥٦٢) من حديث أم الوليد بنت عمر. وفي إسناده راو متروك، كما قال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠: ٢٨٤).

وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٧٢٣)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٧٣٩) و(١٠٧٤٠) عن أبي اللرداء من قوله.

(٣) ذكره ابن داود الأصبهاني في «الزهرة» (٢: ٨٠٣)، إلا أنه قال: «يرجو الرجاء مغيياً».

(٤) في (ف): «مكَّنَّاكُمْ»، ولا يستقيم، والمثبت من (ط)، والجملته - من قوله: «مكَّنَّاكُمْ فِي مِثْلِ» إِلَى هُنَا - سَقَطَتْ مِنْ (ح).

ولقد جاء عليه غير آية في القرآن؛ ﴿هُمْ أَحْسَنُ أُنثَىٰ وَرِيًّا﴾ [مريم: ٧٤]، ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَءَانَارًا﴾ [غافر: ٨٢]، وهو أبلغ في التوبيخ، وأدخل في الحث على الاعتبار. ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: من شيء من الإغناء، وهو القليل منه. فإن قلت: بِمِ انتصَبَ ﴿إِذَا كَانُوا يَتَحَدَّثُونَ﴾؟ قلت: بقوله: ﴿فَمَا أَعْنَى﴾. فإن قلت: لِمَ جرى مجرى التعليل؟ قلت: لاستيواء مؤدَى التعليل والظرف في قولك: ضَرَبْتَهُ لِإِسَاءَتِهِ، وَضَرَبْتَهُ إِذَا أَسَاءَ؛ لأنك إِذَا ضَرَبْتَهُ فِي وَقْتِ إِسَاءَتِهِ، فَإِنَّمَا ضَرَبْتَهُ فِيهِ لِوُجُودِ إِسَاءَتِهِ فِيهِ، إِلا أَنْ «إِذَا» و«حَيْثُ»، غُلِبَتَا دُونَ سَائِرِ الظُّرُوفِ فِي ذَلِكَ.

[﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَاحَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آيَاتِنَا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [٢٧]

﴿مَاحَوْلَكُم﴾ يا أهل مكة، ﴿مِنَ الْقُرَىٰ﴾ من نحو حَجْرِ ثَمُودَ وَقَرْيَةَ سَدُومَ وغيرهما. والمراد: أهل القرى. ولذلك قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

[﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلَّ صَلَوًا عَنَّهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [٢٨]

القربان: ما تُقَرَّبَ به إلى الله تعالى، أي: اتَّخَذُوهُمْ شُفَعَاءَ مُتَقَرَّبًا بِهِمْ إِلَى اللَّهِ، حَيْثُ قَالُوا: هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ. وَأَحَدٌ مَّفْعُولِي «اتَّخَذَ»: الرَّاجِعُ إِلَى «الَّذِينَ» المَحذُوفِ، وَالثَّانِي: ﴿آلِهَةً﴾. و﴿قُرْبَانًا﴾: حَالٌ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ «قُرْبَانًا» مَفْعُولًا ثَانِيًا، و﴿آلِهَةً﴾ بَدَلًا مِنْهُ؛ لِفَسَادِ الْمَعْنَى. وَقُرِي: «قُرْبَانًا» بِضَمِّ الرَّاءِ، وَالْمَعْنَى: فَهَلَّا مَنَعَهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ آلِهَتُهُمْ.

قوله: (وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ «قُرْبَانًا» مَفْعُولًا ثَانِيًا، و﴿آلِهَةً﴾ بَدَلًا مِنْهُ، لِفَسَادِ الْمَعْنَى): قِيلَ: لِأَنَّ الْآلِهَةَ لَا تُتَّخَذُ قُرْبَانًا، وَإِنَّمَا يُتَقَرَّبُ إِلَيْهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ: تَقَرَّبُوا بِهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، لِأَنَّ الْآلِهَةَ لَا يُتَقَرَّبُ بِهَا، لِأَنَّكَ إِذَا جَعَلْتَ «قُرْبَانًا» مَفْعُولًا ثَانِيًا لِـ«اتَّخَذَ»، فَكَأَنَّكَ قُلْتَ: اتَّخَذُوهُمْ - أَي: الْأَصْنَامَ - قُرْبَانًا وَآلِهَةً، وَالْإِلَهَ لَا يُتَّخَذُ قُرْبَانًا، فَيَفْسُدُ الْمَعْنَى.

قال الفاضل نور الدين الحكيم الأبرقوهي: يفسد المعنى؛ لأنه لا يستقيم أن يقال: كَانَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ أَنْ يُتَّخَذَ قُرْبَانًا، وَهُمْ اتَّخَذُوا الْأَصْنَامَ مِنْ دُونِهِ قُرْبَانًا، كَمَا اسْتَقَامَ أَنْ يُقَالَ: كَانَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ

أَنْ يُتَّخَذَ إلهًا، وَهُمْ اتَّخَذُوا الأصْنَامَ مِنْ دُونِهِ آلهة. هذا تقريرٌ كلامه، وهو سديد، إلا أن لِقَائِلِ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ الْمُصْنَفَ ذَكَرَ فِي «البقرة» في قوله: ﴿وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣]: «أي: بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ»، على قول، وعلى ذلك يَسْتَقِيمُ أَنْ يُقَالَ: اتَّخَذُوا الأصْنَامَ مُتَقَرِّبًا بِهَا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ، وَأَيْضًا قَدْ قِيلَ: إِنَّ ﴿قُرْبَانًا﴾ مَفْعُولٌ لَهُ، وَعَلَى ذَلِكَ فَهُوَ غَيْرُ مَخْصُوصٍ بِمَا يُتَقَرَّبُ بِهِ، فَيَسُوغُ أَنْ يَجْرِيَ بِمَعْنَى الْمُتَقَرَّبِ إِلَيْهِ، وَحِينَئِذٍ يَسْتَدُّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ مَفْعُولٌ ثَانٍ أَيْضًا. هذا كلامه.

وقال مَكِّي وأبو البقاء: «إنه مَفْعُولٌ ثَانٍ»^(١). وقال صاحبُ «الكشاف»: ﴿قُرْبَانًا﴾ مَفْعُولٌ ثَانٍ قَدَّمَ عَلَى الْأَوَّلِ، أَي: آلهة ذاتُ قُرْبَةٍ»^(٢).

وقال صاحبُ «التقريب»: وغايةُ تقريره: أَنْ اتَّخَذَ اللَّهُ قُرْبَانًا وَشُفَعَاءَ جِهَةً مُعْتَبَرَةً فِي النَّصْرَةِ، وَلَوْ جُعِلَ مُبَدَلًا مِنْهُ لَكَانَ فِي حُكْمِ الطَّرْحِ، وَخَرَجَ عَنِ الِاعْتِبَارِ، وَفِيهِ نَظَرٌ.

الانْتِصَافُ: «لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ ﴿قُرْبَانًا﴾ مَفْعُولًا ثَانِيًا، وَ﴿آلهة﴾ حَالًا؛ لِأَنَّهُ يَصِيرُ بِمَعْنَى الذَّمِّ إِلَى تَرْكِ اتِّخَاذِ اللَّهِ مُتَقَرِّبًا بِهِ، لِأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ لِعَبْدِكَ: اتَّخَذْتَ فَلَانًا سَيِّدًا دُونِي! لَمَتَّهُ عَلَى نِسْبَةِ السِّيَادَةِ لغيره»^(٣)، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُتَقَرَّبُ بِهِ، وَلَكِنْ يُتَقَرَّبُ إِلَيْهِ»^(٤).

وقلت: الْمُصْنَفُ لَمْ يُرِدْ بِ«فَسَادِ الْمَعْنَى» إِلَّا خِلَافَ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ قَصْدُهُمْ فِي اتِّخَاذِهِمُ الأصْنَامَ آلهةً عَلَى رَعْوِهِمْ إِلَّا أَنْ يُتَقَرَّبُوا بِهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، أَلَا تَرَى كَيْفَ صَرَخَ وَكَيْفَ جِيءَ بِأَدَاةِ الْحُضْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، لَا سِيَّامَا فِي هَذَا الْمَقَامِ، لِأَنَّ الَّذِي سَبَقَ لَهُ الْكَلَامُ، وَجُعِلَ أَصْلًا فِي

(١) انظر: «مُشْكِلُ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ» لِمَكِّي بْنِ أَبِي طَالِبٍ (٢: ٦٦٩)، و«التبيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (٢: ١١٥٨). والمفعول الأول محذوف، وهو العائد إلى الاسم الموصول «الَّذِينَ».

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٢٣٩-١٢٤٠).

(٣) كذا في الأصول الخطية، ولفظ ابن المنير في «الانتصاف»: «لأن السيد إذا وُتِحَ عبده.. فإن معناه: اللوم على نسبة السيادة إلى غيره»، وهو مستقيم، فلما تصرف فيه المؤلف، كان ينبغي أن يقول: «لمته على نسبة السيادة لغيرك».

(٤) «الانتصاف» (٣: ٥٢٦-٥٢٧) بحاشية «الكشاف».

﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي: غابوا عن نصرتهم، ﴿وَذَلِكَ﴾ إشارة إلى امتناع نُصْرَةِ آلهتهم لهم وصلاحهم عنهم، أي: وذلك أثرُ إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها آلهة، وثمرةُ شركهم وافتراءهم على الله الكذب من كونه ذا شركاء.

وقرئ: «أفكهم»، والإفكُ والأفكُ: كالحذر والحذر. وقرئ: «وذلك أفكهم»، أي: وذلك الاتخاذُ الذي هذا أثره وثمرته صرْفهم عن الحق. وقرئ: «أفكهم» على التشديد للمبالغة، و«أفكهم» جعلهم أفكين، و«أفكهم» أي: قولهم الإفكُ ذو الإفك، كما تقول: قولٌ كاذب، و«ذلك إفكٌ مما كانوا يفترون»، أي: بعض ما كانوا يفترون من الإفك.

الاعتبار: هو التبرُّع والتوبيخ على عَدَمِ الشفاعة والنُصرة التي جعلوها وسيلةً إليها وعرضاً في اتخاذهم آلهةً معبودة، حيثُ أُولِيَ كلمةُ التحضيضِ لفظَ النُصرة^(١)، ولو جعل مُبدلاً لالعكس، سواءً جعل في حُكْمِ الساقطِ أو تَوَطُّةً وتمهيداً للبدل، لأنَّ التَوَطُّةَ غيرُ مقصودةٍ بالذات، وبه لَوَّحَ في قوله: «أي: اتَّخَذُوهُمْ شُفَعَاءَ مُتَّقِرَبًا بِهِمْ إِلَى اللَّهِ، حيثُ قالوا: هؤلاء شُفَعَاؤُنَا». ولو جُهِلَ على المفعولِ له صَحَّ أيضاً، وأفاد المقصود.

وقول مَنْ قال: إنَّ ﴿قُرْبَانَاءَ إِلَهَةٍ﴾ مفعولان: أشدُّ فساداً؛ لِمَا يُؤدِّي إلى صِزْوَرَةِ النَّاصِرِ والمنصورِ - في قوله: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ - واحداً، لأنَّ الضميرَ في ﴿اتَّخَذُوا﴾ حيثُ راجعٌ إلى الموصول. والمعنى الصحيح - كما ذهب إليه المُصنِّفُ -: هَلَا نَصَرَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ الَّذِينَ اتَّخَذُوهُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ مُتَّقِرَبًا بِهِمْ إِلَى اللَّهِ.

قوله: (وَقَرِئَ: «وَذَلِكَ أَفْكُهُمْ»): وقال مكِّي: «وهو فعلٌ ماضٍ، و«ما» في موضع رفع أيضاً؛ عطْفٌ على ذلك، وقيل: على المُضْمَرِ المرفوعِ في «أفكهم»، وحسُن ذلك للتفرقة بالمُضْمَرِ المنصوبِ بينهما، فقامَ مقامَ التأكيد»^(٢).

قوله: (و«ذَلِكَ إِفْكٌ مِمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ»): أي: وقرئ: «إفكٌ»، ومعنى هذه القراءة راجعٌ إلى الأُولَى، لأنَّ عطْفَ ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ على ﴿إِفْكُهُمْ﴾ من بابِ عطْفِ العامِّ على الخاصِّ،

(١) أي: أتبعَت كلمةُ التحضيضِ - وهي «لولا» - لفظَ النُصرة، وذلك في قوله: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمْ﴾.

(٢) «مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب (٢: ٦٦٩-٦٧٠).

[وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجَزِّدْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩-٣٢﴾]

﴿صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا﴾ أَمَلْنَاهُمْ إِلَيْكَ، وَأَقْبَلْنَا بِهِمْ نَحْوَك. وَقُرِي: «صَرَفْنَا» بِالتَّشْدِيدِ، لِأَنَّهُمْ جَمَاعَةٌ. وَالنَّفَرُ: دُونَ الْعَشْرَةِ، وَيُجْمَعُ: أَنْفَارًا، وَفِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ كَانَ هَاهُنَا أَحَدٌ مِّنْ أَنْفَارِنَا». ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ الضَّمِيرُ لِلْقُرْآنِ، أَي: فَلَمَّا كَانَ بِمَسْمَعِ مِنْهُمْ، أَوْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَتَعَضُّدُهُ قِرَاءَةٌ مِّنْ قَرَأَ «فَلَمَّا قُضِيَ»، أَي: أَتَمَّ قِرَاءَتَهُ وَفَرَّغَ مِنْهَا، ﴿قَالُوا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ﴿أَنصِتُوا﴾ اسْكُنُوا مُسْتَمِعِينَ، يُقَالُ: أَنْصَتَ لِكَذَا، وَاسْتَنْصَتَ لَهُ.

يعني: قولهم: هؤلاء شُفَعَاؤُنَا، أَوْ اتَّخَذْنَاهُمْ آلِهَةً نَّتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللَّهِ: إِنْكَ وَبَعْضُ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

قوله: (وَفِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: لَوْ كَانَ هَاهُنَا أَحَدٌ مِّنْ أَنْفَارِنَا): وَحَدِيثُهُ عَلَى مَا ذَكَرَ فِي «الْفَائِقِ»: «قَالَ أَبُو ذَرٍّ: قَالَ أَخِي أَنَيْسُ: إِنَّ لِي حَاجَةً بِمَكَّةَ، فَانْطَلَقْتُ، فَرَأَيْتُ، فَقُلْتُ: مَا حَبَسَكَ؟ قَالَ: لَقِيتُ رَجُلًا عَلَى دِينِكَ يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ، قُلْتُ: مَا يَقُولُ النَّاسُ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: سَاحِرٌ شَاعِرٌ كَاهِنٌ، وَكَانَ أَنَيْسُ أَحَدَ الشُّعْرَاءِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ وَصَّعْتُ قَوْلَهُ عَلَى أَقْرَاءِ الشُّعْرِ فَلَا يَلْتَمِمْ عَلَى لِسَانِ أَحَدٍ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ فَمَا هُوَ بِقَوْلِهِمْ، وَاللَّهُ إِنَّهُ لَصَادِقٌ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، فَقُلْتُ: اكْفِنِي حَتَّى أَنْظُرَ، قَالَ: نَعَمْ، وَكُنْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ عَلَى حَدَرٍ، فَإِنَّهُمْ قَدْ سَنَفُوا لَهُ وَتَجَّهَمُوا.

فانطلقت، فتضعفت رجلاً من أهل مكة، فقلت: أين هذا الذي تزعمونه الصابى؟ فأشار إلي وقال: الصابى الصابى، فمال عليّ أهل الوادي بكُلِّ مدرة وعظم وحجر، فخررت مغشياً عليّ، فارتفعت حين ارتفعت كأني نُصبُ أحر، فأتيت زمزم، فغسلت عني الدم، وشربت من مائها، ثم دخلت بين الكعبة وأستارها، فلبثت بها ثلاثين، ما بين يوم وليلة، وما لي بها طعام إلا ماء زمزم، فسميت حتى تكسرت عكنُ بطني^(١)، وما وجدت على كيدي سخفة جوع.

فبينما أهل مكة في ليلة قمرآء إضحيان، قد ضرب الله على أصمختهم، فما يطوف بالبيت غير امرأتين، فأتتا عليّ وهما تدعوان إسافاً ونائلاً، فقلت: أنكحوا إحداهما الأخرى، فما ثناهما ذلك، فقلت، وذكرت كلاماً فاحشاً لم يكن عنه، فانطلقتا وهما تقولان: لو كان هاهنا أحدٌ من أنفارنا، فاستقبلهما رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه بالليل، وهما هابطان من الجبل، فقال رسول الله ﷺ: ما لكما؟ قالتا: صابى بين الكعبة وأستارها، قال: فما قال لكما: فقالتا: كلمة تملأ الفم.

ثم ذكر خروجه إلى رسول الله ﷺ، وتسليمه عليه، وأنه أول من حيّاه بتحية الإسلام، وقال: فذهبت لأقبل بين عينيه، فقد عني عنه صاحبه.

قوله: الرّيث: الإبطاء، ورجل ريث، وعن القراء: رجل مريث العينين: إذا كان بطيء النظر. أقرأ الشعر: أنحاؤه وأنواعه، جمع قرو، ويقال للبيتين أو القصيدتين: هما على قرو واحد، وقريّ واحد. وسيف وسنى: أخوان، ولكن سيف لا يتعدى إلا باللام. تجهمه: كَلَحَ في وجهه وغلظ له في القول، تضعفته: استضعفته، النصب والنصب: حَجَرَ كانوا ينصبونه فيعبد وتصب عليه دماء الذبائح. يقال: وجدت سخفة من جوع، وهي الخفة تعري الإنسان إذا جاع، من السخف، وهي الخفة في العقل. يقال: ليلة ضحايا وإضحيان وإضحيانة، وهي المقمرة من أولها إلى آخرها، وإعلان: مما قل في كلامهم.

(١) قال ابن منظور في «لسان العرب»، مادة (عكن): «تَعَنَّ البطن: أي: صار ذا عكن، وهي الأطواء فيه، وتَعَنَّ الشيء تعكناً: إذا ركِمَ بعضه على بعض».

رُوي: أَنَّ الْجِنَّ كَانَتْ تَسْتَرِّقُ السَّمْعَ، فَلَمَّا حُرِسَتِ السَّمَاءُ، وَرُجِّمُوا بِالشُّهُبِ، قَالُوا: مَا هَذَا إِلَّا لِنَبِيٍّ حَدَّثَ، فَهَضَّ سَبْعَةَ نَفَرٍ أَوْ تِسْعَةَ مِنْ أَشْرَافِ جِنَّ نَصِيِّينَ - أَوْ نِينَوِيٍّ - مِنْهُمْ زَوْبَعَةَ، فَضَرَبُوا، حَتَّى بَلَغُوا تِهَامَةَ، ثُمَّ انْدَفَعُوا إِلَى وَادِي نَخْلَةَ، فَوَافَقُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ قَائِمٌ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ يُصَلِّي - أَوْ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ - فَاسْتَمَعُوا لِقِرَاءَتِهِ، وَذَلِكَ عِنْدَ مُنْصَرَفِهِ مِنَ الطَّائِفِ، حِينَ خَرَجَ إِلَيْهِمْ يَسْتَنْصِرُهُمْ، فَلَمْ يُجِيبُوهُ إِلَى طَلَبَتِهِ، وَأَعْرَوْا بِهِ سُفَهَاءَ تَقِيْفٍ. وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْجِنَّ وَلَا رَأْهَمَ، وَإِنَّمَا كَانَ يَتْلُو فِي صَلَاتِهِ، فَمَرُّوا بِهِ، فَوَقَفُوا مُسْتَمِعِينَ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، فَأُنْبَاهُ اللَّهُ بِاسْتِمَاعِهِمْ.

وقيل: إِنَّ إِسَافًا كَانَ رَجُلًا، وَنَائِلَةَ امْرَأَةً، فَدَخَلَا الْبَيْتَ، فَوَجَدَا خَلْوَةً، فَفَجَّرَا، فَمَسَّخَهَا اللَّهُ حَجَرَيْنِ. الْأَنْفَارُ: جَمْعُ نَفَرٍ، وَهُمْ الرِّجَالُ خَاصَّةً مَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الْعَشْرَةِ، وَالتَّنْفَرَةُ: مِثْلُهُ، وَهُوَ مِنَ التَّنْفِيرِ، لِأَنَّ الرِّجَالَ هُمَ الَّذِينَ إِذَا حَزَبَهُمْ أَمُرٌ تَنَفَّرُوا لِكَفَايَتِهِ، الْقَدْعُ وَالرَّدْعُ: أَخْوَانٌ. كُتِلَتْ فِي «الْفَائِقِ» (١).

وَذَكَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «الاسْتِيعَابِ» (٢) حَدِيثَ إِسْلَامِ أَبِي ذَرٍّ بِغَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ (٣)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. قَوْلُهُ: (زَوْبَعَةُ): النِّهَايَةُ: «التَّرْبُوعُ: التَّغْيِيرُ وَسُوءُ الْخَلْقِ وَقِلَّةُ الْإِسْتِقَامَةِ، كَأَنَّهُ مِنَ الزَّوْبَعَةِ؛ الرِّيحِ الْمَعْرُوفَةِ».

قَوْلُهُ: (وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: مَا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [عَلَى الْجِنَّ] وَلَا رَأْهَمَ): هَذَا يُخَالِفُ مَا رَوَيْنَا عَنْ مُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ وَأَبِي دَاوُدَ (٤) عَنْ عَلْقَمَةَ، قُلْتُ لِابْنِ مَسْعُودٍ: هَلْ صَحِبَ النَّبِيَّ ﷺ لَيْلَةَ الْجِنَّ مِنْكُمْ أَحَدٌ، قَالَ: مَا صَحِبَهُ مِنَّا أَحَدٌ، وَلَكِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَفَقَدْنَاهُ، فَالْتَمَسْنَاهُ فِي الْأَوْدِيَةِ وَالشُّعَابِ، فَقَلْنَا: اسْتَطِيرَ أَوْ اغْتِيلَ، فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءَ مِنْ قِبَلِ حِرَاءِ، قَالَ: فَقَلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَفَقَدْنَاكَ وَطَلَبْنَاكَ فَلَمْ نَجِدْكَ،

(١) «الْفَائِقُ» لِلزُّغْشَرِيِّ (٢: ٧٢-٧٤)، مَادَّةُ (رَيْث).

(٢) «الاسْتِيعَابُ» (٤: ٦١-٦٤) بِهَامِشِ «الإِصَابَةِ» لِابْنِ حَجْرٍ.

(٣) وَانظُرْ: «صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ»، بَابُ إِسْلَامِ أَبِي ذَرِّ الْغِفَارِيِّ، حَدِيثُ رَقْمِ (٣٨٦١).

(٤) مُسْلِمٌ (٤٥٠)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٢٥٨)، وَأَبُو دَاوُدَ (٨٥).

وقيل: بل أمر الله رسوله أن يُنذِرَ الجِنَّ، ويُقرأ عليهم، فصَرَفَ إليه نَفَرًا منهم، جَمَعَهُمْ له، فقال: «إني أُمِرْتُ أن أقرأ على الجِنِّ الليلة، فَمَنْ يَتَّبِعُنِي؟» قالها ثلاثاً، فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: لم يحضُرهُ ليلة الجِنِّ أحدٌ غيري،

فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ، قال: أتاني داعي الجِنِّ، فَذَهَبْتُ معه، وقرأت عليهم القرآن، قال: فانطَلَقَ بنا، فأرانا آثارهم وآثارَ نيرانهم، وسألوه الزاد، فقال: لكم كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عليه يقعُ في أيديكم»، الحديث.

وفي رواية لمُسْلِمٍ^(١): أن ابن مسعود قال: «لم أكن ليلة الجِنِّ مَعَ رسولِ الله ﷺ، وودِدْتُ أني كنتُ معه».

قوله: (إلا عبد الله بن مسعود، قال: لم يحضُرهُ ليلة الجِنِّ أحدٌ غيري) الحديث: من رواية الإمام أحمد بن حنبل^(٢) عن ابن مسعود: «قمتُ مَعَ رسولِ الله ﷺ ليلة الجِنِّ، وأخذتُ إداوة، ولا أحسبُها إلا ماء، حتى إذا كُنَّا بأعلى مكة رأيتُ أسودَةً مُجْتَمِعَةً، قال: فَخَطَّ لي رسولُ الله ﷺ [خَطًّا]^(٣)»، ثم قال: قُم هاهنا حتى أتيتك، ومضى رسولُ الله ﷺ إليهم، فرأيتهم يَتَوَرَّونَ إليه، فَسَمَرَ مَعَهُمْ لَيْلاً طويلاً، حتى جاءني مَعَ الفَجْرِ، وقال لي: هل معك من وُضوءٍ؟ قلت: نعم، ففَتَحْتُ الإداوةَ فإذا هو نبيذ، فقلت: ما كنتُ أحسبُها إلا ماء، فإذا هو نبيذ^(٤)، فقال رسولُ الله ﷺ: تَمْرَةٌ طَيِّبَةٌ وماءٌ طَهُورٌ، فتَوَضَّأَ منها، ثم قام يُصَلِّي، فأدركه شَخصانِ منهم.

(١) في «صحيحه» برقم (٤٥٠) (١٥٢).

(٢) في «مسنده» برقم (٤٣٨١).

(٣) لفظة «خطاً» لم ترد في الأصول الخطية، وأثبتها من «مسند أحمد».

(٤) النبيذ هنا: ماءٌ تُلْفَى فيه تمرات لِيُسْتَعْدَبَ، من غير اشتدادٍ ولا إسكار، كما يدلُّ عليه ما رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (١: ١٢) عن أبي العالية قال: «ترى نبيذكم هذا الخبيث! إنما كان ماءً تُلْفَى فيه تمرات، فيصيرُ حُلُوءاً».

فانطلقنا، حتى إذا كنا بأعلى مكة في شعب الحُجُون، فخطَّ لي خطاً، وقال: «لا تخرُج منه حتى أعود إليك»، ثم افتتح القرآن، وسمعتُ لَعَطاً شديداً، حتى خفتُ على رسول الله ﷺ، وغشيتُهُ أسودةٌ كثيرةٌ حالت بيني وبينه، حتى ما أسمعُ صوته، ثم انقطعوا كقطع السحاب، فقال لي رسولُ الله ﷺ: «هل رأيت شيئاً؟». قلت: نعم، رجالاً سوداً مُستثفري ثيابٍ بيض. فقال: «أولئك جنُّ نصيين»، وكانوا اثني عشر ألفاً، والسورة التي قرأها عليهم: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١].

فإن قلت: كيف قالوا: ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾؟ قلت: عن عطاء: أنهم كانوا على اليهودية. وعن ابن عباس: إن الجنَّ لم تكن سمعتُ بأمرِ عيسى عليه السلام، فلذلك قالت: ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾. فإن قلت: لِمَ بَعْضُ في قوله: ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾؟

فصَفَّهما خَلْفَه، ثم صَلَّى بنا، فقلت: مَنْ هؤلاء يا رسول الله؟ قال: جنُّ نصيين.

قوله: (في شعب الحُجُون): الحُجُون: موضعٌ فيه مقابرُ مكة، أنشدَ لِحُرْمٍ:

كَأَن لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحُجُونِ إِلَى الصَّفَا أَنَيْسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرٌ
بَلَى نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَبَادَنَا صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالْجُدُودُ الْعَوَائِرُ^(١)

قوله: (أسودة): النهاية: «أسودة: جمعُ قَلَّةٍ لـ «سواد»، وهو الشَّخص، لأنه يُرى من بعيدٍ أسود».

قوله: (مُستثفري ثياب): النهاية: «وهو أن يُدخلَ الرجلُ ثوبه بينَ رجليه، كما يفعلُ الكلبُ بذنبه».

(١) البيتان في «الصَّحاح» للجوهري، و«لسان العرب» لابن منظور، كلاهما في مادة (حجن)، وذكر الجوهري أنهما لشاعرٍ جرهمي، أما ابنُ منظور فنسبهما إلى عمرو بن الحارث بن مُضاض بن عمرو، قال: «وقيل: للحارث الجرهمي».

قلت: لَأَنَّ مِنَ الذَّنُوبِ مَا لَا يُغْفَرُ بِالْإِيمَانِ كذُنُوبِ الْمَظَالِمِ وَنَحْوِهَا.....

قوله: (لَأَنَّ مِنَ الذَّنُوبِ مَا لَا يُغْفَرُ بِالْإِيمَانِ^(١)): وقلت: قد استقصينا القول في هذا المعنى في سورة إبراهيم عليه السلام، وعند قوله: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٣-٤] في سورة نوح عليه السلام.

الانتصاف: «الحرابي إذا نهب الأموال، وسفك الدماء، ثم حسن إسلامه، جبب الإسلام ما تقدم، ويقال: إنه لا يرد وعد المغفرة للكافر على تقدير الإيمان في كتاب الله إلا بمبغضة^(٢)، وهذا منه، فلعل سببه: أن مقام الكافر قبض لا بسط، فلذلك لم يبسط رجاؤه في مغفرة كل الذنوب»^(٣).

قال صاحب «الإنصاف»^(٤): مقام الكافر عند ترغيبه في الإسلام بسط لا قبض، وقد أمر الله موسى أن يقول لفرعون قولاً لئناً، وقد ورد: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وهي غير مبغضة، و«ما» للعموم، ولا سيما وقد وقعت في الشرط، والحديث الصحيح ينصُرُ هذا التأويل^(٥)، وقد أوردناه في سورة إبراهيم عليه السلام.

(١) تحرف في (ح) و(ف) إلى: «الأعيان»، ولم ترد في (ط)، والمثبت من «الكشاف».
(٢) أي: أن الآيات الواردة في خطاب الكفار بالوعد بالمغفرة إن أسلموا لم ترد مطلقة، بل ورد فيها ما يدل على التبعيض، كما في هذه الآية من سورة الأحقاف، وكما في الآية المذكورة من سورة نوح، وكقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَسُولُهُمْ فِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ بخلاف ما ورد في خطاب المؤمنين، حيث أطلقت فيها المغفرة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَقُولُوا اللَّهُ يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْقُوا اللَّهُ وَفُوتُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]، وغيرها.

(٣) «الانتصاف» (٣: ٥٢٧) بحاشية «الكشاف».

(٤) أي: علم الدين العراقي، وقد تقدم التعريف بكتابه عند تفسير الآية ٦٠ من سورة التوبة (٧: ٢٨٠).

(٥) يريد قوله ﷺ: «الإسلام يهدم ما قبله»، أخرجه مسلم (١٢١) من حديث عمرو بن العاص.

ونحوه قوله عزَّ و علا: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٣-٤].
فإن قلت: هل للجنِّ ثوابٌ كما للإنس؟ قلت: اختلفَ فيه: فقيل: لا ثوابَ لهم إلا النجاةُ
مِنَ النارِ، لقوله: ﴿وَمُحَرِّمٌ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وإليه كان يذهبُ أبو حنيفةَ رحمه الله،
والصحيحُ أنهم في حُكم بني آدم، لأنهم مُكَلَّفُونَ مثلهم.

﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا يُنجي منه مَهْرَبٌ، ولا يَسْبِقُ قَضَاءَهُ سابقٌ،
ونحوه قوله: ﴿وَأَنَاظِنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ [الجن: ١٢].

[﴿أَوْلَتْهُ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ مِثْلًا شَيْءًا﴾ [المؤمنون: ١٧]
﴿أَوْلَتْهُ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ مِثْلًا شَيْءًا﴾ [المؤمنون: ١٧]

﴿بِقَدْرِ﴾ محلهُ الرفع؛ لأنه خَبِرَ «أَنَّ»، يدلُّ عليه قراءةُ عبد الله: «قادرٌ»، وإنما
دَخَلَتِ الباءُ لاشتغالِ النفي في أولِ الآيةِ على «أَنَّ» وما في حَيْزِها. وقال الرَّجَّاجُ: «لو
قلت: ما ظننتُ أنَّ زيداً بقائمٍ، جاز. كأنه قيل: أليس اللهُ بقادرٌ؟!»، ألا ترى إلى
وقوعِ ﴿بَلَى﴾ مُقَرَّرَةً لِلْقُدْرَةِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْبَعْثِ وغيره، لا لرؤيتهم.

قوله: (وقال الرَّجَّاجُ): وفي «كتابه»: «دَخَلَتِ الباءُ في خَبَرِ «أَنَّ» لِدُخُولِ ﴿أَوْلَتْهُ﴾ في
أولِ الكلامِ، ولو قلت: «ظننتُ أنَّ زيداً بقائمٍ» لم يَجُزْ، ولو قلت: «ما ظننتُ أنَّ زيداً بقائمٍ»
جاز؛ لِدُخُولِ «ما»، ودخولِ «أَنَّ» إنما هو توكيدُ الكلامِ، فكانه في تقدير: أليس اللهُ بقادرٍ على
أن يُحيي الموتى»^(١).

قوله: (وقوعِ ﴿بَلَى﴾ مُقَرَّرَةً لِلْقُدْرَةِ... لا لرؤيتهم): يعني: «بلَى» كلمةٌ إيجابٌ يُجابُ بها
النفي، وقوله: ﴿أَوْلَتْهُ يَرَوْا﴾ فيه نفي، وهي ليست بمُقَرَّرَةٌ له، لأنَّ المعنى لا يُساعدُ عليه، بل
لقوله: ﴿بِقَدْرِ﴾ من حيثِ المعنى، قال القاضي: «﴿بَلَى﴾ تقريرٌ لِلْقُدْرَةِ عَلَى وَجْهِ عامٍ، ليكونَ
كالبرهانِ على المقصودِ، كأنه تعالى لِمَا صَدَّرَ السُّورَةَ بتحقيقِ المبدأ، أَرَادَ خَتْمَهَا بِإثباتِ المعادِ»^(٢).

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤: ٤٤٧).

(٢) «أنوار التنزيل» لليضاوي (٥: ١٨٦).

وَقُرِّي: «يَقْدِر»، ويُقال: عَيِّتُ بالأمر: إذا لم تَعْرِفْ وجهه. ومنه: ﴿أَفَعِينَا بِالْحَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥].

[وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ] ﴿٣٤﴾.

﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ محكيٌ بعد قولٍ مُضْمَرٍ، وهذا المُضْمَرُ هو ناصِبُ الظَّرْفِ، و﴿هَذَا﴾ إشارةٌ إلى العذاب، بدليلِ قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾، والمعنى: التَّهَكُّمُ بهم، والتوبيخُ لهم على استهزائهم بوَعْدِ الله ووعيده، وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٨].

[فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَمْ يَكُنْ لَهُمُ كَاتِبُ يَوْمَ يَرُونَ مَا لَوْ عَدَدَتْ لَرَبِّكَ يَلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ] ﴿٣٥﴾

﴿أُولُو الْعَزْمِ﴾ أولو الجِدِّ والثباتِ والصَّبْرِ، و﴿مِنَ﴾ يجوزُ أن تكونَ للتبعض، ويُرادُ بأولي العزم: بعضُ الأنبياء، قيل: هم نُوحٌ صَبَرَ على أذى قومه، كانوا يَضْرِبُونَهُ حتى يُغشى عليه، وإبراهيمُ على النارِ وَذَبِحَ وَوَلَدَهُ، وإسحاقُ على الذَّبْحِ، ويعقوبُ على فَقْدِ وَوَلَدِهِ وَذَهَابِ بَصَرِهِ، ويوسفُ على السَّجْبِ والسَّجْنِ، وأيوبُ على الضَّرِّ، وموسى قال له قومه: ﴿إِنَّا لَمَذْرُكُونَ﴾ * قال كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿ [الشعراء: ٦١-٦٢]، وداوُدُ بكى على خَطِيئَتِهِ أربعينَ سنةً، وعيسى لم يَضَعْ لَبِنَةً على لَبِنَةٍ، وقال: إنها مَعْبَرٌ،

قوله: (وَيُرَادُ بِأُولِي الْعَزْمِ: بعضُ الأنبياء): قال القاضي: «وَهُمْ أَصْحَابُ الشَّرَائِعِ، اجْتَهَدُوا فِي تَأْسِيسِهَا وَتَقْرِيرِهَا، وَصَبَرُوا على تَحْمُلِ مَشَاقِقِهَا وَمُعَادَاةِ الطَّاعِنِينَ فِيهَا»^(١).

قوله: (مَعْبَرَةٌ): وفي نُسخة^(٢): «مَعْبَرٌ»، رُوِيَ عن المُصَنِّفِ: المَعْبَرُ - بفتح الميم -: مَوْضِعُ الْعُبُورِ، كالجِسْرِ والقَنْطَرَةِ، وبكسره: السَّفِينَةُ المِعْبَرَةُ.

(١) «أنوار التنزيل» لليضاوي (١: ١٨٦).

(٢) وهي ما بين أيدينا من «الكشاف».

فاعبروها ولا تعمروها. وقال الله تعالى في آدم: ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، وفي يونس: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨].

ويجوز أن تكون للبيان، فيكون ﴿أُولُوا الْعَزْمِ﴾ صفة الرُّسُلِ كُلِّهِمْ. ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ﴾ لِكِفَّارِ قُرَيْشٍ بِالْعَذَابِ، أي: لا تدعُ لهم بتعجيله، فإنه نازلٌ بهم لا محالة، وإن تأخر، وأنهم مُستَقْصِرُونَ حينئذٍ مُدَّةَ لُبِّهِمْ في الدنيا حتى يحسبوها ﴿سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾.

﴿بَلِّغْ﴾ أي: هذا الذي وُعِظْتُمْ به كفايةً في الموعظة، أو هذا تبليغٌ مِنَ الرسولِ عليه السلام، ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ﴾ إلا الخارجون عن الاتعاضِ به، والعملِ بموجبه، ويدلُّ على معنى التبليغِ قراءةً مَنْ قرأ: «بَلِّغْ فَهَلْ يُهْلِكُ»، وقرئ: «بلاغاً»، أي بَلَّغُوا بلاغاً، وقرئ: «يَهْلِكُ» بفتح الياء وكسر اللام وفتحها؛ مِنْ: هَلَكَ وَهَلِكَ، و«يَهْلِكُ» بالنون، ﴿إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾.

وعن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ سُورَةَ الْأَحْقَافِ كَتَبَ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بَعْدَ كُلِّ رَمَلَةٍ فِي الدُّنْيَا».

قوله: (فيكون ﴿أُولُوا الْعَزْمِ﴾ صفة الرُّسُلِ): أي: مِنْ حيثُ المعنى، لأنَّ ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ على هذا: حَالٌ مِنْ «أُولِي الْعَزْمِ»، وفي الحقيقة: الحَالُ بيانٌ لهيئَةِ صَاحِبِهَا، كَالصِّفَةِ، وعلى الأول: «مِنْ» للتبويض.

قوله: (أو هذا تبليغ): قال القاضي: «هَذَا» الذي وُعِظْتُمْ به، أو هذه السُّورَةُ، ﴿بَلِّغْ﴾ أي: كفاية، أو تبليغٌ مِنَ الرسولِ ﷺ، وقيل: ﴿بَلِّغْ﴾ مُبْتَدَأٌ، والخبر: ﴿لَهُمْ﴾، وما بينهما اعتراض، أي: لهم وقتٌ يبلِّغون إليه، كأنهم إذا بَلَّغُوهُ، وراوا ما فيه، استَقْصَرُوا مُدَّةَ عُمْرِهِمْ^(١).

وقلت: الذي هو أفضى لحقِّ البلاغة: أن تُجْعَلَ الآيةُ كَالخاتمةِ للسُّورَةِ، والفَذْلُكَه^(٢) لِيَا

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ١٨٧).

(٢) انظر معناها فيما تقدّم ص ٢٢٩ تعليقا في تفسير الآية ٥٨ من سورة الدخان.

اشتمَلت عليه، ويُقدَّر: «هذا تبليغ»، ويكون اتصال ما بعد الفاء بـ ﴿بَلِّغْ﴾ اتصالاً الحكم بالوصف، والمعنى: كُنْ صابراً على أذى قومك، ولا تضجر منهم، ولا تستعجل نزل العذاب، وأد ما عليك، والزَم الحجة عليهم، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة.

ويعضده ما رواه الواحدي عن الزجاج: «تأويله: لا يهلك - مع رحمة الله وتفضله - إلا القومُ الفاسقون. ولهذا قال قوم: ما في الرجاء لرحمة الله آية أقوى من هذه الآية»^(١).

نظيره في خاتمة سورة الأنبياء: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَكِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٦]، قال^(٢): «الإشارة إلى المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعيد والمواعظ البالغة، والبلاغ: الكفاية، وما تبليغ به البغية»، والله أعلم.



(١) «الوسيط» للواحدي (٤: ١١٧)، وانظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤: ٤٤٨).

(٢) أي: الزمخشري في تفسير الآية المذكورة من سورة الأنبياء (١٠: ٤١٥).

سورة مُحَمَّد ﷺ

مدنية عند مجاهد، وقال الضحاك وسعيد بن جبير: مكية

وهي سورة القتال

وهي تسع وثلاثون آية، وقيل: ثمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا
بِمَا نَزَّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ١-٢]
﴿وَصَدُّوا﴾ وأعرضوا وامتنعوا عن الدخول في الإسلام، أو صدوا غيرهم عنه، قال
ابن عباس رضي الله عنه: هُم الْمُطْعَمُونَ يَوْمَ بَدْرٍ.....

سورة محمد ﷺ

مدنية، وقال الضحاك وسعيد بن جبير: مكية

وهي تسعة وثلاثون، وقيل: ثمان وثلاثون آية^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: ﴿وَصَدُّوا﴾ وأعرضوا وامتنعوا عن الدخول في الإسلام، أو صدوا غيرهم: صد: يجيئ متعدياً ولازماً، الجوهري: «صَدَّ عَنْهُ يَصِدُّ صُدُودًا: أَعْرَضَ، وَصَدَّهُ عَنِ الْأَمْرِ صَدًّا: مَنَعَهُ، وَأَصَدَّهُ عَنْهُ: لَغَةً».

والتفسير الثاني أشد التماماً للقرينة السابقة باللاحقة، فإن قوله: ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إذا فُسرَ بـ«صدوا غيرهم» يكون من باب العطف للخاص على العام، لأن إضلال الغير

(١) في (ط): «سورة محمد ﷺ، مدنية، وهي ثمان وثلاثون آية».

أشدُّ^(١) تَوْعَلًا فِي الضَّلَالِ مِنْ ضَلَالِ الشَّخْصِ، كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَمَا آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ﴾ كَذَلِكَ، وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَمَا آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ﴾: اخْتِصَاصٌ لِلإِيْمَانِ بِالْمُنَزَّلِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ مَا يَجِبُ الإِيْمَانُ بِهِ، فَالْمَعْنَى: فَالذِّينَ كَفَرُوا وَمَا آمَنُوا بِهَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَصَدُّوا غَيْرَهُمْ عَنِ الإِيْمَانِ بِهِ، وَاعْتَرَوْا بِهَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ: أَبْطَلَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ وَاعْتِرَاضِهِ بَيْنَ الْكَلَامِ: إِذْ بَانَ أَنَّ أَعْمَالَ أَوْلِيئِكَ السَّادَةِ ثَابِتَةٌ غَيْرُ زَائِلَةٍ، لِأَنَّ «الْحَقَّ» فِي مُقَابَلَةِ «الباطل»، قَالَ الْوَاحِدِيُّ: ﴿كَفَّرْتَهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾: سَتَرَهَا عَلَيْهِمْ بِأَنَّ غَفَرَهَا، فَلَا يُحَاسِبُونَ عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَيْسَ كَمَا أَضَلَّ أَعْمَالَ الْكُفَّارِ^(٢).

وَقُلْتُ: وَفِيهِ الإِسْعَارُ بِأَنَّ أَعْمَالَ الْكُفَّارِ - وَإِنْ كَانَتْ حَسَنَاتٍ - يُضِلُّهَا اللهُ تَعَالَى فِي غَمَرَاتٍ كُفْرِهِمْ وَحِرْمَانِ مُتَابَعَةِ الْحَقِّ الْمُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَأَنَّ سَيِّئَاتِ الْمُؤْمِنِينَ يَسْتُرُهَا اللهُ فِي كَتَفِ إِيْمَانِهِمْ وَمُتَابَعَتِهِمْ الْحَقِّ، وَإِلَيْهِ وَقَعَتِ الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ يَنْصُرُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾.

وَفِيهِ إِدْمَاجٌ^(٣) لِإِبْطَالِ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ بِاسْتِقْلَالِ الْعَقْلِ، وَأَنَّ الأَوْضَاعَ الشَّرْعِيَّةَ مُكْمَلَةٌ لِلنَّاقِصِينَ، وَهُمْ كَمَلَةٌ مُهْدَبُونَ لَا يَفْتَقِرُونَ إِلَيْهَا، وَلِهَذَا^(٤) قَاعِدَةُ الْحَسَنِ وَالْقُبْحِ الْعَقْلِيِّ.

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى أَكَّدَ هَذَا الْمَعْنَى بِتَعْقِيبِ قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ الْآيَةَ؛ إِضَاحًا وَبَيَانًا لِمَا أَوْقَعَ تَعْرِيفًا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ بِإِهْدَارِ أَعْمَالِ الْكَافِرِينَ، وَكَالتَّعْلِيلِ لِتَكْفِيرِ سَيِّئَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِصْلَاحِ بِهِمْ، وَإِلَيْهِ الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «وَهَذَا الْكَلَامُ يُسَمِّيهِ عُلَمَاءُ الْبَيَانِ: التَّفْسِيرَ»، وَمِنْ بَابِ التَّفْسِيرِ مَا أَنْشَدَهُ لِنَفْسِهِ^(٥):

(١) لفظة: «أشد» سقطت من (ح) و(ف).

(٢) «الوسيط» للواحد (٤: ١١٨).

(٣) تقدّم معنى الإدماج في تفسير الآية ١١٤ من سورة التوبة (٧: ٣٨١) تعليقا.

(٤) قوله: «لهدم» معطوف على قوله: «لإبطال» بإعادة حرف الجر، والتقدير: فيه إدماج لإبطال كذا وهدم كذا. والظاهر أنه أعاد حرف الجر لتغاير الفريقين، وأنه أراد في أول كلامه: الفلاسفة، وفي آخره: المعتزلة، والله أعلم.

(٥) أنشده الزمخشري لنفسه لما فسّر لطلبته هذه الآية، فقيّد عنه في الحواشي، لا في أصل الكتاب. قاله العلامة

ابن عاشور في «التحرير والتنوير» (٢٦: ٧٧).

وعن مقاتل: كانوا اثني عشر رجلاً من أهل الشرك، يصدون الناس عن الإسلام، ويأمرونهم بالكفر. وقيل: هم أهل الكتاب الذين كفروا وصدوا من أراد منهم ومن غيرهم أن يدخل في الإسلام. وقيل: هو عام في كل من كفر وصد.

﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أبطلها وأحبطها، وحققتها: جعلها ضالة ضائعة ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها، كالضالة من الإبل التي هي بمضيعة لا رب لها يحفظها ويعتني بأمرها، أو جعلها ضالة في كفرهم ومعاصيهم ومغلوبة بها، كما يضل الماء في اللبن.

و﴿أَعْمَلَهُمْ﴾: ما عملوه في كفرهم بما كانوا يسئونه مكارم؛ من صلة الأرحام، وفك الأسارى، وقرى الأضياف، وحفظ الجوار. وقيل: أبطل ما عملوه من الكيد لرسول الله ﷺ، والصد عن سبيل الله، بأن نصره عليهم، وأظهر دينه على الدين كله.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قال مقاتل: هم ناس من قريش، وقيل: من الأنصار، وقيل: هم مؤمنو أهل الكتاب، وقيل: هو عام. وقوله: ﴿وَأَمَّا بِمَا نَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ اختصاص للإيمان بالمنزل على رسول الله ﷺ من بين ما يجب الإيمان به؛ تعظيماً لشأنه وتعليماً، لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به، وأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التي هي قوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، وقيل: معناها: أن دين محمد هو الحق، إذ لا يرد عليه نسخ، وهو ناسخ لغيره.

وقرى: ﴿نَزَّلَ﴾ و﴿أُنزِلَ﴾ على البناء للمفعول، و﴿نَزَّلَ﴾ على البناء للفاعل، و﴿نَزَّلَ﴾

بالتخفيف.

به فُجِعَ الْفُرْسَانُ فَوْقَ حَيْوِهِمْ كَمَا فُجِعَتْ تَحْتَ السُّتُورِ الْعَوَاتِقُ

تَسَاقَطَ مِنْ أَيْدِيهِمُ الْبَيْضُ حَيْرَةً وَرُزِعَ عَنِ أَجْيَادِهِنَّ الْمَخَانِقُ

قوله: (وقرى: ﴿نَزَّلَ﴾ و﴿أُنزِلَ﴾): الأولى هي المشهورة، والبواقي شاذة.

= وذكر ابن عاشور أيضاً أن «التفسير» من «المحسنات البديعية»، وهو يشمل محسن «الجمع بعد التفريق» ومحسن «التفريق بعد الجمع»، فكلاهما يُسمى: «تفسيراً»، قال: «لأن في الجمع تفسيراً للمعنى الذي تشترك فيه الأشياء المتفرقة، تقدم أو تأخر».

قلت: وقد تقدمت الإشارة إلى «الجمع» و«التفريق» في تفسير الآية ٤ من سورة الدخان ص ١٩٦ تعليقا.

﴿ كَفَرْنَا عَنْهُمْ سِيَئَاتِهِمْ ﴾ سَتَرَ بِإِيمَانِهِمْ وَعَمَلِهِمُ الصَّالِحِ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْكُفْرِ
وَالْمَعَاصِي، لِرُجُوعِهِمْ عَنْهَا وَتَوْبَتِهِمْ، ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ أي: حَالَهُمْ وَسَأَتَهُمْ بِالتَّوْفِيقِ فِي أُمُورِ
الدُّنْيَا، وَبِالتَّسْلِيطِ عَلَى الدُّنْيَا، بِمَا أَعْطَاهُمْ مِنَ النُّصْرَةِ وَالتَّأْيِيدِ.

[﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ

لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ [٣]

﴿ ذَلِكَ ﴾ مُبْتَدَأٌ، وَمَا بَعْدَهُ خَبَرُهُ، أَي: ذَلِكَ الْأَمْرُ - وَهُوَ إِضْلَالُ أَعْمَالِ أَحَدِ
الْفَرِيقَيْنِ، وَتَكْفِيرُ سَيِّئَاتِ الثَّانِي - كَائِنٌ بِسَبَبِ اتِّبَاعِ هَؤُلَاءِ الْبَاطِلِ وَهَؤُلَاءِ الْحَقِّ. وَيَجُوزُ
أَنْ يَكُونَ ﴿ ذَلِكَ ﴾ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ، أَي: الْأَمْرُ كَمَا ذُكِرَ هَذَا السَّبَبُ، فَيَكُونُ مَحَلُّ الْجَارِ
وَالْمَجْرُورِ مَنْصُوبًا عَلَى هَذَا، وَمَرْفُوعًا عَلَى الْأَوَّلِ.

و﴿ الْبَاطِلَ ﴾: مَا لَا يُسْتَفْعَى بِهِ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ: الْبَاطِلُ: الشَّيْطَانُ، وَهَذَا الْكَلَامُ يُسَمِّيهِ
عُلَمَاءُ الْبَيَانِ: التَّفْسِيرَ، ﴿ كَذَلِكَ ﴾ مِثْلُ ذَلِكَ الضَّرْبِ ﴿ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾، وَالضَّمِيرُ
رَاجِعٌ إِلَى النَّاسِ، أَوْ إِلَى الْمَذْكُورَيْنِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، عَلَى مَعْنَى: أَنَّهُ يَضْرِبُ أَمْثَالَهُمْ لِأَجْلِ
النَّاسِ لِيَعْتَبِرُوا بِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيْنَ ضَرْبُ الْأَمْثَالِ؟ قُلْتَ: فِي أَنْ جَعَلَ اتِّبَاعَ الْبَاطِلِ مِثْلًا لِعَمَلِ الْكُفَّارِ،
وَاتِّبَاعَ الْحَقِّ مِثْلًا لِعَمَلِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ فِي أَنْ جَعَلَ الْإِضْلَالَ مِثْلًا لِحَيَّةِ الْكُفَّارِ، وَتَكْفِيرَ
السَّيِّئَاتِ مِثْلًا لِفُوزِ الْمُؤْمِنِينَ.

قوله: (فَيَكُونُ مَحَلُّ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ مَنْصُوبًا): قال صاحب «التقريب»: أي: على الحال (١).

قوله: (أَيْنَ ضَرْبُ الْأَمْثَالِ؟): يعني: معنى ضَرْبِ الْمَثَلِ: اسْتِعْمَالُ الْقَوْلِ السَّائِرِ الْمُشَبَّهِ
مَضْرُوبُهُ بِمُؤَرِّدِهِ، وَأَيْنَ ذَلِكَ هَاهُنَا؟ وَأَجَابَ: بِأَنَّ «الْمَثَل» هَاهُنَا مُسْتَعَارٌ لِلتَّمْثِيلِ وَتَشْبِيهِ حَالَتِي
الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، وَصِفَتِهِمُ الْعَجِيبَةَ الشَّأْنَ.

(١) في (ج) و(ف): «على حال»، والمثبت من (ط).

ثم إنَّ المُشَارَ إليه بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾: إما معنى الآية الثالثة، أو الأولى والثانية. فالمعنى على الثاني: حالة أولئك البُعْدَاءِ عن الله في أَنَّ أعمالهم الحسنة ضَلَّتْ وَبَطَلَتْ وصارت هباءً منثوراً، وحالة هؤلاء المُقَرَّبِينَ في أَنَّ أعمالهم السيئة اضمحلت وتلاشت، وما اكتفى بذلك، بل زيدَ إصلاحُ بهم، كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]: مِنَ الصِّفَاتِ^(١) العجيبة الشأن التي يَصِحُّ أن تكون مَوْقِعاً لِضَرْبِ المَثَلِ، وتسيرُ في الأفق.

وعلى الأول: صِفةُ الكُفَّارِ في أنهم اتبعوا الباطلَ مَعَ وُضوحِ الحَقِّ فخابوا، وصِفةُ المؤمنينَ في أنهم اتبعوا الحَقَّ ففازوا: مِنَ الأمثال. والأولُ أبلغُ وأحسن.

فإن قلت: تَرْتَّبُ قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ على القولِ السابق، وأن يُفسَّرَ قوله: ﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بأنَّ صَدُّوا غيرهم، والمرادُ المُطعمُونَ يومَ بدرٍ، فما وَجَّهه على القولِ الأول، وهو أن يُفسَّرَ «صَدُّوا» بـ«امتنعوا».

قلت: وَجَّهه عليه أظهر؛ لأنَّ المعنى: أيها المؤمنون، إذا ظهرَ أنَّ تأسيسَ أمرِ الكُفَّارِ على الباطل، وتأسيسَ أمرِكُمْ على الحَقِّ، وقد اشتَهَرَ أنَّ «الحَقَّ أبلج، والباطلُ لجلج»^(٢)، فلا تُبالوا بالكُفَّارِ وباجتماعِهم واستعدادِهم، واعتمِدُوا على نُضرةِ الله أهلِ الحَقِّ، وخذِلانِه أهلِ الباطلِ، وكونوا علىِ بالٍ من وَعَدِ الله أنه يُصلِحُ بالِ أهلِ الحَقِّ، ويُضِلُّ أعمالَ أعدائهم، وإذا لقيتُمُ الذينَ تَحَزَّبُوا عليكم، فلتُوجدَ منكم الغِلظةُ والشَّدَّةُ بضَرْبِ الأعناقِ بلا تَوانٍ وإمهال، ولذلكِ اختَصَرَ الفِعل، واقتَصَرَ على المَصْدَرِ المُؤكَّد، وَعَبَّرَ عن القَتْلِ^(٣) بـ«ضَرْبِ الرِّقَابِ»،

(١) قوله: «من الصفات...» مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ يُعَرَّبُ خَبَرَ ألقوله: «حالة».

(٢) أحدُ أمثال العرب، قال الميداني في «مجمع الأمثال» (١: ٢٠٧): «يعني: أنَّ الحَقَّ واضح، يُقال: صُنِحَ أبلج، أي: مُشرق...، والباطلُ لجلج: أي: مُلتبس، قال السُّبْرَدِيُّ: قوله: «لجلج»: أي: يتردَّدُ فيه صاحبُه، ولا يُصيبُ منه تحرجاً».

(٣) في (ح) و(ف): «العقل»، وهو تحريف، والمثبت من (ط).

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الرِّوَابَ فَأَمَّا مَنْ بَعْدَ وَإِنَّمَا فِدَاءَةٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴾ [٤-٦]

﴿لَقِيتُمْ﴾ مِنَ اللِّقَاءِ، وَهُوَ الْحَرْبُ، ﴿فَضَرْبِ الرِّقَابِ﴾ أَصْلُهُ: فَاضْرِبُوا الرِّقَابَ. ضَرْبًا، فَحُذِفَ الْفِعْلُ وَقُدِّمَ الْمَصْدَرُ، فَأُنِيبَ مَنَابَهُ مُضَافًا إِلَى الْمَفْعُولِ، وَفِيهِ اخْتِصَارٌ مَعَ إِعْطَاءِ مَعْنَى التَّوَكِيدِ، لِأَنَّكَ تَذَكَّرُ الْمَصْدَرَ وَتَدُلُّ عَلَى الْفِعْلِ بِالنَّصْبِ الَّتِي فِيهِ.

وَضَرْبُ الرِّقَابِ: عِبَارَةٌ عَنِ الْقَتْلِ، لِأَنَّ الْوَاجِبَ أَنْ تُضْرَبَ الرِّقَابُ خَاصَّةً دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْأَعْضَاءِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: ضَرَبَ الْأَمِيرُ رَقَبَةَ فُلَانٍ، وَضَرَبَ عُنُقَهُ وَعِلَاوَتَهُ، وَضَرَبَ مَا فِيهِ عَيْنَاهُ: إِذَا قَتَلَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ قَتْلَ الْإِنْسَانِ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ بَضْرِبِ رَقَبَتِهِ، فَوَقَعَ عِبَارَةٌ عَنِ الْقَتْلِ، وَإِنْ ضُرِبَ بغير رَقَبَتِهِ مِنَ الْمَقَاتِلِ، كَمَا ذَكَرْنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، عَلَى أَنَّ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ مِنَ الْغِلْظَةِ وَالشَّدَةِ مَا لَيْسَ فِي لَفْظِ الْقَتْلِ، لِمَا فِيهِ مِنْ تَصْوِيرِ الْقَتْلِ بِأَشْنَعِ صُورَةٍ، وَهُوَ حَزُّ الْعُنُقِ، وَإِطَارَةُ الْعُضْوِ الَّذِي هُوَ رَأْسُ الْبَدَنِ وَعُلُوُّهُ وَأَوْجُهُ أَعْضَائِهِ، وَلَقَدْ زَادَ فِي هَذِهِ الْغِلْظَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

وَتَمَّ الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، وَوَضَعَ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ^(١)، وَأُعِيدَ ذِكْرُ ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾.

قَوْلُهُ: (وَضَرْبَ عُنُقِهِ وَعِلَاوَتَهُ): الْمَغْرِبُ: «الْعِلَاوَةُ»: مَا عَلَّقَ عَلَى الْبَعِيرِ بَعْدَ حَمْلِهِ مِنْ مِثْلِ الْإِدَاوَةِ وَالسُّفْرَةِ، وَقَوْلُهُمْ: فَضَرْبَ^(٢) عِلَاوَةَ رَأْسِهِ؛ حِجَازٌ.

(١) أَي: كَانَ الْأَصْلُ أَنْ يُقَالَ: «فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَضَرْبِ الرِّقَابِ»، لِتَقْدِيمِ ذِكْرِهِمْ، وَلَكِنْ صَرَّحَ بِهِمْ فَقَالَ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ﴾.

(٢) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةُ: «قَصَدْتُ»، وَالْمُبْتَدَأُ مِنَ «الْمَغْرِبِ» لِأَبِي الْفَتْحِ الْمُطَّرِزِيِّ.

﴿أَخْتَمْتُمُوهُمْ﴾ أَكْثَرْتُمْ قَتْلَهُمْ وَأَغْلَطْتُمُوهُ؛ مِنَ الشَّيْءِ الشَّحِينِ: وَهُوَ الْعَلِيظُ، أَوْ أَثْقَلْتُمُوهُمْ بِالْقَتْلِ وَالْجِرَاحِ حَتَّى أَذْهَبْتُمْ عَنْهُمْ النُّهُوسَ، ﴿فَشَدُّوا الْوَتَاقَ﴾ فَأَسْرَوْهُمْ، وَالْوَتَاقُ - بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ -: اسْمٌ مَا يُوثِقُ بِهِ.

﴿مَتًّا﴾ و﴿فِدَاءً﴾ مَنْصُوبَانِ بِفِعْلَيْهِمَا مُضْمَرَيْنِ، أَي: فَإِذَا تَمَّنُونَ مَتًّا، وَإِذَا تُفْدُونَ فِدَاءً، وَالْمَعْنَى: التَّخْيِيرُ بَعْدَ الْأَسْرِ بَيْنَ أَنْ يَمُنُّوا عَلَيْهِمْ فَيُطْلِقُوهُمْ، وَبَيْنَ أَنْ يُفَادُواهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ حُكْمُ أَسَارِي الْمَشْرِكِينَ؟ قُلْتَ: أَمَا عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ: فَأَحَدُ أَمْرَيْنِ: إِذَا قَتَلْتَهُمْ، وَإِذَا اسْتَرَقَاهُمْ، أَيُّهُمَا رَأَى الْإِمَامَ، وَيَقُولُونَ فِي الْمَنِّ وَالْفِدَاءِ الْمَذْكُورَيْنِ فِي الْآيَةِ: نَزَلَ ذَلِكَ فِي يَوْمِ بَدْرٍ، ثُمَّ نُسِخَ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: لَيْسَ الْيَوْمَ مَنْ وَلَا فِدَاءً، وَإِنَّمَا هُوَ الْإِسْلَامُ أَوْ ضَرْبُ الْعُنُقِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالْمَنِّ: أَنْ يُمَنَّ عَلَيْهِمْ بِتَرْكِ الْقَتْلِ وَيُسْتَرْقُوا، أَوْ يُمَنَّ عَلَيْهِمْ فَيُخَلِّوْا لِقَبُولِهِمُ الْجِزْيَةَ، وَكَوْنِهِمْ مِنَ أَهْلِ الذَّمَّةِ، وَبِالْفِدَاءِ: أَنْ يُفَادِيَ بِأَسَارِهِمْ أَسَارِي الْمَشْرِكِينَ، فَقَدْ رَوَاهُ الطَّحَاوِيُّ مَذْهَبًا عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ، وَالْمَشْهُورُ أَنَّهُ لَا يَرَى فِدَاءَهُمْ، لَا بِهَالٍ وَلَا بغيره، خِيفَةَ أَنْ يَعُودُوا حَرْبًا لِلْمُسْلِمِينَ.

قوله: (وَالْوَتَاقُ - بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ -: اسْمٌ مَا يُوثِقُ بِهِ): الرَّاغِبُ: «وَوَثِقْتُ بِهِ أَثِقْتُ ثِقَةً» (١): سَكَنْتُ إِلَيْهِ، وَاعْتَمَدْتُ عَلَيْهِ، وَأَوْثَقْتُهُ: شَدَدْتُهُ، وَمَا يُشَدُّ بِهِ: وَتَاقٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُوثِقُ وَتَاقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَشَدُّوا الْوَتَاقَ﴾، وَالْمِيثَاقُ: عَقْدٌ مُؤَكَّدٌ بِيَمِينٍ وَعَهْدٌ، وَالْمَوْثِقُ: اسْمٌ مِنْهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّى تُوْتُونَ مَوْثِقَاتِكُمْ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٦٦]، وَالْوَثْقِيُّ: قَرِيبَةٌ مِنَ الْمَوْثِقِ، وَقَالُوا: رَجُلٌ ثِقَّةٌ، وَقَوْمٌ ثِقَّةٌ، وَنَاقَةٌ مَوْثِقَةٌ الْخَلْقُ: مُحْكَمَتُهُ» (٢).

(١) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ: «وَوَثِقْتُ بِهِ أَثِقْتُ»، وَالمُتَّبَعُ مِنَ «مَفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ» لِلرَّاغِبِ، مَادَّةُ (وَتَقُ).

(٢) «مَفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ» ص ٨٥٣.

وأما الشافعي فيقول: للإمام أن يختار أحدَ أربعةٍ على حَسَبِ ما اقتضاهُ نَظَرُهُ للمُسلِمِينَ، وهو: القَتْلُ، والأسْتِرْقَاقُ، والفِدَاءُ بِأَسَارِي المُسلِمِينَ، والمَنِّ. ويحتجُّ بأنَّ رسولَ الله ﷺ مَنَّ على أبي عُرْوَةَ الحَجَبِيِّ، وعلى أُنَالِ الحَنْفِيِّ، وفادى رجلاً بَرَجُلَيْنِ مِنَ المُشْرِكِينَ. وهذا كُلُّهُ منسوخٌ عند أصحابِ الرأْيِ.

قوله: (وأما الشافعي فيقول: للإمام أن يختارَ أحدَ أربعةٍ): قال القاضي: «هو ثابتٌ عندنا، فإنَّ الذَّكَرَ الحَرَّ المُكَلَّفَ إذا أُسِرَ: فالإمامُ مُخَيَّرٌ بَيْنَ القَتْلِ والمَنِّ والفِدَاءِ والأسْتِرْقَاقِ»^(١).

قوله: (الحَجَبِيُّ): في «الجامع»: «بفتح الحاءِ وفتح الجيم والباءِ المُوحَّدة؛ منسوباً إلى الحَجَبِيَّةِ جَمْعُ حَاجِبٍ، والمرادُ بهم: حَجَبَةُ البَيْتِ الحَرَامِ مِن بني عبدِ الدارِ، وهو خارجٌ عن القياسِ، نُسِبُوا إلى الجَمْعِ لكثرةِ الاستعمالِ»^(٢).

قوله: (أُنَالِ الحَنْفِيِّ): ولعلَّ الظاهر: ثُمَامَةُ بنُ أُنَالِ بنِ النُعْمَانِ^(٣)، قال صاحبُ «الجامع»: «هو سَيِّدُ أهلِ اليمامةِ، كانَ أُسِرَ، فأطلقه النبي ﷺ، فأسلمَ وحسُنَ إسلامُهُ»^(٤).

قوله^(٥): (وهذا كُلُّهُ منسوخٌ عند أصحابِ الرأْيِ): قال الواحدي: «ذهب جماعةٌ مِنَ المُفَسِّرِينَ إلى نَسْخِ المَنِّ والفِدَاءِ بالقَتْلِ، لقوله تعالى: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا نَشَقَفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهَمَّ﴾ [الأنفال: ٥٧]، وهو قولٌ قتادةٌ ومُجاهِدٍ والحسنِ والسُّدِّيِّ»^(٦).

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ١٨٩).

(٢) «جامع الأصول» لابن الأثير (١٢: ٣٣٦).

(٣) وهو الصواب، وقصة أسره مرويّة في «صحيح البخاري» (٤٦٢) و(٤٦٩) و(٢٤٢٢) و(٢٤٢٣) و(٤٣٧٢)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٤). وانظر ترجمته في «الإصابة» للحافظ ابن حجر (١: ٤١٠-٤١١).

(٤) «جامع الأصول» لابن الأثير (١٢: ٢٤٧).

(٥) هذه الفقرة إلى آخرها تقدّمت في (ح) و(ف) قبل فقرة «قوله: الحجبي»، ووردت في (ط) هنا، وهو المناسب لترتيب الكلام في «الكشاف».

(٦) «الوسيط» للواحدي (٤: ١١٩).

وَقَرِيءٌ: «فَدَى» بِالْقَصْرِ مَعَ فَتْحِ الْفَاءِ.

أَوْزَارُ الْحَرْبِ: آتَاها وَأَثْقَالُها التي لا تقومُ إلا بها، كالسِّلاحِ وَالْكَرَاعِ، قال الأَعشى:

وَأَعَدَدْتُ لِلْحَرْبِ أَوْزَارَهَا رِمَاحاً طَوَالاً وَخَيْلاً ذُكُوراً

وَسُمِّيَتْ: أَوْزَارِها؛ لأنه لَسَمًا لم يكن لها بُدٌّ مِنْ جَرِّها، فكأنها تحملُها وتَسْتَقِلُّ بها، فإذا

انْقَضَتْ فكأنها وَضَعَتْها. وقيل: أَوْزَارُها: آثامُها، يعني: حتى يترك أهلُ الحربِ - وهم المشركون - شِرْكَهُمْ وَمَعَاصِيَهُمْ بأن يُسَلِّمُوا.

فإن قلت: ﴿حَقٌّ﴾ بِمِ تَعَلَّقْتَ؟ قلت: لا تخلو: إما أن تَتَعَلَّقَ بِالضَّرْبِ وَالشَّدِّ، أو

بِالْمَنْ وَالْفِدَاءِ، فالمعنى على كِلَا الْمُتَعَلِّقَيْنِ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: أَنَّهُمْ لا يَزَالُونَ على

ذَلِكَ أَبَدًا إلى أن لا يكونَ حَرْبٌ مَعَ المُشْرِكِينَ، وذلك إذا لم يَبْقَ لَهُمْ شَوْكَةٌ، وقيل: إذا

نَزَلَ عيسى ابنُ مَرْيَمَ عليه السَّلَامُ. وعند أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ: إذا عَلِقَ بِالضَّرْبِ وَالشَّدِّ:

فالمعنى: أَنَّهُمْ يُقْتَلُونَ وَيُؤَسَّرُونَ حتى تَضَعَ جِنْسُ الْحَرْبِ الأَوْزَارَ، وذلك حينَ لا تَبْقَى

شَوْكَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ، وإذا عَلِقَ بِالْمَنْ وَالْفِدَاءِ: فالمعنى: أَنَّهُ يُمَنُّ عَلَيْهِمْ وَيُفَادُونَ حتى

تَضَعَ حَرْبُ بَدْرِ أَوْزَارِها، إلا أن يُتَأَوَّلَ الْمَنْ وَالْفِدَاءُ بِمَا ذَكَرْنَا مِنَ التَّأْوِيلِ.

قوله: (إلا أن يُتَأَوَّلَ الْمَنْ وَالْفِدَاءُ): استثناءٌ مِنْ قوله: «فالمعنى»، يعني: إذا عَلِقَتْ

﴿حَقٌّ﴾ بِالْمَنْ وَالْفِدَاءِ على مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ، فالمعنى: حتى تَضَعَ حَرْبُ بَدْرِ أَوْزَارِها، فإذا

مَضَتْ لا يكونُ مَنٌّْ ولا فِدَاءٌ، إلا أن يُفَسَّرَ الْمَنْ بِالاسْتِرْقَاقِ وبأَخِذِ الحِزْبِيَّةِ، والفِدَاءُ بِأن يُفَادَى

أَسَارَهُمْ بِأَسَارِي المُشْرِكِينَ، كما روى الطحاويُّ عن أبي حنيفة، فحينئذٍ لا يحتاجُ إلى تقدير: «حرب بدر».

قال الزجاج: ﴿حَقٌّ﴾ موصولةٌ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ، والمعنى: فاقْتُلُوهُمْ وَأَسْرُوهُمْ حتى

تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارِها، والتقدير: حتى يُسَلِّمُوا وَيُؤْمِنُوا فلا يجبُ أن تُحَارِبُوهُمْ، فما دامَ الكُفْرُ

فالجِهادُ والحَرْبُ قائمةٌ أَبَدًا»^(١).

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٦: ٥).

﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمرُ ذلك، أو افعَلُوا ذلك، ﴿لَأَنْصَرِمَهُمْ﴾ لانتَقَمَ منهم ببعض أسبابِ الهلكة؛ مِنْ حَسْفٍ، أو رَجْفَةٍ، أو حَاصِبٍ، أو غَرَقٍ، أو مَوْتٍ جَارِفٍ، ﴿وَلَكِنْ﴾ أَمَرَكُم بِالْقِتَالِ لِيَبْلُوَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْكَافِرِينَ أَنْ يُجَاهِدُوا وَيَصْبِرُوا حَتَّى يَسْتَوْجِبُوا الثَّوَابَ الْعَظِيمَ، وَالْكَافِرِينَ بِالْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يُعَاجِلَهُمْ عَلَى أَيْدِيهِمْ بِبَعْضِ مَا وَجَبَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ.

وَقُرِئَ: ﴿قَاتِلُوا﴾ بِالْتَخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، وَ«قَاتِلُوا»، وَ«قَاتِلُوا»، وَقُرِئَ: ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، وَ«تُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ» عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، وَ«يُضِلُّ أَعْمَالَهُمْ»؛ مِنْ: ضَلَّ. وَعَنْ قَتَادَةَ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي يَوْمِ أُحُدٍ.

﴿عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ أَعْلَمَهَا لَهُمْ وَبَيَّنَّهَا بِمَا يَعْلَمُ بِهِ كُلُّ أَحَدٍ مَنْزِلَتَهُ وَدَرَجَتَهُ مِنَ الْجَنَّةِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: يَهْتَدِي أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَى مَسَاكِينِهِمْ مِنْهَا لَا يُخْطِئُونَ، كَأَنَّهُمْ كَانُوا سُكَّانَهَا مِنْذُ خُلِقُوا لَا يَسْتَدِلُّونَ عَلَيْهَا. وَعَنْ مُقَاتِلٍ: إِنَّ الْمَلَكَ الَّذِي وَكَّلَ بِحِفْظِ عَمَلِهِ فِي الدُّنْيَا يَمْشِي بَيْنَ يَدَيْهِ، فَيَعْرِفُهُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ. أَوْ: طَيَّبَهَا لَهُمْ، مِنَ الْعَرَفِ، وَهُوَ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ.

قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمرُ ذلك): قيل: هو إشارةٌ إلى ما تَقَدَّمَ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى هُنَا، وَهَذَا بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِمْ فِي الْكِتَابِ: «هَذَا، وَقَدْ كَانَ كَيْتٌ وَكَيْتٌ»، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمَشَارَإِ إِلَيْهِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ إِلَى آخِرِهِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: «أَوْ افْعَلُوا ذَلِكَ».

قوله: (أَوْ مَوْتٍ جَارِفٍ): الْأَسَاسُ: «جَرَفَ الشَّيْءُ وَاجْتَرَفَهُ: ذَهَبَ بِهِ كُلَّهُ، وَجَرَفَ الطِّينَ وَالزَّبْلَ عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ: سَحَاهُ بِالْمِجْرَفَةِ، وَتَجَرَفَتُهُ السُّيُولُ».

قوله: (وَقُرِئَ: ﴿قَاتِلُوا﴾): بِالْتَخْفِيفِ وَصَمِّ الْقَافِ: أَبُو عَمْرٍو وَحَفْصٌ، وَالباقون: «قاتلوا». و﴿فَلَنْ يُضِلَّ﴾ بالياءِ التَّحْتَانِيَّةِ: السَّبْعَةُ^(١).

(١) قوله: «و﴿فَلَنْ يُضِلَّ﴾ بالياءِ التَّحْتَانِيَّةِ: السَّبْعَةُ»: سَقَطَ مِنْ (ح). وَانظُرْ: «التَّيْسِيرُ» لِلدَّانِي ص ٢٠٠، وَ«حِجَةُ الْقِرَاءَاتِ» ص ٦٦٧.

وفي كلام بعضهم: عَزَفَ كَنَوْحَ الْقَهْمَارِيِّ، وَعَزَفَ كَفَوْحِ الْقَهْمَارِيِّ. أَوْ: حَدَدَهَا لَهُمْ، فَجَنَّتْ كُلُّ أَحَدٍ مَحْدُودَةً مُفْرَزَةً عَنْ غَيْرِهَا، مِنْ: عَرَّفَ الدَّارَ وَأَرْفَعَهَا، وَالْعَرْفُ وَالْأَرْفُ: الْحُدُودُ.

[﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [٧]

﴿إِنْ نَصَرُوا﴾ (الله) ورسوله ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾ على عدوكم، ويفتح لكم، ﴿ويثبت أقدامكم﴾ في مواطن الحرب، أو على محجة الإسلام.

[﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَاءَلْتَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾

[٩-٨]

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يحتمل الرفع على الابتداء، والنصب بما يُفسرُه، ﴿فَتَسَاءَلْتَهُمْ﴾، كأنه

قال: أتعس الذين كفروا.

قوله: (عَزَفَ كَنَوْحِ الْقَهْمَارِيِّ): العَزَفُ - بالزاي - الصَّوْتُ^(١)، الجوهري: «المعازِف:

الملاهي، وعَزَفَ الرِّيحُ: أَصَوَاتُهَا».

قوله: (أَوْ: حَدَدَهَا): عَطَفٌ عَلَى «طَيِّبَهَا».

وقلت: ويُمكنُ أن يُكنَى بالعَرَفِ عن التعريف، قال:

أَرَادُوا لِيُخْفُوا قَبْرَهَا عَنْ مُحِبِّهَا فَطِيبُ تُرَابِ الْقَبْرِ دَلٌّ عَلَى الْقَبْرِ^(٢)

أي: كلُّ يَهْتَدِي إِلَى جَنَّتِهِ بِرُوحِ عَمَلِهِ. هذا قريبٌ من قولِ مُجَاهِدٍ.

قوله: (كأنه قال: أتعس الذين كفروا): فعلى هذا، هو عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتْ

(١) قوله: «عَزَفَ كَنَوْحِ الْقَهْمَارِيِّ»: المراد بـ«القَهْمَارِيِّ»: نوعٌ من الحمام، الواحدة: قَهْمَرِيَّةٌ، أما قوله: «وعَزَفَ

كَنَوْحِ الْقَهْمَارِيِّ»: فالمراد: العودُ القَهْمَارِيُّ، وهو عودٌ يُتَخَرَّبُ به، يُجَلَّبُ من موضع ببلادِ الهِنْدِ يقال له: قَهْمَارُ.

انظر: «القاموس» للفيروزآبادي، مادة (قمر).

(٢) قال البهاءُ العاملي في «الكشكول» (١: ٧٣-٧٤): «لَمَّا مَاتَ لَيْلَى أَتَى الْمَجْنُونُ إِلَى الْحَيِّ، وَسَأَلَ عَنْ

قَبْرِهَا، وَلَمْ يَهْدُوهُ إِلَيْهِ، فَأَخَذَ يَسْمُ تُرَابَ كُلِّ قَبْرِ يَمُرُّ بِهِ، حَتَّى سَمَّ تُرَابَ قَبْرِهَا، فَعَرَفَهُ، وَأَنْشَدَ الْبَيْتَ، ثُمَّ

مَا زَالَ يُكْرِرُهُ حَتَّى مَاتَ وَدُفِنَ إِلَى جَنْبِهَا».

فإن قلت: عَلَامَ عَطَفَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾؟ قلت: على الفعل الذي نَصَبَ «تَعَسَا»، ولأنَّ المعنى: فقال: تَعَسَا لَهُمْ، أو: ففَضَى: تَعَسَا لَهُمْ. و«تَعَسَا لَهُ»: نقيض «لَعَا لَهُ»، قال الأعشى:

فالتعسُ أولى لها من أن أقول: لَعَا

أَقْدَامُكُمْ، أي: يُبَيِّنُ اللهُ أقدامَ المؤمنين، ويُتَعَسُّ الكُفَّارَ، والفاءُ في قوله: ﴿فَتَعَسَا لَهُمْ﴾: كما في قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾، أي: أراد اللهُ أن يُتَعَسَّهْمَ، ففَضَى: تَعَسَا لَهُمْ، أو: فقال: تَعَسَا لَهُمْ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، كما قَدَّرَها المصنِّفُ.

وعلى أن يكون ابتداء: هو عطفُ جُمْلَةٍ على جُمْلَةٍ شَرْطِيَّةٍ مِثْلِهَا، ولذلك أُدخِلَتِ الفاءُ في خَبَرِ الموصولِ، كما قَدَّرَهُ الزجاجُ، فالمرادُ بالذين كفروا: مَنْ يُضَادُّ الذينَ يَنْصُرُونَ دينَ الله، كأنه قيل: إن تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ، وَمَنْ لم يَنْصُرْهُ فَتَعَسَا لَهُ، فَوَضَعَ «الذينَ كَفَرُوا» مَوْضِعَ «مَنْ لم يَنْصُرْهُ» تغليظاً. هذا القولُ أَوْفَقُ لِأَسْلُوبِ السُّورَةِ مِنَ التَّقَابِلِ المَعْنَوِيِّ.

قوله: (فالتعسُ أولى لها من أن أقول: لَعَا): تمامه في «الصَّحاح»^(١):

بذاتِ لَوِثٍ عَفْرَانَةٌ إِذَا عَثَرَتْ^(٢)

لَعَوَةُ الجَوْعِ: حَدَّثَتْهُ، وَيُقَالُ لِلْعَائِثِ: «لَعَا لَكَ» دَعَاءٌ عَلَيْهِ بِأَنْ يَتَّعِشَ، وَاللَّوْثُ - بِالْفَتْحِ -: القُوَّةُ، نَاقَةٌ عَفْرَانَةٌ: قَوِيَّةٌ، بِالْعَيْنِ المَهْمَلَةِ والفاءِ والنونِ، وَالْأَلْفُ لِلإِلْحَاقِ، قَبْلَهُ: كَلَّفْتُ مَجْهُولَهَا^(٣) نَفْسِي وشَايَعَنِي هَمِّي عَلَيْهَا إِذَا مَا أَلَّهَا لَمَعَا

(١) ذكره الجوهري في «الصَّحاح»، مادة (لوث).

(٢) البيتُ للأعشى، كما في «ديوانه» ص ١٠٧.

وكذا ذكره الزمخشريُّ نَفْسَهُ في «المستقصى في أمثال العرب» (٢: ٢٦٦) رقم (٩٢٧)، وأبو عُبيد القاسمُ ابنُ سَلامٍ في كتاب «الأمثال» («فصل المقال» للبيكري ص ١٠١)، وابنُ منظورٍ في «لسان العرب»، مادة (لوث) و(تعس) و(لعا). وعند الزمخشري: «أولى لها»، وعند غيره: «أدنى لها».

(٣) في (ح) و(ف): «كلفت بها» ولا يستقيم، والمثبت من (ط)، وهو الموافقُ لِمَا في «ديوان الأعشى» ص ١٠٧، و«لسان العرب»، مادة (لوث)، ويدلُّ على صوابه قولُ المؤلِّفِ بعد قليلٍ في شَرْحِهِ: «بلدة مجهولة».

يُريد: فالعُثُورُ والانحِطاطُ أَقْرَبُ لها مِنَ الانْتِعاشِ والثُّبوتِ.

وعن ابن عباس: يُريد في الدنيا: القتل، وفي الآخرة: التردّي في النار.

﴿كُرِهُوا﴾ القرآن و﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ فيه مِنَ التكاليفِ والأحكام، لأنهم قد أَلْفُوا الإهمالَ وإطلاقَ العنانِ في الشَّهواتِ والمَلادَ، فَشَقَّ عليهم ذلك وتعاضَمَهم.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ

أَمْثَلُهَا﴾ [١٠]

دَمَّرَهُ: أَهْلَكَه، وَدَمَّرَ عَلَيْهِ: أَهْلَكَ عَلَيْهِ مَا يَخْتَصُّ بِهِ، وَالْمَعْنَى: دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا اخْتَصَّ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَكُلِّ مَا كَانَ لَهُمْ، ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ الضميرُ للعاقبة المذكورة أو للهلكة، لأنَّ التدميرَ يَدُلُّ عليها، أو للسنة، لِقَوْلِهِ عَزَّ وَعَلَا: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

المعنى: قَوِي هَمِّي عَلَى قَطْعِ بَلَدَةٍ مَجْهُولَةٍ الأعلام إذا ما سَرَّابُهَا يَلْمَعُ، بِنَاقَةِ ذاتِ قُوَّةٍ غليظة.

قال الزجاج: «الذين: مُبْتَدَأٌ، والخبر: ﴿فَتَعَسَّاهُمْ﴾، ويجوزُ أن يكونَ نَصْباً على معنى: أتعَسَّهم اللهُ، والتعَسُّ: الانحِطاطُ والعُثُورُ»^(١). وقال مكِّي: «الذين كَفَرُوا»: مُبْتَدَأٌ، وما بعده: الخبر، و﴿تَعَسَّاهُمْ﴾: نَصْبٌ على المَصْدَرِ، وهو مُشْتَقٌّ عن فِعْلِ مُسْتَعْمَلٍ، ويجوزُ الرَفْعُ على الابتداء، و﴿لَهُمْ﴾: الخبر، والجملة: خبرُ (الذين)»^(٢).

قوله: (وَدَمَّرَ عَلَيْهِ: أَهْلَكَ عَلَيْهِ مَا يَخْتَصُّ بِهِ): الأساس: «دَمَّرَ عَلَيْهِمْ، وهو إهلاك»^(٣) مُسْتَأْصِلٌ، وَدَمَّرْتُ عَلَى الْقَوْمِ: هَجَمْتُ عَلَيْهِمْ بغيرِ اسْتِئْذَانٍ، دُمُوراً».

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥: ٨).

(٢) «مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب (٢: ٦٧١).

(٣) في الأصول الخطية: «هلاك»، والمثبت من «أساس البلاغة»، مادة (دمر).

[﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكٰفِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ ١١]

﴿مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وَلِيَّهُمْ وَنَاصِرُهُمْ، وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا»، وَيُرْوَى: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ فِي الشَّعْبِ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقَدْ فَشَتْ فِيهِمُ الْجِرَاحَاتُ، وَفِيهِ نَزَلَتْ، فَنَادَى الْمُشْرِكُونَ: اَعْلُ هُبَلٌ، فَنَادَى الْمُسْلِمُونَ: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ، فَنَادَى الْمُشْرِكُونَ: يَوْمٌ يَوْمٌ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ، إِنَّ لَنَا عِزِّي وَلَا عِزِّي لَكُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ، إِنَّ الْقَتْلَى مُخْتَلِفَةٌ: أَمَا قَتَلْنَا فَأَحْيَاءٌ يُرَزَقُونَ، وَأَمَا قَتَلْنَاكُمْ فِي النَّارِ يُعَذَّبُونَ».

فَإِن قُلْتَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٠] مُنَاقِضٌ لِهَذِهِ الْآيَةِ؟ قُلْتَ: لَا تَنَاقُضٌ بَيْنَهُمَا، لِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى عِبَادِهِ جَمِيعًا عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ رَبُّهُمْ وَمَالِكٌ أَمْرِهِمْ، وَأَمَا عَلَى مَعْنَى النَّاصِرِ: فَهُوَ مَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً.

وَقُلْتَ: كَأَنَّ فِي «دَمَّرَ عَلَيْهِمْ» تَضْمِينَ مَعْنَى «أَطْبَقَ»، فَعُدِّي بِ«عَلَى»، فَإِذَا أَطْبَقَ عَلَيْهِمْ دَمَارًا لَمْ يَخْلُصْ مِمَّا يَخْتَصُّ بِهِ أَحَدٌ.

قَوْلُهُ: (كَانَ فِي الشَّعْبِ): الْجَوْهَرِيُّ: «الشَّعْبُ - بِالْكَسْرِ -: الطَّرِيقُ فِي الْجَبَلِ، وَالْجَمْعُ: الشُّعَابُ».

قَوْلُهُ: (اعْلُ هُبَلٌ): هَذَا مَذْكُورٌ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ قَالَهُ أَبُو سُفْيَانَ يَوْمَ أُحُدٍ، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ^(١) عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ.

النِّهَايَةُ: «هُبَلٌ - بَضْمٌ الْهَاءِ -: اسْمٌ صَنَمٌ لَهُمْ مَعْرُوفٌ»، «الْحَرْبُ سِجَالٌ»: أَي: مَرَّةً لَنَا وَمَرَّةً عَلَيْنَا، وَأَصْلُهُ: أَنَّ الْمُسْتَقِيمِينَ بِالسَّجْلِ^(٢) يَكُونُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ سَجْلٌ.

(١) الْبُخَارِيُّ (٣٠٣٩) وَ(٤٠٤٣)، وَلَمْ أَقِفْ عَلَيْهِ فِي «سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ».

(٢) السَّجْلُ: الدَّلْوُ الْعَظِيمَةُ، كَمَا فِي «الْقَامُوسِ»، مَادَّةُ (سَجَل).

[إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْمَعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾]

﴿يَسْمَعُونَ﴾ يَتَّبِعُونَ بِمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَيَّامًا قَلِيلًا، ﴿وَيَأْكُلُونَ﴾ غَافِلِينَ غَيْرَ مُفَكِّرِينَ فِي الْعَاقِبَةِ ﴿كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ فِي مَسَارِحِهَا وَمَعَالِفِهَا، غَافِلَةٌ عَمَّا هِيَ بِصَدَدِهِ مِنَ النَّحْرِ وَالذَّبْحِ، ﴿مَثْوًى لَهُمْ﴾ مَنَزَلٌ وَمَقَامٌ.

[﴿وَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِينِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكَنَّهُمْ فَلَا تَأْصِرْ لَهُمْ ﴿١٣﴾]

وَقُرَيْ: «وَكَاثِن» بوزن «كاعن» وأراد بالقريّة: أهلها،

قوله: (غير مُفَكِّرِينَ فِي الْعَاقِبَةِ ﴿كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾): فَإِن قُلْتَ: أَيْنَ مَوْقِعُ التَّقَابُلِ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؟ قُلْتَ: مَوْقِعُهُ إِيقَاعُ ﴿يَسْمَعُونَ وَيَأْكُلُونَ﴾ مُقَابِلًا لِقَوْلِهِ: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وَفِيهِ إِيْبَاءٌ إِلَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»، أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ^(١)، يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَفَكَّرُوا، فَعَرَفُوا أَنَّ الدُّنْيَا وَنَعِيمَهَا فِي وَشَكِّ الزَّوَالِ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ، فَحَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَطَلَبِ مَرْضَاتِهِ، وَصَبَرُوا عَلَى مَشَاقِّ التَّكَالِيفِ، وَعَزَفُوا عَنِ مَلَاذِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا، فَكَانَتِ الْعَاقِبَةُ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي ذَلِكَ، فَاشْتَعَلُوا بِالدُّنْيَا عَنِ الْآخِرَةِ، وَتَمَتَّعُوا أَيَّامًا قَلِيلًا يَأْكُلُونَ غَافِلِينَ، وَالْحَالُ أَنَّ النَّارَ مَثْوًى لَهُمْ.

أُسَيْدٌ إِدْخَالَ الْجَنَّةِ إِلَى اللَّهِ، وَأُهْمِلَ إِسْنَادُ النَّارِ، وَخُوِلَفَ بَيْنَ الْجَمْلَتَيْنِ فِعْلِيَّةٌ وَاسْمِيَّةٌ؛ لِلإِيذَانِ بِسَبْقِ الرَّحْمَةِ، وَالإِعْلَامِ بِتَضْيِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالوَعْدِ بِأَنَّ عَاقِبَتَهُمْ أَنَّ اللَّهَ يُدْخِلُهُمْ جَنَاتٍ، وَأَنَّ الْكَافِرِينَ مَثْوَاهُم النَّارُ، وَهَمُ الْآنَ حَاضِرُونَ فِيهَا، وَلَا يَدْرُونَ، وَكَالْبَهَائِمِ يَأْكُلُونَ.

قوله: (وَقُرَيْ: «وَكَاثِن» بوزن «كاعن»): قرأها ابن كثير^(٢).

(١) في «صحيحه» برقم (٢٩٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «التيسير» لللداني ص ٩٠، و«حجة القراءات» ص ١٧٤.

ولذلك قال: ﴿أَهْلَكْتَهُمْ﴾ كأنه قال: وكم من قوم هم أشدُّ قُوَّةً من قومك الذين أخرجوك أهلكناهم، ومعنى «أخرجوك»: كانوا سبب خروجك. فإن قلت: كيف قال: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾؟ وإنما هو أمرٌ قد مضى؟ قلت: مجراه مجرى الحال المحكيَّة، كأنه قال: أهلكناهم فهم لا يُنصرون.

[﴿أَمَّنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِن رَّبِّهِ كَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ١٤]

«مَنْ زَيْنَ لَهُ»: هم أهل مكة الذين زينَ لهم الشيطانُ شركهم وعداوتهم لله ورسوله، و«مَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِن رَّبِّهِ» - أي: على حُجَّةٍ مِنْ عِنْدِهِ وَبُرْهَانٍ، وهو القرآنُ المعجزُ وسائرُ المعجزات - : هو رسولُ الله ﷺ. وقري: «أَمَّنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ»، وقال: ﴿سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا﴾ للحمل على لفظ «مَنْ» ومعناه.

[﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَنْغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذِقٍ لَشْرِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ ١٥]

فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ... كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾؟ قلت: هو كلامٌ في صورة الإثبات ومعنى النفي والإنكار، لانطوائه تحت حكم كلام مُصدِّرٍ بحرف الإنكار،

قوله: (كأنه قال: وكم من قوم هم أشدُّ قُوَّةً): قال مكِّي: ﴿مَنْ قَرَيْكَ الَّتِي أَخْرَجَكَ﴾ مما حُذِفَ فِيهِ الْمُضَافُ، وَأَقِيمَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ مَقَامَهُ، أَي: الَّتِي أَخْرَجَكَ أَهْلَهَا، فَحُذِفَ «الْأَهْلُ»، فَقَامَ ضَمِيرُ «الْقَرْيَةِ» مَقَامَهُمْ، فَصَارَ مَرْفُوعًا بِ«أَخْرَجَ» وَاسْتَتَرَ فِيهِ، وَظَهَرَتْ عِلْمَةُ التَّأْنِيثِ^(١).

قوله: (لانطوائه تحت حكم كلام مُصدِّرٍ بحرف الإنكار): الانتصاف: «لقد أحسن، وفي الكلام حذفٌ لِيَتِمَّ الْمُعَادَلَةُ وَتَصِحَّ الْمُقَابَلَةُ^(٢)»، أَي: مَثَلُ سَاكِنِ الْجَنَّةِ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ

(١) «مُشْكِلُ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ» لِمَكِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (٢: ٦٧٢).

(٢) لأنه لا مُعَادَلَةَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَبَيْنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ. قَالَ ابْنُ الْمُثَنَّبِ نَفْسُهُ فِي «الْإِنْتِصَافِ»، وَاخْتَصَرَهُ الْمُؤَلِّفُ. كَعَادَتِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كَثِيرٍ مِنْ نُقُولِهِ.

الْحَاجِّ... كَمَنْ ءَامَنَ ﴿ [التوبة: ١٩]، أي: أهل سِقَايَةٍ، فيكونُ حَيْثُ تَنْظِيرُ بَعْدِ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الْمُتَمَسِّكِ بِالْبَيْتَةِ وَرَاكِبِ الْهُوَى بَعْدَ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الْمُتَمَسِّكِ فِي الْجَنَّةِ وَالْمُعَذَّبِ فِي النَّارِ، وَهُوَ مِنْ بَابِ تَنْظِيرِ الشَّيْءِ بِنَفْسِهِ بِاعْتِبَارِ حَالَيْنِ، إِحْدَاهُمَا أَوْضَحُ بَيَانًا مِنَ الْآخَرَى، فَالْمُتَمَسِّكُ بِالْبَيْتَةِ هُوَ الْمُتَمَسِّكُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْمُتَبِعُ الْهُوَى هُوَ الْمُعَذَّبُ فِي النَّارِ»^(١).

وقلت: قد افْتُحِحَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ، وَوُصِّمَتْ بِرَاعَةِ اسْتِهْلَاقِهَا، بِصِيغَةِ التَّقَابُلِ فِي الذِّينِ كَفَرُوا، وَثُنِيَ فِي أَنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا؛ سَلُوكَ تِلْكَ الطَّرِيقَةَ، وَتِلْكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتْنَةٍ﴾ ذَلِكَ، وَجُعِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِهَا مُتَفَرِّعَةً عَلَى هَذِهِ الْقَرِينَةِ بِدَلَالَةِ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ، وَجُعِلَ الْمُسَبَّبُ وَالْمُشَبَّهُ بِهِ بِتَمَامِهِ مُثَلًّا بِهِ، كَمَا قَرَّرَهُ صَاحِبُ «الانْتِصَافِ».

وَإِنَّمَا فَصَّلَ بَيْنَ الْكَلَامَيْنِ^(٢) لِيَقَعَ قَوْلُهُ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ اسْتِثْنَاءً، وَذَلِكَ أَنَّ الْكَافِرَ لَسَمَا أَلْقِيَ إِلَيْهِ نَفْيُ الْمَسَاوَةِ بَيْنَ مَنْ هُوَ عَلَى بُرْهَانٍ مِنْ رَبِّهِ، - وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمُعْجِزُ - وَبَيْنَ مَنْ رَكِبَ مَثَنَ الْهُوَى وَاتَّبَعَ الشَّهَوَاتِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾، وَقُدِّرَ أَنَّهُ لِعَدَمِ الْإِنْفَاتِهِ إِلَى هَذَا الْإِنْكَارِ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يُبْصِرُ عَلَى إِنْكَارِهِ، وَيَقُولُ بِالتَّسْوِيَةِ، فَأَوْقَعَ ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ إِلَى سَاقِيهِ جَوَابًا إِلَى هَذَا الْإِنْكَارِ الْمُتَجَدِّدِ، يَعْنِي: إِنْكَارَكُمْ هَذَا يَسْتَلْزِمُ التَّسْوِيَةَ بَيْنَ حَالَتِي أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

وَالنُّكْتَةُ فِي إِيرَادِ هَذَا الْاسْتِثْنَاءِ: هِيَ أَنَّ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْمُقَرَّرَةِ الَّتِي تَبَيَّنَتْ بِهِ الدَّعَاوَى^(٣)؛ لظُهُورِ أَدْلَتِهِ، وَأَدْمِجَ^(٤) فِيهِ مَعْنَى التَّعْرِيفِ بِأَنَّهُمْ فِي هَذَا الْإِصْرَارِ مَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ، وَبِأَنَّ الَّذِي هُوَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ فِي جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.

(١) «الانتصاف» (٣: ٥٣٣) بحاشية «الكشاف».

(٢) أي: بين هذه الآية والآيات التي تقدمتها في السورة، مع أنها متفرعة عليها، فكان حَقُّهَا أَنْ تُعْطَفَ عَلَيْهَا، وَلَكِنَّهَا فَصِلَتْ عَنْهَا، أَي: تَرِكَ الْعَطْفَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَا قَبْلَهَا.

(٣) تَحَرَّفَ فِي (ف) إِلَى: «الدواعي».

(٤) تَقَدَّمَ مَعْنَى الْإِدْمَاجِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ١١٥ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ (٧: ٣٨١) تَعْلِيقًا.

وَدُخُولِهِ فِي حَيْزِهِ، وَاِنْخِرَاطِهِ فِي سَبِيلِكِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيمَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَا كَانَ زَيْنٌ لَهُ سُوءٌ عَلَيْهِ﴾، فَكَانَهُ قِيلَ: أَمْثَلُ الْجَنَّةِ كَمَا هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ؟ أَيْ: كَمَا هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ عَرَّبِي مِنْ حَرْفِ الْإِنْكَارِ، وَمَا فَائِدَةُ التَّعْرِيَةِ؟ قُلْتُ: تَعْرِيَّتُهُ مِنْ حَرْفِ الْإِنْكَارِ فِيهَا زِيَادَةٌ تَصْوِيرٌ لِمُكَابَرَةِ مَنْ يُسَوِّي بَيْنَ الْمُتَمَسِّكِ بِالْبَيْتَةِ وَالتَّابِعِ لَهَا، وَأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يُبْتِغِي التَّسْوِيَةَ بَيْنَ الْجَنَّةِ الَّتِي تَجْرِي فِيهَا تِلْكَ الْأَنْهَارُ، وَبَيْنَ النَّارِ الَّتِي يُسْقَى أَهْلُهَا الْحَمِيمِ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُ الْقَائِلِ:

أَفْرَحُ أَنْ أُرْزَأَ الْكِرَامَ وَأَنْ أُوْرَثَ دَوْدًا شَصَائِصًا نَبَلًا

عَنْ بَعْضِهِمْ: أَنَّ الْهَمْزَةَ فِي ﴿أَفَمَنْ كَانَ﴾ تَوْقِيفٌ وَتَقْرِيرٌ، لِأَنَّ الْجَوَابَ مَعْلُومٌ، كَمَا أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: مَنْ يَفْعَلُ السَّيِّئَاتِ يَشُقُّ، وَمَنْ يَفْعَلُ الْحَسَنَاتِ يَسْعَدُ، ثُمَّ قُلْتَ: الشَّقَاءُ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ السَّعَادَةُ؟ فَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الْجَوَابَ: السَّعَادَةُ، فَهَذَا مَجْرَى هَمْزَةِ التَّوْقِيفِ وَالتَّقْرِيرِ.

الرَّاعِبُ: «مَنْ: عِبَارَةٌ عَنِ النَّاطِقِينَ، وَلَا يُعْبَرُ بِهِ عَنِ غَيْرِ النَّاطِقِينَ إِلَّا إِذَا جُمِعَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ، كَقَوْلِكَ: رَأَيْتُ مَنْ فِي الدَّارِ مِنَ النَّاسِ وَالبَهَائِمِ، أَوْ يَكُونُ تَفْصِيلًا لِحُمْلَةِ يَدْخُلُ فِيهِمُ النَّاطِقُونَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي﴾ [النور: ٤٥] الْآيَةَ، وَلَا يُعْبَرُ عَنِ النَّاطِقِينَ إِذَا تَفَرَّدَ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ الْمُحَدِّثِينَ فِي صِفَةِ أَغْنَامٍ نَفَى عَنْهُمْ الْإِنْسَانِيَةَ:

تُحْطِي إِذَا جَنَّتْ فِي اسْتِفْهَامِهِمْ بِ«مَنْ»

تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّهُمْ حَيَوَانٌ أَوْ دُونَ الْحَيَوَانِ»^(١).

قَوْلُهُ: (أَفْرَحُ أَنْ أُرْزَأَ الْكِرَامَ) الْبَيْتِ: شَصُوصٌ: وَهِيَ النَّاقَةُ الْقَلِيلَةُ اللَّبَنِ، النَّسْبُ بِالضَّمِّ -: جَمْعُ بُئَلَةٍ^(٢)، وَبِالْفَتْحِ: جَمْعُ نَبِيلٍ، كَكُرْمٍ وَكُرْمٍ، وَالنَّسْبُ أَيْضًا: صِغَارُ الْإِبِلِ، وَهُوَ

(١) قول الراغب سقط من (ح) و(ف)، وهو في «المفردات» (من).

(٢) وهي العطية.

هو كلامٌ مُنْكَرٌ لِلْفَرْحِ بِرِزْيَةِ الْكِرَامِ وَوِرَاثَةِ الذُّودِ، مع تَعَرِّيهِ من حرفِ الإنكارِ، لانطوائِهِ تحتِ حُكْمِ قَوْلِ مَنْ قَالَ: أَتَفْرَحُ بِمَوْتِ أَخِيكَ وَبِوِرَاثَةِ إِبِلِهِ، والذي طُرِحَ لِأَجْلِهِ حَرْفُ الْإِنْكَارِ: إِرَادَةُ أَنْ يُصَوِّرَ قُبْحَ مَا أُزِنَ بِهِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ لَهُ: نَعَمْ، مِثْلِي يَفْرَحُ بِمَرَزَاةِ الْكِرَامِ، وَبِأَنْ يَسْتَبَدِلَ مِنْهُمْ ذُوْدًا يَبْقُلُ طَائِلُهُ، وَهُوَ مِنَ التَّسْلِيمِ الَّذِي تَحْتَهُ كُلُّ إِنْكَارٍ.

و﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ صِفَةُ الْجَنَّةِ الْعَجِيبَةِ الشَّانِ، وَهُوَ مُبْتَدَأٌ، وَخَبْرُهُ: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ﴾، ..

مِنَ الْأَضْدَادِ، وَالذُّودُ: مَا دُونَ الْعَشْرَةِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «فِي خَمْسِ ذُوْدٍ شَاءَةٌ»^(١) بِالْإِضَافَةِ، وَالنُّبَلُ: رُؤْيِي فِي الشَّعْرِ بِضَمِّ النُّونِ أَيْضًا، وَالْمَعْنَى: أَفْرَحُ بِأَنْ أُرْزَأَ بِكِرَامِ الْقَوْمِ، فَأَعْطَى صِغَارَ الْإِبِلِ، أَيْ: لَا أَفْرَحُ^(٢).

قوله: (مَا أُزِنَ بِهِ): الجوهري: «أزنته بشيء: أهتمته، وهو يُزَنُ بكذا».

قوله: (وهو مُبْتَدَأٌ، وَخَبْرُهُ: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾): قال الفراء: أراد: أَمَنْ كَانَ فِي هَذَا النَّعِيمِ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ؟ يَدُلُّ عَلَى هَذَا الْمَحذُوفِ قَوْلُهُ^(٣): ﴿وَعِدَ النَّفْقُونَ﴾، أَوْ حَرْفُ التَّشْبِيهِ الدَّالُّ عَلَى الْمُشَبَّهِ وَالْمُشَبَّهِ بِهِ. ذَكَرَهُ صَاحِبُ «الْمَطْلَعِ». وَلَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيرِ شَيْءٍ، إِمَّا عِنْدَ الْمُشَبَّهِ كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْفَرَّاءُ، أَوْ عِنْدَ الْمُشَبَّهِ بِهِ، كَمَا قَدَّرَهُ الْمُصَنِّفُ، وَهُوَ: «كَمَثَلِ جَزَاءٍ مَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ».

(١) أخرجه أبو داود (١٥٦٧)، والنسائي (٢٤٤٧) و(٢٤٥٥)، ضمن كتاب أبي بكر الذي كتبه لأنس بن مالك رضي الله عنها في الزكاة، وأولُه: «هذه فريضة الصدقة التي قرَضَها رسولُ الله ﷺ على المسلمين التي أمر الله عزَّ وجلَّ بها نبيُّه».

(٢) البيتُ لحزرميِّ بنِ عامرٍ، كان له تسعةُ إخوةٍ، فهلكوا وورَثَهم، فزعم أحدُ أولادِ عمِّه أن حَضَرَ مِمَّا فَرِحَ بِمَوْتِ إِخْوَتِهِ، فَأَجَابَهُ بِهِ. كَذَا فِي «اللسانِ العربِ» لابنِ منظورٍ، مادة (جَزَأَ) وَ(شَصَصَ) وَ(نَبَلَ)، وَفِي الْمَادَّةِ الْأَخِيرَةِ ذِكْرُ الْخِلَافِ فِي صَبْطِ «نَبَلًا» فِيهِ.

(٣) فِي (ح) وَ(ف): «وَهُوَ قَوْلُهُ» وَالْمُثَبُّ مِنْ (ط).

وقوله: ﴿فِيهَا أَنْهَرٌ﴾ داخلٌ في حُكْمِ الصَّلَاةِ كالتكرير لها، ألا ترى إلى صِحَّةِ قولك: التي فيها أنهار. ويجوزُ أن يكونَ خَبَرَ مُبْتَدَأٍ محذوف: هي فيها أنهار، وكأنَّ قائلاً قال: وما مثلُها؟ فقيل: فيها أنهار، وأن يكونَ في مَوْضِعِ الحال، أي: مُسْتَقَرَّةٌ فيها أنهار، وفي قراءةٍ عليّ رضيَ اللهُ عنه: «أمثالُ الجنة»، أي: ما صفاتها كصفاتِ النار.

قوله: ﴿فِيهَا أَنْهَرٌ﴾ داخلٌ في حُكْمِ الصَّلَاةِ كالتكرير لها: أي: للصَّلَاةِ، إحداهما: ﴿وَعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾، وثانيها: ﴿فِيهَا أَنْهَرٌ﴾.

قوله: (ويجوزُ أن يكونَ خَبَرَ مُبْتَدَأٍ محذوف): عطفٌ على قوله: «داخلٌ في حُكْمِ الصَّلَاةِ»^(١)، لا على ما قبله، بدليل عطف: «وأن يكونَ في مَوْضِعِ الحال» على «أن يكون»، وفيه بحث، لأنه لا حاجة إلى تقدير المُبتدَأ؛ لأنَّ ﴿فِيهَا أَنْهَرٌ﴾ جملةٌ برأسها، وتلزمُ من كونها بياناً وقوعَ الاستئنافِ قبل مجيء خَبَرِ الجملةِ السابقة التي هي مَورِدُ السُّؤال، اللهمَّ إلا أن يُقال: يُقدَّرُ للجملةِ الأولى خَبَرَ، وللثانية^(٢) مُبتدَأ، كما فعلَ أبو البقاء، أي: فيما نُقصُ عليك مثلُ الجنة، وقوله: ﴿فِيهَا أَنْهَرٌ﴾ مُستأنفٌ شارحٌ لمعنى المثل، وقوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خَلِدٌ﴾ في مَوْضِعِ رفع، أي: حالهم كحالِ مَنْ هو خالدٌ في النار، أو نصبٍ، أي: يُشبهون^(٣).

وقدَّرَ المُصنِّفُ في «الأنعام» - عند قوله: ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] - :
«مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَرٌ»: أي: صفتها هذه، وهي قوله: ﴿فِيهَا أَنْهَرٌ﴾.

قوله: (في مَوْضِعِ الحال): ذو الحال: الضميرُ الراجعُ مِنَ الصَّلَاةِ إلى الموصول؛ لأنَّ الموصولةَ صِفَةٌ للجنة، ولا بُدَّ فيها مِنَ الضمير، أي: الجنة التي وَعِدَ بها المُتَّقُونَ مُسْتَقَرَّةٌ فيها الأنهار.

قوله: (وفي قراءةٍ عليّ رضيَ اللهُ عنه: «أمثالُ الجنة»): قال ابنُ جني: «قرأ عليٌّ وابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ تعالى عنهما: «أمثالُ الجنة»، وهذه القراءةُ دليلٌ على أن قراءةَ العامةِ بالتوحيد معناها

(١) من قوله: «التكرير لها» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) الجملةُ الأولى: هي قوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾، والثانية: هي قوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خَلِدٌ فِي النَّارِ﴾.

(٣) انظر: «البيان في إعراب القرآن» لأبي البقاء العكبري (٢: ١١٦١-١١٦٢).

وَقُرِي: «أَسِين»، يُقَال: أَسِنَ الْمَاءُ وَأَجِنَ: إِذَا تَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَرِيحُهُ، وَأُنشِدَ لِيَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ:

لَقَدْ سَقَتْنِي رُضَابًا غَيْرَ ذِي أَسِينٍ كَالْمِسْكِ فُتَّ عَلَى مَاءِ الْعَنَاقِيدِ

﴿مَنْ لَبِنَ لَمْ يَنْغَبَرَ طَعْمُهُ﴾ كما تَتَغَيَّرُ أَلْبَانُ الدُّنْيَا، فَلَا يَعُودُ قَارِصًا وَلَا حَازِرًا، وَلَا مَا يُكْرَهُ مِنَ الطُّعُومِ، ﴿لَذَّةٌ﴾ تَأْنِيثُ لَذٍّ، وَهُوَ اللَّذِيذُ، أَوْ وَصْفٌ بِمَصْدَرٍ. وَقُرِي بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ، فَالْجُرُّ عَلَى صِفَةِ الْخَمْرِ، وَالرَّفْعُ عَلَى صِفَةِ الْأَنْهَارِ، وَالنَّضْبُ عَلَى الْعِلَّةِ، أَي: لِأَجْلِ لَذَّةِ الشَّارِبِينَ.....

الكثرة، وذلك لِمَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى الْمَصْدَرِيَّةِ، وَهَذَا جَازٍ: «مَرَرْتُ بِرَجُلٍ مِثْلِ رَجُلَيْنِ»، وَ«بِرَجُلَيْنِ مِثْلِ رَجَالٍ»، وَ«بِامْرَأَةٍ مِثْلِ رَجُلٍ»، أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَسْتَقِيدُ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ مَعْنَى التَّشْبِيهِ وَالتَّمثِيلِ «(١)».

وَأَمَّا «مَا» فِي كَلَامِ الْمُصَنِّفِ فِي قَوْلِهِ: «مَا صِفَاتُهَا كَصِفَاتِ النَّارِ»: فَهِيَ نَافِيَةٌ، وَذَلِكَ لِإِمَّا سَبَقَ لَهُ أَنَّ هَذَا كَلَامٌ فِي صُورَةِ الْإِثْبَاتِ وَمَعْنَى النِّفْيِ، وَأَمَّا مَعْنَى الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ: «كَصِفَاتِ النَّارِ»: فَلَوْ قُوعَ ﴿كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ﴾ الْآيَةَ مُشَبَّهًا بِهِ، وَالْمُشَبَّهُ مُتَعَدِّدٌ، ذُكِرَ فِيهِ أَشْيَاءُ سِتَّةَ: الْأَنْهَارُ الْأَرْبَعَةُ مُكْرَّرَةٌ، ثُمَّ قِيلَ: ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ثُمَّ ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، فَيَجِبُ تَقْدِيرُ مَا يُقَابِلُهَا فِي طَرَفِ الْمُشَبَّهِ بِهِ، وَقَدْ ذُكِرَ فِيهِ شَيْئَانِ: الْخُلُودُ فِي النَّارِ وَسَقْمِي الْمَاءِ الْحَمِيمِ. وَعَلَى تَقْدِيرِ ابْنِ جِنِّي: لَا يَجِبُ تَقْدِيرُ صِفَاتِ عَلَى الْجَمْعِ؛ لِإِمَّا ذُكِرَ مِنْ أَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يُقَالَ: مَرَرْتُ بِرَجُلَيْنِ مِثْلِ رَجَالٍ، وَعَكْسُهُ.

قوله: (وقرئ: «أسين»): قرأ ابن كثير: بالقصر، والباقون: بالمد (٢).

قوله: (فلا يعود قارصاً ولا حازراً): الجوهرى: «القارص: اللَّبِنُ الَّذِي يَحْذِي اللِّسَانَ، وَفِي الْمَثَلِ: عَدَا الْقَارِصُ فَحَزَرَ، أَي: جَاوَزَ إِلَى أَنْ حَمَضَ»، وَ«الْحَازِرُ - بِتَقْدِيمِ الزَّاي -: اللَّبِنُ الْحَامِضُ».

(١) «المحتسب» لابن جني (٢: ٢٧٠).

(٢) انظر: «التيسير» لللداني ص ٢٠٠، و«حجة القراءات» ص ٦٦٧.

والمعنى: ما هو إلا التلذذُ الخالص، ليس معه ذهابُ عقلٍ ولا تخامُزٌ ولا صداعٌ ولا آفةٌ من آفاتِ الخمر، ﴿مُصْقَى﴾ لم يخرج من بطون النحل، فيخالطه الشمعُ وغيره، ﴿مَاءٌ حَمِيمًا﴾ قيل: إذا دنا منهم شوى وجوههم، وانمازت فروة رؤوسهم، فإذا شربوه قطع أمعاءهم. [وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَنَاقًا إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾]

هم المنافقون، كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ، فيسمعون كلامه، ولا يعونته، ولا يلقون له بالأتهاوناً منهم، فإذا خرجوا قالوا لأولي العلم من الصحابة: ماذا قال الساعة؟ على جهة الاستهزاء. وقيل: كان يخطب، فإذا عاب المنافقين خرجوا، فقالوا ذلك للعلماء. وقيل: قاله لعبيد الله بن مسعود. وعن ابن عباس: أنا منهم، وقد سُميتُ فيمن سُئل. ﴿آنِفًا﴾ - وقريء: «آنِفًا» على «فعل» -: نَصَبٌ عَلَى الظَّرْفِ،

قوله: (والمعنى: ما هو إلا التلذذُ الخالص، ليس معه ذهابُ عقلٍ ولا تخامُزٌ ولا صداعٌ ولا آفةٌ من آفاتِ الخمر): كلُّ هذا المعنى يُعطيه الوصفُ بقوله: ﴿لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ﴾ تعريضاً بخُمور الدنيا، كقوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ﴾ [الصافات: ٤٧]، ويدلُّ على التعريض تفسيره «المُصْقَى» بقوله: «لم يخرج من بطون النحل، فيخالطه الشمعُ وغيره»، اعتبرَ فيهما معنى الوصفِ بإحدى صفتي الذات، وخصَّصهما، إذ لولا التعريضُ لم يُفدُ فائدةً أخرى.

قال القاضي: «وفي ذلك مثلٌ لما يقوم مقام الأشرية في الجنة بأنواع ما يستلذُّ منها في الدنيا، بالتجريد عما يُنقصُها ويُغضبُها، والتوصيفُ بما يُوجبُ غزارتها واستمرارها»^(١).

قوله: (وانمازت فروة رؤوسهم): الجوهرى: «مزت الشيء أميزه ميزاً: عزلته وفرزته، وكذلك: ميزته تميزاً فانماز».

قوله: (آنِفًا): قرأها ابن كثير^(٢).

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ١٩٢).

(٢) هي إحدى الروایتين عن ابن كثير، والأخرى موافقة لقراءة الجماعة، واختارها أبو عمرو الداني في =

قال الزَّجَّاج: هو من: استأنفتُ الشيء: إذا ابتدأته. والمعنى: ماذا قال في أول وقتٍ يقربُ منا.

[﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَوَسَّعَتْهُمْ نَفْسُهُمْ﴾ ١٧]

﴿زَادَهُمْ﴾ الله ﴿هُدًى﴾ بالتوفيق، ﴿وَوَسَّعَتْهُمْ نَفْسُهُمْ﴾ أعانهم عليها، أو: آتاهم جزاءً تقواهم. وعن السُّدِّي: بيّن لهم ما يتقون. وقرئ: «وأعطاهم»، وقيل: الضمير في ﴿زَادَهُمْ﴾ لقول الرسول، أو لاستهزاء المنافقين.

قوله: (هو من: استأنفتُ الشيء: ابتدأته): روي عن المصنّف: «الأنف: اسمٌ للساعة التي قبل ساعتك التي أنت فيها، مُشتقٌّ من الأنف، ولتقدّمه الوقت الحاضر كأنه بمعنى: المتقدّم، ومنه: أنفة الصّبا: لأوله، ويُقال: روضة أنف: لم ترع، أي: لها أولٌ يرعى».

قوله: (﴿وَوَسَّعَتْهُمْ نَفْسُهُمْ﴾ أعانهم عليها، أو آتاهم جزاءً تقواهم): والأول أوفق لتأليف النّظم؛ لِمَا سبق أن أعلّب آيات هذه السّورة الكريمة روعي فيها التّقابل، فقوبل ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بقوله: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾، لأن الطّبع يحصل من تزايد الرّين^(١)، وتراذف ما يزيد في الكفر، وقوله^(٢): ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ بقوله: ﴿وَوَسَّعَتْهُمْ نَفْسُهُمْ﴾، فيحمل على كمال التقوى، وهو أن يتنزّه العارف عما يشغل سرّه عن الحقّ، ويتبتّل إليه بشرائره^(٣)، وهو التقوى الحقيقي المعني بقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، فإنّ المزيد على مزيد الهدى مزيد لا مزيد عليه.

= «التيسير» ص ٢٠٠ - وهو مرجع المؤلف رحمه الله تعالى في القراءات، فُستغرب منه كيف أطلق العبارة على وجه يوهّم أن لا خلاف على ابن كثير فيها - وبين الشيخ عبد الفتاح القاضي رحمه الله تعالى في «البدور الزاهرة» ص ٢٩٧ أن هذه القراءة ليست هي المعتمدة عنه.

(١) وهو اسوداد القلب من كثرة الذنوب، وأصل الرّين: الدّنس والصدأ، كما في «اللسان العرب» لابن منظور، مادة (رين).

(٢) أي: وقوبل قوله ... إلخ.

(٣) قوله: «ويتبتّل إليه» أي: إلى الحقّ، «بشراشره»، أي: بنفسه جزواً ومحبّة. انظر: «اللسان العرب» لابن منظور، مادة (شسر).

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴾

[١٨]

﴿ أَنْ تَأْتِيَهُمْ ﴾ بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنْ ﴿ السَّاعَةَ ﴾ ، نحو: ﴿ أَنْ تَطْفُوهُمْ ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ ﴾ [الفتح: ٢٥]. وَقُرِئَ: «إِنْ تَأْتِيَهُمْ»، بِالْوَقْفِ عَلَى ﴿ السَّاعَةَ ﴾ وَاسْتِثْنَاءِ الشَّرْطِ، وَهِيَ فِي مَصَاحِفِ أَهْلِ مَكَّةَ كَذَلِكَ.....

وَفِي التَّرْفُوعِ عَنِ مُتَابَعَةِ الْهَوَى: التَّرْوُوعُ إِلَى الْمَوْلَى، وَالْعُرُوفُ عَنِ شَهَوَاتِ هَذِهِ الْأَدْنَى.

ثُمَّ فِي إِسْنَادِ ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُونَهُمْ﴾ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَإِسْنَادِ مُتَابَعَةِ الْهَوَى إِلَيْهِمْ: إِيَاءٌ إِلَى مَعْنَى قَوْلِهِ ^(١) ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾ [الشعراء: ٨٠]، وَتَلْوِيحٌ إِلَى أَنَّ مُتَابَعَةَ الْهَوَى مَرَضٌ رَوْحَانِيٌّ، وَمُتَابَعَةُ التَّقْوَى دَوَاءٌ إِلَهِيٌّ، ﴿ وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

قَوْلُهُ: ﴿ أَنْ تَأْتِيَهُمْ ﴾ بَدَلُ اشْتِمَالٍ: قَالَ الزَّجَّاجُ: «مَوْضِعُ «أَنْ»: نَصَبٌ عَلَى الْبَدَلِ مِنَ ﴿ السَّاعَةَ ﴾، الْمَعْنَى: فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً، كَقَوْلِهِ: ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَرَبَعَنَّهُمْ أَنْ تَطْفُوهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٥]، وَالْمَعْنَى: لَوْلَا أَنْ تَطْفُوا رِجَالًا مُؤْمِنِينَ وَنِسَاءً مُؤْمِنَاتٍ» ^(٢).

قَوْلُهُ: (وَقُرِئَ: «إِنْ تَأْتِيَهُمْ»، بِالْوَقْفِ عَلَى ﴿ السَّاعَةَ ﴾): قَالَ ابْنُ جِنِّي: «قَرَأَهَا أَبُو عَمْرٍو ابْنُ الْعَلَاءِ» ^(٣): هَذَا اسْتِثْنَاءُ شَرْطٍ، لِأَنَّهُ وَقَفَ عَلَى ﴿ إِلَّا السَّاعَةَ ﴾، ثُمَّ قَالَ: «إِنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا»، فَإِنْ قُلْتَ: الشَّرْطُ لَا بُدَّ مَعَهُ مِنَ الشَّكِّ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَعْنَاهُ: أَي: إِنْ شَكُّوا فِي مَجِيئِهَا بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا، أَي: عَلَامَاتُهَا، فَهَلَّا تَوَقَّعُوهَا وَتَأَهَّبُوا لِقَوْلِهَا» ^(٤).

(١) أَي: قَوْلُ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

(٢) «مَعَانِي الْقُرْآنِ وَإِعْرَابُهُ» لِلزَّجَّاجِ (٥: ١١).

(٣) كَذَا فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ، وَالَّذِي فِي «الْمَحْتَسِبِ» لِابْنِ جِنِّي: أَنَّهَا «قِرَاءَةٌ أَهْلِ مَكَّةَ، فِيهَا حِكَاةُ أَبُو جَعْفَرِ الرَّؤَاسِيِّ»، وَكَلَّ نَظَرَ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى انْتَقَلَ إِلَى كَلَامِ ابْنِ جِنِّي فِي الْقِرَاءَةِ الَّتِي بَعْدَهَا، فَقَدْ نَسَبَهَا إِلَى أَبِي عَمْرٍو، وَسَيَّأَتْ كَلَامَهُ عِنْدَ الْمُؤَلِّفِ بَعْدَ قَلِيلٍ.

(٤) «الْمَحْتَسِبِ» لِابْنِ جِنِّي (٢: ٢٧٠-٢٧١).

فإن قلت: فما جزاء الشرط؟ قلت: قوله: ﴿فَأَن لَّهُمْ﴾، ومعناه: إن تأتيتهم الساعة فكيف لهم ذكراهم، أي: تذكُرهم واتعاضهم إذا جاءتهم الساعة، يعني: لا تنفعهم الذكرى حينئذ، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَأَنَّهُ لَهُ الْذِكْرَى﴾ [الفجر: ٢٣]. فإن قلت: بم يتصل قوله: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ على القراءتين؟ قلت: بإتيان الساعة؛ اتصال العلة بالمعلول، كقولك: إن أكرمني زيدٌ فأنا حقيقٌ بالإكرام أكرمه.

والأشراط: العلامات، قال أبو الأسود:

فإن كنت قد أزمعت بالصَّرم بيننا فقد جعلت أشراط أوله تبدو

وقيل: مبعث محمد خاتم الأنبياء ﷺ وعليهم منها، وانشقاق القمر، والدخان. وعن الكلبي: كثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقطع الأرحام وقلة الكرام وكثرة اللثام. وقرئ: «بغثة» بوزن: جرّبة، وهي غريبة لم ترد في المصادر أختها،.....

وقلت: فالكلام حينئذ ذو جملتين، قال أبو البقاء: ﴿فَأَن لَّهُمْ﴾ خبر ﴿ذَكَرْتَهُمْ﴾، والشرط مُعْتَرِضٌ، أي: أنى لهم ذكراهم إذا جاءتهم، وقيل: التقدير: أنى لهم الخلاص إذا جاء تذكيرتهم^(١)، ولعل هذا أسهل مأخذاً من اختيار المُصنّف؛ لِمَا يُؤدِّي إلى جعل الكلّ كلاماً واحداً، ويلزم التعاطل.

قوله: (على القراءتين): أي: المشهورة، وهي ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ﴾، والشاذة، وهي: «إن تأتيتهم».

قوله: (كثرة المال والتجارة): يعني: للعرب، وإلا فالعجم لم تزل كذلك، وهو من قوله صلوات الله عليه: «وأن ترى الحفاة العرأة العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان^(٢)»^(٣).

قوله: (وقرئ: «بغثة»): وهي في السواد، قال ابن جني: «وهي قراءة أبي عمرو - في رواية

(١) «البيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٦٢).

(٢) أخرجه مسلم (٨) من حديث عبد الله بن عمر، و(١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنها.

(٣) هذه الفقرة والتي قبلها - من قوله: «على القراءتين» إلى هنا - سقطتا من (ف).

وهي مَرْوِيَّةٌ عن أَبِي عَمْرٍو، وما أَخَوَفَنِي أَنْ تَكُونَ غَلْطَةً مِنَ الرَّايِ عَلَى أَبِي عَمْرٍو، وَأَنْ يَكُونَ الصَّوَابُ: «بَعْتَةٌ»، بَفَتْحِ الْغَيْنِ مِنْ غَيْرِ تَشْدِيدٍ، كَقِرَاءَةِ الْحَسَنِ فِيهَا تَقَدَّمَ.

﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثَلَكُمْ ﴾ [١٩]

لَمَّا ذَكَرَ حَالَ الْمُؤْمِنِينَ وَحَالَ الْكَافِرِينَ، قَالَ: إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ الْأَمْرَ كَمَا ذَكَرْتُ؛ مِنْ سَعَادَةٍ هُوَ لِأَنَّ الشَّقَاوَةَ هُوَ لِأَنَّ،

هارون^(١) - وَفَعْلُهُ لَمْ يَأْتِ فِي الْمَصَادِرِ، وَلَا فِي الصِّفَاتِ، وَإِنَّمَا هُوَ مَخْتَصٌّ بِالاسْمِ، مِنْهُ: الشَّرْبَةُ: اسْمٌ مَوْضِعٌ، وَمِنْهُ: الْجَزْبَةُ: الْجَمَاعَةُ^(٢)، الْجَوْهَرِيُّ: «الْجَزْبَةُ - بِالْفَتْحِ وَتَشْدِيدِ الْبَاءِ -: الْعَانَةُ مِنَ الْحَمِيرِ^(٣)»، وَرَبِمَا سَمَّوُا الْأَقْوِيَاءَ مِنَ النَّاسِ إِذَا كَانُوا جَمَاعَةً مُتَسَاوِينَ.

قوله: (لَمَّا ذَكَرَ حَالَ الْمُؤْمِنِينَ وَحَالَ الْكَافِرِينَ قَالَ: إِذَا عَلِمْتَ) إِلَى آخِرِهِ: يَعْنِي: لَمَّا قُورِلَ بَيْنَ ذِكْرِي الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَفُصِّلَ بَيْنَ وَصْفَيْهِمَا مِنَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، مِنْ مُفْتَحِ السُّورَةِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، عَلِمَ أَنَّ اسْمَ الذَّاتِ - عَزَّ شَأْنُهُ وَجَلَّ سُلْطَانُهُ - فِي هَذَا الْمَقَامِ مُجَلَّلٌ بِتَجَلِّي الْهَيْبَةِ وَالْجَلَالِ، وَمُعْلِمٌ أَنَّ مُسْتَأْتَهُ هُوَ الَّذِي يَهْدِي وَيُضِلُّ، وَيُسْعِدُ وَيُشْقِي، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي مُلْكِهِ وَمَلَكُوتِهِ مَا شَاءَ كَيْفَ يَشَاءُ، ﴿لَا يُسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فَيَنْبَغِي لِلْمُكَلَّفِ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَذَرٍ مِنْ سَطْوَةِ كِبْرِيائِهِ، فَيَتَوَاضَعُ لِعَظَمَةِ جَلَالِهِ، لِأَنَّهُ بِمَرَأَى مِنْهُ وَمَسْمَعٌ فِي مُتَقَلَّبِهِ وَمَثْوَاهِ، وَلَمْ يَزَلْ يَسْتَرْجِمُ لِنَفْسِهِ، وَيَسْتَغْفِرُ لِتَقْصِيرِهِ، وَلِلذَلِكَ أَمْرٌ أَفْضَلُ خَلَقَهُ بِالِاسْتِغْفَارِ: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

(١) يَعْنِي: رِوَايَةُ هَارُونَ بْنِ حَاتِمٍ (الْبَزَازِ) عَنْ حُسَيْنِ (بْنِ عَلِيِّ الْجَعْفِيِّ) عَنْ أَبِي عَمْرٍو. كَمَا صَرَّحَ بِهِ ابْنُ جُنَيْهِ نَفْسُهُ، وَاخْتَصَّرَهُ الْمُؤَلِّفُ.

(٢) «الْمَحْتَسِبُ» لِابْنِ جُنَيْهِ (٢: ٢٧١-٢٧٢).

(٣) أَي: جَمَاعَةُ الْحُمْرِ، قَالَ الْفَيْرُوزِ أَبَادِي فِي «الْقَامُوسِ»، مَادَّةُ (عَوْنُ): «الْعَانَةُ: الْقَطِيعُ مِنَ حُمْرِ الْوَحْشِ»، وَلِذَا فَتَرَّ هُوَ وَغَيْرُهُ الْجَزْبَةَ بِأَنَّهَا: «جَمَاعَةُ الْحُمْرِ».

فأثبتت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله، وعلى التواضع وهضم النفس، باستغفار ذنبيك وذنوب من على دينك،

قوله: (فأثبتت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله تعالى، وعلى التواضع وهضم النفس، باستغفار ذنبيك وذنوب من على دينك): فقدّر مضافاً، قال القاضي: «وفي إعادة الجارّ وحذف المضاف إشعاراً بقرط احتياجهم وكثرة ذنوبهم، وأنها جنس آخر»^(١).

وقلت - والعلم عند الله -: إن المراد باستغفار القوم: دعوتهم إلى ما يُزيل أوضاعهم^(٢)؛ من الكفر بالله تعالى والتفارق وسائر المعاصي، والنظم يقتضي هذا؛ لأن قوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ مترتب بالفاء على قوله: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾، يعني: إذا تيقنت أن الساعة آتية وقد جاء أشراطها، فخذ بالأهمّ فالأهمّ، والأولى فالأولى، فتمسك بالتوحيد، ونزه الله عما لا ينبغي، ثم طهر نفسك بالاستغفار عما لا يليق بك من ترك الأولى، فإذا صرت كاملاً في نفسك، فكن مكملاً لغيرك، فاستغفر للمؤمنين.

فإذن: المراد باستغفار المؤمنين والمؤمنات: ما به يزول كفرهم ونفاقهم ومعاصيهم من العلم والعمل، وبالمؤمنين^(٣): العموم؛ سواء كان مؤمناً مخلصاً أو كافراً منافقاً؛ تغليباً، يدل على الأول: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمُتَوَكِّفِكُمْ﴾، فإنه عبارة عن الوعد والوعيد على أعمال الخير والشر، وعلى الثاني: قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُخْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ الآيات، فالاستغفار محمول على عموم المجاز^(٤).

(١) «أنوار التنزيل» لليضاوي (٥: ١٩٣).

(٢) الأوضار: جمع وضر، وهو اللزن والوسخ، كما في «لسان العرب» لابن منظور، مادة (وضر)، والمراد هنا: الأوساخ المعنوية لا الحسبية.

(٣) أي: والمراد بالمؤمنين.

(٤) عموم المجاز: هو إرادة معنى مجازي شامل للحقيقي وغيره، ومُتناوّل له بما أنه قرّد منه. «مسلم الثبوت» للعلامة محبّ الله بن عبد الشكور البهاري (١: ٢١٦).

واللهُ يَعْلَمُ أحوالكم ومُتَصَرِّفاتكم ومُتَقَلِّبكم في مَعَايشكم ومَتَاجِركم، وَيَعْلَمُ حَيْثُ تَسْتَقِرُّونَ في مَنَازِلكم، أو مُتَقَلِّبكم في حَيَاتكم ومُتَوَاكُم في القُبور، أو مُتَقَلِّبكم في أَعْمَالكم ومُتَوَاكُم مِنَ الجَنَّةِ والنَّارِ، ومِثْلُه حَقِيقٌ بِأَنْ يُتَقَى وَيُحْشَى، وَأَنْ يُسْتَغْفَرَ وَيُسْتَرْحَمَ.

وعن سُفْيَانَ بنِ عُيَيْنَةَ: أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ فَضْلِ العِلْمِ، فَقَالَ: أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ حِينَ بَدَأَ بِهِ، فَقَالَ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾، فَأَمَرَ بِالْعَمَلِ بَعْدَ العِلْمِ، وَقَالَ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوًى﴾ [الحديد: ٢٠]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١]، وَقَالَ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ: ﴿فَأَحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]،

ونظيرٌ معنَى تَرْتُبِ الفَاءِ السَّابِقِ: ما روِيناه في «صحيحي» البخاريِّ ومُسلِمٍ^(١) عن أنسٍ: «أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَى السَّاعَةُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا أَعَدَدْتُ لَهَا؟ فَكَأَنَّ الرَّجُلَ اسْتَكَانَ، ثُمَّ قَالَ: مَا أَعَدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صِيَامٍ وَلَا صَدَقَةَ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قَالَ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»، وفي رواية: «قال أنس: ما فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرِحْنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»، قال أنس: فأنا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وأبا بكرٍ وعُمَرَ، وأرجو أن أكونَ معهم، وإن لم أعمَلْ أعمالهم».

قوله: (أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ فَضْلِ العِلْمِ، فَقَالَ: أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ حِينَ بَدَأَ بِهِ): يعني: فَضْلُ العِلْمِ إِنَّمَا يَظْهَرُ إِذَا قُرِنَ بِالْعَمَلِ، لِأَنَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا بَدَأَ بِهِ فِي هَذِهِ الآيَاتِ؛ لِيُؤَدِّنَ أَنَّهُ كَالْمُقَدِّمَةِ لِلْعَمَلِ وَالتَّيَمِّمَةِ لِلوَاجِبِ، وَلَا يَحْسُنُ العِلْمُ وَلَا لَهُ فَضْلٌ وَلَا مَزِيَّةٌ إِذَا لم يَسْتَتِيعِ العَمَلُ، وَلَا يَصِحُّ العَمَلُ إِذَا لم يَصُدُرْ عَنِ عِلْمٍ.

وجوابُ ابنِ عُيَيْنَةَ مِنَ الأَسْلُوبِ الحَكِيمِ^(٢) - مِنْ قَبِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ٢١٥]، وَقَوْلِهِ^(٣): ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ

(١) البخاري (٣٦٨٨) و(٦١٦٧) و(٦١٧١) و(٧١٥٣)، ومُسلِم (٢٦٣٩).

(٢) وهو تَلَقَّى المُخَاطَبِ بِغَيْرِ ما يَتَرَقَّبُ، أو السَّائِلِ بِغَيْرِ ما يَتَطَلَّبُ. انظر: «مفتاح العلوم» للسَّكَّاكِيِّ ص ٣٢٧.

(٣) في الأَصُولِ الخَطِيئَةِ: «لا مِنْ قَوْلِهِ»، وَلَا يَصِحُّ، فَالآيَاتُ مِنَ الأَسْلُوبِ الحَكِيمِ، كَمَا فِي «مفتاح العلوم» ص ٣٢٧.

وقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ بِأَنَّ لَكُمْ مِمَّا غَنِمْتُمْ خُمْسَهُ﴾ [الأنفال: ٤١]، ثم أمر بالعمل بعد.
 ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ
 رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ
 طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمْتَ الْأَمْرَ فَلَوَّ صَدَقُوا اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [٢٠-٢١]

الْأَهْلَةَ قُلُوبُهُمْ مَوَاقِيْتُ ﴿[البقرة: ١٨٩]؛- سألوهُ عن فَضْلِ الْعِلْمِ، فَأَجَابَ بِأَنَّ فَضْلَ الْعِلْمِ إِنَّمَا
 يَظْهَرُ إِذَا جُعِلَ وَسِيلَةً إِلَى الْعَمَلِ، كَمَا أَنَّ النَّفْقَةَ إِنَّمَا تَكُونُ مُعْتَدًّا بِهَا إِذَا وَقَعَتْ (١) مَوْجِعَهَا، أَيِ:
 الْوَاجِبُ أَنْ يَسْأَلُوا عَنِ الْعِلْمِ وَعَنِ الْعَمَلِ بِهِ، لِأَنَّهُ وَاحِدٌ.

قوله: (ثم أمر بالعمل بعد): أي: بعد العلم هاهنا. وعن بعضهم: «ثم أمر بالقسمة
 والصرف إلى مصارفها في موضع آخر»، وليس بذلك، لأن قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال:
 ٤١] الآية، فيه بيان الصرف إلى المصارف، لأن قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ دل على ذلك؛ لِمَا
 فيه: أن أربعة أخماس الغنمية تُصَرَّفُ إِلَى الْمُحَارِبِينَ، وَالْخُمْسُ الْبَاقِي إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي
 الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ.

على أن المراد بالعمل ما يشق على المكلف، كما في الأمثلة الأخرى، بل دل على ذلك ما
 بعد «اعلموا»، وهو تقييد العلم بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ كُفْرًا فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ بِاللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤١]، فإن فيه معنى
 الأمر بقطع الطمع عن ذلك الخمس، والاعتناع بما قيس لهم من الأخماس الأربعة، كما قال
 المصنف في موضعه: «المعنى: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن الخمس من الغنمة يجب التقرب
 به لله، فاقطعوا عنه أطماعكم، واقتنعوا بالأخماس الأربعة، وليس المراد بالعلم: العلم المجرد،
 ولكنه العلم المضمّن بالعمل والطاعة لأمر الله»، لأن العلم المجرد يستوي فيه المؤمن والكافر،
 ألا ترى كيف صرح بلفظ الأمر في قوله: «فاقطعوا عنه أطماعكم، واقتنعوا».

(١) في الأصول الخطية: «وقع».

كانوا يَدْعُونَ الْجِرْصَ عَلَى الْجِهَادِ، وَيَتَمَنَوْنَ بِالسِّيْتِهِمْ، ويقولون: ﴿لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ﴾ في معنى الجهاد، ﴿فَإِذَا أَنْزَلْتُمْ﴾ وَأَمَرُوا فِيهَا بِمَا تَمَنَّوْا وَحَرَّصُوا عَلَيْهِ كَاعُوا وَشَقَّ عَلَيْهِمْ، وَسَقَطُوا فِي أَيْدِيهِمْ، كقولهِ: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾ [النساء: ٧٧].

﴿مُحْكَمَةٌ﴾ مَبِينَةٌ غَيْرُ مُشَابِهَةٍ لَا تَحْتَمِلُ وَجْهًا إِلَّا وَجُوبَ الْقِتَالِ. وعن قتادة: كُلُّ سُورَةٍ فِيهَا ذِكْرُ الْقِتَالِ فِيهَا مُحْكَمَةٌ، وَهِيَ أَشَدُّ الْقُرْآنِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ. وقيل لها: مُحْكَمَةٌ؛ لِأَنَّ النَّسْخَ لَا يَرِدُ عَلَيْهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ الْقِتَالُ قَدْ نَسَخَ مَا كَانَ مِنَ الصَّفْحِ وَالْمُهَادَنَةِ، وَهُوَ غَيْرُ مَنْسُوخٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وقيل: هِيَ الْمُحَدَّثَةُ، لِأَنَّهَا حِينَ يَحْدُثُ نَزْوُهَا لَا يَتَنَاوَاهَا النَّسْخُ، ثُمَّ تُنْسَخُ بَعْدَ ذَلِكَ أَوْ تَبْقَى غَيْرَ مَنْسُوخَةٍ. وفي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: «سُورَةٌ مُحَدَّثَةٌ»، وَقُرِئَ: «فَإِذَا نَزَلَتْ سُورَةٌ وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالُ» عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَنَصَبِ «الْقِتَالِ».

﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى حَرْفٍ غَيْرِ ثَابِتِي الْأَقْدَامِ، ﴿نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أَي: تَشَخَّصَ أَبْصَارُهُمْ جُبْنًا وَهَلَعًا وَغَيْظًا، كَمَا يَنْظُرُ مَنْ أَصَابَتْهُ الْعَشْيَةُ عِنْدَ الْمَوْتِ، ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ وَعِيدٌ بِمَعْنَى: فَوَيْلٌ لَهُمْ، وَهُوَ أَفْعَلٌ؛ مِنَ الْوَيْلِ، وَهُوَ الْقُرْبُ، وَمَعْنَاهُ الدُّعَاءُ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يَلِيَهُمُ الْمَكْرُوهُ.

قوله: (كاعوا): أي: تأخروا وجبنوا، الأساس: «كعَّ الرجل، وكعَّعَه الخوف، فتكعَّع»، الجوهري: «كِعْتُ عَنِ الشَّيْءِ أَكَيْعٌ، وَأَكَاعٌ: لَغَةٌ فِي: كَعَعْتُ عَنِ الْأَمْرِ أَكَيْعٌ: إِذَا هَبْتَهُ وَجَبْتَهُ».

قوله: (ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه): روى الواحدي عن الأصمعي: «معنى قولهم في التهديد: أُولَئِكَ لَكَ: وَلَيْكَ مَكْرُوهٌ، وَقَارَبْتَكَ مَا تَكْرَهُهُ»^(١). وَرُوِيَ عَنِ أَبِي عَلِيٍّ أَنَّهُ عَلَّمَ لِلْوَيْلِ مَبْنِيَّ عَلَى وَزْنِ «أَفْعَلٌ»، مِنْ لَفْظِ «الْوَيْلِ» عَلَى الْقَلْبِ، أَصْلُهُ: «أَوَيْلٌ»، وَهُوَ غَيْرُ مُنْصَرِفٍ، كَأَحْمَدَ، لِلْعَلَمِيَّةِ وَكَوْنِهِ عَلَى وَزْنِ «أَفْعَلٌ».

(١) «الوسيط» للواحدي (٤: ١٢٦).

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كلامٌ مُسْتَأْنَفٌ، أي: طاعةٌ وقولٌ معروفٌ خيرٌ لهم. وقيل: هي حِكَايَةُ قولهم، أي: قالوا: طاعةٌ وقولٌ معروفٌ، بمعنى: أمرنا طاعةً وقولٌ معروفٌ، وتَشَهَّدَ له قِرَاءَةُ أَبِي: «يقولون: طاعةٌ وقولٌ معروفٌ».

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي: جَدَّ، والعَزْمُ والجَدُّ لأصحاب الأمر، وإنما يُسَدِّدَانِ إلى الأمرِ إسنَاداً مجازياً، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]. ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ فيما رَعَمُوا مِنَ الْحَرِصِ عَلَى الْجِهَادِ، أو: فلو صَدَقُوا في إيمانهم، ووَاطَأَتْ قُلُوبُهُمْ فِيهِ أَلْسِنَتُهُمْ.

[﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ ٢٢-٢٣]

عَسَيْتُمْ وَعَسَيْتُمْ: لغةُ أهلِ الحِجَازِ، وأما بنو تميم فيقولون: عسى أن تفعل، وعسى أن تفعلوا، ولا يُلْحِقُونَ الضَّائِرَ، وقرأ نافعٌ بِكسْرِ السِّينِ، وهو غريبٌ، وقد نُقِلَ الكلامُ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ عَلَى طَرِيقَةِ الِاتِّفَاتِ؛ لِيَكُونَ أْبْلَغَ فِي التَّوْبِيخِ.

فإن قلت: ما معنى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ... أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾؟ قلت: معناه: هل يُتَوَقَّعُ مِنْكُمْ الإِفْسَادُ؟ فإن قلت: فكيف يَصِحُّ هذا في كلامِ الله عَزَّ وَعَلَّأ، وهو عالمٌ بما كانَ وبما يكونُ؟ قلت: معناه: أنكم لِمَا عُهِدَ مِنْكُمْ أَحِقَّاءُ بأن يقولَ لكم كُلُّ مَنْ ذاقكم، وَعَرَفَ تَمْرِيضَكُمْ، وَرَخَاوَةَ عَقْدِكُمْ فِي الْإِيْمَانِ: يا هؤلاء! ما ترون؟ هل يُتَوَقَّعُ مِنْكُمْ - إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أُمُورَ النَّاسِ، وَتَأَمَّرْتُمْ عَلَيْهِمْ، لِمَا تَبَيَّنَ مِنْكُمْ مِنَ الشَّوَاهِدِ، وَلا حَ مِنْ الْمَخَايِلِ - ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ تَنَاحُراً عَلَى الْمَلِكِ وَتَهَالُكاً عَلَى الدُّنْيَا؟

وقال صاحبُ «الكشف»: ﴿فَأُولَى لَهُمْ﴾ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ، وهو اسمُ التهديدِ والوعيدِ، كأنه قال: الوعيدُ لهم، و«أولى» غيرُ مُنْصَرَفٍ، لأنه على وَزْنِ الْفِعْلِ، وصار اسماً للوعيدِ، وقولُ المُفسِّرِينَ: وَلَيْكَ شَرٌّ فَاحْذَرِ، لا يُريدُونَ به أن «أولى» فِعْلٌ، وإنما ذاك تفسيراً على المعنى^(١). قوله: (تَنَاحُراً): أي: تَحَارُصاً وَتَهَالُكاً، تَهَالُكَ عَلَى الْفِرَاشِ: سَقَطَ.

(١) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٢٤٦).

وقيل: إن أعرَضْتُمْ وتَوَلَّيْتُمْ عن دينِ رسولِ الله ﷺ وَسُنَّتِهِ أَنْ تَرْجِعُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، بِالتَّغَاوُرِ وَالتَّنَاهُبِ وَقَطْعِ الْأَرْحَامِ، بِمُقَاتَلَةِ بَعْضِ الْأَقَارِبِ بَعْضًا وَوَادِ الْبَنَاتِ؟

وقرئ: «وَلَيْتُمْ»، وفي قِرَاءَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تَوَلَّيْتُمْ»؛ أي: إن تَوَلَّيْتُمْ وَلَاكُمْ وَلَا غَشْمَةَ خَرَجْتُمْ مَعَهُمْ، وَمَشَيْتُمْ تَحْتَ لِيَاثِهِمْ، وَأَفْسَدْتُمْ بِإِفْسَادِهِمْ؟ وقرئ: ﴿وَتَقَطَّعُوا﴾ و«تَقَطَّعُوا»: مِنَ التَّقْطِيعِ وَالتَّقَطُّعِ.

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين، ﴿لَمَنَّهُمُ اللَّهُ﴾ لإفْسَادِهِمْ وَقَطْعِهِمُ الْأَرْحَامِ، فَمَنَعَهُمُ الطَّافَةَ وَخَذَلَهُمْ، حَتَّى صَمَّوْا عَنْ اسْتِمَاعِ الْمَوْعِظَةِ، وَعَمَّوْا عَنْ إِبْصَارِ طَرِيقِ الْهُدَى.

ويجوزُ أن يُرِيدَ بـ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: الْمُؤْمِنِينَ الْخُلَصَّ الثَّابِتِينَ، وَأَنَّهُمْ يَتَشَوَّفُونَ إِلَى الْوَحْيِ إِذَا أَبْطَأَ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فِي مَعْنَى الْجِهَادِ، رَأَيْتَ الْمُتَنَافِقِينَ فِيهَا بَيْنَهُمْ يَضْجَرُونَ مِنْهَا.

قوله: (وقيل: إن أعرَضْتُمْ وتَوَلَّيْتُمْ): عطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أُمُورَ النَّاسِ»، وَمَرَجِعُ مَعْنَى التَّوَقُّعِ^(١) إِلَى الْخَلْقِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ زَيْدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧].

قوله: (وقرئ: «وَتَقَطَّعُوا﴾ و«تَقَطَّعُوا»): الْأُولَى: هِيَ الْمَشْهُورَةُ، وَالثَّانِيَةُ: شَاذَةٌ.

قوله: (ويجوزُ أن يُرِيدَ بـ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: الْمُؤْمِنِينَ الْخُلَصَّ): عطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «كَانُوا يَدْعُونَ الْحِرْصَ عَلَى الْجِهَادِ، وَيَتَمَنَّوْنَهُ بِالسِّيْتِهِمْ»، وَعَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ: قَوْلُهُ: ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ مِنْ بَابِ التَّجْرِيدِ^(٢)؛ جِرَادٌ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا الْقَاتِلِينَ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، وَهُمْ هُمْ، وَعَلَى الثَّانِي: غَيْرِ الْأُولَى، وَلِذَلِكَ قَالَ: «رَأَيْتَ الْمُتَنَافِقِينَ فِيهَا بَيْنَهُمْ

(١) فِي قَوْلِهِ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾، فَإِنَّهُ يُقَالُ فِيهَا يُتَوَقَّعُ، وَلَا يُقَطَّعُ بِهِ، فَلَا يَصِحُّ حَمْلُ «عَسَى» عَلَى ظَاهِرِ مَعْنَاهَا فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَلِذَا جَعَلَ مَعْنَى التَّوَقُّعِ يَرْجِعُ إِلَى الْخَلْقِ.

(٢) تَقَدَّمَ بَيَانُ مَعْنَى «التَّجْرِيدِ» ص ٢٤٧ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ١٤ مِنْ سُورَةِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَانظُرْهُ مَعَ التَّعْلِيقِ عَلَيْهِ.

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [٢٤]

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ وَيَتَصَفَّحُونَهُ وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالزُّوْاجِرِ وَوَعِيدِ الْعُصَاةِ، حَتَّى لَا يَجْسُرُوا عَلَى الْمَعَاصِي، ثُمَّ قَالَ: ﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾، وَ«أَمْ» بِمَعْنَى: بَلْ، وَهَمْزَةُ التَّقْرِيرِ لِلتَّسْجِيلِ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ قُلُوبَهُمْ مُقْفَلَةٌ لَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهَا ذِكْرٌ. وَعَنْ قَتَادَةَ: إِذَنْ - وَاللَّهِ - يَجِدُوا فِي الْقُرْآنِ زَاجِرًا عَنِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ لَوْ تَدَبَّرُوهُ، وَلَكِنَّهُمْ أَخَذُوا بِالْمُتَشَابِهِ فَهَلَكُوا.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ نَكَّرْتَ «الْقُلُوبَ»، وَأَضْيَقْتَ «الْأَقْفَالَ» إِلَيْهَا؟ قُلْتَ: أَمَا التَّنْكِيرُ: ففِيهِ وَجْهَانِ: أَنْ يُرَادَ: عَلَى قُلُوبٍ قَاسِيَةٌ مُبْهَمٌ أَمْرُهَا فِي ذَلِكَ،

يَضْجَرُونَ مِنْهَا». وَالْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ، وَالتَّقْدِيرُ الْأَخِيرُ أَنْسَبُ لِلتَّنَافِي وَالتَّقَابُلِ الْوَاقِعِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ فِي آيَاتِ هَذِهِ السُّورَةِ - كَمَا مَرَّ - وَقَرِيبَتِهَا سِتْجِيءٌ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [محمد: ٣٣] الْآيَةَ، وَسَقَفَ عَلَيْهِ.

قَوْلُهُ: (يَجِدُوا فِي الْقُرْآنِ زَاجِرًا عَنِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ): فِيهِ تَجْرِيدٌ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الاحزاب: ٢١].

قَوْلُهُ: (أَخَذُوا بِالْمُتَشَابِهِ فَهَلَكُوا): مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران: ٧]، وَالتَّدْبِيرُ فِي الْقُرْآنِ: تَمْيِيزُ الْمُحْكَمِ مِنَ الْمُتَشَابِهِ، وَجَعَلَهُ أَصْلًا يُؤَوَّلُ إِلَيْهِ مَعْنَى الْمُتَشَابِهِ.

قَوْلُهُ: (أَنْ يُرَادَ: عَلَى قُلُوبٍ قَاسِيَةٌ مُبْهَمٌ): نَحْوُهُ مَا أَنْشَدَ ابْنُ جُنَيْ:

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صِرَاطٍ إِذَا عَوَّجَ الْمَوَارِدُ مُسْتَقِيمٌ^(١)

(١) نَسَبَهُ ابْنُ جُنَيْ إِلَى كَثِيرٍ، وَهُوَ لَجْرِي، مِنْ قَصِيدَةٍ فِي مَدْحِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، كَمَا فِي «دِيْرَانِهِ» ص ٥٠٧ عَلَى مَا أَفَادَهُ مُحَقِّقُ «الْمَحْتَسَبِ» ٢: ٣٧٩ (فِي الْاِسْتِدْرَاكِ).

قُلْتُ: وَإِلَى جَرِيرِ نَسَبِهِ الزَّمْخَشَرِيُّ فِي «أَسَاسِ الْبَلَاغَةِ»، مَادَّةُ (وَرَدٌ)، وَابْنُ مَنْظُورٍ فِي «لِسَانِ الْعَرَبِ»، مَادَّةُ (وَرَدٌ) وَ(سَرَطٌ)، وَغَيْرُهُمَا.

أو يُراد: على بعض القلوب، وهي قلوبُ المُنافقين. وأما إضافة «الأقفال»: فلأنه يُريدُ الأقفالَ المُختَصَّةَ بها، وهي أقفالُ الكُفْرِ التي استعلقت فلا تفتيح.

وقرئ: «إقفاها»؛ على المصدر.

[إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُوا عَلَىٰ آذَانِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ * فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آتَبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ * ﴿٢٥-٢٨﴾]

«الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ» جملةٌ من مُبتدأٍ وخبرٍ وقَعَتْ خَبْرًا لـ «إِنَّ»، كقولك: إنَّ زيداً عمرو مَرَّ به، «سَوَّلَ لَهُمْ»: سهَّلَ لهم ركوبَ العظائم، مِنَ السَّوَالِ، وهو الاسترخاء، وقد اشتقَّ مِنَ السَّوَالِ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالتَّصْرِيفِ وَالاِشْتِقَاقِ جَمِيعاً.

وهذا (١) كقولك: أميرُ المؤمنينَ على الصُّراطِ المُستقيم، لا فرقَ بينهما؛ لأنَّ مفادَ نكرةِ الجِنسِ مفادُ معرفته، مِنْ حَيْثُ كَانَ فِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْهُ مَعْنَى مَا فِي جُمْلَتِهِ (٢). تَمَّ كَلَامُهُ.

فكانه جَعَلَ قُلُوبَهُمْ جِنْسَ الْقُلُوبِ، ادعاءً لِكَمَالِ مَعْنَى الْقِسَاوَةِ فِيهَا، وَلِذَلِكَ قَالَ: «على قلوبٍ قاسية»، وهو قريبٌ إلى التجريد.

قوله: (على بعض القلوب): روى السُّلَمِيُّ عن ابنِ عطاء: قلوبٌ أُفَلَّتْ عن التدبُّرِ، وَالسُّنُّ مَبْعُوثَةٌ عَنِ التَّلَاوَةِ، وَأَسْمَاعٌ صُمِّمَتْ عَنِ الاسْتِمَاعِ، وَمِنَ الْقُلُوبِ قُلُوبٌ كُشِفَ عَنْهَا الْعِطَاءُ، فَلَا تَكُونُ لَهَا رَاحَةٌ إِلَّا التَّلَاوَةُ أَوْ الاسْتِمَاعُ أَوْ التَّدْبِيرُ، فَشَتَانٌ مَا بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ.

قوله: (وقد اشتقَّ مِنَ السَّوَالِ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالتَّصْرِيفِ وَالاِشْتِقَاقِ): عِلْمُ الْاِشْتِقَاقِ بَاحِثٌ عَنِ أَخْذِ صَيغَةٍ مَعَ شُرُوطِ الْأَخْذِ لَا غَيْرَ، وَعِلْمُ التَّصْرِيفِ بَاحِثٌ عَنِ كَيْفِيَةِ الْمَأْخُودِ،

(١) في (ح) و(ف): «قوله: هذا كقولك»، فأوهم أنه يتكلم عن مسألة أخرى مُرتبطة بـ«الكشاف»، وليس كذلك، وفي (ط): «كقولك» دون لفظة «وهذا»، والمثبت من «المحتسب».

(٢) «المحتسب» لابن جني (١: ٤٣).

﴿وَأْمَلْ لَهُمْ﴾ ومدَّ لهم في الآمال والأمان، وقُرئ: «وَأْمَلِيْ لَهُمْ»، يعني: إِنَّ الشَّيْطَانَ يُغْوِيهِمْ وَأَنَا أَنْظِرُهُمْ، كقوله تعالى: ﴿أَنَّمَا تُمَلِّىْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقُرئ: «وَأْمَلِيْ لَهُمْ» على البناء للمفعول، أي: أَمِهَلُوا ومُدَّ في عُمْرِهِمْ.

وقُرئ: «سَوَّلَ لَهُمْ»، ومعناه: كَيْدُ الشَّيْطَانِ زَيْنَ لَهُمْ، على تقديرِ حَذْفِ الْمُضَافِ.

فإن قلت: مَنْ هُوَ لاء؟ قلت: اليهودُ كفروا بِمُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى، وهو نَعْتُهُ فِي التَّوْرَةِ. وقيل: هم الْمُنَافِقُونَ.

﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ اليهود، والَّذِينَ ﴿كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ المنافقون. وقيل: عكسه، وأنه قولُ الْمُنَافِقِينَ لِغُرْبَةِ النَّصِيحَةِ وَالنَّصِيرِ: ﴿لَئِنْ أَخْرَجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ [الحشر: ١١]. وقيل: ﴿بَعْضُ الْأَمْرِ﴾: التَّكْذِيبُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أو بـ «لا إله إلا الله»،

وعن أهلياتِ والحالاتِ الحاصِلَةِ فِي الْمَأْخُودِ، وَالْقِيَاسُ التَّصْرِيفِيُّ يَقْتَضِي أَنْ يُقَالَ: سَأَلَ إِذَا لَا مُوجِبَ لِلتَّلِينِ.

قال صاحبُ «التقريب»: وليس مُسْتَقْتًا مِنَ السُّؤْلِ، كما تَوَهَّمَهُ بَعْضُهُمْ؛ إِذ لَا يُسَاعِدُهُ التَّصْرِيفُ، لِأَنَّهُ كَانَ حَقُّهُ «سَأَلَ» بِالْهَمْزِ، وَلَا الْاِشْتِقَاقُ؛ لِأَنَّ السُّؤْلَ بِمَعْنَى الْحَاجَةِ، فَعُلَّ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، وَلَيْسَ فِي «سَوَّلَ» مَعْنَى السُّؤَالِ، وَشَرَطُ الْاِشْتِقَاقِ اتِّفَاقُ الْمَعْنَى.

قوله: (إِنَّ الشَّيْطَانَ يُغْوِيهِمْ، وَأَنَا أَنْظِرُهُمْ): قال الواحدي: «وَيَحْسُنُ الْوَقُوفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾ لِأَنَّهُ فَعُلَ الشَّيْطَانُ، وَالْإِمْلَاءُ فَعُلَ اللَّهُ، وَعَلَى قَوْلِ الْحَسَنِ: لَا يَحْسُنُ الْوَقُوفُ؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ: الشَّيْطَانُ مَدَّ لَهُمْ فِي الْأَمْلِ»^(١).

قوله: (أو بـ «لا إله إلا الله»): هذا التَّكْذِيبُ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا إِذَا جُمِلَ عَلَى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ قَالُوا ذَلِكَ لِلْمُشْرِكِينَ، لِأَنَّ الْيَهُودَ أَيْضًا مُوحِّدُونَ.

(١) «الوسيط» للواحدى (٤: ١٢٧).

أَوْ تَرَكَ الْقِتَالَ مَعَهُ. وَقِيلَ: هُوَ قَوْلُ أَحَدِ الْقَرِيبَيْنِ لِلْمُشْرِكِينَ: سَنُطِيعُكُمْ فِي التَّضَافُرِ عَلَى عِدَاوَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْقَعُودِ عَنِ الْجِهَادِ مَعَهُ. وَمَعْنَى: ﴿فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ فِي بَعْضِ مَا تَأْمُرُونَ بِهِ، أَوْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ الَّذِي يَهْمُكُمْ، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ﴾، وَقُرِئَ: ﴿إِسْرَارَهُمْ﴾ عَلَى الْمَصْدَرِ، قَالُوا ذَلِكَ سِرًّا فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَأَفْشَاهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَكَيْفَ يَعْمَلُونَ وَمَا حِيلَتْهُمْ حَيْثُذُ؟

وَقُرِئَ: «تَوْفَاهُمْ»، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَاضِيًا وَمُضَارِعًا قَدْ حُدِفَتْ إِحْدَى تَائِيهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ [النساء: ٩٧]. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا يُتَوَقَّى أَحَدٌ عَلَى مَعْصِيَةٍ إِلَّا يُضْرَبُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي وَجْهِهِ وَدُبْرِهِ.

﴿ذَلِكَ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى التَّوْفِيِّ الْمَوْصُوفِ، ﴿مَا أَسْخَطَ اللَّهُ﴾ مِنْ كِتَابَانِ نَعَبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَ﴿رَضَوْنَاهُ﴾ الْإِيمَانَ بِرَسُولِ اللَّهِ.

[أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرْزَيْنَهُمْ فَلَاعْرِفَنَّهُمْ بِسِيمَتِهِمْ وَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ * ٢٩-٣٠]

﴿أَضْغَنَهُمْ﴾ أَحْقَادَهُمْ، وَإِخْرَاجُهَا: إِبْرَازُهَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، وَإِظْهَارُهَا عَلَى نِفَاقِهِمْ وَعِدَاوَتِهِمْ لَهُمْ، وَكَانَتْ صُدُورُهُمْ تَغْلِي حَقَاقًا عَلَيْهِمْ.

﴿لَأَرْزَيْنَهُمْ﴾ لَعَرَّفْنَاكَهُمْ وَدَلَّلْنَاكَ عَلَيْهِمْ، حَتَّى تَعْرِفَهُمْ بِأَعْيَانِهِمْ لَا يَخْفُونَ عَلَيْكَ، ﴿بِسِيمَتِهِمْ﴾ بَعْلَامَتِهِمْ، وَهُوَ أَنْ يَسْمَهُمُ اللَّهُ بِعِلْمَةٍ يَعْلَمُونَ بِهَا.

قوله: (في التضافر): بالضاد المعجمة، الجوهري: «تضافروا على الشيء: تعاونا عليه». قوله: ﴿لَأَرْزَيْنَهُمْ﴾ لَعَرَّفْنَاكَهُمْ): قال الزجاج: «كما تقول: قد أرئتك هذا الأمر، أي: قد عرَّفْتُكَ إِيَّاهُ»^(١).

قوله: (ودلَّلناكَ عليهم حتى تعرفهم بأعيانهم): رويناه في «مسند أحمد بن حنبل»^(٢) عن

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥: ١٥).

(٢) برقم (٢٢٣٤٨).

وعن أنس رضي الله عنه: ما خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية شيء من المنافقين، كان يعرفهم بسيماهم، ولقد كنا في بعض الغزوات، وفيها تسعة من المنافقين يشكواهم الناس، فناموا ذات ليلة، وأصبحوا وعلى جهة كل واحد منهم مكتوب: هذا منافق.

فإن قلت: أي فرق بين اللامين في ﴿فَلَعَرَفْنَهُمْ﴾ و﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾؟ قلت: الأولى هي الداخلة في جواب «لو»، كالتي في ﴿لَأَرِيَنَّكُمْ﴾ كُرِّرَتْ في المعطوف، وأما اللام في ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ فواقعة مع النون في جواب قَسَمٍ محذوف.

﴿فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ في نحوه وأسلوبه. وعن ابن عباس: هو قولهم: ما لنا - إن أطعنا - من الثواب؟ ولا يقولون: ما علينا - إن عصينا - من العقاب. وقيل: اللحن: أن تلحن بكلامك، أي: تميله إلى نحو من الأنحاء، ليفطن له صاحبك، كالتعريض والتورية، قال:

ولقد لَحَنْتُ لَكُمْ لِكَيْمَا تَفْقَهُوا وَاللَّحْنُ يَعْرِفُهُ ذُوو الْأَبَابِ

وقيل للمخطئ: لاجن؛ لأنه يعدل بالكلام عن الصواب.

[﴿وَلَتَسْبُلُونَكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ (٣١)]

أبي مسعود: «حَطَبْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ مِنْكُمْ مُنَافِقِينَ، فَمَنْ سَمِيَتْ فَلْيُقِّمْ، ثُمَّ قَالَ: قُمْ يَا فُلَانُ، حَتَّى سَمَى سِتَّةَ وَثَلَاثِينَ».

قال: (ولا يقولون: ما علينا إن عصينا): يعني: كَانَ حَقُّهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْعِصْيَانِ أَنْ يَقُولُوا: مَا لَنَا - إِنْ عَصَيْنَا - مِنَ الْعِقَابِ، فَأَتَوْا عَلَى أَسْلُوبِ مَا يُؤْذِنُ الْمَدْحَ، بِقَوْلِهِمْ: مَا لَنَا - إِنْ أَطَعْنَا - مِنَ الثَّوَابِ.

قوله: (أَنْ تَلْحَنَ بِكَلَامِكَ): أي: بِمِثْلِهِ مِنَ الْأَنْحَاءِ، وَأَنْشَدَ الرَّجَّاجُ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

مَنْطِقٌ صَائِبٌ وَتَلْحَنٌ أَحْيَا نَأْ وَخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنًا (١)

(١) البيهقي مالك بن أسبغ بن خارجة الفزاري، كما في «عيون الأخبار» لابن قتيبة (٢: ١٦٢)، و«الضحاح» للجوهري، مادة (لحن)، و«لسان العرب» لابن منظور، مادة (لحن).

﴿أَخْبَارَكُمْ﴾ مَا يُحْكِي عَنْكُمْ، وَمَا يُخْبِرُ بِهِ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، لِيَعْلَمَ حَسَنُهَا مِنْ

قَبِيحِهَا؛

أي: خيرُ الحديثِ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ مَا كَانَ لَا يَعْرِفُهُ كُلُّ أَحَدٍ، إِنَّمَا يُعْرِفُ أَمْرُهَا فِي أَنْحَاءِ قَوْلِهَا^(١). هَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِ الْمُصَنِّفِ: «كَالتَّعْرِيزِ وَالتَّوْرِيَةِ»، أَي: الْإِيهَامِ.

الراغب: «اللَّحْنُ: صَرْفُ الْكَلَامِ عَنْ سَنَنِهِ الْجَارِي عَلَيْهِ، إِمَّا بِإِزَالَةِ الْإِعْرَابِ أَوْ التَّضْحِيفِ، وَهُوَ الْمَذْمُومُ، وَذَلِكَ أَكْثَرُ اسْتِعْمَالًا، وَإِمَّا بِإِزَالَتِهِ عَنِ التَّصْرِيحِ وَصَرْفِهِ بِمَعْنَاهُ إِلَى تَعْرِيزٍ وَفَحْوَى، وَهُوَ مَحْمُودٌ مِنْ حَيْثُ الْبَلَاغَةُ، وَإِلَيْهِ قُصِدَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ - عِنْدَ أَكْثَرِ الْأَدْبَاءِ -:

وَخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لِحْنًا

وَإِيَاهُ قُصِدَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، وَمِنْهُ قِيلَ لِلْفَطْنِ لِسَمَا يَفْتَضِي فَحْوَى الْكَلَامِ: لَحْنٌ، وَفِي الْحَدِيثِ: «لَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ»^(٢)، أَي: أَلْسَنُ وَأَفْصَحُ وَأَبَيَّنُ كَلَامًا، وَأَقْدَرُ عَلَى الْحِجَّةِ»^(٣).

قوله: (وَمَا يُخْبِرُ بِهِ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، لِيَعْلَمَ حَسَنُهَا مِنْ قَبِيحِهَا): أَي: عَبَّرَ بـ ﴿أَخْبَارَكُمْ﴾ عَنْ «أَعْمَالِكُمْ» فِي قَوْلِهِ: ﴿وَنَبَلُّوا أَخْبَارَكُمْ﴾ عَلَى سَبِيلِ الْكِنَايَةِ، لِأَنَّ الْإِخْبَارَ تَابِعٌ لَوْجُودِ الْمُخْبِرِ عَنْهُ، الْمَعْنَى: يَخْتَبِرُ أَخْبَارَكُمْ، إِنْ كَانَ الْخَبْرُ^(٤) حَسَنًا فَالْمُخْبِرُ عَنْهُ - الَّذِي هُوَ الْعَمَلُ - حَسَنٌ، وَإِنْ كَانَ الْخَبْرُ قَبِيحًا فَالْعَمَلُ أَيْضًا قَبِيحٌ.

وقال ابنُ الحَاجِبِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَقَّقْنَا لَعْمَرَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ﴾: «الْعِلْمُ يُطْلَقُ بِاعْتِبَارِ الرُّؤْيَةِ، وَالشَّيْءُ لَا يُرَى حَتَّى يَقَعَ، أَوْ بِمَعْنَى الْمُجَازَاةِ، الْمَعْنَى: حَتَّى تُجَازِيَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ»^(٥).

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١٥: ٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٨٠) و(٦٩٦٧) و(٧١٦٩)، ومسلم (١٧١٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٣) «مفردات القرآن» ص ٧٣٨-٧٣٩.

(٤) في (ح) و(ف): «المخبر»، والمثبت من (ط)، وهو الصواب لقريئة مُقَابِلِهِ الْآتِي بِعَدِّ كَلِمَاتٍ مَعْدُودَةٍ، وَلِقْرِيئَةِ قَوْلِ الزَّمْخَشَرِيِّ: «لَأَنَّ الْخَبْرَ عَلَى حَسَبِ الْمُخْبِرِ عَنْهُ».

(٥) «الأمالي النحوية» لابن الحَاجِبِ (١: ٨٢).

لأنَّ الخَبَرَ عَلَى حَسَبِ الْمُخْبِرِ عَنْهُ؛ إِنْ حَسَنًا فَحَسَنٌ، وَإِنْ قَبِيحًا فَقَبِيحٌ. وَقَرَأَ يَعْقُوبُ: «وَيَبْلُو» بِسُكُونِ الْوَاوِ؛ عَلَى مَعْنَى: وَنَحْنُ نَبْلُو أَخْبَارَكُمْ. وَقُرِئَ: «وَلِيَلُونَكُمْ» وَ«يَعْلَمُ» وَ«يَبْلُو» بِالْيَاءِ.

وَعَنِ الْفُضَيْلِ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَرَأَهَا بَكَى وَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَبْلُنَا، فَإِنَّكَ إِنْ بَلَوْتَنَا فَضَحْتَنَا، وَهَتَكَتَ أَسْتَارَنَا، وَعَدَّ بَتْنَا.

[﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ﴾ [٣٢]

﴿وَسَيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ﴾ التي عَمِلُوهَا فِي دِينِهِمْ يَرْجُونَ بِهَا الثَّوَابَ؛ لِأَنَّهَا مَعَ كُفْرِهِمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَاطِلَةٌ، وَهِيَ قُرْبِيظَةٌ وَالنَّضِيرُ، أَوْ سَيُحِطُّ أَعْمَالَهُمُ الَّتِي عَمِلُوهَا، وَالْمَكَايِدُ الَّتِي نَصَبُوهَا فِي مُشَاقَّةِ الرَّسُولِ، أَي: سَيُطِلُّهَا فَلَا يَصِلُونَ مِنْهَا إِلَىٰ أَغْرَاضِهِمْ، بَلْ يَسْتَضِرُّونَ بِهَا، وَلَا تُثْمِرُ لَهُمْ إِلَّا الْقَتْلَ وَالْجَلَاءَ عَنِ أَوْطَانِهِمْ. وَقِيلَ: هُمْ رُؤْسَاءُ قُرَيْشٍ وَالْمُطْعَمُونَ يَوْمَ بَدْرٍ.

[﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [٣٣]

﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أَي: لَا تُحْبِطُوا الطَّاعَاتِ بِالْكَبَائِرِ،

وَمَعْنَى الْإِبْتِلَاءِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ يُعَامِلُنَا بِهَا يُعَامِلُ بَعْضُنَا بَعْضًا، فَقَوْلُهُ: «لِيَعْلَمَ حَسَنُهَا» - أَي: حَسَنُ الْأَعْمَالِ - تَعْلِيلٌ لِإِبْتِلَاءِ الْأَعْمَالِ.

وَقَوْلُهُ: (لأنَّ الخَبَرَ عَلَى حَسَبِ الْمُخْبِرِ عَنْهُ): تَعْلِيلٌ لِإِطْلَاقِ «الْأَخْبَارِ» عَلَى «الْأَعْمَالِ».

قَوْلُهُ: (وَقُرِئَ «وَلِيَلُونَكُمْ» وَ«يَعْلَمُ» وَ«يَبْلُو» بِالْيَاءِ): أَبُو بَكْرٍ، وَالْبَاقُونَ بِالنُّونِ^(١).

قَوْلُهُ: (لَا تُحْبِطُوا الطَّاعَاتِ بِالْكَبَائِرِ): الْإِنْتِصَافُ: «الْكَبَائِرُ لَا تُحْبِطُ الْحَسَنَاتِ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]، ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ٢٠١، و«حجة القراءات» ص ٦٧٠.

السَّيِّئَاتِ ﴿ [هود: ١١٤]، والكبيرة عند المعتزلة: تُحِيطُ الصالحات، ولو كانت مثل زَبَدِ الْبَحْرِ، وما أوردَه الزمخشريُّ مِنَ الْأَثَارِ وَجَبَ رُدُّهُ عَلَى قَاعِدَةِ الْحَقِّ بِالتَّأْوِيلِ، فَإِنْ لَمْ يَقْبَلِ التَّأْوِيلَ فَطَرِيقُهُ أَنْ يُحَسِّنَ الظَّنَّ بِالمَقُولِ عَنْهُ، وَتَغْلِيظُ قَائِلِهِ^(١)، وَكَلَامُ ابْنِ عُمَرَ: ظَاهِرُهُ أَوْلَى بِنُصْرَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَالآيَةُ مَحْمُولَةٌ عِنْدَنَا عَلَى الْإِخْلَالِ بِرُكْنٍ أَوْ شَرْطٍ يَقْتَضِي الْبُطْلَانَ مِنْ أَصْلِهِ، لِأَنَّهُ يَبْطُلُ بَعْدَ اسْتِكْمَالِ شَرَايِظِ الصَّحَّةِ وَالْقَبُولِ^(٢).

وقال القاضي: ﴿لَا يُبْطَلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾ كما أبطل هؤلاء بالكفر والنفاق، أو لا يُبْطَلُوا بالعُجْبِ والرِّيَاءِ وَالْمَنِّ وَالْأَذَى وَنَحْوِهَا، وَلَيْسَ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى إِجْبَاطِ الطَّاعَاتِ بِالْكَبَائِرِ^(٣).

وقلت: أما قِصِيَّةُ النِّظْمِ: فَإِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا حَكَى عَنِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لَوْ لَا نَزَلَتْ سُورَةٌ﴾ [محمد: ٢٠]، وَكَانُوا يَدْعُونَ بِذَلِكَ الْحِرْصَ عَلَى الْجِهَادِ، وَحِينَ أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذِكْرٌ فِيهَا الْقِتَالُ جَبْنُوا وَكَفَرُوا وَأَبَوْا إِلَّا مُخَالَفَةَ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَذَمُّهُمْ^(٤) عَلَى ذَلِكَ ذَمًّا بَلِيغًا، وَأُطِنَبَ فِيهِ، حَتَّى خَتَمَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِيطُ أَعْمَلُهُمْ﴾، أَتَبَعَ ذَلِكَ قَوْلَهُ: ﴿يَكْفُرُوا بِالَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطَلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾، أَي: لَا تَكُونُوا أَمْثَلَهُمْ فِيمَا أَمَرْتُمْ بِهِ مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَتَجَبَّنَا فِيهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نِفَاقٌ وَتَشْبِيهُ بِالْكَفَرَةِ الَّذِينَ صَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ، فَسَيُحِيطُ اللَّهُ أَعْمَالَكُمْ، كَمَا أَبْطَلَّ أَعْمَالَهُمْ.

(١) كذا في الأصول الخطية، ومعناه: تغليظ من يقوله لنا، وهو الراوي، أما قائله حقيقة - أي: الذي يُنسب إليه الكلام - فهو المقول عنه، وقد ذكر أنه ينبغي تحسين الظن به، ولفظ ابن المنير في «الاتصاف»: «تحسين الظن بالمقول عنه، والتوريك بالغلط على النقلة»، وهو أوضح مما هنا.

(٢) «الاتصاف» (٣: ٥٣٨) بحاشية «الكشاف».

(٣) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ١٩٦).

(٤) قوله: «ذمهم» معطوف على: «حكى» في قوله: «لما حكى عن المؤمنين».

كقوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى أن قال: ﴿أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَلُكُمْ﴾ [الحجرات: ٢]، وعن أبي العالية: كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَرُونَ أَنَّهُ لَا يَضُرُّ مَعَ الْإِيمَانِ ذَنْبٌ، كَمَا لَا يَنْفَعُ مَعَ الشَّرْكِ عَمَلٌ، حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾، فَكَانُوا يَخَافُونَ الْكِبَائِرَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ. وَعَنْ حُذَيْفَةَ: فَخَافُوا أَنْ تُحْبِطَ الْكِبَائِرُ أَعْمَالَهُمْ. وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ: كُنَّا نَرَى أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ حَسَنَاتِنَا إِلَّا مَقْبُولًا، حَتَّى نَزَلَ: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾، فَقُلْنَا: مَا هَذَا الَّذِي يُبْطِلُ أَعْمَالَنَا؟ فَقُلْنَا: الْكِبَائِرُ الْمَوْجِبَاتُ وَالْفَوَاحِشُ، حَتَّى نَزَلَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦]، فَكَفَفْنَا عَنِ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ، فَكُنَّا نَخَافُ عَلَى مَنْ أَصَابَ الْكِبَائِرَ، وَتَرَجُّوْا لِمَنْ لَمْ يُصِبْهَا. وَعَنْ قَتَادَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: رَجِمَ اللَّهُ عَبْدًا لَمْ يُحْبِطْ عَمَلَهُ الصَّالِحَ بِعَمَلِهِ السَّيِّئِ.

وقيل: لَا تُبْطِلُوهَا بِمَعْصِيَتِهِمَا، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَا تُبْطِلُوهَا بِالرِّيَاءِ وَالشُّمُوعَةِ، وَعَنْهُ: بِالشُّكِّ وَالنَّفَاقِ، وَقِيلَ: بِالْعُجْبِ، فَإِنَّ الْعُجْبَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطْبَ، وَقِيلَ: وَلَا تُبْطِلُوهَا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [٣٤]

﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ قيل: هم أصحاب القلب، والظاهر العموم.

﴿فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْوِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ [٣٥]

فالخاص أنه من باب التَغْلِيظِ وَالتَّقَابُلِ، وَيُؤَيِّدُهُ تَعْقِيْبُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْوِ﴾ بالفاء، وَفَضْلُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾^(١).

قوله: (قيل: هم أصحاب القلب): أي: قلبِ بَدْرٍ، وهم قُرَيْشٌ.

(١) أي: جعله فاصلة الآية، وليس المراد «الفضل» بمعناه البلاغي، وهو ترك الواو بين الجملتين، لأن الواو ثابتة هنا.

﴿فَلَا تَهْتُوا﴾ فلا تَضَعُفُوا ولا تَدُلُّوا للعدو، ﴿و﴾ لا ﴿تَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾، وقرئ: «السُّلْم»، وهما المُسالمة، ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي: الأغلبون الأَقَهْرُونَ، ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي: ناصِرُكُمْ. وعن قتادة: لا تكونوا أوَّلَ الطائِفَتَيْنِ ضَرَعَتْ إلى صاحبتهما بالمُوادعة. وقرئ: «ولا تَدْعُوا»؛ مِنْ: ادَّعَى القَوْمُ وتَدَاعَوْا: إذا دَعَوْا، نحو قولك: ارتَمَوْا الصَّيْدَ وترَمَوْه. و«تَدْعُوا» مجزومٌ لِدُخُولِهِ في حُكْمِ النِّهْيِ، أو منصوبٌ لِإِضْمَارِ «إِنْ»، ونحو قولهِ تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: ٦٨].

قوله: (وَقُرِئَ: «السُّلْم») بِكَسْرِ السَّيْنِ: أبو بكرٍ وحمزة، والباقون: بِفَتْحِهَا^(١).

قوله: (ضَرَعَتْ إلى صاحبِتها): الأساس: «ضَرَعَ له وإليه ضَرَعًا: إذا استَكَانَ وَخَشَعَ، وهو يَتَضَرَّعُ إليه، ولم يزل ضارِعًا حتى فَعَلَتْ كذا»، وعن بعضهم: ضَرَعَ؛ أي: مَالٌ على سَبِيلِ الخِضوعِ، فهو ضَرَعٌ، سُمِّيَ بالمَصْدَرِ للمُبَالَغَةِ، وَضَرِعَتْ: إذا استَكَانَتْ، وَفَتَحَ الرَّاءُ خَطَأً.

قوله: (بِالمُوادعة): الجوهري: «هي المُصالحة».

قوله: (وَنَحْوُ قَوْلِهِ) ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾: قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾: يعني: نظيرُهُ في كَوْنِهِ تقريراً لِلغَلَبَةِ والقَهْرِ، وقد صُدِّرَتْ بـ«إِنَّ» المُؤكِّدَةَ، وَحُلِّيتْ بلامِ التعريفِ، وفي لفظِ العُلُوِّ، وَصِيغَةُ التَّفْضِيلِ^(٢). نعم ليس فيه تَكَرُّرُ الضميرِ ولا الاستِثْناء^(٣)، لكنَّهُ حَالٌ مُقرَّرَةٌ لمعنى النِّهْيِ، مردوفةٌ بما يزيدُها تقريراً وتبسيُّناً، أي: لا ينبغي أن تَتَضَرَّعُوا إلى الصُّلْحِ، والحالُ أنتم قَاهِرُونَ عليهم، وأنَّ اللهَ ناصِرُكُمْ عليهم في الدُّنْيَا، وخاذِلُهُمْ، وهو مُوفي أجوركم في العُقْبَى.

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ٢٠١، و«حجة القراءات» ص ٦٧٠.

(٢) يريد: أن هذه الوجوه المذكورة اشتركت فيها الآيتان، ولذلك صحَّ أن يُقال: إنَّ هذه الآيةَ نحوُ تلك، أو: هذه نظيرُ تلك. ولكن في كَوْنِ التصديرِ بـ«إِنَّ» وجهاً من وجوه التوافقِ بين الآيتين: نَظَرٌ؛ إذ ليس ذلك في الآية الأولى، وهي قوله: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾، والله أعلمُ بحقيقة الأمر.

(٣) تَكَرُّرُ الضميرِ والاستِثْناءُ وقعا في الآية الثانية دون الأولى، يُريدُ بتكرير الضميرِ: إعادة «أنت» بعد «الكاف» في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾، وبِالاستِثْناءِ: أن الواو لم تدخل على هذه الآية، كما دخلت على قوله: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾.

﴿وَلَنْ يَتْرُكُ﴾: مِنْ: وَتَرْتُ الرجل: إِذَا قَتَلْتَ لَهُ قَتِيلًا مِنْ وَلَدٍ أَوْ أَخٍ أَوْ حَمِيمٍ، أَوْ حَرَبَتَهُ، وَحَقِيقَتُهُ: أَفْرَدْتَهُ مِنْ قَرِيبِهِ أَوْ مَالِهِ، مِنْ الْوَتْرِ، وَهُوَ الْفَرْدُ، فَشَبَّهَ إِضَاعَةَ عَمَلِ الْعَامِلِ وَتَعْطِيلَ ثَوَابِهِ بِوَتْرِ الْوَاتِرِ، وَهُوَ مِنْ فَصِيحِ الْكَلَامِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ فَاتَتْهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ، فَكَانَهَا وَتَرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ»، أَي: أَفْرَدَ عَنْهُمَا قَتْلًا وَنَهْبًا.

قال مكِّي: «﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ الجملة حالٌ مِنَ الضميرِ المرفوعِ في «تَدْعُوا»، وكذلك «وَاللَّهُ مَعَكُمْ» ﴿وَلَنْ يَتْرُكُوا عَمَلَكُمْ﴾»^(١).

قوله: (أَوْ حَرَبْتَهُ): الجوهري: «حَرَبَ الرَّجُلُ مَالَهُ؛ أَي: سُلِبَهُ، فَهُوَ مُحْرَبٌ».

قوله: (وَهُوَ مِنْ فَصِيحِ الْكَلَامِ): لِأَنَّهُ تَعَالَى أَجْرِي عَمَلِ الْعَامِلِ مَجْرَى الْقَرِيبِ وَالْمَالِ، شَبَّهَ تَعْطِيلَ ثَوَابِ الْعَمَلِ بِوَتْرِ الْوَاتِرِ فِي السَّهْلِكَةِ وَالْحُسْرَانِ، ثُمَّ اسْتَعِيرَ لْجَانِبِ الْمُشَبَّهِ اللَّفْظُ الْمُسْتَعْمَلُ فِي جَانِبِ الْمُشَبَّهِ بِهِ، وَهُوَ «يَتْرُكُ»، وَنَحْوُهُ فِي الْإِجْرَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَى: «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» [الشعراء: ٨٨-٨٩]؛ جَعَلَ بِالْإِذْعَاءِ الْقَلْبَ السَّلِيمَ مِنْ أَفْرَادِ جِنْسِ الْمَالِ وَالْبَنِينَ، ثُمَّ اسْتَنْى بِقَوْلِهِ: «إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» بَعْضَ أَفْرَادِ ذَلِكَ الْجِنْسِ.

قال مكِّي: «﴿يَتْرُكُ﴾ و﴿تَهْتُوا﴾: حُذِفَتْ مِنْهَا الْفَاءُ^(٢)، وَهِيَ وَاوٌ، وَأَصْلُهُ: «تَوَهْتُوا» و«يُوتِرَكَم»، حُذِفَتْ لَوْقُوعِهَا بَيْنَ يَاءٍ وَكَسْرَةٍ، وَأَتْبَعَ سَائِرُ امْتِثَالَةِ الْفِعْلِ الْمُسْتَقْبَلِ الْحَذْفَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ يَاءٌ، عَلَى الْإِتْبَاعِ، لِئَلَّا يَخْتَلَفَ الْفِعْلُ»^(٣).

قوله: (مَنْ فَاتَتْهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ كَأَنَّمَا^(٤) وَتَرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ): أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ^(٥) عَنْ نَوْفَلٍ، وَرَوَايَةُ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ^(٦) وَغَيْرِهِمَا عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الَّذِي تَفَوَّتَهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ، فَكَانَهَا وَتَرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ».

(١) «مُشْكِلُ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ» لِمَكِّي بْنِ أَبِي طَالِبٍ (٢: ٦٧٤).

(٢) أَي: فَاءُ الْفِعْلِ، وَهِيَ الْحَرْفُ الْأَوَّلُ مِنْهُ مِنْ غَيْرِ الزَّوَادِ.

(٣) «مُشْكِلُ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ» لِمَكِّي بْنِ أَبِي طَالِبٍ (٢: ٦٧٤-٦٧٥).

(٤) كَذَا فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ، وَفِي «الْكَشَافِ»: «فَكَانَهَا».

(٥) فِي «سُنَنِ» (٤٧٨-٤٨٠). وَأَصْلُهُ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ (٣٦٠٢)، وَمُسْلِمٍ (٢٨٨٦).

(٦) الْبُخَارِيُّ (٥٥٢)، وَمُسْلِمٌ (٦٢٦).

[إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تَوَيْمُوا وَتَنَقُّوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْتَأْذِنُكُمْ * إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِفْكُمْ يَخْلُوا وَيُخْرِجْ أَضْفَانَكُمْ * مَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُفْسِنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْعَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ * ٣٦-٣٨]

﴿يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ﴾ ثواب إيمانكم وتقواكم، ﴿وَلَا يَسْتَأْذِنُكُمْ﴾ أي: ولا يسألكم جميعها، إنما يقتصر منكم على رُبْع العُشر.

ثم قال: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِفْكُمْ﴾ أي: يُجهدكم ويطلبه كله، والإحفاء: المُبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء، يقال: أحفأه في المسألة: إذا لم يترك شيئاً من الإحاح، وأحفى شاربته: إذا استأصله، ﴿بَخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْفَانَكُمْ﴾ أي: تَضَطَّغُونِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَتَضَيَّقُ صُدُورُكُمْ لِدَلِكْ، وَأَظْهَرْتُمْ كِرَاهَتَكُمْ وَمَقْتَتَكُمْ لِذَيْنِ يَذْهَبُ بِأَمْوَالِكُمْ، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿يُخْرِجْ﴾ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، أَي: يُضْغِنُكُمْ بِطَلْبِ أَمْوَالِكُمْ، أَوْ لِلْبُخْلِ، لِأَنَّهُ سَبَبُ الْأَضْطِغَانِ.

وَقُرِي: «نُخْرِجُ» بِالنُّونِ، وَ«يَخْرِجُ» بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ مَعَ فَتْحِهِمَا، وَرَفَعَ «أَضْغَانِكُمْ».

قوله: (ثم قال: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا﴾): يعني: الجملة الشرطية كالتعليل لقوله: ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمُوهَا﴾، أي: لا يسألكم جميعها، إنما يقتصر منكم على رُبْع العُشر، روى الواحدي عن السدي أنه قال: «إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِفْكُمْ يَخْلُوا وَيُخْرِجْ أَضْفَانَكُمْ﴾ يُظْهِرُ بُغْضَكُمْ وَعَدَاوَتَكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَكِنَّهُ فَرَضَ عَلَيْكُمْ يَسِيرًا، وَهُوَ رُبْعُ الْعُشْرِ»^(١)، فَقَوْلُ الْمُصَنِّفِ: «أَي: يُضْغِنُكُمْ بِطَلْبِ أَمْوَالِكُمْ»: معناه: يُظْهِرُ بُغْضَكُمْ بِطَلْبِ جَمِيعِ أَمْوَالِكُمْ»^(٢)، وَكَذَا مَعْنَى «يَذْهَبُ بِأَمْوَالِكُمْ»، أَي: يُهْلِكُهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧].

قوله: (وَقُرِي: «نُخْرِجُ» بِالنُّونِ): السَّبْعَةُ.

(١) «الوسيط» للواحدي (٤: ١٣٠).

(٢) قوله: «يُظْهِرُ بُغْضَكُمْ بِطَلْبِ أَمْوَالِكُمْ» سقط من (ح).

﴿هُؤُلَاءِ﴾ موصولٌ بمعنى: الذين، صلته ﴿تُدْعَوْنَ﴾، أي: أنتم الذين تُدْعَوْنَ. أو: أنتم - يا مُحَاطَبُونَ - هؤُلاءِ الموصوفون، ثم استأنفَ وَصَفَهُمْ، كأنهم قالوا: وما وَصَفْنَا؟ فقيل: ﴿تُدْعَوْنَ لِئِنَّفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قيل: هي النَّفَقَةُ فِي الْغَزْوِ، وقيل: الزكاة، كأنه قيل: الدليلُ على أنه لو أحفأكم لَبَخَلْتُمْ وَكَرِهْتُمْ الْعَطَاءَ وَاضْطَغَنْتُمْ: أنكم تُدْعَوْنَ إِلَى أَدَاءِ رُبْعِ الْعُشْرِ، فَمِنْكُمْ نَاسٌ يَبْخُلُونَ بِهِ.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ﴾ بِالصَّدَقَةِ وَأَدَاءِ الْفَرِيضَةِ، فَلَا يَتَعَدَّاهُ ضَرَرٌ بِيْخَلِهِ، وَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَلَى نَفْسِهِ، يُقَالُ: بَخَلْتُ عَلَيْهِ وَعَنهُ، وَكَذَلِكَ ضَمِنْتُ عَلَيْهِ وَعَنهُ، ثُمَّ أُخْبِرَ أَنَّهُ لَا يَأْمُرُ بِذَلِكَ وَلَا يَدْعُو إِلَيْهِ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ، فَهُوَ الْغَنِيُّ الَّذِي تَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الْحَاجَاتُ، وَلَكِنْ لِحَاجَتِكُمْ وَفَقْرِكُمْ إِلَى الشَّوَابِ.

قوله: (أو: أنتم - يا مُحَاطَبُونَ - هؤُلاءِ الموصوفون): فعلٌ هذا فيه توبيخٌ عظيم، وتحقيرٌ من شأنهم لأجل الوصفِ بالبخل، قال في قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]: «هو استبعادٌ لِمَا أُسِنِدَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْإِجْلَاءِ وَالْعُدْوَانِ، بَعْدَ أَخْذِ الْمِيثَاقِ مِنْهُمْ وَإِقْرَارِهِمْ. والمعنى: ثم أنتم بعد ذلك هؤُلاءِ المشاهدون، يعني: أنكم قومٌ آخرون غير أولئك المُقْرَبِينَ^(١)؛ تَنْزِيلًا لِتَغْيِيرِ الصِّفَةِ مِنْزِلَةَ تَغْيِيرِ الذَّاتِ»، فالمعنى هاهنا: إِنَّا فَرَضْنَا عَلَيْكُمْ رُبْعَ الْعُشْرِ لَيْسَهْلَ عَلَيْكُمْ، إِذْ لَوْ طَلَبْنَا مِنْكُمْ جَمِيعَ أَمْوَالِكُمْ لَبَخَلْتُمْ وَأَظْهَرْتُمْ بُغْضَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ: أَنْكُمْ - مَعَ ذَلِكَ التَّسْهِيلِ - هؤُلاءِ المُشَاهِدُونَ الْمَوْصُوفُونَ بِأَنَّكُمْ تُدْعَوْنَ إِلَى أَدَاءِ رُبْعِ الْعُشْرِ، فَمِنْكُمْ نَاسٌ يَبْخُلُونَ بِهِ.

قوله: (يُقَالُ: بَخَلْتُ عَلَيْهِ وَعَنهُ): وعن بعضهم: بَخَلْتُ عَنْ نَفْسِهِ: مُضَمَّنٌ بِمَعْنَى الْبُعْدِ، أَي: يُبْعَدُ الْخَيْرَ عَنْ نَفْسِهِ عَلَى طَرِيقِ الْبُخْلِ. وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: يُصَدِّرُ الْبُخْلَ عَنْ نَفْسِهِ، لِأَنَّهَا مَكَانٌ لِلْبُخْلِ وَمَنْبَعُهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ [الحشر: ٩].

(١) تَحَرَّفَ فِي (ح) وَ(ف) إِلَى: «المقربين»، وَالمُتَّبَتِ مِنْ (ط).

وقال القاضي: «البُخل: يُعدَى بـ«عن» وبـ«على» لِتَضَمُّنِهِ معنى الإمساك، فإنه إمساكٌ عن مُسْتَحَقٍّ»^(١)، لكنَّ قولَ المُصنِّفِ هذا بعدَ قولِهِ السابق مُشعرٌ بَعَدَمِ التفرقةِ في الاستعمال، كما عليه مذهبُ النَّحْوِيِّينَ دونَ أهلِ المعاني، فإنه لَمَّا أَكَّدَ معنىَ جزاءِ الشَّرْطِ - وهو قوله: «فلا يَتَعَدَّاهُ صَرَرُ بُخْلِهِ» - بقوله: وإنما يَبْخُلُ علىِ نَفْسِهِ، وأتى بـ«على» وخالف، لأنه في التنزيل: ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾، اعتذرَ له بقوله: «يُقَالُ: يَبْخُلُ عَلَيْهِ وَعَنَهُ»، أي: أنها سَيَانٌ في الاستعمال.

قال الحريريُّ في «دُرَّةِ الْغَوَاصِ»: «الْفِعْلُ اللّازِمُ يُعَدَّى تَارَةً بِهِمْزَةَ النِّقْلِ، كَقَوْلِكَ: خَرَجَ زَيْدٌ وَأَخْرَجْتُهُ، وَأُخْرِي بِالْبَاءِ كَقَوْلِكَ: خَرَجَ زَيْدٌ وَخَرَجْتُ بِهِ، وَاخْتَلَفَ النَّحْوِيُّونَ: هَلْ بَيْنَ حَرْفِي التَّعْدِيَةِ فَرْقٌ أَمْ لَا؟ فَقَالَ الْأَكْثَرُونَ: هُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَقَالَ الْمُبَرِّدُ: بَيْنَهُمَا فَرْقٌ؛ وَهُوَ أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: «أَخْرَجْتُ زَيْدًا» كَانَ الْمَعْنَى^(٢): حَمَلْتُهُ عَلَى الْخُرُوجِ، وَإِذَا قُلْتَ: خَرَجْتُ بِزَيْدٍ، فَمَعْنَاهُ: خَرَجْتَ وَاسْتَصْحَبْتَهُ مَعَكَ، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَصَحُّ»^(٣).

وقال صاحبُ «الضوء»: «معنى التَّعْدِيَةِ فِي «ذَهَبْتُ بِهِ وَأَذْهَبْتُهُ»: وَاحِدٌ، وَفِي سَائِرِ الْمَوَاضِعِ يُفِيدُ مَعَ مَعْنَى التَّعْدِيَةِ مَعْنَى آخَرَ، وَهَاهُنَا لَمْ يُفَيْدْ شَيْئًا سِوَاهَا».

وقلت: فعلى هذا: الشَّرْطُ وَالْجِزَاءُ مُتَقَارِبَانِ فِي الْمَعْنَى، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، و﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقولهم: «مَنْ أَدْرَكَ مَرْعَى الصَّمَانِ فَقَدْ أَدْرَكَ»^(٤)، فيكونُ المعنى: مَنْ يَبْخُلُ عَنِ أَدَاءِ رُبْعِ الْعُسْرِ بَعْدَ ذَلِكَ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ فَقَدْ بَالِغٌ فِي الْبُخْلِ، وَكَانَ هُوَ الْبَخِيلُ فِي الْحَقِيقَةِ. رَوَيْنَا

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ١٩٧).

(٢) من قوله: «واحد وقال المبرد» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

(٣) «دُرَّةُ الْغَوَاصِ» للحريري ص ٢٣.

(٤) تقدّم بيانُ معناه في التعليق على تفسير الآية ٣٦ من سورة الأنفال (٧: ٩٧).

﴿وَأَنْتُمْ تَتَوَلَّوْا﴾ معطوفٌ على ﴿وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا﴾، ﴿يَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يَخْلُقُ قوماً سِوَاكُمْ على خِلافِ صِفَتِكُمْ رَاغِبِينَ فِي الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، غَيْرَ مُتَوَلِّينَ عَنْهُمَا، كقولهِ: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩، فاطر: ١٦]، وقيل: هُمُ الْمَلَائِكَةُ، وقيل: الْأَنْصَارُ، وعن ابنِ عَبَّاسٍ: كِنْدَةُ وَالنَّحَعُ، وعن الْحَسَنِ: الْعَجَمُ، وعن عِكْرِمَةَ: فَارِسُ وَالرُّومُ.

عن الترمذِيِّ^(١) عن أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَدَيْتَ زَكَاتَ مَالِكَ فَقَدْ قَضَيْتَ مَا عَلَيْكَ».

وإِرَادَةُ التَّوَكُّيدِ ذَيْلَ الْكَلَامِ بقوله: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾، وَجَعَلَهُ كَالْإِعْتِرَاضِ بَيْنَ الْمُتَقَابِلِينَ، أعني قوله: ﴿وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا﴾ وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَتَوَلَّوْا﴾، وهما المعطوفانِ الْمَعْنِيَانِ بقوله: ﴿﴿وَأَنْتُمْ تَتَوَلَّوْا﴾ معطوفٌ على ﴿وَإِنْ تَوَمَّنُوا﴾».

والتعريفُ في ﴿الْغَنِيُّ﴾ و﴿الْفُقَرَاءُ﴾ لِلْجِنْسِ، فَأَدْنَا بِكَمَالِ الْغِنْيِ وَنَهَايَةِ الْفَقْرِ، ثُمَّ كَوْنُهُمَا خَبْرَيْنِ وَهُمَا مَعْرِفَتَانِ: دَلَالًا عَلَى الْحَصْرِ، نَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ إِنْ شَاءَ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ [فاطر: ١٥-١٦]، والمعنى: أَنْتُمْ جِنْسُ الْفُقَرَاءِ الْكَامِلُونَ فِيهِ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ عَلَى الْإِطْلَاقِ، فَهُوَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَعَنْ عِبَادَتِكُمْ، فَإِنْ لَمْ تَحْمَدُوهُ أَنْتُمْ يَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ؛ مَنْ يَحْمَدُ وَلَا يَكْفُرُ مِثْلَكُمْ.

قوله: (يَخْلُقُ قَوْمًا سِوَاكُمْ): أي: «يَسْتَبْدِلُ»: يَحْتَمِلُ اسْتِبْدَالَ الْوَصْفِ وَاسْتِبْدَالَ الذَّاتِ، كَمَا مَرَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وَالَّذِي يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ: الثَّانِي^(٢)، وَقَوْلُهُ: «يَخْلُقُ قَوْمًا سِوَاكُمْ»: يُشِيرُ إِلَى ذَلِكَ، وَهَذِهِ الدَّقِيقَةُ اسْتَشْهَدَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩، فاطر: ١٦].

(١) في «جامعه» (٦١٨). وأخرجه أيضاً ابن ماجه (١٧٨٨).

(٢) أي: استبدال الذات.

وَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْقَوْمِ، وَكَانَ سَلْمَانُ إِلَى جَنْبِهِ، فَضَرَبَ عَلَى فَخِذِهِ، وَقَالَ: «هَذَا وَقَوْمُهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ مَنُوطًا بِالْثُرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارِسٍ».

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ».

قوله: (وَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْقَوْمِ، وَكَانَ سَلْمَانُ) الحديث: أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

تَمَّتِ السُّورَةُ

حَامِدًا لِلَّهِ، وَمُصَلِّيًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ



(١) في «جامعه» برقم (٣٢٦١).

وأخرج البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦) عن أبي هريرة قال: «كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْجُمُعَةِ، فَلَمَّا قَرَأَ: ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾، قَالَ رَجُلٌ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَلَمْ يُرَاجِعْهُ النَّبِيُّ ﷺ، حَتَّى سَأَلَهُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، وَفِينَا سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ، فَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ، ثُمَّ قَالَ: لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَاكَ رِجَالٌ مِنْ هَؤُلَاءِ».

سورة الفتح

مدنية، وهي تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُنْزِلَ رِزْقًا عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا] ﴿١-٣﴾

هو فتح مكة، وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية عدة له بالفتح، وحيء به على لفظ الماضي على عادة رب العزة سبحانه في أخباره، لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى.

سورة الفتح

مدنية، وهي تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (وفي ذلك من الفخامة): أي: في مجيء الماضي لتزليل الكائن منزلة الواقع المتحقق^(١) من الفخامة ما لا يكتنه كنهه، لأن هذا الأسلوب إنما يرتكب في أمر يعظم مناله، ويعز الوصول إليه، ولا يقدر على تبليه إلا من له قهر وسلطان ومن يغلب ولا يغالب، ولذلك ترى أكثر أحوال

(١) يريد بالكائن: ما سيكون، وبالواقع: ما وقع فعلاً.

فإن قلت: كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة؟ قلت: لم يجعل علة للمغفرة، ولكن لاجتماع ما عُدّد من الأمور الأربعة، وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية.....

القيامة واردة على هذا المنهج، لأن فتح مكة من أمهات الفتح، وبه دخل الناس في دين الله أفواجا، وأمر رسول الله ﷺ بالاستغفار والتأهب للمسير إلى دار القرار، ولو أخذ من ذلك معنى صيغة التعظيم، لیتّم به معنى العظمة، بلغ الغاية.

قوله: (كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة): أي: الفتح فعل الله لا فعله حتى يكون علة للمغفرة^(١)، ولذلك قال القاضي: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ علة للفتح من حيث إنه مسبب عن جهاد الكفار، والسعي في إعلاء الدين وإزاحة الشرك، وتكميل النفوس الناقصة قهراً، ليصير ذلك بالتدرج اختياراً، وتخليص الضعفة عن أيدي الظلمة^(٢).

وقلت: يمكن أن يقال: إنما جعل فتح مكة علة للمغفرة، لأنه سبب لأن يؤمر رسول الله ﷺ بالاشتغال بخاصة نفسه، بعد بذل الجهود فيما كلف به من تبليغ الرسالة ومجاهدة أعداء الدين، وبالإقبال على التقوى، واستدراك الفرط^(٣)، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]، إلى قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُ، كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣].

قوله: (ولكن لاجتماع ما عُدّد): خلاصة الجواب: أن المعلنّ متعدّد، وهو المعطوفات الأربعة، على أن يراد بقوله: ﴿وَنَصْرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾: الفتح، فتؤخذ الزبدة والخلاصة من المجموع، فعبر به عن المعلنّ، كما قال: «ليجمع لك بين عزّ الدارين»، وكان كذلك لأن هذا الفتح هو فتح الفتوح، وهديم به منار الجاهلية، وكمل الدين، وأتمت النعم، كما قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

(١) من قوله: «أي: الفتح فعل الله» إلى هنا، سقط من (ط).

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ١٩٩).

(٣) وهي في حق صلوات الله وسلامه عليه: ترك الأولى، كما بيّنه المؤلف رحمه الله في مواضع من هذا الكتاب.

الصُّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَالنَّصْرُ الْعَزِيزِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: يَسِّرْنَا لَكَ فَتَحَ مَكَّةَ، وَنَصَرْنَاكَ عَلَى عَدُوِّكَ، لِنَجْمَعَ لَكَ بَيْنَ عِزِّ الدَّارَيْنِ وَأَعْرَاضِ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فَتْحَ مَكَّةَ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ جِهَادٌ لِلْعَدُوِّ سَبِيًّا لِلْغُفْرَانِ وَالثَّوَابِ.

وَالْفَتْحُ: الظَّفَرُ بِالْبَلَدِ عُنُوةً أَوْ صُلْحًا، بِحَرْبٍ أَوْ بغيرِ حَرْبٍ، لِأَنَّهُ مُنْعَلِقٌ مَا لَمْ يُظْفَرْ بِهِ، فَإِذَا ظْفُرَ بِهِ وَحَصَلَ فِي الْيَدِ فَقَدْ فَتِحَ.

روى السُّلَمِيُّ عَنْ [ابن] عطاء^(١): جُمِعَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيْنَ النَّعْمِ الْمُخْتَلِفَةِ؛ مِنْ الْفَتْحِ وَالْمَغْفِرَةِ وَتَمَامِ النَّعْمَةِ وَالْهُدَايَةِ وَالنُّصْرَةِ. وَعَنْ جَعْفَرِ الصَّادِقِ: تَمَامُ النَّعْمَةِ: أَنْ جَعَلَهُ حَبِيبَهُ، وَأَقْسَمَ بِحَيَاتِهِ، وَنَسَخَ لَهُ شَرَائِعَ الرُّسُلِ أَجْمَعِ، وَعَرَّجَ بِهِ إِلَى الْمَحَلِّ الْأَدْنَى، وَحَفِظَهُ فِي الْمِعْرَاجِ حَتَّى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى، وَيَعْتَهُ إِلَى الْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ، وَأَحَلَّ لَهُ الْغَنَائِمَ، وَجَعَلَهُ سَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ، وَقَرَنَ ذِكْرَهُ بِذِكْرِهِ، وَرِضَاهُ بِرِضَاهِ، وَجَعَلَهُ أَحَدَ رُكْنَيْ التَّوْحِيدِ.

قوله: (لأنه مُنْعَلِقٌ ما لم يُظْفَرْ به): الراغب: «الفتح: إزالة الإغلاق والإشكال، وهو ضربان: أحدهما: يُدْرَكُ بِالْبَصَرِ، كَفَتْحِ الْبَابِ وَالْعَلْقِ وَالْقُفْلِ وَالْمَتَاعِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَعَهُمْ﴾ [يوسف: ٦٥]، ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الحجر: ١٤]. والثاني: ما يُدْرَكُ بِالْبَصِيرَةِ، كَفَتْحِ الْهَمِّ، وَهُوَ إِزَالَةُ الْعَمِّ، وَذَلِكَ ضَرْبَانِ: أَحَدُهُمَا: فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ كَعَمِّ يُفْرَجُ، وَقَفْرِ^(٢) يُزَالُ بِإِعْطَاءِ الْمَالِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا دَسُّوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]، أَي: وَسَعْنَا، وَالثَّانِي: فَتْحُ الْمُنْعَلِقِ مِنَ الْعُلُومِ، نَحْوُ: فَلَانَ فَتَحَ مِنْ الْعِلْمِ بَابًا مُغْلَقًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾: قيل: عنى فَتَحَ مَكَّةَ، وقيل: بل عنى ما فَتَحَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ

(١) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ: «عَنْ عَطَاءٍ»، وَأَضْفَتْ إِلَيْهِ: «ابن» لِيُؤَافِقَ أَمثَالَهُ، فَأُلُوِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِنَقْلِ عَنِ السُّلَمِيِّ عَنْ ابْنِ عَطَاءٍ فِي مَوَاضِعَ، انظُرْ مَا تَقَدَّمَ ص ٣٥٣ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ٢٤ مِنْ سُورَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَا سَيَأْتِي ص ٣٧٤ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ٤ مِنْ سُورَةِ الْفَتْحِ.

(٢) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ: «وَهُمْ يُزَالُ»، وَالمُتَّبَعُ مِنْ «مَفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ» لِلرَّائِبِ، وَقَوْلُهُ: «بِإِعْطَاءِ الْمَالِ» يُرْجِحُهُ.

وقيل: هو فَتَحَ الحديدية، ولم يَكُنْ فيه قِتَالٌ شديد، ولكن تَرَامَ بَيْنَ الْقَوْمِ بِسِهَامٍ وَحِجَارَةٍ، وعن ابن عباس: رَمَوْا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى أَدْخَلُوهُمْ دِيَارَهُمْ، وَعَنِ الْكَلْبِيِّ: ظَهَرُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى سَأَلُوا الصُّلْحَ. فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَكُونُ فَتْحًا وَقَدْ أَحْصَرُوا، فَنَحَرُوا وَحَلَقُوا بِالْحَدِيدِيَّةِ؟ قُلْتَ: كَانَ ذَلِكَ قَبْلَ الْهُذْنَةِ، فَلَمَّا طَلَبُوهَا وَتَمَّتْ كَانَ فَتْحًا مُبِينًا.

وعن موسى بن عُقْبَةَ: أقبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْحَدِيدِيَّةِ رَاجِعًا، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: مَا هَذَا بَفَتْحٍ، لَقَدْ صَدَدُونَا عَنِ الْبَيْتِ، وَصُدَّ هَدْيُنَا، فَبَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «بَسَّسَ الْكَلَامُ هَذَا، بَلْ هُوَ أَعْظَمُ الْفُتُوحِ، وَقَدْ رَضِيَ الْمُشْرِكُونَ أَنْ يَدْفَعُوا عَنْ بِلَادِهِمْ بِالرَّاحِ،

مِنَ الْعُلُومِ وَالْهُدَايَاتِ الَّتِي هِيَ ذَرْبَةٌ إِلَى الثَّوَابِ وَالْمَقَامَاتِ الْمَحْمُودَةِ الَّتِي صَارَتْ سَبَبًا لِعُفْرَانِ ذُنُوبِهِ.

وفاتحةُ كُلِّ شَيْءٍ: مَبْدُؤُهُ الَّذِي يُفْتَحُ بِهِ مَا بَعْدَهُ، وَقِيلَ: افْتَتَحَ فُلَانٌ كَذَا: إِذَا ابْتَدَأَ بِهِ، وَفَتْحَ عَلَيْهِ كَذَا: إِذَا أَعْلَمَهُ وَوَقَّعَهُ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتُحَدِّثُكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٧٦]، وَفَتْحَ الْقَضِيَّةَ فِتْحًا: فَصَّلَ الْأَمْرَ فِيهَا وَأَزَالَ الْإِغْلَاقَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وَالِاسْتِفْتَاخَ: طَلَبُ الْفَتْحِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٨٩]، أَيْ: يَسْتَصِيرُونَ بَعْنَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقِيلَ: يَطْلُبُونَ مِنَ اللَّهِ بِذِكْرِهِ الظَّفَرَ، وَقِيلَ: يَسْتَعْلِمُونَ خَبْرَهُ مَرَّةً، وَيَسْتَنْبِطُونَهُ مِنَ الْكُتُبِ مَرَّةً.

وبابُ فَتْحٍ: مَفْتُوحٌ فِي عَامِيَةِ أَحْوَالِهِ، وَغُلُقٌ: بِخِلَافِهِ، وَرُوي: (مَنْ وَجَدَ بَابًا غُلُقًا وَجَدَ إِلَى جَانِبِهِ بَابًا فَتْحًا) (١) «(٢)».

قوله: (بالراح): الجوهري: «الراح: جمعُ راحة، وهي الكف، وأراح الرجل (٣): رَجَعَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ بَعْدَ الْإِعْيَاءِ، وَأَرَاخَ إِبْلَهُ؛ أَيْ: رَدَّهَا».

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٤٠٦) عن أبي الدرداء من قوله رضي الله عنه.

(٢) «مفردات القرآن» ص ٦٢١-٦٢٢.

(٣) في (ح) و(ف): «والراح الرجل»، والمثبت من (ط) ومن «الصحاح» لنجوهري، مادة (روح).

وَيَسْأَلُوكُمُ الْقَضِيَّةَ، وَيَرِغَبُوا إِلَيْكُمْ فِي الْأَمَانِ، وَقَد رَأَوْا مِنْكُمْ مَا كَرِهُوا».

وعن الشَّعْبِيِّ: نَزَلَتْ بِالْحَدِيثِيَّةِ، وَأَصَابَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ مَا لَمْ يُصِْبْ فِي غَزْوَةٍ، أَصَابَ أَنْ بُوعَ بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ، وَغُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَظَهَرَتْ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ، وَبَلَغَ الْهَدْيُ حَمَلَهُ، وَأُطْعِمُوا نَخْلَ خَيْبَرَ، وَكَانَ فِي فَتْحِ الْحَدِيثِيَّةِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ، وَذَلِكَ أَنَّهُ نَزَحَ مَأْوَاهَا حَتَّى لَمْ يَبَقَ فِيهَا قَطْرَةٌ، فَتَمَضَّمَصَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ مَجَّهَ فِيهَا، فَدَرَّتْ بِالْمَاءِ، حَتَّى شَرِبَ جَمِيعُ مَنْ كَانَ مَعَهُ. وَقِيلَ: فَجَاشَ الْمَاءُ حَتَّى امْتَلَأَتْ، وَلَمْ يَنْفَدْ مَأْوَاهَا بَعْدَ.

وقيل: هو فَتْحُ خَيْبَرَ، وَقِيلَ: فَتْحُ الرُّومِ، وَقِيلَ: فَتَحَ اللَّهُ لَهُ بِالْإِسْلَامِ وَالنُّبُوَّةِ وَالِدَعْوَةَ بِالْحِجَّةِ وَالسَّيْفِ، وَلَا فَتْحَ أَيْبُنُ مِنْهُ وَأَعْظَمَ، وَهُوَ رَأْسُ الْفُتُوحِ كُلِّهَا؛ إِذَا لَا فَتَحَ مِنْ فُتُوحِ الْإِسْلَامِ إِلَّا وَهُوَ تَحْتَهُ وَمُتَشَعِّبٌ مِنْهُ.

قوله: (وَيَسْأَلُوكُمُ الْقَضِيَّةَ): أَي: الصُّلْحِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ»^(١)، النِّهَايَةُ: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ؛ قَاضَى: هُوَ فَاعِلٌ مِنَ الْقَضَاءِ لِلْفَضْلِ وَالْحُكْمِ، وَأَصْلُهُ: الْقَطْعُ، وَقَضَاءُ الشَّيْءِ: إِحْكَامُهُ وَإِمْضَاؤُهُ وَالْفِرَاقُ مِنْهُ». وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ بَعِيدٌ هَذَا: «وَمِنْ قَضِيَّتِهِ أَنْ سَكَنَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ بِصُلْحِ الْحَدِيثِيَّةِ».

قوله: (أَنَّهُ نَزَحَ مَأْوَاهَا): عَنِ الْبُخَارِيِّ^(٢) عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: «تَعَدُّونَ أَنْتُمْ الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتَحَ مَكَّةَ فَتَحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ [الْفَتْحَ] بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ يَوْمَ الْحَدِيثِيَّةِ، كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِئَةً، وَالْحَدِيثِيَّةُ بَثْرٌ، فَنَزَحْنَاهَا، فَلَمْ نَتْرِكْ مِنْهَا قَطْرَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَتَاهَا، فَجَلَسَ عَلَى سَفِيرِهَا، ثُمَّ دَعَا بِإِنَاءٍ، فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ مَضَّمَصَّ وَدَعَا، ثُمَّ صَبَّهَ فِيهَا، فَتَرَكْنَاهَا غَيْرَ بَعِيدَ، ثُمَّ إِنَّهَا أَصْدَرَتْنَا مَا شِئْنَا نَحْنُ وَرِكَابُنَا».

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٩) و(٣١٨٤) و(٤٢٥١)، ومسلم (١٧٨٣) من حديث البراء بن عازب - رضي الله عنه -.

(٢) في «صحيحه» برقم (٤١٥٠). ومنه استدركت ما بين حاصرتين.

وقيل: معناه: قَضَيْنَا لَكَ قِضَاءَ بَيْنِنَا عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ أَنْ تَدْخُلَهَا أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ مِنْ قَابِلٍ، لِتَطُوفُوا بِالْبَيْتِ؛ مِنْ الْفِتَاخَةِ، وَهِيَ الْحُكُومَةُ. وَكَذَا عَنْ قَتَادَةَ.

﴿مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ يُرِيدُ: جَمِيعَ مَا فَرَطَ مِنْكَ، وَعَنْ مُقَاتِلٍ: مَا تَقَدَّمَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَمَا بَعْدَهَا، وَقِيلَ: مَا تَقَدَّمَ مِنْ حَدِيثِ مَارِيَّةَ، وَمَا تَأَخَّرَ مِنْ أَمْرٍ زَيْدٍ.

﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ فِيهِ عِزٌّ وَمَنْعَةٌ، أَوْ وُصِفَ بِصِفَةِ الْمَنْصُورِ إِسْنَادًا مُجَازِيًّا، أَوْ عَزِيزًا صَاحِبُهُ.

قوله: (مَا تَقَدَّمَ مِنْ حَدِيثِ مَارِيَّةَ): وَحَدِيثُ مَارِيَّةَ: هُوَ مَا رَوَاهُ الْمُصَنِّفُ فِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَلَا بِمَارِيَّةَ فِي يَوْمِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَعَلِمَتْ بِذَلِكَ حَفْصَةَ، فَقَالَتْ لَهَا: اكْتُمِي عَلَيَّ، وَقَدْ حَرَمْتُ مَارِيَّةَ عَلَى نَفْسِي»، إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ، لَكِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿لَمْ نَحْرِمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَرَكَ الْأَوْلَى، لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ارْتَكَبَ الذَّنْبَ.

ويجوز أن يُرَادَ بِالذَّنْبِ: تَعْجِيلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِقَتْلِ الْبَرِيِّءِ، عَلَى مَا رَوَى ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «الاستيعاب»^(١) عَنْ أَنَسٍ قَالَ: «إِنَّ رَجُلًا كَانَ يُتَّهَمُ بِأَمْرِ إِبْرَاهِيمَ؛ أُمَّ وَكَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَلِيٍّ: إِذْهَبْ فَاضْرِبْ عُنُقَهُ، فَأَتَاهَا عَلِيٌّ، فَإِذَا هُوَ فِي رَكْبِي^(٢) يَتَبَرَّدُ فِيهَا، فَقَالَ لَهُ: اخْرُجْ، فَنَاوَلَهُ يَدَهُ، فَأَخْرَجَهُ، فَإِذَا هُوَ مَجْبُوبٌ لَيْسَ لَهُ ذَكَرٌ، فَكَفَّتْ عَلِيٌّ عَنْهُ، ثُمَّ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: وَاللَّهِ لِمَجْبُوبٍ»^(٣)، وَقَالَ أَبُو عُمَرَ^(٤): «هَذَا الرَّجُلُ الْمُتَّهَمُ كَانَ ابْنَ عَمِّ مَارِيَّةَ الْقَبْطِيَّةِ، أَهْدَاهُ مَعَهَا الْمُقَوِّقِسَ، وَأَطْنَهُ الْخَصِيَّ الَّذِي يُقَالُ لَهُ: مَأْبُورٌ».

قوله: ((أَوْ عَزِيزًا صَاحِبُهُ)): فَحُذِفَ الْمُضَافُ، وَأُقِيمَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ مَقَامَهُ، فَصَارَ «عَزِيزًا هُوَ»، فَاسْتَسْرَ الضَّمِيرُ، فَصَارَ مَرْفُوعًا بَعْدَ أَنْ كَانَ بَارِزًا مَجْرُورًا.

(١) فِي تَرْجُمَةِ مَارِيَةَ الْقَبْطِيَّةِ (٤: ٤١١-٤١٢) بِحَاشِيَةِ «الإصابة» لابن حجر.

(٢) الرَّكْبِيُّ: جِنْسٌ لِلرَّكْبِيَّةِ، وَهِيَ الْبِئْرُ، وَجَمْعُهَا رَكَايَا. «النهاية فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ» لابن الأثير، مَادَةٌ (رَكَأ).

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٧٧١)، وَانظُرْ شَرْحَهُ وَحَلَّ مَا قَدْ يُشْكِلُ فِي مَعْنَاهُ فِي «تَكْمِلَةِ فَتْحِ الْمُلهِمِ» لِلْعَلَامَةِ الشَّيخِ مُحَمَّدِ تَقِيِّ الْعِثْمَانِيِّ (٦: ٤٧-٤٨).

(٤) تَحَرَّفَ فِي الْأَصْلِينَ إِلَى: «أَبُو عَمْرٍو»، وَالصَّوَابُ مَا أُثْبِتَ، فَالْمُرَادُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، وَهَذِهِ كُنْيَتُهُ. وَانظُرْ كَلَامَهُ

الْمَنْقُولَ هُنَا: فِي «الاستيعاب» (٤: ٤١١-٤١٢) بِحَاشِيَةِ «الإصابة» لابن حجر.

[هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۗ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا * وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ يَا اللَّهُ ظَنَبَ السَّوَاءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوَاءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٤-٧﴾]

﴿السَّكِينَةَ﴾ للسُّكُون، كالبهية للبهتان، أي: أنزل الله في قلوبهم السُّكُون والطَّمَانِينَةَ بسبب الصُّلْح والأمن، ليعرفوا فضل الله عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف، والهُدْنَةَ غِبَّ القِتَال، فيزدادوا يقيناً إلى يقينهم.

قوله: ﴿السَّكِينَةَ﴾ السُّكُون^(١): الراغب: «قيل: هو مَلَكٌ يُسَكِّنُ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ وَيُؤَمِّنُهُ، كَمَا رُوِيَ: «إِنَّ السَّكِينَةَ لَتَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ»^(٢)، وقيل: هو العقل، ويُقال: له سَكِينَةٌ: إِذَا سَكَّنَ عَنِ الْمَيْلِ إِلَى الشَّهَوَاتِ، وَعَنِ الرَّعْبِ؛ قَالَ^(٣): ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقيل: السَّكِينَةُ والسَّكَنُ: واحد، وهو زوال الرَّعْبِ»^(٤).

وروى السُّلَمِيُّ عن ابنِ عطاء: السَّكِينَةُ: نُوْرٌ يُقَدِّفُ فِي الْقَلْبِ يُبَصِّرُ بِهِ مَوَاقِعَ الصَّوَابِ.

(١) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «للسكون».

(٢) أخرجه بهذا اللفظ: عبد الرزاق في «المصنّف» (٢٠٣٨٠) عن علي موقوفاً، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٨٢٧) عن عبد الله بن مسعود موقوفاً أيضاً.

وأخرج أبو داود (٢٩٦٢)، وابن ماجه (١٠٨) من حديث أبي ذر، والترمذي (٣٦٨٢) من حديث ابن عمر، وأحمد (٩٢١٣) من حديث أبي هريرة، مرفوعاً بلفظ: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ»، زاد ابن عمر وأبو هريرة: «وقلبه».

(٣) تحرّف في (ح) و(ف) إلى: «وعن الراغب قال»، والمثبت من (ط)، ومعناه: وسكن عن الرعب، وفي «مفردات القرآن» للراغب: «وعلى ذلك دلّ قوله».

(٤) «مفردات القرآن» ص ٤١٧.

أَوْ أَنْزَلَ فِيهَا الشُّكُونَ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الشَّرَائِعِ، ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا﴾ بِالشَّرَائِعِ مَقْرُونًا إِلَى إِيمَانِهِمْ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ أَوَّلَ مَا أَنَاهُمْ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ التَّوْحِيدَ، فَلَمَّا آمَنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ أَنْزَلَ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ، ثُمَّ الْحَجَّ، ثُمَّ الْجِهَادَ، فَازْدَادُوا إِيمَانًا إِلَى إِيمَانِهِمْ.

أَوْ أَنْزَلَ فِيهَا الْوَقَارَ وَالْعِظْمَةَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ، لِيَزَادُوا بِاعْتِقَادِ ذَلِكَ إِيمَانًا إِلَى إِيمَانِهِمْ. وَقِيلَ: أَنْزَلَ فِيهَا الرَّحْمَةَ لِيَرَّاحَمُوا، فَيَزَادُوا إِيمَانَهُمْ.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يُسَلِّطُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ، كَمَا يَقْتَضِيهِ عِلْمُهُ وَحِكْمَتُهُ، وَمَنْ قَضَيْتَهُ أَنْ سَكَّنَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ بِصُلْحِ الْحَدِيثِيَّةِ، وَوَعَدَهُمْ أَنْ يُفْتَحَ لَهُمْ، وَإِنَّا قَضَىٰ ذَلِكَ لِيَعْرِفَ الْمُؤْمِنُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ فِيهِ، وَيَشْكُرُوهَا، فَيَسْتَحِقُّوا الثَّوَابَ، فَيُثَبِّتَهُمْ، وَيُعَذِّبَ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ لِمَا غَاظَهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَكَرَهُهُ.

قوله: (وقيل: أنزل فيها الرحمة): أي: في قلوبهم. فسّر إنزال السكينة بوجوه: أولها: حُصُولُ الطَّمَأْنِينَةِ وَالْأَمْنِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ الْخَوْفِ، لِيَتَمَكَّنُوا مِمَّا يَزِيدُ بِهِ إِيمَانَهُمْ، فَإِنَّ الْخَائِفَ مِنَ الْعَدُوِّ قَلْبٌ مُزْعَجٌ. وَثَانِيهَا: الشُّكُونُ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَهُوَ مُجَرَّدُ التَّصَدِيقِ، وَالْإِزْدِيَادُ بِانضِمَامِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ إِلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. وَثَالِثُهَا: حُصُولُ الْوَقَارِ فِي الْقَلْبِ لِيَكُونَ سَبَبًا لِقُوَّةِ الْيَقِينِ، كَمَا قَالَ (١) عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَكِنْ لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]. وَرَابِعُهَا: الرَّحْمَةُ. وَالْوَجْهُ الْمُخْتَارُ هُوَ الْأَوَّلُ، كَمَا سَيَجِيءُ.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يُسَلِّطُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ] (٢) كَمَا يَقْتَضِيهِ عِلْمُهُ وَحِكْمَتُهُ، وَمَنْ قَضَيْتَهُ أَنْ سَكَّنَ: إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ هَاتَيْنِ الْفِقْرَتَيْنِ - أَعْنِي: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿ - وَرَدَّتَا مُعْتَرِضَتَيْنِ بَيْنَ الْعِلَّةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، وَبَيْنَ مُعَلَّلِهَا، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وَلِذَلِكَ عَمَّمَهُمَا وَجَعَلَ بَعْضَ قَضَايَاهُمَا إِزْزَالَ السَّكِينَةِ وَالطَّمَأْنِينَةَ بِسَبَبِ الصُّلْحِ، وَالْأَمْنِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ،

(١) أي: سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

(٢) ما بين حاصرتين لم يرد في الأصول الخطية، وأضفته من «الكشاف».

وقع «السُّوء» عبارة عن رداءة الشيء وفساده، و«الصِّدْق» عن جودته وصلاحه، فقيل في المرَضِيِّ الصَّالِحِ مِنَ الْأَفْعَالِ: فَعُلُ صِدْقٍ، وَفِي الْمَسْخُوطِ الْفَاسِدِ مِنْهَا: فَعِلُ سَوْءٍ، ومعنى ﴿طَلَبَ السُّوءَ﴾: ظَنَّهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْصُرُ الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يُرْجِعُهُمْ إِلَى مَكَّةَ ظَافِرِينَ فَاتَّجِيبُهَا عُنُوةً وَقَهْرًا، ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ أَي: مَا يَظُنُّونَهُ وَيَتَرَبَّصُونَهُ بِالْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ حَاقِقٌ بِهِمْ وَدَائِرٌ عَلَيْهِمْ، وَالسُّوءُ: الْهَلَاكُ وَالذَّمَارُ.

وَقُرِئَ: ﴿دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ بِالْفَتْحِ؛

ليكون ذلك الإنزال سبباً لِعِرْفَانِ الْمُؤْمِنِينَ فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِتَيْسِيرِ الْأَمْنِ بَعْدَ الْخَوْفِ، ثُمَّ يَكُونُ ذَلِكَ الْعِرْفَانُ سَبَبًا لِأَنْ يَتَلَقَّوْهَا بِالشُّكْرِ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَيَسْتَأْهِلُوا بِهِ الثَّوَابَ، فَيُثَبِّتُهُمْ بِإِدْخَالِهِمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَيُرْغِمُ أَعْدَاءَهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ بِالتَّعْذِيبِ، فَظَهَرَ أَنَّهُ اخْتَارَ مِنَ الْوُجُوهِ الْأَرْبَعَةِ سَابِقَتَهَا، فَقَوْلُهُ: «لِيَعْرِفَ الْمُؤْمِنُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ»: هُوَ الْمَذْكُورُ فِي الْوَجْهِ الْأَوَّلِ: «لِيَعْرِفُوا فَضْلَ اللَّهِ بِتَيْسِيرِ الْأَمْنِ».

روينا عن الإمام أبي الحسين مُسْلِمِ بْنِ الْحَجَّاجِ (١) عن أنس: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ إِلَى ﴿قُوْرًا عَظِيمًا﴾ مَرَجَعَهُ مِنَ الْحَدِيثِ، وَهَمَّ يُخَالِطُهُمُ الْحَزْنَ وَالْكَآبَةَ، وَقَدْ نُجِرَ الْهَدْيُ بِالْحَدِيثِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَقَدْ أَنْزَلْتُ عَلَيَّ آيَةً هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا، وَفِي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ (٢) عن أنس: «فَقَالُوا: هَنِيئًا مَرِيئًا يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، لَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكَ مَا يَفْعَلُ بِكَ، فَمَا إِذَا يَفْعَلُ بِنَا؟ فَانزَلَ اللَّهُ: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾».

قوله: (وَقُرِئَ: ﴿دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ بِالْفَتْحِ): كُلُّهُمْ إِلَّا أَبَا عَمْرٍو وَابْنَ كَثِيرٍ (٣).

(١) في «صحيحه» برقم (١٧٨٦).

(٢) بل عند البخاري في «صحيحه» برقم (٤١٧٢). ولكن لفظه: «عن شعبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ قَالَ: الْحَدِيثِ، قَالَ أَصْحَابُهُ: هَنِيئًا مَرِيئًا، فَمَا لَنَا، فَانزَلَ اللَّهُ: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. قَالَ شُعْبَةُ: وَقَدِمْتُ الْكُوفَةَ، فَحَدَّثْتُ بِهَذَا كُلَّهُ عَنِ قَتَادَةَ، ثُمَّ رَجَعْتُ، فَذَكَرْتُ لَهُ، فَقَالَ: أَمَا ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ فَعَنِ أَنْسٍ، وَأَمَا «هَنِيئًا مَرِيئًا» فَعَنِ عِكْرَمَةَ. يَعْنِي: أَنَّ قَتَادَةَ يَرِوِيهِ عَنِ عِكْرَمَةَ مُرْسَلًا، لَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ أَنْسٍ، كَمَا فِي «فَتْحِ الْبَارِي» لِلْحَافِظِ ابْنِ حَجْرٍ (٧: ٤٥١) وَ(٨: ٥٨٤).

(٣) انظر: «التيسير» لللداني ص ١١٩، و«حجة القراءات» ص ٦٧٠.

أي: الدائرة التي يذمونها ويسخطونها، فهي عندهم دائرة سوء، وعند المؤمنين دائرة صدق.

فإن قلت: هل من فرق بين السوء والسوء؟ قلت:

قوله: (فهي عندهم دائرة سوء، وعند المؤمنين دائرة صدق): الأساس: «ودارت به دوائر الزمان، وهي صروفه، ويترنص بكم الدوائر»، الراغب: «الدائرة: الخطُّ المحيط، ثم عبَّرَ بها عن الحادثة، والدورة والدائرة في المكروه: كالدولة في المحبوب، قال تعالى: ﴿تَحْتَسِبُ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢]، ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [التوبة: ٩٨]، أي: يُحِيطُ بِهِمُ السُّوءُ إِحَاطَةَ الدَّائِرَةِ بِمَنْ فِيهَا، فَلَا سَبِيلَ إِلَى الْإِنْفِكَالِكِ مِنْهُ بِوَجْهِه^(١)، وسبقَ تَمَامُ تَقْرِيرِ «الدَّائِرَةِ» فِي آخِرِ الْمَادَّةِ.

قوله: (هل من فرق بين السوء والسوء): فإن قلت: هل السؤال مُستَدْرَكٌ، لأنه قال: «والسوء - أي: بالضم - الهلاك والدمار، وقرئ: ﴿دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ بالفتح، أي: الدائرة التي يذمونها؟ قلت: لا، لأنه ذكره مجملاً بحسب الاستعمال، فسأل ليشرحه مفصلاً بحسب اللغة أيضاً.

اعلم أن الدائرة مُطْلَقَةٌ صِحْحُ اسْتِعْمَالِهَا فِي الْعَذَابِ مَرَّةً، وَفِي الذَّمِّ تَارَةً، وَفِي الصِّدْقِ أُخْرَى، وَلِذَلِكَ قَالَ: «وَعِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ دَائِرَةُ صِدْقٍ»، وَهُوَ مِنْ إِضَافَةِ الْمُوصُوفِ إِلَى الصِّفَةِ لِلْبَيَانِ عَلَى الْمُبَالَغَةِ، قَالَ فِي سُورَةِ بَرَاءَةِ^(٢): «السُّوءُ: بِالضَّمِّ، وَهُوَ الْعَذَابُ، وَالسَّوْءُ: بِالْفَتْحِ، وَهُوَ ذَمُّ لِدَائِرَةِ، كَقَوْلِكَ: رَجُلٌ سَوْءٌ، فِي نَقِيضِ قَوْلِكَ: رَجُلٌ صِدْقٌ، لِأَنَّ مَنْ دَارَتْ عَلَيْهِ ذَامٌّ لَهَا».

وَلَمَّا كَانَ «السُّوءُ» بِالضَّمِّ ظَاهِرًا فِي مَعْنَى الْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ، لَمْ يَحْتَجَّ إِلَى التَّأْوِيلِ، وَبِالْفَتْحِ بِمَعْنَى الذَّمِّ لَمْ يَكُنْ مُطْلَقًا، لِأَنَّهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ مَحْمُودَةٌ، اِحْتِيَاجٌ إِلَى تَأْوِيلِ «الدَّائِرَةِ»، وَأَنْ يُقَالَ: إِنَّهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْكَافِرِينَ مَذْمُومَةٌ، لِأَنَّ مَنْ دَارَتْ عَلَيْهِ ذَامٌّ لَهَا^(٣)، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: «وَكَانَتِ الدَّائِرَةُ مَحْمُودَةً، فَكَانَ حَقُّهَا أَنْ لَا تُضَافَ إِلَيْهِ إِلَّا عَلَى التَّأْوِيلِ الَّذِي ذَكَرْنَا»، يَعْنِي:

(١) «مفردات القرآن» ص ٣٢١-٣٢٢.

(٢) في تفسير الآية ٩٨ منها. (٧: ٣٣٤)

(٣) من قوله: «ولما كان «السوء» بالضم» إلى هنا، سقط من (ط).

هما كالكُره والكُره، والضَّغف والضَّغف، من: ساء، إلا أن المفتوح غَلَب. في أن يُضاف إليه ما يُرادُ ذمُّه من كلِّ شيء، وأما «السُّوء» بالضمِّ: فجار مجرى الشرِّ الذي هو إلى المفتوح لِكَونه مدموماً، وكانت الدائرة محموداً، فكان حَقُّها أن لا تُضاف إليه إلا على التأويل الذي ذكرنا، وأما دائرة السُّوء - بالضمِّ - : فلأن الذي أصابهم مكروهٌ وشِدَّة، فصَحَّ أن يَقعَ عليه اسمُ السُّوء، كقوله عزَّ وعلَّ: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧].

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِيَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنُعَزِّرُوهُ وَنُقِرُّوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [٨-٩]

﴿شَهِيدًا﴾ تشهدُ على أمتِك، كقوله: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

قوله: «السُّوء» بالفتح -: الدائرة التي يذمُّونها ويسخطونها، وهي عندهم دائرة سُوء، وعند المؤمنين: دائرة صِدْق.

قال صاحبُ «التقريب»: المفتوحُ غُلِبَ في المذموم بالإضافة، والمضمومُ كالشرِّ في نفسه لا بالإضافة، ولذلك أُضيفَ «الظَّنُّ» إلى المفتوح؛ لِكَونه مدموماً بالإضافة، لا في نفس الأمر. الراغب: «السُّوء» - بالضمِّ -: كُلُّ ما يَغْمُ الإنسانَ مِنَ الأمورِ الدُّنْيَوِيَّةِ والأخْرَوِيَّةِ، والنفسيةِ والبَدَنِيَّةِ، والخارجيةِ؛ من فواتِ مالٍ أو فَقْدِ حَمِيمٍ، وَعَبَّرَ بـ«السُّوَأِي» عن كُلِّ ما يَقْبَحُ، ولذلك قُوبِلَ بـ«الحسنى» في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْتَفَأُوا السُّوَأِي﴾ [الروم: ١٠]، كما قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ [يونس: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ ذَايِرَةُ السُّوءِ﴾، أي: ما يسوءهم في العاقبة^(١).

قوله: (كالكُره والكُره): الجوهري: «عن الفراء: الكُره - بالضمِّ -: المَشَقَّة، يُقال: قَمْتُ على كُره؛ أي: على مَشَقَّة، قال: وأقامني فلانٌ على كُره - بالفتح -: إذا أكرهَكَ عليه، وكان الكِسائِيُّ يقول: الكُرهُ والكُره لغتان، وأكرهته على كذا: حَمَلْتُهُ عليه كُرهاً».

(١) «مفردات القرآن» ص ٤٤١.

(لِيُؤْمِنُوا) الضَّمِيرُ لِلنَّاسِ، (وَيُعَزِّرُوهُ) وَيُقَوِّوهُ بِالنُّصْرَةِ، (وَيُوقِّرُوهُ) وَيُعَظِّمُوهُ، (وَيُسَبِّحُوهُ) مِنَ التَّسْبِيحِ أَوْ مِنَ السُّبْحَةِ، وَالضَّمَائِرُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْمُرَادُ بِتَعْزِيرِ اللَّهِ: تَعْزِيرُ دِينِهِ وَرَسُولِهِ ﷺ. وَمَنْ فَرَّقَ الضَّمَائِرَ فَقَدْ أَبْعَدَ.

قوله: ((وَيُعَزِّرُوهُ) وَيُقَوِّوهُ^(١) بالنُّصْرَةِ): الراغب: «التعزير: النُّصْرَةُ مَعَ التَّعْظِيمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ [المائدة: ١٢]، والتعزير: ضَرَبٌ دُونَ الْحَدِّ، وَذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى الْأَوَّلِ، فَإِنَّ ذَلِكَ تَأْدِيبٌ، وَالتَّأْدِيبُ نُصْرَةٌ مَا، لَكِنَّ الْأَوَّلَ نُصْرَةٌ بِقَمْعِ الْعَدُوِّ عَنْهُ، وَالثَّانِي: نُصْرَةٌ بِقَمْعِهِ^(٢) عَنِ عَدُوِّهِ، فَإِنَّ أفعالَ الشَّرِّ عَدُوٌّ لِلْإِنْسَانِ، فَمَتَى قَمَعْتَهُ عَنْهَا فَقَدْ نَصَرْتَهُ، وَعَلَى هَذَا فِي الْحَدِيثِ: (انصُرْ أَخَاكَ ظالماً أَوْ مَظْلوماً، فَقَالَ: أَنْصُرُهُ مَظْلوماً، فَكَيْفَ أَنْصُرُهُ ظالماً؟ قَالَ: تَكْفُهُ عَنِ الظُّلْمِ)^(٣)»^(٤).

قوله: (وَالْمُرَادُ بِتَعْزِيرِ اللَّهِ: تَعْزِيرُ دِينِهِ): رَفَعُ لِلتَّوَهُّمِ، يَعْنِي: التَّعْزِيرُ وَالتَّوَقِيرُ غَيْرُ مَانِعٍ مِنْ إِجْرَاءِ الضَّمَائِرِ عَلَى سَنَنِ وَاحِدٍ، لِحَوَازِ إِطْلَاقِهِمَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُنَبِّتْ أقدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وَقَوْلُ الْحَوَارِيِّينَ: ﴿مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢، الصف: ١]، وَقَوْلُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾ [نوح: ١٣]^(٥).

قوله: (وَمَنْ فَرَّقَ الضَّمَائِرَ فَقَدْ أَبْعَدَ): قَالَ صَاحِبُ «الْمُرْشِدِ»: ﴿وَيُوقِّرُوهُ﴾: قَالَ أَبُو حَاتِمٍ^(٦): هُوَ وَقَفَ^(٧)؛ لِأَنَّ التَّعْزِيرَ وَالتَّوَقِيرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَالتَّسْبِيحَ لِلَّهِ تَعَالَى، فَأَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ

(١) تحرف في الأصول الخطية إلى: «ويوقروه»، والمثبت من «الكشاف».

(٢) تحرف في الأصول الخطية إلى: «بقهره»، والمثبت من «مفردات القرآن».

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٤٣) و(٢٤٤٤) و(٦٩٥٢) من حديث أنس، ومسلم (٢٥٨٤) بنحوه من حديث جابر.

(٤) «مفردات القرآن» ص ٥٦٤.

(٥) هذه الفقرة وردت في (ط) آخر الفقرة التالية متصلة بها، ولم يُجْعَلْ فيها فقرة مستقلة.

(٦) سهل بن محمد بن عثمان السجستاني.

(٧) «المرشد في الوقف والابتداء» لأبي محمد العماني، وقد لحَّصَه العلامةُ شيخُ الإسلامِ زكريا الأنصاري رحمه الله تعالى في «المقصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتداء»، وانظر منه ص ٧٢٦.

وَقَرِي: ﴿لِتُؤْمِنُوا... وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ بالتاء، وَالخِطَابُ
لرسول الله ﷺ ولأُمَّتِهِ.....

ما هو صِفَةُ للنبي ﷺ، وبين ما هو الله تعالى. وأراد المصنّف بقوله: «فقد أبعَد»: ردّ هذا؛ لأنه بعيدٌ عن منْهَجِ النَّظْمِ المعجز، وقال في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ [طه: ٣٩]: «الضمايرُ كُلُّهَا راجعةٌ إلى موسى عليه السّلام، ورجوعُ بعضها إليه وبعضها إلى التابوت: فيه هُجْنَةٌ؛ لِمَا يُؤدِّي مِنْ تَنَافُرِ النَّظْمِ» الذي هو أمُّ إعجاز القرآن، والقانون الذي وقع عليه التّحدّي، ومُراعاهُ أهمُّ ما يجبُ على المُفسّر.

وقوله: (وقري: ﴿لِتُؤْمِنُوا... وَتُعَزِّرُوهُ﴾ بالتاء): ابنُ كثير، والباقون: بالياءِ التحتانية^(١).

قوله: (والخِطَابُ لرسولِ الله ﷺ ولأُمَّتِهِ): هذا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أن يُراد: الخِطَابُ في قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ لرسولِ الله ﷺ، وفي قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ لأُمَّتِهِ، وعليه كلامُ الواحدي، وقال: «وَمَنْ قرأ بالتاءِ فمعناه: قُلْ لهم - يا مُحَمَّد - : لِيُؤْمِنُوا بالله، وَتُعَزِّرُوهُ وَتُعِينُوهُ وَتَنْصُرُوهُ بِالسِّنِّبِ واللسان، وَتُوَقِّرُوهُ وَتُعْظِمُوهُ وَتُبَجِّلُوهُ، وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا»^(٢)، فعلى هذا: إن كان اللامُ للتعليلِ يكونُ المعللُ محذوفاً، أي: لِيُؤْمِنُوا بالله وَكَيْتَ وَكَيْتَ فَعَلَ ذلك الإرسال، أو للامرِ على طريقة: ﴿فِيذَلِكَ فَلتَفَرَّحُوا﴾ [يونس: ٥٨]، على قراءةِ التاءِ الفوقانية. وهذا الوجهُ مُوافقٌ للقراءةِ بالياءِ التحتانية^(٣).

(١) كذا ذكر المؤلفُ رحمه الله تعالى، وليس كذلك، بل قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو: بالياءِ التحتانية، وقرأ الباقر بالتاء على الخِطَاب. انظر: «التيسير في القراءات السبع» لأبي عمرو والداني ص ٢٠١، و«النشر في القراءات العشر» لابن الجزري (٢: ٣٧٥).

(٢) «الوسيط» للواحدي (٤: ١٣٦).

(٣) أي: «لِيُؤْمِنُوا بالله ورسوله وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا».

والثاني: أن يكون الخطابُ في: ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ إلى آخره: لرسولِ الله ﷺ ولأُمَّتِهِ، فيكون تعميماً بعدَ تخصيص، نحوَ قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١]، خَصَّ النبي ﷺ بالنداءِ وعمَّ الخطاب، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر: ٣٣]، قال (١): «هو رسولُ الله ﷺ جاءَ بالحقِّ وآمنَ به، أرادَ به إياه ومنَ تبعه».

وقوله (٢): «مأموراً بالإيمانِ برسالةِ نفسه كسائرِ المسلمين»: رويَنا عن أبي هُرَيْرَةَ قال: «شهِدْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُنَيْنًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِرَجُلٍ مِمَّنْ يَدْعِي الْإِسْلَامَ: هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَلَمَّا حَضَرَ الْقِتَالَ قَاتَلَ الرَّجُلُ مِنْ أَشَدِّ الْقِتَالِ، وَكَثُرَتْ بِهِ الْجِرَاحُ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ الَّذِي تُحَدِّثُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، قَدْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَشَدَّ الْقِتَالَ، فَكَانَ بَعْضُ النَّاسِ يَرْتَابُ، فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ، إِذْ وَجَدَ الرَّجُلُ أَلَمَ الْجِرَاحِ، فَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى كِنَانَتِهِ، فَانْتَرَعَ سَهْمًا مِنْهَا، فَانْتَحَرَ بِهِ، فَاشْتَدَّ رَجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، صَدَّقَ اللَّهُ حَدِيثَكَ، قَدْ انْتَحَرَ فَلَانٌ وَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اللَّهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، يَا بِلَالُ قُمْ فَأَذِّنْ: لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ». أخرجه البخاريُّ ومُسلمٌ (٣).

رويَنا في «مُسْنَدِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ» (٤) عن مُعاوية: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَشَهَّدُ مَعَ الْمُؤَدِّينَ»، وفي روايةٍ أُخرى (٥) عن علقمة بنِ أَبِي وَقَاصٍ قَالَ: إِنِّي لَعِنْدَ مُعَاوِيَةَ إِذْ أَدَّنَ مُؤَدُّنُهُ، فَقَالَ

(١) أي: الزمخشريُّ في تفسير الآية المذكورة من سورة الزمَر.

(٢) يُنظَرُ قَوْلُ مَنْ هَذَا، فَلَيْسَ هُوَ مِنْ كَلَامِ الزَّمْخَشَرِيِّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ نَحْوُهُ فِي آخِرِ سُورَةِ الشُّورَى (١٣: ٣٨٣)، نَقْلًا عَنِ ابْنِ الْمُثَنَّى فِي «الْإِتِّصَافِ»، وَيَحْتَمِلُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ لِلوَاحِدِيِّ، فَقَدْ نَقَلَ عَنْهُ الْمُؤَلِّفُ قَبْلَ أُسْطَر، وَلَكِنْ لَمْ أَجِدْهُ فِي «الْوَسِيطِ»، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٣) البخاري (٣٠٦٢) و(٤٢٠٤) و(٦٦٠٦)، ومُسلم (١١١).

(٤) برقم (١٦٨٤١) و(١٦٩٠٢).

(٥) أخرجه أحمدٌ في «مُسْنَدِهِ» أَيْضًا (١٦٨٣١)، والنسائي (٦٧٧).

وَقُرِي: «وَتُعْزَرُوهُ» بِضَمِّ الزَّايِ وَكَسْرِهَا، وَ«تُعْزَرُوهُ» بِضَمِّ التَّاءِ وَالتَّخْفِيفِ، وَ«تُعْزَرُوهُ» بِالزَّايَيْنِ، وَ«تُوقَرُوهُ» مِنْ: أَوْقَرَهُ، بِمَعْنَى: وَقَرَهُ.

وَتُسَبِّحُوا اللَّهَ ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: صَلَاةُ الْفَجْرِ وَصَلَاةُ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ.

[إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَةٌ بِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾]

لَمَّا قَالَ: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ أَكَّدَهُ تَأْكِيدًا عَلَى طَرِيقَةِ التَّخْيِيلِ،

معاوية كما قال، فلما قال: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَلَمَّا قَالَ: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ. وَقَالَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا قَالَ الْمُؤَدِّنُ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ذَلِكَ.

قوله: (و) «تُعْزَرُوهُ» بِضَمِّ الزَّايِ وَكَسْرِهَا): قَالَ ابْنُ جُنَيْ: «بِالضَّمِّ: قِرَاءَةُ الْجَحْدَرِيِّ (١)، مَعْنَاهُ: تَمْنَعُوهُ أَوْ تَمْنَعُوا دِينَهُ وَنَبِيَّهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن تَصُرُوا اللَّهَ يَضْرَكْكُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٧]، فَهُوَ عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ، وَأَمَّا «تُعْزَرُوهُ» بِالتَّشْدِيدِ: فَتَمْنَعُوا مِنْهُ بِالسَّيْفِ (٢)، وَعَزَّرْتُ فَلَانًا: أَي: فَخَمَمْتُ أَمْرَهُ. وَقَرَأَ مُحَمَّدُ بْنُ الْيَمَانِيِّ (٣): بِالزَّايَيْنِ، أَي: تَجْعَلُوهُ عَزِيزًا» (٤).

قوله: (أَكَّدَهُ تَأْكِيدًا عَلَى طَرِيقَةِ التَّخْيِيلِ): يَعْنِي: لَمَّا رُوِّعَتِ الْمَشَاكِلَةُ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾، بُنِيَ عَلَيْهَا قَوْلُهُ: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ عَلَى سَبِيلِ

(١) فِي (ف): «ابن الجحدري»، والمثبت من (ط) و(ح)، وهو الموافق لِمَا فِي «المحتسب» لابن جُنَيْ.

(٢) فِي (ح) و(ف): «السيف»، والمثبت من (ط) ومن «المحتسب» لابن جُنَيْ.

(٣) تَحَرَّفَ فِي «المحتسب» إِلَى: «اليمامي»، وَلَمْ يَعْرِفْهُ مُحَقِّقَاهُ الْفَاضِلَانِ، فَقَالُوا فِي الْحَاشِيَةِ: «ذَكَرَ السَّمْعَانِيُّ فِي

«الأنساب» جَمَاعَةً مِنَ الْمُحَدِّثِينَ، يُنْسَبُ كُلُّ مِنْهُمُ إِلَى الْيَمَامَةِ، وَيُلَقَّبُ بِالْيَمَامِيِّ». قُلْتُ: هُوَ تَحْرِيفٌ عَنِ

«اليمني» بِدَلَالَةِ مَا هُنَا، وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ السَّمِيفِغِ الْيَمَانِيِّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ لَهُ ذِكْرٌ عِنْدَ ابْنِ جُنَيْ فِي

كُتُبِهِ (١: ١٣٤)، وَعَرَّفَ بِهِ الْمُحَقِّقَانِ هُنَاكَ.

(٤) «المحتسب» لابن جُنَيْ (٢: ٢٧٥).

الاستعارة التخيلية، تميماً لمعنى المشاكلة، وهو كالترشيح للاستعارة، أي: إذا كان الله مُبايعاً، ولا بُدَّ للمُبايع - كما تُعورَفَ واشتَهَرَ - مِنَ الصَّفْقَةِ باليد، فُتَحْيَلُ اليَدُ لتأكيد معنى المشاكلة، وإلا فَجَلَّ جنباه الأقدس عن الجارحة.

هذا هو المراد من قول صاحب «المفتاح»: «وأما حُسْنُ الاستعارة التخيلية: فإن تكون تابعة للكناية، ثم إذا انضَمَّ إليها المشاكلة كانت أحسنَ وأحسنَ»^(١).

روى الواحدي عن ابن كيسان^(٢): «قوةُ الله ونُضْرَتُهُ فوقَ قُوَّتِهِم ونُضْرَتِهِمْ، أي: يُقْ بِنُضْرَةِ الله لك لا بِنُضْرَتِهِمْ وإن يُبايعوك»^(٣). وقال الزَّجَّاجُ: «المعنى: يَدُ الله في الوفاءِ فوقَ أيديهم - أو: في الثوابِ فوقَ أيديهم - في الطاعة، أو يَدُ الله في المِنَّةِ عليهم في الهدايةِ فوقَ أيديهم في الطاعة»^(٤).

وقلت: هذه الوجوه لا تَنطَبِقُ على تأويل المصنّف، لأنَّ قوله: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ معناه: ما يُبايعُونَ أحداً إلا الله، أي: ليست تلك المُبايعةُ معَ رسولِ الله ﷺ، بل معَ الله، ثم لما أريد مزيدُ توكيدٍ قيل: ﴿يَدُ اللَّهِ﴾، أي: لا تَظُنَّنَّ أَنَّ الأمرَ على خلافه، ألا تُشَاهِدُ يَدَ الله كيفَ حَصَلَتْ فوقَ أيديهم، كما يفَعَلُ المُبايعان. وفي اختصاصِ القَوِيَّةِ تسميماً معنَى الظُّهور. وقال أبو البقاء: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ﴾ حَبِرٌ «إِنَّ»، و﴿يَدُ اللَّهِ﴾ مُبْتَدَأٌ، وما بعده: الخبر، والجملةُ حَبِرٌ آخِرٌ لـ «إِنَّ»، أو حَالٌ مِنْ ضميرِ الفاعلِ في ﴿يُبَايِعُونَ﴾، أو مُسْتَأْنَفٌ^(٥).

(١) «مفتاح العلوم» للسكاكي ص ٣٨٨.

(٢) هو العلامة النحوي أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن كيسان الحربي، المولود سنة ٢٨٢هـ، والمتوفى سنة ٣٥٨هـ، رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٦: ٣٢٩-٣٣٠).

(٣) «الوسيط» للواحدي (٤: ١٣٦).

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥: ٣٣).

(٥) «التيبان في إعراب القرآن» (٢: ١١٦٥).

فقال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، يريد: أَنْ يَدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ التي تَعْلُو أَيْدِي الْمُبَايِعِينَ: هي يَدُ اللَّهِ، واللَّهُ تَعَالَى مُنْزَعٌ عَنِ الْجَوَارِحِ وَعَنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ، وَإِنَّمَا الْمَعْنَى: تَقْرِيرٌ أَنَّ عَقْدَ الْمِيثَاقِ مَعَ الرَّسُولِ كَعَقْدِهِ مَعَ اللَّهِ، مِنْ غَيْرِ تَفَاوُتٍ بَيْنَهُمَا، كَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، والمراد: بَيْعَةُ الرَّضْوَانِ.

﴿فَاتِمًا يَنْكُتُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ فلا يعودُ ضَرَرُ نَكْتِهِ إِلَّا عَلَيْهِ، قال جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ عَلَى الْمَوْتِ، وَعَلَى أَنْ لَا نَقْرَ، فَمَا نَكَّتْ أَحَدٌ مِنَّا الْبَيْعَةَ إِلَّا جَدُّ بْنُ قَيْسٍ، وَكَانَ مُنَافِقًا، اخْتَبَأَ تَحْتَ إِبْطِ بَعِيرِهِ، وَلَمْ يَسِرْ مَعَ الْقَوْمِ».

وَقُرِي: «إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ؟ أَي: لِأَجْلِ اللَّهِ وَلِوَجْهِهِ،

قوله: (بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ عَلَى الْمَوْتِ): رَوَيْنَا عَنْ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَمُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ^(١) عَنْ جَابِرٍ: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَنْ لَا نَقْرَ، وَلَمْ نُبَايِعْهُ عَلَى الْمَوْتِ».

وَمُسْلِمٍ^(٢): «سُئِلَ جَابِرٌ: كَمْ كُنْتُمْ يَوْمَ الْحَدَيْبِيَّةِ؟ قَالَ: كُنَّا أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِثَّةً، فَبَايَعْنَا وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ آخِذٌ بِيَدِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، وَهِيَ سَمْرَةٌ^(٣)، فَبَايَعْنَا، غَيْرَ جَدِّ بْنِ قَيْسِ الْأَنْصَارِيِّ، اخْتَفَى تَحْتَ بَطْنِ بَعِيرِهِ».

وَفِي رِوَايَةٍ^(٤): «عَلَى الْمَوْتِ».

(١) أحمد (١٤١١٤) و(١٤٨٢٣) و(١٥٠٧٨) و(١٥٢٥٩)، ومسلم (١٨٥٦)، والترمذي (١٥٩١) و(١٥٩٤)، والنسائي (٤١٥٨).

(٢) في «صحيحه» برقم (١٨٥٦) (٦٩).

(٣) وهو نوعٌ من شَجَرِ الطَّلْحِ، كما في «النهاية» لابن الأثير (٢: ٣٩٩)، مادة (سمر).

(٤) أخرج البخاري (٢٩٦٠) و(٤١٦٩) و(٧٢٠٦)، ومسلم (١٨٦٠) عن يزيد بن أبي عبيد مولى سلمة بن الأكوع قال: قلت لسلمة: «على أي شيء بايعتكم رسول الله ﷺ يومَ الحديبية؟ قال: على الموت».

وَقُرِئَ: ﴿يَنْكُتُ﴾ بِضَمِّ الْكَافِ وَكَسْرِهَا، وَ﴿بِمَاعَهْدٍ﴾ وَ«عَهْدًا»، ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ بِالنُّونِ وَالْيَاءِ، يُقَالُ: وَفَيْتُ بِالْعَهْدِ وَأُوفَيْتُ بِهِ، وَهِيَ لُغَةٌ تِهَامَةٌ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، ﴿وَأَلْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧٧].

[﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْنَا يَقُولُونَ بَلْ سَنَتِّهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ١١]

هُمُ الَّذِينَ خُلِفُوا عَنِ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَهُمْ أَعْرَابُ غِفَارٍ وَمُزَيْنَةَ وَجُهَيْنَةَ وَأَشْجَعَ وَأَسْلَمَ وَالذَّلِيلَ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى مَكَّةَ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ مُعْتَمِرًا، اسْتَفْتَرَ مَنْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْأَعْرَابِ وَأَهْلِ الْبُؤَادِي لِيَخْرُجُوا مَعَهُ؛

قوله: (وَقُرِئَ: ﴿يَنْكُتُ﴾ بِضَمِّ الْكَافِ وَكَسْرِهَا): والضَّمُّ: المشهورة، والكسْر: شاذ.

قوله: (﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ بِالنُّونِ وَالْيَاءِ): بالنُّونِ: نافعٌ وابنٌ كثيرٌ وابنٌ عامرٌ، والباقون: بالياء^(١).

قوله: (وَفَيْتُ بِالْعَهْدِ): الراغب: «الوافي: الذي بلغ التمام، يُقَالُ: دَرِهْمٌ وَافٍ، وَكَيْلٌ وَافٍ، وَأُوفِيَتْ الْكَيْلُ وَالْوَزْنُ، وَوَفَى بِعَهْدِهِ: إِذَا تَمَّمَ الْعَهْدَ، وَالْقِرَاءُ جَاءَ بِ«أُوفَى»، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَاتَّبَعْتُمُ الَّذِينَ وَفَّيَ﴾ [النجم: ٣٧]: إشارةٌ إلى قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وَتَوْفِيَةُ الشَّيْءِ: بَذْلُهُ وَافِيًا، وَوَفَى إِبْرَاهِيمَ حَيْثُ بَدَّلَ الْمَجْهُودَ فِي جَمِيعِ مَا طُوبِيَ بِهِ؛ مِنْ بَذْلِ مَالِهِ فِي الْإِنْفَاقِ فِي طَاعَتِهِ، وَبَذْلِ وَكِدِهِ الَّذِي هُوَ أَعَزُّ مِنْ نَفْسِهِ، وَاسْتِيفَاءُ الشَّيْءِ: تَنَاوُلُهُ وَافِيًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ [آل عمران: ٢٥]»^(٢).
وَالْعَهْدُ: حِفْظُ الشَّيْءِ وَمُرَاعَاتُهُ حَالًا بَعْدَ حَالٍ، وَسُمِّيَ الْمَوْثِقُ الَّذِي تَلَزَمَ مُرَاعَاتُهُ: عَهْدًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، وَعَهْدُ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ بِالْعَهْدِ، أَي: أَلْقَى الْعَهْدَ إِلَيْهِ، وَأَوْصَاهُ بِحِفْظِهِ، ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَسْوَى﴾ [طه: ١١٥]»^(٣).

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ٢٠١، و«حجة القراءات» ص ٦٧٢.

(٢) «مفردات القرآن» ص ٨٧٨.

(٣) المصدر السابق ص ٥٩١.

حَدْرًا مِنْ قُرَيْشٍ أَنْ يَعْرِضُوا لَهُ بِحَرْبٍ أَوْ يَصُدُّوهُ عَنِ الْبَيْتِ، وَأَحْرَمَ هُوَ ﷺ، وَسَاقَ مَعَهُ الْهَدْيَ، لِيَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ حَرْبًا، فَتَنَاقَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَعْرَابِ، وَقَالُوا: يَذْهَبُ إِلَى قَوْمٍ قَدْ غَزَوْهُ فِي عُقْرِ دَارِهِ بِالْمَدِينَةِ، وَقَتَلُوا أَصْحَابَهُ، فَيَمَاتُلَهُمْ، وَظَنُّوا أَنَّهُ يَمِيلُ، فَلَا يَنْقَلِبُ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَاعْتَلُّوا بِالشُّغْلِ بِأَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ مَنْ يَقُومُ بِأَسْغَالِهِمْ.

وَقُرِي: «سَعَلْتَنَا» بالتشديد. «يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ» تكذيب لهم في اعتذارهم، وَأَنَّ الَّذِي خَلَفَهُمْ لَيْسَ بِمَا يَقُولُونَ، وَإِنَّمَا هُوَ الشُّكُّ فِي اللَّهِ وَالتَّفَاقُ، وَطَلَبُهُمْ لِلِاسْتِغْفَارِ أَيْضًا لَيْسَ بِصَادِرٍ عَنْ حَقِيقَةٍ.

﴿فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ﴾ فَمَنْ يَمْنَعُكُمْ مِنْ مَشِيئَةِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ، ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ﴾ مَا يَضُرُّكُمْ مِنْ قَتْلِ أَوْ هَزِيمَةٍ،

قوله: (في عُقْرِ دَارِهِ): النهاية: «في الحديث: «عُقْرُ دَارِ الْإِسْلَامِ: الشَّامُ»^(١)، أي: أصله وموضعُه، كأنه أشار به إلى وقت الفتن، أي: يكون الشام يومئذٍ آمنًا منها، وأهل الإسلام به أسلم، وعُقْرُ الدارِ - بالضم والفتح -: أصلها». الراغب: «عُقْرُ الدارِ والحوضِ وغيرهما: أصلها، يُقال: له عُقْرٌ، وقيل: ما غزِيَ قومٌ في عُقْرِ دَارِهِمْ قَطُّ إِلَّا ذَلُّوا»^(٢)»^(٣).

قوله: (فَمَنْ يَمْنَعُكُمْ مِنْ مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَضَائِهِ ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ﴾ مَا يَضُرُّكُمْ) إلى آخره: الانْتِصَافُ: «هذه الآية من اللَّفِّ، أي: مَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا، وَمَنْ يَحْرِمُكُمْ النَّفْعَ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا، لِأَنَّ «مَنْ يَمْلِكُ» يُسْتَعْمَلُ فِي الضَّرِّ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ﴾ [المائدة: ١٧]، ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [الأحقاف: ٨].

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٧: ٤٢٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٦٣٥٩) من حديث سلمة بن قُبَيْلٍ. وقال الحافظُ الهيثميُّ في «مجمع الزوائد» (١٠: ٦٠): «رجاله ثقات».

(٢) تحرّف في (ح) إلى: «ركوا»، وفي (ف) إلى: «نكوا»، والمثبت من (ط) ومن «مفردات القرآن» للراغب.

(٣) «مفردات القرآن» ص ٥٧٧.

وسِرُّ اختِصاصِ دَفْعِ المَصْرَةِ: أنه تعالى أضافَ المَلِكَ في هذه المواضع باللام، ودَفَعُ المَصْرَةَ نَفْعٌ، وليسَ كذلكَ جِزْمَانُ المنفعة، فهو صَرَرٌ عائدٌ عليه لاله، وإنما انتَظَمَتْ هذه الآيةُ كذلك، لأنَّ القِسْمَيْنِ يَشْتَرِكَانِ في أَنْ كُلَّ واحدٍ منهما نَفْيٌ لِدَفْعِ المُقَدَّرِ من خيرٍ وشرٍّ، فلما تقاربا^(١) أدرَجَهما في عبارة واحدة، وخصَّ عبارة دفع الصَّرَرِ لأنه المُتَوَقَّعُ لهؤلاء، إذ الآيةُ تهديدٌ ووعيد. وفي نظيره قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ١٧]، والعِصْمَةُ أبداً تكونُ مِنَ الشَّرِّ، فهاتانِ الآيتانِ توأمتانِ^(٢)»^(٣).

وقلت: وَيَعْضُدُ هذا التأويلَ ما رواه الواحدِيُّ عن ابنِ عباسٍ: «مَنْ يَمْنَعُكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ صَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا»^(٤).

هذا ولا ارتيابَ أَنَّ ﴿يَمْلِكُ﴾ هاهنا غيرُ مُسْتَعْمَلٍ فيما وُضِعَ له، قال في «الأساس»: «مَلَكَ الشَّيْءُ وَاِمْتَلَكَهُ وَتَمَلَّكَهُ، ومن المجاز: مَلَكَ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ، وَمَلَكَ عَلَيْهِ أمره: إِذَا اسْتَوَى عَلَيْهِ»، وعلى هذا: يُجْعَلُ ﴿يَمْلِكُ﴾ مجازاً من «يَمْنَعُ» - كما عليه ظاهرُ كلامِ المُصَنِّفِ - أو تَضْمِيناً بوساطةِ «من»، وتكونُ اللامُ مَزِيدَةً مِثْلَها في قوله تعالى: ﴿رَدَفَ لَكُمْ﴾ [النمل: ٧٢]، ولَسَما عَقَّبَ بقوله: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ صَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ وَجَبَ تَقْدِيرُ مَشِيئَةِ اللَّهِ مُطْلَقاً؛ لَيْتَنَ وَاوَلَّ مَشِيئَةَ الصَّرِّ والنَّفْعِ، فتكونُ القَرِيبَتانِ - أعني: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ صَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ - تَقْسِماً له، ثم جُعِلَ المجموعُ عبارةً له على سبيلِ الكِنَايَةِ الإيمائيةِ عن أنه لا ضارَّ ولا نافعَ إلا هو.

والتَّظْمُ يُسَاعِدُ عليه؛ لأنَّ الخِطَابَ مَعَ قومٍ تَثاقَلُوا عن الحربِ حينَ اسْتِغْفَرُوا، قالوا: نَذْهَبُ إلى قومٍ قد غَزَوْهُ في عَقْرِ داره، ثم جاؤوا مُعْتَذِرِينَ: إِنَّ أَمْوَالَنَا وَأَهْلِيْنَا^(٥) شَغَلْتَنَا عن الاستِغْفارِ مَعَك، ولم يكنْ ذلكَ خيراً لنا، فحِثْنَا تائبينَ مُسْتَغْفِرِينَ، فاستَغْفِرْ لنا.

(١) في الأصول الخطية: «تفاوتا»، والمثبت من «الانتصاف» لابن المنير.

(٢) تحرف في المطبوع من «الانتصاف» إلى: «يرامان»، فيصحح من هنا.

(٣) «الانتصاف» (٣: ٥٤٤) بحاشية «الكشاف».

(٤) «الوسيط» للواحدى (٤: ١٣٧).

(٥) في الأصول الخطية: «وأهلونا».

﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ مِنْ ظَفَرٍ وَغَنِيمَةٍ. وَقُرِئَ: ﴿ضَرًّا﴾ بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ.

الأهلون: جمع أهل. ويُقال: أهلات، على تقدير تاء التانيث، كأرضٍ وأرضات، وقد جاء: أهلة، وأما أهالٍ فاسمُ جمع، كليلال.

[﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنْتَ لَكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ ١٢]

وقُرِئَ: «إلىٰ أهليهم»، «وزين» على البناء للفاعل، وهو الشيطان أو الله عزَّ وجلَّ، وكلاهما جاء في القرآن؛ ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤]، و﴿زَيَّنَّا لَهُمْ﴾ [النمل: ٤].

ولمَّا لم يكونوا مثل أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ [النساء: ٦٤] نَبَّهَ اللَّهُ سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بقوله: ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْسَٰنَهُمْ مَا لَيْسَٰ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

ثم أمره بأن يُجيبهم بأجوبة ثلاثة على الترقِّي، بقوله أولاً على سبيل الكلام المنصِّف تعريضاً بغيرهم من المحقِّين والمبطلين: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾، يعني: ليس مالك النفع والضَّرَّ إلا هو، فلا أهلكم وأموالكم ولا القعود في بيوتكم ينفَعُكُمْ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا، كما في أحد، ولا الشُّخُوصُ إِلَى الغَزْوِ ومُقاتلة الأعداء تُضُرُّكُمْ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا مِنَ الظَّفَرِ والغَنِيمَةِ، كما في بَدْر. ثم أَضْرَبَ عن هذا الجواب إلى قوله: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، وفيه نوعٌ تهديد، ولكن على الإيهام، ثم تَرَقَّى وَصَرَّحَ بِمَكْنُونِ ضَمَائِرِهِم والكشْفِ عن فضائِحِهِمْ في قوله: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾، والله أعلم.

قوله: (وقرئ: ﴿ضَرًّا﴾ بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ): حمزة والكسائي: بِالضَّمِّ، والباقون: بِالْفَتْحِ^(١).

(١) انظر: «التيسير» للدان ص ٢٠١، و«حجة القراءات» ص ٦٧٢.

والبُور: من: بار، كالهُلُك: من: هَلَكَ، بناءً ومعنى، ولذلك وُصِفَ به الواحدُ والجمعُ والمذكرُ والمؤنثُ، ويجوزُ أن يكونَ جمعَ بائرٍ، كعائِدٍ وعُوذٍ. والمعنى: وكنتُم قوماً فاسِدِينَ في أنفسِكُم وقلوبِكُم ونياتِكُم لا خيرَ فيكُم، أو: هالِكِينَ عندَ الله مُستوجِبِينَ لِسَخَطِهِ وَعِقَابِهِ.

[﴿ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴾ ١٣]

﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ مُقَامٌ مَقَامٌ «لَهُمْ»؛ للإيذانِ بأنَّ مَنْ لَمْ يَجْمَعْ بَيْنَ الإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ - فَهُوَ كَافِرٌ، وَنَكَرَ ﴿سَعِيرًا﴾ لِأَنَّهَا نَارٌ مَخْصُوصَةٌ، كَمَا نَكَرَ ﴿نَارًا تَلْقَى﴾ [الليل: ١٤].

[﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ١٤]

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يُدَبِّرُهُ تَدْبِيرَ قَادِرٍ حَكِيمٍ، فَيَغْفِرُ وَيُعَذِّبُ بِمَشِيئَتِهِ، وَمَشِيئَتُهُ تَابِعَةٌ لِحِكْمَتِهِ، وَحِكْمَتُهُ الْمَغْفِرَةُ لِلنَّائِبِ وَتُعَذِّبُ الْمُصْرَ، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ رَحْمَتُهُ سَابِقَةٌ لِغَضَبِهِ؛ حَيْثُ يُكْفِرُ السَّيِّئَاتِ بِاجْتِنَابِ الْكِبَائِرِ، وَيَغْفِرُ الْكِبَائِرَ بِالتَّوْبَةِ.

قوله: (كعائِد وعُوذ)، الجوهرى: «العُوذ: الحديثُ التَّاجِ مِنَ الإِبْلِ وَالْحَلِيلِ، وَاحْدَتُهَا عَائِدٌ».

قوله: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ مُقَامٌ مَقَامٌ «لَهُمْ»: أي: أقيمَ الظاهرُ - وهو ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ - مَقَامَ الْمُضْمَرِ، وَهُوَ: «لَهُمْ».

قوله: (ومشيئته تابعة لحكمته، وحكمته المغفرة للنائب): الانتصاف: «تقدّم منه أمثال ذلك حملاً للقرآن على رأيه»^(١). وقلت: يُريد: أنَّ فيه تحريفين: أحدهما: جعلُ المشيئة تَابِعَةً لِلْحِكْمَةِ، وَالْحُكْمُ بِالْعَكْسِ. وَثَانِيهِمَا: قَيْدُ الْغُفْرَانِ بِاجْتِنَابِ الْكِبَائِرِ، وَالْكَبَائِرُ بِالتَّوْبَةِ.

واعلم أنه يُمكنُ أن يُقالَ - واللَّهُ أَعْلَمُ -: إنَّ قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ الآية: مَوْقِعُهُ التَّذْيِيلُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾

(١) «الانتصاف» (٣: ٥٤٤) بحاشية «الكشاف».

[﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسَدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ١٥]

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ الذين تخلّفوا عن الحديبية: ﴿إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ﴾ إلى غنائم خيبر. ﴿أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ - وقريء: «كَلِمَ اللَّهِ» - : أَنْ يُغَيِّرُوا مَوْعِدَ اللَّهِ لِأَهْلِ الحديبية، وذلك أنه وَعَدَهُمْ أَنْ يُعَوِّضَهُمْ مِنْ مَغَانِمِ مَكَّةَ مَغَانِمَ خَيْبَرَ، إِذَا قَفَلُوا مُوَادِعِينَ لَا يُصَيِّبُونَ مِنْهُمْ شَيْئًا. وقيل: هو قوله تعالى: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٣].

﴿نَحْسَدُونَنَا﴾ أَنْ نُصِيبَ مَعَكُمْ مِنَ الْغَنَائِمِ، قُرِئَ بِضَمِّ السِّينِ وَكَسْرِهَا، ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ لَا يَفْهَمُونَ إِلَّا فَهْمًا ﴿قَلِيلًا﴾، وَهُوَ فِطْنَتُهُمْ لِأُمُورِ الدُّنْيَا دُونَ أُمُورِ الدِّينِ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧].

الآية، على أن يُقَدَّرَ له ما يُقَابِلُهُ مِنْ قَوْلِهِ: وَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْمُؤْمِنِينَ الْجَنَانَ، فَلَا يُقَيَّدُ شَيْءٌ مِنْهُ؛ لِيُؤْذَنَ بِالتَّصَرُّفِ التَّامِّ، وَالمَشِيئَةِ النَّافِذَةِ، وَالعُفْرَانِ الكَامِلِ، وَالرَّحْمَةِ الشَّامِلَةِ. قَوْلُهُ: (أَنْ يُغَيِّرُوا مَوْعِدَ اللَّهِ): تَفْسِيرٌ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾، وَقَوْلُهُ: «وَقُرِئَ: كَلِمَ اللَّهِ»: مُعْتَرِضٌ بَيْنَ التَّفْسِيرِ وَالمُفَسِّرِ، وَقَوْلُهُ: «قِيلَ»: هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقْبِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ «عَطَفَ عَلَى قَوْلِهِ: «يُغَيِّرُوا مَوْعِدَ اللَّهِ لِأَهْلِ الحديبية».

و«كَلِمَ اللَّهِ»: هِيَ قِرَاءَةُ حَمْزَةَ وَالكِسَائِيَّ، وَالبَاقُونَ: ﴿كَلِمَ اللَّهِ﴾^(١). وَفِي القَوْلِ الثَّانِي نَظْرٌ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿قُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقْبِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣]: نَازِلٌ فِي المُتَخَلِّفِينَ عَنِ غَزْوَةِ تَبُوكَ مِنَ المُنَافِقِينَ، وَكَانَتْ تِلْكَ الغَزْوَةُ فِي رَجَبِ سَنَةِ تِسْعٍ، وَغَزْوَةُ الحديبية فِي سَنَةِ سِتٍّ، كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ الجوزي فِي «الوفا».

قَوْلُهُ: (قُرِئَ بِضَمِّ السِّينِ وَكَسْرِهَا): أَي: ﴿نَحْسَدُونَنَا﴾، بِالبُضْمِ: المَشْهُورَةِ، وَبِالكَسْرِ:

شَاذَةٌ.

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ٢٠١، و«حجة القراءات» ص ٦٧٣.

فإن قلت: ما الفرق بين حَرْفِي الإضراب؟ قلت: الأول: إضرابٌ معناه: ردُّ أن يكون حُكْمُ الله أن لا يَتَّبِعُوهُمْ وإثباتُ الحسد، والثاني: إضرابٌ عن وَضْفِهِمْ بإضافة الحسدِ إلى المؤمنين، إلى وَضْفِهِمْ بما هو أطمٌ منه، وهو الجهلُ وقلةُ الفقه.

[قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَى قَوْمِ آوِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَقُولُوا مِنْ قَبْلُ يَعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾]

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ﴾ هم الذين تخلفوا عن الحديبية، ﴿إِلَى قَوْمِ آوِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعني: بني حنيفة قوم مُسَيْلِمَةَ وأهل الرِّدَّة الذين حاربهم أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه،

قوله: (إلى وَضْفِهِمْ بما هو أطمٌ منه): النهاية: «طَمَّ الشيء: إذا عَظُمَ، وطَمَّ الماء: إذا كَثُرَ». الانتصاف: «الإضرابُ الأولُ هو المعروف، والثاني هو المُستَعْرَبُ المُستَعْدَبُ الذي ليس فيه مُبَايَنَةٌ بَيْنَ الأولِ والثاني، بل زيادةٌ تنبيه، ومُبَالَغَةٌ مُتَمَكِّنَةٌ، والمنسوبُ إليهم ثانياً أشدُّ؛ فإنهم في الأولِ جَهِلُوا شيئاً مخصوصاً بنسبتهم المؤمنين إلى الحسد، والثاني نَسَبْتُهُمْ إلى الجهلِ المُطَبَّقِ»^(١).

وقلت: الإضرابُ الأولُ واقعٌ في كلام المُتَخَلِّفِينَ، والثاني في كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾: أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ سَيَقُولُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ: إِذَا ذَهَبْتُمْ إِلَى الْغَزْوِ لَا تَمْنَعُونَا مِنْ مُتَابَعَتِكُمْ، وَمَنْعَكُمْ إِيَّانَا ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ، بَلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ؛ حَسَدًا أَنْ تُصِيبَ مِنَ الْغَنَائِمِ شَيْئًا. ثم أَضْرَبَ اللَّهُ عَنِ الْمَجْمُوعِ بِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾، والحاصلُ أَنَّ رَدَّهُمْ حُكْمُ اللَّهِ وَإِثْبَاتُهُمُ الْحَسَدَ كَانَ مِنْ قِلَّةِ التَّفَكِيرِ وَشَوْءِ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِينَ، وَدَغَ ذَلِكَ، بَلْ كَانَ بِجَهْلِهِ مِنْهُمْ وَقِلَّةِ عَقْلِ لِمَا يَلْزَمُ مِنْهُ؛ إِمَّا رَدُّ حُكْمِ اللَّهِ، أَوْ نِسْبَةُ التَّقْوِيلِ عَلَى اللَّهِ وَالْحَسَدِ إِلَى أَوْلِيَاءِ السَّادَةِ، وَإِثْرًا هَذِهِ الْأَدْنَى عَلَى الْحَيَاةِ السَّرْمَدِيَّةِ. وفيه: أَنَّ الْجَهْلَ غَايَةٌ فِي الدَّمِّ، وَحُبُّ الدُّنْيَا لَيْسَ مِنْ شِيْمَةِ الْعَالَمِ الْعَاقِلِ.

(١) «الانتصاف» (٣: ٥٤٦) بحاشية «الكشاف».

لأنَّ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَالْمُرْتَدِّينَ هُمُ الَّذِينَ لَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ إِلَّا الْإِسْلَامُ أَوْ السَّيْفُ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ، وَمَنْ عَدَاهُمْ مِنْ مُشْرِكِي الْعَجَمِ وَأَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسِ تُقْبَلُ مِنْهُمْ الْجِزْيَةُ. وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ: لَا تُقْبَلُ الْجِزْيَةُ إِلَّا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسِ، دُونَ مُشْرِكِي الْعَجَمِ وَالْعَرَبِ.

وهذا دليلٌ على إمامة أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه، فإنهم لم يدعوا إلى حربٍ في أيام رسول الله ﷺ، ولكن بعد وفاته، وكيف يدعوهم رسول الله ﷺ مع قوله تعالى: ﴿فَقُلْ لَنْ أَخْرَجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ نُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣]!

قوله: (وهذا دليلٌ على إمامة أبي بكرٍ^(١) الصِّدِّيقِ رضي الله عنه): وتقريره: ما ذكره الإمام^(٢) قال: الداعي في قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ يُقَاتِلُونَكُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾ لا يخلو من أن يكون رسول الله ﷺ، أو الأئمة الأربعة ومن بعدهم. لا يجوز الأول لقوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ إلى قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ﴾ الآية، ولا علي رضي الله تعالى عنه، لأنه رضي الله عنه إنما قاتل البغاة والخوارج، وتلك المقاتلة للإسلام؛ لقوله: ﴿أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾، ولا من ملك بعدهم، لأنهم عندنا على الخطأ، وعند الشيعة على الكفر، ولما بطلت الأقسام تعيين أن المراد بالداعي: أبو بكرٍ وعمرٌ وعثمان رضي الله عنهم، ثم إنه تعالى أو جَبَ طاعتهم، وأوعد على مخالفتهم بقوله: ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

(١) في (ف): «أمير المؤمنين أبي بكر»، واقتصر في (ط) على قوله: «وهذا دليل على إمامة» ثم قال: «إلى آخره»، والمثبت من (ح)، وهو الموافق لينا في «الكشاف»، وهو الصواب، فأبو بكر رضي الله عنه لم يُلقب بـ«أمير المؤمنين»، وإنما كان يُقال له: خليفة رسول الله ﷺ، وأول من لُقِّب بـ«أمير المؤمنين»: عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) يعني: فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى، كما هي عادة المؤلف في أنه يُريده إذا أطلق «الإمام»، لكن لم أقف على هذا الكلام في «تفسيره»، وإنما فيه إشارة موجزة إلى المسألة، وهي قوله فيه (٢٨: ٧٧): «ومن قال بأنَّ الداعي أبو بكر وعمر تمسك بالآية على خلافتهما، ودلائلها ظاهرة، ولعل في كتاب آخر له، والله أعلم».

وقيل: هم فارسُ والرُّوم. ومعنى ﴿يُسَلِّمُونَ﴾: يتقادون، لأنَّ الرُّومَ نصارى، وفارسَ مجوس، يُقبَلُ منهم إعطاءُ الجزية.

فإن قلت: عن قتادة: أنهم ثقيفٌ وهوازن، وكان ذلك في أيام رسولِ الله ﷺ؟ قلت: إن صحَّ ذلك فالمعنى: لن تخرجوا معيَ أبداً ما دُمتُم على ما أنتم عليه من مَرَضِ القلوب والاضطراب في الدين،

قوله: (عن قتادة: أنهم ثقيف): يعني: ذكرت أن ليس الداعي في قوله: ﴿سَتُدْعُونَ﴾ رسولَ الله ﷺ، وكيف يدعُوهم وقد قال: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣]، وقد روي عن قتادة: أن المدعُو ثقيفٌ وهوازن، فيكون الداعي هو رسولُ الله ﷺ؟ وأجاب: أن هذا المطلق مُقيّد، إما بقيد: ما دمتُم على ما أنتم عليه من مَرَضِ القلوب، وحين دعاهم زال عنهم ذلك المرض، وإما بقيد قوله: «إلا مُتطوعين»، وبيانه: أن ذلك الموعِد - الذي دلَّ عليه قوله: ﴿بُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ - هو أنهم لا يتبعون رسولَ الله ﷺ إلا مُتطوعين لا نصيبَ لهم في المَغْنَم.

وقال محيي السنة: ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾ إلى خير، ﴿كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل مَرَجِعِنَا إليكم؛ أن غنيمَةَ خيبر لمن شهد الحديبية، ليس لغيرهم فيها نصيب^(١).

فاللام في «الموعِد» للعهد بشهادة قوله فيما سبق: ﴿أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ أي: يُغيروا موعِدَ الله لأهل الحديبية، فإنَّ ذلك الموعِد - على قول مجاهد - هذا المذكور، فعلى هذا: «أو على قول مجاهد» عطفُ على قوله: «فالمعنى: لن تخرجوا معيَ أبداً ولن تُقاتلوا معيَ عَدُوًّا ما دمتُم على ما أنتم عليه»، أو: لن تخرجوا أبداً إلا مُتطوعين لا نصيبَ لكم في المَغْنَم، بناءً على قول مجاهد.

(١) «معالم التنزيل» للبعوي (٧: ٣٠٢).

أو على قول مجاهد: كَانَ الْمَوْعِدُ أَنَّهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَّا مُتَطَوِّعِينَ لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِي الْمَغْنَمِ.

﴿كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِن قَبْلُ﴾ يُرِيدُ: فِي غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ.

﴿أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾ مَعُطُوفٌ عَلَى ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ﴾، أَي: يَكُونُ أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ؛ إِمَّا الْمُقَاتَلَةَ أَوْ الْإِسْلَامَ، لَا ثَالِثَ لَهَا. وَفِي قِرَاءَةِ أَبِي: «أَوْ يُسَلِّمُوا»؛ بِمَعْنَى: إِلَى أَنْ يُسَلِّمُوا.

[﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَعدُّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ١٧]

قوله: (مُتَطَوِّعِينَ): الْجَوْهَرِيُّ: «التَّطَوُّعُ بِالشَّيْءِ: التَّبَرُّعُ بِهِ، وَالْمُتَطَوِّعَةُ: الَّذِينَ يَتَطَوَّعُونَ بِالْجِهَادِ».

قوله: (مَعُطُوفٌ عَلَى ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ﴾)، أَي: يَكُونُ أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ؛ إِمَّا الْمُقَاتَلَةَ أَوْ الْإِسْلَامَ، لَا ثَالِثَ لَهَا: أَي: لَا تُؤْخَذُ الْجِزْيَةُ إِنْ أُرِيدَ بـ«الْقَوْمِ»: مُشْرِكُو الْعَرَبِ، وَ«الْإِسْلَامُ» مَحْمُولٌ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَلَا يُتْرَكُ سُدًى إِنْ أُرِيدَ بـ«الْقَوْمِ»: الْمَجُوسُ وَالنَّصَارَى - ذَكَرَ الْمَجُوسَ وَالنَّصَارَى، وَلَمْ يَذْكَرِ الْيَهُودَ؛ لِأَنَّ الْقَوْمَ مَا دُعُوا إِلَى الْيَهُودِ، لِأَنَّ الْيَهُودَ مَا اجْتَمَعَ لَهُمْ رَأْيٌ بَعْدَ ذَلِكَ، وَلَا كَانَتْ لَهُمْ شَوْكَةٌ وَبَأْسٌ شَدِيدٌ^(١) - وَ«الْإِسْلَامُ» مَحْمُولٌ عَلَى الْإِنْقِيَادِ.

وَالْعَطْفُ يَحْتَمِلُ أَمْرَيْنِ - كَمَا قَالَ فِي «الْمَفْصَلِ»^(٢): «الرَّفْعُ عَلَى الْإِشْرَاقِ بَيْنَ ﴿يُسَلِّمُونَ﴾ وَ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ﴾»، أَوْ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ.

وَقَالَ ابْنُ الْحَاجِبِ فِي «الشرح»: «الرَّفْعُ عَلَى الْإِشْرَاقِ بَيْنَ ﴿يُسَلِّمُونَ﴾ وَ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ﴾ عَلَى مَعْنَى التَّشْرِيكِ بَيْنَهُمَا فِي عَامِلٍ وَاحِدٍ، حَتَّى كَأَنَّكَ عَطَفْتَ خَبْرًا عَلَى خَبْرٍ، أَوْ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ،

(١) مَا بَيْنَ عَلَامَتِي الْإِعْتِرَاضِ أَثْبَتُهُ مِنْ (ف)، وَلَمْ يَرِدْ فِي (ط) وَ(ح).

(٢) «الْمَفْصَلُ» لِلزَّمخَشَرِيِّ ص ٢٤٧.

يعني بقوله: «أو على الابتداء»: على الاستئناف بجملة معربة إعراب نفسها غير مشتركة بينها وبين ما قبلها في عامل واحد، ومثلها بقوله: «أو هم يسلمون»، ليظهر الفرق بين هذا التقدير والتقدير الأول؛ إذ الجملة الاسمية لا تكون معطوفة على جملة فعلية باعتبار التشريك، ولكن باعتبار الاستقلال^(١).

وقال في «الأمالى»: «الرفع فيه وجهان: أحدهما: أن يكون مشتركا بينه وبين ﴿نَقْنَلُونَهُمْ﴾ في العطف، والآخر: أن يكون جملة مستقلة معطوفة على الجملة التي قبلها باعتبار الجملة لا باعتبار الأفراد، و﴿نَقْنَلُونَهُمْ﴾ فيه معنى الأمر، وإن كان صيغته صيغة الخبر، ولا يستقيم أن يكون مجرداً^(٢) عن معنى الأمر لأنه يؤدي إلى أن لا ينفك الوجود عن أحدهما لصدق الإخبار، ونحن نرى الوجود ينفك عنهما.

ولا نقول: إنه يمتنع لما تؤدي إليه «أو» من الشك، وذلك في حق العالم باطل، فإننا على يقين نعلم أن «أو» تأتي لأحد الأمرين إذا كان المخبر عنه لا ينفك عن أحدهما، وليس ذلك عن شك، بل عن قطع أنه كذلك، كقولك: الجسم إما أن يكون ساكناً أو متحركاً، وكذلك ما أشبهه مما يلزم أن يكون على أحد الأمرين في عقليته أو وجوده^(٣)، وإنما يلزم الشك في الإخبار عن أمر معين في الوجود، وقع أو سيقع على أحد أمرين، فهنا قد يتوهم لزوم الشك من المخبر، كقولك: زيد إما مريض وإما معاف.

وإذا ثبت أن ﴿نَقْنَلُونَهُمْ﴾ في معنى الأمر، ف﴿يُسَلِّمُونَ﴾: إما في معنى الأمر فيصح المعنى، ويكون المعنى: الواجب عليكم إما القتال وإما الإسلام منهم، وهذا واضح، وعلم أن

(١) «الإيضاح في شرح المفصل» لابن الحاجب (٢: ٢٣-٢٤).

(٢) تحرف في (ف) إلى: «جحوداً».

(٣) أي: في تصوّره في الذهن أو وجوده في الواقع.

الإسلام لا يَسْقُطُ عنهم بِالْقِتَالِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ دَلِيلٍ آخَرَ، وَإِنَّمَا أَنْ لَا يَكُونَ «بِئْسَلِيمُونَ» فِي مَعْنَى الْأَمْرِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى الْإِخْبَارَ بِأَنَّ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ لَا يَنْفَكُ عَنِ الْوُجُودِ، وَهُوَ إِمَّا وَجُوبُ الْقِتَالِ مِنْكُمْ، أَوْ حُضُورُ الْإِسْلَامِ مِنْهُمْ»^(١).

قلت: أما قوله: «أَنْ يَكُونَ جُمْلَةً مُسْتَقِلَّةً مَعْطُوفَةً عَلَى الْجُمْلَةِ قَبْلَهَا بِاعْتِبَارِ الْجُمْلَةِ لَا بِاعْتِبَارِ الْأَفْرَادِ»، فمعناه: أَنْ قَوْلَهُ: «نَقْتَلِيهِمْ» مَجْرُورٌ الْمَحَلِّ صِفَةً لـ «قَوْمٍ»، فَإِذَا عُطِفَ «أَوْ بِئْسَلِيمُونَ» عَلَيْهِ بِاعْتِبَارِ الْأَفْرَادِ، كَانَ حُكْمُهُمَا سُوءًا، وَأَمَّا إِذَا عُطِفَ لَا مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ، بَلْ بِالنَّظَرِ [إِلَى] ^(٢) أَنَّهَا جُمْلَةٌ كَانَتْ مُسْتَقِلَّةً.

وَيُؤَيِّدُهُ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ جَنِّي فِي «الْمُحْتَسِبِ»، قَالَ: «أَمَّا قِرَاءَةُ الْعَامَةِ بِالنَّصْبِ: «وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ» [الرحمن: ٧] فمَعْطُوفٌ عَلَى «سَجَدَانِ» [الرحمن: ٦] وَحَدَّهَا، وَهِيَ جُمْلَةٌ مِنْ فِعْلٍ وَفَاعِلٍ، وَالْعَطْفُ يَقْتَضِي التَّمَاثُلَ فِي تَرْكِيبِ الْجُمْلِ، فَالْتَقْدِيرُ: وَرَفَعَ السَّمَاءَ، فَلَمَّا أَضْمَرَ «رَفَعَ»، فَسَرَّهُ بِقَوْلِهِ: «رَفَعَهَا»، كَقَوْلِكَ: قَامَ زَيْدٌ وَعَمْرَأُ ضَرَبْتَهُ، أَي: وَضَرَبْتُ عَمْرَأً، لَتُعْطَفَ جُمْلَةٌ مِنْ فِعْلٍ وَفَاعِلٍ، عَلَى أُخْرَى مِثْلِهَا.

وَفِي نَصْبِ «السَّمَاءِ» عَلَى الْقِرَاءَةِ الْعَامَةِ رَدًّا عَلَى أَبِي الْحَسَنِ ^(٣) فِي امْتِنَاعِهِ أَنْ يَقُولَ: زَيْدٌ ضَرَبْتَهُ وَعَمْرَأُ كَلَّمْتُهُ، عَلَى تَقْدِيرِ: وَكَلَّمْتُ عَمْرَأً، عَطْفًا عَلَى: ضَرَبْتَهُ، لِأَنَّ قَوْلَكَ: «ضَرَبْتَهُ» جُمْلَةٌ ذَاتُ مَوْضِعٍ مِنَ الْإِعْرَابِ، لِيَكُونَ خَيْرًا لِلْمُبْتَدَأِ، وَ«كَلَّمْتُ عَمْرَأً» لَا مَوْضِعَ لَهَا مِنَ الْإِعْرَابِ، لِأَنَّهَا لَيْسَتْ خَيْرًا عَنْ «زَيْدٍ»؛ لِخُلُوقِهَا مِنْ ضَمِيرِهِ، فَلَا تُعْطَفُ جُمْلَةٌ غَيْرُ ذَاتِ مَوْضِعٍ عَلَى جُمْلَةٍ ذَاتِ مَوْضِعٍ؛ إِذِ الْعَطْفُ نَظِيرُ التَّنْيِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَنَاسَبَ الْمَعْطُوفُ وَالْمَعْطُوفُ عَلَيْهِ.

(١) «الأمالي النحوية» لابن الحاجب (١: ٢٩-٣٠).

(٢) زيادة مني لتوضيح العبارة.

(٣) يعني: الأخفش.

وهذا ساقطٌ عند^(١) سيبويه، وذلك أن ذلك الموضع من الإعراب لهما لم يخرج إلى اللفظ سقط حكمه، وجرت الجملة ذات الموضع كغيرها من الجملة غير ذات الموضع، كما أن الضمير في اسم الفاعل لهما لم يظهر إلى اللفظ جرى مجرى ما لا ضمير فيه، فقيل في تنيته: قائمان، كما قيل: قرسان ورجلان، بل إذا كان اسم الفاعل قد يظهر ضميره إذا جرى على غير من هو له، ثم أجرى مع ذلك مجرى ما لا ضمير فيه لهما لم يظهر في بعض المواضع، كان ما لا يظهر فيه الإعراب أصلاً أخرى أن يسقط الاعتداء به^(٢). تم كلام ابن جني.

وأما تلخيص الكلام: فهو أن يقال: لا بُدَّ من تأويل ﴿نَقُولُونَهُمْ﴾ بالأمر؛ لِيَسْتَقِيمَ المعنى، ولا نقول: إنه يمتنع الحمل على الإخبار لأجل كلمة «أو» لأنها موضوعة للشك، وهو في حق الله تعالى محال، وكيف نقول به ونحن نعلم يقيناً أن «أو» في الأخبار ليست منحصرة في الشك، لأن لنا «أو» التنويعية، وهي أن تأتي لأحد الأمرين إذا كان المخبر عنه لا ينفك عن أحدهما، نحو: الجسم إما أن يكون ساكناً أو متحركاً، بل نقول: إنها يمتنع الإخبار لأن قوله: ﴿نَقُولُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾ ليس من هذا القبيل؛ لهما نرى أن الوجود ينفك عنها، وهو أن لا تحصل مقاتلة هؤلاء ولا إسلام أولئك، إما بالهدنة أو أن يتركوها سدى.

وإذا ثبت أن ﴿نَقُولُونَهُمْ﴾ في معنى الأمر: فلا يخلو من أن يُحمَلَ ﴿يُسَلِّمُونَ﴾ على الأمر أيضاً أم لا. فالمعنى على الأول: الواجب عليكم إما القتال وإما الإسلام منهم. ويرجع المعنى على الثاني إلى الإخبار بأن أحد الأمرين لا ينفك عنه الوجود؛ إما وجوب القتال منكم أو حصول الإسلام منهم، وإنما يستقيم هذا على الأمر، لأن الأمر للوجوب، وليس الإخبار بحصول وجوب القتال كالإخبار بحصول وقوع القتال.

(١) في الأصول الخطية: «عن»، وهو كذلك في الشئخين الخطيين من «المحتسب»، كما نبه عليه محققاه، وأثبتاه «عند»، وكذا فعلت لأنه أوضح، وإن كان للأول وجه أيضاً.

(٢) «المحتسب» لابن جني (٢: ٣٠٢-٣٠٣).

فظهر بهذا معنى قول المصنف: «يكون أحد الأمرين؛ إما المقاتلة أو الإسلام^(١)»، ولا ثالث لهما.

هذا، والذي يقتضيه المقام ما ذهب إليه صاحب «التخмир»^(٢) حيث قال: «وإذا رفعت هذا الفعل فعلى أن «أو» هي العاطفة، ثم هذه الجملة المعطوفة: إما أن تكون بظاهرها فعلية أو اسمية، وعلى الاسمية تقديره: أو هم يسلمون.

فإن سألت: أليس من شأن العطف المناسبة بين المعطوف والمعطوف عليه؟ أجبت: إذا قلت: الجملة الفعلية اسمية كانت المناسبة أكثر، لأن هذه الجملة حينئذ تخرج إلى باب الكناية، والمعنى: ثقاتلوا نهم أو لا ثقاتلوا نهم لأنهم يسلمون»^(٣).

وقلت: يعني: وُضِعَ «هم يسلمون» موضع «لا ثقاتلوا نهم»؛ لأنهم إذا أسلموا سقط عنهم قتالهم ضرورة، ف«أو» إذن للترديد، لكن على سبيل الاستعارة، والجملتان إخباريتان، وبيان ذلك أن قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرَةٌ مِمَّا كَفَرُوا وَارْجِعُوا إِلَى اللَّهِ وَأُولِي الْأَرْبَابِ إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى سِعْآمِلُكُمْ بَعْدَ هَذِهِ الْعَزْوَةِ بِغَزْوَةِ أُخْرَى مُعَامَلَةً مَن يَخْتَبِرُ أَحْوَالَ مَن هُوَ تَحْتَ قَهْرِهِ وَمَلِكْتِهِ، فَيَأْمُرُهُ بِأَمْرٍ وَيَنْظُرُ: هَلْ يَمْتَثِلُ أَمْرَهُ أَمْ لَا، فَإِنْ أَطَاعَ يُثِيْبُهُ، وَإِلَّا يُعَاقِبُهُ، يَدُلُّ عَلَيْهِ تَرْتُّبُ قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وَرَفَعُ الْجَنَاحَ عَنِ الْمَضْرُوبِينَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرْيِضِ حَرْجٌ﴾، وَالتَّذْيِيلُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية.

(١) من قوله: «ويرجع المعنى على الثاني» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) يعني: صدر الأفاضل الخوارزمي (٥٥٥-٦١٧)، و«التخмир» كتاب في شرح «المفصل» للزنجشري، وقد عرفت به في التعليق على تفسير الآية ٣٢ من سورة الأنفال (٧: ٩٠).

(٣) «التخмир» (٣: ٢٣٢-٢٣٣).

(٤) في الأصول الخطية: «من».

نفى الحرج عن هؤلاء من ذوي العاهات في التخلّف عن الغزو. وقُرئ: «نُدخله» و«نُعذّبه» بالنون.

[«لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَعَانِدَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا» ﴿١٨-١٩﴾]

هي بيعة الرضوان، سُميت بهذه الآية، وقصتها: أن النبي ﷺ حين نزل الحديدية بعث جواس (١) بن أمية الخزاعي رسولاً إلى أهل مكة، فهموا به،

وتحريр المعنى: استدعون إلى قوم ذوي شوكة عظيمة وأصحاب عددٍ وعددٍ لنبلوكم؛ هل تقابلونهم أم لا وتتخلّفون عن داعيكم كما تخلّفتم الآن، والاستدعاء ليس إلا لاختباركم وامثالكم الأمر، وإلا فالقوم يدخلون في الإسلام: إما باستبصارٍ من عند أنفسهم وتفكّر، أو أن يقدر الله غيركم من يقابلهم ليسلموا. وهذه الدقيقة كنى بالجملة الاسمية عن الفعلية - وهي الخبر عن المبتدأ المقدّر - على تقوي الحكم.

فظهر أن الكلام واردٌ على التمثيل، و«أو» الترددية مستعارة هاهنا، كما استعير كلمة التّرجي في قوله: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» ﴿١٨﴾، والله أعلم.

قوله: (وقرئ: «نُدخله» و«نُعذّبه» بالنون): نافع وابن عامر (٢).

قوله: (هي بيعة الرضوان، سُميت بهذه الآية): أي: أنزل الله تعالى في هذه البيعة: «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ» ﴿١٨﴾، فسُميت بها.

الراغب: «الرضوان: الرضا الكثير، ولما كان أعظم الرضا رضا الله خصّ لفظ «الرضوان» في القرآن بما كان من الله تعالى» (٣).

(١) كذا في الأصل، والصواب: «خراش بن أمية»، والقصّة في «مسند أحمد» (١٨٩١٠). وانظر ترجمته في

«أسد الغابة» لابن الأثير (١: ٦٠٢)، و«الإصابة» للمحافظ ابن حجر (٢: ٢٦٩).

(٢) انظر: «التيسير» للداني ص ٢٠١، و«حجة القراءات» ص ٦٧٤.

(٣) «مفردات القرآن» ص ٣٥٦.

فَمَنَعَهُ الْأَحَابِيشَ، فَلَمَّا رَجَعَ دَعَا بَعْمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِيَبْعَثَهُ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُهُمْ عَلَى نَفْسِي، لِمَا عُرِفَ مِنْ عِدَاوَتِي إِيَاهُمْ، وَمَا بِمَكَّةَ عَدَوِيَّ يَمْنَعُنِي، وَلَكِنِّي أَدُلُّكَ عَلَى رَجُلٍ هُوَ أَعَزُّ بِهَا مِنِّي، وَأَحَبُّ إِلَيْهِمْ؛ عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، فَبَعَثَهُ، فَنَجَّرَهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِحَرْبٍ، وَإِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا لِهَذَا الْبَيْتِ مُعْظَمًا لِحُرْمَتِهِ، فَوَقَّفُوهُ، وَقَالُوا: إِنْ شِئْتَ أَنْ تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فَافْعَلْ، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأَطُوفَ قَبْلَ أَنْ يَطُوفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَاحْتِسِبَسَ عِنْدَهُمْ، فَأَرْجِفَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَبْرَحُ حَتَّى تُنَاجِزَ الْقَوْمَ»، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ، فَبَايَعُوهُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، وَكَانَتْ سَمُرَةً، قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: لَوْ كُنْتُ أَبْصِرُ لَأَرَيْتُكُمْ مَكَانَهَا.

وقيل: كان رسول الله ﷺ جالسا في أصل الشجرة، وعلى ظهره غصن من أغصانها، قال عبد الله بن المغفل: وكنت قائما على رأسه وبيني غصن من الشجرة أدب عنه، فرفعت الغصن عن ظهره، فبايعوه على الموت دونه، وعلى أن لا يفتروا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أنتم اليوم خير أهل الأرض».

وكان عدد المبايعين ألفاً وخمسة مئة وخمسة وعشرين، وقيل: ألفاً وأربع مئة،.....

قوله: (الأحابيش): عن بعضهم: واحدها: أحبوش، وهو الفوج^(١) من قبائل شتى، يقال: تحبشوا من كل قبيلة، أي: تجمعوا، فصار لهم سواد لكثرتهم، فشبهاوا بالحبش. قوله: (عثمان بن عفان): يروى مرفوعاً ومفتوحاً؛ فالرفع على أن يكون خبر مبتدأ محذوف، والفتح على أن يكون بدلاً من «رجل».

قوله: (حتى نناجز): الجوهري: المناجزة في الحرب: المبارزة والمقاتلة.

قوله: (وقيل: ألفاً وأربع مئة): هذا هو الصحيح، كما روينا في حديث مسلم^(٢) في البيعة، قال: «كنا أربع عشرة مئة»، وعن البخاري^(٣) في حديث نزع بئر الحديبية.

(١) في (ح): «الجمع».

(٢) في «صحيحه» برقم (١٨٥٦) (٦٩). وهو عند البخاري (٤١٥٤) و(٤٨٤٠) و(٥٦٣٩)، ومسلم (١٨٥٦) من حديث جابر بلفظ: «ألفاً وأربع مئة».

(٣) في «صحيحه» (٤١٥١) من حديث البراء بن عازب.

وقيل: ألفاً وثلاث مئة.

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مِنَ الْإِخْلَاصِ وَصِدْقِ الضَّمَائِرِ فِيمَا بَايَعُوا عَلَيْهِ، ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أَي: الطَّمَأِينَةَ وَالْأَمْنَ بِسَبَبِ الصُّلْحِ عَلَى قُلُوبِهِمْ، ﴿وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، وَقُرئ: «وَأَتَاهُمْ»، وَهُوَ فَتْحُ خَيْبَرَ غَيْبًا انْصَرَفَهُمْ مِنْ مَكَّةَ، وَعَنِ الْحَسَنِ: فَتْحُ هَجْرٍ، وَهُوَ أَجَلُ فَتْحٍ، اتَّسَعُوا بِشَمْرِهَا زَمَانًا، ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ هِيَ مَغَانِمُ خَيْبَرَ، وَكَانَتْ أَرْضًا ذَاتَ عَقَارٍ وَأَمْوَالٍ، فَفَسَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِمُ .

قوله: (وعن الحسن: فَتْحُ هَجْرٍ): وفيه نَظَرٌ؛ لِأَنَّ «هَجْرًا»^(١) عَلَى مَا ذَكَرَهُ صَاحِبُ «النَّهَائِيَّةِ»: «إِمَا قَرْيَةً قَرِيبَةً مِنَ الْمَدِينَةِ الَّتِي مِنْهَا الْقِلَالِ، أَوْ هَجْرُ الْبَحْرَيْنِ»^(٢)، وَلَمْ يَذْكَرْ أَحَدٌ مِنَ الْأَثْمَةِ أَنَّهُ ﷺ غَزَاهَا^(٣)، وَذَكَرَ مُحَمَّدِي السَّنَّةِ: «أَنَّهُ ﷺ لَمَّا رَجَعَ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ أَقَامَ بِالْمَدِينَةِ بَقِيَّةَ ذِي الْحِجَّةِ، وَرَجَعَ بِقِيَّةِ الْمُحَرَّمِ»^(٤) سَنَةَ سَبْعٍ إِلَى خَيْبَرَ»^(٥).

قوله: (هِيَ مَغَانِمُ خَيْبَرَ): الرَّاعِبُ: «الْغَنَمُ: مَعْرُوفٌ، وَالْغَنَمُ: إِصَابَتُهُ وَالظَّفَرُ بِهِ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ فِي كُلِّ مَظْفُورٍ بِهِ مِنْ جِهَةِ الْعِدَا وَغَيْرِهِمْ، وَالْمَغْنَمُ: مَا يُغْنَمُ، وَجَمْعُهُ مَغَانِمٌ»^(٦).

(١) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةُ: «لِأَنَّ هَجْرًا» مِنْ غَيْرِ تَنْوِينٍ، فَأُوْهَمَ أَنَّهَا مَمْنُوعَةٌ مِنَ الصَّرْفِ، وَكَأَنَّهُ لِلْعِلْمِيَّةِ وَوَزْنِ الْفِعْلِ، وَلَكِنْ صَرَّحَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي «النَّهَائِيَّةِ»، مَادَّةَ (هَجْر) عَلَى أَنَّهَا «مُذَكَّرٌ مَصْرُوفٌ».

(٢) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةُ: «بَحْرَيْن».

(٣) تَعَقَّبَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلُوسِيُّ فِي «رُوحِ الْمَعَانِي» (١٠٨: ٢٦) بِأَنَّ «فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» (٣١٥٦) وَ(٣١٥٧) أَنَّهُ ﷺ

«صَالِحٌ أَهْلُ الْبَحْرَيْنِ، وَأَخَذَ الْجَزِيَّةَ مِنْ مَجُوسِ هَجْرٍ»، وَالْفَتْحُ لَا يَسْتَدْعِي سَابِقَةَ الْغَزْوِ، فَسَقَطَ قَوْلُ الطَّبِيِّ

مُعْتَرِضًا عَلَى الْحَسَنِ...، نَعَمْ إِطْلَاقُ «الْفَتْحِ» عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ قَلِيلٌ غَيْرُ شَائِعٍ، بَلْ قِيلَ: هُوَ مَعْنَى مَجَازِيٌّ.

(٤) لَفْظُ الْبَغْوِيِّ: «أَقَامَ بِالْمَدِينَةِ بَقِيَّةَ ذِي الْحِجَّةِ وَبَعْضَ الْمُحَرَّمِ، ثُمَّ خَرَجَ فِي بَقِيَّةِ الْمُحَرَّمِ سَنَةَ سَبْعٍ إِلَى

خَيْبَرَ».

(٥) «مَعَالِمُ التَّنْزِيلِ» لِلْبَغْوِيِّ (٣٠٦: ٧).

(٦) «مَفْرَدَاتُ الْقُرْآنِ» ص ٦١٥.

ثم أتاه عثمان رضي الله عنه بالصلح، فصالحهم، وانصرف بعد أن نحر بالحديبية، وحلق.

[﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةًَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ٢٠]

﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ وهي ما يفيء على المؤمنين إلى يوم القيامة، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ المغانم، يعني: مغانم خيبر، ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ يعني: أيدي أهل خيبر وحلفائهم من أسيد وعطفان حين جاؤوا ليُضرتهم، فقاذ الله في قلوبهم الرعب، فنكصوا. وقيل: أيدي أهل مكة بالصلح، ﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الكفة ﴿آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وعبرة يعرفون بها أنهم من الله بمكان، وأنه ضامن نصرهم والفتح عليهم. وقيل: رأى رسول الله ﷺ فتح مكة في منامه، ورؤيا الأنبياء صلوات الله عليهم وحي، فتأخر ذلك إلى السنة القابلة، فجعل فتح خيبر علامة وعنواناً لفتح مكة، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ويزيدكم بصيرةً و يقيناً، وثقةً بفضل الله.

[﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ ٢١]

﴿وَأُخْرَى﴾ معطوفة على ﴿هَذِهِ﴾، أي: فجعل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ وهي مغانم هوازن في غزوة حنين، وقال: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ لِمَا كان فيها.

قوله: (ثم أتاه عثمان رضي الله عنه بالصلح): عطف على قوله: «فبايعوه تحت الشجرة»، إلى قوله: «فقال لهم رسول الله ﷺ: أنتم اليوم خير أهل الأرض»، لا على قوله: «فقسّمها عليهم»، لأن فتح خيبر كان بعد مرجعه رضي الله عنه من عند مشركي أهل مكة بمدة مديدة.

مِنَ الْجَوْلَةِ، ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي: قَدِرَ عَلَيْهَا وَاسْتَوْلَى، وَأَظْهَرَ كُمْ عَلَيْهَا، وَغَنَّمَ كُمْ هَا.

ويجوز في «أخرى»: النَّصْبُ بِفِعْلِ مُضْمَرٍ، يُفَسِّرُهُ ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾، تَقْدِيرُهُ: وَقَضَى اللَّهُ أُخْرَى قَدْ أَحَاطَ بِهَا، وَأَمَّا ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ فَصِفَةٌ لـ «أخرى»، وَالرَّفْعُ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ؛ لِكَوْنِهَا مَوْصُوفَةً بِـ ﴿لَمْ تَقْدِرُوا﴾، وَ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾: خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ، وَالجَرْ بِإِضْمَارِ «رُبَّ».

فإن قلت: قوله تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٠]، كَيْفَ مَوْقِعُهُ؟ قلت: هو كَلَامٌ مُّعْتَرِضٌ، وَمَعْنَاهُ: وَلِتَكُونَ الْكِفَّةُ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ فَعَلَّ ذَلِكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: وَعَدَّكُمْ الْمَغَانِمَ، فَعَجَّلَ هَذِهِ الْغَنِيمَةَ وَكَفَّ الْأَعْدَاءَ لِيَنْفَعَكُم بِهَا، وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ إِذَا وَجَدُوا وَعَدَّ اللَّهُ بِهَا صَادِقًا، لِأَنَّ صِدْقَ الْإِخْبَارِ عَنِ الْغُيُوبِ مُعْجِزَةٌ وَآيَةٌ، وَيَزِيدُكُمْ بِذَلِكَ هِدَايَةً وَإِيقَانًا.

قوله: (الْجَوْلَةُ): النّهاية: «في حديث الصّدّيق: «إِنَّ لِلْبَاطِلِ نَزْوَةَ، وَلِأَهْلِ الْحَقِّ جَوْلَةٌ»، أَي: غَلْبَةٌ؛ مِنْ: جَالَ فِي الْحَرْبِ عَلَى قَرْبِهِ يَجُولُ»، وَعَنْ بَعْضِهِمْ: وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ هَزِيمَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَأَحْسَنَ فِي الْعِبَارَةِ عَنْهَا عَلَى عَادَةِ الْمُتْرَسِّلِينَ، وَقِيلَ: الْجَوْلَةُ: هِيَ الْهَزِيمَةُ مَعَ الرَّجُوعِ إِلَى الْقِتَالِ، ثُمَّ الْهَزِيمَةُ، ثُمَّ الرَّجُوعُ.

قوله: (وَالجَرْ بِإِضْمَارِ): أَي فِي «أخرى»، وَعَلَى هَذَا ﴿لَمْ تَقْدِرُوا﴾ صِفَةٌ، وَ﴿قَدْ أَحَاطَ﴾ جَوَابُ «رُبَّ».

قوله: (وَلِتَكُونَ الْكِفَّةُ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ): عَنْ بَعْضِهِمْ: فَإِنْ قِيلَ: مَا وَجَّهَ الْمِتَّةَ فِي كَفِّ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْكَافِرِينَ؟ قلت: وَجَّهَهُ مَا بَعْدَهُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ﴾ [الفتح: ٢٥]. الْآيَةُ.

قوله: (ويجوز أن يكون المعنى: وَعَدَّكُمْ): فَعَلَى هَذَا: ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ عَطَفَ عَلَى عِلَّةٍ أُخْرَى مَحذُوفَةٍ، وَعَلَى أَنْ تَكُونَ مُعْتَرِضَةً: الْمُعَلَّلُ مَحذُوفٌ.

[﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا الْأَذْبَرُثَمَّ لَا يَجِدُونَ وِلْيَاءًا وَلَا نَصِيرًا﴾ * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدَّخَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدَلَ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [٢٢-٢٣]

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة ولم يُصالحوا، وقيل: من حلفاء أهل خيبر لغلبوا وانهمزوا، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ في موضع المصدر المؤكّد، أي: سنّ الله غلبه أنبيائه سنّة، وهو قوله: ﴿لَاغْلِبَ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١].

[﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [٢٤]

﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ أيدي أهل مكة، أي: قضى بينهم وبينكم المكافاة والمُحاجزة بعدما خوّلكم الظفر عليهم والغلبة، وذلك يوم الفتح، وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله على أنّ مكة فتحت عنوة لا صلحاً، وقيل: كان ذلك في غزوة الحديبية؛ لما روي: أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمس مئة، فبعث رسول الله ﷺ من هزمه وأدخله حيطان مكة. وعن ابن عباس: أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت.

وَقُرِي: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء والياء.

قوله: (وبه استشهد أبو حنيفة رضي الله عنه [على] أنّ مكة فتحت عنوة لا صلحاً): هذا يُخالِفُ تفسيرَ المُصنّفِ لقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ [الفتح: ١]: «الفتح: الظفرُ بالبلدِ عنوةً أو صلحاً، بحزبٍ أو بغيرِ حَزْبٍ»^(١).

قوله: (وَقُرِي: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء والياء): أبو عمرو: بالياء التحتانية^(٢).

(١) لم يظهر لي فيه أيُّ مخالفة، فاستشهد أبو حنيفة رضي الله عنه بكفّ الأيدي، وكلام الزمخشري في أول السورة في الفتح، ولا تنافي بينهما، والله أعلم.

(٢) انظر: «التيسير» للداني ص ٢٠١، و«حجة القراءات» ص ٥٧٠.

[هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ
وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمَّا تَعَلَّمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُم مَّعْرَةٌ بَعِيرٌ عَلِيمٌ
لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾]

وَقُرِّي: ﴿وَالْهَدْيَ﴾ و«الهدْي» بتخفيف الياء وتشديدها، وهو ما يهدي إلى الكعبة، بالنَّصْب عَطْفًا عَلَى الضمير المنصوب في ﴿صَدُّوكُمْ﴾، أي: صَدُّوكُمْ وَصَدُّوا الْهَدْيَ، وَبِالْجُرْ عَطْفًا عَلَى ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، بِمَعْنَى: وَصَدُّوكُمْ عَنِ نَحْرِ الْهَدْيِ، ﴿مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ﴾ محبوساً عن ﴿أَنْ يَبْلُغَ﴾، وَبِالرَّفْعِ عَلَى: وَصَدَّ الْهَدْيَ.

و﴿مَحَلَّهُ﴾: مَكَانَهُ الَّذِي يَحِلُّ فِيهِ نَحْرُهُ، أَي: يَجِبُ، وَهَذَا دَلِيلٌ لِأَبِي حَنِيفَةَ عَلَى أَنَّ الْمُحْضَرَ مَحَلُّ هَدْيِهِ الْحَرَمِ. فَإِنْ قُلْتَ: فَكَيْفَ حَلَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ، وَإِنَّا نَحْرَ هَدْيِهِمْ بِالْحَدْيِيَّةِ؟ قُلْتَ: بَعْضُ الْحَدْيِيَّةِ مِنَ الْحَرَمِ، وَرُوي: أَنَّ مَضَارِبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَتْ فِي الْحِلِّ، وَمُصَلَّاهُ فِي الْحَرَمِ. فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَنْ قَدْ نَحَرَ فِي الْحَرَمِ، فَلِمَ قِيلَ: ﴿مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ﴾؟ قُلْتَ: الْمُرَادُ: الْمَحَلُّ الْمَعْهُودُ، وَهُوَ مَنَى.

قوله: (يَحِلُّ فِيهِ نَحْرُهُ، أَي: يَجِبُ): «يَجِبُ»: مِنَ الْوُقُوعِ، لَا مِنَ الْوُجُوبِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا وَجَعَتْ جُنُوبَهَا﴾ [الحج: ٣٦]، رُويَ عَنِ الْمُصَنَّفِ: «مَحَلُّ الْهَدْيِ: مَكَانُ حُلُولِهِ، أَي: وَجُوبِهِ وَوُقُوعِهِ، وَمَحَلُّ الدَّيْنِ: وَقْتُ حُلُولِهِ، أَي: وَجُوبِهِ وَوُقُوعِهِ».

قوله: (فَكَيْفَ حَلَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ): هَذَا السُّؤَالُ وَرَادُّ عَلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَحَلُّ الْهَدْيِ حَيْثُ أُحْضِرَ، وَقَدْ مَرَّ تَحْقِيقُهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ (١).

قوله: (مَضَارِبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ): الْمَغْرِبُ: «ضَرَبَ الْخِيْمَةَ، وَهُوَ الْمَضْرِبُ لِلْقَبَةِ، بَفَتْحِ الْمِيمِ وَكَسْرِ الرَّاءِ، وَمِنْهُ: كَانَتْ مَضَارِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْحِلِّ، وَمُصَلَّاهُ فِي الْحَرَمِ (٢)».

(١) فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ١٩٦ مِنْهَا (٣: ٢٨٠).

(٢) أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» (١٨٩١٠) عَنِ الْمُسَوِّرِ بْنِ مَحْرَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدِيثًا طَوِيلًا فِي قِصَّةِ الْحَدْيِيَّةِ، وَفِيهِ: «وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي فِي الْحَرَمِ، وَهُوَ مُضْطَرِبٌ فِي الْحِلِّ».

﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ صفة للرجال والنساء جميعاً، و﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ بدّل اشتمالٍ منهم أو من الضمير المنصوب في ﴿تَعْلَمُوهُمْ﴾، والمعرة: مفعلة؛ من: عَرَّه: بمعنى: عراه، إذا دهاه ما يكرهه وَيَشُقُّ عليه. و﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾،

قوله: (من: عَرَّه، بمعنى: عراه؛ إذا دهاه ما يكرهه): الراغب: «المُعْتَرَّ: المُعْتَرَضُ للسؤال، يقال: عَرَّه واعتَرَّه، وعَرَّرت بك حاجتي، والعَرَّ والعُرُّ: الجربُ الذي يُعِرُّ البدنَ، ومنه قيل للمُضَرَّة: مَعَرَّة؛ تشبيهاً بالعَرِّ الذي هو الجرب»^(١).

قوله: (و﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾): فيكون حالاً من الضمير المرفوع في ﴿تَطَّوَّهُمْ﴾، أو المنصوب، وتقديره: أَنْ تَطَّوُّوهُمْ غيرَ عالِمينَ بهم، قال أبو البقاء: «هو حال من الضمير المجرور - أي: في ﴿مَنْهُمْ﴾ - أو صفة لـ﴿مَعَرَّةً﴾»^(٢).

والمعنى على قول المصنّف: لولا رجالٌ مؤمنون صفتهم أنكم غيرُ عالِمينَ بوطئهم غيرَ عالِمينَ بهم، قال الإمام: «يلزم على قوله التكرير، فالأولى أن يقال: إن قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يكون في موضعه، المعنى: ﴿فَتُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: إن وطئتموهم غيرَ عالِمينَ لِمَنْتُمْ سُبَّةُ الكُفَّارِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، أي: بِجَهْلٍ، لا يعلمون أنكم معذرون فيه، أو فَتُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ غيرُ معلومة، وهي ما يحصل من القتلِ الخطأ، ومن حُصُولِ الأذى على البريء»^(٣).

وقلت: يُمكن أن يقال: لا يلزم التكرار؛ لأنَّ السُّمَرَادَ أنه مُتَعَلِّقٌ بما دلَّ عليه ﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾، والمعنى: لولا رجالٌ مؤمنون، ومن صفتكم أنكم غيرُ عالِمينَ بوطئهم، فَتَطَّوُّوهُمْ وأنتم غيرُ عالِمينَ بهم، فيكون ذلك سبباً لأن تُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ المَعَرَّةُ، وهي ما قال: «يُصِيبُهُمْ وجوبُ الدِّيَةِ والكُفَّارَةِ، وسوءُ قالةِ المُشركين».

(١) «مفردات القرآن» ص ٥٥٦.

(٢) «التيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٦٧).

(٣) «مفاتيح الغيب» للرازي (٢٨: ٨٢-٨٣).

يعني: أن تطؤوهم غير عالمين بهم، والوطء والدؤس: عبارة عن الإيقاع والإبادة، قال:

وَوَطِئْنَا وَطَاءً عَلَى حَنْقٍ وَطَاءَ الْمُقَيْدِ نَابِتِ الْهَرَمِ

وقال رسول الله ﷺ: «وإنَّ آخِرَ وَطَاءٍ وَطِئَهَا اللَّهُ بَوَجٍّ»، والمعنى: أنه كان بمكة قومٌ من المسلمينٍ مُتَخَلِّطُونَ بِالْمُشْرِكِينَ غَيْرُ مُتَمَيِّزِينَ مِنْهُمْ،

قوله: (وَوَطِئْنَا وَطَاءً عَلَى حَنْقٍ)^(١): «الحَنْقُ»: الحقدُ الشديد، و«المُقَيْدُ»: البعيرُ الذي عليه القيد، وخصه لأنَّ وَطِئْتَهُ أَنْقَلْ، كما خصَّ الحنقَ لأنَّ إِبْقَاءَهُ أَقْلٌ، وخصَّ «نابتَ الهرمِ»^(٢) لأنَّ هَشْمَهُ أَسْهَلُ. الأساس: «يُقَالُ: أَذَلُّ مِنْ الْهَرْمَةِ؛ وَاحِدَةُ الْهَرَمِ، وَهُوَ يَبْيَسُ الشُّبْرُقَ أَذَلُّ الْحَمَضِ»، وأنشد البيت، يقول: أنثرت فينا تأثيرَ الحنقِ الغضبان، كما يؤثِّرُ البعيرُ المُقَيْدُ إِذَا وَطِئَ هَذَا النَّبْتُ^(٣).

قوله: (وإنَّ آخِرَ وَطَاءٍ وَطِئَهَا اللَّهُ بَوَجٍّ): النهاية: «المعنى: أنَّ آخِرَ أَخَذَةٍ أَوْ وَقَعَةٍ أَوْقَعَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِالْكَفَّارِ كَانَتْ بَوَجٍّ، وَكَانَتْ غَزْوَةُ الطَّائِفِ آخِرَ غَزَوَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغْزُ بَعْدَهَا إِلَّا غَزْوَةَ تَبُوكَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا قِتَالٌ».

الراغب: «وَطِئَ الشَّيْءُ فَهُوَ وَطِئٌ بَيْنَ الْوَطَاءِ وَالطَّئَةِ وَالطَّاءِ، وَوَطِئْتُهُ بَرَجَلِي أَطُوهُ وَطَاءً وَوَطَاءَةً، وَفِي الْحَدِيثِ: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَاتِكَ عَلَى مُضَرٍّ»^(٤)، أَي: ذَلَّلْهُمْ^(٥)، وَوَطِئَ

(١) البيت للحارث بن وعلة الذهلي، كما في «الحماسة» لأبي تمام ص ٣٦.

(٢) الهرم: واحده هرمه، وهي نبتة تأكلها الإبل، ويقال: هي البقلة الحمقاء، ويقال: هو شجر أيضاً. لسان العرب لابن منظور، مادة (هرم).

(٣) شرح البيت بمعناه للمرزوقي في «شرح ديوان الحماسة» (١: ١٥١).

(٤) أخرجه البخاري (٨٠٤) و(١٠٠٦) و(٢٩٣٢) و(٣٣٨٦) و(٤٥٦٠) و(٤٥٩٨) و(٦٢٠٠) و(٦٣٩٣)

و(٦٩٤٠)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) في الأصول الخطية: «ذللهم»، والمثبت من «مفردات القرآن» للراغب.

ولا معروفي الأماكن، فقيل: ولولا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين ظهرائي المشركين، وأنتم غير عارفين بهم، فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة، كما كف أيديكم عنهم. وحذف جواب «لولا» لدلالة الكلام عليه، ويجوز أن يكون ﴿لَوْتَزَيْلُوا﴾ كالتكرير لـ «لولا رجال مؤمنون»؛ لمرجعيهما إلى معنى واحد، ويكون ﴿لَعَذَّبْنَا﴾ هو الجواب.

امراته: كناية عن الجماع، وصار كالصريح للعرف فيه، والمواطأة: الموافقة، وأصله: أن يطأ الرجل برجله موطئ صاحبه^(١).

قوله: (ويجوز أن يكون ﴿لَوْتَزَيْلُوا﴾ كالتكرير لـ «لولا رجال مؤمنون»): يعني: تلخيص المعنى الأول: أن هناك قوماً محتلطين بالمشركين غير متميزين منهم، وهو ضد «تزيلوا»، لأن معناه: حصل التمييز وتفرق المانع، و«لولا»: لامتناع الشيء لوجود غيره، و«لو» لامتناع الشيء لامتناع غيره، فيكون مقتضى جوابهما واحداً، فكان تكريراً.

الانتصاف: «إنما كان مرجعهما هاهنا واحداً، وإن كانت «لولا» تدل على الامتناع لوجود غيره، و«لو» تدل على الامتناع للامتناع؛ لأن «لولا»^(٢) دخلت هاهنا على وجود معناه العدم، إذ التزيل معناه المفارقة، فصار ثبوتاً، وكان جدي يختار الوجه الثاني، ويجعله تطرئة لطول الكلام»^(٣).

وقلت: ولعل المختار الأول؛ لأنه حينئذ يقرب من باب الطرد والعكس^(٤)، لأن التقدير: لولا وجود رجال مؤمنين محتلطين بالمشركين غير متميزين منهم لوقع ما كان جزاء لكفرهم وصددهم، ولو حصل التمييز وارتفع الاختلاط لحصل التعذيب.

(١) «مفردات القرآن» ص ٨٧٤-٨٧٥.

(٢) في الأصول الخطية: «لو»، وهو خطأ جزماً، والمثبت من «الانتصاف».

(٣) «الانتصاف» (٣: ٥٤٨) بحاشية «الكشاف».

(٤) تقدم بيان معنى الطرد والعكس عند تفسير الآية ٢٥ من سورة يونس (٧: ٧٠) تعليقا.

فإن قلت: أي معرّة تُصيّبهم إذا قتلوهم وهم لا يعلمون؟ قلت: يُصيّبهم وجوبُ الدية والكفارة، وسوءُ قالة المشركين أنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز، والمآثم إذا جرى منهم بعض التقصير.

فإن قلت: قوله تعالى: ﴿لِيَدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ تعليلٌ لماذا؟ قلت: لِمَا دَلَّتْ عليه الآيةُ وسيقت له؛ من كف الأيدي عن أهل مكة، والمنع من قتلهم، صنواً لمن بين أظهرهم من المؤمنين، كأنه قال: كان الكفُ ومنع التعذيب ليدخل الله في رحمته، أي: في توفيقه لزيادة الخير والطاعة مؤمنهم، أو: ليدخل في الإسلام من رغب فيه من مشركيهم، ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ لو تفرقوا وتميّز بعضهم من بعض؛ من زاله يزيله. وقرئ: ﴿لَوْ تَزَايَلُوا﴾.

وقال الإمام: «يحتمل أن يقال: جوابه ما دل عليه قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ﴾، يعني: استحققوا لأن لا يهملوا، ولولا رجال مؤمنون لوقع ما استحققوه، كما يقول القائل: هو سارق، ولولا فلان لقطعت يده»^(١).

قوله: (لِمَا دَلَّتْ عليه الآيةُ وسيقت له): يعني: هو تعليلٌ للمجموع، قال الإمام: «والمعنى: فعل ما فعل ليدخل، لأن هناك أفعالاً من الألفاظ والهداية وغيرهما، لا يقال: إنك ذكرت أن المانع للوطء وجود^(٢) رجال مؤمنين، كأنه قيل: كف أيديكم لئلا تطؤوا، فكيف يكون لشيء آخر؟ لأننا نقول: المعنى: كف أيديكم لئلا تطؤوا ليدخلوا، كما يقال: أطعمته ليشبع ليعفر الله لي»^(٣).

قوله: (أو: ليدخل في الإسلام): يعني: إذا قيّد ﴿مَن يَشَاءُ﴾ بالمؤمنين، فالمناسب أن

(١) «مفاتيح الغيب» للرازي (٢٨: ٨٣).

(٢) في (ج) و(ف): «ذكرت المانع للوطء لوجود»، والمثبت من (ط).

(٣) «مفاتيح الغيب» للرازي (٢٨: ٨٣).

[إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ اللَّعِينَةَ حِمِيَّةَ الْجَنَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَةً عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾]

﴿إِذْ﴾ يجوزُ أن يَعْمَلَ فيه ما قبله، أي: لَعَدَّ بَنَاهُمْ، أو صَدَّوْهُمْ عن المَسْجِدِ الحِرامِ في ذلكَ الوقتِ، وأن يَنْتَصِبَ بإضمار: اذْكَرُ.

والمُرَادُ بـ«حِمِيَّةِ الَّذِينَ كَفَرُوا» و«سَكِينَةِ الْمُؤْمِنِينَ» - والحِمِيَّةُ: الأَنْفَعَةُ، والسَّكِينَةُ: الوَقَارُ -: ما رُوِيَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا نَزَلَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ، بَعَثَتْ قُرَيْشٌ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو القُرَشِيَّ، وَحُوَيْطَبَ بْنَ عَبْدِ الْعُزْرِيِّ، وَمُكْرَزَ بْنَ حَفْصِ بْنِ الْأَخِيْفِ، عَلَى أَنْ يَعْرِضُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَرْجِعَ مِنْ عَامِهِ ذَلِكَ، عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ لَهُ قُرَيْشٌ مَكَّةَ مِنَ الْعَامِ الْقَابِلِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، ففَعَلَ ذَلِكَ، وَكُتِبُوا بَيْنَهُمْ كِتَابًا، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اكتُب: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»،

تُفَسَّرُ «الرَّحْمَةُ» بِالتَّوْفِيقِ، فَتَكُونُ مُرَاعَاةَ جَانِبِ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ سَبَبًا لِمَزِيدِ التَّوْفِيقِ وَالْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ، وَإِذَا قِيَّدَ بِالْمُشْرِكِينَ، فَالْوَجْهُ أَنْ تُفَسَّرَ «الرَّحْمَةُ» بِالِإِسْلَامِ، لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ إِذَا شَاهَدُوا مُرَاعَاةَ الْمُسْلِمِينَ وَرَحْمَةَ اللَّهِ فِي شَأْنِ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَأَنْ مَنَعَ مِنْ تَعْذِيبِ أَعْدَاءِ الدِّينِ بَعْدَ الظَّفَرِ بِهِمْ، لِأَجْلِ اخْتِلَاطِهِمْ بِهِمْ، رَغِبُوا فِي مِثْلِ هَذَا الدِّينِ وَالانخِرَاطِ فِي زُمْرَةِ المَرْحُومِينَ.

قوله: (أو صَلَّوْهُمْ): عن بعضهم: الصواب: أو صَدَّوْكُمْ، بل الأَوَّلَى ذلك؛ لأنَّ له وَجْهًا، أي: صَدَّ الْمُشْرِكُونَ الْمُسْلِمِينَ إِذْ جَعَلَ.

قوله: (لَمَّا نَزَلَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ، بَعَثَتْ قُرَيْشٌ) الحديثُ إلى آخِرِهِ: قد ذَكَرَهُ الأئِمَّةُ فِي أَحَادِيثَ شَتَّى بِرَوَايَاتٍ مُتَّخِلِفَةٍ، وَمَضَى شَيْءٌ مِنْهُ فِي هَذَا الكِتَابِ.

فقال سَهِيلٌ وأصحابه: ما نَعْرِفُ هذا، وَلَكِنْ اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، ثم قال: «اكتب: هذا ما صالح عليه رسول الله ﷺ أهل مكة»، فقالوا: لو كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ما صَدَدْنَاكَ عن البيت، ولا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ: هذا ما صالح عليه مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَهْلَ مَكَّةَ، فقال عليه السَّلَامُ: «اكتب ما يُرِيدُونَ، فأنا أَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ»، فَهَمَّ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَأْبَوْا ذَلِكَ، وَيَشْمِزُّوا مِنْهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ السَّكِينَةَ، فَتَوَقَّروا وَحَلُمُوا.

و﴿كَلِمَةُ التَّقْوَى﴾: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» و«مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»، قد اختارها اللَّهُ لِنَبِيِّهِ وَلِلَّذِينَ مَعَهُ؛ أَهْلِ الْخَيْرِ وَمُسْتَحَقِّيهِ وَمَنْ هُمْ أَوْلَى بِالْهُدَايَةِ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَقِيلَ: هِيَ كَلِمَةُ الشَّهَادَةِ، وَعَنْ الْحَسَنِ: كَلِمَةُ التَّقْوَى: هِيَ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ، وَمَعْنَى إِضَافَتِهَا إِلَى التَّقْوَى: أَنَّهَا سَبَبُ التَّقْوَى وَأَسَاسُهَا، وَقِيلَ: كَلِمَةُ أَهْلِ التَّقْوَى. وَفِي مُصْحَفِ الْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ صَاحِبِ عَبْدِ اللَّهِ: «وَكَانُوا أَهْلَهَا وَأَحَقَّ بِهَا»، وَهُوَ الَّذِي دَفَنَ مُصْحَفَهُ أَيَّامَ الْحِجَابِ.

قوله: (فأنا أشهد): قيل: معناه: المعجزة على يدي بعد الدعوى، كما أن شهادة الله إظهار المعجزة على يد النبي، أو نقول: فإذا ثبتت نبوته بالمعجزة إذا قال: أنا نبي، كان كالتوكيد والتقرير لذلك. وقلت: المعنى: أنا نبي ثابت النبوة بالمعجزة، وثابت الرسالة بإنزال الكتاب عليّ، سواء شهدوا أو لم يشهدوا.

قوله: (و﴿كَلِمَةُ التَّقْوَى﴾: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»): روى الترمذي^(١) عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ: «﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾»، قال: لا إله إلا الله^(٢).

قوله: (الحارث بن سويد): قال صاحب «جامع الأصول»: «هو من كبار تابعي الكوفة وثقاتهم، وقد سئل أحمد بن حنبل عنه، قال: مثل هذا يسأل عنه؟! يعني: لجلالة قدره وعلو منزلته، وروى عن ابن مسعود، مات في آخر أيام عبد الله بن الزبير^(٣)».

(١) في «جامعه» برقم (٣٢٦٥).

(٢) من قوله: (وقلت: المعنى أنا نبي) إلى هنا، سقط من (ط).

(٣) «جامع الأصول» لابن الأثير (١٢: ٣٠٠).

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [٢٧]

رأى رسول الله ﷺ قبل خروجه إلى الحديبية: كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمينين، وقد حلقوا وقصروا، فقص الرؤيا على أصحابه، ففرحوا واستبشروا، وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم، وقالوا: إن رؤيا رسول الله ﷺ حق، فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبي عبد الله بن نقييل ورفاعة بن الحارث: والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام، فنزلت.

ومعنى: ﴿صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾: صدقه في رؤياه ولم يكذبه، تعالى الله عن الكذب وعن كل قبيح علواً كبيراً، فحذف الجار وأوصل الفعل، كقوله: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

قوله: (ومعنى: ﴿صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾: صدقه في رؤياه ولم يكذبه): الراجب: «الصدق والكذب: أصلهما في القول، ماضياً كان أو مستقبلاً، وعداً أو غيره، ولا يكونان بالقصد الأول إلا في القول، ولا يكونان في القول إلا في الخبر، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، وقال: ﴿إِنَّكَ كَانِ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤]، وقد^(١) يكونان بالعرض في غير الخبر، كالاستفهام والأمر والدعاء، نحو قولك: «أزيد في الدار؟» فإن في ضمنه إخباراً بكونه جاهلاً بحال زيد، وقولك: «لا تؤذني» مضمّن لمعنى أنه يؤذيك، وقولك: «واسني» مضمّن لمعنى^(٢): أنك محتاج إلى المواساة.

والصدق: مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معاً، وإلا لم يكن صدقاً تاماً، بل إما

(١) من قوله: «يكونان في القول إلا في الخبر» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) من قوله: «أنه يؤذيك» إلى هنا، سقط من (ح).

أن لا يُوصَفَ بالصدِّق، أو يُوصَفَ تارةً بالصدِّق وتارةً بالكذب، على نظريَّين مُحْتَلِفَيْن، كقولِ كافرٍ غيرِ مُعتَقِدٍ: «مُحمَّدٌ رسولُ الله»، فصدِّقُه لِكُونِ^(١) المُخبِرِ عنه كذلك، وكذبُه لمُخَالَفَةِ الضميرِ.

وقد يُستعمَلانِ في كُلِّ ما يَحِقُّ وَيَحْصُلُ في الاعتقادِ، نَحْو: صدَّقَ ظنِّي وكذَّبَ، ويُستعمَلانِ في فعلِ الجوارحِ، نَحْو: صدَّقَ في القتالِ - إذا وقَّ حَقُّه وفعلَ ما يجبُ - وكذَّبَ في القتالِ، قال تعالى: ﴿رِجَالٌ صدَّقُوا ما عَاهَدُوا اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، أي: حَقَّقُوا العَهْدَ.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَتِ الْصدِّيقِينَ عَنْ صدِّيقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨]: أي: يَسألُ مَنْ صدَّقَ بِلِسَانِهِ عن صدِّيقِ فِعْلِهِ؛ تَنبِيهاً أَنه لا يَكفي الاعترافُ بِالْحَقِّ دونَ تَحَرِّيهِ بِالْفِعْلِ، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ صدَّقَ اللهُ رَسولَهُ الرُّءُيا﴾: هذا صدِّقُ بِالْفِعْلِ، وهو التحقيقُ، أي: حَقَّقَ رؤْيَتَهُ، وعليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر: ٣٣]: أي: حَقَّقَ ما أورَدَه قَوْلًا بِها تَحَرَّاهُ فِعْلاً.

ويعبَّرُ عن كُلِّ فِعْلِ فاضلٍ ظاهراً وباطناً بالصدِّق، فيُضافُ إليه ذلكَ الفِعْلُ، كقوله تعالى: ﴿في مَقْعَدِ صدِّيقِ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْنَدٍ﴾ [القمر: ٥٥]، وعلى هذا: ﴿أَنَّ لَهُمُ قَدَمَ صدِّيقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]، وقوله: ﴿أَدْخَلَنِي مُدْخَلَ صدِّيقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠]، ﴿وَأَجْعَلْ لي لِسَانَ صدِّيقٍ في الآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، فَإِنَّ ذلكَ سِؤالٌ أن يَجْعَلَهُ اللهُ صالحاً، بحيثُ إذا أثنى عليه مَنْ بعده، لم يَكُنْ ذلكَ الشَّئُ كذباً، كما قال:

إذا نحنُ أثنينا عليكِ بِصالحٍ فأنْتَ كما تُثني وفوقَ الذي تُثني^(٢).

(١) تحرّف في (ح) و(ف) إلى: «يكون»، والمثبت من (ط) ومن «مفردات القرآن» للراغب، مادة (صدق).

(٢) البيت لأبي نؤاس، كما في «ديوانه» ص ٥، وبه ينتهي كلامُ الراغب الأصبهاني. وهو في: «مفردات القرآن»

فإن قلت: بِمَ تَعَلَّقَ ﴿بِالْحَقِّ﴾؟ قلت: إما بـ ﴿صَدَقَ﴾، أي: صَدَقَهُ فيما رأى، وفي كَوْنِهِ وَحُصُولِهِ صِدْقاً مُلْتَبِساً بِالْحَقِّ، أي: بِالغَرَضِ الصَّحِيحِ وَالْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، وذلك ما فيه مِنَ الْإِبْتِلَاءِ وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ الْمُخْلِصِ، وَبَيْنَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ. وَيَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِـ ﴿الرُّؤْيَا﴾ حالاً منها، أي: صَدَقَهُ الرُّؤْيَا مُلْتَبِساً بِالْحَقِّ، عَلَى مَعْنَى: أَنَّهُمَا لَمْ تَكُنْ مِنْ أَضْغَاثِ الْأَحْلَامِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿بِالْحَقِّ﴾ قَسْماً؛ إِمَّا بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ نَقِيضُ الْبَاطِلِ، أَوْ بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ مِنْ أَسْمَائِهِ، وَ﴿لَتَدْخُلَنَّ﴾: جَوَابُهُ، وَعَلَى الْأُولَى: هُوَ جَوَابُ قَسَمٍ مَحذُوفٍ.

فإن قلت: مَا وَجْهُ دُخُولِ ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ فِي أَخْبَارِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قلت: فِيهِ وَجْهٌ: أَنْ يُعَلَّقَ عِدَّتَهُ بِالْمَشِيئَةِ تَعْلِيماً لِعِبَادِهِ أَنْ يَقُولُوا فِي عِدَاتِهِمْ مِثْلَ ذَلِكَ، مُتَأَدِّبِينَ بِأَدَبِ اللَّهِ، وَمُقْتَدِرِينَ بِسُنَّتِهِ، وَأَنْ يُرِيدَ: لَتَدْخُلَنَّ جَمِيعاً إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَلَمْ يُمِثْ مِنْكُمْ أَحَدٌ، أَوْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى لِسَانِ مَلَكٍ، فَادْخَلَ الْمَلَكُ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، أَوْ هِيَ حِكَايَةٌ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ، وَقَصَّ عَلَيْهِمْ. وَقِيلَ: هُوَ مُتَعَلَّقٌ بِـ ﴿ءَامِنِينَ﴾.

قوله: (فيه وجوه): تلخيصها: أن قوله: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾: إما من كلام الله عزَّ وجلَّ، أو من كلام الملك عليه السلام، أو الرسول ﷺ.

وعلى أن يكون من كلام الله تعالى فهو: إما مُتَعَلَّقٌ بِـ ﴿لَتَدْخُلَنَّ﴾ أو بِـ ﴿ءَامِنِينَ﴾، وإذا كان الأولُ فإيراده: إما للتعليم أو للتبرُّك، وإما أن المراد: لَتَدْخُلَنَّ جميعاً، وإذا تعلق بِـ ﴿ءَامِنِينَ﴾ كان المعنى ما ذكره في قوله: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]: «أَسْلِمُوا وَأَمِنُوا فِي دُخُولِكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَالتَّقْدِيرُ: ادْخُلُوا مِصْرَ آمِنِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ دَخَلْتُمْ». وَعَلَى أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ الْمَلَكِ: فَإِنَّ لِمَا أَلْفَى كَلَامَ اللَّهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَلْفَى هَذِهِ الْكَلِمَةَ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ تَبَرُّكاً.

وعلى أن يكون من كلام الرسول ﷺ لأصحابه: فإنه صلوات الله عليه لَمَّا قَصَّ الرُّؤْيَا عَلَى أَصْحَابِهِ أَنْتَى بِتَأْوِيلِهَا مُؤَكِّدًا بِالْقَسْمِيَّةِ، لِأَنَّ رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيِي، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ ﴿لَقَدْ

صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرَّبُّ يَا بِالْحَقِّ ﴿ استأنف بقوله: ﴿لَتَدْخُلَنَّ﴾، ليكون جواباً لمن قالَ عند ذلك: فيم صدقه الله؟ فقيل: في قوله: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ مَأْمِنِينَ﴾.

وقد طعنَ صاحبُ «التقريب» في بعض الوجوه على الإجمال.

وقلت: إذا كانَ من كلام الله، ولم يكن تعليماً للعباد، ويراد: لتَدْخُلَنَّ جميعاً إن شاء الله، ولم يمتُ منكم أحد، كان المراد: لتَدْخُلَنَّ جميعاً إن شاء الله ولم يمتُ أحد^(١)، لكنَّ الله تعالى أماتَ بعضَهُم. وفيه بُعد. وإذا كانَ من كلام الملك: فظاهر الرّد^(٢)؛ لأنَّ الزيادةَ من كلام الغير كيف تدخلُ في كلام الله تعالى؟! وأولى الوجوه: أن يكونَ تعليماً للعباد، وتكونَ كلمةً تأديب تُذكرُ في أثناء الكلام تيمناً وتبرُّكاً.

روى الواحديُّ عن أبي العباس أحمد بن يحيى^(٣): «استثنى الله تعالى فيما يعلم؛ ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون، وأمر بذلك في قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]^(٤)، وكذا عن الإمام، وقال أيضاً: «إنَّ ذلكَ لتحقيقِ الدُّخُولِ؛ لأنَّ المؤمنينَ أرادوا الدُّخُولَ، وأبسوا الصُّلْحَ، فقيل: تَدْخُلُونَ، لكن لا بجلا ديتكم ولا بإرادتكم، وإنما تَدْخُلُونَ بمشيئةِ الله وإرادته»^(٥).

وقلت: ويعضدهُ قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾، وتفسيرُ المُصنِّف: «فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا مِنْ الْحِكْمَةِ وَالصَّوَابِ فِي تَأْخِيرِ فَتْحِ مَكَّةَ إِلَى الْعَامِ الْقَابِلِ».

(١) من قوله: «كان المراد: لتَدْخُلَنَّ» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) تحرّف في الأصول الخطية إلى: «الورود»، وهو تحريفٌ قبيحٌ لِمَا فِيهِ مِنْ قَلْبِ الْمَعْنَى.

(٣) يعني: ثعلب، العلامة النحوي المشهور.

(٤) «الوسيط» للواحدي (٤: ١٤٥).

(٥) «مفاتيح الغيب» للرازي (٢٨: ٨٧).

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالصَّوَابِ فِي تَأْخِيرِ فَتْحِ مَكَّةَ إِلَى الْعَامِ الْقَابِلِ،
﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أَي: مِنْ دُونِ فَتْحِ مَكَّةَ، ﴿فَتَحًّا قَرِيبًا﴾ وَهُوَ فَتْحُ خَيْبَرَ،
لِتَسْتَرِوْحَ إِلَيْهِ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَنْ يَتَسَّرَ الْفَتْحُ الْمَوْعُودُ.

[هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ

شَهِيدًا ﴿٢٨﴾]

﴿بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ بِدِينِ الْإِسْلَامِ، ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ لِيُعْلِيَهُ ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ عَلَى
جِنْسِ الدِّينِ كُلِّهِ، يُرِيدُ: الْأَدْيَانَ الْمُخْتَلِفَةَ مِنْ أَدْيَانِ الْمُشْرِكِينَ وَالْجَاهِدِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ،
وَلَقَدْ حَقَّقَ ذَلِكَ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّكَ لَا تَرَى دِينًا قَطُّ إِلَّا لِلْإِسْلَامِ دُونَهُ الْعِزُّ وَالْعَلْبَةُ.
وَقِيلَ: هُوَ عِنْدَ نَزُولِ عَيْسَى حِينَ لَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ كَافِرٌ. وَقِيلَ: هُوَ إِظْهَارُهُ
بِالْحُجُجِ وَالْآيَاتِ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ تَأْكِيدٌ لِمَا وَعَدَ مِنَ الْفَتْحِ، وَتَوْطِينٌ لِنَفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى
سَيَفْتَحُ لَهُمْ مِنَ الْبِلَادِ، وَيُقَيِّضُ لَهُمْ مِنَ الْعَلْبَةِ عَلَى الْأَقَالِيمِ، مَا يَسْتَقِلُّونَ إِلَيْهِ فَتَحَ مَكَّةَ.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ عَلَى أَنَّ مَا وَعَدَهُ كَائِنٌ، عَنِ الْحَسَنِ: شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ
سَيُظْهِرُ دِينَكَ.

[﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ
فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي
الْإِنْجِيلِ كَرَزِجٍ أَخْرَجَ شَطْرَهُ فَتَارَزَهُ. فَاسْتَفَلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ يُمْشُبُّمُ الزُّرَّاعَ لِيُغِيظَ بِهِمُ
الْكَفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٢٩﴾]

قوله: (لتستروح إليه قلوب المؤمنين): الأساس: «قد رَوَّحْتُ بِهِمْ تَرْوِيحًا، وَأَرَحْتُهُ مِنْ
التَّعَبِ، فَاسْتَرَحَ، وَاسْتَرَوَّحْتُ إِلَى حَدِيثِهِ».

قوله: (ويُقَيِّضُ لَهُمْ): الْمَغْرِبُ: «قَيَّضَ لَهُ كَذَا: قَدَّرَهُ، وَمِنْهُ: مُلْكًا مُقَيَّضًا».

﴿مُحَمَّدٌ﴾ إما خَبْرٌ مُبْتَدَأٌ، أي: هو مُحَمَّدٌ؛ لتَقَدُّمِ قَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾، وإما مُبْتَدَأٌ، و﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ عطفُ بيانٍ، وعن ابنِ عامِرٍ أنه قرأ: «رسولَ الله»؛ بالنَّصْبِ على المَدْحِ.

قوله: (أي: هو مُحَمَّدٌ؛ لتَقَدُّمِ^(١)) قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ﴾: يعني: لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ بِذَاتِهِ اخْتَصَّ بِإِرْسَالِ ذَلِكَ الرَّسُولِ ﷺ الْمُوصُوفِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَهُوَ الَّذِي بَجَلَالَتِهِ خَصَّهُ بِذَلِكَ الْحَطْبِ الْجَلِيلِ وَالْأَمْرِ الْخَطِيرِ، اسْتَأْنَفَ بِقَوْلِهِ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾؛ لِيَكُونَ مَوْرِدًا لِلسُّؤَالِ؛ وَأَنَّ ذَلِكَ الْمُوصُوفَ مَنْ هُوَ؟ ثُمَّ ابْتَدَأَ: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾؛ تَشْرِيفًا لَهُمْ وَكَرَامَةً، نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِصُرُوفِهِ وَيَأْمُؤُنِيكَ﴾ [الأنفال: ٦٢]، وَلَا كَذَلِكَ عَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي، قَالَ صَاحِبُ «الْمُرْشِدِ»: «الْوَقْفُ عَلَى ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾: حَسَنٌ»^(٢).

قوله: (و﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ عطفُ بيانٍ): فيه إشارةٌ إلى ما يَنْبَغِي، وَأَنَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ لَا يُسْمَوُهُ بِاسْمِهِ، وَيَكُونَ «رَسُولُ اللَّهِ» عِنْدَهُمْ فِي كَثْرَةِ الدَّوَرَانِ بِمَنْزِلَةِ الْبَيَانِ لِاسْمِهِ تَعْظِيمًا وَتَبْجِيلًا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، أَي: لَا تَجْعَلُوا تَسْمِيَتَهُ وَنِدَاءَهُ بَيْنَكُمْ كَمَا يُسَمَّى بَعْضُكُمْ بَعْضًا، بَلْ يَا نَبِيَّ اللهِ، يَا رَسُولَ اللهِ.

وقال القاضي: «﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾: جُمْلَةٌ مُبَيَّنَةٌ لِلْمَشْهُودِ بِهِ - أَي: هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ - وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ صِفَةً، وَ﴿مُحَمَّدٌ﴾ خَبْرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ، أَوْ مُبْتَدَأٌ، ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَيْهِ، وَخَبْرُهُمَا: ﴿أَشِدَّاءُ﴾»^(٣).

(١) قوله: «أي: هو محمد لتقدم» سقط من (ف).

(٢) تقدم التعريف بـ«المرشد» في تفسير الآية ٣٤ من سورة التوبة (٧: ٢٣٣) تعليقا، وانظر: «المقصد» لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري ص ٧٢٩.

ووقف الحسن عنده: ثاني مراتب الوقف، فإنه جعلها ثمانى: التام، ثم الحسن، ثم الكافي، ثم الصالح، ثم المفهوم، ثم الجائز، ثم البيان، ثم القبيح. انظر «المقصد» ص ١٦.

(٣) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ٢٠٩).

﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أصحابه، ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾ جمع شديد ورحيم، ونحوه: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وعن الحسن: بَلَغَ مِنْ تَشَدُّدِهِمْ عَلَى الْكُفَّارِ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَحَرَّزُونَ مِنْ ثِيَابِهِمْ أَنْ تَلْزِقَ بِثِيَابِهِمْ، وَمِنْ أَيْدِيهِمْ أَنْ تَمَسَّ أَيْدِيَهُمْ، وَيَبْلُغَ مِنْ تَرْحُمِهِمْ فِيهَا بَيْنَهُمْ أَنَّهُ كَانَ لَا يَرَى مُؤْمِنٌ مُؤْمِنًا إِلَّا صَافِحَهُ وَعَانَقَهُ. والمصافحة: لم يختلف فيها الفقهاء، وأما المعانقة: فقد كرهها أبو حنيفة رحمه الله،..

قوله: (ونحوه): ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾: أي: هو من أسلوب التكميل، فإنه لو اكتفى بقوله: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأوهم أن ذلك للعجز، فكمّل بقوله: ﴿أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، فاقترن بما ينبئ عن التواضع، ولا يؤدي إلى التكبر، كذا قوله: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾: لو اكتفى به لأوهم الفظاظة والغلظة، فكمّل بقوله: ﴿رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾، يعني: أنهم مع كونهم أشدّاء على الأعداء رُحَمَاءَ فيما بينهم أربابٌ وقارٍ وترحم.

قوله: (والمصافحة: لم يختلف فيها الفقهاء): عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا التقى المسلمان فتصافحا وحيدا الله واستغفراه غُفِرَ لهما» أخرجه أبو داود^(١)، وفي رواية الترمذي^(٢): «ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غُفِرَ لهما قبل أن يتفرقا».

وقال الشيخ محيي الدين النواوي في «الأذكار»: «المصافحة مُسْتَحَبَّةٌ عِنْدَ كُلِّ لِقَاءٍ، وَأَمَّا مَا اعْتَادَهُ النَّاسُ بَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ فَلَا أَصْلَ لَهُ، وَلَكِنْ لَا بَأْسَ بِهِ، فَإِنَّ أَصْلَ الْمَصَافِحَةِ سُنَّةٌ، وَكُونُهُمْ مُحَافِظِينَ عَلَيْهَا فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ، وَمُفْرَطِينَ فِي كَثِيرٍ مِنْهَا: لَا يُجْرَجُ ذَلِكَ الْبَعْضُ عَنْ كَوْنِهِ مِنَ الْمَصَافِحَةِ الَّتِي وَرَدَ الشَّرْعُ بِأَصْلِهَا. وَقَدْ ذَكَرَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدٍ ابْنُ عَبْدِ السَّلَامِ فِي كِتَابِهِ «الْقَوَاعِدُ»: أَنَّ الْبِدْعَ عَلَى خَمْسَةِ أَقْسَامٍ: وَاجِبَةٌ وَمُحَرَّمَةٌ وَمَكْرُوهَةٌ

(١) في «سننه» (٥٢١١).

(٢) في «جامعه» (٢٧٢٧). وأخرجه أيضاً أبو داود (٥٢١٢)، وابن ماجه (٣٧٠٣).

وكذلك التَّقْبِيل، قال: لا أَحِبُّ أَنْ يُقَبَّلَ الرَّجُلُ مِنَ الرَّجُلِ وَجْهَهُ وَلَا يَدَهُ وَلَا سَيْنًا مِنْ جَسَدِهِ. وقد رَخَّصَ أَبُو يُوسُفَ فِي الْمَعَانِقَةِ.

وَمُسْتَحَبَّةٌ وَمُبَاحَةٌ، وَمِنَ الْبِدْعِ الْمُبَاحَةِ: الْمَصَافِحَةُ عَقِيبَ الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ. انتهى ما في «الأذكار»^(١).

قوله: (وكذلك التَّقْبِيل): عن الترمذي^(٢) عن أنسٍ قال: سمعتُ رجلاً يقولُ لرسولِ الله ﷺ: «يا رسولَ الله، الرجلُ مِنَّا يَلْقَى أَخَاهُ أَوْ صَدِيقَهُ، أَيْنَحْنِي لَهُ؟ قال: لا، قال: أَيْلَتَرْتَمُهُ وَيُقَبِّلُهُ؟ قال: لا، قال: أَيْأَخُذُ بِيَدِهِ وَيُصَافِحُهُ؟ قال: نعم». فزاد رزينٌ بعدَ قوله: «ويُقَبِّلُهُ؟ قال: لا»: «إلا أن يأتي من سَفَرٍ».

وفي «الأذكار»: عن الترمذي^(٣) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قَدِمَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ الْمَدِينَةَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِي، فَفَرَعَ الْبَابَ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْرُ ثَوْبَهُ، فَاعْتَنَقَهُ وَقَبَّلَهُ»، قال الترمذي: هذا حديثٌ حسن. قال الشيخُ محيي الدين النواوي: «التَّقْبِيلُ وَالْمَعَانِقَةُ لَا بَأْسَ بِهِ عِنْدَ الْقُدُومِ مِنْ سَفَرٍ وَنَحْوِهِ، مَكْرُوهٌ كِرَاهَةٌ تَنْزِيهِ فِي غَيْرِهِ، وَأَمَّا الْأَمْرُدُ الْحَسَنُ فَيَحْرَمُ بِكُلِّ حَالٍ، وَالْمَذْهَبُ الصَّحِيحُ عِنْدَنَا: يَحْرُمُ النَّظَرُ إِلَى الْأَمْرُدِ الْحَسَنِ لَوْ كَانَ بغيرِ شَهْوَةٍ، وَقَدْ أَمِنَ الْفِتْنَةُ^(٤) فَهُوَ حَرَامٌ، كَالْمَرْأَةِ، لِكُونِهِ فِي مَعْنَاهَا»^(٥).

قوله: (وقد رَخَّصَ أَبُو يُوسُفَ فِي الْمَعَانِقَةِ): روى أبو داود: «سُئِلَ أَبُو ذَرٍّ: هَلْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَافِحُكُمْ إِذَا لَقِيتُمُوهُ؟ قال: ما لَقِيتُهُ قَطُّ إِلَّا صَافِحَنِي، وَبَعَثَ إِلَيَّ ذَاتَ يَوْمٍ وَلَمْ أَكُنْ فِي أَهْلِي، فَجِئْتُ، فَأُخْبِرْتُ أَنَّهُ ﷺ أَرْسَلَ إِلَيَّ، فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ عَلَى سَرِيرِهِ فَالْتَرَمَنِي، فَكَانَتْ تِلْكَ أَجْوَدَ أَجْوَدٍ».

(١) ص ٢٣٧.

(٢) في «جامعه» (٢٧٢٨).

(٣) في «جامعه» (٢٧٣٢).

(٤) في الأصول الخطية: «وقد لا يأمن الفتنة»، والمثبت من «الأذكار» للنووي.

(٥) «الأذكار» للنووي ص ٢٣٦.

وَمِنْ حَقِّ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ أَنْ يُرَاعُوا هَذَا التَّشَدُّدَ وَهَذَا التَّعَطُّفَ، فَيَتَشَدَّدُوا عَلَى مَنْ لَيْسَ عَلَى مِلَّتِهِمْ وَدِينِهِمْ وَيَتَحَامَوْهُ، وَيُعَاشِرُوا إِخْوَتَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ مُتَعَطِّفِينَ بِالْبِرِّ وَالصَّلَةِ، وَكَفَّ الْأَذَى، وَالْمَعُونَةَ، وَالْإِحْتِمَالَ، وَالْأَخْلَاقِ السَّجِيحَةَ.

وَوَجْهُ مَنْ قَرَأَ: «أَشِدَاءَ» وَ«رُحَمَاءَ» بِالنَّضْبِ: أَنْ يَنْصِبَهُمَا عَلَى الْمَذْحِ، أَوْ عَلَى الْحَالِ بِالْمُقَدَّرِ فِي ﴿مَعَهُ﴾، وَيَجْعَلُ ﴿تَرْنَهُمْ﴾ الْخَبَرَ.

﴿سَيِّمَاهُمْ﴾ عَلَامَتُهُمْ، وَقَرِيءٌ: «سَيِّمِيَاؤُهُمْ»، وَفِيهَا ثَلَاثُ لُغَاتٍ؛ هَاتَانِ وَالسِّيَاءُ، وَالْمُرَادُ بِهَا: السَّمَةُ الَّتِي تَحْدُثُ فِي جَبْهَةِ السَّجَادِ مِنْ كَثْرَةِ السُّجُودِ،

قوله: (والأخلاق السججحة): الجوهرى: الإسججح: حُسنُ العفو، والسججحة: الطبيعية.

قوله: (ووجه قراءة^(١) من قرأ: «أشداء» و«رحماء»): قال ابن جنبي: «وهي قراءة الحسن، وهو نصب على الحال، أي: «محمد رسول الله والذين معه»، ف«معه» خبر «الذين»، و«أشداء»: حال، أي: هم معه على هذه الحال، فجعله حالاً من الضمير في ﴿معه﴾ لأمرين: أحدهما: قربه منه، ويُعَدُّهُ عَنْ «الذين»، وثانيهما: ليكون العامل في الحال هو العامل في ذي الحال، ولو جعلته حالاً من «الذين» كان العامل في الحال غير العامل في صاحبه، وإن كان ذلك جائزاً، أو شئتَ نصبتَهُمَا عَلَى الْمَذْحِ»^(٢).

قوله: (أو على الحال بالمقدر في ﴿معه﴾): تقديره: صاحبوه أشداء رحماء.

قوله: (﴿سَيِّمَاهُمْ﴾ علامتهم): النهاية: «الأصل فيها الواو ثم تمد وتقصر». معنى قوله: «مَنْ آثَرَ السُّجُودَ» يُفَسِّرُهَا: أَنَّ «السِّيْمَا» الْعَلَامَةُ مُطْلَقاً، وَيُرَادُ هُنَا الْمَعْنَى الْخَاصَّ، فَسَّرَ وَيُسَّرَ «مَنْ آثَرَ السُّجُودَ»، وَكَانَ مِنْ حَقِّ الظَّاهِرِ أَنْ يُقَالَ: «الآثَرُ الَّذِي يُؤَثِّرُهُ السُّجُودُ»، فَوَضَعَ الْمُصَنِّفُ مَوْضِعَهُ: «التأثير»؛ لِطَبَاقِ قَوْلِهِ: ﴿سَيِّمَاهُمْ فِي رُجُوهِهِمْ﴾ مُبَالِغَةً.

الجوهرى: «التأثير: بقاء الأثر على الشيء».

(١) كذا في الأصول الخطية، ولفظة «قراءة» ليست في «الكشاف».

(٢) «المحتسب» لابن جنبي (٢: ٢٧٦).

وقوله: ﴿مِنْ آثَرِ السُّجُودِ﴾ يُفَسِّرُهَا، أَي: مِنَ التَّأثيرِ الَّذِي يُؤَثِّرُهُ السُّجُودُ، وَكَانَ كُلُّ مَنْ الْعَلِيِّينَ - عَلِيٌّ بِنِ الْحُسَيْنِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ، وَعَلِيٌّ بِنِ عَبْدِ اللَّهِ بِنِ عَبَّاسِ أَبِي الْأَمْلاكِ - يُقَالُ لَهُ: ذُو الثَّنَائِتِ، لِأَنَّ كَثْرَةَ سُجُودِهِمَا أَحَدَثَتْ فِي مَوَاقِعِهِ مِنْهُمَا أَشْبَاهَ ثَفَنَاتِ الْبَعِيرِ.

وَقُرِّي: ﴿مِنْ آثَرِ السُّجُودِ﴾ وَ«مِنْ آثَرِ السُّجُودِ»، وَكَذَا عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: هِيَ السَّمَّةُ فِي الْوَجْهِ.

قوله: (أبي الأملاك): أي: أبي الخلفاء، فيه تعريض بأنهم كانوا ملوكاً ولم يكونوا خلفاء^(١).

قوله: (ذو الثفنات): الجوهرى: «ثفنات البعير: ما يقع على الأرض من أعضائه إذا غلظ».

(١) يعني: الخلفاء العباسيين، فإنهم من ذرية علي بن عبد الله بن عباس هذا.

أما وضمهم بالملك دون الخلافة: فعلى المعنى الأخص للخلافة، وهي ما كان على منهاج النبوة، وهذا الوصف لم يتوافر إلا في الخلفاء الأربعة الراشدين، وأفراد بعدهم كالخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى، ويدل عليه قوله ﷺ - فيما أخرجه أبو داود (٤٦٤٦)، والترمذي (٢٢٢٦)، وصححه ابن حبان (٦٦٥٧) و(٦٩٤٣) -: «الخلافة بعدي ثلاثون، ثم تكون ملكاً» الحديث.

أما على المعنى الأعم للخلافة فإنهم خلفاء، وإن لم يكونوا على منهاج النبوة، ويدل على صحة وصفهم بالخلافة قوله ﷺ: «سيكون من بعدي خلفاء يعملون بما يعلمون، ويفعلون ما يؤمرون، وسيكون من بعدهم خلفاء يعملون ما لا يعلمون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن أنكر برئ، ومن أمسك سليم، ولكن من رضي وتابع»، أخرجه ابن حبان (٦٦٥٨)، وترجم عليه بقوله: «ذكر البيان بأن الملوك يطلق عليهم اسم الخلفاء»، لكن أخرجه مسلم (١٨٥٤) بلفظ: «ستكون أمراء»، وهو يعكز الاستدلال به لينا وقع فيه من الرواية بالمعنى.

وأصرح منه قوله ﷺ - فيما أخرجه البخاري (٧٢٢٢)، ومسلم (١٨٢١) -: «يكون اثنا عشر خليفة»، ولم يكن في الثلاثين سنة بعد النبي ﷺ إلا الأربعة، وتسمها الحسن بن علي رضي الله عنهما، فصحح إطلاق اسم الخلافة على من بعدهم.

فإن قلت: فقد جاء عن النبي ﷺ: «لا تَعْلَبُوا صُورَكُمْ»، وعن ابن عمر رضي الله عنه: أنه رأى رجلاً قد أثر في وجهه السجود، فقال: إن صورة وجهك أنفك، فلا تَعْلَبْ وجهك، ولا تَشِنْ صورتك؟ قلت: ذلك إذا اعتمد بوجهته على الأرض لتحدث فيه تلك السمّة، وذلك رياءً ونفاقٌ يُستعاضُ بالله منه، ونحنُ فيما حدث في جبهة السجّاد الذي لا يسجدُ إلا خالصاً لوجه الله، وعن بعض المتقدمين: كُنَّا نَصَلِّي فلا يرى بين أعيننا شيء، ونرى أحدنا الآن يُصَلِّي فيرى بين عينيه رُكبة العنز، فما ندري: أُنْقَلَتِ الأروُسُ أم خَشِنَتِ الأرض. وإنما أراد بذلك مَنْ تَعَمَّدَ ذلك للنفاق.

وقيل: هو صُفْرَةٌ الوَجْهِ مِنْ خَشْيَةِ الله. وعن الضحّاك: ليس بالنَدَبِ في الوجوه، ولكنه صُفْرَةٌ. وعن سعيد بن المسيّب: نَدَى الطُّهُورِ وتُرَابُ الأرض. وعن عطاء: استنارت وجوههم من طول ما صلّوا بالليل، كقوله: «مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بالليل حَسُنَ وَجْهُهُ بالنهار».

قوله: (فلا تَعْلَبْ وَجْهَكَ): العَلْبُ - بفتح العين المهملة وسكون اللام -: الأثر.

النهاية: «في حديث ابن عمر: «أنه رأى رجلاً بأنفه أثر السجود، فقال: لا تَعْلَبْ صورتك»، يُقال: عَلَبَهُ: إذا وَسَمَهُ وأَثَرَ فيه، والعَلْبُ والعَلَبُ: الأثر، أي: لا تُؤَثِّرْ فيها بِشِدَّةِ اتِّكَاثِكَ على أنفك في السجود».

قوله: (ليس بالنَدَبِ في الوجوه): النهاية: «النَدَبُ - بالتحريك -: أثر الجرح إذا لم يَرْتَفِعْ عن الجلد».

قوله: (استنارت وجوههم من طول ما صلّوا): قال الإمام: «هو ما يظهره الله في وجوه الساجدين نهاراً إذا قاموا بالليل مُتَهَجِّدين، هذا مُحَقَّقٌ لِمَا يُشَاهَدُ الفرقُ بين الساهر في اللّهُوِّ واللّعب، وبين الساهر في الدُّكْرِ والشُّكْرِ، أي: نُورُهُمْ في وجوههم لِتَوَجُّهِهِمْ نحو الحق، ومَنْ يُحَاذِي الشمسَ يَتَنَوَّرُ وجهه، على أن نُورَهَا عَارِضِيّ، واللّه نُورُ السَّمَاوَاتِ

﴿ذَلِكَ﴾ الوَصْفُ ﴿مَثَلُهُمْ﴾، أي: وَصَفُهُم العَجِيبُ الشَّانِ فِي الْكِتَابَيْنِ جَمِيعًا، ثم ابْتَدَأَ فَقَالَ: ﴿كَرَّرِيعُ﴾ يُرِيدُ: هُمُ كَرَّرِيعٌ. وَقِيلَ: تَمَّ الْكَلَامُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾، ثم ابْتَدَى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَّرِيعُ﴾، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿ذَلِكَ﴾ إِشَارَةً مُبْهَمَةً أَوْضَحَتْ بِقَوْلِهِ: ﴿كَرَّرِيعُ أَخْرَجَ شَطَطَهُ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]. وَقُرِئَ: «الْأَنْجِيلُ» بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ.

والأرض، فَمَنْ يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ بِكُلِّيَّتِهِ - كما قال: وَجَّهَتْ وَجْهِي لِلَّهِ - لَا بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ فِي وَجْهِهِ نَوْزٌ تَبَهَّرُ مِنْهُ الْأَنْوَارُ^(١).

ورَوَى السُّلَمِيُّ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَكِّيِّ^(٢): لَيْسَ هُوَ التَّحْوَلُ وَالصُّفْرَةُ، وَلَكِنَّهُ نَوْزٌ يَظْهَرُ عَلَى وَجْهِهِ الْعَابِدِينَ، يَيْدُو مِنْ بَاطِنِهِمْ عَلَى ظَاهِرِهِمْ، يَتَّبِعُ ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ فِي زَنْجِيٍّ أَوْ حَبَشِيٍّ.

وعن بعضهم: تَرَى عَلَى وَجْهِهِمْ هَيْبَةً لِقُرْبِ عَهْدِهِمْ بِمُنَاجَاةِ سَيِّدِهِمْ، قَالَ ابْنُ عَطَاءٍ: تَرَى عَلَيْهِمْ خُلَعَ الْأَنْوَارِ لِأَيْحَةَ، وَقَالَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ الْقَيْسِ: كَادَ وَجْهُ الْمُؤْمِنِ يُخْبِرُ عَنْ مَكْنُونِ عَمَلِهِ، وَكَذَلِكَ وَجْهُ الْكَافِرِ.

قَوْلُهُ: (وَقِيلَ: تَمَّ الْكَلَامُ عِنْدَ قَوْلِهِ) إِلَى آخِرِهِ: وَفِي «السُّرُشِدِّ»: قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: وَالتَّهَامُ ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ يَعْنِي: صِفَتُهُمْ وَنَعْتُهُمْ، قَالَ: ثُمَّ يَبْتَدَى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَّرِيعُ﴾ جَعَلَ صِفَتَهُمْ فِي التَّوْرَةِ أَنَّهُمْ أَشْدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ، وَصِفَتَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ أَنَّهُمْ كَرَّرِيعٌ أَخْرَجَ شَطَطَهُ فَآزَرَهُ، وَقَدْ أَجَازَ غَيْرُهُ أَنْ يَقُولَ: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَّرِيعُ﴾^(٣) كَأَنَّهُمْ جَعَلُوا مَثَلَهُمْ وَصِفَتَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ شَيْئًا وَاحِدًا.

(١) «مفاتيح الغيب» للرازي (٢٨: ٨٩).

(٢) هو الإمام العابد عبد العزيز بن أبي رَوَادٍ الْمَكِّيِّ، شَيْخُ الْحَرَمِ، التَّوَفَّى سَنَةَ ١٥٩، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى. انظُرْ تَرْجَمَتَهُ فِي «سِيرِ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ» لِلذَّهَبِيِّ (٧: ١٨٤-١٨٧).

(٣) مِنْ أَوَّلِ هَذِهِ الْفَقْرَةِ إِلَى هُنَا أُثْبِتُهُ مِنْ (ط)، وَوَرَدَ فِي (ح) وَ(ف) بِلَفْظٍ: «وَقِيلَ: تَمَّ الْكَلَامُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَّرِيعُ﴾»، وَفِيهِ سَقَطَ يَنْ.

﴿شَطَطُهُ﴾ فِرَاخُهُ، يُقَالُ: أَشْطَأَ الزَّرْعُ: إِذَا فَرَّخَ. وَقُرِي: «شَطَاءَهُ» بِفَتْحِ الطَّاءِ، وَ«شَطَاءَهُ» بِتَخْفِيفِ الهمزة، وَ«شَطَاءَهُ» بِالْمَدِّ، وَ«شَطَطُهُ» بِحَذْفِ الهمزة وَنَقْلِ حَرَكَتِهَا إِلَى مَا قَبْلَهَا، وَ«شَطُوه» بِقَلْبِهَا وَأَوَّأ.

﴿فَأَزَرَهُ﴾ مِنَ الْمُؤَازَرَةِ، وَهِيَ الْمُعَاوَنَةُ، وَعَنِ الْأَخْفَشِ: أَنَّهُ أَفْعَلٌ. وَقُرِي: «فَأَزَرَهُ» بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، أَي: فَسَدَ أَزْرَهُ وَقَوَّاهُ. وَمَنْ جَعَلَ «آزَرَ»: أَفْعَلٌ، فَهُوَ فِي مَعْنَى الْقِرَاءَتَيْنِ.

قوله: (وَقُرِي: «شَطَاءَهُ» بِفَتْحِ الطَّاءِ): ابْنُ كَثِيرٍ وَابْنُ ذَكْوَانَ: «شَطَاءَهُ» بِتَحْرِيكِ الطَّاءِ، وَالباقون: بِإِسْكَانِهَا^(١).

قوله: («شَطَاءَهُ» بِتَخْفِيفِ الهمزة): قَالَ ابْنُ جَنِّي: «قِرَاءَةُ عَيْسَى الهمْدَانِي - بِخِلَافِ -: «شَطَاءَهُ» بِتَحْرِيكِ الطَّاءِ مَمْدُوداً مَهْمُوزاً، وَقَرَأَ عَيْسَى: «شَطَاءَهُ»، وَقَرَأَ الجَحْدَرِيُّ: «شَطُوه». وَالشَّطْءُ: فِرَاخُ الزَّرْعِ، وَجَمْعُهُ: شَطُوءٌ، وَيُقَالُ أَيضاً: هُوَ الوَرَقُ، وَالشَّطْءُ: السُّنْبُلُ أَيضاً، شَطَأَ الزَّرْعُ شَطْأً، وَمِنهُ قَوْلُهُمْ - عِنْدِي -: شَاطِئُ النَّهْرِ وَالوَادِي، لِأَنَّهُ مَا بَرَزَ مِنْهُ وَظَهَرَ، وَهَذَا سَمَّوهُ بِالسَّيْفِ، لِأَنَّهُ مِنْ لَفْظِ «السَّيْفِ» وَمَعْنَاهُ، أَلَا تَرَاهُمْ يَصِفُونَ السَّيْفَ بِالصَّقَالِ، وَأَمَا «شَطُوه» بِالوَاوِ: فَلَا يَجْلُو أَنْ يَكُونَ لُغَةً أَوْ بَدَلاً مِنَ الهمزة. وَلَا يَكُونُ «الشَّطْءُ» إِلَّا فِي البُرِّ وَالشَّعِيرِ^(٢).

قوله: («فَأَزَرَهُ»): قَرَأَ ابْنُ ذَكْوَانَ: «فَأَزَرَهُ» بِالْقَصْرِ، وَالباقون: بِالْمَدِّ^(٣).

قوله: (فَهُوَ فِي مَعْنَى الْقِرَاءَتَيْنِ): يَعْنِي: «آزَرَ» إِمَّا «فَاعَلٌ» مِنَ الْمُؤَازَرَةِ: الْمُعَاوَنَةُ، أَوْ «أَفْعَلٌ» مِنَ الْأَزْرِ: القُوَّةُ، كَمَا قَالَ الْأَخْفَشُ، وَقَوْلُهُ: «فِي مَعْنَى الْقِرَاءَتَيْنِ»، أَي: «آزَرَ» إِذَا جُعِلَ «أَفْعَلٌ» يَجْمَعُ مَعْنَى التَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ.

(١) انظر: «التيسير» لللداني ص ٢٠٢، و«حجة القراءات» ص ٦٧٤.

(٢) «المحتسب» لابن جني (٢: ٢٧٧).

(٣) انظر: «التيسير» لللداني ص ٢٠٢، و«حجة القراءات» ص ٦٧٤.

﴿فَاسْتَعْلَظْ﴾ فصار مِنَ الدَّقَّةِ إِلَى الغِلَظِ، ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ﴾ فَاسْتَقَامَ عَلَى قَصْبِهِ، جَمْعُ سَاقٍ. وَقِيلَ: مَكْتُوبٌ فِي الإنجِيلِ: «سَيَخْرُجُ قَوْمٌ يَنْبُتُونَ نَبَاتَ الزَّرْعِ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ». وَعَنْ عِكْرِمَةَ: أَخْرَجَ شَطَاةً بِأَبِي بَكْرٍ، فَآزَرَهُ بِعَمْرٍ، فَاسْتَعْلَظَ بِعُثْمَانَ، فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ بِعَلِيٍّ.

وهذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِيَدْعِيَ أَمْرَ الإسلامِ وَتَرْفِيهِ فِي الزِّيَادَةِ إِلَى أَنْ قَوِيَ وَاسْتَحْكَمَ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَامَ وَحْدَهُ، ثُمَّ قَوَّاهُ اللهُ بِمَنْ آمَنَ مَعَهُ، كَمَا يُقْوِي الطَّاقَةَ الْأُولَى مِنَ الزَّرْعِ مَا يَحْتَفُّ بِهَا مِمَّا يَتَوَلَّدُ مِنْهَا، حَتَّى يُعْجِبَ الزُّرَّاعَ.

الراغب: «أصل الأزر: الإزار الذي هو اللباس، يُقال: إزار وإزاره ومثزر، ويُكنى بالإزار عن المرأة، وقوله تعالى: ﴿أَشْدُّ بِهِمْ أَزْرِي﴾ [طه: ٣١]، أي: أُنْقَوِي بِهِ، وَالْأَزْرُ: الْقُوَّةُ الشَّدِيدَةُ، وَأَزَرَهُ: أَعَانَهُ وَقَوَّاهُ، وَأَصْلُهُ مِنْ شَدَّ الإِزَارَ، يُقَالُ: أَزَرْتُهُ فَتَأَزَّرَ، أَي: شَدَدْتَ أَزْرَهُ^(١)، وَهُوَ حَسَنُ الإِزْرَةِ، وَأَزَرْتُ الْبِنَاءَ وَأَزَرْتُهُ: قَوَّيْتُ أَسَافِلَهُ، وَتَأَزَّرَ النَّبَاتُ: طَالَ وَقَوِيَ، وَأَزَرْتُهُ وَوَأَزَرْتُهُ: صِرْتَ وَزِيرَهُ، وَأَصْلُهُ الْوَاوُ^(٢)».

قوله: (أَخْرَجَ شَطَاةً بِأَبِي بَكْرٍ): رَوَى مُحِبِّي السُّنَّةِ فِي «المعالم»^(٣) قَرِيباً مِنْهُ، وَرَوَى فِي «شرح السُّنَّةِ» عَنْ مَالِكٍ، وَذَكَرَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَجُلٌ يَنْقُصُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَرَأَ مَالِكٌ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ فِي قَلْبِهِ عَلَى أَحَدٍ مِنَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَدْ أَصَابَتْهُ الْآيَةُ»^(٤).

(١) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةُ: «إِزَارُهُ»، وَالْمَثْبُوتُ مِنْ «مَفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ» لِلرَّاعِبِ.

(٢) «مَفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ» ص ٧٤.

(٣) نَظَرُ: «مَعَالِمُ التَّنْزِيلِ» لِلْبَغَوِيِّ (٧: ٣٢٥).

(٤) «شَرْحُ السُّنَّةِ» لِلْبَغَوِيِّ (١: ٢٢٩).

فإن قلت: قوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ تعليلٌ لماذا؟ قلت: لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ تَشْبِيهُهُمْ بِالزَّرْعِ؛ مِنْ نَمَائِهِمْ وَتَرْقِيهِمْ فِي الزِّيَادَةِ وَالْقُوَّةِ، وَبِجُوزِ أَنْ يُعَلَّلَ بِهِ ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، لِأَنَّ الْكُفَّارَ إِذَا سَمِعُوا بِمَا أُعِدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مَعَ مَا يُعِزُّهُمْ بِهِ فِي الدُّنْيَا غَاظَهُمْ ذَلِكَ.

ومعنى ﴿مِنْهُمْ﴾: البيان، كقوله تعالى: ﴿فَأَجْتَكِنُوا الصَّيْحَ مِنَ الْأَوْتَانِ﴾ [الحج: ٣٠].

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْفَتْحِ فَكَأَنَّمَا كَانَ مِمَّنْ شَهِدَ مَعَ مُحَمَّدٍ فَتَحَ مَكَّةَ».

تَمَّتِ السُّورَةُ

حَامِدًا لِلَّهِ، وَمُصَلِّيًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (١)

* * *

(١) كذا في (ف)، وفي (ح): «تَمَّتِ السُّورَةُ، وَلِلَّهِ تَعَالَى الْحَمْدُ»، وليس في (ط) شيء من ذلك.

سورة الحجرات

مدنية، وهي ثمان عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَانقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾

قَدَّمَهُ وَأَقَدَّمَهُ: منقولانِ بتثقيـلِ الحشـوِ والهمزة، مِنْ: قَدَّمَهُ إِذَا تَقَدَّمَه، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ [هود: ٩٨]،

سورة الحجرات

مدنية، وهي ثمان عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (قَدَّمَهُ وَأَقَدَّمَهُ: منقولانِ بتثقيـلِ الحشـوِ والهمزة): أي: منقولانِ مِنَ الْمُتَعَدِّيِ إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ إِلَى مَفْعُولَيْنِ، الجوهري: «أَقَدَّمَهُ وَقَدَّمَهُ بِمَعْنَى، قَالَ لِيَبْدُ: فَمَضَى وَقَدَّمَهَا وَكَانَتْ عَادَةً مِنْهُ إِذَا هِيَ عَرَدَتْ إِقْدَامَهَا»
أي: تَقَدَّمُهَا».

الراغب: «الْقَدَمُ: قَدَمُ الرَّجُلِ، وَبِهِ اعْتُسِرَ التَّقَدُّمُ وَالتَّأَخُّرُ، وَيُقَالُ: قَدِيمٌ وَحَدِيثٌ؛ إِذَا بَاعْتَبَرَ الزَّمَانِينَ، وَإِمَا بِالشَّرَفِ، نَحْوُ: فَلَانٌ مُتَقَدِّمٌ عَلَى فَلَانٍ، أَي: أَشْرَفُ مِنْهُ، وَالْقِدَمُ (١):

(١) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةُ: «وَالْتَقَدُّمُ»، وَالمُتَّبَعُ مِنْ «مَفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ لِلرَّاعِبِ، مَادَّةُ (قَدَم).

وجودٌ فيما مضى، والبقاء: وجودٌ فيما يُستقبل، وقد وَرَدَ في وَصْفِ الله تعالى: «يا قديم الإحسان»، ولم يَرِدْ في شيءٍ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْأَثَارِ الصَّحِيحَةِ «القديم» في وَصْفِ الله تعالى^(١)، والمتكلمون يَصِفُونَهُ به، وأكثرُ ما يُسْتَعْمَلُ «القديم» يُسْتَعْمَلُ باعتبارِ الزمان، نحو: ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ [يس: ٣٩].

ويقال: قَدَمْتُ كذا، قال تعالى: ﴿مَا أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ بِصِدْقَتِكُمْ﴾ [المجادلة: ١٣]، وَقَدَمْتُ فَلَانًا أَقْدَمُهُ: إِذَا تَقَدَّمْتَهُ، قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [هود: ٩٨].

وقال تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: قيل: معناه: لا تَتَقَدَّمُوا، وتحقيقه: لا تَسْبِقُوهُ بِالْقَوْلِ وَالْحَكْمِ، بل افعلوا ما يَرْسُمُهُ كما يَفْعَلُهُ الْعِبَادُ الْمُكْرِمُونَ، وهم الملائكة حيث قال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

وَقَدَمْتُ إِلَيْهِ بِكذا: إِذَا أَمَرْتَهُ قَبْلَ وَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَى الْفِعْلِ، وَقَبْلَ أَنْ يَدَهَمَهُ الْأَمْرُ أَوْ النَّاسُ، وَقَدَمْتُ بِهِ: أَعْلَمْتَهُ قَبْلَ وَقْتِ الْحَاجَةِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٨]، وَرَكِبَ فَلَانٌ مَقَادِيمَهُ: إِذَا مَرَّ عَلَى وَجْهِهِ^(٢).

(١) أما ما أخرجه ابن ماجه (٣٨٦١) من حديث أبي هريرة بذكر الأسماء الحسنى، وفيها «القديم»، فإسناده ضعيف لكن يُستأنس في هذا الباب بما أخرجه أبو داود (٤٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبي ﷺ: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَبِسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ».

ولو قلت: إنه قد انعقد إجماع أهل السنة على جواز إطلاق اسم «القديم» على الله تعالى لَمَا أَبَعَدْتُ، فَقَدْ وَرَدَ ذَلِكَ فِي «عَقِيدَةِ الْإِمَامِ الطَّحَاوِيِّ» رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَهِيَ مِمَّا يُقَرُّهَا أَهْلُ السُّنَّةِ قَاطِبَةً، وَصَرَّحَ بِانْعِقَادِ الْإِجْمَاعِ عَلَى هَذَا الْأَسْمِ ابْنَ قَطْلُوبَغَا فِي «حَاشِيَتِهِ» عَلَى «الْمَسَائِرَةِ» ص ٢٦، وَابْنُ الْبَاجُورِيِّ فِي «شَرْحِ جَوْهَرَةِ التَّوْحِيدِ» ص ١٥٥.

أما إنكارُ ابن أبي العز - شارح «الطحاوية» - ذلك: فغير مُعْتَدِّ بِهِ، لِانْعِقَادِ الْإِجْمَاعِ عَلَى جَوَازِهِ قَبْلَهُ، عَنِ أَنَّهُ قَدْ خَالَفَ الْإِمَامَ الطَّحَاوِيَّ فِي مَسَائِلٍ هِيَ أَبَعَدُ مِنْ هَذِهِ وَأَعْظَمُ!

(٢) «مفردات القرآن» ص ٦٦٠-٦٦١.

ونظيرُهُما معنى' ونقلًا: سَلَفَهُ وأَسْلَفَهُ، وفي قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾ من غير ذِكْرِ مفعولٍ وجهان: أحدهما: أن يُحَدَفَ ليتناولَ كُلَّ ما يقعُ في النفسِ مما يُقَدِّم. والثاني: أن لا يُقَصِّدَ قَصْدُ مفعولٍ ولا حَذْفُهُ، ويُتَوَجَّهُ بالنهي إلى نفسِ التَّقْدِمة، كأنه قيل: لا تُقَدِّمُوا على التلبُّس بهذا الفعل، ولا تجعلوه منكم بسبيل، كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [غافر: ٦٨].

ويجوزُ أن يكونَ من: قَدَّمَ؛ بمعنى: تَقَدَّمَ،

قوله: (معنى' ونقلًا): أما معنى: فلأن التسليفَ التقديم، ومنه السُّلْفَةُ - بالضم -: ما يَتَعَجَّلُهُ الرجلُ من الطعامِ قبلَ الغداء، تقول منه: سَلَفَ الرجلُ تسليفاً، وأما نقلًا فهو قوله: سَلَفَهُ وأَسْلَفَهُ، منقولان من: سَلَفَهُ^(١).

قوله: (أن يُحَدَفَ ليتناولَ كُلَّ ما يقعُ في النفسِ مما يُقَدِّم): أي: يُتْرَكُ مفعولُهُ ليعمَّ تناولُهُ، فإنه إذا ذُكِرَ قَصَرَ عليه.

قوله: (أن لا يُقَصِّدَ [قَصْدُ] مفعولٍ ولا حَذْفُهُ): أي: يُقَصِّدُ إلى نفسِ الفعلِ وحقيقته، نحو: «فلانٌ يُعطي ويمنع»، أي: يُوجدُهُما ويفعلُ حقيقتَهُما إبهاماً للمبالغة، قال صاحبُ «التيسير»: أي: لا تُقَدِّمُوا قولاً ولا فعلاً على قولِ رسولِ الله ﷺ وفعله مما سبيلُهُ أن يُؤخِّدَ عنه من أمرِ الدين، بل انتظرِ واحْكُمه فيه، فإنَّ حُكْمَهُ حُكْمُ الله، لأنه لا يقضي إلا بأمرِ الله تعالى.

قوله: (كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾): أي يُوجدُهُما، وَوَجْهُ المُشابهة: أن الإحياءَ والإماتةَ من شأنِ مَنْ اتَّصَفَ بِصِفَةِ الألوهيةِ وَمِنْ مُصَحِّحِها، كذا من شأنِ مَنْ اتَّصَفَ بِصِفَةِ الإيِّانِ، بل من شأنِ مَنْ يُصَدِّقُ ويُقالُ في حَقِّه: «الدينَ آمنوا»: أن يجتنِبَ التلبُّسَ^(٢) بهذا الفعلِ.

قوله: (ويجوزُ أن يكونَ من: قَدَّمَ؛ بمعنى: تَقَدَّمَ): أي: يكونُ لازماً، الجوهري: «وقَدَّمَ بينَ يديه، أي: تَقَدَّمَ، قال تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾».

(١) هذه الفقرة سقطت من (ح) و(ف).

(٢) في الأصول الخطية: «من التلبُّس»، وحذفت «من»، للاستغناء عنها.

كَوَجَّةٍ وَبَيِّنَ، ومنه مُقَدِّمَةُ الجَيْشِ: خِلافُ ساقِيتهِ، وهي الجِماعَةُ المُتَقَدِّمَةُ منه، وَيَعْضُدُهُ قِراءَةُ مَنْ قَرَأَ: «لَا تَقَدَّمُوا» بِحَذْفِ إِحْدَى تاءَيْ «تَتَقَدَّمُوا»، إِلا أَنْ الأَوَّلَ أَمَلًا بِالْحُسْنِ وَأَوْجَهَ، وَأَشَدُّ مُلاءِمَةً لِبِلاغَةِ القُرْآنِ، والعِلماءُ لَهُ أَقْبَلُ.

وَقُرِّي: «لَا تَقَدَّمُوا»؛ مِنْ القُدُومِ، أَي: لا تَقَدَّمُوا إِلى أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ قَبْلَ قُدُومِها، وَلا تَعْجَلُوا عَلَيْها.

قوله: (وَيَعْضُدُهُ قِراءَةُ مَنْ قَرَأَ: «لَا تَقَدَّمُوا» بِحَذْفِ إِحْدَى تاءَيْ «تَتَقَدَّمُوا»): قال ابنُ جِنِّي: «وهي قِراءَةُ الصَّحاحِ وَيَعقُوبُ، أَي: لا تَفْعَلُوا ما تُؤَثِّرُونَهُ وتَرَكُوا ما أَمَرَكم اللهُ وَرَسُولُهُ، وهذا مَعْنَى قِراءَةِ العِمامَةِ: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أَي: لا تُقَدِّمُوا أَمْرًا على ما أَمَرَكم اللهُ، والمَفْعُولُ مَحذُوفٌ»^(١).

قوله: (إِلا أَنْ الأَوَّلَ أَمَلًا بِالْحُسْنِ): الأَساسُ: «نَظَرْتُ إِليه، فَمَلَأْتُ مِنْهُ عَينِي، وَهُوَ يَمَلَأُ العَينَ حُسْنًا، قال النِّميرُ»^(٢):

أَلَمْ تَرَها تُرِيكَ غِداً قَامَتْ
بِملءِ العَينِ مِنْ كَرَمِ وَحُسْنِ.

أَي: إِذا قُدِّرَ أَنَّهُ مُتَعَدِّ ثُمَّ حُذِفَ المَفْعُولُ؛ إِما لِلعُموْمِ أو لِإِرادَةِ إِجْراءِ المُتَعَدِّي مَجْرِي الأَلامِ، كانَ أَحسَنَ وَأَبْلَغَ، وَإِنْ بَعُدَتْ المِساْفَةُ مِنْ جَعْلِهِ ابْتِداءً لِإِلامًا؛ لِإِما عَرَفَتْ مِنَ الشُّبُوحِ وَالمِبالِغَةِ غَيرَ مَرَّةٍ.

قوله: (وَقُرِّي: «لَا تَقَدَّمُوا»؛ مِنْ القُدُومِ): الجَوْهَريُّ: «قَدِمَ مِنْ سَفَرِهِ قُدُومًا وَمَقَدِّمًا - بِفَتْحِ الدالِ - وَقَدِمَ - بِالْفَتْحِ - يَقْدِمُ قُدُومًا، أَي: تَقَدَّمَ»، فعلى هذا: سَبَبَةُ تَعْجِيلِهِمْ فِي قَطْعِ

(١) «المحتسب» لابن جِنِّي (٢: ٢٧٨).

(٢) في (ح) و(ف): «النِّمير»، والمُنْبَتُ مِنْ (ط) وَمِنْ «أَساسِ البِلاغَةِ»، مادَّة (ملا).

وهو النَّمِرُ بْنُ تَوَلِّبِ العُكْلِيِّ، شاعِرٌ مَخْضَرُمٌ، عاشَ في الجاهِليَّةِ، وأدركَ الإسلامَ، ووفدَ على النَّبِيِّ ﷺ، وتوفى في خِلافةِ عَمْرِو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. «الأعلام» للزركلي (٨: ٤٨).

وحقيقة قولهم: جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْ فُلَانٍ: أن يجلس بين الجهتين المُسَامَتَيْنِ ليمينه وشماله قريباً منه، فَسُمِّيَتِ الجهتان: يَدَيْنِ؛ لكونهما على سَمْتِ اليدينِ مع القُرْبِ منهما توسعاً، كما يُسَمَّى الشيءُ باسم غيره إذا جاوره وداناهُ في غير موضع، وقد جَرَتْ هذه العبارةُ هاهنا على سَنَنِ ضَرْبٍ مِنَ المجاز، وهو الذي يُسَمِّيهِ أَهْلُ البَيَانِ: تَمثِيلاً، ولجَريها هكذا فائدةٌ جليلةٌ ليست في الكلام العُرْيَانِ، وهي تصويرُ الهُجْنَةِ والسَّنَاعَةِ فيما نُهَوِّا عنه مِنَ الإقدامِ على أمرٍ مِنَ الأُمُورِ دونَ الاحتِذاءِ على أمثلةِ الكِتَابِ والسَّنَةِ.

الحكم في أمرٍ مِنَ أمورِ الدِّينِ بقُدُومِ المُسَافِرِ عن سَفَرِهِ؛ إيداناً بِشِدَّةِ رَغبتِهِم فيه، نحوه قولُه تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان: ٢٣].

قوله: (كما يُسَمَّى الشيءُ باسم غيره إذا جاوره وداناه): يعني: هو مِنَ المجازِ الذي يُسَمَّى بِتَسْمِيَةِ الشيءِ باسم مجاوره، نَحْو: جرى المِيزَابِ، وسالَ الوادي.

قوله: (على سَنَنِ ضَرْبٍ مِنَ المجازِ): المُغْرِبُ: «سَنَنُ الطريقِ: مُعْظَمُهُ وَوَسَطُهُ، وقولُه: فَمَرَّ السَّهْمُ فِي سَنَتِهِ، أَي: فِي طَرِيقِهِ مُسْتَقِيماً كما هو لم يَتَغَيَّرْ، أَي: لم يَرَجِعْ عَن وَجْهِهِ».

قوله: (وهو الذي يُسَمِّيهِ أَهْلُ البَيَانِ تَمثِيلاً): أَي: اسْتِعَارَةً تَمثيلية، شَبَّهَ تَعَجُّلَ الصَّحَابَةِ فِي إِقْدَامِهِمْ عَلَى قَطْعِ الحِكمِ فِي أَمْرِ مِنَ أُمُورِ الدِّينِ بِغَيْرِ إِذْنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، بِحَالِ مَنْ تَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ مَتَبِعِهِ إِذَا سَارَا فِي الطَّرِيقِ، وَأَنَّهُ فِي العَادَةِ مُسْتَهْجَنٌ، ثُمَّ اسْتَعْمِلَ فِي جَانِبِ المُشَبِّهِ مَا كَانَ مُسْتَعْمَلاً فِي جَانِبِ المُشَبَّهِ بِهِ مِنَ الأَلْفَاظِ، وَالغَرَضُ تَصْوِيرُ كَمَالِ الهِجْنَةِ، وَتَقْبِيحُ قَطْعِ الحِكمِ بِغَيْرِ إِذْنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

ومثله قولُه تعالى فِي حَقِّ الملائكةِ: ﴿لَا يَسْئَلُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، أَصْلُهُ: لَا يَسْبِقُ قَوْلُهُمْ قَوْلَهُ، فَسَبَّ السَّبْقُ إِلَيْهِمْ، وَجَعَلَ «القول» مَحَلَّهُ؛ تَنبِيهاً عَلَى اسْتِهْجَانِ السَّبْقِ المُعْرَضِ بِهِ لِلْقَائِلِينَ عَلَى اللَّهِ مَا لَمْ يَقُلْهُ.

قوله: (دونَ الاحتِذاءِ على أمثلةِ الكِتَابِ): هو افتِعالٌ مِنَ الحَذْوِ، وَفِيهِ مَعْنَى الِاعْتِمَالِ،

والمعنى: أن لا تَقْطَعُوا أمراً إلا بعدما يحكمان به ويأذنان فيه، فتكونوا: إما عاملين بالوحي المنزل، وإما مُقْتَدِينَ برسول الله ﷺ. وعليه يدور تفسير ابن عباس. وعن مجاهد: لا تَفْتَاتُوا على الله شيئاً حتى يَقْضَهُ على لسان رسوله.

ويجوزُ أن يُجْرَى مَجْرَى.....

كالاتِّسَابِ والكَسْبِ. الجوهرى: «يقال: حَدَوْتُ النَعْلَ بالنَعْلِ حَدَوًّا: إذا قَدَّرْتَ كُلَّ واحدةٍ على صاحبها»، وَضَمَّنَ معنى «قَدَّرَ»، وَعُدِّي بـ«على»، يُقال: قَدَّرْتُ عليه الثوابَ فانقَدَرَ، أي: جاءَ على المقدار، فأفادَ المبالغةَ بناءً وتَضْمِيناً.

قوله: (لا تَفْتَاتُوا على الله شيئاً): الأساس: «افتاتَ فلانٌ عليكم برأيه: سَبَقَكم به، ولم يُساوِرْكم في الحديث»، وفي «مَجْمَلِ اللغة»: «الافتات: افتعالٌ مِنَ القَوْتِ، وهو السَّبْقُ إلى الشيءِ دونَ ائْتِمَارِ مَنْ يُؤْتَمِرُ، وقيل: فلانٌ لا يُفْتَاتُ عليه، أي: يُعْمَلُ شيءٌ دونَ أمره».

قوله: (ويجوزُ أن يُجْرَى): معطوفٌ على قوله: «وقد جَرَتْ هذه العبارة» إلى آخره، أي: ويجوزُ أن يُجْرَى قوله تعالى: ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ مَجْرَى هذا الأسلوب، وأن يكونَ ذِكْرُ الله عَزَّ وَجَلَّ تمهيداً لذكرِ رسولِ الله ﷺ، وتعظيماً لِحُرْمَتِهِ وإجلاله، وعلى الأول: كانَ المرادُ منه حُكْمُ الله ونَصُّ كتابه.

وهذا الأسلوبُ أبلغٌ وللمعاني أشمل، والتمثيلُ له أظهر، لأنه إذ حُفِظَ^(١) مجلسُه صَلَوَاتُ الله عليه مِنَ الفَلَتَاتِ والسَّقَطَاتِ، ووَقَّرَ جانبُه من رَفَعِ الأصواتِ، كانَ التقدُّمُ بينَ يَدَيِ حُكْمِ الله أنهى، والمحافظةُ عليه أولى وأخرى.

ومن ثَمَّ عَقِبَ بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾، وكُرِّرَ النداءُ، وسُمِّوا بالمؤمنين؛ إيداناً بالتنبية على ما عَفَلُوا عنه، وأنَّ الإيمانَ هو الذي يَفْتَضِي ذلك، وفُضِّلَ ذلك

(١) في الأصول الخطية: «حُوفِظَ».

قولك: سَرَّني زيدٌ وحُسْنُ حاله، وأعجبتُ بعَمْرٍو وكَرَمِه، وفائدةُ هذا الأسلوب: الدلالةُ على قُوَّة الاختصاص، ولَمَّا كان رسولُ الله ﷺ مِنَ الله بالمكانِ الذي لا يخفى، سَلِّكَ له ذلك المَسَلَك.

وفي هذا تمهيدٌ وتوطئةٌ لِمَا نُقِمَ منهم فيما يتولَّوه من رَفَعِ أصواتهم فوق صَوْتِه، لأنَّ من أحظاهُ الله بهذه الأثرَة،

المَجْمَلُ أولاً بقوله: ﴿لَا تَرْفَعُوا﴾ [الحجرات: ٢]، وثانياً بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ﴾ [الحجرات: ٤]، وثالثاً بقوله: ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ [الحجرات: ٦]، ورابعاً بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٧]، وعُلِّلَ كُلُّ ذَلِكَ بقوله: ﴿لَعْنَتُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجرات: ٧].

ثم استطرَدَ ما فيه بيانٌ تَوْخِي حُسْنِ المَعاشِرَة مع الأصحابِ والإخوان، وإصلاح ذاتِ البين، والتنزُّه عن الفِرطاتِ مِنَ التنازُّبِ والغيبةِ وغير ذلك.

ولَمَّا فَرَغَ من بيانِ إيجابِ التَهيبِ لمجلسِ رسولِ الله ﷺ وإجلالِ جانبه، وشَرَحَ الصُّحْبَةَ مع الإخوان، سَرَعَ في بيانِ ما هم عليه من مُحَافَظَةِ تقوى اللهِ والإيمانِ والإسلام، وأعادَ التنبية، وأعمَّ المُنَادَى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ [الحجرات: ١٣] إلى آخِرِ السُّورَة.

قوله: (قولك: سَرَّني زيدٌ وحُسْنُ حاله): وعن بعضهم: الأصلُ أن يقول: سَرَّني حُسْنُ حاله، وأعجبتُني كَرَمُه خُصُوصاً، أي: له خِصَالٌ محمودَة كاملة، وهي مُعجِبَة لي، خُصُوصاً كَرَمُه، ولكن أردتُ المُبالِغَة، فذكرتُ اسمَه أولاً.

قوله: (نُقِمَ منهم): الأساس: «نُقِمْتُ منه كذا: أنكرته عليه وعيبته، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا الْآنَ يُؤْمِنُوا﴾ [البروج: ٨].

قوله: (بهذه الأثرَة): الأثرَة: اسمُ الاستِثارة.

واختصه هذا الاختصاص القوي، كان أدنى ما يجب له من التهيب والإجلال أن يُخفَضَ بين يديه الصَّوت، ويخافَتَ لَدَيْهِ بالكلام. وقيل: بعثَ رسولُ الله ﷺ إلى تِهامةَ سَريَّةَ سبعةَ وعشرينَ رجلاً، وعليهمُ المُنذرُ بنُ عَمْرِو الساعِدِي، فقتلهم بنو عامر، وعليهم عامرُ بنُ الطُّفيل، إلا ثلاثةَ نَفَرٍ نَجَّوا، فلقوا رَجُلَيْنِ مِن بني سُلَيْمِ قُربَ المدينة، فاعتزياً لهم إلى بني عامر، لأنهم أعزُّ من سُلَيْمِ، فقتلوهما وسلبوهما، ثم أتوا رسولَ الله ﷺ، فقال: «بِسْمَا صَنَعْتُمْ، كَانَا مِن سُلَيْمِ، وَالسَّلْبُ مَا كَسَوْتُهُمَا»، فوداهما رسولُ الله ﷺ، ونزلت. أي: لا تَعْمَلُوا شَيْئاً مِن ذَاتِ أَنْفُسِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْمِرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.

وعن مسروق: دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي يُشْكُ فِيهِ، فَقَالَتْ لِلجارية: اسْقِيهِ عَسَلًا، فَقُلْتُ: إِنِّي صَائِمٌ، فَقَالَتْ: قَدْ نَهَى اللَّهُ عَن صَوْمِ هَذَا الْيَوْمِ، وَفِيهِ نَزَلَتْ.....

قوله: (فاعتزياً لهم إلى بني عامر): يعني: أنهما انتسبا إلى بني عامر حين سُئِلَا عن نَسَبِهِمَا، وظننا أن به النجاة، لأن بني عامر كانوا أعز من بني سُلَيْمِ.

قوله: (والسَّلْبُ ما كَسَوْتُهُمَا): أي: ما سَلَبْتُمُ عَنْهُمَا مِنَ الثيابِ كانَ لي، أنا كَسَوْتُهُمَا، وكانت هذه الخِلاعةُ أمارَةً على الإسلام.

قوله: (فوداهما): أي: أعطى دِيَّتَهُمَا.

قوله: (وفيه نزلت): من تمام كلام عائشة رضي الله عنهما، وفي «المعالم»: «روى مسروق عن عائشة: أنه في النهي عن يوم الشك، أي: لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم»^(١).

ومسروق: ذكره صاحب «الجامع» في عداد التابعين، وقال: «هو مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الكوفي، أسلم قبل وفاة النبي ﷺ، وأدرك الصدر الأول من الصحابة، وكان خصيصاً بابن مسعود، روى عنه الكثير، وكانت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تبتئ مسروقاً، ومات بالكوفة سنة اثنتين وستين»^(٢).

(١) «معالم التنزيل» للبخاري (٧: ٣٣٤).

(٢) «جامع الأصول» لابن الأثير (١٢: ٨٩٩).

وعن الحسن: أن أناساً ذبحوا يوم الأضحى قبل الصلاة، فنزلت، وأمرهم رسول الله ﷺ أن يُعيدوا ذبحاً آخر.

وهذا مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه، إلا أن تزول الشمس. وعند الشافعي: يجوز الذبح إذا مضى من الوقت مقدار الصلاة.

وعن الحسن أيضاً: لما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة أتته الوفود من الآفاق، فأكثروا عليه بالمسائل، فنهوا أن يتدثروا بالمسألة حتى يكون هو المبتدئ. وعن قتادة: دُكر لنا: أن ناساً كانوا يقولون: لو أنزل في كذا مكان كذا، فكبره الله ذلك منهم، وأنزلها.

وقيل: هي عامة في كل قول وفعل، ويدخل فيه: أنه إذا جرت مسألة في مجلس رسول الله ﷺ لم يسبقوه بالجواب،

قوله: (وهذا مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه): ويؤيده ما روينا عن البخاري ومسلم والترمذي وأبي داود والنسائي^(١) عن البراء قال: «ذبح أبو بردة بن نيار قبل الصلاة، فقال النبي ﷺ: أبدلها، فقال: يا رسول الله، ليس عندي إلا جدعة، فقال النبي ﷺ: اجعلها مكانها، ولن تجزى عن أحد بعدك».

وفي رواية: أنه ﷺ قال: «إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا نُصلي، ثم ترجع فننحر، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل فإنها هو لحم قدمه لأهله، ليس من النسك في شيء، وكان أبو بردة بن نيار قد ذبح»، الحديث.

قوله: (وقيل: هي عامة في كل قول وفعل): هذا هو الذي عليه النظم، كما قررناه.

(١) البخاري (٩٥١) و(٩٥٥) و(٩٦٥) و(٩٦٨) و(٩٧٦) و(٩٨٣) و(٥٥٤٥) و(٥٥٥٦) و(٥٥٥٧) و(٥٥٦٠) و(٥٥٦٣)، ومسلم (١٩٦١)، والترمذي (١٥٠٨)، وأبو داود (٢٨٠٠)، والنسائي (١٥٨١).

وَأَنْ يَمْشِيَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَّا لِحَاجَةٍ، وَأَنْ يُسْتَأْنَى فِي الْإِفْتِيحِ بِالطَّعَامِ.

﴿وَأَنْقُوا اللَّهَ﴾ فَإِنَّكُمْ إِنْ اتَّقَيْتُمُوهُ عَافَتْكُمْ التَّقْوَىٰ عَنِ التَّقْدِيمَةِ الْمَنْهِيَّةِ عَنْهَا، وَعَنْ جَمِيعِ مَا تَقْتَضِي مُرَاقِبَةَ اللَّهِ تَجَنُّبَهُ، فَإِنَّ التَّقِيَّ حَذِرَ، لَا يُشَافَهُ أَمْرًا إِلَّا عَنِ ارْتِفَاعِ الرَّيْبِ وَانْحِلَاءِ الشَّكِّ فِي أَنْ لَا تَبِعَهُ عَلَيْهِ فِيهِ،.....

فإن قلت: أيّ فَرْقٍ بَيْنَ هَذَا الْقَوْلِ وَمَا سَبَقَ فِي الْقَوْلِ الْأَوَّلِ: «وَقَدْ جَرَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى سَنَنِ ضَرْبٍ مِنَ الْمَجَازِ؟» قلت: ذَلِكَ مَجَازٌ بِاعْتِبَارِ التَّمثِيلِ وَتَشْبِيهِهِ مَعْقُولٌ بِمَحْسُوسٍ كَمَا سَبَقَ، وَالْمَفْعُولُ مُقَدَّرٌ^(١)، كَمَا أُشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: «وَالْمَعْنَى: أَنْ لَا تَقْطَعُوا أَمْرًا إِلَّا بَعْدَ مَا يَحْكُمَانِ بِهِ، وَيَأْذَنَانِ فِيهِ»، فَلَا يُقَدَّرُ مَعْنَى الْحَقِيقَةِ فِيهِ بِنَحْوِ: «وَأَنْ لَا يَمْشِيَ بَيْنَ يَدَيْهِ»، وَهَذَا مَجَازٌ بِاعْتِبَارِ الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ، وَأَنَّ الْحَقِيقَةَ فَرَدُّ مِنْ أَفْرَادِ ذَلِكَ الْمَجَازِ، وَإِلَيْهِ أَوْمِيَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ: «وَيُتَوَجَّهُ النَّهْيُ إِلَى نَفْسِ التَّقْدِيمَةِ»، وَيُسَمَّى فِي الْأَصُولِ بِعُمُومِ الْمَجَازِ، وَفِي الصَّنَاعَةِ بِالْكِنَايَةِ، لِأَنَّهَا لَا تُثَاقِفُ إِرَادَةَ الْحَقِيقَةَ أَيْضًا.

قول: (وَأَنْ يُسْتَأْنَى): الْجَوْهَرِيُّ: «تَأْنَى فِي الْأَمْرِ: تَرَفَّقَ وَتَنَظَّرَ، وَاسْتَأْنَى بِهِ؛ أَي: انْتَظَرَ بِهِ^(٢)».

قوله: (لَا يُشَافَهُ أَمْرًا): الْأَسَاسُ: «شَافَهُتُ الْبَلَدَ وَالْأَمْرَ: إِذَا دَانِيَتْهُ^(٣)».

قوله: (فِي أَنْ لَا تَبِعَهُ عَلَيْهِ): مُتَعَلِّقٌ بِ«الشَّكِّ»، أَي: التَّقِيَّةِ^(٤) لَا يُدَانِي وَلَا يُقَارِبُ أَمْرًا مُتَجَاوِزًا عَنْ حَالَةٍ مِنَ الْأَحْوَالِ إِلَّا عَنْ حَالَةٍ اجْتَهَدَ فِيهَا، وَكشَفَ عَنْهَا، وَرَفَعَ الشَّكَّ فِي أَنَّهُ لَا تَبِعَهُ عَلَيْهِ فِي مُبَاشَرَةِ ذَلِكَ الْأَمْرِ، وَهُوَ مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ

(١) تَحَرَّفَ فِي (ف) إِلَى: «وَالْمَعْقُولُ مُقَدَّمٌ».

(٢) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةُ: «تَنْظَرُ»، وَالْمُبْتَدَأُ مِنَ «الصَّحَاحِ» لِلْجَوْهَرِيِّ، مَادَّةُ (أَي).

(٣) أَي: قَارِبَتْهُ، مِنْ الدُّنُوِّ.

(٤) تَحَرَّفَ فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةُ إِلَى: «النَّفْيِ»، وَأَثْبَتُ مَا يُؤَافِقُ سِيَاقَ الْكَلَامِ فِي «الْكَشَافِ».

وهذا كما تقول لمن يُقَارِفُ بعض الرذائل: لا تَفْعَلْ هذا، وَتَحْفَظُ مما يُلصِقُ بك العار. فتنهاه أولاً عن عَيْنِ ما قَارَفَهُ، ثم تَعْمُ وتُشيع، وتأمُرُهُ بما لو امتثل فيه أمرَكَ لم يَرْتَكِبْ تلك الفَعْلَةَ، وكُلُّ ما يَضْرِبُ في طريقها وَيَتَعَلَّقُ بِسَبَبِهَا.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لِمَا تقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تَعْمَلُونَ، وَحَقُّ مِثْلِهِ أَنْ يُتَّقَى وَيُرَاقَبَ.

[﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [٢]

إعادة النداء عليهم: استدعاءً منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد، وتطرية الإنصات لكل حكم نازل، وتحريك منهم، لئلا يفتتروا ويغفلوا عن تأملهم وما أخذوا به عند حضور مجلس رسول الله ﷺ من الأدب.....

من المتقين حتى يدع ما لا بأس به؛ حذراً مما به البأس»، أخرجه الترمذي وابن ماجه^(١) عن عطية السعدي.

قوله: (لا تَفْعَلْ هذا، وَتَحْفَظُ مما يُلصِقُ بك العار): يعني: قوله: ﴿وَأَنقُوا اللَّهَ﴾ مع تعليقه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: كالتهذيل لِمَا سبق، والتوكيد لِمَا يَتَضَمَّنُهُ بالطريق البرهاني، وإليه الإشارة بقوله: «وتأمُرُهُ بما لو امتثل فيه أمرَكَ لم يَرْتَكِبْ تلك الفَعْلَةَ».

قوله: (وكُلُّ ما يَضْرِبُ في طريقها): الأساس: «وهم ضَرَبَائِي، ومنه قولهم: هو ضَرَبُهُ وضَرِيه، أي: مثله»، أي: لم يَرْتَكِبْ تلك الفَعْلَةَ^(٢) وكُلُّ ما يُشَبِّهُهَا.

النهاية: «وفي حديثِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ: «إِذَا ذَهَبَ هَذَا وَضَرَبَ بَأْوَهُ»، وهم الأمثال».

قوله: (وما أَخَذُوا به): النهاية: «يُقَالُ: أَخَذَ فُلَانٌ بَدَنَبَهُ، أي: حُبِسَ وَجُوزِيَ عَلَيْهِ»، وإنما

(١) الترمذي (٢٤٥١)، وابن ماجه (٤٢١٥).

(٢) من أول الفقرة (قوله: «وكُلُّ ما يَضْرِبُ...») إلى هنا، سقط من (ح).

الذي المُحَافَظَةُ عليه تعودُ عليهم بِعَظِيمِ الجَدْوَى في دينهم، وذلك أن في إعظام صاحب الشَّرْعِ إعظاماً ما وَرَدَ به، ومُسْتَعْظِمُ الحَقِّ لا يَدْعُهُ اسْتِعْظَامُهُ أَنْ يَأْلُو عَمَلًا بِمَا يَحْدُوهُ عليه، وارتداعاً عما يَصُدُّه عنه، وانتهاءً إلى كُلِّ خير.

والمُرَادُ بقوله: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾: أنه إذا نَطَقَ وَنَطَقْتُمْ، فعليكم أن لا تَبْلُغُوا بِأَصْوَاتِكُمْ وراءَ الحدِّ الذي يَبْلُغُهُ بِصَوْتِهِ،

يَسَّرَ «ما أُخِذُوا» بقوله: «مِنَ الأَدبِ»؛ لأنَّ المُرَادَ به التَّأدُّبُ الذي أَدَّبَهُم اللهُ في قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، ولذلك كَانَ «وما أُخِذُوا» عَطْفًا تفسيريًا على «تَأْمَلِهِمْ»، فأراد بالأدب: التَّأدُّبُ؛ إطلاقاً لِلْمُسَبَّبِ على السَّبَبِ، أي: لا تَغْفَلُوا عن التَّأْمَلِ فيما أُخِذُوا به في قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾، لأنَّ السَّابِقَ بِسَاطِ هذه الآية، ووَطْءَ لِذِكْرِهَا، كما سيجيء.

قوله: (تعودُ عليهم بِعَظِيمِ الجَدْوَى): الأساس: «عادَ علينا فلانٌ بِمَعْرُوفِهِ، وما أَكثَرَ عائدةً فلانٍ على قومه».

قوله: (أن يَأْلُو عَمَلًا): الجوهري: «ألا [الرجل] ^(١) يَأْلُو، أي: قَصَّرَ، وفلان لا يَأْلُوكَ نَضْحًا».

قوله: (يَحْدُوهُ عليه): بالحاءِ المُهْمَلَةِ، ورُوِيَ بالجيمِ وليس بشيء؛ لقوله: «وارتداعاً عما يَصُدُّه عنه». النهاية: «في حديثِ الدُّعاء: «لا تَحْدُونِي عليها خَلَّةٌ واحِدَةٌ»، أي: لا تَبْعُنِي وتَسُوْقُنِي عليها خَصْلَةٌ واحِدَةٌ، وهو مِن حَدْوِ الإِبِلِ، فإنه مِن بَعَثِ الأَشْيَاءِ على سَوَاقِهَا».

وتلخيصُه: أنهم إذا تَأَدَّبُوا بِذلكِ الأَدبِ وَحَفِظُوهُ، تُكسِبُهُمُ المُحَافَظَةُ عليه تعظيمَ دينهم، لأنَّ في إعظامِ صاحبِ الشَّرْعِ إعظامَ الدِّينِ، ومن يُريدُ تعظيمَ دينه لا يُخَلِّيه ذلكَ التَّعْظِيمُ أَنْ يُقَصِّرَ في عَمَلٍ يَبْعَثُهُ وَيَسُوْقُهُ إلى الاستِعْظَامِ، ولا يُقَصِّرُ أيضاً في ارتداعٍ ما يَمْنَعُهُ عن الاستِعْظَامِ، ولا يُقَصِّرُ أيضاً في أن يَنْتَهِيَ إلى كُلِّ خيرٍ لأجلِ ذلكَ الاستِعْظَامِ.

(١) لفظة «الرجل» لم ترد في الأصول الخطية، وأثبتها من «الصَّحاح» للجوهري، مادة (ألو).

وَأَنْ تَغُضُّوا مِنْهَا بَحِيثٌ يَكُونُ كَلَامُهُ عَالِيًا لِكَلَامِكُمْ، وَجَهْرُهُ بَاهِرًا لَجَهْرِكُمْ، حَتَّى تَكُونَ مَزِيَّتُهُ عَلَيْكُمْ لَانِحَةً، وَسَابِقْتُهُ وَاضِحَةً، وَامْتِيَازُهُ عَنِ جُمْهُورِكُمْ كَشِيَّةِ الْأَبْلَقِ غَيْرُ خَافٍ، لَا أَنْ تَعْمُرُوا صَوْتَهُ بِلُغَطِكُمْ، وَتَبْهَرُوا مَنْطِقَهُ بِصَخَبِكُمْ.

ويقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لِلَّهِ بِالْقَوْلِ﴾: أنكم إذا كَلَّمْتُمُوهُ وهو صامِتٌ، فإياكم والعدول عما نُهَيْتُمْ عنه مِنْ رَفْعِ الصَّوْتِ، بل عليكم أن لا تَبْلُغُوا به الجهرَ الدائرَ بينكم، وأن تَتَعَمَّدُوا فِي مُخَاطَبَتِهِ الْقَوْلَ الْبَيِّنَ الْمُقْرَبَ مِنَ السَّمْسِ الَّذِي يُضَادُّ الْجَهْرَ، كما تكونُ مُخَاطَبَةُ الْمَهَيْبِ الْمُعْظَمِ، عَامِلِينَ بِقَوْلِهِ عَزَّ اسْمُهُ: ﴿وَتُعْزِرُوهُ وَتُقَوِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩].

وقيل معنى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لِلَّهِ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ لا تقولوا له: يا مُحَمَّدُ، يا أَحْمَدُ، وخاطبوه بالنُّبُوَّةِ، قال ابنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَا أَكَلِّمُكَ إِلَّا السَّرَّارَ أَوْ أَخَا السَّرَّارِ حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ. وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ كَانَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ كَأَخِي السَّرَّارِ، لَا يُسْمِعُهُ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ إِذَا قَدِمَ.....

قوله: (عَالِيًا لِكَلَامِكُمْ): اللامُ جِيءَ بِهَا لِضَعْفِ عَمَلِ اسْمِ الْفَاعِلِ، وَكَذَا فِي «بَاهِرًا لَجَهْرِكُمْ». الْجَوْهَرِيُّ: «بَهْرَهُ بَهْرًا، أَي: غَلَبَهُ»، وَكَذَا «عَلَوْتُ الرَّجُلَ: غَلَبْتُهُ».

قوله: (وَبِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا﴾): عَطَفَ عَلَى قَوْلِهِ: «بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾».

قوله: (قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَا أَكَلِّمُكَ إِلَّا السَّرَّارَ أَوْ أَخَا السَّرَّارِ): رَوَيْنَا عَنْ الْبُخَارِيِّ وَالتِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ^(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: «قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَمْرُ الْقَعْقَاعِ بْنِ مَعْبُدٍ، وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَمْرُ الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا أَرَدْتَ إِلَّا خِلَافِي، وَقَالَ عُمَرُ: مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ، فَتَمَارَيْتَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا، فَتَزَلَّتْ».

(١) البخاري (٤٣٦٧) و(٤٨٤٧)، والترمذي (٣٢٦٦)، والنسائي (٥٣٨٦).

على رسول الله ﷺ وفد، أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون، ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله ﷺ.

وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر: ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة، لأن ذلك كفر، والمخاطبون مؤمنون، وإنما الغرض صوت هو في نفسه، والسموع من جريسه: غير مناسب لما يهاب به العظماء، ويوقر الكبراء، فيتكلف الغص منه، وردّه إلى حد يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير.

وفي رواية: «كاد الخيران أن يهلكا، قال ابن الزبير: فكان عمر بعد إذا حدث [النبي ﷺ] (١) بحديث، حدّته كأخي السرار، لم يسمعه حتى يستهمه» (٢).

قال في «الفائق»: «كأخي السرار: أي: كلاماً مثل المسارة وشبهها لحفض صوته، والكاف في محل النصب؛ صفة مصدر محذوف، والضمير في «لا يسمعه» يرجع إلى الكاف، و«لا يسمعه» صفة لقوله: (كأخي السرار)» (٣).

قوله: (وليس الغرض): عطف على قوله: «والمراد بقوله: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾»، يعني: أنهم وإن نهوا عن رفع الصوت والجهر، لكن ليس الغرض بذلك أنهم كانوا مبشرين ما يلزم منه الاستخفاف والاستهانة برسول الله ﷺ، وكيف وهم خير الناس؟! بل الغرض أن التصويت بحضرتيه بنفسه مباح لتوقيره وتعزيره.

ويدل على هذا التأويل قوله: «ولم يتناول النهي أيضاً [رفع الصوت] الذي لا يتأذى به»، يعني: وإن كان الغرض في النهي الزجر عن التصويت نفسه، لكن ما بلغ إلى حد يحرم مطلقاً، لأنه إذا تناط به مصلحة من المصالح، ويكون مأموراً به، كان واجباً.

(١) ما بين حاصرتين لم يرد في الأصول الخطية، وأثبتته من «صحيح البخاري».

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٤٥) و(٧٣٠٢).

(٣) «الفائق» للزنجشيري ١: ٢٤، مادة (أخ).

ولم يتناول النهي أيضاً رفع الصوت الذي لا يتأذى به رسول الله ﷺ، وهو ما كان منهم في حرب، أو مُجادلة مُعائِد، أو إرهابِ عَدُوٍّ، أو ما أشبه ذلك، ففي الحديث: أنه قال عليه السَّلام للعباس بن عبد المطلب لَمَّا انهزمَ الناسُ يومَ حُنين: «اصْرُخْ بالناس»، وكان العباسُ أجهَرَ الناسِ صوتاً.....

والحاصل: أن النهيَ تناولَ الصوتَ الذي يتأذى به الرسولُ ﷺ، وقوله: «والمسموعُ من جَرَسِه» زيادةٌ وبيان.

الأساس: «ما سَمِعنا له جَرَساً ولا هَمْساً، وهو الخفيُّ مِنَ الصَّوتِ، وجرَسُ الكلامِ: نَغَمٌ به، والحروفُ كُلُّها مجروسةٌ إلا أحرفَ اللين».

«إلى حَدِّ يَمِيلُ به»: «يميلُ به» صفةٌ «حَدِّ»، وضميرُ الفاعلِ يعودُ عليه، والضميرُ في «به» عائدٌ إلى «الصَّوتِ»، وفاعلٌ «يَسْتَبِينُ»: «المأمورُ به»، والضميرُ في «فيه» عائدٌ إلى «ما»، و«مِنْ التَّعْزِيرِ» بيانُ المأمورِ به، أي: فَيَتَكَلَّفُ المُكَلَّفُ رَدَّ الصَّوتِ إلى حَدِّ يَمِيلُ به إلى ما يَظْهَرُ فيه التوقيرُ المأمورُ به.

قوله: قال ﷺ للعباس بن عبد المطلب لَمَّا انهزمَ الناسُ: «اصْرُخْ بالناس»: روى مُسلمٌ^(١) عن العباسِ قال: «شَهِدْتُ مَعَ رسولِ اللهِ ﷺ يومَ حُنين، وكَزِمْتُ أنا وأبو سفيانَ بنَ الحارثِ ابنِ عبدِ المطلبِ رسولَ اللهِ ﷺ، فلم تُفارقهُ»، وساقَ الحديثَ إلى قوله: «وَأَيُّ المُسْلِمونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رسولُ اللهِ ﷺ يَرَكُضُ عَلَيَّ بِغَلْتِهِ قَبْلَ الكُفَّارِ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: يا عباس، نادِ أصحابَ السَّمُرَةِ^(٢)، فقال عباس - وكانَ رَجُلًا صَيِّتًا -: فقلتُ بأعلى صوتي: أين أصحابُ السَّمُرَةِ، قال: فوالله لكانَ عَظْفَتَهُمْ حينَ سَمِعُوا بصوتي عَظْفَةُ البَقَرِ على أولادها» الحديث. وكنيةُ العباسِ في «الاستيعاب» و«الجامع»^(٣): أبو الفضل.

(١) في «صحيحه» برقم (١٧٧٥).

(٢) تقدّم ص ٣٨٤ في تفسير الآية ١٠ من سورة الفتح تعليقاُ أنها نوعٌ من شجر الطَّلح.

(٣) «الاستيعاب» لابن عبد البر (٣: ٩٤) بهامش «الإصابة» لابن حجر، و«جامع الأصول» لابن الأثير

يُروى: «أن غارة أتتهم يوماً، فصاح العباس: يا صباحاه، فأسقطت الحوامل لشدّة صوته. وفيه يقول نابغة بني جعدة:

زَجَرَ أَبِي عُرْوَةَ السَّبَاعِ إِذَا أَشْفَقَ أَنْ يَخْتَلِطَنَّ بِالْغَنَمِ

رَعَمَتِ الرّوَاةُ أَنَّهُ كَانَ يَزْجُرُ السَّبَاعَ عَنِ الْغَنَمِ، فَيَفْتَقُ مَرَارَةَ السَّبْعِ فِي جَوْفِهِ. وفي قراءة ابن مسعود: «لا ترفعوا بأصواتكم»، والباء مزيدة محذوفاً بها حذف التشديد في قول الأعلام الهذلي:

رَفَعْتُ عَيْنِي بِالْحِجَابِ زِلِّي أَنَسِي بِالْمَنَاقِبِ

وليس المعنى في هذه القراءة: أنهم نهوا عن الرفع الشديد؛

قوله: (يا صباحاه): هذه كلمة يقولها المستغيث، وأصلها إذا صاحوا للغارة، لأنهم أكثر ما كانوا يُغيرون عند الصباح، فكأنه يقول: يا صباحاه، قد غشينا العدو.

قوله: (رفعت عيني بالحجاب إلى أناسٍ بالمناقب): التشديد في «رفعت» للمبالغة، والمناقب: اسم موضع، وانتفق أن ابن مسعود كان هذلياً والأعلم كذا، روي عن المصنف: أن كلا الأعلام كانا هذليين، ابن مسعود أعلم؛ من العلم، والثاني: اسمه أعلم؛ لكونه مقطوع الشفة^(١).

قوله: (وليس المعنى في هذه القراءة): يعني: في قراءة ابن مسعود، أي: أن الباء دلّت على

(١) الأعلام: مقطوع الشفة العليا، أما مقطوع الشفة السفلى فيقال له: أفلح، ومن لطائف العلامة الزمخري رحمه الله تعالى قوله:

وَأَخْرَجَنِي دَهْرِي وَقَدَّمَ مَعْرَأَ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَأَعْلَمَ
وَمُذْ أَفْلَحَ الْجَهَّالُ أَيَقَنْتُ أَنِّي أَنَا الْمَيْمُ وَالْأَيَّامُ أَفْلَحَ أَعْلَمَ

قال ابن تغري بردي في ترجمة الملك المنصور قلاوون من «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»: «وفائدة ذلك أن مشقوق الشفتين العليا والسفلى لا يقدر أن يتلفظ بالميم، ولا ينطق بها، فانظر إلى حسن هذا التخيل والغوص على المعاني».

تَحِيلاً أَنْ يَكُونَ مَا دُونَ الشَّدِيدِ مُسَوِّغاً لَهُمْ، وَلَكِنَّ الْمَعْنَى: نَهَيْهِمْ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْجَلْبَةِ، وَاسْتَجْفَأُوا فِيهَا كَانُوا يَفْعَلُونَ.

وعن ابن عباس: نَزَلَتْ فِي ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَكَانَ فِي أُذُنِهِ وَقْرٌ، وَكَانَ جَهْوَرِيَّ الصَّوْتِ، فَكَانَ إِذَا تَكَلَّمَ رَفَعَ صَوْتَهُ، وَرَبِمَا كَانَ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَيَتَأَذَى بِصَوْتِهِ. وَعَنْ أَنَسٍ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَمَّا نَزَلَتْ فَقَدَ ثَابِتٌ، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأُخْبِرَ بِشَأْنِهِ، فَدَعَاهُ، فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ، وَإِنِّي رَجُلٌ جَهِيرُ الصَّوْتِ، فَأَخَافُ أَنْ يَكُونَ عَمَلِي قَدْ حَبِطَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَسْتَ هُنَاكَ، إِنَّكَ تَعِيشُ بِخَيْرٍ، وَتَمُوتُ بِخَيْرٍ، وَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

المُبَالِغَةُ؛ لِأَنَّهَا مِثْلُ التَّشْدِيدِ فِي «رَفَعْتَ»، وَهُوَ لِلْمُبَالِغَةِ، فَدَلَّ دَلِيلُ الْخِطَابِ عَلَى جَوَازِ رَفْعِ الصَّوْتِ دُونَ الشَّدِيدِ، لَكِنَّ الْآيَةَ نَازِلَةٌ فِي شَأْنِ قَوْمٍ لَهُمُ الْجَلْبَةُ وَالِاسْتَجْفَاءُ وَالغِلْظَةُ، وَنَهَيْهِمْ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ، نَحْوَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَكْفُرُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠].

قَوْلُهُ: (فِي ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ): رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ^(١) عَنْ أَنَسٍ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ جَلَسَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ فِي بَيْتِهِ، وَقَالَ: أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَاحْتَبَسَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ^(٢) سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، فَقَالَ: «يَا أَبَا عَمْرٍو، مَا شَأْنُ ثَابِتٍ؟ أَشْتَكِي؟» قَالَ سَعْدٌ: إِنَّهُ جَارِي، وَمَا عَلِمْتُ لَهُ بِشَكْوَى، فَأَتَاهُ سَعْدٌ، فَقَالَ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِي أَرَفَعُكُمْ صَوْتًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ سَعْدٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

قَوْلُهُ: (لَسْتَ هُنَاكَ): كِنَايَةٌ عَنِ نَزَاهَتِهِ عَمَّا ظَنَّ فِي نَفْسِهِ.

(١) البخاري (٣٦١٣) و(٤٨٤٦)، ومسلم (١١٩).

(٢) في (ح) و(ف) إلى: «واحتبس قال النبي»، وفي (ط): «واحتبس فسأل النبي»، والمثبت من «صحيح مسلم».

وأما ما يروى عن الحسن: أنها نزلت فيمن كان يرفع صوته من المنافقين فوق صوت رسول الله ﷺ: فمحملة - والخطاب للمؤمنين - على أن ينهى المؤمنون ليندرج المنافقون تحت النهي؛ ليكون الأمر أغلظ عليهم وأشق.

وقيل: كان المنافقون يرفعون أصواتهم ليظهروا قلة مبالاتهم، فيقتدي بهم ضعفة المسلمين.

وكاف التشبيه في محل النصب، أي: لا تجهروا له جهراً مثل جهر بعضكم لبعض. وفي هذا: أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقاً، حتى لا يسوغ لهم أن يكلموه إلا بالهمس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيّد بصفة، أعني: الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منه فيما بينهم، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها، وانحطاط سائر الرتب، وإن جلت عن رتبها.

قوله: (فمحملة): جواب «أما»، و«على أن ينهى» متعلق بـ «محملة» خبراً، و«الخطاب للمؤمنين» جملة اعتراضية^(١).

قوله: (ليكون الأمر أغلظ): وذلك من إفادة التعريض التوبيخي، كأنهم ليسوا ممن يستحقون المخاطبة، لأنهم بعداء مطرودين تحقيراً بشأنهم، وازدراءً بحالهم، كقوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿وَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوا مِنِّي آلِهَةً مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

قوله: (بمماثلة ما قد اعتادوه منه): الضمير في «اعتادوه»^(٢) عائد إلى «ما»، و«منه» بيان، والضمير فيه للجهر، أي: الجهر المشابه لِمَا اعتادوه فيما بينهم.

قوله: (وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها): نظر إلى تخصيص ذكر «النبى» في قوله: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾. انظر - أيها المتأمل - في استقرار هذه

(١) قوله: «جملة اعتراضية»: سقط من (ف).

(٢) قوله: «منهم الضمير في اعتادوه»: سقط من (ح).

﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ منصوب الموضع، على أنه مفعول له، وفي مُتَعَلِّقِهِ وجهان: أحدهما: أن يتعلّق بمعنى النهي، فيكون المعنى: انتهوا عما نُهيْتُمْ عنه لحبوط أعمالكم، أي: لخشيّة حُبُوطِهَا، على تقديرِ حَذْفِ المضاف، كقوله تعالى: ﴿بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]. والثاني: أن يتعلّق بنفس الفعل، ويكون المعنى: أنهم نُهِوا عن الفعل الذي فَعَلُوهُ لأجلِ الحبوط، لأنه لَمَّا كَانَ بَصَدِّ الأَدَاءِ إِلَى الحبوط، جُعِلَ كَأَنَّهُ فَعَلَ لأجله، وكأنه العِلَّةُ والسَّبَبُ في إيجاده على سبيل التمثيل، كقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ [القصص: ٨].

الكلمة في مقام التبجيل والتعظيم، ثم انظر إلى لفظ «رَسُولِهِ» في قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ في مقام الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة؛ لتفَعَّ على سِرِّ قوله ﷺ: «لا، والنبي الذي أرسلت»، فيما رويناه في «صحيح البخاري»^(١) عن البراء بن عازب قال: قال النبي ﷺ: «إذا أتيت مَضَجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثم اضطجع على شِقِّكَ الأيمن، ثم قل: اللهم أسلمت نفسي إليك، وفوّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت، فإن مُتَّ من ليلتك فأنت على الفطرة، واجعلهنَّ آخِرَ ما تتكلَّم به»، قال: فرددتها على النبي ﷺ، فلما بلغت: «آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت»، قلت: «ورسولك»، قال: «لا، ونبيك الذي أرسلت».

النهاية: «إنما ردَّ عليه ليختلف اللفظان، ويجمع له الثناءين؛ معنَي النبوة والرسالة، ويكون تعديداً للنعمة في الحالتين، وتعظيماً للمنة على الوجهين. والرسولُ أحصُّ من النبي، لأنَّ كُلَّ رسولٍ نبيٍّ، وليس كُلُّ نبيٍّ رسولاً، وقيل: النبيُّ: مُشْتَقٌّ مِنَ النَّبَاةِ، وهو الشيءُ المُرتَفِعُ».

وقلت: هذا المعنى أنسبُ فيما نحنُ بصددِهِ، والله أعلم.

قوله: (على سبيل التمثيل): أي: تشبيه الحالِ بالحال، فإن فَعَلَهُمْ لَمَّا أَدَى إِلَى الحبوط، فكأنهم قَصَدُوا لأجله، كقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، وقوله: «لأجلِ الحبوط» مُتَعَلِّقٌ بقوله: «فَعَلُوهُ»، أي: فَعَلُوا رَفَعَ الصَّوْتِ لأجلِ الحبوط.

فإن قلت: لَخَصِّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْوَجْهَيْنِ. قلت: تلخيصه: أن يُقَدَّرَ الْفِعْلُ فِي الثَّانِي مضموماً إليه المفعول له، كأنها شيء واحد، ثم يُصَبَّ النَّهْيُ عَلَيْهَا جَمِيعاً صَبّاً، وفي الأول: يُقَدَّرُ النَّهْيُ مُوجَّهاً عَلَى الْفِعْلِ عَلَى حِيَالِهِ، ثم يُعْلَلُ لَهُ مِنْهَا عَنْهُ.

فإن قلت: بأيّ النَّهْيَيْنِ تَعَلَّقَ الْمَفْعُولُ لَهُ؟ قلت: بالثاني عند البصريين، مُقَدِّراً إِضْمَارَهُ عِنْدَ الْأَوَّلِ، كقوله: ﴿ءَأْتُونِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦]، وبالعكس عند الكوفيين، وأيهما كان: فمرجع المعنى إلى أَنَّ الرَّفْعَ وَالْجَهَرَ كِلَاهُمَا مَنْصُوصٌ أَدَاؤُهُ إِلَى حُبُوطِ الْعَمَلِ.

وقراءه ابن مسعود: «فَحَبَطَ أَعْمَالَكُمْ»: أَظْهَرَ نَصّاً بِذَلِكَ، لِأَنَّ مَا بَعْدَ الْفَاءِ لَا يَكُونُ إِلَّا مُسَبِّباً عَمَّا قَبْلَهُ، فَيَتَنَزَّلُ الْحَبُوطُ مِنَ الْجَهْرِ مَنْزِلَةَ الْحُلُولِ مِنَ الطُّغْيَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيحِلُّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ [طه: ٨١].

قوله: (تلخيصه: أن يُقَدَّرَ الْفِعْلُ فِي الثَّانِي) إِلَى آخِرِهِ: تَلْخِيصُهُ مَا قَالَ صَاحِبُ «التَّقْرِيْبِ»: «وَالْفَرْقُ أَنَّ الْفِعْلَ الْمَنْهِيَّ مُعْلَلٌ فِي الْأَوَّلِ، وَالْفِعْلَ الْمُعْلَلُ مَنْهِيٌّ فِي الثَّانِي»، وَعَنْ بَعْضِهِمْ: «إِذَا رَفَعْتُمْ (١) حَبَطَتْ أَعْمَالَكُمْ، فَالْحَبَطُ نَتِيجَةٌ فِي الْوَجْهِ الثَّانِي، وَفِي الْوَجْهِ الْأَوَّلِ: ﴿أَنْ تَحَبَطَ﴾ تَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ لَا لِلْفِعْلِ نَفْسِهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: لِمَ تَنَاهَانَا؟ فَقِيلَ: خِيفَةَ حَبَطِ الْأَعْمَالِ، أَوْ: لِمَ لَا نَرْفَعُ؟ فَقِيلَ: أَنْ تَحَبَطَ».

قوله: (ثم يُعْلَلُ لَهُ): الْفِعْلُ مُسْتَدُّ إِلَى الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ، وَالضَّمِيرُ الْمَجْرُورُ لِلْفِعْلِ، وَ«مَنْهِيّاً» حَالٌ مِنْهُ، أَي: يُعْلَلُ الْفِعْلُ حَالَ كَوْنِهِ مَنْهِيّاً عَنْهُ.

قوله: (في قوله تعالى: ﴿فِيحِلُّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾) يَعْنِي: قَرَأَ الْكِسَائِيُّ: «فِيحِلُّ» بِضَمِّ الْحَاءِ (٢) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾، وَالْمَعْنَى: لَا يَكُنْ مِنْكُمْ طُغْيَانٌ، فَحُلُولُ غَضَبِ مَنِي. وَكَذَا هَاهُنَا: لَا يَكُنْ مِنْكُمْ رَفْعُ الصَّوْتِ، فَحُبُوطُ عَمَلِ مَنِي.

(١) أي: رفعتهم أصواتكم.

(٢) في (ج) و(ف): «قرأ النسائي: «فيحل» بالنصب»، وفيه نظر؛ فالقراءة بالنصب في قوله: «فيحل» هي قراءة القراء عامة، فلا وجه لتخصيص الكسائي بها، وإنما تميّز الكسائي عن سائر القراء في هذه الآية بضم الحاء، فقراء: «فيحل»، كما في «النشر» لابن الجزري (٢: ٣٢١)، فالتبئت من (ط) هو الصواب.

والحبوط: من: حَبِطَتِ الإبل: إذا أَكَلَتِ الخَصِرَ فَفَتَحَ بَطُونَهَا، وربما هلكت، ومنه قوله عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وإنَّ مَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ لَمَا يَقْتُلُ حَبَطًا، أَوْ يُلِمُّ»،

وهذه الفاء عند البَصْرِيِّينَ تَنْصِبُ بإضمار «أن» بِشَرْطَيْنِ: أحدهما: السَّبَبِيَّةُ، والثاني: أن يكونَ قَبْلَهَا أمرٌ أو نهيٌ أو استِثْهَامٌ أو نفيٌ أو تَمَنُّ أو تَرَجُّحٌ، وهي في الحقيقة عاطفةٌ ما بعدها بتأويلِ المَصْدَرِ على مَصْدَرٍ ما قَبْلَهَا، فيُقَدَّرُ فيه «أن» لِتَعُدُّرِ غيرها، لا أنها ناصِبةٌ بِنَفْسِهَا.

ثم قوله: «وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» تَمِيمٌ للمعنى، وإعلامٌ بأنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَنْبَغِي أن يُجَلَّ وَيُعْظَمَ غايةَ الإجلالِ والإعظامِ، وأنه قد يُفَعَّلُ الشَّيْءُ مما لا يُشْعَرُ به في أمرِ النَّبِيِّ ﷺ، فيكونُ ذلك مُهْلِكًا لفاعِلِهِ وقائِلِهِ، ولذلك قال بعضُ الفُقهاء: مَنْ لم يَحْتَشِمْ في كلامِهِ بِحَضْرَةِ الرَّسالةِ، وبَدَرَ مِنْهُ ما يُنْبِئُ عن أدنى نَقْصٍ، وَجَبَ قَتْلُهُ. وهو مذهبُ مالِكٍ وأصحابِهِ، رضي اللهُ عَنْهُمْ.

قوله: (وإنَّ مَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ): رويَنا عن البُخاريِّ ومُسلمٍ والنَّسائيِّ وابنِ ماجَّةَ^(١) عن أبي سعيد قال: «جَلَسَ رسولُ اللهِ ﷺ على المنبرِ، فقال: إنَّ ما أخافُ عليكم بعدي ما يُفْتَحُ عليكم مِن زَهْرَةِ الدُّنيا وزَيَّتِهَا، فقال رجلٌ: أَوْ يَأْتِي الخَيْرُ بِالشَّرِّ يا رسولَ اللهِ؟ فسَكَتَ رسولُ اللهِ ﷺ، ورأينا^(٢) أنه يَنْزِلُ عليه، فأفاقَ يَمْسُحُ عَنْهُ الرَّحْضَاءُ»، وفي رواية: «أينَ السائلُ آفِئًا^(٣)؟ إنَّ الخَيْرَ لا يَأْتِي إلا بالخَيْرِ، وإنَّ ما يُنْبِتُ الرَّبِيعُ ما يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ، إلا أَكَلَةَ الخَصِرِ، فإنَّها أَكَلَتْ، حتَّى إذا امتدَّتْ خاصِرَتاها اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ، فَتَلَطَّتْ ومالت، ثم رَتَعَتْ، وإنَّ هذا المَالَ خَصِرٌ حُلُوٌّ، ونعمَ صاحبُ المُسْلِمِ هو لِمَنْ أعطى مِنْهُ المُسكينَ واليَتيمَ وابنَ السَّبيلِ - أو كما قال رسولُ اللهِ ﷺ - وإنَّ مَنْ يأخذهُ بغيرِ حَقِّه، كالذي يأكلُ ولا يَشْبَعُ، ويكونُ عليه شهيداً يومَ القيامةِ».

(١) البخاري (١٤٦٥) و(٢٨٤٢) و(٦٤٢٧)، ومسلم (١٠٥٢)، والنسائي (٢٥٨١)، وابن ماجه (٣٩٩٥).

(٢) تحرّف في الأصول الخطية إلى: «ورويانا»، فأوهم أنّهما روايتان، وليس كذلك.

(٣) زاد في الأصول الخطية هنا: «أو خير»، ولا معنى له، وفي «الصحيحين» هنا: «وكانه حمده».

ومن أخواته: حَبِجَتِ الإِبِل: إذا أَكَلَتِ العَرَفَجَ فأصابها ذلك

الشَّرْح: الرُّحْضَاء: عَرَقٌ يَغْسِلُ الجِلْدَ لِكَثْرَتِهِ، وَبُسْتَعْمَلُ فِي مَرَضِ الحُمَى، «أَوْ يَلِيمُ»: أَي: يَقْرُبُ وَيَدْنُو مِنَ الهَلَاكِ، «الثَّلَطُ»: الرَّجِيعُ الرقيق، يُقَالُ: حَبِطَتِ الدَابَّةُ حَبْطًا - بالتحريك -: إذا أصابت مَرْعَى طَيِّبًا، فَأَفْرَطَتْ حَتَّى تَنْفَخَتْ وَمَاتَتْ، وَذَلِكَ أَنَّ الرِّيعَ يُنْبِتُ أَحْرَارَ العُشْبِ^(١)، فَتَسْتَكْثِرُ مِنْهُ الماشيةُ لاسْتِطابَتِها، فَيُؤَدِّي إِلَى الهَلَاكِ أَوْ يُقَارِبُهُ، وَ«الخَضِرُ» - بكَسْرِ الضاد -: نَوْعٌ مِنَ البُقُولِ، لَيْسَ مِنْ أَحْرارِها وَجَيِّدِها، وَإِنما ترعاها المواشي إِذا لم تَجِدْ سِواها، فلا تُكثِرُ منها، ولا تَسْتَمِرُّها.

ضَرَبَ صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِ فِي الحَدِيثِ مَثَلَيْنِ: أَحدهما لِلْمُفْرِطِ فِي جَمْعِ الدُّنْيَا وَالمنعِ مِنْ حَقِّها، وَالآخَرُ لِلْمُقْتَصِدِ فِي أَخْذِها لِلنَّفْعِ، فَقَوْلُهُ: «إِنَّ ما يُنْبِتُ الرِّيعَ»: مَثَلٌ لِلْمُفْرِطِ الَّذِي يَأْخُذُ الدُّنْيَا بِغَيْرِ حَقِّها، وَيَمْنَعُها مُسْتَحِقِّها، فَإِنَّه تَعَرَّضَ لِلهَلَاكِ فِي الآخِرَةِ بِدخولِ النارِ، وَفِي الدُّنْيَا بِأَذَى النّاسِ لَهُ، وَحَسَدِهِمْ إِياءَهُ، وَقَوْلُهُ: «إِلا آكَلَةَ الخَضِرُ»: مَثَلٌ لِلْمُقْتَصِدِ فِي جَمْعِ المَالِ مِنْ حَقِّه، فَإِنَّه بِنَجْوَةٍ مِنْ وَبِالِها^(٢).

فَقَوْلُهُ: «وَإِنَّ ما يُنْبِتُ الرِّيعَ لَمَّا يَقْتُلُ حَبْطًا»: «ما» الأُولَى: موصولة، والثانية: موصوفة، أَي: وَإِنَّ الَّذِي يُنْبِتُهُ الرِّيعَ لَشَيْءٌ يَقْتُلُ حَبْطًا؛ مَصْدَرٌ لا مِنْ فِعْلِهِ، لأنَّهُ فِي مَعْنَى القَتْلِ. أما قَوْلُهُ: «أَوْ كما قال»: فَقَالَ مُحِبِّي الدِّينِ النّوْائِي: «يَنْبَغِي لِمَنْ يَرْوِي حَدِيثًا بِالْمَعْنَى أَنْ يَقُولَ عَقِبَهُ: «أَوْ كما قال»، «أَوْ نَحْوَ هَذَا»، أَوْ ما أَشْبَهَ هَذَا مِنَ الأَلْفاظِ، رُوِيَ هَذَا عَنْ عَبْدِ الله ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ وَأَنْسِ وَغَيْرِهِمْ»^(٣).

قَوْلُهُ: (حَبِجَتِ الإِبِل): النّهاية: «فِي حَدِيثِ ابْنِ الزُّبَيْرِ: «إِنّا لا نَمُوتُ حَبْجًا عَلَيَّ

(١) أَي: ما يُؤكَلُ غَيْرَ مطبوخ، وقيل: ما حَسُنَ منها، وقيل: ما رَقِيَ منها وَرَطِبَ. «لسان العرب» لابن منظور، مادة (حرر).

(٢) الشَّرْحُ كُلُّهُ مُسْتَفَادٌ مِنْ «النّهاية» لابن الأثير، كُلُّ لَفْظَةٍ فِي مادتها، وأكثَرُهُ فِي مادة (خضِر).

(٣) قاله الإمام النووي رحمه الله تعالى في «الإرشاد»، وهو اختصارُه لكتاب ابن الصلاح في علوم الحديث، ثم اختصره ثانية في «التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير»، وهذا الثاني شرحه الشُّيُوطِي في «تدريب الراوي شرح تقريب النواوي»، وانظر المسألة فيه في (٢: ١٠٢).

وَأَحْبَضَ عَمَلَهُ: مِثْلُ: أَحْبَطَهُ، وَحَبِطَ الْجَرْحُ وَحَبِرَ: إِذَا غَفَرَ، وَهُوَ نَكْسُهُ وَتَرَامِيهِ إِلَى الْفَسَادِ.
جُعِلَ الْعَمَلُ السَّيِّئُ فِي إِضْرَارِهِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ كَالدَّاءِ وَالْحَرَضُ لِمَنْ يُصَابُ
بِهِ، أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْ حَبِطِ الْأَعْمَالِ، وَخَيْبَةِ الْأَمَالِ.

وَقَدْ دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَمْرَيْنِ هَائِلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ فِيهَا يَرْتَكِبُ مَنْ يُؤْمِنُ مِنَ الْآثَامِ
مَا يُحِبِّطُ عَمَلَهُ. وَالثَّانِي: أَنَّ فِي آثَامِهِ مَا لَا يَدْرِي أَنَّهُ مُحِيطٌ، وَلَعَلَّهُ عِنْدَ اللَّهِ كَذَلِكَ، فَعَلَى
الْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ فِي تَقْوَاهُ كَالْمَاشِي فِي طَرِيقِ سَائِكٍ لَا يَزَالُ يَحْتَرِزُ وَيَتَوَقَّى وَيَتَحَفَّظُ.

مُضَاجِعِنَا، كَمَا يَمُوتُ بَنُو مِرْوَانَ: السَّحْبَجُ - بَفَتْحَتَيْنِ -: أَنْ يَأْكُلَ الْبَعِيرُ لِحَاءَ الْعَرَفَجِ، وَيَسْمَنَ
عَلَيْهِ، وَرَبِمَا بَيَّسَمُ^(١) مِنْهُ فَفَتَلَهُ، عَرَّضَ بِهِمْ لِكَثْرَةِ أَكْلِهِمْ وَإِسْرَافِهِمْ فِي مَلَاذُ الدُّنْيَا، وَأَنَّهُمْ
يَمُوتُونَ بِالتُّخْمَةِ».

قَوْلُهُ: (وَالْحَرَضُ): بِالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ، النَّهْيَاةُ: «أَحْرَضَهُ الْمَرَضُ: إِذَا أَفْسَدَ بَدَنَهُ وَأَشْفَى عَلَى
الْهَلَاكِ».

قَوْلُهُ: (وَقَدْ دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَمْرَيْنِ هَائِلَيْنِ): الْإِنْتِصَافُ: «الزَّمْخَشَرِيُّ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْكِبَائِرَ
مُحِبِّطَةٌ لِلْأَعْمَالِ مُوجِبَةٌ لِلخُلُودِ فِي النَّارِ، وَأَخَذَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ رَفَعَ الصَّوْتِ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ
مَعْصِيَةٌ لَا تَبْلُغُ الشَّرْكَ، وَقَدْ جَعَلَهَا مُحِبِّطَةً، وَخَوْفَ الْعِبَادَةِ مِنْ إِحْبَاطِ الْأَعْمَالِ.

وَجَوَابُهُ: أَنَّ الْمُرَادَ النَّهْيَ عَنِ رَفَعِ الصَّوْتِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَالْحَذَرُ عَمَّا يُتَوَقَّعُ مِنْهُ مِنْ إِيْذَاءِ
النَّبِيِّ ﷺ، وَإِيْذَاؤُهُ كَفَرٌ مُحِبِّطٌ لِلْعَمَلِ، فَنَهَى عَنِ رَفَعِ الصَّوْتِ مُحْذِرًا فِيهِ عَمَّا يُؤْوَلُ إِلَيْهِ، وَلَوْ كَانَ
الْأَمْرُ عَلَى مَا يَعْتَقِدُهُ الزَّمْخَشَرِيُّ لَمْ يَكُنْ لِقَوْلِهِ: «وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» مَعْنَى: إِذَا الْأَمْرُ مُنْحَصِرٌ فِي أَنْ
يَكُونَ كُفْرًا مُحِبِّطًا لِكُونِهِ مُؤْذِيًا، أَوْ غَيْرَ مُؤْذٍ فَيَكُونُ مُحِبِّطًا عَلَى رَأْيِهِ، وَالْإِحْبَاطُ وَاقِعٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ.
وَكَلَامُنَا هَذَا مُرْتَبِّ عَلَى مُقَدِّمَتَيْنِ: الْأُولَى: أَنَّ رَفَعَ الصَّوْتِ مِمَّا يَحْصُلُ فِيهِ الْأَذَى، وَهُوَ

(١) الْبَيْسَمُ: التُّخْمَةُ وَالسَّامَةُ، يُقَالُ: بَيْسَمَ هُوَ، وَأَبْشَمَهُ الطَّعَامُ. قَالَهُ الْعَلَامَةُ الْفَيْرُوزِآبَادِيُّ فِي «الْقَامُوسِ»،
مَادَةٌ (بِشَم).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [٣]

﴿امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ من قولك: امتحن فلان لأمر كذا، وجرب له، ودرب للنهوض به، فهو مضطلع به غير وان عنه. والمعنى: أنهم صُبروا على التقوى، أقوياء على احتمال مساقفها.

أو: وُضِعَ الامْتِحَانُ مَوْضِعَ المَعْرِفَةِ، لِأَنَّ تَحَقُّقَ الشَّيْءِ بِاخْتِبَارِهِ، كَمَا يُوَضَّعُ الخَيْرُ مَوْضِعَهَا، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: عَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُمَ لِلتَّقْوَىٰ، وَتَكُونُ اللّامُ مُتَعَلِّقَةً بِمَحذُوفٍ، وَاللّامُ هِيَ الَّتِي فِي قَوْلِكَ: أَنْتَ هَذَا الأَمْرُ، أَيْ: كائِنُ لَهُ وَمُخْتَصِّصٌ بِهِ، قَالَ:

أَنْتَ هَا - أَحْمَدُ - مِنْ بَيْنِ البَشَرِ

أمرٌ مُشَاهِدٌ، حَتَّىٰ إِنْ الشَّيْخُ يَتَأَذَى بِرَفْعِ صَوْتِ التَّلْمِيزِ، فَكَيْفَ بِرُبُوبِيَةِ النُّبُوَّةِ وَمَا تَسْتَحِقُّهُ مِنَ الإِجْلَالِ وَالإِعْظَامِ. الثَّانِيَةِ: أَنْ إِذَاءَ النَّبِيِّ ﷺ كُفْرٌ^(١).

وَقُلْتُ: وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنْ مَقَامَ التَّعْرِيفِ التَّوْبِيخِيِّ - كَمَا سَبَقَ - اقْتَضَى المَبَالِغَةَ، وَاسْتَدْعَى أَنْ يُنَزَلَ إِذَا هُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِرَفْعِ الصَّوْتِ مَنزِلَةَ الكُفْرِ تَغْلِيظًا؛ إِجْلَالًا لِمَجْلِسِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مَا تَرْتَّبَ عَلَى الكُفْرِ الحَقِيقِيِّ مِنَ الإِحْبَابِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وَمَعْنَى: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ عَلَى هَذَا: أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ أَنَّ ذَلِكَ بِمَنزِلَةِ الكُفْرِ المُحِبِّطِ، وَلَيْسَ كَسَائِرِ المَعَاصِي.

قَوْلُهُ: (أَنْتَ هَا - أَحْمَدُ - مِنْ بَيْنِ البَشَرِ)^(٢): أَوَّلُهُ:

وَقَصِيدَةٌ رَائِغَةٌ^(٣) صَوَّرَتْهَا

(١) «الانتصاف» (٣: ٥٥٦) بحاشية «الكشاف».

(٢) تَقَدَّمَ عِنْدَ الزُّمَخْشَرِيِّ فِي تَفْسِيرِ الآيَةِ ٦١ مِنْ سُورَةِ المُؤْمِنُونَ (١٠: ٥٩٩).

(٣) تَحَرَّفَ فِي الأَصُولِ الخَطِيئَةَ إِلَى: «رائعة» أَوْ «رائغة»، وَالمُبْتَدَأُ مِنْ «رُوحِ المَعَانِي» لِلأَلُوسِيِّ (٢٦: ١٣٨).

أَعْدَاءُ مَنْ لِلْيَعْمَلَاتِ عَلَى الْوَجْحِ؟

وهي مع معمولها منصوبة على الحال. أو: ضَرَبَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمِحْنِ وَالتَّكْلِيفِ الصَّعْبَةِ لِأَجْلِ التَّقْوَى، أَي: لِيَتَّبِعُوا وَتَطَهَّرَ تَقْوَاهَا، وَيُعَلِّمَ أَنَّهُمْ مُتَّقُونَ؛ لِأَنَّ حَقِيقَةَ التَّقْوَى لَا تُعَلَّمُ إِلَّا عِنْدَ الْمِحْنِ وَالشَّدَائِدِ وَالْإِصْطِبَارِ عَلَيْهَا.

أَي: مُعْجِبَةٌ، رَاقِنِي^(١) الشَّيْءَ: أَعْجَبْتَنِي. وَعَنْ بَعْضِهِمْ: «أَحْمَدُ»: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَفْعَلُ التَّفْضِيلِ، وَأَنْ يَكُونَ عَلَمًا، أَي: أَنْتَ يَا أَحْمَدُ كَائِنٌ لَهَا وَمُخْتَصٌّ بِهَا.
قَوْلُهُ: (أَعْدَاءُ مَنْ لِلْيَعْمَلَاتِ عَلَى الْوَجْحِ): تَمَامُهُ:

وَأَضْيَافٍ لَيْلٍ يَسْتَوُوا لِنُزُولِ؟^(٢)

وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ مِنَ الْمَتْنِ: «أَعْدَاءُ»^(٣)، الْهَمْزَةُ لِلنَّدَاءِ، وَهُوَ اسْمُ رَجُلٍ يَرِثُهُ، يَقُولُ تَحْسِرًا وَتَوَجُّعًا: مَنْ يُؤْوِي الْأَضْيَافَ، وَقَدْ بَهَّرَهُمُ السَّعْيُ، وَأَتَعَبَهُمُ الطَّلَبُ، وَمَنْ يُنْزِلُ السَّفَرَ^(٤)، وَقَدْ أَرْمَتْهُمْ النَّوْقُ السَّرَاعُ إِلَى الْمَهَالِكِ، حَتَّى حَفَيْتُ نِعَالَهُمْ، أَي: مَنْ يُخَلِّصُ الْيَعْمَلَاتِ مِنَ الْوَجْحِ^(٥) بَأَنْ يُنْزِلَ صَاحِبَهَا، وَيَقْضِي مَهَامَهُ، فَيَتَخَلَّصَ مِنَ السَّيْرِ^(٦).

قَوْلُهُ: (وَهِيَ مَعَ مَعْمُولِهَا مَنْصُوبَةٌ عَلَى الْحَالِ): التَّقْدِيرُ: كَائِنَةٌ لِلتَّقْوَى، وَ«هِيَ» أَي: الْمَحْذُوفُ، «مَعَ مَعْمُولِهَا» أَي: التَّقْوَى، وَإِنَّمَا أَتَتْهُ لِأَنَّهُ بِمَعْنَى «مُحْصَلَةٌ» أَوْ «مُخْتَصَّةٌ».

(١) تَحَرَّفَ فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةَ إِلَى «رَاعِنِي» أَوْ «رَاغِنِي»، وَالصَّوَابُ مَا أَثْبَتَ، فَفِي «لِسَانِ الْعَرَبِ» لِابْنِ مَنْظُورٍ، مَادَّةُ (رَوَقُ): «رَاقِنِي الشَّيْءَ يَرُوقِنِي رَوْقًا وَرَوْقَانًا: أَعْجَبْتَنِي».
(٢) الْبَيْتُ لِعُمِّيِّ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مَالِكِ الْعُقَيْلِيِّ، كَمَا فِي «الْحِمَاسَةِ» ص ١٥٧.
(٣) كَذَا فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةَ، وَهُوَ بِاللَّفْظِ الْأَوَّلِ نَفْسُهُ، وَلَعَلَّ أَحَدَ الْمَوْضِعِينَ دُونَ هَمْزَةِ النَّدَاءِ، وَتَحَرَّفَ عَلَى السُّنَاخِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٤) أَي: الْمَسَافِرِينَ، يُقَالُ: «رَجُلٌ سَفَرٌ، وَقَوْمٌ سَفَرٌ»، كَمَا فِي «الْقَامُوسِ» لِلْفَيْرُوزِ أَبَادِي، مَادَّةُ (سَفَرٌ).

(٥) الْيَعْمَلَاتُ: النَّوْقُ، وَالْوَجْحُ: شِدَّةُ الْحَفَا، وَالْوَجْعُ فِي الْحَافِرِ وَالْحَفَا.

(٦) شَرَحَ الْبَيْتَ مُسْتَفَادًا مِنْ «شَرَحِ الْحِمَاسَةِ» لِلْمَرْزُوقِيِّ (٢: ٦٢٤-٦٢٥).

وقيل: أَخْلَصَهَا لِلتَّقْوَى؛ مِنْ قَوْلِهِمْ: اِمْتَحَنَ الذَّهَبَ وَفَتَنَهُ: إِذَا أَذَابَهُ، فَخَلَّصَ إِبْرِيْزَهُ مِنْ خَبَثِهِ وَنَقَّاهُ. وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَذْهَبَ الشَّهَوَاتِ عَنْهَا.

قوله: (مِنْ قَوْلِهِمْ: اِمْتَحَنَ الذَّهَبَ): فَسَّرَ ﴿اِمْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ بِوُجُوهِ:

أحدها: أَنَّهُ مِنَ الْكِنَايَةِ التَّلْوِيْحِيَّةِ، عَبَّرَ عَنْ كَوْنِهِمْ مُغْرِقِينَ فِي التَّقْوَى كَامِلِينَ فِيهَا بِقَوْلِهِ: ﴿اِمْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾، لِأَنَّ الْاِمْتِحَانَ وَالتَّجْرِبَةَ يُوجِبُ مُزَاوَلَةَ الْأَمْرِ وَمُعَالَجَتَهُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَذَلِكَ يُوجِبُ التَّمَرُّنَ فِيهِ، وَالتَّمَرُّنُ مُضْطَلَعٌ فِيهِ، وَفِي الْمَثَلِ: «أَنَا جُدَيْلُهَا الْمُحَكِّكُ وَعُدَيْقُهَا الْمُرْجَبُ»^(١)، فَعَلِيَ هَذَا: مَجَازُ الْآيَةِ رَاجِعٌ إِلَى الْعِبَادِ، نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يُزِيدُوكَ﴾ [الصَّافَات: ١٤٧].

وثانيها: أَنَّهُ مِنْ إِطْلَاقِ السَّبَبِ عَلَى الْمُسَبَّبِ، فَإِنَّ الْاِمْتِحَانَ سَبَبُ الْمَعْرِفَةِ، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: «لِأَنَّ تَحَقُّقَ الشَّيْءِ بِاِخْتِبَارِهِ»، وَهُوَ لَوْجِهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ اللَّامَ فِي «التَّقْوَى» صِلَةٌ مَحذُوفٌ، وَهُوَ حَالٌ مِنَ الْمَفْعُولِ، وَهُوَ ﴿قُلُوبَهُمْ﴾. وَثَانِيهَا: أَنَّ تَكْوِينَ اللَّامِ لِلتَّلْعِيلِ، وَالْمَعْنَى: وَضَرَبَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمِحَنِ وَالتَّكَالِيفِ الصَّعْبَةِ لِأَجْلِ التَّقْوَى، وَإِثْبَاتُ الْعِلْمِ هُنَا كإِثْبَاتِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٤٠]، قَالَ^(٢): «وَلِيَعْلَمَهُمْ عِلْمًا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْجَزَاءُ»، وَمِنْ ثَمَّ عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، فَتَكُونُ «أَوْ ضَرَبَ اللهُ» عَطْفًا عَلَى «عَرَفَ اللهُ»^(٣).

(١) انظر: «مجمع الأمثال» للميداني (١: ٣١).

(٢) أي: الزمخشري في تفسير الآية المذكورة من سورة آل عمران (٤: ٢٧٧).

(٣) التعبير بـ«عرف»: هو لفظ الزمخشري هنا - وقد تكرر منه في غير ما موضع من «كشافه»: منه قوله: «عرف الله» في تفسير الآيات: (النساء: ٣٢، هود: ٣٥، الرعد: ١٧، الزمر: ٢٢، الذاريات: ٥٤، القم: ٣٣)، وقوله: «الذين عرفتهم» في تفسير الآية ١١٨ من سورة المائدة - ولم يتعقبه فيه المؤلف بشيء، ولا يسوغ إلا على اعتبار «عرف» مرادفًا لـ«علم»، وفيه نظر عند المحققين من أهل اللغة، فمنعوا من إطلاق «المعرفة» في حق الله تعالى؛ لِمَا أَنَّهَا تُسْتَعْمَلُ فِي الْعِلْمِ الْقَاصِرِ الْمُتَوَصِّلِ إِلَيْهِ بِتَفَكُّرٍ. قَالَ الرَّاعِبُ فِي «المفردات» (عرف)، «والفيروز أباذي في «بصائر ذوي التمييز» (عرف).

وثالثها: أن يكون تمثيلاً، شبه خُلوص قلوبهم عن شوائب الكدورات النفسانية، وتصوّغ دواعيهم عن اللذات الشّهوانية بعد طول المجاهدات ومقاساة المكابدات، بخُلوص الذّهب الإبريز الذي عُرض على النار، ونُقِيَ من السخبث والزبد الذي يذهب جُفاء.

قال الواحدي: «تقديرُ الكلام: امتحنَ الله قلوبهم فأخلصها للتقوى، فحذف «الإخلاص» لدلالة «الامتحان» عليه، ولهذا قال قتادة: أخلصَ الله قلوبهم»^(١).

وقلت: هذا الوجه أنسب؛ لأنّ الكلام وُرد في مدح أولئك السادة الكرام، وفي التعريض من ليسوا على وصفهم، ومن ثمّ قال في فاصلة الآية السابقة: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، واللاحقة: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

فإن قلت: ذهبت في ما مرّ أنّ اختصاص «النبّي» بالذكر^(٢) في الآية الثانية لتبجيل جانب الرسول ﷺ، وذكر «رسوله» في الأولى^(٣) لأجل الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة، فلمْ حُولفَ ورَجَعَ في الثالثة^(٤) إلى ما بُدئَ به؟

قلت: ليؤدّن بإفضال الله في حقّ أولئك الكملة، وتأديبه إياهم، وأنهم إنما غَضُوا أصواتهم عند رسول الله، ولم يرفعوا بها مثل أولئك؛ لأنّ الله زَيْنَ باطنهم باكتساء لباس التقوى، حتى سرى إلى ظاهرهم^(٥) بالتأدب بين يدي المولى، ومن أرسله إليهم وأكرمهم به، ومن ثمّ نُسبَ ﴿أَمْتَجَنَ﴾ إلى الله تعالى، وجيء به ماضياً، وأسندَ ﴿يَغْضُونَ﴾ إليهم، وأتى به مضارعاً. دالاً به على الاستمرار، كأنه قيل: إنّ الذين دأبهم وعادتهم التأدب في حضرة الرّسالة، إنهم

(١) «الوسيط» للواحدي (٤: ١٥١).

(٢) أي: التعبير بلفظ «النبّي» دون «الرسول» أو غيره في قوله: ﴿يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ الآية، وانظر ما تقدّم في ذلك عند المؤلف رحمه الله تعالى ص ٤٤٤-٤٤٥.

(٣) أي: في قوله: ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

(٤) أي: في هذه الآية، في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾.

(٥) في (ف) إلى: «باطنهم»، والمثبت من (ط) و(ح). وهو الصواب.

والامتحان: افتعال؛ من: مَحَنَهُ، وهو اختبارٌ بليغٌ أو بلاءٌ جهيدٌ، قال أبو عمرو: كُتِبَ شَيْءٌ جَهْدَتَهُ فَقَدْ مَحَنَتْهُ، وأنشد:

أَتَتْ رَذَايَا بَادِيًا كَلَاهَا قَدْ مُحِنَتْ وَاضْطَرَبَتْ آطَاهَا

قيل: أَنْزَلَتْ فِي الشَّيْخَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لِمَا كَانَ مِنْهُمَا مِنْ غَضِّ الصَّوْتِ وَالبُلُوغِ بِهِ أَخَا السَّرَارِ.

وهذه الآية - بنظْمِها الذي رُتِبَتْ عليه؛ من إيقاع الغاضِّين أصواتهم اسماً لـ «إِنَّ» المؤكِّدة، وتَصْيِيرِ خَبَرِها جُمْلَةً مِنْ مُبْتَدَأٍ وَخَبَرٍ مَعْرِفَتَيْنِ معاً؛ والمُبْتَدَأُ: اسْمُ الإِشَارَةِ، وَاسْتِثْنَاةُ الجُمْلَةِ المُسْتَوْدَعَةِ ما هو جزاؤهم على عَمَلِهِمْ، وإيرادُ الجِزَاءِ نَكْرَةً مُبْهَمًا أَمْرُهُ - نَاطِرَةٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى غَايَةِ الإِعْتِدَادِ وَالارتِضَاءِ لِمَا فَعَلَ الَّذِينَ وَقَرُّوا رَسولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ خَفَضِ أصواتهم، وَفِي الإِعْلَامِ بِمَبْلَغِ عِزَّةِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْرِ شَرَفِ مَنزِلَتِهِ، وَفِيهَا تَعْرِيفُ بَعْضِهِمْ ما ارْتَكَبَ الرَّافِعُونَ أصواتهم، وَاسْتِجَابَتِهِمْ ضِدًّا ما اسْتَوْجَبَ هؤُلاءِ.

اِخْتَصُّوا بِهِ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي أَدْبَهُمْ بِإِرْسَالِ الرَّسولِ ﷺ، وَإِنزَالِ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ، حَتَّى هَدُّبُوا هَذَا التَّهْذِيبَ.

قوله: (أَتَتْ رَذَايَا) البيت (١): الرَّذِيَّةُ (٢): الناقَةُ المَهزولَةُ مِنَ السَّيْرِ، وَالجَمْعُ: الرَذَايَا، وَالمُذَكَّرُ: رَذِيٌّ، وَ«الإِطْلُ» (٣): الخَاصِرَةُ، وَالجَمْعُ: الأِطالُ.

قوله: (وهذه الآية): يعني قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾، فقوله: «هذه الآية» مُبْتَدَأٌ موصوفٌ، والخَبَرُ قوله: «ناظِرَةٌ»، وَ«بنظْمِها» مُتَعَلِّقٌ بـ«ناظِرَةٌ»، أَي: هَذِهِ الأَيَةُ دالَّةٌ بِوِاسِطَةِ نَظْمِها عَلَى غَايَةِ الإِعْتِدَادِ. وَفِي تِلْكَ القِيودِ التي ذَكَرَها (٤) إِشارةٌ إِلَى خِوَصِّ تَصَمُّمِها التَّركيبيانِ.

(١) ذكره الزمخشريُّ أيضاً في «أساس البلاغة»، مادة (محن)، ولم أقف عليه عند غيره.

(٢) قوله: «الرذية»: سقط من (ح)، وتحرف في (ف) إلى: «الرذة»، والمثبت من (ط).

(٣) يُقال: إِطْلٌ وإِطْلٌ، مثل: إِبِلٌ وإِبِلٌ. كذا في «لسان العرب» لابن منظور، مادة (أطل).

(٤) يعني: ما ذكره الزمخشريُّ بين المُبتدَأِ والخَبَرِ.

[**﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنَ وراءِ الحجراتِ أكثرهم لا يعقلون﴾** * **﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله عفوور رحيم﴾** ٤-٥]

والوراء: الجهة التي يوارىها عنك الشخص بطليله من خلف أو قدام، و﴿من﴾ لا ابتداءً الغاية، وأن المناذاة نشأت من ذلك المكان.

أما التركيب الأول - وهو قوله: **﴿الَّذِينَ يَغْضُونَ أَسْوَاتَهُمْ﴾** إلى قوله: **﴿لِلنَّقَوَى﴾** - ففيه خواص:

إحداها: إيقاع «الغاضين أصواتهم» اسماً لـ «إن» المؤكدة، وفائدته توكيد مضمون الجملة وتقريره، مع تصوير ما كان يصدر من أولئك الكملة في حضرة الرسالة من التأديب بتأديب الله. نحوه في التقرير: **﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾** [يوسف: ٢٣].

وثانيها: تصوير خبرها جملة من مبتدأ وخبر، وفائدته الحصر المستفاد من تعريفهما، نحو: زيد المطلق، يعني: هم الذين شرفهم الله تعالى بإخلاص القلوب دون غيرهم، تعريضاً بأولئك الذين لم يغضوا أصواتهم.

وثالثها: إيقاع المبتدأ الثاني اسم إشارة؛ ليؤذن بأن من سبق ذكره إنما امتحن الله قلوبهم لأنهم اكتسبوا تلك الفضيلة بها.

وأما التركيب الثاني^(١) ففيه فائدتان: إحداها: قطعها عن الجملة الأولى، فأخلاها عن الرابط اللفظي - وهو الفاء - لتحرك أريحية السامع، وتحمله على: ما جزاء أولئك السادة في العقبي، ليضم مع اختصاصهم بهذه المنقبة الأسنى؟ فيجاب: بأن لهم عند الله القربى والزلفى. وثانيتهما: تنكير «المغفرة» ليدل على ضرب عظيم في بابه، لا يكتنه كنهه، ولا يقادر قدره.

لله در المصنف في إبراز هذه المحاسن، وفي إرشاده إلى جهات تلك النكات.

قوله: (بطليله): الجوهرى: «يقال: حيا الله طلكك، وطلالتك، يعني: شخصك»، فقوله:

(١) وهو قوله: **﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾**.

فإن قلت: أفرق بين الكلامين؛ بين ما تثبت فيه وما تسقط عنه؟ قلت: الفرق بينهما: أن المنادي والمنادى في أحدهما يجوز أن يجمعهما الراء، وفي الثاني: لا يجوز، لأن الراء تصير بدخول «من» مبتدأ الغاية، ولا يجتمع على الجهة الواحدة أن تكون مبتدأ ومنتهى لفعل واحد، والذي يقول: ناداني فلان من وراء الدار، لا يريد وجه الدار ولا دبرها،

«يوارىها عنك الشخص بطله»: معناه: يخفيها ذو طلل بطله. والجوهري: «واريت الشيء: إذا أخفيت، وتوارى هو: استتر، ووراء: بمعنى: خلف، وقد يكون بمعنى: قدام، وهي من الأضداد، قال الأخفش: يُقال: لقيته من وراء، فترفعه على الغاية إذا كان غير مضاف».

قوله: (أفرق بين الكلامين): على الأمر، أي: أفرق بين كلام تثبت فيه «من» وكلام تسقط منه «من».

قوله: (أن المنادي والمنادى في أحدهما يجوز أن يجمعهما الراء، وفي الثاني: لا يجوز) إلى آخره: هذا الفرق ظاهر، قال صاحب «التقريب»: وفيه نظر^(١)؛ لأن المبتدأ والمنتهى: إما المنادى - على ما هو التحقيق - أو الجهة، فإن كان الأول جاز أن يجمعهما «الراء» في إثبات «من» وفي إسقاطه؛ لتغاير المبتدأ والمنتهى، وإن كان الثاني فالجهة: إما ذات أجزاء أو عديمة الأجزاء، فإن كان الأول جاز أن يجمعها في إثبات «من» أيضاً باعتبار أجزاء الجهة، وإن كان الثاني لم يجز أن يجمعها؛ لا في إثبات «من» ولا في إسقاطه لاتحاد الممورد^(٢)، والتحقيق أن الفعل يتبدئ من الفاعل، وينتهي إلى المفعول، ويقع في الظرف^(٣)، وأن «من وراء الحجرة» و«وراءها» كلاهما ظرف، كصليت من خلف الإمام وخلفه، ومن قبل اليوم وقبله، ومعنى الابتداء غير محقق، والفرق تعسف.

(١) كذا في (ط) و(ف)، وفي (ح): «هذا الفرق: قال صاحب «التقريب»: ظاهر، وفيه نظر».

(٢) من قوله: «جاز أن يجمعها في إثبات (من)» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

(٣) كذا في (ط) و(ح)، وفي (ف): «فهما في الظرف».

فيقال: لا بُدَّ مِنَ الْفَرْقِ؛ صَوْنًا لِكَلَامِ اللَّهِ مِنَ الْعَبَثِ، لاسِيَّما قَدْ تَقَرَّرَ فِي أَوَّلِ الْبَقْرَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧]: أَنَّ صَاحِبَ الْمَعَانِي يَعْتَبِرُ حُرُوفَ الصَّلَاتِ، وَيَنْظُرُ إِلَى مَوَاقِعِهَا، وَلَا ارْتِيَابَ أَنَّ «وراء» مِنَ الظُّرُوفِ الْمُبْهَمَةِ، فَبَدْخُولِ «مِنْ» يَتَّعَيْنُ لَهُ ابْتِدَاءٌ، وَهُوَ مِنَ الْأُمُورِ النَّسْبِيَّةِ^(١)، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْانْتِهَاءِ، وَأَنْ يَكُونَ الْمُنتَهَى مَكَانًا غَيْرَ الْمَكَانِ الَّذِي نَشَأَ مِنْهُ النَّدَاءُ، وَهُوَ الْجِهَةُ الْمُسَمَّاةُ بِ«الوراء»، إِذْ كُلُّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهِ يَصْدُقُ أَنَّهُ مَنْشَأُ النَّدَاءِ، فَجَعَلَ تِلْكَ الْجِهَةَ نَفْسَ الْمُنتَهَى يَلْزَمُ أَنْ يَجْتَمِعَ عَلَى الْجِهَةِ الْوَاحِدَةِ أَنْ تَكُونَ مُبْتَدَأً وَمُنْتَهَى.

وتحريفُ المعنى: أَنَّهُ لَوْ قِيلَ: «يُنَادُونَكَ وِراءَ الْحِجْرَاتِ» لَكَانَ الْغَرَضُ فِي الْإِيرَادِ إِنْكَارَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُنَادُونَهِ وِراءَ الْحِجْرَاتِ^(٢)، وَفَهْمَ مِنْهُ أَنَّهُمْ لَوْ نَادَوْهُ فِي غَيْرِ تِلْكَ الْجِهَةِ لَمْ يَكُنْ مُنْكَرًا، وَلَكِنَّ الْغَرَضُ فِي الْإِنْكَارِ أَنَّهُمْ كَانُوا يُنَادُونَهِ مِنَ الْخَارِجِ، وَهُوَ فِي الْحُجْرَةِ، فَأُرِيدَ إِنْكَارُ هَذِهِ الصُّورَةِ الْمُنْكَرَةِ الْوَاقِعَةِ خُصُوصًا، فَزِيدَ «مِنْ» لَتَدُلَّ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ وَالْانْتِهَاءِ، وَأَنَّهُمْ خَارِجُونَ، وَهُوَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - دَاخِلٌ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «وَالْإِنْكَارُ لَمْ يَتَوَجَّهْ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ النَّدَاءُ وَقَعَ» إِلَى آخِرِهِ.

ونظيره ما سبق قبل هذا في قراءة ابن مسعود: «لَا تَرْفَعُوا بِأَصْوَاتِكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ»: أَنَّ فِي زِيَادَةِ الْبَاءِ الدَّلَالَةَ عَلَى النَّهْيِ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْعَجَلِيَّةِ، وَسَبَقَ بَيَانُهُ.

وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُ الْقَاضِي: ﴿مِنْ﴾ ابْتِدَائِيَّةٌ، فَإِنَّ الْمُنَادَاةَ نَشَأَتْ مِنْ جِهَةِ الْوَرَاءِ، وَفَائِدَتُهَا: الدَّلَالَةُ أَنَّ الْمُنَادِي دَاخِلَ الْحِجْرَةِ، إِذْ لَا بُدَّ أَنْ يَخْتَلِفَ الْمُبْتَدَأُ وَالْمُنْتَهَى بِالْجِهَةِ^(٣).

(١) فِي (ح) وَ(ف): «السَّبِيَّةُ»، وَهُوَ تَحْرِيفٌ، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ط).

(٢) مِنْ قَوْلِهِ: «لَكَانَ الْغَرَضُ» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ح).

(٣) «أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ» لِلْبَيْضَاوِيِّ (٥: ٢١٣).

ولكن أيَّ قَطْرٍ مِنْ أَقْطَارِهَا الظَّاهِرَةِ كَانَ مُطْلَقاً بغير تَعْيِينٍ واختصاص، والإنكارُ لم يَتَوَجَّهْ عَلَيْهِمْ مِنْ قِبَلِ أَنْ النَّدَاءَ وَقَعَ مِنْهُمْ فِي أَدْبَارِ الْحِجْرَاتِ أَوْ فِي وَجْهِهَا، وَإِنَّمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ نَادَوْهُ مِنَ الْبَرِّ وَالخَارِجِ مُنَادَاةَ الْأَجْلَافِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ إِلَى جِهَةٍ دُونَ جِهَةٍ.

والحِجْرَةُ: الرَّقْعَةُ مِنَ الْأَرْضِ الْمَحْجُورَةِ بِحَائِطٍ يُحَوِّطُ عَلَيْهَا، وَحَظِيرَةُ الْإِبِلِ تُسَمَّى: الْحِجْرَةَ، وَهِيَ فُعْلَةٌ، بِمَعْنَى: مَفْعُولَةٌ، كَالْغُرْفَةِ وَالْقُبْضَةِ، وَجَمْعُهَا: الْحُجْرَاتُ؛ بِضَمِّتَيْنِ، وَالْحُجْرَاتُ؛ بِفَتْحِ الْجِيمِ، وَالْحُجْرَاتُ؛ بِتَسْكِينِهَا، وَقُرِئَ بِهِنَّ جَمِيعاً. وَالْمُرَادُ: حُجْرَاتُ نِسَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَتْ لِكُلِّ مِنْهُنَّ حُجْرَةٌ.

وَمُنَادَاتُهُمْ مِنْ وَرَائِهَا: يَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ قَدْ تَفَرَّقُوا عَلَى الْحِجْرَاتِ مُتَطَلِّبِينَ لَهُ، فَنَادَاهُ بَعْضٌ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ، وَبَعْضٌ مِنْ وَرَاءِ تِلْكَ، وَأَنَّهُمْ قَدْ أَتَوْهَا حُجْرَةً حُجْرَةً فَنَادَوْهُ مِنْ وَرَائِهَا، وَأَنَّهُمْ نَادَوْهُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجْرَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا، وَلَكِنَّهَا جُمِعَتْ إِجْلَالاً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمَلْكَانِ حُرْمَتِهِ.

وَالْفِعْلُ وَإِنْ كَانَ مُسْتَنَداً إِلَى جَمِيعِهِمْ، فَإِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَتَوَلَّاهُ بَعْضُهُمْ، وَكَانَ الْبَاقُونَ رَاضِينَ، فَكَأَنَّهُمْ تَوَلَّوْهُ جَمِيعاً، فَقَدْ ذَكَرَ الْأَصَمُّ: أَنَّ الَّذِي نَادَاهُ عُمَيْيَةُ بْنُ حِصْنٍ وَالْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ.

قوله: (الْحُجْرَاتُ؛ بِضَمِّتَيْنِ): وَهِيَ الْمَشْهُورَةُ، قَالَ الزَّجَّاجُ: «تُقْرَأُ ﴿الْحُجْرَاتِ﴾ بِضَمِّ الْجِيمِ، وَيَجُوزُ بِتَسْكِينِهَا، وَلَا أَعْلَمُ أَحَدًا قَرَأَ بِهِ، وَوَأَحَدُ «الْحُجْرَاتِ»: حُجْرَةٌ، وَالْفَتْحُ بَدَلٌ مِنَ الضَّمِّ لِثِقَلِ الضَّمِّتَيْنِ»^(١).

قوله: (وَلَكِنَّهَا جُمِعَتْ إِجْلَالاً): عَنْ بَعْضِهِمْ: قَوْلُكَ: «فِي مَجَالِسِكَ» أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِكَ: «فِي مَجَالِسِكَ»، كَأَنَّ الْجَمْعَ يُبْطِلُ حُضُوصِيَّةَ حُجْرَةٍ دُونَ حُجْرَةٍ.

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥: ٣٣).

والإخبار عن أكثرهم بأنهم لا يعقلون: يحتتمل أن يكونَ فيهم مَنْ قُصِدَ بالمحاشاة، ويحتتمل أن يكونَ الحكمُ بقلَّةِ العقلاءِ فيهم قَصْداً إلى نفي أن يكونَ فيهم مَنْ يَعْقِلُ، فإنَّ القِلَّةَ تقعُ موقِعَ النفي في كلامهم.

وروي: أَنَّ وَفَدَ بني تميم أتوا رسولَ الله ﷺ وقتَ الظَّهيرة وهو راقد، فجَعَلُوا يُنادُونَهُ: مُحَمَّدُ، اخرجْ إلينا، فاستيقظَ فخرج، ونزلت. وسئِلَ رسولُ الله ﷺ عنهم فقال: «هم جُفَاءُ بني تميم،»

قوله: (مَنْ قُصِدَ بالمحاشاة): أي: استثنى بـ ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾، فإنه يدلُّ على أن بعضهم لم يكونوا كذلك. الأساس: «أسأؤوا حاشي فلاناً، وأنا أحاشيك من كذا، وقال: وما أحاشي من الأقوام من أحدٍ»^(١)

معناه: ويحتتمل أن يكونَ في القوم مَنْ قُصِدَ استثناءً وإخراجه من الحكم، بقلَّةِ العقل^(٢)، فـ «أكثرهم» استثناءٌ معنويٌّ، قال صاحبُ «التقريب»: وإنما قال: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾؛ لأنَّ البعض قد يعقل.

قوله: (فإنَّ القِلَّةَ تقعُ موقِعَ النفي): قال الحماسيُّ:

قليلُ التَّشْكِيِّ لِلْمُهْمِّ يُصْبِيهِ^(٣)

أي: عديمُ التَّشْكِيِّ.

(١) البيت للناطقة الذيباني، كما في «ديوانه» ص ١٢، وأوله:

ولا أرى فاعلاً في الناس يُشْبِهُهُ

(٢) في الأصول الخطية: «بقلة العقلاء»، ولا يستقيم إلا بتكلف.

(٣) البيت لتأبط شراً، كما في «الحماسة» ص ١٩، وهو في «ديوانه» ص ١٥١، وتماؤه:

كثيرُ الهوى شتى النوى والمسالك

لولا أنهم من أشد الناس قتالاً للأعور الدجال لدَعَوْتُ الله عليهم أن يهلكهم». فورود الآية على التَّمَطِّ الذي وَرَدَتْ عليه: فيه ما لا يخفى على الناظر؛ من بَيِّنَاتِ إكْبَارِ مَحَلِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وإِجْلَالِهِ، منها: جَمِئُهَا عَلَى النَّظْمِ الْمُسَجَّلِ عَلَى الصَّائِحِينَ بِهِ بِالسَّفَهِّ وَالْجَهْلِ، لِمَا أَقْدَمُوا عَلَيْهِ، ومنها: لَفْظُ «الْحُجْرَاتِ» وَإِبْقَاعُهَا كِنَايَةً عَنِ مَوْضِعِ خَلْوَتِهِ وَمَقِيلِهِ مَعَ بَعْضِ نِسَائِهِ، ومنها: المَرُورُ عَلَى لَفْظِهَا بِالْاِقْتِصَارِ عَلَى الْقَدْرِ الَّذِي تَبَيَّنَ بِهِ مَا اسْتَنَكَّرَ عَلَيْهِمْ، ومنها: التَّعْرِيفُ بِاللَّامِ دُونَ الْإِضَافَةِ، ومنها: أَنْ شَفَعَ ذَمَّهُمْ بِاسْتِحْفَائِهِمْ وَاسْتِرْكَائِ عُقُولِهِمْ وَقَلَّةِ ضَبْطِهِمْ لِمَوَاضِعِ التَّمْيِيزِ فِي الْمَخَاطَبَاتِ،

قوله: (لولا أنهم من أشد الناس قتالاً للأعور الدجال): وفي رواية البخاري ومسلم^(١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «وهم - يعني: بني تميم - أشدُّ أمتي على الدجال».

قوله: (المَرُورُ عَلَى لَفْظِهَا): أي: لَفْظِ الْحُجْرَاتِ، الْأَسَاسِ: «مَرَرْتُ بِهِ وَعَلَيْهِ مَرًّا وَمُرُورًا، وَمَرًّا الْأَمْرُ وَاسْتَمَرَّ: مَضَى»، يعني: قال^(٢): «الْحُجْرَاتِ» وَمَضَى عَلَيْهِ، يعني: ما زاد عليه، ولم يقل: حُجْرَاتِ نِسَائِكَ، بل اكتفى بِالْقَدْرِ مِنَ الْكِنَايَةِ لِثَلَا ثَوْحِشِهِ، لَأَنَّهَا تَكْفِي لِمَنْ يَقِفُ عَلَى الرَّمْزِ وَالْإِشَارَةِ الْخَفِيَّةِ فِي أَنْ النَّدَاءِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَمْرٌ مُنْكَرٌ.

قوله: (التَّعْرِيفُ بِاللَّامِ دُونَ الْإِضَافَةِ): أي: لم يَقُلْ: «مِنْ وَرَاءِ حُجْرَاتِكَ»؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ الْمَعْهُودُ الذَّمْنِيَّ، يعني: لا يَلْتَبِسُ أَنْ مِثْلَ هَذَا التَّعْظِيمِ لَا يَكُونُ فِي حُجْرَاتِ سَائِرِ النَّاسِ.

قوله: (أَنْ شَفَعَ ذَمَّهُمْ بِاسْتِحْفَائِهِمْ): أي: قَرَنَ ذَمَّهُمْ ذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: «الَّذِينَ يَتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجْرَاتِ»، بِقَوْلِهِ: «أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ»، فَأَوْقَعَ قَوْلَهُ: «أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» خَبْرًا لِمَنْ «إِنَّ» وَاسْمِهَا الْمَوْصُولَةُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى الصَّلَةِ الْمُشْعِرَةِ بِأَنْ خَبَرَهَا مِمَّا يُسْتَهْجَنُ مِنْهُ، وَيُعَدُّ مَنْ صَدَرَ مِنْهُ النَّدَاءُ مِنْ وَرَاءِ الْحُجْرَاتِ بِالْجَافِي الْعَلِيظِ وَقَلَّةِ الْعَقْلِ، وَإِنَّا فَعَلْنَا ذَلِكَ لِيُسَلِّيَ

(١) البخاري (٢٥٤٣) و(٤٣٦٦)، ومسلم (٢٥٢٥).

(٢) في الأصول الخطية: «قبل»، ولا معنى له، وأثبت ما يناسب السياق.

تَهْوِينًا لِلخَطْبِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَتَسْلِيَةً لَهُ، وَإِمَاطَةً لِمَا تَدَاخَلَهُ مِنْ إِجَاشِ تَعَجُّرِفِهِمْ وَسُوءِ أَدْبِهِمْ، وَهَلُمُّ جَرًّا مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى آخِرِ هَذِهِ الْآيَةِ.

فَتَأَمَّلْ كَيْفَ ابْتَدَأَ بِإِيجَابِ أَنْ تَكُونَ الْأُمُورُ الَّتِي تَتَمَيُّ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مُتَقَدِّمَةً عَلَى الْأُمُورِ كُلِّهَا مِنْ غَيْرِ حَضْرٍ وَلَا تَقْيِيدٍ، ثُمَّ أَرَدَفَ ذَلِكَ النَّهْيَ عَمَّا هُوَ مِنْ جِنْسِ التَّقْدِيمِ؛ مِنْ رَفْعِ الصَّوْتِ وَالْجَهْرِ، كَأَنَّ الْأَوَّلَ بَسَاطٌ لِلثَّانِي وَوِطَاءٌ لِذِكْرِهِ، ثُمَّ ذَكَرَ مَا هُوَ ثَنَاءٌ عَلَى الَّذِينَ تَحَامَوْا ذَلِكَ، فَغَضُّوا أَصْوَاتِهِمْ؛ دَلَالَةً عَلَى عَظِيمِ مَوْعِظِهِ عِنْدَ اللَّهِ، ثُمَّ جِيءَ عَلَى عَقَبِ ذَلِكَ بِمَا هُوَ أَطْمَمٌ، وَهُجْنَتُهُ أْتَمُّ؛ مِنَ الصِّيَاحِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي حَالِ خَلْوَتِهِ بِبَعْضِ حُرْمَاتِهِ مِنْ وَرَاءِ الْجُدُرِ، كَمَا يُصَاحُ بِأَهْوَنِ النَّاسِ قَدْرًا؛ لِيُنَبِّهَ عَلَى فِطَاعَةِ مَا أُجْرُوا إِلَيْهِ وَجَسَرُوا عَلَيْهِ؛

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا كَانَ يَلْحَقُهُ مِنَ الْوَحْشَةِ مِنْ سُوءَاتِهِمْ، فَقِيلَ لَهُ: هُوَ نَ عَلَيْكَ، وَاعْفُ عَنْهُمْ، فَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ، إِذِ الْعَقْلُ يَقْتَضِي حُسْنَ الْأَدَبِ وَمُرَاعَاةَ الْحَشْمَةِ، لَا سِيَّمَا لِمَنْ كَانَ بِهَذَا الْمَنْصِبِ.

قوله: (تَعَجُّرِفِهِمْ): الجوهري: «جَمَلٌ فِيهِ عَجْرْفَةٌ: كَأَنَّ فِيهِ حُرْفًا وَقِلَّةً مُبَالَاةً لِسُرْعَتِهِ». الأساس: «فِي كَلَامِهِ عَجْرْفَةٌ وَتَعَجُّرْفٌ، أَي: جَفْوَةٌ».

قوله: (مِنْ غَيْرِ حَضْرٍ وَلَا تَقْيِيدٍ): تفسيرٌ للحضْر، أَرَادَ الْإِبْقَاءَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، نَحْوُ: فَلَانٌ يُعْطَى وَيَمْنَعُ. وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُهُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ.

قوله: (مَا أُجْرُوا إِلَيْهِ): أَي: سَبَقُوا إِلَيْهِ، قَالَ الْحَمَاسِيُّ:

هُمُ فَطَعُوا الْأَرْحَامَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ وَأَجْرُوا إِلَيْهَا وَاسْتَحَلُّوا الْمَحَارِمَ^(١)

قال المرزوقي: «الْإِجْرَاءُ يُسْتَعْمَلُ فِي الْمُنْكَرِ الْمَذْمُومِ، وَمَفْعُولُهُ مَحْذُوفٌ، كَأَنَّهُ قِيلَ: أُجْرُوا فَعَلَّهُمْ إِلَيْهَا»^(٢).

(١) البيت لفُتْلَاقِ بْنِ مِرْوَانَ، كَمَا فِي «الْحَمَاسَةِ» ص ٨٤.

(٢) «شَرْحُ دِيْوَانِ الْحَمَاسَةِ» لِلْمِرْزُوقِيِّ (١: ١٣٨).

لأنَّ مَنْ رَفَعَ اللهُ قَدْرَهُ عَنْ أَنْ يُجَهَرَ لَهُ بِالْقَوْلِ حَتَّىٰ خَاطَبَهُ جِلَّةُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ بِأَخِي السَّرَارِ، كَانَ صَنِيعُ هَؤُلَاءِ مِنَ الْمُنْكَرِ الَّذِي بَلَغَ مِنَ التَّفَاحُشِ مَبْلَغًا، وَمِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ يُقْتَطَفُ ثَمَرُ الْأَلْبَابِ، وَتُقْتَبَسُ مَحَاسِنُ الْأَدَابِ، كَمَا يَحْكِي عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ - وَمَكَانُهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالزُّهْدِ وَثِقَةِ الرَّوَايَةِ مَا لَا يَخْفَى - أَنَّهُ قَالَ: مَا دَقَّقْتُ بَابًا عَلَىٰ عَالِمٍ قَطُّ حَتَّىٰ يَخْرُجَ فِي وَقْتِ خُرُوجِهِ.

﴿أَنْتُمْ صَبْرُوا﴾ فِي مَوْضِعِ الرَّفْعِ عَلَى الْفَاعِلِيَّةِ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: وَلَوْ ثَبَّتَ صَبْرُهُمْ. وَالصَّبْرُ: حَبْسُ النَّفْسِ عَنْ أَنْ تُنَازَعَ إِلَىٰ هَوَاهَا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨]، وَقَوْلُهُمْ: صَبَرَ عَنْ كَذَا، مَحذُوفٌ مِنْهُ الْمَفْعُولُ،

قوله: (عن أبي عبيد): عن بعضهم: هو القاسم بن سلام الكوفي، وأبو عبيدة: معمر بن المثنى التيمي، وكان أستاذاً لأبي عبيد^(١).

قوله: (لأن المعنى: ولو ثبت صبرهم): قال القاضي: «المعنى: لو ثبت انتظارهم حتى تخرج، فإنَّ «أن» دلَّتْ بِهَا فِي حَيِّزِهَا عَلَى الْمَصْدَرِ، وَدَلَّتْ بِنَفْسِهَا عَلَى الثُّبُوتِ، وَلِذَلِكَ وَجَبَ إِضْمَارُ الْفِعْلِ»^(٢).

قوله: (عن أن تنازع إلى هواها): الجوهري: «نَزَعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَنْزِعُ نِزَاعًا، أَي: اشْتَقَ، وَأَنْزَعَ الْقَوْمُ إِذَا نَزَعَتْ إِلَيْهِمْ إِلَىٰ أوطانها».

قوله: (صبر عن كذا): محذوف فيه المفعول، ويروى: «على كذا»، يُقال: صَبَرَ عَلَيْهِ، أَي: نَفَسَهُ.

(١) تحوَّرف في الأصول الخطية إلى: «لأبي عبيدة»، والصواب ما أثبت، فقد وُلِدَ أَبُو عُبَيْدٍ سَنَةَ ١٥٧، وَتَوَفَّى سَنَةَ ٢٣٤، وَوُلِدَ أَبُو عُبَيْدَةَ سَنَةَ ١١٠، وَتَوَفَّى سَنَةَ ٢٠٩، رَحِمَهُمَا اللهُ تَعَالَى.

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ٢١٣).

(٣) تحوَّرف في (ح) و(ف) إلى: «ونزاع»، والمثبت من (ط) ومن «الصَّحاح» للجوهري، مادة (نزع).

وهو النَّفْسُ، وهو حَبْسٌ فيه شِدَّةٌ وَمَشَقَّةٌ عَلَى المحبوس، ولهذا قِيلَ لِلْحَبْسِ عَلَى اليمينِ أَوْ القَتْلِ: صَبْرٌ. وفي كلام بعضهم: الصَّبْرُ مُرٌّ، لَا يَتَجَرَّعُهُ إِلَّا حُرٌّ.

فإن قلت: هل من فَرْقٍ بَيْنَ ﴿حَتَّى تَخْرُجَ﴾ و﴿إِلَى أَنْ تَخْرُجَ﴾؟ قلت: إنَّ «حتى» مُخْتَصَّةٌ بِالغَايَةِ المَضْرُوبَةِ، تقول: أَكَلْتُ السَّمَكَةَ حَتَّى رَأَسَهَا، ولو قلت: حَتَّى نِصْفَهَا أَوْ صَدْرَهَا، لم يَجُزْ، و﴿إِلَى﴾ عَامَّةٌ فِي كُلِّ غَايَةٍ، فقد أفادت «حتى» بوضْعِها: أَنَّ خُرُوجَ رَسولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ غَايَةٌ قد ضَرَبْتَ لِصَبْرِهِمْ، فما كَانَ لَهُمْ أَنْ يَقْطَعُوا أَمْرًا دُونَ الانْتِهَاءِ إِلَيْهِ.

قوله: (إنَّ «حتى» مُخْتَصَّةٌ بِالغَايَةِ المَضْرُوبَةِ): يعني: «حتى» نَصٌّ فِي بَيَانِ الغَايَةِ، وَبِتَّ لِلْحُكْمِ، وَأَنَّ لَا رُحْصَةَ لَهُمْ دُونَ هَذِهِ الغَايَةِ^(١)، بِخِلَافِ «إِلَى» فَإِنَّهَا مُطْلَقَةٌ تَحْتَمِلُ أُمُورًا، قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَيَّدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]: «إِلَى»: تُفِيدُ مَعْنَى الغَايَةِ مُطْلَقًا، فَمَا دَخَلَهَا فِي الحُكْمِ وَخَرُوجِهَا: فَأَمْرٌ يَدُورُ مَعَ الدَّلِيلِ.

قال صاحبُ «التقريب»: «حتى»: تَخْتَصُّ بِالغَايَةِ المَضْرُوبَةِ، وَإِلَى: عَامَّةٌ فِي كُلِّ غَايَةٍ، لَا يُقَالُ: أَكَلْتُ السَّمَكَةَ حَتَّى نِصْفَهَا، وَيُقَالُ: إِلَى نِصْفِهَا، فَإِنَّمَا قَالَ: ﴿حَتَّى تَخْرُجَ﴾ لِيُقَيَّدَ أَنَّهُ غَايَةٌ، لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَقْطَعُوا أَمْرًا دُونَ الانْتِهَاءِ إِلَيْهَا.

وبيانُه: أَنَّ اخْتِصَاصَهَا بِالغَايَةِ المَضْرُوبَةِ^(٢)، أَي: المَعْيَنَةِ، مَعْنَاهُ: أَنَّ مَا بَعْدَ «حتى» دَاخِلٌ فِي حُكْمِ مَا قَبْلَهَا، فَالرَّأْسُ مَأْكُولٌ مِنْ قَوْلِهِ: «حتى رَأْسَهَا»؛ إِذْ لو لم يَكُنْ مَأْكُولًا، وانْتَهَى الأَكْلُ قَبْلَهُ بِجُزْءٍ آخَرَ سِوَى الرَّأْسِ، لَكَانَ ذَلِكَ الجُزْءُ غَايَةً، فَلَمْ تَكُنْ مُخْتَصَّةً بِهَذِهِ الغَايَةِ المَضْرُوبَةِ، وَهُوَ خِلَافُ وَضْعِهَا، وَأما «إِلَى» فَلَا تَخْتَصُّ، بَلْ قد يَدْخُلُ مَا بَعْدَهَا، وَقَدْ لَا يَدْخُلُ، فَقَدْ تَكُونُ لَهُ غَايَةٌ^(٣) أُخْرَى سِوَى مَا بَعْدَ «إِلَى».

(١) من قوله: «وبتَّ للحكم» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) من قوله: «وإلى: عامة في كل غاية» إلى هنا، سقط من (ط).

(٣) من قوله: «فلم تكن مختصة» إلى هنا، سقط من (ف).

فإن قلت: فأَيُّ فائدةٍ في قوله: ﴿إِلَيْهِمْ﴾؟ قلت: فيه أنه لو خَرَجَ، ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم، لَلَزِمَهُمْ أَنْ يَصْبِرُوا إِلَى أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ خُرُوجَهُ إِلَيْهِمْ.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾: في «كان»: إما ضميرٌ فاعلِ الفِعْلِ المُضَمَّرِ بعدَ «لو»، وإما ضميرٌ مَصْدَرٍ ﴿صَبَرُوا﴾، كقولهم: مَنْ كَذَبَ كَانَ شَرًّا لَهُ، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بليغُ الغفرانِ والرحمةِ واسِعُهُمَا، فلن يَضِيقَ غُفْرَانُهُ وَرَحْمَتُهُ عَنْ هَؤُلَاءِ إِنْ تَابُوا وَأَنَابُوا.

فقوله: ﴿حَتَّى تَخْرُجَ﴾ يدلُّ على أنه لا غايةَ خَيْرِيَّةٍ صَبْرِهِمْ قَبْلَ الخُرُوجِ، فليسَ لهم أن يَقْطَعُوا أَمْرًا قَبْلَ الْإِنْتِهَاءِ إِلَيْهِ، وإلا لَانْتَهَتْ^(١) الْخَيْرِيَّةُ لِعَايَةِ قَبْلَ الخُرُوجِ، وَلَا يَلْزَمُ ذَلِكَ فِي «إِلَى».

وكانَ الْأَوَّلَى أَنْ يَقُولَ: إِنَّ «حَتَّى» تُفِيدُ أَنَّهُ لَا تَنْتَهِي خَيْرِيَّةُ صَبْرِهِمْ بَعْدَ الخُرُوجِ أَيْضًا، فَكَمَا أَنَّ حُكْمَ الْأَكْلِ يَشْمَلُ الرَّأْسَ، فَحُكْمُ خَيْرِيَّةِ الصَّبْرِ يَشْمَلُ زَمَانَ الخُرُوجِ أَيْضًا، فَيَكُونُ أَبْلَغُ، وَلَوْ قَالَ: «إِلَى» لَمْ يَلْزَمْ، لِأَنَّ مَا بَعْدَ «إِلَى» لَا يَلْزَمُ دَخُولَهُ فِي حُكْمِ مَا قَبْلَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. تَمَّ كَلَامُهُ.

قوله: (وإما ضميرٌ مَصْدَرٍ ﴿صَبَرُوا﴾): قال القاضي: «المعنى: لكانَ الصَّبْرُ خَيْرًا لَهُمْ مِنَ الْإِسْتِعْجَالِ، لِمَا فِيهِ مِنْ حِفْظِ الْأَدَبِ، وَتَعْظِيمِ الرَّسُولِ ﷺ، الْمُؤَجِّبِينَ لِلثَّنَاءِ وَالشُّوَابِ وَالْإِسْعَافِ بِالْمَسْئُولِ»^(٢).

قال الواحدي: «قَدِمَ بنو تَمِيمٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ لِفِدَاءِ ذُرَّارِيهِمُ الَّتِي سُبِّتَتْ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي بِـ«الْخَيْرِ»: أَنَّهُمْ لَوْ صَبَرُوا لَخُلِّيَ سَبِيلُهُمْ بِغَيْرِ فِدَاءٍ، فَلَمَّا نَادَوْهُ أَعْتَقَ نِصْفَ ذُرَّارِيهِمْ، وَفَادَى نِصْفَهُمْ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَلَوْ صَبَرُوا لَكُنْتَ تُعْتَقُ كُلَّهُمْ»^(٣).

(١) في الأصول الخطية: «وإلا لا تنتهي»، ولا يستقيم، وأثبت ما يُناسِبُ السِّبَاقِ.

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ٢١٤).

(٣) «الوسيط» للواحدي (٤: ١٥٢).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِِنْ جَاءَ كُمْ فَاسِقُ بِنْيَا فَنَبِيْنَا فَنَبِيْنَا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجْهَلَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَدِيمِينَ * وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنُ وَزِينَةُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَةُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِيدُونَ * فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦-٨﴾

بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ أَخَا عَثْمَانَ لِأُمَّهُ - وَهُوَ الَّذِي وَلَاهُ عَثْمَانُ الْكُوفَةَ بَعْدَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ، فَصَلَّى بِالنَّاسِ وَهُوَ سَكْرَانٌ صَلَاةَ الْفَجْرِ أَرْبَعًا، ثُمَّ قَالَ: هَلْ أَزِيدُكُمْ، فَعَزَلَهُ عَثْمَانُ عَنْهُمْ - مُصَدِّقًا إِلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ، وَكَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ إِحْنَةٌ، فَلَمَّا شَارَفَ دِيَارَهُمْ رَكِبُوا مُسْتَقْبِلِينَ لَهُ، فَحَسِبَهُمْ مُقَاتِلِيهِ، فَرَجَعَ، وَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: قَدْ ارْتَدُّوا وَمَنَعُوا الزَّكَاةَ، فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،

قوله: (مُصَدِّقًا): أي: بَعَثَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آخِذًا لِلصَّدَقَةِ.

النهاية: «قال الخطابي: إنَّ «المُصَدِّقَ» - بتخفيف الصاد - العاِمل، فإنه وكيل الفقراء في القَبْضِ، فله أن يتصرف لهم بما يراه؛ مما يُؤدِّي إليه اجتهاده».

وأما قِصَّةُ الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ: ففيها لِلْمُفَسِّرِينَ اخْتِلَافٌ، وَالصَّحِيحُ مَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ ابْنَ حَنْبَلٍ فِي «مُسْنَدِهِ»^(١) عَنْ عَيْسَى بْنِ دِينَارٍ عَنْ أَبِيهِ: «أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ ضِرَارِ الْخَزَاعِمِيَّ قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَبَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى قَوْمِهِ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَيَجْمَعُ الزَّكَاةَ، فَضَرَبَ وَقْتًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيُبْعَثَ إِلَيْهِ رَسُولًا لِيَقْبِضَ الزَّكَاةَ، فَاحْتَبَسَ الرَّسُولُ عَنِ الْوَقْتِ، فَظَنَّ الْحَارِثُ أَنَّهُ قَدْ حَدَّثَتْ سَخِطَةً مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَانْطَلَقَ مَعَ سَرَوَاتِ قَوْمِهِ^(٢) يَأْتُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ بَعَثَ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ إِلَى الْحَارِثِ لِيَقْبِضَ مَا كَانَ عِنْدَهُ، فَلَمَّا أَنْ بَلَغَ بَعْضَ الطَّرِيقِ فَرَّقَ وَرَجَعَ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْحَارِثُ مَنَعَنِي الزَّكَاةَ، وَأَرَادَ قَتْلِي، فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْبَعْثَ إِلَى الْحَارِثِ.

(١) برقم (١٨٤٥٩).

(٢) أي: رؤسائهم، والسَّرَوَاتُ: جمع سُرَاة، وهي جمع سَرِيٍّ، وهو الرئيس. انظر: «المصباح المنير» للفيومي،

مادة (سري).

وَهُمْ أَنْ يَغْزَوْهُمْ، فَبَلَغَ الْقَوْمَ فَوَرَدُوا وَقَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ غَضَبِهِ وَغَضَبِ رَسُولِهِ، فَاتَّهَمَهُمْ، فَقَالَ: «لَتَسْتَهْنُنَّ أَوْ لِأَبْعَثَنَّ إِلَيْكُمْ رَجُلًا هُوَ عِنْدِي كَنَفْسِي، يُقَاتِلُ مُقَاتِلَتَكُمْ، وَيَسْبِي ذُرَارِيَكُمْ»، ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى كَتِفِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَقِيلَ: بَعَثَ إِلَيْهِمْ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، فَوَجَدَهُمْ مُنَادِينَ بِالصَّلَاةِ مُتَهَجِّدِينَ، فَسَلَّمُوا إِلَيْهِ الصَّدَقَاتِ، فَرَجَعَ.

وفي تنكير «الفاسيق» و«النبأ»: شِيَاعٌ فِي الْفُسَّاقِ وَالْأَنْبَاءِ، كَأَنَّهُ قَالَ: أَيُّ فَاسِقٍ جَاءَكَمْ بِأَيِّ نَبَأٍ، فَتَوَقَّفُوا فِيهِ وَتَطَلَّبُوا بَيَانَ الْأَمْرِ وَانْكِشَافَ الْحَقِيقَةِ، وَلَا تَعْتَمِدُوا قَوْلَ الْفَاسِقِ، لِأَنَّ مَنْ لَا يَتَّحَمِي جِنْسَ الْفُسُوقِ لَا يَتَّحَمِي الْكُذْبَ الَّذِي هُوَ نَوْعٌ مِنْهُ.

وَالْفُسُوقُ: الْخُرُوجُ مِنَ الشَّيْءِ وَالْإِنْسِلَاخُ مِنْهُ، يُقَالُ: فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ عَنْ قَشْرِهَا، وَمَنْ مَقْلُوبُهُ: فَفَسَّتُ الْبَيْضَةُ: إِذَا كَسَرْتَهَا وَأَخْرَجْتَ مَا فِيهَا، وَمَنْ مَقْلُوبُهُ أَيْضًا: فَفَسَّتُ الشَّيْءَ: إِذَا أَخْرَجْتَهُ عَنْ يَدِ مَالِكِهِ مُغْتَضِبًا لَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَعْمَلَ فِي الْخُرُوجِ عَنِ الْقَصْدِ وَالْإِنْسِلَاخِ مِنَ الْحَقِّ، قَالَ رُوَيْبَةُ:

فَوَاسِقًا عَنِ قَصْدِهَا جَوَائِرَا

وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «فَتَشَبَّهُوا»، وَالتَّشَبُّهُ وَالتَّبَيُّنُ: مُتَقَارِبَانِ، وَهِيَ طَلَبُ الثَّبَاتِ وَالْبَيَانِ وَالتَّعَرُّفِ.

وَلَمَّا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِالْمَنْزِلَةِ الَّتِي لَا يَجْسُرُ أَحَدٌ أَنْ يُخْبِرَهُمْ بِكَذِبٍ، وَمَا كَانَ يَقَعُ مِثْلُ مَا قَرَطَ مِنَ الْوَلِيدِ إِلَّا فِي النُّدْرَةِ؛ قِيلَ: ﴿إِنْ جَاءَ كُرٌّ﴾ بِحَرْفِ الشُّكِّ.

اسْتَقْبَلَ الْحَارِثُ الْبَعَثَ قُرْبَ الْمَدِينَةِ، وَقَالَ لَهُمْ: إِلَى مَنْ بُعِثْتُمْ؟ قَالُوا: إِلَيْكَ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ إِلَيْكَ الْوَلِيدَ بْنَ عَقْبَةَ، فَرَعِمَ أَنْكَ مَتَعَتَهُ الزَّكَاةَ، وَأَرَدْتَ قَتْلَهُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ أَيْضًا، قَالَ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا رَأَيْتُهُ، وَمَا أَتَانِي، وَمَا أَقْبَلْتُ إِلَّا حِينَ احْتَبَسَ عَلَيَّ رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ، فَتَزَلْتُ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَ كُرٌّ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ الْآيَةَ.

قَوْلُهُ: (قِيلَ: ﴿إِنْ جَاءَ كُرٌّ﴾ بِحَرْفِ الشُّكِّ): جَوَابُ «لَمَّا»، وَقَوْلُهُ: «وَمَا كَانَ يَقَعُ» إِلَى آخِرِهِ:

اعتراض.

وفيه: **أَنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا عَلَىٰ هَذِهِ الصِّفَةِ، لِئَلَّا يَطْمَعَ فَاسِقٌ فِي مُحَاطَتِهِمْ بِكَلِمَةٍ زُورٍ. ﴿أَنْ تُصِيبُوا﴾** مفعول له، أي: كراهة إصابتكم **﴿قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾** حال - كقوله: **﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ﴾** [الأحزاب: ٢٥] -، يعني: جاهلين بحقيقة الأمر وكُنه القصة. والإصباح: بمعنى الصيرورة. والنَّدَمُ: ضَرْبٌ مِنَ الْعَمِّ، وهو: أن تَغْتَمَّ عَلَىٰ مَا وَقَعَ مِنْكَ تَتَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ، وهو غَمٌّ يَصْحَبُ الْإِنْسَانَ صُحْبَةً لَهَا دَوَامٌ وَلِزَامٌ، لَأنَّهُ كَلَّمَا تَذَكَّرَ الْمُتَنَدِّمَ عَلَيْهِ رَاجِعَهُ؛ مِنَ النَّدَامِ: وَهُوَ لِزَامُ الشَّرِيبِ وَدَوَامُ صُحْبَتِهِ،

قوله: (وفيه: **أَنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا عَلَىٰ هَذِهِ الصِّفَةِ**): أي: أَدْمِجْ^(١) فِي الْآيَةِ أَنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا عَلَىٰ تَثَبُّتٍ مِنَ الْأَمْرِ لِئَلَّا يَطْمَعَ فَاسِقٌ، وَذَلِكَ مِنْ حَرْفِ التَّنْبِيهِ، وَإِقَاعَ **﴿ءَامَنُوا﴾** صِلَةً لِلْمَوْصُولِ، وَجَعَلَهَا سَبَبًا لِمَا بَعْدَهُ مِنَ الْحَرْفِ الْمَوْضُوعِ لِنِدَاءِ الْبَعِيدِ، وَقَدْ نُودِيَ بِهِ الْقَرِيبُ الْمَقَاطِنَ لِيُنَبِّهَ عَلَىٰ أَنَّ الْخِطَابَ الَّذِي يَتْلُوهُ مَعْنِيٌّ بِهِ جَدًّا.

الراغب: (في قوله: **﴿إِنْ جَاءَ كُفْرًا فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾** تنبيه على أنه إن كان الخبر عظيمًا له^(٢) قَدْرٌ، فَحَقُّهُ أَنْ يَتَوَقَّفَ فِيهِ - وَإِنْ عَلِمَ أَوْ غَلَبَ صِحَّتُهُ عَلَى الظَّنِّ - حَتَّى يُعَادَ النَّظْرَ فِيهِ، وَيَتَبَيَّنَ فَضْلَ تَبَيَّنَ^(٣)).

وقوله: (مِنَ النَّدَامِ): مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: «وَالنَّدَمُ ضَرْبٌ مِنَ الْعَمِّ»، أَي: مَا خُوذَ مِنْهُ.

قوله: (لِزَامُ الشَّرِيبِ): الْجَوْهَرِيُّ: «شَرِيبُكَ: الَّذِي يُشَارِبُكَ، وَيُورِدُ إِلَيْهِ مَعَ إِيْلِكَ، وَهُوَ فَعِيلٌ بِمَعْنَى: مُفَاعِلٌ، مِثْلُ: نَدِيمٌ وَأَكِيلٌ»، وَرُويَ عَنِ الْمُصَنِّفِ: أَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ مُخْتَلَفٌ فِيهَا، وَهِيَ أَنَّهُ كَلَّمَا يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ ذَنْبًا، هَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ تَجْدِيدُ النَّدَمِ أَمْ يَكْفِيهِ النَّدَمُ مَرَّةً، فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ كَلَّمَا تَذَكَّرَهُ أَنْ يَنْدَمَ، لِأَنَّ لَفْظَ النَّدَمِ بُنِيَ عَنِ اللَّزُومِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُلَازِمًا لِلنَّدَمِ كَلَّمَا تَذَكَّرَ.

(١) تقدّم معنى الإدماج في تفسير الآية ١١٥ من سورة التوبة (٧: ٣٨١) تعليقاً.

(٢) في الأصول الخطية: «وما له قدر»، وله وجه، والمثبت من «مفردات القرآن» للراغب، وهو أوضح.

(٣) «مفردات القرآن» ص ٧٨٩.

ومن مَقْلُوبَاتِهِ: أَدَمَنَ الأَمْرَ: أَدَامَهُ، وَمَدَّنَ بِالْمَكَانِ: أَقَامَ بِهِ، وَمِنْهُ: الْمَدِينَةُ، وَقَدْ تَرَاهُمْ يَجْعَلُونَ الأَهْمَ صَاحِبًا، وَنَجِيًّا، وَسَمِيرًا، وَضَجِيعًا، وَمَوْصُوفًا بِأَنَّهُ لَا يُفَارِقُ صَاحِبَهُ.

الْجُمْلَةُ الْمُصَدَّرَةُ بِـ«لَوْ»: لَا تَكُونُ كَلَامًا مُسْتَأْنَفًا، لِأَدَائِهِ إِلَى تَنَافُرِ النَّظْمِ،

قوله: (وقد تراهم يجعلون الأهم صاحباً): بيان لقوله: «وهو عم يصحب الإنسان صُحْبَةً

لها دوام».

قوله: (لا تكونُ كلاماً مستأنفاً، لأدائه إلى تنافرِ النَّظْمِ): قال أبو البقاء: «﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ مُسْتَأْنَفٌ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا، وَالْعَامِلُ فِيهِ الْاسْتِقْرَارُ، وَإِنَّمَا جَازَ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ جَازَ أَنْ يَقَعَ صِفَةً لِلنَّكِرَةِ، كَقَوْلِكَ: مَرَرْتُ بِرَجُلٍ لَوْ كَلَّمْتُهُ لَكَلَّمَنِي، أَي: مُتَهَيِّئْ لِدَلِّكَ»^(١).

وقلت: إنما لم يحسن الاستئناف، لأنَّ قوله: «﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ لَوْ جُعِلَ مَوْرَدًا لِلسُّؤَالِ اسْتَجْهَالًا لَهْمَ بِيَا كَانَ يَصْدُرُ مِنْهُمْ مِنَ الْفَلَتَاتِ الَّتِي لَا تَلِيْقُ بِحَضْرَةِ الرِّسَالَةِ، فَتَزَلُّوا لِذَلِكَ مَنْزِلَةً مَنْ لَا يَعْلَمُ أَنَّ فِيهِمْ رَسُولَ اللَّهِ»^(٢)؛ بَأَنَّ يَقُولُوا: مَا بَأْنَا وَرَسُولَ اللَّهِ مُسْتَقَرًّا فِينَا، لَمْ يَقَعْ قَوْلُهُ: «﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعِنْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الأِيمَانَ﴾ مَوْقِعَهُ فِي الجَوَابِ، وَلَكِنْ إِذَا جُعِلَ حَالًا، بِمَعْنَى: أَنَّ فِيكُمْ مَنْ حَالُهُ أَنَّهُ أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَخَصَّهُ بِمَنْصِبِ الرِّسَالَةِ، وَلَا يَقْطَعُ أَمْرًا إِلَّا بِالوَحْيِ النَّازِلِ، فَيَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تُحَاوِلُوا أَنْ يَعْمَلَ فِي الحَوَادِثِ عَلَى مُقْتَضَى مَا يَعْنُ لَكُمْ مِنْ رَأْيٍ وَاسْتِصْوَابِ حَالٍ حَسَنٍ»^(٣).

وَيُمْكِنُ أَنْ يُرْجَحَ طَرِيقُ الْاسْتِئْثْنَانِ بِأَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَرْسَدَهُمْ طَرِيقَ الصَّوَابِ بِقَوْلِهِ: «﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾»، أَي: اسْتَعْمِلُوا التَّائِيَّ فِيهَا سَنَحَ لَكُمْ مِنَ الأُمُورِ، وَالتَّسْرُؤِي فِي كَشْفِ الأَحْوَالِ، لِثَلَا تَرَجِعُوا إِلَى كَلَامِ بَعْضِ الفُسَّاقِ فَتَوَرَّطُوا فِيهَا تَدْمُونَ مِنْهُ، نَبَهُهُمْ أَيْضًا أَنَّ فِيهِمْ رَسُولَ اللَّهِ، النَّاطِقَ بِالسُّنَّةِ الْعَادِلَةِ، وَالصَّادِعَ بِالحِكْمَةِ السَّاطِعَةِ، لَا يَرْجِعُ عَنْ رَأْيٍ كُلِّ

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٧١).

(٢) من قوله: «﴿لَوْ جُعِلَ مَوْرَدًا لِلسُّؤَالِ﴾ إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ح) وَ(ف).

(٣) فِي الأَصُولِ الخَطِيئَةِ: «جَا الحَسَنُ!» وَقَدَّرْتُهُ بِهَا أَثَبَّتْ.

ولكن مُتَّصِلًا بما قبله؛ حالاً من أحدِ الضميرين في ﴿فِيكُمْ﴾؛ المُستَـرِّـر المرفوع أو البارزِ المجرور، وكلاهما مذهبٌ سديد. والمعنى: أن فيكم رسول الله على حالةٍ يجبُ عليكم تغييرُها، أو: أنتم على حالةٍ يجبُ عليكم تغييرُها، وهي أنكم تحاولون منه أن يعملَ في الحوادثِ على مُقتضى ما يعينُ لكم من رأيٍ واستصواب، فَعَلَّ المطواع لغيره التابع له فيما يرتئيه المُحتدي على أمثله، ولو فَعَلَ ذلك ﴿لَمِنْتُمْ﴾، أي: لَوَقَعْتُمْ في العنتِ والهلاك، يُقال: فلانٌ يتعنَّتُ فلاناً، أي: يطلبُ ما يُؤدِّيه إلى الهلاك، وقد أعنتَ العَظْم: إذا هيضَ بعدَ الجبر.

زافع، ولا يعملُ بهوى كُلِّ مُبطل، فاقتدوا به في ذلك، فاتَّجَه لهم أن يسألوا: لِمَ كان ذلك؟ فقيل: لو يُطِيعُ بعضاً منكم في كثيرٍ من الأمرِ لَعِنْتُمْ، ثم قالَ للبعض الآخر: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ إِلَّا يَمُنَّ﴾.

ويؤيدُه ما قال الواحدي: ﴿أَنْ تُصِيبُوا﴾ أي: لِئَلَّا تُصِيبُوا ﴿قَوْمًا يَجْهَلُونَ فَتُصِيحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾، ثم وَعَظَهُمْ فقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾، أي: اتقوا أن تكذبوه وتقولوا باطلاً، فإن الله يُخبرُه به، فتُفْضِحُوا. ثم قال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ﴾ مما تُخبرونه فيه بالباطل، لَوَقَعْتُمْ في الإثم والهلاك، ثم خاطبَ المؤمنين الذين لا يكذبون، فقال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ إِلَّا يَمُنَّ﴾^(١).

قوله: (فيما يرتئيه المُحتدي): أي: يراه المُقتدي لنفسه، قيل: يُقال: ارتأى فلان، أي: رأى رأياً لنفسه، مثل: استوى: أخذ السواء لنفسه.

الأساس: «وارتأى في الأمر، وارتأيت رأياً في كذا، والرأي: ما ارتأى فلان، وفلانٌ يترأى برأي فلان: يميلُ إلى رأيه، ويأخذُ به، واسترأته: طلبتُ منه رأيه».

قوله: (إذا هيضَ بعدَ الجبر): ورُوي عن المُصنِّف أنه قال: هذا يكونُ أشدَّ من الكسر، وقد رُوي أن الحجاجَ حبَسَ يزيدَ بنَ المهلب، وكان يُعذِّبُه بأنواع العذاب، وكان لا يُسمعُ له

(١) «الوسيط» للواحدي (٤: ١٥٢-١٥٣).

وهذا يَدُلُّ على أَنَّ بعضَ المؤمنينَ زَيَّنوا لرسولِ اللهِ ﷺ الإيقاعَ ببني المصطلق، وتصديقَ قولِ الوليد، وأنَّ نظائرَ ذلكَ مِنَ الهناتِ كانتَ تفرطُ منهم، وأنَّ بعضَهم كانوا يَتَصَوِّفُونَ وَيَزَعُّهُم جِدُّهُم في التقوى عن الجسارةِ على ذلك، وهم الذين استثناهم بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْأَيْمَنَ﴾، أي: إلى بعضكم، ولكنه أغنت عن ذكرِ «البعض» صفتهم المارقةَ لصفةِ غيرهم،

أين، وكان الحجاجُ يُحِبُّ أن يَسْمَعَ له أنينا لِيَشْفِيَّ منه، فقيل له: إنَّ رِجْلَهُ كُيسِرَت في حَرْبٍ كذا وجَبَرَت، فينبغي أن يُوصَعَ على تلكَ الرِّجْلِ، ففعلوا، فأن.

قوله (منَ الهناتِ): وهي خِصَالٌ في الشَّرِّ، النهاية: «يُقَالُ: في فلانٍ هَنَات، أي: خِصَالٌ شَرٌّ، ولا يُقَالُ في الخير».

الانتصاف: «منَ هَنَاتِ الْمُعْتَرِلةِ تَوْرِيكُهُمْ»^(١) على عثمانَ رضي اللهُ عنه، وتوقُّفهم في الحكمِ بِفِسْقِ قَلْبِهِ، وقد عَرَّضَ هاهنا بأنه وَلِيَّ الوليدِ عَوْضاً عن سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَاصٍ؛ أَحَدِ العَشْرَةِ المُبَشَّرَةِ، وعَرَّضَ به في قوله: «إِنَّ مِنَ الصَّحَابَةِ مَنْ كَانَ تَصَدَّرُ مِنْهُ هَنَات»، فافهم من تَعَرُّضِنَا ما عَرَّضَ به في عثمانَ رضي اللهُ عنه، نسألُ اللهَ العِصْمَةَ»^(٢).

قوله: (وَيَزَعُّهُمْ): أي: يَكْفُهُم، النهاية: «في الحديث: «مَنْ يَزَعُ السُّلْطَانَ أَكْثَرَ مِمَّنْ يَزَعُ الْقُرْآنَ»^(٣)، أي: يَكْفُفُ عن ارتكابِ العِظائمِ مخافةَ السُّلْطَانِ أَكْثَرَ مِمَّنْ يَكْفُهُ مخافةَ الْقُرْآنِ واللهُ تعالى، يُقَالُ: وَزَعَهُ يَزَعُهُ وَزَعَاً، فهو وازعٌ: إذا كَفَّهُ وَمَنَعَهُ».

قوله: (أغنت عن ذكرِ «البعض» صفتهم المارقةَ لصفةِ غيرهم): يعني: نُزِلَ التغيُّرُ بَيْنَ الوَصْفَيْنِ منزلةَ التغيُّرِ بَيْنَ الذاتينِ، وذلكَ أَنَّ العطفَ بـ«لكن» في الجملتينِ يُوجِبُ التغيُّرَ بينهما بالنفي والإثبات، فيصدَّرُ معنى قوله: «لَوْ يَطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعِنْتُمْ» بقرينةِ الحالِ،

(١) كذا في الأصول الخطية، وفي الانتصاف: «تأبَّهُم»، أي: قدَّحهم وعيَّبهم. يُقَالُ: وَرَكَ فلانٌ ذنْبَهُ على غيره توريكاً؛ إذا أضافه إليه وقرَّفه به، وَرَكَ الذنْبُ عليه: حمَّله. «لسان العرب» لابن منظور، مادة (ورك).

(٢) «الانتصاف» (٣: ٥٦٠) بحاشية «الكشاف».

(٣) يروى عن عثمان رضي الله عنه موقوفاً، وليس بمرفوع.

وهذا من إيجازات القرآن ولمحايته اللطيفة، التي لا يَفْطَنُ لها إلا الخواص. وعن بعض المُفسِّرين: هُمُ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى.

وما بعد كلمة الاستدراك، وبالإستيناف بقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾ المفيد للتخصيص والتعريض بواسطة ضمير الفُضْل: ما حَبَّبَ إِلَى بَعْضِكُمُ الْإِيمَانَ؛ تغليظاً، لأنَّ مَنْ تَصَدَّى لِتَزِينِ الرَّسُولِ ﷺ فِي الْإِبْقَاعِ بِقَوْمٍ مُؤْمِنِينَ غَافِلِينَ بَرِيئِينَ، وَجَسَرَ عَلَى ارْتِكَابِ تِلْكَ الْعَظِيمَةِ، لَمْ يَكُنْ مَحْبُوباً إِلَيْهِ الْإِيمَانَ، وَيُقَدَّرُ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾: حَبَّبَ إِلَى بَعْضِكُمْ، لِأَنَّ مَنْ تَصَوَّنَ مِنْ مِثْلِ تِلْكَ الْهِنَاتِ، وَيَزَعُهُ (١) جِدَّهُ فِي التَّقْوَى عَنْ ارْتِكَابِهَا، كَانَ مُحَبَّباً لِلْإِيمَانَ، فَكَانَهُ قِيلَ: مَا حَبَّبَ إِلَى بَعْضِكُمْ الْإِيمَانَ، وَلَكِنْ حَبَّبَ إِلَى بَعْضِ آخَرَ مِنْكُمْ الْإِيمَانَ. وهذا أيضاً تفسيرٌ لقوله بعد هذا: «المُغَايِرَةُ مَفْقُودَةٌ مِنْ حَيْثُ اللَّفْظُ، حَاصِلَةٌ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى».

والذي يدلُّ على التَغْلِيظِ: التَّعْرِيفُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكُرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ﴾ بقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾، وإلى هذا المعنى أوماً الواحديُّ بقوله: «لَوْ يُطِيعُكُمْ أَي: الرَّسُولُ ﷺ، فِي كَثِيرٍ» مما تُخْبِرُونَهُ فِيهِ بِالْبَاطِلِ، لَوْ قَعْتُمْ فِي عَنَتٍ، ثُمَّ خَاطَبَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي لَا يَكْذِبُونَ، فَقَالَ: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ (٢).

قوله: (وعن بعض المُفسِّرين: هُمُ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ): فيه إشارةٌ إلى بيان النَّظْمِ، يَعْنِي: كَمَا رُزِقَ أُولَئِكَ السُّعْدَاءُ لِرُومِ التَّأْدُّبِ فِي حَضْرَةِ الرَّسَالَةِ مِنْ خَفْضِ الصَّوْتِ، أُرْشِدُوا إِلَى تَصْدِيقِ مَا قَالَهُ الرَّسُولُ ﷺ، وَإِلَى امْتِثَالِ مَا يُقَدِّمُ إِلَيْهِ، فَيَلْزَمُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْبَاقِينَ هُمُ الَّذِينَ حُرِّمُوا تَوْفِيقَ التَّأْدُّبِ بِحَضْرَتِهِ، فَوَقَعُوا فِي الْعَنَتِ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ الْآيَتَيْنِ، كَالِاسْتِطْرَادِ لِحَدِيثِ رَفَعِ الصَّوْتِ.

وفيه: أَنَّ التَّأْدُّبَ رَأْسُ الْحَسَنَاتِ، وَأَسَاسُ الْخَيْرَاتِ.

(١) في الأصول الخطية: «ويزع»، وأثبت ما يُنَاسِبُ السِّيَاقِ.

(٢) «الوسيط» للواحدي (٤: ١٥٣).

وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ - والخطابُ لرسولِ الله ﷺ، أي: أولئك المُسْتَنَوْنَ هُمُ الرَّاشِدُونَ - يُصَدِّقُ مَا قُلْتَهُ.

فإن قلت: ما فائدة تقديم خَبَرِ «أَنَّ» على اسمِها؟ قلت: القَصْدُ إلى تَوْبِيخِ بعضِ الْمُؤْمِنِينَ على ما اسْتَهْجَنَ اللهُ مِنْهُمْ؛ مِنْ اسْتِتْبَاعِ رَأْيِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِأَرَائِهِمْ، فَوَجَبَ تَقْدِيمُهُ لِانْصِبَابِ الْغَرَضِ إِلَيْهِ.....

قوله: (أي: أولئك المُسْتَنَوْنَ هُمُ الرَّاشِدُونَ، يُصَدِّقُ مَا قُلْتَهُ): التاءُ في «ما قُلْتَهُ» خطابٌ لِلرَّسُولِ ﷺ، وفي أكثر النسخ: «يُصَدِّقُ مَا قُلْتَهُ»، بِصَمِّ التاءِ؛ خَبَرٌ لِقَوْلِهِ: «قوله»، وهو الوجه، يعني: دَلَّ «أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ» منطوقاً ومفهوماً على أَنَّ الْقَوْمَ فِرْقَانِ، وَأَنَّ حُكْمَ التَّغَايُرِ فِي الْوَصْفِ بِمَنْزِلَةِ حُكْمِ التَّغَايُرِ فِي الْذَاتِ، وَأَنَّ مَا بَعْدَ «لَكِنْ» بِمَنْزِلَةِ الْمُخْصَصِ لِمَا قَبْلَهُ.

قوله: (القَصْدُ إلى تَوْبِيخِ بعضِ الْمُؤْمِنِينَ): قال صاحبُ «التقريب»: وفيه نَظَرٌ، لِأَنَّ الْمُتَقَضِّيَ لِلتَّوْبِيخِ عَلَى اسْتِتْبَاعِهِمْ رَأْيَهُ: كَوْنُهُ رَسُولاً، لَا كَوْنُهُ فِيهِمْ، فَكَانَ أَوْلَى بِالتَّوْبِيخِ، فَعَلَّلَ تَوْجِيهَهُ: أَنَّ تَقْدِيمَ التَّوْبِيخِ أَهَمُّ، وَ﴿فِيكُمْ﴾ مِنْ جُمْلَةِ كَلَامِ التَّوْبِيخِ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ مَعَ جَوَابِهِ: حَالٌ مِنْ ﴿فِيكُمْ﴾، فَتَقْدِيمُ جُزْءِ التَّوْبِيخِ كَتَقْدِيمِهِ، لَكِنْ إِنَّمَا يَتِمُّشِي لَوْ اسْتَقْبَلَّ أَنَّ ﴿فِيكُمْ﴾ مَعَ الشَّرْطِيَّةِ كَلَاماً، لَكِنْ قَوْلَهُ: ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ عُمْدَةٌ جُمْلَةِ التَّوْبِيخِ مَعْنَى وَإِعْرَاباً، فَلَا اسْتِبْدَادَ بَدْوَنَهُ، فَلْيَتَأَمَّلْ.

وقلت: قد تفرَّرَ عندَ علماءِ البيانِ: أَنَّ فِي تَقْدِيمِ مَا رُتِبَتْهُ التَّأخِيرُ مِنْ جُزْءِ الْجُمْلَةِ إِذَا نَابَ أَنَّ الْكَلَامَ فِيهِ، لِأَنَّهُمْ يُقَدِّمُونَ الْأَهَمُّ، وَهَاهُنَا التَّوْبِيخُ وَإِنْ كَانَ وَارِدًا عَلَى الْجُمْلَةِ، وَعَلَى كَوْنِهِ رَسُولاً كَمَا سَبَقَ، لَكِنْ فِي تَقْدِيمِ الظَّرْفِ تَتِمُّيمٌ لِلذَّكَ الْمَعْنَى، وَاسْتِبْعَادٌ لَهُ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى: اتَّسَبَعُوا رَأْيَهُ لِرَأْيِكُمْ، وَأَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ، وَمَهْبِطٌ وَحِيهِ، فَكَيْفَ وَهُوَ مُسْتَقَرٌّ فِيكُمْ، وَأَنْتُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ شَاهِدِينَ بِمَجْلِسِهِ، وَلَسْتُمْ غَائِبِينَ كغَيْرِكُمْ. نَزَّهَمُ لِلذَّكَ الْفِعْلَ كَأَنَّهُمْ اعْتَقَدُوا أَنَّهُ غَائِبٌ عَنْهُمْ، فَلَوْ أُخِّرَ ﴿فِيكُمْ﴾ لَمْ يُتَّفَضَّنْ لِتِلْكَ التَّكْنَةِ السَّرِيَّةِ، وَلَا يُتَّفَضَّنْ لِأَمْثَالِهَا إِلَّا أَمْثَالُ الْمُصْنَفِ.

فإن قلت: فلم قيل: ﴿يُطِيعُكُمْ﴾ دون: أطاعكم؟ قلت: للدلالة على أنه كان في إرادتهم استمرازا عمليه على ما يستصوبونه، وأنه كلما عن لهم رأي في أمر كان معمولا عليه، بدليل قوله: ﴿فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ كقولك: فلان يقري الصيغ ويحمي الحریم، تريد: أنه مما اعتاده ووجد منه مستمرا.

فإن قلت: كيف موقع ﴿وَلَكِنَّ﴾ وشريطها مفقودة من مخالفة ما بعدها لِمَا قبلها نفيا وإثباتا؟ قلت: هي مفقودة من حيث اللفظ، حاصلة من حيث المعنى، لأن الذين حُبب إليهم الإيأان قد غايرت صفتهم صفة المُقَدَّم ذكرهم، فوَقعت «لكن» في حاق موقعها من الاستدراك.

ومعنى «تحبيب الله» و«تكريهه»: اللطف والإمداد بالتوفيق، وسبيله الكناية،

كما سبق،

قوله: (كما سبق): قيل: ما سبق هو قوله: «إِنَّ بَعْضَهُمْ كَانُوا يَتَّصِفُونَ، وَيَزَعُهُمْ جِدُّهُمْ فِي التَّقْوَى»، ولعل هذا القائل ظن أن الكاف متعلق بقوله: «وسبيله الكناية»، وليس به؛ لأن هذا السابق ليس بكناية عن اللطف والإمداد والتوفيق، بل هو متصل بقوله: «حاصلة من حيث المعنى»، وما توسط بينهما تفسير لمعنى تحبيب الله، واعتراض بين المتعلق والمتعلق، ذلك أنه سأل: أن مقتضى «لكن» في هذا الكلام مفقود، وأجاب: أن مقتضاها حاصل من حيث المعنى، وأن ما بعدها موصوف بها يلزم منه مُغايرة ما قبلها.

ومثل هذا المعنى سبق عند قوله: «ولكنه أغنت عن ذكر «البعض» صفتهم المفارقة لصفة

غيرهم»، كما سبق شرحه قبيل هذا.

وأما بيان الكناية: فإن قوله: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾، ﴿وَكَرِهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ﴾:

لازمان للطف والتوفيق، كما أن محبة الكفر وكراهية الطاعة رديفان للخذلان، ومثل هذا المعنى ما سبق في الكلام، وعندنا إسناد المحبة والكراهية إلى الله حقيقة.

وَكُلُّ ذِي لُبٍّ وَرَاجِعٍ إِلَى بَصِيرَةٍ وَذَهْنٍ لَا يَغِيبُ عَلَيْهِ أَنَّ الرَّجَلَ لَا يُمَدِّحُ بِغَيْرِ فِعْلِهِ، وَحَلَّ الْآيَةَ عَلَى ظَاهِرِهَا يُؤَدِّي إِلَى أَنْ يُشْنَى عَلَيْهِمْ بِفِعْلِ اللَّهِ، وَقَدْ نَفَى اللَّهُ هَذَا عَنِ الَّذِينَ أَنْزَلَ فِيهِمْ: ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران: ١٨٨].

قوله: (وكلُّ ذي لُبٍّ وراجع إلى بصيرة): هذا استدلالٌ على أن المراد بتحبيب الإيمان وتزيينه في القلب وتكريه الكُفْرِ: اللُّطْفُ والتوفيقُ كِنَايَةٌ، لأنه تعالى خلق في قلوبهم الإيمان وكراهةَ الفِسْقِ تحقيقاً وتصريحاً بدليلٍ عقلي، بل ووجداني ضروري.

قال صاحبُ «التقريب»: وما أثنى على المؤمنين بالتَّحْسِينِ والتَّكْرِيمِ، وهما فَعَلٌ اللهُ تَعَالَى، وَلَا يُمَدِّحُ الرَّجُلُ بِفِعْلِ غَيْرِهِ، لِأَنَّ مَدْحَهُمْ بِوُجُودِ الْمُحَبَّبِ فِيهِمْ لَا بِالتَّحْسِينِ، كَمَا يَصِحُّ الْمَدْحُ بِالْجَمَالِ وَالْحَسَنِ.

الانتصاف: «ترك الزمخشريُّ الحقَّ لخيالٍ اعتمده في الشاهد؛ أن الإنسان لا يُمدِّحُ بِفِعْلِ غَيْرِهِ، وَأَبْطَلَ مَا صَرَّحَتْ بِهِ الْآيَةُ مِنْ نِسْبَةِ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ، وَكَيْفَ تُشْرِكُ أَدْلَةَ الْعَقْلِ وَصَرِيحُ النَّقْلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦] وَأَمْثَالِهِ، بِقِيَاسِ الْغَائِبِ عَلَى الشَّاهِدِ، فَهَذَا تَحْرِيفٌ لِكِتَابِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْطَى وَأَثْنَى، وَمَنْحٌ وَمَدْحٌ، وَلَا مَوْجُودٌ إِلَّا اللَّهُ وَصِفَاتُهُ وَأَفْعَالُهُ بَعْضُهَا حَلٌّ بَعْضٍ^(١)، فَمَازَا يَقُولُ فِي ثَنَاءِ اللَّهِ عَلَى رُسُلِهِ بِاصْطِفَائِهِ لَهُمْ، أَوْ بِمَا اكْتَسَبُوهُ، أَوْ بِمَا وَهَبَهُمْ فَاتَّهَبُوهُ؟ فَإِنْ قَالَ بِالْأَوَّلِ خَرَجَ عَنِ الْمِلَّةِ، وَإِنْ قَالَ بِالثَّانِي فَسَلَّمَ الْأَمْرُ^(٢)».

وقال الإمام: «المعنى بقوله: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾: قَرَّبَهُ إِلَيْكُمْ، وَأَدْخَلَهُ فِي قُلُوبِكُمْ، ثُمَّ زَيَّنَهُ فِيهَا، بِحَيْثُ لَا تُفَارِقُونَهُ، وَلَا يَخْرُجُ مِنْ قُلُوبِكُمْ، وَمَنْ أَحَبَّ شَيْئاً وَطَالَ لُبُّهُ فِيهِ فَقَدْ يَمَلُّ، وَالْإِيمَانُ كُلُّ يَوْمٍ يَزْدَادُ فِيهِ نَشَاطاً، بَلْ كُلُّ مَنْ كَانَتْ عِبَادَتُهُ أَكْثَرَ، وَتَحَمُّلُهُ لِمَسَاقِ التَّكَالِيفِ أَتَمَّ، كَانَ ذَلِكَ عِنْدَهُ أَلَدُّ وَأَكْمَلُ، وَهَذَا قَالَ فِي الْأَوَّلِ: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ﴾، وَفِي الثَّانِي: ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، كَأَنَّهُ قَرَّبَهُ إِلَيْكُمْ، ثُمَّ أَقَامَهُ فِيهِمْ^(٣)».

(١) في عبارة المؤلف رحمه الله تعالى اختصار، ولفظ ابن المنبر في «الانتصاف»: «لا موجود إلا الله وصفاته وأفعاله، غير أنه تعالى جعل أفعاله بعضها حلاً لبعض، فسمي المحل فاعلاً، والحال فعلاً».

(٢) «الانتصاف» (٣: ٥٦١) بحاشية «الكشاف».

(٣) «مفاتيح الغيب» للرازي (٢٨: ١٠٢).

فإن قلت: فإن العَرَبَ تمدحُ بالجمالِ وحُسنِ الوجوه، وذلك فعلُ الله، وهو مدحُ مقبولٌ عندَ الناسِ غيرُ مردود؟ قلت: الذي سَوَّغَ ذلكَ لهم أنهم رأوا حُسنَ الرُّواءِ، ووسامةَ المنظرِ - في الغالب - يُسفرُ عن مَخْبِرِ مَرْضِيٍّ وأخلاقٍ محمودة، ومن ثم قالوا: أحسنُ ما في الدِّمِيمِ وجهُهُ،

وقلت: قوله: «وَحَمَلُ الآيَةِ عَلَى ظَاهِرِهَا يُؤَدِّي إِلَى أَنْ يُبْنَى عَلَيْهِمْ بِفِعْلِ اللَّهِ» بعيدٌ عن المقام؛ لأنَّ «وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ إِلَّا يَمُنُّ ذَرَّةً فِي قُلُوبِكُمْ» غيرُ واردٍ على السَّمْحِ، بل على سبيلِ الامْتِنانِ، وأنه تعالى هو - بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ - اخْتَصَّهَمْ بِهِ لِيَحْمَدُوهُ عَلَى ذَلِكَ الْإِنْعَامِ، لا أنه يَمْدَحُهُمْ، ولذلك قَرَّرَهُ بقوله: «وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْأَعْيَانَ» على سبيلِ الطَّرْدِ والعكس^(١)، ثم فَرَعَ عليه بقوله: «أُولَئِكَ هُمُ الرَّاكِبُونَ» مَدْحاً وتعريضاً، فأثبت الخلقَ أولاً، وقَرَّه بالكسبِ ثانياً، ومدَّحهم عليه.

قوله: (في الغالب يُسفرُ عن مَخْبِرِ مَرْضِيٍّ): قيَّده بـ«الغالب»، لِثَلَايِرِدَ نَحْوُ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ:

وما الحُسنُ في وَجْهِ الفَتَى شَرَفًا لَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي فِعْلِهِ وَالخَلَائِقِ^(٢)

وَنظَرَ حَكِيمٌ إِلَى غُلامٍ حَسَنٍ، فَاسْتَنْطَقَهُ، فَرَأَاهُ بَلِيداً، فَقَالَ: نِعَمَ الْبَيْتُ لَوْ كَانَ فِيهِ سَاكِنٌ. وَمِنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهمُ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ» [المنافقون: ٤]، قال^(٣): «شَبَّهُوا بِالْأَصْنَامِ فِي حُسْنِ صُورِهِمْ وَقِلَّةِ جَدْوَاهِم». وروينا عن مُسْلِمٍ^(٤) عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ، وَلَا إِلَى صُورِكُمْ»، وَالْحَقُّ أَنَّ تِلْكَ الْأَخْلَاقَ الْفَاضِلَةَ يُحَدِّثُهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَيَزْرَعُهَا أَيْنَ شَاءَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» [الشمس: ٧-٨].

(١) تقدّم بيان معنى الطَّرْدِ والعكس عند تفسير الآية ٢٥ من سورة الأنفال (٧: ٧٠) تعليقا.

(٢) انظر: «شرح ديوان المتنبي» للواحدي (٢: ٨٠٣).

(٣) أي: الزمخشري في تفسير الآية المذكورة من سورة المنافقون (١٥: ٤٢٩).

(٤) في «صحيحه» برقم (٢٥٦٤).

فلم يجعلوه من صفات المدح لذاته، ولكن لدلالته على غيره، على أن من مُحَقِّقَةِ الثقاتِ وعلماء المعاني مَنْ دَفَعَ صِحَّةَ ذلك، وخطأ المادح به، وقصر المدح على النَّعْتِ بِأُمَّهَاتِ الخير، وهي الفصاحة والشجاعة والعدل والعفة، وما يَشَعْبُ منها، ويرجع إليها، وجعل الوصف بالجمال والثروة وكثرة الحفدة والأعضاء وغير ذلك مما ليس للإنسان فيه عملاً غلطاً ومخالفة عن المعقول.

والكفر: تَغْطِيَةٌ نِعَمِ الله تعالى وَعَمَّطُهَا بالجحود، والفسوق: الخروج عن قصد الإيمان ومَحَجَّتِهِ بركوب الكبائر، والعصيان: تَرْكُ الانقيادِ والمُضِيِّ لِمَا أَمَرَ بِهِ الشارع،

قوله: (فلم يجعلوه من صفات المدح لذاته): أي: لم يجعلوا حُسنَ المنظر من صفات المدح أصالة؛ لِمَا يَنْبَغِي أَنْ يُسْتَعْمَلَ المدحُ فِي الفِضَائِلِ الاختيارية، وإذا استعمل في غيرها أُوِّلَ مَا يُؤْوَلُ إليها، فذهب فيه إلى الحقيقة والمجاز، وذهب القاضي إلى أنه للقدر المُشْتَرَكِ حيث قال: «المدح: هو الثناء على الجميل مطلقاً»^(١)، وقال الجوهرى: «المدح: الثناء الحسن»، وقال الراغب: «كُلُّ حَمْدٍ مَدْحٌ، وليس كُلُّ مَدْحٍ حَمْدًا»^(٢)، وقال الإمام: «يقال: مَدَحْتُ اللُّؤْلُؤَةَ والفَرَسَ، ولا يُقَالُ: حَمِدْتُهُمَا»^(٣).

قوله: (والكفر تغطية نعم الله وعمطها بالجحود): الراغب: «الكُفْرُ: عبارة عن السُّرِّ، وكُفْرُ النِّعْمَةِ: سُّرُّهَا، وحقيقة الكُفْرِ: سُّرُّ نِعْمَةِ الله، وأعظم الكُفْرِ ما كان مُقَابِلًا لأعظم النِّعَمِ، وهو ما يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الإِيْمَانِ واستحقاق الثواب، ومَنْ قَابَلَ تِلْكَ النِّعْمَةَ بِالْكَفْرِ، فَهُوَ الْكَافِرُ الْمُطْلَقُ، ولذلك صار الكُفْرُ فِي الإِطْلَاقِ: جُحُودُ الْوَحْدَانِيَّةِ وَالنَّبُوَّةِ وَالشَّرَائِعِ»^(٤).

(١) انظر: «أنوار التنزيل» للبيضاوي (١: ٤٢).

(٢) «مفردات القرآن» ص ٢٥٦.

(٣) «مفاتيح الغيب» للرازي (١: ١٩٠).

(٤) «مفردات القرآن» ص ٧١٤.

والعِرْقُ العاصي: العائد، واعتصمت النّوّة: اشتدّت. والرُّشد: الاستقامة على طريق الحقّ مع تصلّب فيه؛ من الرّشادة، وهي الصّخرة، قال أبو الوازع: كُتِلَ صَخْرَةٌ رَشَادَةٌ، وأنشد:

وغير مُقلّدٍ وموشّماتٍ صلّين الصّوّء من صمّ الرّشادِ

و﴿فضلاً﴾ مفعول له، أو مصدرٌ من غير فعله.

فإن قلت: من أين جازَ وقوعه مفعولاً له، والرُّشدُ فعلُ القوم، والفضلُ فعلُ الله، والشّرطُ أن يتحدّ الفاعل؟ قلت: لَمَّا وقع «الرُّشدُ» عبارةً عن التّحبيب والتّزيين والتّكريه، مُسنّدةً إلى اسمه تَقَدَّست أسماؤه، صار الرُّشدُ كأنه فعله، فجاز أن يتّصّب عنه، أو لا يتّصّب عن «الرّشْدونك»، ولكن عن الفعل المُسنّدِ إلى اسمِ الله تعالى، والجملة التي هي «أوليتك هم الرّشْدونك» اعتراض، أو عن فعلٍ مُقدّر، كأنه قيل: جرى ذلك - أو: كان ذلك - فضلاً من الله.

قوله: (والعِرْقُ العاصي): هو الذي لم يرقأ دمه^(١)، الأساس: «ومن المجاز: عِرْقُ عاصي لا يرقأ دمه».

قوله: (وغير مُقلّد) البيت: «المقلّد»: هو الوتد، و«الموشّمات»: حجارة الأثافي، صنّيتُ الرجل النار: أدخلته النار، أي: لم يبق من الدارِ سوى الأوتاد التي تُقلّدُ بها الحبالُ وأحجارُ الأثافي، وقيل: يَصِفُ يعمَلاتٍ^(٢) غير مُقلّداتٍ يُسرِعْنَ في السّير بالقوّة، بحيثُ تظهرُ انزاعاً من الأحجارِ في سَيرها.

قوله: (لَمَّا وقع «الرُّشدُ» عبارةً عن التّحبيب): أي: كنايةً عنه، لأنّ «الرُّشد» دلّ على تحبيبتهم وتحبيبتهم على أن الله حبّب إليهم.

(١) رَقَا العِرْق: سكن، وَرَقَا الدَّمع: جَفَّ. كذا في «لسان العرب» لابن منظور، مادة (رَقَا).

(٢) جَمْعُ «يَعْمَل»، وهو البعير. انظر: «لسان العرب» لابن منظور، مادة (عمل).

وأما كونه مَصْدَرًا مِنْ غيرِ فِعْلِهِ، فأن يُوضَعَ مَوْضِعَ «رُشْدًا»، لأنَّ رُشْدَهُمْ فَضْلٌ مِنْ الله لِكُونِهِمْ مُوقِّعِينَ فِيهِ. وَالْفَضْلُ وَالنَّعْمَةُ: بِمَعْنَى: الْإِفْضَالِ وَالْإِنْعَامِ.

﴿وَاللهُ عَليمٌ﴾ بِأحوالِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا بَيْنَهُمْ مِنَ التَّمَايُزِ وَالتَّفَاوُضِ، ﴿حَكِيمٌ﴾ حِينَ يُفْضِلُ وَيُنْعِمُ بِالتَّوْفِيقِ عَلَى أَفْضَلِهِمْ.

الانْتِصَافُ: «قد بَيَّنَّا أَنَّ «الرُّشْدَ» مخلوقٌ لله تعالى، فلا سُؤالَ مِنْ هذا الوَجْهِ، بل مِنْ جِهَةِ أَنَّ اللهَ تعالى خاطَبَ خَلْقَهُ باللُّغَةِ المعهودَةِ، وفيها نِسْبَةُ الفِعْلِ إِلَى الفاعِلِ حَقِيقَةً كانَ أو مجازاً، فـ«زَيْدٌ» فِي «مات زَيْدٌ»: فاعِلٌ، وَقَدْ نُسِبَ «الرُّشْدُ» إِلَيْهِمْ عَلَى أساسِ أَنَّهُمْ فاعِلُوهُ، وَإِنْ كانَ مجازاً فِي الاعتقادِ، فَيُجابُ عَنْه بِجوابِ الزَّمخَشَرِيِّ، أو بِأَنَّ الرُّشْدَ هاهنا يَسْتَلْزِمُ كَوْنَ الله مُرْشِداً، إِذْ هُوَ مُطَاوِعٌ «أرْشَدَهُ فَرَشِدًا»، فَتَصِحُّ المَطابَقَةُ. وَهُوَ عَكْسُ قولِهِ: ﴿يُرِيكُمْ البَّرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ [الرعد: ١٢]، لأنَّهُمْ هُناكَ مفعولونَ فِي مَعْنَى الفاعِلِينَ، فَصَحَّ بِوِاسِطَتِهِ اسْتِئْزَامُ المَطَاوَعَةِ، فَتَصَحَّحُ مَسْأَلَةُ البَّرْقِ بِتَقْدِيرِ المَفْعُولِ، وَتَصَحَّحُ هذِهِ بِتَقْدِيرِ الفاعِلِ»^(١).

وقلت: لعلَّ تَقْدِيرَ الأوَّلِ: هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ البَّرْقَ فَرَأَيْتُمُوهُ خائِفِينَ طامِعِينَ، والثَّانِي: أوَّلُكَ هُمُ الرُّاشِدُونَ بِأَنَّ أرْشَدَهُمُ اللهُ فَضْلاً وَنِعْمَةً.

قولِهِ: (وأما كونه مَصْدَرًا مِنْ غيرِ فِعْلِهِ): ذَكَرَ أَنَّ «فَضْلاً»: إِما مفعولٌ لَهُ أو مَصْدَرٌ، وكما فَرَّعَ مِنْ بَيانِ الأوَّلِ، سَرَّعَ فِي بَيانِ الثَّانِي، وَقَالَ: أَمَّا كَوْنُهُ مَصْدَرًا مِنْ غيرِ فِعْلِهِ، فَإِنَّ الأَصْلَ: أوَّلُكَ هُمُ الرُّاشِدُونَ^(٢) رُشْدًا، فَوَضَعَ مَوْضِعَ «رُشْدًا»: «فَضْلاً»؛ لِأَنَّ رُشْدَهُمْ كانَ مُسَبِّباً عَنْ فَضْلِ اللهِ، وَلَوْلَا فَضْلُهُ لَمَّا رَشِدُوا.

قولِهِ: (يُفْضِلُ وَيُنْعِمُ بِالتَّوْفِيقِ عَلَى أَفْضَلِهِمْ): وَالضَّمِيرُ لِلصَّحَابَةِ، وَالْأَفْضِلُ: مَنْ حُبِّبَ إِلَيْهِ الإِيْمانُ، كما قالَ: «لأنَّ الَّذينَ حُبِّبَ إِلَيْهِمُ الإِيْمانُ قد غايرتْ صِفَتَهُمْ صِفَةَ المُقَدَّمِ ذِكْرُهُمْ».

(١) «الانتصاف» (٣: ٥٦١-٥٦٣) بحاشية «الكشاف».

(٢) من قوله: «بأن أرشدهم الله» إلى هنا، سقط من (ح).

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَعْتَبُوا أَلَا يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [٩]

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: وَقَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى مَجْلِسِ بَعْضِ الْأَنْصَارِ، وَهُوَ عَلَى جِمَارٍ، قَبَالَ الْجِمَارَ، فَأَمَسَكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَأْنَفَةَ، وَقَالَ: خَلَّ مَسِيلَ جِمَارِكَ فَقَدْ آذَانَا نَتْنَهُ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ: وَاللَّهِ إِنْ بَوَّلَ جِمَارَهُ لِأَطِيبٍ مِنْ مِسْكِكَ - وَرُوي: جِمَارُهُ أَفْضَلُ مِنْكَ، وَبَوَّلَ جِمَارَهُ أَطِيبٌ مِنْ مِسْكِكَ - وَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَطَالَ الْخَوْضُ بَيْنَهُمَا حَتَّى اسْتَبَا وَتَجَالَدَا، وَجَاءَ قَوْمَاهُمَا، وَهُمَا الْأَوْسُ وَالخَزْرَجُ، فَتَجَالَدُوا بِالْعِصِيِّ - وَقِيلَ: بِالْأَيْدِي وَالنُّعَالِ وَالسَّعْفِ - ، فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ، وَنَزَلَتْ. وَعَنْ مُقَاتِلٍ: قَرَأَهَا عَلَيْهِمْ فَاصْطَلَحُوا.

والبغي: الاستطالة والظلم وإياء الصلح، والفيء: الرجوع، وقد سُمِّيَ بِهِ الظِّلُّ والغنيمة، لأنَّ الظِّلَّ يَرُجِعُ بَعْدَ نَسْخِ الشَّمْسِ،

قوله: (وقف رسول الله ﷺ على مجلس بعض الأنصار) الحديث: مُخْرَجٌ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(١) عَنْ أَنَسٍ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الرَّوَايَةِ، وَأُورِدْنَاهُ فِي أَوَّلِ الْبَقْرَةِ.

قوله: (وهما الأوس والخزرج): قيل: ابنُ رَوَاحَةَ: خَزْرَجِي، وَابْنُ أَبِي: أَوْسِي^(٢).

قوله: (وقد سُمِّيَ بِهِ الظِّلُّ والغنيمة، لأنَّ الظِّلَّ يَرُجِعُ) إلى آخِرِهِ: الرَّاعِيذُ «الْفِيءُ»: الرَّجُوعُ إِلَى حَالَةِ مَحْمُودَةٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾، ﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ وَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

(١) البخاري (٤٥٦٦) و(٥٦٦٣) و(٦٢٠٧) و(٦٢٥٤)، ومسلم (١٧٩٨) من حديث أسلمة بن زيد، لا من حديث أنس، والله أعلم.

(٢) بل كلاهما من الخزرج، انظر ترجمة عبد الله بن رواحة في «أسد الغابة» لابن الأثير (٣: ١٣٠)، و«الإصابة» لابن حجر (٤: ٨٢)، وانظر ترجمة عبد الله بن عبد الله بن أبي (ابن المذكور هنا) في «أسد الغابة» (٣: ١٩٢)، و«الإصابة» (٤: ١٥٥).

وعلى هذا فالمرادُ بـ«قوميهما»: ما هو دون القبيلة الكبيرة «الخزرج».

والغَنِيمة: ما يَرْجِعُ مِنْ أَمْوَالِ الْكُفَّارِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ. وعن أَبِي عَمْرٍو: «حَتَّى تَفِي» بغير همز؛ ووجهه: أَنَّ أبا عَمْرٍو حَقَّفَ الْأَوَّلِيَّ مِنَ الْهَمْزَيْنِ الْمُتَلْتَبَتَيْنِ، فَلَطَّفَتْ عَلَى الرَّائِي تِلْكَ الْخَلْسَةَ، فَظَنَّه قَدْ طَرَحَهَا.

فإن قلت: ما وَجَّهَ قَوْلُهُ: ﴿أَفْتَلُوا﴾، والقياس: «اقتتلنا» كما قرأ ابنُ أبي عَبْلَةَ، أو «اقتتلا» كما قرأ عُيَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ؛ عَلَى تَأْوِيلِ الرَّهْطَيْنِ أَوْ النَّفْرَيْنِ؟ قلت: هو مِمَّا حُمِلَ عَلَى الْمَعْنَى دُونَ اللَّفْظِ، لِأَنَّ «الطائفتين» فِي مَعْنَى الْقَوْمِ وَالنَّاسِ. وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: «حَتَّى يَفِيئُوا إِلَى أَمْرِ اللَّهِ، فَإِنْ فَاؤُوا فَخَذُوا بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ».

رَجِيئٌ ﴿[البقرة: ٢٢٦]، وَمِنْهُ: فَاءُ الظَّلِّ، وَقِيلَ لِلْغَنِيمةِ الَّتِي لَا يَلْحَقُ بِهَا مَسْقَةٌ: فَيءٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْحَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٧]، قَالَ بَعْضُهُمْ: سُمِّيَ ذَلِكَ بِالْفَيْءِ تَشْبِيهًا بِالْفَيْءِ الَّذِي هُوَ الظَّلُّ، تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ أَشْرَفَ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا يَجْرِي بِجَرَى ظِلِّ زَائِلٍ، وَالْفَيْءُ: الْجَمَاعَةُ الْمُتَظَاهِرَةُ الَّتِي يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فِي التَّعَاوُدِ^(١).

قوله: (ووجهه: أَنَّ أبا عَمْرٍو حَقَّفَ الْأَوَّلِيَّ مِنَ الْهَمْزَيْنِ): أَي: فِي «تَفِيء» وَفِي «إِلَى»، قَالَ بَعْضُهُمْ: هَذِهِ الرَّوَايَةُ خِلَافُ الْمَذْهَبِ، لِأَنَّ أبا عَمْرٍو حَقَّفَ الثَّانِيَةَ لَا الْأَوَّلِيَّ.

قوله: (هو مِمَّا حُمِلَ عَلَى الْمَعْنَى دُونَ اللَّفْظِ): الْاِتِّصَافُ: «قَدْ أَنْكَرَ النَّحَاةُ الْحَمْلَ عَلَى لَفْظِ «مَنْ» بَعْدَ الْحَمْلِ عَلَى مَعْنَاهَا، وَفِي الْآيَةِ حُمِلَ عَلَى الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: ﴿أَفْتَلُوا﴾، ثُمَّ عَلَى اللَّفْظِ بِقَوْلِهِ: ﴿بَيْنَهُمَا﴾، وَالْفَرْقُ: أَنَّ «مَنْ» فِيهَا إِيْهَامٌ، فَيَلْزَمُ الْإِيهَامُ بَعْدَ التَّفْسِيرِ، وَأَمَّا «الطائفة»^(٢) فَلَا إِيْهَامَ فِيهَا، إِذْ لَفْظُهَا مُفْرَدٌ أَبَدًا، وَمَعْنَاهَا جَمْعٌ أَبَدًا»^(٣).

(١) «مفردات القرآن» ص ٦٥٠.

(٢) تحرّف في الأصول الخطية إلى: «المطابقة»، والمثبت من «الاتصاف».

(٣) «الاتصاف» (٣: ٥٦٣) بحاشية «الكشاف».

وَحُكْمُ الْفِئَةِ الْبَاغِيَةِ: وَجوبُ قِتَالِهَا مَا قَاتَلَتْ - وَعَنْ ابْنِ عَمَرَ: «مَا وَجَدْتُ فِي نَفْسِي مِنْ شَيْءٍ مَا وَجَدْتُهُ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الْآيَةِ، إِنَّ لَمْ أَقَاتِلْ هَذِهِ الْفِئَةَ الْبَاغِيَةَ كَمَا أَمَرَنِي اللَّهُ»، قَالَ بَعْدَ أَنْ اعْتَزَلَ، إِذَا كَافَّتْ وَقَبِضَتْ عَنِ الْحَرْبِ أَيْدِيهَا تُرِكَتْ، وَإِذَا تَوَلَّتْ عَمِلَ بِمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: يَا ابْنَ أُمِّ عَبْدِ، هَلْ تَدْرِي كَيْفَ حُكِمَ اللَّهُ فِيمَنْ بَغَى مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟ قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: لَا يُجْهَزُ عَلَى جَرِيحِهَا، وَلَا يُقْتَلُ أَسِيرُهَا، وَلَا يُطَلَبُ هَارِبُهَا، وَلَا يُقَسَمُ فَيْؤُهَا».

وَلَا تَخْلُو الْفِتْنَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي اقْتِتَالِهِمَا: إِمَّا أَنْ تَقْتَبِلَا عَلَى سَبِيلِ الْبَغْيِ مِنْهُمَا جَمِيعًا، فَالْوَاجِبُ فِي ذَلِكَ: أَنْ يُمَشَى بَيْنَهُمَا بِمَا يُصْلِحُ ذَاتَ الْبَيْنِ، وَيُسْمَرُ الْمُكَافَأَةُ وَالْمُوَادَعَةُ، فَإِنْ لَمْ تَتَحَاجَزَا وَلَمْ تَصْطَلِحَا وَأَقَامَتَا عَلَى الْبَغْيِ: صِيرَ إِلَى مُقَاتَلَتِهِمَا.

وَإِمَّا أَنْ يَلْتَحِمَ بَيْنَهُمَا الْقِتَالُ لِشُبُهَةِ دَخَلَتْ عَلَيْهِمَا، وَكِلَاتُهُمَا عِنْدَ أَنْفُسِهِمَا مُحِقَّةٌ، فَالْوَاجِبُ: إِزَالَةُ الشُّبُهَةِ بِالْحَجَجِ النَّيِّرَةِ وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ، وَإِطْلَاعُهُمَا عَلَى مَرَاثِدِ الْحَقِّ، فَإِنْ رَكِبْنَا مَتْنُ اللَّجَاجِ، وَلَمْ تَعْمَلَا عَلَى شَاكِلَةِ مَا هُدَيْتَا إِلَيْهِ وَنُصِحْتَا بِهِ، مِنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ بَعْدَ وَضُوحِهِ لَهَا، فَقَدْ لَحِقْتَا بِالْفِتْنَتَيْنِ الْبَاغِيَتَيْنِ.

قوله: (لَا يُجْهَزُ عَلَى جَرِيحِهَا): يُقَالُ: أَجْهَزْتُ عَلَى الْجَرِيحِ: إِذَا أَسْرَعْتَ بِقَتْلِهِ وَأَتَمَمْتَ عَلَيْهِ، النِّهَايَةُ: «فِي حَدِيثِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا يُجْهَزُ عَلَى جَرِيحِهِمْ»^(١)، أَي: مَنْ صُرِعَ مِنْهُمْ لَا يُقْتَلُ، لِأَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ، وَالْقَصْدُ مِنْ قِتَالِهِمْ: دَفْعُ شَرِّهِمْ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِلَّا بِقَتْلِهِمْ قُتِلُوا».

(١) أَخْرَجَ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (٢: ١٥٦)، وَابِيهَيْتِي فِي «السَّنَنِ الْكَبْرَى» (٨: ١٨٢) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: «يَا ابْنَ مَسْعُودَ، أَتَدْرِي مَا حُكِمَ اللَّهُ فِيمَنْ بَغَى مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟ قَالَ ابْنُ مَسْعُودَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ: أَنْ لَا يُبَيِّعَ مُدْبِرُهُمْ، وَلَا يُقْتَلَ أَسِيرُهُمْ، وَلَا يُدْفَقَ عَلَى جَرِيحِهِمْ». وَضَعَفَهُ الْحَافِظُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (٦: ٢٤٣)، وَالْحَافِظُ ابْنُ حَجْرٍ فِي «التَّلْخِصِ الْحَبِيرِ» (٤: ٤٤-٤٣).

وإما أن تكون إحداهما الباغية على الأخرى، فالواجب: أن تُقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتب، فإن فعلت أصلح بينهما وبين المبغي عليها بالقسط والعدل، وفي ذلك تفاصيل: إن كانت الباغية من قلة العَدَد بحيث لا منعة لها، ضمنت بعد الفئمة ما جنت، وإن كانت كثيرة ذات منعة وشوكة لم تضمن، إلا عند محمد بن الحسن رحمه الله، فإنه كان يفتي بأن الضمان يلزمها إذا فاءت. وأما قبل التجمع والتجدد أو حين تفرق عند وضع الحرب أوزارها، فما جنته ضمنت عند الجميع.

فمحمل الإصلاح بالعدل في قوله: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ على مذهب محمد: واضح منطبق على لفظ التنزيل، وعلى قول غيره: وجهه: أن يُحمل على كون الفئة قليلة العَدَد، والذي ذكروا أن العَرَض إمامة الصغائر وسلُّ الأحقاد، دون ضمان الجنائيات: ليس بحسن الطباق للمأمور به من إعمال العدل ومراعاة القسط.

فإن قلت: فلم قرن بالإصلاح الثاني العدل دون الأول؟ قلت: لأن المراد بالاقتيال في أول الآية: أن تقتلوا باغيتين معاً، أو راكبتي شبهة، وأيتهما كانت: فالذي يجب على المسلمين أن يأخذوا به في شأنها:

قوله: (وفي ذلك تفاصيل): أي: في القسط والعدل.

قوله: (إن كانت الباغية): شروع في التفصيل.

قوله: (منطبق على لفظ التنزيل): فإن قوله: ﴿فَإِنْ قَلَّتْ فَأَصْلِحُوا﴾ إلى آخره، يقتضي لزوم الضمان إذا فاءت مطلقاً، قليلة كانت أو كثيرة.

قوله: (أن يُحمل على كون الفئة قليلة العَدَد): أي: يُحمل حكم الآية على هذا الوجه، دون الوجه الثاني.

قوله: (ليس بحسن الطباق للمأمور به): أي: المأمور به - وهو العدل، بقوله: ﴿وَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾. مطلق متناول لجميع ما يطلق عليه اسم العدل، وكذا تقييد ﴿فَأَصْلِحُوا﴾ بقوله: ﴿بِالْعَدْلِ﴾،

إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَتَسْكِينُ الدَّهْمَاءِ بِإِرَاءَةِ الْحَقِّ وَالْمَوَاعِظِ الشَّافِيَةِ، وَنَفْيُ الشُّبْهَةِ، إِلَّا إِذَا أَصْرَّتَا، فَحِينَئِذٍ تَجِبُ الْمُقَاتَلَةُ. وَأَمَّا الضَّمَانُ فَلَا يَتَّجِهَ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِذَا بَعَتْ إِحْدَاهُمَا، فَإِنَّ الضَّمَانَ مُتَّحَةً عَلَى الْوَجْهَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ.

وهو مُسْتَعْنٍ عَنْهُ، لِأَنَّ الْإِصْلَاحَ مَعَ الظُّلْمِ مُحَالٌ، وَتَذْيِيلُ الْكَلَامِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾: يَقْتَضِي (١) أَنَّ الْعَدْلَ مَطْلُوبٌ لِدَايَتِهِ، فَهُوَ حَسَنٌ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ، فَاخْتِصَاصُهُ بِأَمْرِ دُونَ أَمْرٍ بَعِيدٍ، وَغَيْرُ مُطَابِقٍ لِهَذِهِ التَّوَكِيدَاتِ، قَالَ فِي أَوَّلِ النَّسَاءِ (٢): «إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ يَدُورُ مَعَ الْعَدْلِ، فَأَيْنَ مَا وَجَدْتُمُ الْعَدْلَ فَعَلَيْكُمْ بِهِ».

قوله: (ذات البين): قَالَ فِي أَوَّلِ الْأَنْفَالِ: ﴿ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾: أحوال بينكم، يعني: ما بينكم مِنَ الْأَحْوَالِ حَتَّى تَكُونَ حَالُ الْآلَةِ وَمَحَبَّةٌ وَاتِّفَاقٌ، وَلَمَّا كَانَتِ الْأَحْوَالُ مُلَابِسَةً لِلْبَيْنِ، قِيلَ لَهَا: ذَاتُ الْبَيْنِ».

قوله: (وتسكين الدهماء): النِّهَايَةُ: «الدَّهْمَاءُ: الْفِتْنَةُ الْمُظْلِمَةُ، وَمِنْهُ حَدِيثٌ حُذِيفَةُ: أَتَيْتُكُمْ الدَّهْمِيَاءُ تَرْمِي بِالرَّضْفِ» (٣).

قوله: (مُتَّحَةً عَلَى الْوَجْهَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ): أَحَدُهُمَا: أَنْ تَكُونَ الْفِتْنَةُ قَلِيلَةً الْعَدَدِ، وَثَنَاتِيهَا: أَنْ تَكُونَ كَثِيرَةً عَلَى رَأْيِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ.

(١) قوله: «يقضي»، أي: كُلُّ مَا ذَكَرَ مِنْ كَوْنِ الْأُمُورِ بِهِ مُطْلَقاً، وَتَقْيِيدِ الْإِصْلَاحِ بِالْعَدْلِ، وَتَذْيِيلِ الْآيَةِ، كُلُّ ذَلِكَ يَقْتَضِي... إلخ.

(٢) أي: الزمخشري في تفسير الآية ٣ من سورة النساء (٤: ٤٢٥-٤٢٦).

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٤: ٤٦٥) بلفظ: «أتاكم الفتنه ترمي بالرصف».

وأخرج أبو داود (٤٢٤٢) من حديث ابن عمر، وذكر حديثاً في الفتن، وفيه: «ثم فتنه الدهمياء لا تدع أحداً من هذه الأمة إلا لطمته لطمه».

والرصف: الحجارة الموحاة على النار، واحدها رصفة. «النهاية» لابن الأثير ٢: ٢٣١، مادة (رصف).

﴿وَأَقْسَطُوا﴾ أمرٌ باستعمالِ القِسْطِ على طريقِ العموم، بعدما أمر به في إصلاح ذاتِ البين، والقول فيه مثله في الأمرِ باتِّقاءِ الله على عَقَبِ النهي عن التقديم بين يديه.

والقَسْطُ - بالفتح - : الجور؛ مِنَ القَسْطِ، وهو عوجِ جاجٍ في الرِّجْلين، وعودٌ قاسِطٌ: يابس، وأقْسَطْتُهُ الرِّياحَ. وأما القِسْطُ بمعنى: العَدْلُ، فالفِعْلُ منه: أقسَطَ، وهمزته للسُّلب، أي: أزال القَسْطَ، وهو الجور.

[﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ١٠]

هذا تقريرٌ لِمَا أَلْزَمَهُ مِنْ تَوَلَّى الإِصْلَاحِ بَيْنَ مَنْ وَقَعَتْ بَيْنَهُمُ المِشَاقَّةُ مِنَ المُؤْمِنِينَ، وبيانٌ أَنَّ الإِيمَانَ قَدْ عَقَدَ بَيْنَ أَهْلِهِ - مِنَ السَّبَبِ القَرِيبِ والنَّسَبِ اللَاصِقِ - ما إِنْ لَمْ يَفْضُلِ الأُخُوَّةَ وَلَمْ يُبَرِّزْ عَلَيْهَا، لَمْ يَنْقُصْ عَنْهَا، وَلَمْ يَنْقَاصِرْ عَنْ غَايَتِهَا.

ثم قَدْ جَرَتْ عَادَةُ النَّاسِ عَلَى أَنَّهُ إِذَا نَسَبَ مِثْلَ ذَلِكَ بَيْنَ اثْنَيْنِ مِنَ إِخْوَةِ الوِلَادِ، لَزِمَ السَّائِرَ أَنْ يَتَنَاهَضُوا فِي رَفْعِهِ وَإِزَاحَتِهِ، وَيَرْكَبُوا الصَّعْبَ وَالذُّلُولَ؛

قوله: (والقول فيه مثله في الأمر باتِّقاءِ الله^(١)): وقال فيه: «هذا كما تقول لمن يُقَارِفُ بعضَ الرذائل: لا تفعل هذا، وتَحَفِّظُ بما يُلِصِقُ بِكَ العارَ».

فعلى هذا قوله: ﴿وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ من عَطَفِ العَامِّ عَلَى الخَاصِّ، أو تَدْيِيلِ للسَّابِقِ وتَقْرِيرِ لَهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ تَعْلِيلٌ لِلأَمْرِ بِالإِصْلَاحِ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ مِنَ المُؤْمِنِينَ، وَلِمَّا كَانَ التَّعْلِيلُ إِنَّمَا يُؤْتَى بِهِ، فَيُثْبِتُ المُعَلَّلَ وَيُقَرِّره، قَالَ: «هذا تقريرٌ لِمَا أَلْزَمَهُ مِنْ تَوَلَّى الإِصْلَاحِ».

قوله: (ما إن لم يفضَّل): «ما»: بمعنى: شيء، و«إن»: شَرْطِيَّةٌ، والجواب: «لم يَنْقُصْ»، والجمله مفعولٌ «عَقَدَ».

قوله: (ولم يُبَرِّزْ): لم يَفُضِّ، الأساس: «بَرَّرَ عَلَى الغَايَةِ وَعَلَى الأَقْرَانِ».

(١) أي: الوارد في الآية الأولى من السُّورَةِ، وهناك ذكر الزمخشري ما سيقله عنه المؤلِّف.

مَشِيًّا بِالصُّلْحِ، وَيَثَّاءَ لِلسُّفْرَاءِ بَيْنَهُمَا، إِلَى أَنْ يُصَادَفَ مَا وَهَى مِنْ الْوِفَاقِ مَنْ يَرَقَعُهُ، وَمَا اسْتَشَنَّ مِنَ الْوِصَالِ مَنْ يَبْلُغُهُ، فَالْأُخُوَّةُ فِي الدِّينِ أَحَقُّ بِذَلِكَ وَبِأَشَدِّ مِنْهُ. وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ،.....»

قوله: (ما وهى): مفعول «يُصَادَفُ»، والفاعل: «مَنْ يَرَقَعُهُ»، قَدَّمَ الْمَفْعُولَ لِيَعْوَدَ الضَّمِيرُ فِي «مَنْ يَرَقَعُهُ» إِلَيْهِ، وَ«وَهَى» صِلَةٌ «مَا»، مَا رَاعَى الْمُنَاسَبَةَ بَيْنَ «وَهَى» وَبَيْنَ «يَرَقَعُهُ»، إِذْ لَوْ قَالَ: «مَا خَرَقَ وَيَرَقَعُهُ»، أَوْ «وَهَى وَقَوَى»، كَانَ (١) أَحْسَنَ، كَمَا رَاعَى بَيْنَ «اسْتَشَنَّ» وَ«يَبْلُغُهُ».

قوله: (استشَنَّ): النهاية: «فِي حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ: «إِذَا اسْتَشَنَّ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ فَابْلُغْهُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى عِبَادِهِ»، أَي: إِذَا أَخْلَقَ»، وَمِنْهُ: شِنَانُ الْقَرِيبَةِ (٢).

قوله: (مَنْ يَبْلُغُهُ (٣)): مِنْ قَوْلِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ: «بُلُّوا الْأَرْحَامَ وَلَوْ بِالسَّلَامِ» (٤)، أَي: بِرُوحِهَا بِصِلَتِهَا، وَهِيَ يُطْلَقُونَ النَّدَاوَةَ عَلَى الصَّلَاةِ، كَمَا يُطْلَقُونَ الْبَيْسَ عَلَى الْقَطِيعَةِ.

قوله: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ): الْحَدِيثُ: مِنْ رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ وَأَبِي دَاوُدَ (٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا - ثَلَاثًا - وَيُسِيرُ إِلَى صَدْرِهِ، بِحَسَبِ أَمْرٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ

(١) فِي (ح) وَ(ف): «كَمَا»، وَالمُتَّبِعُ مِنْ (ط).

(٢) كَذَا فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ، وَلَيْسَ هَذَا اللَّفْظُ فِي «النِّهَايَةِ» صَرِيحًا، وَإِنَّمَا فِيهَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشَّنَّ هُوَ الْقَرِيبَةُ، وَالْجَمْعُ شِنَانٌ، فِيهِ الْعِبَارَةُ تَحْرِيفًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٣) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ: «فَابْلُغْهُ»، وَلَعَلَّهُ سَبَقَ قَلَمَ لُورُودِهِ فِي السُّطْرِ السَّابِقِ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَالمُتَّبِعُ مِنْ «الْكَشَافِ».

(٤) أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعْبِ الْإِيمَانِ» (٧٩٧٢) وَ(٧٩٧٣) بِلَفْظٍ: «بُلُّوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالسَّلَامِ». وَانظُرْ: «الْمَقَاصِدَ الْحَسَنَةَ» لِلْحَافِظِ السَّخَاوِيِّ (٣٠١).

(٥) مُسْلِمٌ (٢٥٦٤)، وَالتِّرْمِذِيُّ (١٩٢٧)، وَأَبُو دَاوُدَ (٤٨٨٢). وَأَخْرَجَهُ أَيْضًا ابْنُ مَاجَةَ (٤٢١٣).

وَلَمْ أَقِفْ عَلَيْهِ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَقَدْ أَخْرَجَ نَحْوَهُ (٢٤٤٢) وَ(٦٩٥١) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَعِيْبُهُ، ولا يَتَطَاوَلُ عَلَيْهِ فِي الْبِنْيَانِ فَيَسْتُرُ عَنْهُ الرِّيحَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا يُؤْذِيهِ بِقُتَارِ قَدْرِهِ»، ثم قال: «احْفَظُوا، وَلَا يَحْفَظْ مِنْكُمْ إِلَّا قَلِيلٌ».

فإن قلت: فلم خُصَّ الاثنانِ بالذِّكْرِ دونَ الجميعِ؟ قلت: لأنَّ أَقْلَ مَنْ يَقَعُ بَيْنَهُم الشَّقَاقُ اثنان، فإذا لَزِمَتِ الْمُصَالِحَةُ بَيْنَ الْأَقْلِ كَانَتْ بَيْنَ الْأَكْثَرِ الزَّم، لأنَّ الْفَسَادَ فِي شِقَاقِ الْجَمِيعِ أَكْثَرُ مِنْهُ فِي شِقَاقِ الْاِثْنَيْنِ. وقيل: المرادُ بِالْأَخْوَيْنِ: الْأَوْسُ وَالخُرْجِ.

وَقُرِي: «بَيْنَ إِخْوَتِكُمْ» و«إِخْوَانِكُمْ»،

المُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ وَعِرْضُهُ وَمَالُهُ، إِنْ أَلَلَهُ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُورِكُمْ^(١)، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ».

قوله: (بِقُتَارِ قَدْرِهِ): الجوهري: «القُتَارُ: رِيحُ الشَّوَاءِ، وَقَدْ قَتَرَ اللَّحْمُ يَقْتَرُ - بِالْكَسْرِ -: إِذَا ارْتَفَعَ قُتَارُهُ».

قوله: (وَقُرِي: «بَيْنَ إِخْوَتِكُمْ وَإِخْوَانِكُمْ»): قال ابنُ جُنَيْ: «قرأ زيدُ بنُ ثابتٍ وابنُ مسعودٍ والحسنُ - بخلافٍ -: «إِخْوَانِكُمْ»، وهي تَدُلُّ عَلَى أَنَّ قِرَاءَةَ الْعَامَّةِ الَّتِي هِيَ: «بَيْنَ أَخْوَتِكُمْ»: لَفْظُهَا لَفْظُ التَّشْبِيهِ، وَمَعْنَاهَا: الْجَمَاعَةُ، أَي: كُلُّ اِثْنَيْنِ فَصَاعِدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ اقْتِتَلًا، وَإِلِضَافَةً لِمَعْنَى الْجِنْسِ، نَحْوُ قَوْلِهِمْ: لَسِيكَ وَسَعْدِيكَ، فَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ إِجَابَتَيْنِ اِثْنَتَيْنِ، وَلَا إِسْعَادَتَيْنِ اِثْنَيْنِ، أَلَا تَرَى إِلَى الْخَلِيلِ كَيْفَ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: كُلَّمَا كُنْتُ فِي أَمْرٍ فَدَعَوْتَنِي أَجَبْتِكَ إِلَيْهِ، وَسَاعَدْتُكَ عَلَيْهِ. وَنَحْوُهُ فِي إِفَادَةِ الْمُضَافِ لِمَعْنَى الْجِنْسِيَّةِ: قَوْلُهُمْ: مَنَعَتِ الْعِرَاقُ قَفِيْزَهَا وَدِرْهَمَهَا، أَي: قَفْزَانَهَا وَدِرَاهِمَهَا»^(٢).

(١) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةُ: «وَلَا إِلَى صُورِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»، وَذَكَرُ «الْأَعْمَالُ» مُقَحَّمٌ هُنَا فِي الرَّوَايَةِ، وَلَا يَصِحُّ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، اللَّفْظُ الْمُنْبَتُّ هُوَ رَوَايَةُ مُسْلِمٍ (٢٥٦٤) (٣٣)، وَفِي رَوَايَةِ أُخْرَى لَهُ (٢٥٦٤) (٣٤):

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ».

(٢) «الْمَحْتَسِبُ» لابنِ جُنَيْ (٢: ٢٧٨-٢٨٠).

والمعنى: ليس المؤمنون إلا إخوة، وأنهم خُلصَ لذلك مُتمحِّضون، قد انزاحت عنهم شُبُهاتُ الأخبية، وأبى لطفُ حالهم في التمازج والاتحاد أن يُقدِّموا على ما يتولَّد منه التقاطع، فبادرُوا قَطَعَ ما يقعُ من ذلك - إن وقع - واحسبوه.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فإنكم إن فعلتم لم تحمِلْكم التقوى إلا على التَّواصل، والاتِّلاف، والمُسارعةِ إلى إِماطةِ ما يفرطُ منه، وكانَ عندَ فِعْلِكُمْ ذلكَ وصولُ رحمةِ الله إليكم، واشتغالُ رَأْفَتِهِ عليكم، حَقِيقاً بأن تَعَقِدُوا به رجاءكم.

قوله: (والمعنى: ليس المؤمنون إلا إخوة، وأنهم خُلصَ لذلك) إلى قوله: (فبادرُوا قَطَعَ ما يقعُ من ذلك): إشارةٌ إلى ترتيبِ قوله: ﴿فَأَصْلِحُوا﴾ على وَصْفِ الأُخوةِ، وأنَّ في أداةِ الحصرِ الدلالةَ على دَفْعِ الزاعِمِ أنَّ أُخوةَ الإيِّمانِ مُتَقاصِرَةٌ عن أُخوةِ النَّسَبِ، ومفضولةٌ عنها، وإليه الإشارةُ بقوله فيما سبق: «وبيانُ أنَّ الإيِّمانَ قد عَقَدَ بينَ أهلهِ مِنَ السَّبَبِ القريبِ، والنَّسَبِ اللاصِقِ، ما إن لم يَفْضَلِ الأُخوةُ، لم يَنْقُصْ عنها»، وأنَّ في جَعْلِ ﴿إِخوةً﴾ خِبراً لـ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ التشبيهِ الذي في قوله: إنما زيدٌ أسدٌ، وَجْهُ الشَّبهِ: هو ما يُفْهَمُ من قوله: «ثم قد جَرَتْ عادةُ الناسِ على أنه إن تشبَّ مثلُ ذلكَ بينَ اثنينِ من إخوةِ الولادِ، لَزِمَ السائِرُ أن يَتَّهَمُوا في رَفْعِهِ» إلى آخِرِهِ، ولذلك قال: «فبادرُوا».

ثم قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تذييلٌ للكلامِ، كأنه قيل: هذا الإصلاحُ من جُملةِ التقوى، فإذا فعلتمُ التقوى دَخَلَ فيه هذا التواصلُ، وإليه الإشارةُ بقوله: «فإنكم إن فعلتم لم تحمِلْكمُ التقوى إلا على التواصلِ»، ويجوزُ أن يكونَ عطفًا على ﴿فَأَصْلِحُوا﴾، أي: واصِلُوا بينَ أخوتِكُمْ بالصُّلحِ، واحذَرُوا اللهَ من أن تَتَّهَمُوا فيه.

ثم عَلَّلَ ذلكَ بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾، و«لعلَّ» منَ اللهِ في هذا المقامِ: إطاعٌ من الكريمِ الرحيمِ، إذا أطمَعَ فَعَلَ ما يُطَمَعُ فيه لا تحالَةً، ولهذا قال: «وكانَ عندَ فِعْلِكُمْ ذلكَ وصولُ رحمةِ الله إليكم»، إلى قوله: «حَقِيقاً بأن تَعَقِدُوا به رجاءكم».

[يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُونَ قَوْمًا مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِاللِّقَابِ بِنِسِ الْأَتْمِ الْفُسُوقِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُم الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾]

القوم: الرجال خاصة؛ لأنهم القوام بأمر النساء، قال الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]، وقال عليه السلام: «النساء لحم على وضم إلا ما ذب عنه»، والذابون هم الرجال، وهو في الأصل: جمع قائم، كصوم وزور، في جمع: صائم وزائر، أو تسمية بالمصدر، عن بعض العرب: إذا أكلت طعاماً أحببت نوماً وأبغضت قوماً، أي: قياماً. واختصاص «القوم» بالرجال: صريح في الآية،

قوله: (النساء لحم على وضم): وفي «الفاثق»: «رُوي عن عُمَرَ رضي الله عنه أنه قال: «ما بال رجال لا يزال [أحدُهم] كاسراً وسادة عند امرأة مغزبة، يتحدت إليها وتتحدت إليه، عليكم بالجنبه فإنها عفاف، إنما النساء لحم على وضم، إلا ما ذب عنهن»، كسر الوسادة: أن تتنيه وتكوى عليه، ثم تأخذ في الحديث؛ فعل الزير^(١)، المغزبة: التي غزا زوجها، الجنبه: الناحية من كل شيء، الوضم: ما وقيت به اللحم من الأرض»^(٢).

وكذا روى الميداني قال: «لا يخلون رجل بمغيبه، إن النساء لحم على وضم»^(٣).

النهاية: «الوضم: الخشبة أو البارية التي يوضع عليها اللحم، تقيه من الأرض، أي: إنهن في الضعف مثل ذلك اللحم الذي لا يمتنع على أحد، إلا أن يذب عنه أو يدفع. شبه عُمَرَ رضي الله عنه النساء وقلة امتناعهن على طلابهن من الرجال باللحم ما دام على وضم».

(١) الزير من الرجال: الذي يحب النساء ومجالسهن، سمي بذلك لكثرة زيارته لهن. «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٢: ٣٢٤)، مادة (زير).

(٢) الفائق للزمخشري (٣: ١٥٥)، مادة (كسر)، ومنه أضفت ما بين حاصرتين.

(٣) «مجمع الأمثال» للميداني (١: ١٩).

وفي قول زهير:

أَقَوْمٌ أَلْ حِصْنِ أُمِّ نِسَاءٍ؟

وأما قولهم في قوم فرعون وقوم عاد: هُمُ الذُّكُورُ والإناث، فليس لفظُ «القوم» بمتعاطٍ للفريقين، ولكن قُصِدَ ذَكَرُ الذُّكُورِ، وَتُرِكَ ذِكْرُ الإناث؛ لأنَّ تَوابعَ لِرِجَالِهِنَّ. وتنكيرُ «القوم» و«النساء» يحتملُ مَعْنِيَيْنِ: أن يُراد: لا يَسَخَرُ بعضُ المُؤْمِنِينَ والمُؤْمِنَاتِ مِنْ بعضِ، وَأَنْ يُقْصَدَ إِفَادَةُ الشِّيَاعِ،

قوله: (أقومٌ أَلْ حِصْنِ أُمِّ نِسَاءٍ): أوله:

وما أدري وسوف إخال أدري^(١)

أما صراحة اختصاص «القوم» بالرجال في الآية: فَمِنْ عَطْفِ «وَلَا نِسَاءً» عَلَى «قَوْمٍ»، وفي الشعر: مِنْ جَعَلَ أَحَدَ المُتَسَاوِيَيْنِ يَلِي الهَمْزَةَ، وَالآخِرُ يَلِي «أُمَّ».

قوله: (وَأَنْ يُقْصَدَ إِفَادَةُ الشِّيَاعِ): الْإِتِّصَافُ: «لَوْ عَرَّفَ المُؤْمِنِينَ فَقَالَ: «لَا يَسَخَرُ المُؤْمِنُونَ والمُؤْمِنَاتُ بعضُهُمْ مِنْ بعضِ» لَعَمَّ، وَمُرَادُ الزَّمْخَشَرِيِّ أَنَّ فِي التَّنْكِيرِ يَحْصُلُ أَنَّ كُلَّ جَمَاعَةٍ مِنْهُيَّةٌ عَلَى التَّفْصِيلِ، وَالتَّعَرُّضُ فِي النِّهْيِ لِكُلِّ جَمَاعَةٍ عَلَى الْخُصُوصِ، وَمَعَ التَّعْرِيفِ نَهْيُ الكُلِّ لَا عَلَى التَّفْصِيلِ، بَلْ عَلَى الشُّمُولِ، وَالنِّهْيُ عَلَى التَّفْصِيلِ أَوْقَعُ»^(٢).

وقلت: استغراقُ الجنس أيضاً مُرَادٌ مِنْهُ التَّفْصِيلِ، وَالْمُعَرَّفُ - بتعريفِ العَهْدِ الذَّهْنِيِّ - يُفِيدُ التَّفْصِيلَ أيضاً كَالنَّكَرَةِ، إِذِ الْمَعْنَى: لَا يَسَخَرُ مَنْ هُوَ مُسَمًّى بِالْقَوْمِ مِنْ قَوْمٍ مِثْلِهِ.

قال ابن جني: «مَفَادُ نَكَرَةِ الْجِنْسِ مَفَادُ مَعْرِفَتِهِ؛ مِنْ حَيْثُ كَانَ فِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْهُ مَعْنَى مَا

فِي جَمَلِيَّتِهِ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَأَعْلَمُ أَنَّ تَسْلِيمًا وَتَرَكَأ
لَلَا مُتَشَابِهَانِ وَلَا سَوَاءُ

(١) انظر: «شعر زهير بن أبي سلمى» للأعلم الشتمري ص ١٣٦.

(٢) «الانتصاف» (٣: ٥٦٥) بحاشية «الكشاف».

وأن تصيرَ كُلَّ جماعةٍ منهم مَنهيةً عن السُّخْرِيَةِ، وإنما لم يقل: رجلٌ من رجل، ولا امرأةٌ من امرأة، على التوحيد؛ إعلاماً بإقدام غير واحدٍ من رجالهم، وغير واحدةٍ من نسايتهم، على السُّخْرِيَةِ، واستيفظاعاً للسانِ الذي كانوا عليه، ولأنَّ مَشْهَدَ السَّاخِرِ لا يكادُ يخلو مَنَّ يتلَهَّى ويستضحكُ على قوله، ولا يأتي ما عليه من النهي والإنكار، فيكونُ شريكَ السَّاخِرِ وتلوهُ في تحمُّلِ الوزرِ، وكذلك كُلُّ مَنْ يَطْرُقُ سَمْعَهُ، فيستطيه، ويضحكُ به، فيؤدِّي ذلك - وإن أوجده واحدٌ - إلى تكثُرِ السُّخْرَةِ وانقلابِ الواحدِ جماعةً وقوماً.

وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ كلامٌ مُّستأنفٌ، قد وردَ موردَ جوابِ المُستخبرِ عن العِلَّةِ المُوجِبَةِ لِمَا جاءَ النهيُ عنه، وإلا فقد كان حقه أن يُوصَلَ بما قبله بالفاء. والمعنى: وجوبُ أن يعتدَّ كُلُّ أحدٍ أنَّ المُسخورَ منه ربما كانَ عندَ الله خيراً من السَّاخِرِ، لأنَّ الناسَ لا يطلِّعونَ إلا على ظواهرِ الأحوالِ، ولا عِلْمَ لهم بالخفياتِ، وإنما الذي يزنُ عندَ الله: خُلوصُ الضمائرِ وتقوى القلوبِ، وعِلْمُهم من ذلك بمَعزِلِ، فينبغي أن لا يجترئَ أحدٌ على الاستهزاءِ بمن تفتحه عينُه إذا رآه رثَّ الحالِ،

فهذا في المعنى كقولك: إنَّ التسليمَ والتَّركَ لا مُشابهانِ ولا سواءٌ»^(١).

قوله: (واستيفظاعاً للسانِ الذي كانوا عليه): يعني: إنما جمع، ولم يقل: «رجلٌ من رجل»، لأنَّ النهيَ وردَ على الحالةِ الواقعةِ بينَ الأقوامِ، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ مَضْمَعَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠].

قوله: (يتلَهَّى): أي: طلبَ منه اللهُوَ والضَّحِكَ على قولِ السَّاخِرِ.

قوله: (ولا يأتي ما عليه): أي: لا يفعلُ هذا الجليسُ ما يجبُ عليه من نهي المنكرِ.

(١) «المحتسب» لابن جني (١: ٤٣). وانظر ما تقدّم عن ابن جني في تفسير الآية ٣٥ من الأنفال (٧: ٩٤).

أو ذا عاهةٍ في بدنه، أو غير لبيقٍ في مُحادثته، فلعلَّه أخلص ضميراً، وأتقى قلباً، ممَّن هو على ضدِّ صفته، فيظلم نفسه بتحقير من وقَّره الله، والاستهانة بمن عظمه الله.

ولقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمر بن شُرَّحْبِيل: لو رأيت رجلاً يرضع عتراً، فضحكت منه، خشيت أن أصنع مثل الذي صنعه. وعن عبد الله بن مسعود: البلاء مُوَكَّلٌ بالقول، لو سخرت من كلبٍ لخشيت أن أحول كلباً.

وفي قراءة عبد الله: «عَسُوا أَنْ يَكُونُوا» و«عَسِينَ أَنْ يَكُنَّ»، فالعسى على هذه القراءة هي ذات الخبر، كالتي في قوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ [محمد: ٢٢]، وعلى الأولى: التي لا خبر لها، كقوله: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ [البقرة: ٢١٦].

واللَّمز: الطَّعْنُ والضَّرْبُ باللسان. وقُرئ: «ولا تلمزوا» بالضم، والمعنى: وخصوا أنفسكم - أي المؤمنون - بالانتهاة من عيها والطعن فيها، ولا عليكم أن تعبوا غيركم ممن لا يدين بدينكم، ولا يسير بسيرتكم، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «اذكروا الفاجر بما فيه، كي يحذرَه الناس»، وعن الحسن في ذكر الحجاج: أخرج إليَّ بنانا قصيرةً قلما عرقت فيها الأعتة في سبيل الله،

قوله: (أو غير لبيق): الجوهري: «الليق: الرجل الحاذق».

قوله: (قلما عرقت فيها الأعتة): وعن بعضهم: أي: يأخذ بالأعتة في الجهاد حتى يعرق ويبتل بالعرق.

وقلت: هو مما روينا عن مسلم^(١) عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «من خير معاشٍ الناس لهم: رجلٌ ممسكٌ بعنان فرسه في سبيل الله، يطيرُ على منته، كلُّما سمع هَيْعَةً - أو فَرَعَةً - طار على منته يتبغي القتل أو الموت مظانّه».

(١) في «صحيحه» برقم (١٨٨٩).

ثم جَعَلَ يُطَبِّطُ شُعَيْرَاتِ له، ويقول: يا أبا سعيد، يا أبا سعيد. وقال لَمَّا مات: اللَّهُمَّ أَنْتَ أُمَّتَهُ، فاقطعْ سُنَّتَهُ، فإنه أُنَانَا أَحْفِشَ أُعَيْمَشَ يَخْطُرُ فِي مِشِيَّتِهِ، وَيَصْعَدُ الْمِنْبَرَ حَتَّى تَفُوتَهُ الصَّلَاةَ، لَا مِنْ اللَّهِ يَتَّقِي، وَلَا مِنَ النَّاسِ يَسْتَحِي، فَوْقَهُ اللَّهُ، وَتَحْتَهُ مِئَةُ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، لَا يَقُولُ لَهُ قَائِلٌ: الصَّلَاةُ أَيُّهَا الرَّجُلُ، الصَّلَاةُ أَيُّهَا الرَّجُلُ، هَيْهَاتَ، دُونَ ذَلِكَ السَّيْفُ وَالسَّوْطُ.....

ولو رُوِيَ بِالغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ لَكَانَ وَجْهًا؛ لِيَكُونَ مِنْ قَوْلِهِ: غَرَقَ اللَّجَامُ بِالْحَلِيَةِ، وَالْجَامُ مُغْرَقٌ، وَمِنْهُ: الْإِغْرَاقُ فِي الْقَوْلِ، وَهُوَ الْمُبَالَغَةُ، وَأَغْرَقَ الرَّامِي النَّزْعَ. ذَكَرَهُ فِي «الْأَسَاسِ».

وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ كِنَايَةٌ عَنِ جُنَيْهِ، كَمَا قَالَتِ الْخَارِجِيَّةُ فِيهِ:

أَسَدٌ عَلِيٌّ وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامَةٌ فَتَخَاءُ تَنْفُرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ^(١)

وَفِي قَوْلِهِ: «بِنَانًا قَصِيرَةً» إِدْمَاجٌ^(٢) وَاسْتِتْبَاعٌ لِدَلَالَتِهِ عَلَى تَحْقِيرِهِ خَلْقًا وَخُلُقًا، أَي: قَامَةٌ وَجُودًا.

قَوْلُهُ: (يُطَبِّطُ شُعَيْرَاتِ): أَي: يُحَرِّكُ شَارِبَهُ، الْجَوْهَرِيُّ: «الطَّبُّطَةُ: صَوْتُ الْمَاءِ وَنَحْوُهُ، وَقَدْ تَطَبَّبَ».

قَوْلُهُ: (أَحْفِشَ): الْجَوْهَرِيُّ: «الْحَفَشُ: صَغَرٌ فِي الْعَيْنِ، وَضَعْفٌ فِي الْبَصَرِ خِلْقَةٌ، وَالرَّجُلُ: أَحْفَشُ»، وَ«الْعَمَشُ فِي الْعَيْنِ: ضَعْفُ الرُّؤْيَةِ، مَعَ سَيْلَانٍ دَمْعِهَا فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهَا، وَالرَّجُلُ: أَعْمَشُ»، وَيَخْطُرُ؛ أَي: يَتَّبَخْتَرُ.

قَوْلُهُ: (هَيْهَاتَ): أَي: بَعْدَ هَذَا الْقَوْلِ، أَي: لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ لَهُ: الصَّلَاةُ أَيُّهَا الرَّجُلُ، لِأَنَّ دُونَ ذَلِكَ السَّيْفُ، أَي: بَيْنَ يَدَيْ أَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ الْقَتْلِ وَالضَّرْبِ.

(١) قَالَ عَمْرَانُ بْنُ حِطَّانِ الْخَارِجِيُّ فِي الْحِجَاجِ، كَمَا فِي «عَيُونَ الْأَخْبَارِ» لِابْنِ قَتَيْبَةَ (١: ١٧٠)، وَ«نَهَارِ الْقُلُوبِ»

لِلْعَالِبِيِّ ص ٤٤٣. وَعَلَى هَذَا فَقَوْلُ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «الْخَارِجِيَّةُ» فِيهِ نَظَرٌ.

(٢) تَقَدَّمَ مَعْنَى الْإِدْمَاجِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ١١٥ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ (٧: ٣٨١) تَعْلِيقًا.

وقيل: معناه: لا يَعبُ بعضُكم بعضاً، لأنَّ المؤمنَ كَنَفْسٍ واحدة، فمتى عابَ المؤمنُ المؤمنَ فكأنما عابَ نفسه. وقيل: معناه: لا تَفعلُوا ما تَلْمِزُونَ به، لأنَّ مَنْ فَعَلَ ما اسْتَحَقَّ به اللَّمَزُ، فقد لَمَزَ نفسه حقيقة.

والتنازُّ بالألقاب: التداعي بها؛ تفاعلٌ من: نَبَزَه، وبنو فلانٍ يَتَنابِزُونَ وَيَتَنابِزُونَ، ويُقال: النَّبَزُ والنَّبَزُ: لَقَبُ السُّوءِ، والتَّلْقِيبُ المَنهِيٌّ عنه، وهو ما يَتَدَاخَلُ المَدْعُوُّ به كراهة؛ لِكَوْنِهِ تقصيراً به وذمّاً له وشيناً، فأما ما يُحِبُّه مما يَزِينُهُ وَيُؤوِّدُهُ به فلا بأسَ به.

رُوي عن النبي ﷺ: «مِنَ حَقِّ المُؤْمِنِ عَلَى أخِيهِ: أَنْ يُسَمِّيَهُ بِأَحَبِّ أَسْمَائِهِ إِلَيْهِ»،

قوله: (وقيل: معناه: لا تفعلوا): هو مع ما عطفَ عليه: عطفَ على قوله: «وخصوا أنفسكم - أيها المؤمنون - بالانتهاة»، فقوله: «أنفسكم»: المراد: جنسكم، ومن هو على صفتكم في الإيمان، قال في سورة النساء عند قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]: «مَنْ كَانَ مِنَ جِنْسِكُمْ مِنَ المُؤْمِنِينَ» فإنَّ دليلَ الخطاب على معنى الاختصاص، وأنَّ مَنْ لم يَتَّصِفْ بِصِفَةِ الإيمانِ خارجٌ من هذا الحكم، ولهذا قال: «خصوا أنفسكم - أيها المؤمنون - بالانتهاة»، وأتى بحديث الحجاج، ويعضده قوله: ﴿يَنْسِ الْإِيْمَةَ الْفُسُوقَ بَعْدَ الْإِيْمَانِ﴾، ومعناه كما قال: «استباح الجمع بين الإيمان وبين الفسق الذي يأباه الإيمان».

وعلى الوجه الثاني: المراد من ذكر «النفس»: شدة الاتصال، والإيدان بأنَّ المؤمنَ لعلقة الاتحاد في الإيمان^(١) كأنهم نفس واحدة، فمن نَبَزَ أخاه فقد نَبَزَ نفسه. وعلى الثالث: هو من إطلاقِ المُسَبَّبِ على السَّبَبِ، يعني: لا تَتَّصِفُوا بِهَا إِنْ سَمِعَ بِكُمْ سَامِعٌ عَابِكُمْ بِسَبَبِهِ.

والوجه الأول فيه تعسفٌ وترخصٌ في غيبة الفاسق، ولذلك غلبَ محمد بن سيرين الحسن، والوجه الثاني أوجهٌ لموافقته: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَغْتَبَ بَعضُكُمْ بعضاً﴾.

قوله: (رُوي عن النبي ﷺ: «مِنَ حَقِّ المُؤْمِنِ عَلَى أخِيهِ أَنْ يُسَمِّيَهُ بِأَحَبِّ أَسْمَائِهِ إِلَيْهِ»):

(١) من قوله: «قال في سورة النساء» إلى هنا، سقط من (ط).

ولهذا كانت التكنية مِنَ السُّنَّةِ وَالْأَدَبِ الْحَسَنِ، قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَشِيعُوا الْكُنْيَ فَإِنَّهَا مَنبَهَةٌ. وَلَقَدْ لُقِّبَ أَبُو بَكْرٍ بِالْعَتِيقِ وَالصِّدِّيقِ، وَعُمَرُ بِالْفَارُوقِ، وَحَمْرَةُ بِأَسَدِ اللَّهِ،

عن أبي داود^(١) عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْمَائِكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ، فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُمْ»، وعن الترمذي^(٢) عن عائشة: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُغَيِّرُ الْأَسْمَ الْقَبِيحَ».

قوله: (منبهة): أي: سَبَبٌ لِلرَّفْعَةِ، وَالنَّبَاهَةُ: الرَّفْعَةُ.

قوله: (لقب أبو بكر بالعتيق): عن الترمذي^(٣) عن عائشة قالت: «دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَنْتَ عَتِيقُ اللَّهِ مِنَ النَّارِ. قَالَتْ: فَمِنْ يَوْمِئِذٍ سُمِّيَ عَتِيقًا».

قوله: (وعمر بالفاروق): قال صاحب «الجامع»: «يُقَالُ: بِهِ تَمَّتِ الْأَرْبَعُونَ، وَظَهَرَ الْإِسْلَامُ يَوْمَ إِسْلَامِهِ، وَسُمِّيَ الْفَارُوقَ لِذَلِكَ»^(٤)، وعن الترمذي^(٥) عن ابن عباس: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَبِي جَهْلٍ بِنِ هِشَامٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَأَصْبَحَ، فَغَدَا عُمَرُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَسْلَمَ».

قوله: (وحمزة بأسد الله): قال صاحب «الجامع»: «وَهُوَ أَسَدُ اللَّهِ، وَكَانَ إِسْلَامُهُ حِمِيَّةً، فَاعْتَزَّ الْإِسْلَامُ بِإِسْلَامِهِ»^(٦).

(١) في «سننه» برقم (٤٩٤٨).

(٢) في «جامعه» برقم (٢٨٣٩).

(٣) في «جامعه» برقم (٣٦٧٩).

(٤) «جامع الأصول» لابن الأثير (١٢: ١٢٢-١٢٣).

(٥) في «جامعه» برقم (٣٦٨٣)، وَضَعَفَهُ.

وأخرجه الترمذي (٣٦٨١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وَصَحَّحَهُ.

(٦) «جامع الأصول» لابن الأثير (١٢: ٢٩٧).

وخالِدٌ بَسِيفِ اللَّهِ، وَقَلَّ مِنَ الْمَشَاهِيرِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ مَنْ لَيْسَ لَهُ لَقَبٌ، وَلَمْ تَنْزَلْ هَذِهِ الْأَلْقَابُ الْحَسَنَةُ فِي الْأُمَّمِ كُلِّهَا مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ تَجْرِي فِي مُحَاطَبَاتِهِمْ وَمُكَاتَبَاتِهِمْ مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ.

رُوِيَ عَنِ الضَّحَّاكِ: أَنَّ قَوْمًا مِنْ بَنِي تَمِيمٍ اسْتَهْزَؤُوا بِبِلَالٍ وَخَبَّابٍ وَعَمَّارٍ وَصُهَيْبٍ وَأَبِي ذَرٍّ وَسَلَامِ مَوْلَى [أَبِي] حُدَيْفَةَ، فَنَزَلَتْ. وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّهَا كَانَتْ تَسَحَّرُ مِنْ زَيْنَبَ بِنْتِ حُزَيْمَةَ الْهَلَالِيَّةِ، وَكَانَتْ قَصِيرَةً. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ رَبَطَتْ حَقْوَيْهَا بِسَبِيَّةٍ، وَسَدَلَتْ طَرْفَهَا خَلْفَهَا، وَكَانَتْ تَجُرُّهُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ لِحَفْصَةَ: انظُرِي مَا تَجُرُّ خَلْفَهَا، كَأَنَّهُ لِسَانُ كَلْبٍ. وَعَنْ أَنَسٍ: عَيَّرَتْ نِسَاءُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُمَّ سَلَمَةَ بِالْقَصْرِ. وَعَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُجَيْبٍ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: إِنَّ النِّسَاءَ يُعَيِّرُنَنِي وَيَقْلُنُنِي: يَا يَهُودِيَّةُ بِنْتُ يَهُودِيِّينَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلَّا قُلْتَ: إِنَّ أَبِي هَارُونَ، وَإِنَّ عَمِّي مُوسَى، وَإِنَّ زَوْجِي مُحَمَّدٌ».

رُوِيَ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ بِهِ وَقْرٌ، وَكَانُوا يُوسَّعُونَ لَهُ فِي مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَسْمَعَ، فَأَتَى يَوْمًا وَهُوَ يَقُولُ: تَفَسَّحُوا،

قوله: (وخالِدٌ بَسِيفِ اللَّهِ): عن الترمذي^(١) عن أبي هريرة قال: «مرَّ خالدٌ علينا، قال رسولُ الله ﷺ: مَنْ هذا؟ فقلت: خالدُ بنُ الوليد، فقال: نِعَمَ عبدُ الله خالدُ بنُ الوليد، سَيْفٌ مِنْ سِيُوفِ اللَّهِ».

قوله: (بَسِيَّةٌ): النهاية: «السَّبَائِبُ: جَمْعُ سَبِيَّةٍ، وَهِيَ شُقَّةٌ مِنَ الثِّيَابِ، أَيُّ تَوَعُّعِ كَانِ، وَقِيلَ: هِيَ مِنَ الْكَتَّانِ».

(١) في «جامعه» برقم (٣٨٤٦).

وجاءت تسمية النبي ﷺ خالداً سيفاً من سيوف الله أيضاً في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عند

البيخاري (٣٧٥٧) و(٤٢٦٢).

حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ، فقال لرجل: تَنَحَّ، فلم يفعل، فقال: مَنْ هذا؟ فقال الرجل: أنا فلان، فقال: بل أنت ابنُ فلانة. يُريدُ أمّا كان يُعَيِّرُ بها في الجاهلية، فحَجَلَ الرجل، فنزلت، فقال ثابت: لا أفخرُ على أحدٍ في الحَسَبِ بعدها أبداً.

﴿الِاسْمُ﴾ هاهنا بمعنى: الذُّكْر، من قولهم: طارَ اسمُهُ في الناس بالكَرَمِ أو باللُّؤْمِ، كما يُقال: طارَ ثناؤُهُ وصِيئَتُهُ، وحقيقَتُهُ: ما سَمَا مِنْ ذِكْرِهِ وارتفعَ بينَ الناسِ، ألا ترى إلى قولهم: أشادَ بذكْرِهِ، كأنه قيل: بنَسِ الذُّكْرِ المُرتَفِعِ للمُؤْمِنِينَ بسببِ ارتكابِ هذه الجرائرِ أن يُذكروا بالفِسقِ.

وفي قوله: ﴿بَعْدَ الْإِيْمَانِ﴾ ثلاثةُ أوجه: أحدها: استقباحُ الجمعِ بينَ الإيْمَانِ وبينَ الفِسقِ الذي يابَهُ الإيْمَانُ وَيَحْظُرُهُ، كما تقول: بنَسِ الشَّانُ بَعْدَ الكَبْرَةِ الصَّبُورَةِ. والثاني: أنه كان في شتائمِهِمْ لمن أسلَمَ مِنَ اليهود: يا يهودي، يا فاسق، فنهوا عنه،

قوله: (ثناؤُهُ وصِيئَتُهُ): الجوهرِي: «الصَّيْتُ: الذُّكْرُ الجميلُ الذي يَتَشَبَّهُ في الناسِ، دونَ القبيحِ».

قوله: (وفي قوله: ﴿بَعْدَ الْإِيْمَانِ﴾ ثلاثةُ أوجه): الانتِصافُ: «أقربُ الوجوهِ الثلاثة: أولها؛ بعدَ أن يُصْرَفَ الذَّمُّ إلى نفسِ الفِسقِ، لأنَّ الاسمَ هو المُسمَّى، والزمخشريُّ جَزَمَ^(١)، لأنَّ الاسمَ عنده التَّسمية، والوجهُ الثاني: يُحمَلُ فيه الاسمُ على التَّسمية صريحاً، والثالث: أنَّ الفاسقَ غيرُ مُؤْمِنٍ، والأولُ هو الجاري على قاعدةِ السُّنَّةِ»^(٢).

قوله: (بعدَ الكَبْرَةِ): عن بعضهم: على فلانٍ كَبْرَةٌ: إذا كَبِرَ وأَسَنَ، ويُقال: فلانٌ كَبِيرَةٌ وُلِدَ أبويه - بكسْرِ الكافِ -: إذا كانَ أكبرَهُمْ، يَسْتَوِي فيه المُذَكَّرُ والمؤنَّثُ.

(١) كذا في الأصول الخطية! وفي «الانتِصافِ»: «الزمخشريُّ لم يَسْتَطِعْ ذلك انحرافاً إلى قاعدةِ يَصْرَفُ الذَّمُّ إلى ارتفاعِ ذِكْرِ الفِسقِ مِنَ المُؤْمِنِ، نحوماً على أنَّ الاسمَ التَّسمية».

(٢) «الانتِصافِ» (٣: ٥٦٧-٥٦٨) بحاشية «الكشاف».

وقيل لهم: بشس الذكُر أن تذكروا الرجل بالفِسقِ واليهوديَّة بعدَ إيمانه، والجملة على هذا التفسير متعلِّقةٌ بالنهي عن التنازع. والثالث: أن يُجعلَ مَنْ فسقَ غيرَ مؤمنٍ، كما تقولُ للمتحوِّلِ عن التَّجَارَةِ إلى الفِلاحة: بثستِ الحِرْفَةِ الفِلاحةُ بعدَ التَّجَارَةِ.

[يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَEْمَضِكُمْ بَEْمَضًا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾]

يقال: جَنَبَهُ الشَّرَّ: إذا أَبَعَدَهُ عنه، وحقَّقْتُهُ: جَعَلَهُ منه في جانب، فَيُعَدِّي إلى مفعولين، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاجْتَنِبِي وَبِئْسَ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ثم يُقالُ في مُطَاوِعِهِ: اجْتَنَبَ الشَّرَّ، فَتُنْقِصُ المُطَاوَعَةَ مفعولاً. والمأمورُ باجْتِنَابِهِ هو بعضُ الظَّنِّ، وذلكَ البعضُ موصوفٌ بالكثرة، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

قوله: (والجملة على هذا التفسير): أي: على أن تفسيرَ ﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيْمَانِ﴾ بما «أنه كان في شتائمهم لمن أسلم من اليهود: يا يهودي، يا فاسق»: كالتعليل لقوله: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾، يعني: لا تشتموهم بهذه الألفاظ، لأنه قبيح.

وعلى التفسير الأول والثالث: الجملة متعلِّقةٌ بقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾، على أن معناه: لا تفعلوا ما تلمزون به، كما نصَّ عليه فيما سبق، أي: لا تتصَّفوا بما إن سمعَ بكم سامعٌ عابكم بسببه، وهو لوجهين: أحدهما: أن لا يكونَ ثَمَّةَ انْتِقَالٍ مِنْ وَصْفٍ إِلَى وَصْفٍ، بل يكونَ جَمْعاً بينهما، كما قال: «أحدهما: استقباحُ الجمعِ بينَ الإيْمَانِ وبينَ الفِسْقِ»، واستشهدَ له بقوله: «بشس الشأنُ بعدَ الكثرةِ الصُّبُوَّة»، وثانيهما: أن يحصلَ الانْتِقَالُ مِنْ وَصْفٍ إِلَى وَصْفٍ، وتحويلاً منه إليه، وهو أقربُ إلى مذهبه، لأنَّ الفِسْقَ والإيْمَانِ عنده لا يجتمعان، واستشهدَ له بقوله: «بثستِ الحِرْفَةُ الفِلاحةُ بعدَ التَّجَارَةِ».

قوله: (ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾): تعليلٌ للأمر بالاجْتِنَابِ، يعني: يجبُ

فإن قلت: بَيَّنَّ الْفَضْلَ بَيْنَ «كثير» حيثُ جاءَ نكرة، وبينه لو جاءَ مَعْرِفَةً. قلت: مجيئه نكرة يُفِيدُ معنىَ الْبَعْضِيَّةِ، وأنَّ في الظُّنونِ ما يجبُ أن يُجْتَنَبَ، من غير تَبْيِينٍ لذلك ولا تَعْيِينٍ، لِئَلَّا يَجْتَرِي أَحَدٌ عَلَى ظَنٍّ إِلَّا بَعْدَ نَظَرٍ وَتَأَمُّلٍ وَتَمْيِيزٍ بَيْنَ حَقِّهِ وَبَاطِلِهِ بِأَمَارَةٍ بَيِّنَةٍ، مَعَ اسْتِشْعَارِ لِلتَقْوَى وَالْحَذَرِ، وَلَوْ عُرِّفَ لَكَانَ الْأَمْرُ بِاجْتِنَابِ الظَّنِّ مُنَوَّطاً بِمَا يَكْثُرُ مِنْ دُونِ مَا يَقِلُّ، وَوَجِبَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ ظَنٍّ مُتَّصِفاً بِالكَثْرَةِ مُجْتَنَباً، وَمَا اتَّصَفَ مِنْهُ بِالْقِلَّةِ مُرْخِصاً فِي تَظْنِيهِ.

والذي يُمَيِّزُ الظُّنُونَ التي يجبُ اجْتِنَابُهَا عَمَّا سِوَاهَا: أَنْ كُلَّ مَا لَمْ تُعْرَفْ لَهُ أَمَارَةٌ صَحِيحَةٌ وَسَبَبٌ ظَاهِرٌ: كَانَ حَرَاماً وَاجِبَ الْاجْتِنَابِ، وَذَلِكَ إِذَا كَانَ الْمَظْنُونُ بِهِ مِمَّنْ شُوهِدَ مِنْهُ السُّتْرُ وَالصَّلَاحُ، وَأُوْنِسَتْ مِنْهُ الْأَمَانَةُ فِي الظَّاهِرِ، فَظَنَّ الْفَسَادَ وَالْحِيَانَةَ بِهِ مُحَرَّمٌ، بِخِلَافِ مَنْ اشْتَهَرَ بَيْنَ النَّاسِ بِتَعَاطِي الرِّيْبِ وَالْمُجَاهَرَةِ بِالْخَبَائِثِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ مِنَ الْمُسْلِمِ دَمَهُ وَعِرْضَهُ وَأَنْ يُظَنَّ بِهِ ظَنُّ الشُّوْءِ»، وَعَنِ الْحَسَنِ: كُنَّا فِي زَمَانِ الظَّنِّ بِالنَّاسِ حَرَامٌ، وَأَنْتَ الْيَوْمَ فِي زَمَانِ اِعْمَلْ وَاسْكُتْ، وَظَنَّ بِالنَّاسِ مَا شِئْتَ. وَعَنهُ: لَا حُرْمَةَ لِفَاجِرٍ. وَعَنهُ: إِنَّ الْفَاسِقَ إِذَا أَظْهَرَ فِسْقَهُ وَهَتَكَ سِتْرَهُ هَتَكَهُ اللَّهُ، وَإِذَا اسْتَتَرَ لَمْ يُظْهِرِ اللَّهُ عَلَيْهِ لَعَلَّهُ أَنْ يَتُوبَ. وَقَدْ رُوِيَ: مَنْ أَلْقَى جِلْبَابَ الْحِيَاءِ فَلَا غِيْبَةَ لَهُ.

أَنْ يُحْمَلَ التَّنْبِيهُ فِي «كثيراً» عَلَى «البعض»؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَا تَعْصِمُكَ مِنْ ظَنِّكَ إِتْرٌ﴾ تَعْلِيلٌ لِلْأَمْرِ بِالْاجْتِنَابِ، وَالْمُطَابَقَةُ بَيْنَ الْعِلَّةِ وَالْمَعْلُولِ وَاجِبَةٌ.

قوله: (مَعَ اسْتِشْعَارِ): الْجَوْهَرِيُّ: «اسْتَشْعَرَ فُلَانٌ الْخَوْفَ»: أَي: أَضْمَرَهُ.

قوله: (اعْمَلْ وَاسْكُتْ وَظَنَّ بِالنَّاسِ مَا شِئْتَ): أَي: اسْتَعْمَلَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَلَا تَخْتَلِطْ بِالنَّاسِ، وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ مِنْهُمْ، لِيَمَا وَرَدَ: «الْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ»^(١).

(١) خَرَّجَهُ الْحَافِظُ السَّخَاوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي «الْمَقَاصِدِ الْحَسَنَةِ» ص ٦٥ رَقْم (٣٢) مِنْ طَرَفِ ضَعْفِهَا جَمِيعاً، ثُمَّ قَالَ: «وِبَعْضِهَا يَتَّقَوْنَ بَعْضَ، وَقَدْ أفرَدْتُهُ فِي جِزءٍ، وَأوردتُ الْجَمْعَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: «اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ».

والإثم: الذَّنْبُ الذي يَسْتَحِقُّ صاحبه العِقَاب، ومنه قِيلَ لعقوبته: الأثام؛ فَعَالَ منه، كالنَّكَالِ والعَذَابِ والوَبَالِ، قال:

لقد فَعَلْتُ هذِي النَّوِيَّ بِسِيِّ فَعْلَةً
أصابَ النَّوِيَّ قَبْلَ المَمَاتِ أَثَامُهَا

والهمزة فيه عن الواو، كأنه يَثْمُ الأَعْمَالِ، أي: يَكْسِرُهَا بِإِحْبَابِهِ.

قوله: (لقد فَعَلْتُ) البَيْت: «أصابَ النَّوِيَّ»^(١) قَبْلَ المَمَاتِ: أي: مَمَاتِ النَّوِيَّ، أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى النَّوِيَّ بِأَنْ لَا يَمُوتَ حَتَّى يَلْقَى جِزَاءَ مَا فَعَلَ، أي: فَعَلْتُ النَّوِيَّ فِي فَعْلَةٍ سَيِّئَةٍ، ثُمَّ قَالَ عَلَى سَبِيلِ الدَّعَاءِ: أَصَابَ النَّوِيَّ جِزَاءَهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: مَمَاتُ نَفْسِهِ، أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ لِنَفْسِهِ بِأَنْ لَا يَمُوتَ حَتَّى يَرَى مَا يَلْحَقُ بِالنَّوِيَّ مِنَ الْجِزَاءِ عَلَى فِعْلِهِ، فَيَسَلِّيَ بِذَلِكَ.

قوله: (والهمزة فيه عَوِضٌ)^(٢) عن الواو، كأنه يَثْمُ الأَعْمَالِ، أي: يَكْسِرُهَا: قال صاحبُ «الفرائد»: «وَوَثْمٌ مِنْ بَابِ «ضَرَبَ»، و«أَثِمٌ» مِنْ بَابِ «عَلِمَ»، فَمِنْ أَيِّ وَجْهِ يَلْزَمُ أَنْ تَكُونَ الهمزة مِنَ الواو، وَإِنَّمَا مَالَ بِهَذَا الكَلَامِ إِلَى مَذَهَبِهِ»^(٣).

الجوهري: «الإثم: الذنب، وقد أَثِمَ الرَّجُلُ - بالكسر - إِثْمًا وَمَأْتَمًا: إِذَا وَقَعَ فِي الإِثْمِ»، و«الوِثْمُ: الدَّقُّ والكَسْرُ، وَوَثْمٌ يَثْمُ: أَي: عَدَا».

عن بعضهم: الإثمُ والأثام: اسمٌ للأفعالِ المُبْطِئَةِ عن الثوابِ، قال اللهُ تَعَالَى: ﴿أَخَذَتْهُ أَلْهَرَّةٌ بِالإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ أَي: حَمَلَتْهُ عَلَى فِعْلِ مَا يُؤْتِمُّهُ، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]؛ أَي: عَذَابًا، فَسَمَّاهُ «أَثَامًا» لِمَا كَانَ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ تَسْمِيَةُ النَّبَاتِ وَالشَّحْمِ بِنَدَى لِمَا كَانَا مِنْهُ^(٤).

(١) في الأصول الخطية: «دعا»، وأثبت ما هو لفظُ البَيْتِ في «الكشاف»، وكذا هو في «أساس البلاغة» (أثم).
(٢) لفظة «عوض» ثبتت في الأصول الخطية، وهي ثابتة في نصِّ «الكشاف» من (ط)، لكنها لم ترد في الأصل الخطي من «الكشاف» ولا في المطبوع.

(٣) لأن المعتزلة يرون أن الكبيرة تُحِبَطُ العمل، وصاحبها مُخَلَّدٌ في النار.

(٤) من قوله: «عن بعضهم» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

وَقُرِي: «وَلَا تَحَسَّسُوا» بِالْحَاءِ، وَالْمَعْنِيَانِ مُتَقَارِبَانِ، يُقَالُ: تَحَسَّسَ الْأَمْرَ: إِذَا تَطَلَّبَهُ وَبَحَثَ عَنْهُ؛ تَفَعَّلُ مِنَ الْجَسِّ، كَمَا أَنَّ التَّلَمَّسَ - بِمَعْنَى: التَّطَلُّبَ - مِنَ اللَّمْسِ، لِمَا فِي اللَّمْسِ مِنَ الطَّلَبِ، وَقَدْ جَاءَ بِمَعْنَى الطَّلَبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾، وَالتَّحَسُّسُ: التَّعَرُّفُ؛ مِنَ الْحَسِّ، وَلِتَقَارُبِهِمَا قِيلَ لِمَشَاعِرِ الْإِنْسَانِ: الْحَوَاسُّ؛ بِالْحَاءِ وَالْجِيمِ.

والمُرَاد: النهي عن تَتَبُعِ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَمَعَايِبِهِمْ وَالِاسْتِكْشَافِ عَمَّا سَتَرَهُ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: خُدُّوْا مَا ظَهَرَ، وَدَعُوْا مَا سَتَرَهُ اللهُ. وَعَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ خَطَبَ، فَرَفَعَ صَوْتَهُ، حَتَّى أَسْمَعَ الْعَوَاتِقَ فِي خُدُورِهِنَّ، قَالَ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ،

قوله: (قيل لمشاعر الإنسان: الحواس؛ بالحاء والجيـم): الراغب: «أصل الجسّ: مسّ العزق بنبضه للحكم به على الصّحة والسقم، وهو أخصّ من الحسّ - بفتح الحاء -، فإنّ الحسّ: تعرّف ما يدركه الحسّ، والجسّ - بالجيـم -: تعرّف حال ما من ذلك، ومن لفظ الجسّ اشتقّ: الجاسوس»^(١).

قوله: (حتى أسمع العواتق): قال في «الفاثق»: «العاتق: الشابة أول ما أدركت، قال ابن الأعرابي: إنها سُميت عاتقاً لأنها عتقت من الصبا، وبلغت أن تتزوج»^(٢).

قوله: (يا معشر من آمن بلسانه): روى أبو داود^(٣) عن أبي بزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّ مَنْ تَتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ». «تَتَّبَعَ اللهُ»: مُشَاكَلَةٌ، أَي: جَازَاهُ، نَحْوُ: كَمَا تَدِينُ تُدَانُ.

(١) «مفردات القرآن» ص ١٩٦.

(٢) «الفاثق» للزخشي (٢: ٣٢٨-٣٢٩)، مادة (عتق).

(٣) في «سننه» برقم (٤٨٨٠).

وَلَمْ يَخْلُصِ الْإِيْمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ مَنْ تَتَّبَعَ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ حَتَّى يَفْضَحَهُ، وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ. وَعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهَبٍ: قُلْنَا لِابْنِ مَسْعُودٍ: هَلْ لَكَ فِي الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ تَقَطَّرَ لِحَيْتُهُ خَمْرًا؟ فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّا قَدْ نُهَيْنَا عَنِ التَّجَسُّسِ، فَإِنْ ظَهَرَ لَنَا شَيْءٌ أَخَذْنَا بِهِ.

غَابَهُ وَاغْتَابَهُ: كغَالَهُ وَاغْتَالَهُ، وَالغَيْبَةُ: مِنَ الْإِغْتِيَابِ، كَالغَيْلَةِ: مِنَ الْإِغْتِيَالِ، وَهُوَ ذِكْرُ السُّوءِ فِي الْغَيْبَةِ، وَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْغَيْبَةِ،

قوله: (وعن زيد بن وهب) الحديث: أَخْرَجَهُ أَيْضاً أَبُو دَاوُدَ (١).

قوله: (كغاله و اغتاله): الرّاعب: «الغول: إهلاك الشيء من حيث لا يحسُّ به، يُقال: غاله و اغتاله» (٢).

قوله: (وهو: ذِكْرُ السُّوءِ فِي الْغَيْبَةِ): الرّاعب: «الغيبَةُ: أَنْ يَذْكَرَ الْإِنْسَانُ [غَيْرَهُ] (٣) بِهَا فِيهِ مِنْ عَيْبٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَحْجِجَ إِلَى ذِكْرِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُمْ بِمَعْضًا﴾» (٤).

وقال الشيخ محيي الدين النواوي: «الغيبَةُ: كُلُّ مَا أَفْهَمْتَ بِهِ غَيْرَكَ نُقْصَانَ مُسْلِمٍ عَاقِلٍ، وَهُوَ حَرَامٌ» (٥). قوله: «مَا أَفْهَمْتَ بِهِ غَيْرَكَ»: مُتَنَاوَلٌ لِلْفَطْرِ الصَّرِيحِ وَالْكِنَايَةِ وَالرَّمْزِ وَالتَّعْرِيضِ وَالْكِتَابَةِ وَالْإِشَارَةِ بِالْعَيْنِ وَالْيَدِ وَالرَّأْسِ.

قوله: (وسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْغَيْبَةِ): الْحَدِيثُ مَعَ تَغْيِيرِ يَسِيرٍ: أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَالتَّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ (٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

(١) في «سننه» برقم (٤٨٩٠).

(٢) «مفردات القرآن» ص ٦١٩.

(٣) لفظة «غيره» لم ترد في الأصول الخطية، وأثبتها من «مفردات القرآن» للرّاعب.

(٤) «مفردات القرآن» ص ٦١٧.

(٥) «الأذكار» للنووي ص ٣٠٠-٣٠١.

(٦) مسلم (٢٥٨٩)، والتّرْمِذِيُّ (١٩٣٤)، وَأَبُو دَاوُدَ (٤٨٧٤).

فقال: «أَنْ تَذْكُرَ أَحَاكَ بِهَا يَكْرَهُ، فَإِنْ كَانَ فِيهِ فَقَدِ اغْتَبَّتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدِ بَهَّتَهُ»، وعن ابن عباس: الغيبة إدامٌ كِلابِ الناسِ.

﴿أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾ تَمَثِيلٌ وَتَصْوِيرٌ لِمَا يَنَالُهُ الْمُغْتَابُ مِنْ عَرَضِ الْمُغْتَابِ عَلَى أَفْطَحِ وَجْهِ وَأَفْحَشِهِ، وَفِيهِ مُبَالَغَاتٌ شَتَّى، مِنْهَا: الِاسْتِفْهَامُ الَّذِي مَعْنَاهُ التَّقْرِيرُ، وَمِنْهَا: جَعْلُ مَا هُوَ فِي الْغَايَةِ مِنَ الْكِرَاهَةِ مُوَصُولًا بِالْمَحَبَّةِ، وَمِنْهَا: إِسْنَادُ الْفِعْلِ إِلَى «أَحَدِكُمْ»، وَالِإِشْعَارُ بِأَنَّ أَحَدًا مِنَ الْأَحْدِيثِ لَا يُحِبُّ ذَلِكَ، وَمِنْهَا: أَنْ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى تَمَثِيلِ الْإِغْتِيَابِ بِأَكْلِ لَحْمِ الْإِنْسَانِ، حَتَّى جَعَلَ الْإِنْسَانَ أَحَا، وَمِنْهَا: أَنْ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى أَكْلِ لَحْمِ الْأَخِ حَتَّى جَعَلَ مَيْتًا. وَعَنْ قَتَادَةَ: كَمَا تَكْرَهُ إِنْ وَجَدْتَ جِيْفَةً مُدَوَّدَةً أَنْ تَأْكُلَ مِنْهَا، كَذَلِكَ فَافْكَرْ لَحْمَ أَخِيكَ وَهُوَ حَيٌّ.

وَانْتَصَبَ ﴿مَيْتًا﴾ عَلَى الْحَالِ مِنَ «اللَّحْمِ»، وَيَجُوزُ أَنْ يَنْتَصِبَ عَنْ «الْأَخِ»، وَقُرِي: «مَيْتًا»، وَلَمَّا قَرَّرَهُمْ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ لَا يُحِبُّ أَكْلَ جِيْفَةِ أَخِيهِ، عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَكَّرِهِتُمُوهُ﴾، مَعْنَاهُ: فَقَدِ كَرِهْتُمُوهُ وَاسْتَقَرَّ ذَلِكَ، وَفِيهِ مَعْنَى الشَّرْطِ، أَي: إِنْ صَحَّ هَذَا فَكَّرِهِتُمُوهُ، وَهِيَ عَلَى الْفَاءِ الْفَصِيحَةُ، أَي: فَتَحَقَّقْتُ - بِوَجوبِ الْإِقْرَارِ عَلَيْكُمْ، وَبِأَنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى دَفْعِهِ وَإِنْكَارِهِ؛ لِإِبَاءِ الْبَشَرِيَّةِ عَلَيْكُمْ أَنْ تَجْحَدُوهُ - كَرَاهَتِكُمْ لَهُ وَتَقْدِرُكُمْ مِنْهُ، فَلْيَتَحَقَّقْ أَيْضًا أَنْ تَكْرَهُوا مَا هُوَ نَظِيرُهُ مِنَ الْغَيْبَةِ وَالطَّعْنِ فِي أَعْرَاضِ الْمُسْلِمِينَ.

قوله: (فقد بهته): النهاية: «البهت: الكذب والافتراء، يقال: بهته يبهته».

قوله: (وقري: «ميتًا»): بتشديد الياء: نافع، والباقون: بإسكانها^(١).

قوله: (ولما قررهم تعالى بأن أحدًا منهم لا يحب أكل جيفة أخيه، عقب ذلك بقوله: ﴿فكروهتموه﴾): يعني: لما ضرب لهم ذلك المثل على أبلغ الوجوه، وصدّره بهمزة التقرير، رتب عليه قوله: ﴿فكروهتموه﴾؛ إيدانًا بتبكيتهم، وأنه لا يمكنهم من أن لا يجيبوا بقولهم: لا نُجِبُهُ، وهو المراد من قوله: «يوجب الإقرار عليكم، وبأنكم لا تقدرون على دفعه وإنكاره، لإبَاءِ الْبَشَرِيَّةِ عَلَيْكُمْ أَنْ تَجْحَدُوهُ».

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ١٠٦، و«حجة القراءات» ص ٦٧٧.

وللاهتمام بشأن هذا المعنى أوقع اعتراضاً بين الفعل؛ أعني: «فَتَحَقَّقْتُ»، وبين فاعله؛ أي: «كراهتكم»، فعند ذلك يُقال لهم: «فَكَرِهْتُمُوهُ»، تقريراً لجوابهم، وتثبيتاً لكراهتهم واستيقتدارهم ذلك، وتمهيداً لأن يُعقَّب بقوله: «فَلْيُحَقِّقْ أَيْضاً أَنْ تَكْرَهُوا مَا هُوَ نَظِيرُهُ مِنَ الْغَيْبَةِ وَالطَّغْنِ فِي أَعْرَاضِ الْمُسْلِمِينَ».

ويؤيد هذا ما جاء في نسخة الإمام المغفور [له] نظام الدين الطوسي: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾: معناه: فقد كرهتموه، واستقر ذلك، وفيه معنى الشرط، أي: إن صحَّ هذا فكرهتموه، وهي الفاء الفصيحة، أي: «فَتَحَقَّقْتُ» إلى آخره.

والفاء مثلها في قول الشاعر:

قالوا: خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا^(١)

روى السيّد ابن السّجري في «الأمالي»: «أن أبا عليّ ذكر في كتاب «التذكرة» أن المعنى: فكما كرهتموه فاكروهوا الغيبة واتقوا الله. فقوله: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ عطف على قوله: «فاكروهوا»؛ لدلالة الكلام عليه، كقوله تعالى: ﴿أَضْرِبْ بَعْضَكَ الْخَبْرَ فَأَنْفَجَرْتَ﴾ [البقرة: ٦٠]، أي: فَضْرَبَ فَأَنْفَجَرْتَ، وقوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ كلامٌ مُستأنف، وإنما دخلت الفاء لِمَا في الكلام من معنى الجواب، فكأنهم لَمَّا قالوا - في جواب قوله: ﴿أَيُّحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ - لا، فقال: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، أي: فكما كرهتموه فاكروهوا الغيبة. فإذا: المعنى: على: فكما كرهتموه، وإن لم تكن «كما» مذكورة، كما أن قولهم: «ما تأتيني فتحدّثني»، المعنى: ما تأتيني فكيف تُحدّثني؟! وإن لم تكن «كيف» مذكورة، وإنما هي مُقدّرة».

ثم قال السيّد: «هذا التقدير بعيد؛ لأنه قدّر المحذوف موصولاً، وهو «ما» المصدرية، وحذف الموصول وإبقاء صليته رديءٌ ضعيف، ولو قدّر المحذوف مُبتدأً لكانَ جيّداً، لأنَّ حذف المُبتدأ كثير، أي: فهذا كرهتموه، والجملة المُقدّرة مُبتدئية، لا أمرية كما قدّرها أبو عليّ، وإنما قدّرها أمريةً ليعطف عليها قوله: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾، فإنها أمرية أيضاً، ولا حاجة إليها، لأنَّ

(١) استشهد به الرّمحشري في تفسير الآية ١٩ من الفرقان (١١: ٢٠١)، وفي تفسير الآية ٥٦ من الروم (١٢: ٢٧٤).

وَقَرِي: «فَكَرَّهْتُمُوهُ»، أي: جُبِلْتُمْ عَلَى كِرَاهِيَتِهِ. فَإِنْ قُلْتَ: هَلَا عُدِّي بِ«إِلَى»، كَمَا عُدِّي فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ﴾ [الحجر: ٧]، وَأَيُّهَا الْقِيَاسُ؟ قُلْتَ: الْقِيَاسُ تَعَدِّيهِ بِنَفْسِهِ، لِأَنَّهُ ذُو مَفْعُولٍ وَاحِدٍ قَبْلَ تَثْقِيلِ حَسْوِهِ، تَقُولُ: كَرِهْتُ الشَّيْءَ، فَإِذَا ثَقُلَ اسْتَدْعَى زِيَادَةَ مَفْعُولٍ، وَأَمَّا تَعَدِّيهِ بِ«إِلَى» فَتَأَوَّلُ وَإِجْرَاءُ لـ«كَرَّهَ» مَجْرَى «بَعْضُ»، لِأَنَّ «بَعْضُ» مَنْقُولٌ مِنْ: بَعْضُ إِلَيْهِ الشَّيْءِ، فَهُوَ بَعْضٌ إِلَيْهِ، كَقَوْلِكَ: حَبَّ إِلَيْهِ الشَّيْءُ، فَهُوَ حَبِيبٌ إِلَيْهِ.

وَالْمُبَالَغَةُ فِي «التَّوَابِ» لِلدَّلَالَةِ عَلَى كَثْرَةِ مَنْ يَتُوبُ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ، أَوْ لِأَنَّهُ مَا مِنْ ذَنْبٍ يَغْتَرِفُهُ الْمُغْتَرِفُ إِلَّا كَانَ مَعْفُوعاً عِنْدَهُ بِالتَّوْبَةِ، أَوْ لِأَنَّهُ بَلِيغٌ فِي قَبُولِ التَّوْبَةِ، مُنْزَلٌ صَاحِبِهَا مَنْزِلَةً مَنْ لَمْ يُذْنِبْ قَطُّ، لِسَعَةِ كَرَمِهِ.....

قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْقَرُوا اللَّهَ﴾ عَطْفٌ عَلَى الْجُمْلَةِ النَّهْيِيَّةِ، وَهِيَ: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾، وَالْعَطْفُ عَلَى الْمَذْكُورَةِ أَوَّلِي مِنَ الْمُقَدَّرَةِ، وَالْإِشَارَةُ فِي الْمُبْتَدَأِ الَّذِي قَدَّرْتَهُ - وَهُوَ «هَذَا» - مُوجَّهَةٌ إِلَى الْأَكْلِ الَّذِي وَصَفَهُ اللَّهُ، كَأَنَّهُ لَمَّا قَدَّرَ أَنَّهُمْ قَالُوا: «لَا»، فِي جَوَابِ قَوْلِهِ: ﴿أَيُّجِبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾، قِيلَ: فَهَذَا كَرِهْتُمُوهُ، وَالغَيْبَةُ مِثْلُهُ. فَتَأَمَّلْ^(١).

وَقَالَ ابْنُ الْحَاجِبِ فِي «الْأَمَالِيِّ»: «إِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا نَهَى عَنِ الْغَيْبَةِ شَبَّهَهَا بِمَا هُوَ مَكْرُوهٌ مِنْ مُعْتَادِهِمْ، وَهُوَ أَكْلُ لَحْمِ الْمُغْتَابِ مَيْتًا، وَأَتَى بِهِ عَلَى صِفَةِ الْإِنْكَارِ؛ تَنْبِيْهًا عَلَى أَنَّهُ عَمَّا لَا يَفْعَلُونَهُ، ثُمَّ كَانَ ذَلِكَ التَّنْبِيْهُ^(٢) سَبِيلاً لِذِكْرِ تَحَقُّقِ الْكِرَاهَةِ وَثُبُوتِهَا مُسَبِّباً عَنِ هَذَا التَّشْبِيْهِ الَّذِي قُصِدَ بِهِ تَأْكِيدُ كِرَاهَةِ مَا نَهَى عَنْهُ، إِذْ بِهِ يَتَحَقَّقُ تَوْبِيْخُهُمْ فِي وَقُوعِهِمْ فِي الْغَيْبَةِ الْمُسَبَّهَةِ بِمَا يَأْبُوْنَهُ وَيَكْرَهُوْنَهُ»^(٣).
قَوْلُهُ: (بَلِيغٌ فِي قَبُولِ التَّوْبَةِ): يَعْنِي: تَوَابٌ: فَعَالٌ؛ تَقْتَضِي الْكَثْرَةَ، وَهِيَ إِمَّا بِحَسَبِ تَعَدُّدِ التَّائِبِينَ أَوْ تَعَدُّدِ ذُنُوبٍ كَثِيرَةٍ لِتَائِبٍ وَاحِدٍ، أَوْ أَنَّهُ إِذَا تَابَ عَنْ ذَنْبٍ وَاحِدٍ أُغْرِقَ فِي الْعَفْوِ.

(١) «الأمالي الشجرية» (٢: ٣٢٩-٣٣٠)، وانظر منه أيضاً (١: ١٥٦-١٥٣).

(٢) كذا في (ط)، وفي (ح) و(ف): «الشبه»، ولها وجه أيضاً.

(٣) «الأمالي النحوية» لابن الحاجب (١: ٩٢).

والمعنى: واتقوا الله بترك ما أمرتم باجتنبه، والنَّدَم على ما وُجِدَ منكم منه، فإنكم إن اتَّقَيْتُمْ تَقَبَّلَ اللهُ تَوْبَتَكُمْ، وأنعمَ عليكم بثواب المتقين التائبين.

وعن ابن عباس: أن سلمانَ كان يخدمُ رجُلينِ مِنَ الصَّحابة، ويُسوِّي لهما طعامهما، فنامَ عن شأنِهِ يوماً، فبعثاه إلى رسولِ الله ﷺ يبغي لهما إداماً، وكان أسامةُ على طعام رسولِ الله ﷺ، فقال: ما عندي شيء، فأخبرهما سلمان، فعندَ ذلكَ قالوا: لو بعثناه إلى بئرِ سُمَيْجَةَ لَعَارَ ماؤُها، فلما راحا إلى رسولِ الله ﷺ، قال لهما: ما لي أرى خُضْرَةَ اللَّحْمِ في أفواهكما، فقالوا: ما تناولنا لحمًا، فقال: إنكما قد اغتبتُما، فنزلت.

[يَتَأْتِيَا النَّاسَ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾]

﴿مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ من آدمَ وحواء. وقيل: خَلَقْنَا كُلَّ واحدٍ منكم من أبٍ وأم، فما منكم أحدٌ إلا وهو يُنْثَلِي بِمِثْلِ ما يُدْثَلِي به الآخر، سواءً بسواء، فلا وَجْهَ للتفاخُرِ والتفاضلِ في النَّسَب. والشَّعْبُ: الطَّبَقَةُ الأولى مِنَ الطَّبَقَاتِ السَّتِّ التي عليها العرب، وهي: الشَّعْبُ، والقبيلة، والعمارة، والبطن، والفخذ، والفصيلة. فالشَّعْبُ يجمعُ القَبَائِلَ، والقبيلةُ تجمعُ العِمَائِرَ، والعمارةُ تجمعُ البُطُونِ، والبطنُ تجمعُ الأفخاذ،

قوله: (إلى بئرِ سُمَيْجَةَ): بالجيم على التصغير، ويروى: «سُحَيْمَةَ» بالحاءِ المَهْمَلَةِ، قيل: هي بئرٌ من آبارِ مَكَّة، ولم أجد لها ذِكرًا في الكُتُبِ المُعْتَبَرَةِ.

قوله: (خُضْرَةَ اللَّحْمِ): النهاية: «في الحديث: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءَةٌ خُضْرَةٌ»^(١)، أي: عَصَّةٌ طَرِيَّةٌ نَاعِمَةٌ».

قوله: (وهو يُنْثَلِي): المُغْرِبُ: «فُلَانٌ يُنْثَلِي إلى الميْتِ بِذِكْرٍ، أي: يَتَّصِلُ، وَدَلَاةٌ مِنْ سَطْحٍ بِحَبْلٍ، أي: أُرْسَلَهُ، فَتَلَّى».

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

والفخذُ تجمعُ الفصائلِ؛ حُزَيْمَةُ شُعْبٍ، وَكِنَانَةُ قَبِيلَةٍ، وَفُرَيْشٌ عِمَارَةٌ، وَقُصَيٌّ بَطْنٌ، وَهَاشِمٌ فَخْدٌ، وَالْعَبَّاسُ فَصِيلَةٌ. وَسُمِّيَتِ الشُّعُوبُ؛ لِأَنَّ الْقَبَائِلَ تَشَعَّبَتْ مِنْهَا.

وَقُرِي: «لِتَتَعَارَفُوا» و«لِتَعَارَفُوا» بِالِادْغَامِ، وَ«لِتَعْرِفُوا»، أَي: لِيَتَعَلَّمُوا كَيْفَ تَتَنَاسَبُونَ، وَ«لِتَعْرِفُوا». وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْحِكْمَةَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا رَتَّبْتُمْ عَلَى شُعُوبٍ وَقَبَائِلَ هِيَ أَنْ يَعْرِفَ بَعْضُكُمْ نَسَبَ بَعْضٍ، فَلَا يُعْتَزَى إِلَى غَيْرِ آبَائِهِ، لَا أَنْ تَتَفَاخَرُوا بِالْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ، وَتَدْعُوا التَّفَاوْتَ وَالتَّفَاضُلَ فِي الْأَنْسَابِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ الْحِصْلَةَ الَّتِي بِهَا يُفْضَلُ الْإِنْسَانُ غَيْرَهُ، وَيَكْتَسِبُ الشَّرْفَ وَالكَرَّمَ عِنْدَ اللَّهِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَانَكُمْ﴾، وَقُرِي: «أَنَّ» بِالْفَتْحِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: لِمَ لَا يُتَفَاخَرُ بِالْأَنْسَابِ؟ فَقِيلَ: لِأَنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَانَكُمْ لَا أَنْسَابُكُمْ.

قوله: (و«لِتَعْرِفُوا»): قال ابنُ جنِّي: «وهي قراءةُ ابنِ عباس، والمفعولُ محذوف، أي: لتَعْرِفُوا ما أنتم محتاجون إليه، كقوله:

وما علِّمَ الإنسانُ إلا ليعلِّمًا^(١)

أي: ليعلِّمَ ما علِّمَهُ، أي: ليعلِّمَ ما يدعُو إلى عِلْمٍ ما علِّمَهُ، وما أعدَبَ هذا الحذف، وما أغرَبَهُ لِمَنْ يَعْرِفُ مَذْهَبَهُمْ^(٢)»^(٣).

قوله: (ثم بيَّنَّ الحِصْلَةَ الَّتِي بِهَا يُفْضَلُ الْإِنْسَانُ غَيْرَهُ): يعني: فَصَّلَ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَانَكُمْ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ^(٤) لِيَكُونَ الْكَلَامُ الْأَوَّلُ كَالْمُورِدِ لِلسُّؤَالِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى لِمَا عَلَّلَ الْخَلْقَ بِالتَّعَارُفِ، عَلَى مَعْنَى: لَيْسَ التَّشَعُّبُ وَالْقَبَائِلُ لِلتَّفَاضُلِ وَالتَّفَاخُرِ، بَلْ لِأَنَّ يَعْرِفَ بَعْضُ

(١) البيت للمثلِّمِ الضُّبَيْعِيِّ، كما في «الأصمعيات» ص ٢٤٥، وأوله:

لذي الحِلْمِ قَبْلَ الْيَوْمِ مَا تُقْرَعُ الْعَصَا

(٢) في الأصول الخطية: «مذهب»، والمثبت من «المحتسب».

(٣) «المحتسب» لابن جنِّي (٢: ٢٨٠).

(٤) فَصَّلَهَا، أَي: لَمْ يَعْطِفْهَا عَلَى مَا قَبْلُهَا بِالْوَاوِ، كَمَا هُوَ مُصْطَلَحُ عُلَمَاءِ الْبَلَاغَةِ فِي «الفصل والوصل».

وعن النبي ﷺ: أَنَّهُ طَافَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَنْتَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُيْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَكَبَّرَهَا، يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانُ: مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيْنٌ عَلَى اللَّهِ»، ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ. وَعَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ». وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَرَّمَ الدُّنْيَا الْغَنَى، وَكَرَّمَ الْآخِرَةَ التَّقْوَى.

الخلق بعضاً، وَيَتَمَيَّزُ شَخْصٌ مِنْ شَخْصٍ، فَقِيلَ: بِأَيِّ شَيْءٍ التَّفَاخُرُ؟ وَمَنِ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْمَآثِرَةَ وَالْمَفْخَرَةَ؟ فَقِيلَ: مَنْ هُوَ أَتَقَى اللَّهَ وَأَخْشَى لَهُ، وَمَنْ يَكُونُ عَالِماً بِاللَّهِ وَبِصِفَاتِهِ.

قال في «المُرشد»: «الوقوفُ على ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ تامٌّ، وقال أبو حاتم^(١): ولا يجوزُ لِتَعْرِفُوا أَنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَاقُمْ، لَمْ يَجْعَلْهُمُ شُعُوباً وَقِبَائِلَ لِيعْرِفُوا أَنْ أَكْرَمَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَاقَهُمْ، وَإِنَّمَا جَعَلَهُمْ كَذَلِكَ لِيعْرِفَ بَعْضُهُمْ نَسَبَ بَعْضٍ وَقُرَابَتَهُ»^(٢).

قوله: (أَنَّهُ طَافَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ) الحديث: مِنْ رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ^(٣) عَنْ ابْنِ عُمَرَ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَظَبَ النَّاسَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُيْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظَمَهَا بِأَبَائِهَا، فَالنَّاسُ رَجُلَانُ؛ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيْنٌ عَلَى اللَّهِ، النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّبُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقِبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾».

النهاية: «عُيْبَةُ الْجَاهِلِيَّةِ»^(٤): الْكِبْرُ، وَتُضَمُّ عَيْنُهَا وَتُكْسَرُ، وَهِيَ «فُعُولَةٌ» أَوْ «فُعِيلَةٌ»، فَإِنْ كَانَتْ «فُعُولَةٌ» فَهِيَ مِنَ التَّعْبِيَةِ، لِأَنَّ الْمُتَكَبِّرَ ذُو تَكَلُّفٍ وَتَعْبِيَةٍ، وَإِنْ كَانَتْ «فُعِيلَةٌ» فَهِيَ مِنَ عِيَابِ الْمَاءِ، وَهُوَ أَوْلُهُ وَارْتِفَاعُهُ».

(١) السُّجِسْتَانِي، الْإِمَامُ اللَّغَوِيُّ الْمُقْرئُ الْمَعْرُوفُ، التُّوفِي سَنَةَ ٢٤٨ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -.

(٢) انظر: «المقصد» لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري ص ٧٣٢.

وقد تقدّم التعريف بـ«المُرشد» و«المقصد» في تفسير الآية ٣٤ من سورة التوبة (٧: ٢٣٣) تعليقا.

(٣) في «جامعه» برقم (٣٢٧٠).

(٤) من قوله: «بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

الراغب: «عبأت الجيش: هيأته، وعبّيتُ الجاهلية: ما هي مُدخّرةٌ في أنفسهم من حميتهم المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]»^(١)، قيل: كَبَّرُهَا؛ مِنْ عَبَّ الْبَحْرَ: إِذَا زَخَرَ.

وفي معناه: ما رواه الإمام أحمد بن حنبل^(٢) عن عُبَيْة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أنسابكم هذه ليست بمسببة على أحد، كلُّكم بنو آدم، طَفُّ الصَّاعِ بالصَّاعِ لم تَمَلُّوْهُ، ليس لأحدٍ على أحدٍ فَضْلٌ إلا بدينٍ أو تقوى، كفى بالرجل أن يكونَ بَدِينًا فَاحِشًا بِخِيَالٍ»^(٣).
النهاية: «أي: قريبٌ بعضكم من بعض، يُقال: هذا طَفُّ المِكْيَالِ وطَفَافُهُ وطِفَافُهُ، أي: ما قَرُبَ مِنْ مَلْتِهِ، وقيل: هو ما علا فوقَ رأسه، ويُقالُ له أيضاً: طُفَافٌ بِالضَّمِّ، والمعنى: كلُّكم في الانتساب إلى أبٍ واحدٍ بمنزلةٍ واحدةٍ في النَّقْصِ والتَّقَاصُرِ عن غاية التمام، وشبَّههم في نُقْصَانِهِم بِالْمِكْيَالِ الَّذِي لم يَبْلُغْ أن يَمَلَأَ المِكْيَالِ، ثم أعلَمَهُم أنَّ التَّفَاضُلَ لَيْسَ بِالنَّسَبِ، ولكن بالتقوى».

الراغب: «كُلُّ شَيْءٍ يَشْرَفُ فِي بَابِهِ فَإِنَّهُ يُوصَفُ بِالكَرَمِ، قال بعض العلماء: الكَرَمُ كالحرية^(٤)، إلا أن الحرية قد تُقالُ في المحاسن الصغيرة، والكَرَمُ لا يُقالُ إلا في المحاسن الكبيرة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [فإنها كان كذلك]^(٥) لأن الكَرَمَ

(١) «مفردات القرآن» ص ٥٤٤.

(٢) في «مسنده» برقم (١٧٤٤٦).

(٣) زاد في (ط) هنا: «رواه البيهقي في شعب الإيوان»، ولم ترد هذه الزيادة في (ج) و(ف)، وليس من عادة المؤلف رحمه الله تعالى أن يتوسع في تخريج الحديث إذا كان في أحد الكتب التسعة، فكانها زيادة مُقْحَمَةٌ، والله أعلم.

نعم، الحديث في «شعب الإيوان» للبيهقي (٥١٤٦) و(٦٦٧٧).

(٤) في الأصول الخطية: «بالحرية»، والمثبت من «مفردات القرآن» للراغب.

(٥) ما بين حاصرتين لم يرد في الأصول الخطية، وأثبتته من «مفردات القرآن» للراغب، والعبارة دونه مستقيمة، لكن بغموض شديد.

وعن يزيد بن شجرة: مرَّ رسولُ الله ﷺ في سوقِ المدينة، فرأى غلاماً أسودَ يقول: من اشتراني فعلى شَرط؛ لا يَمْنَعُنِي عَنِ الصَّلَاةِ الخَمْسِ خَلْفَ رَسولِ اللهِ ﷺ، فاشترَاهُ رَجُلٌ، فكان رسولُ الله ﷺ يراهُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ، ففَقَدَهُ يوماً، فسألَ عنه صاحِبَهُ، فقال: مَحْمومٌ، فعاده، ثم سألَ عنه بعدَ ثلاثةِ أيامٍ، فقال: هو لِمَا به، فجاءه وهو في ذِمَّاتِهِ، فتولَّى غَسَلَهُ ودَفَنَهُ، فدَخَلَ على المهاجِرِينَ والأنصارِ أمرٌ عظيمٌ، فنزلت.

[﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلِّ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ١٤]

الإيمان: هو التصديقُ بالله معَ الثقةِ وطُمانينةِ النَّفسِ. والإسلام: الدُّخولُ في السُّلْمِ، والخروجُ من أن يكونَ.....

الأفعالُ المحمودة، وأكرمها ما يحصلُ به أشرفُ الوجوه، وأشرفُ الوجوه: ما يقصدُ به وَجْهُ اللهِ، فَمَنْ قَصَدَ ذَلِكَ بِمَحَاسِنِ فِعْلِهِ فهو التَّقِيُّ، فإِذَنْ: أكرمُ الناسِ اتِّقَاهُمْ^(١).

قوله: (هو لِمَا به): رُوِيَ عن المصنِّفِ أنه قال: أي: هو مُتَهَيِّجٌ للموتِ الذي لاصِقٌ به، لا بُدُّ له منه. وقال غيره: أي: هو مملوكٌ لِمَا به، وهو مرضٌ موته، والدِّماء: الحُشاشة، وهي بَقِيَّةُ الرُّوحِ في المذبوح.

قوله: (الإيمان: هو التصديقُ بالله معَ الثقة): قال الرَّجَّاجُ: «الفرقُ بينَ المؤمنِ والمُسلمِ: هو أنَ الإسلامَ إظهارُ الخُضوعِ والقبولِ لِمَا أتى به النبي ﷺ، وبذلك يُحَقِّقُ الدم، فإذا كانَ معَ ذلكَ اعتقادٌ وتصديقٌ بالقلبِ، فصاحِبُهُ مُؤمِنٌ مُسلمٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾، أي: أولئك إذا قالوا: «إنا مُؤمنون» فهم الصادقون. وأما مَنْ أظْهَرَ قَبولَ الشريعة، واستسلمَ لِذَمِّ المَكروه، فهو في الظاهر مُسلمٌ، وباطنه غيرُ مُصدِّق، فهو الذي

(١) «مفردات القرآن» ص ٧٠٧.

حَرْبًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِإِظْهَارِ الشَّهَادَتَيْنِ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، فَأَعْلَمَ أَنَّ مَا يَكُونُ مِنَ الْإِقْرَارِ بِاللِّسَانِ مِنْ غَيْرِ مُوَاطَاةِ الْقَلْبِ: فَهُوَ إِسْلَامٌ، وَمَا وَاطَأَ فِيهِ الْقَلْبُ اللَّسَانَ: فَهُوَ إِيْمَانٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا وَجْهُ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾، وَالَّذِي يَقْتَضِيهِ نَظْمُ الْكَلَامِ أَنْ يُقَالَ: «قُلْ: لَا تَقُولُوا: آمَنَّا، وَلَكِنْ قُولُوا: أَسْلَمْنَا»، أَوْ «قُلْ: لَمْ تُؤْمِنُوا، وَلَكِنْ أَسْلَمْتُمْ»؟

يقول: «أسلمت»، لأنَّ الإِيْمَانَ^(١) لَا بُدَّ فِي الشَّرِيعَةِ أَنْ يَكُونَ صَاحِبُهُ صِدِّيقًا، لِأَنَّ قَوْلَكَ: «آمَنْتُ بِكَذَا وَكَذَا» مَعْنَاهُ: صَدَّقَ بِهِ^(٢).

الرَّاعِبُ: «الإِسْلَامُ فِي الشَّرِيعَةِ صَرْبَانُ: أَحَدُهُمَا دُونَ الْإِيْمَانِ، وَهُوَ الْإِعْتِرَافُ بِاللِّسَانِ، وَبِهِ يُحَقَّنُ الدَّمُ، حَصَلَ مَعَهُ الْإِعْتِقَادُ أَوْ لَمْ يَحْصَلْ، وَإِيَاهُ عُنِيَ بِقَوْلِهِ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ: آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾. وَالثَّانِي فَوْقَ الْإِيْمَانِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْإِعْتِرَافِ اعْتِقَادًا بِالْقَلْبِ، وَوَفَاءً بِالْفِعْلِ، وَاسْتِسْلَامٌ لِلَّهِ فِي جَمِيعِ مَا قَضَى وَقَدَّرَ، كَمَا ذُكِرَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ رَبِّي الْمَلَكِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]»^(٣).

قَوْلُهُ: (حَرْبًا لِلْمُؤْمِنِينَ): أَي: عَدُوًّا، الْجَوْهَرِيُّ: «أَنَا حَرْبٌ لِمَنْ حَارَبَنِي؛ أَي: عَدُوًّا».

قَوْلُهُ: (وَالَّذِي يَقْتَضِيهِ نَظْمُ الْكَلَامِ): يَعْنِي: قَوْلُهُ: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾: رَدُّ لِقَوْلِ الْأَعْرَابِ: «آمَنَّا»، وَظَاهِرٌ مَا يَقْتَضِيهِ كَلِمَةُ الْاسْتِدْرَاكِ أَنْ يُجَابُوا بِقَوْلِهِ: «لَا تَقُولُوا: آمَنَّا، وَلَكِنْ قُولُوا: أَسْلَمْنَا»^(٤)، فَيُجَاءُ بِإِثْبَاتِ الْقَوْلِ مَعَ نَفْيِهِ، أَوْ بِتَرْكِ الْقَوْلِ فِي الْقَرِيْبَتَيْنِ وَيُقَالُ: «لَمْ تُؤْمِنُوا، وَلَكِنْ أَسْلَمْتُمْ».

(١) فِي (ح): «الإِسْلَامُ»، وَهُوَ خَطَأٌ، وَالْمُبْتَدَأُ مِنْ (ط) وَ(ف).

(٢) «مَعَانِي الْقُرْآنِ وَإِعْرَابُهُ» لِلزَّجَاجِ (٥: ٣٨).

(٣) «مَفْرَدَاتُ الْقُرْآنِ» ص ٤٢٣.

(٤) مِنْ قَوْلِهِ: «رَدُّ لِقَوْلِ الْأَعْرَابِ» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ف).

وأجاب أن مقتضى كلمة الاستدراك حاصل من حيث المعنى مع اشتغال الكلام على فوائد جمة، أما قوله: ﴿لَمْ تَوَسِّنُوا﴾ فتكذيب لدعوتهم ودفع لِمَا اتَّسَبُوا إليه، يعني: ادَّعَيْتُمْ بقولكم: «آمنّا»: أننا أحدثنا الإيمان، وهو كذبٌ مُحْضٌ، لأنه ما صدَرَ منك الإيمان قط، وقوله: ﴿قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾: أمرٌ بالاعتراف بما أحدثوا من الانقياد ظاهراً من غير مواطاة من القلب.

ثم في كل من القريتين عدول من أصل؛ أما الأولى: فإن الأصل أن يقال: «كذبتم»، أو «لا تقولوا: آمنّا»، لتوافق قريتها، فعَدَلَ من «كذبتم» إلى ﴿لَمْ تَوَسِّنُوا﴾؛ لئلا يَلِسُوا لمن يكافحهم به جلد النمر^(١)، على أن المطلوب حاصلٌ بأبلغ وجه، لأن الآية التالية مُقَابِلَةٌ لهذه، وفيها: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّكِدُ قُوتٌ﴾ تعريضاً بأن هؤلاء هم الكاذبون، على سبيل الحصر، ويحصل من ذلك ذمهم ومدح من يصادهم على سبيل البت والقطع، وهو المراد من قوله: «ورب تعريض لا يقاومه التصريح».

وعَدَلَ من «لا تقولوا: آمنّا» إلى ما عليه التلاوة^(٢)، لأنه لو قيل: «لا تقولوا: آمنّا»، لاستهجن من الشارع، لأنه لم يبعث إلا للدعوة إلى الإيمان، لا للنهي عنه، وإلى معناه ينظر قول الفرزدق^(٣):

ما قال «لا» قط إلا في تشهده
لولا التشهد لم ينطق بذلك فم

وأما القرينة الثانية: فإنها أيضاً مُشْتَمِلَةٌ على نكتة، لأن مقتضى الظاهر - على ما جاء في السؤال - أن يقال: «أسلمتم»، ليُطابِقَ: ﴿لَمْ تَوَسِّنُوا﴾، فعَدَلَ إلى: ﴿قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾؛ ليعلمهم أن اللاتق بحالهم أن يقال لهم: «قولوا: أسلمنا»؛ ليؤذن بأن تلك الدعوى باطلة، وأنها بمجرّد اللسان،

(١) أي: يُظهِرُوا له العداوة، وفي المثل: «لبست له جلد النمر»، قال الميداني في «مجمع الأمثال» (٢: ١٨٠):
«يُضْرَبُ في إظهار العداوة وكشفها».

(٢) وهو قوله: ﴿قُلْ لَمْ تَوَسِّنُوا﴾.

(٣) في قصيدته المشهورة في مدح زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم.

قلت: أفاد هذا النَّظْمُ تكذيبَ دَعْوَاهُمْ أولاً، ودَفَعَ ما انتَحَلُوهُ، فقيل: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾، وَرُوعِي فِي هَذَا النَّوعِ مِنَ التَّكْذِيبِ أَدَبٌ حَسَنٌ حِينَ لَمْ يُصْرِّحْ بِلَفْظِهِ، فَلَمْ يَقُلْ: كَذَّبْتُمْ، وَوَضَعَ ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ - الَّذِي هُوَ نَفْيٌ مَا ادَّعَوْا إِثْبَاتَهُ - مَوْضِعَهُ، ثُمَّ نَبَّهَ عَلَى مَا فَعَلَ مِنْ وَضْعِهِ مَوْضِعَ «كَذَّبْتُمْ» فِي قَوْلِهِ فِي صِفَةِ الْمُخْلِصِينَ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾، تَعْرِضاً بِأَنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الْكَاذِبُونَ، وَرُبَّ تَعْرِضٍ لَا يُقَاوِمُهُ التَّصْرِيحُ، وَاسْتَعْنَى بِالْجُمْلَةِ الَّتِي هِيَ ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ عَنْ أَنْ يُقَالَ: «لَا تَقُولُوا: آمَنَّا»؛ لِاسْتِهْجَانِ أَنْ يُخَاطَبُوا بِلَفْظِ مُؤَدَّاهِ النَّهْيِ عَنِ الْقَوْلِ بِالْإِيْمَانِ، ثُمَّ وَصَلَتْ بِهَا الْجُمْلَةُ الْمُصَدَّرَةُ بِكَلِمَةِ الْاسْتِدْرَاكِ مَحْمُولَةً عَلَى الْمَعْنَى، وَلَمْ يَقُلْ: «وَلَكِنْ أَسَلَمْتُمْ»؛ لِيَكُونَ خَارِجاً مَخْرَجَ الرَّعْمِ وَالِدَّعْوَى، كَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ: ﴿آمَنَّا﴾ كَذَلِكَ، وَلَوْ قِيلَ: «وَلَكِنْ أَسَلَمْتُمْ»، لَكَانَ خُرُوجُهُ فِي مَعْرِضِ التَّسْلِيمِ لَهُمْ وَالْإِعْتِدَادِ بِقَوْلِهِمْ، وَهُوَ غَيْرُ مُعْتَدٍّ بِهِ.

فإن قلت: قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ يُشْبِهُ التَّكْرِيرَ مِنْ غَيْرِ اسْتِقْلَالٍ بِفَائِدَةٍ مُتَّجِدَةٍ. قلت: ليس كذلك، فإنَّ فائِدَةَ قَوْلِهِ: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ هُوَ تَكْذِيبُ دَعْوَاهُمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ تَوْقِيتٌ لِمَا أُمِرُوا بِهِ أَنْ يَقُولُوهُ،

لأنَّ الْقَوْلَ قَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي الرَّعْمِ، وَلَوْ قِيلَ: «أَسَلَمْتُمْ»، لَكَانَ خُلُوعاً مِنْ هَذِهِ النُّكْتَةِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «وَلَوْ قِيلَ: وَلَكِنْ أَسَلَمْتُمْ، لَكَانَ خُرُوجُهُ فِي مَعْرِضِ التَّسْلِيمِ لَهُمْ، وَالْإِعْتِدَادِ بِقَوْلِهِمْ».

قال صاحبُ «النهاية»: «وفي الحديث: ﴿لَمَّا أَرَادَ ﷺ أَنْ يَتَعَكَّفَ وَرَأَى الْأَخِيَّةَ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ ﷺ: الْبِرُّ تَقُولُونَ بِهِنَّ»^(١)، أي: أَنْتَظُنُّونَ وَتَسْرَوْنَ أَنَّهُنَّ أَرْدَنَ الْبِرِّ؟»، أي: نساءه ﷺ.

قوله: (توقيتٌ لِمَا أُمِرُوا بِهِ): أي: تعيينٌ وتبيينٌ، المُغْرِبُ: «الوقت: مِنَ الْأَزْمِنَةِ الْمُبْهَمَةِ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ فِي كُلِّ حَدٍّ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: هَلْ فِي ذَلِكَ وَقْتٌ، أَي: حَدٌّ بَيْنَ الْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ، وَقَدْ اسْتَقْوَامَنَّهُ، فَقَالُوا: وَقَتَ اللَّهُ الصَّلَاةَ وَوَقَّتَهَا؛ أَي: بَيَّنَّ وَقْتَهَا وَحَدَّدهَا».

(١) أخرجه البخاري (٢٠٣٤) من حديث عائشة - رضي الله عنها -.

كانه قيل لهم: ولكن قولوا: «أسلمنا» حين لم تثبت مواطاة قلوبكم لأستيتكم. لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير في ﴿قُولُوا﴾، وما في «لما» من معنى التوقع: دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد.

﴿لَا يَلْتَكُرُ﴾ لا يتقصم ولا يظلمكم، يُقال: أَلَتْهُ السُّلْطَانُ حَقَّهُ أَشَدَّ الْأَلْتِ، وهي لغة غطفان، ولغة أسد وأهل الحجاز: لآته كَيْتًا، وحكى الأصمعي عن أم هشام السُّلُويَّة أنها قالت: الحمد لله الذي لا يُفَاتُ ولا يُلَات، ولا تُصمُّه الأصوات. وقُرئ باللُّغَتَيْنِ: ﴿لَا يَلْتَكُرُ﴾ و﴿لَا يَأْتِكُمْ﴾، ونحوه في المعنى: ﴿فَلَا نَظْمُ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧].

قوله: (لأنه كلام واقع موقع الحال): تعليل لقوله: «توقيت لما أمروا به»، يعني: أن قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ بمنزلة الحال المقيدة للمطلق، المعينة لمعنى قوله: ﴿قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾، لأن قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أبيض منه، ولذلك أوقع موضع «لما»: «حين»، وجعله كالقيد لقوله: «قولوا: «أسلمنا» - في قوله: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ - حين لم تثبت مواطاة قلوبكم لأستيتكم».

قوله: (دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد): قال المصنف: «لما» في معنى التوقع، وهي في النفي نظيرة «قد» في الإثبات^(١)، يعني: دخول الإيمان في قلوبكم متوقع، وأنتم الآن لستم من الإيمان على شيء، فلا تقولوا: آمنا. حاصل الجواب: أنه تكرير، لكنه مستقيل بفائدة زائدة، لأنه عليم من الأول نفي الإيمان عنهم، ومن الثاني نفيه مع توقع حصوله.

قوله: (الحمد لله الذي لا يفات): أي: لا يسبق، الأساس: «فاتي بكذا: سبقني وذهب به عني».

قوله: (ولا تصممه الأصوات): أي: لا تجده أصم، يُقال: أصمته، أي: وجدته أصم. قوله: (وقرئ باللغتين): قرأ أبو عمرو: «ولا يأتكم»؛ بهزرة ساكنة بعد الياء، وإذا خفف

(١) انظر: «المفصل» للزخشري ص ٣٠٦-٣٠٧.

ومعنى طاعة الله ورسوله: أن يتوبوا عما كانوا عليه من التناق، ويعقدوا قلوبهم على الإيمان، ويعملوا بمقتضياته، فإن فعلوا ذلك تقبل الله توبتهم، وهب لهم مغفرته، وأنعم عليهم بجزيل ثوابه.

وعن ابن عباس: أن نقرأ من بني أسد قدموا المدينة في سنة جذبة، فأظهروا الشهادة، وأفسدوا طرق المدينة بالعدرات، وأغلوا أسعارها، وهم يغدون ويرؤحون على رسول الله ﷺ، ويقولون: أنتك العرب بأنفسها على ظهور رواحليها، وجئناك بالأتقال والذراري، يريدون الصدقة ويمنون عليه، فنزلت.

[إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَنَّهُدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾]

ارتاب: مطاوع «رأبه»؛ إذا أوقعه في الشك مع التهمة. والمعنى: أنهم آمنوا، ثم لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به، ولا اتهم لمن صدقوه واعترفوا بأن الحق معه.

فإن قلت: ما معنى «ثم» هاهنا، وهي للتراخي، وعدم الارتباب يجب أن يكون مقارناً للإيمان، لأنه وصف فيه، لِمَا بَيَّنَّتْ مِنْ إِفَادَةِ الْإِيمَانِ مَعْنَى الثِّقَةِ وَالطَّمَأِينَةِ الَّتِي حَقِيقَتُهَا التَّيَقُّنُ وَانْتِفَاءُ الرَّيْبِ؟ قلت: الجواب على طريقتين:

أحدهما: أن مَنْ وَجِدَ مِنْهُ الْإِيمَانَ رَبِّهَا اعْتَرَضَهُ الشَّيْطَانُ أَوْ بَعْضُ الْمُضِلِّينَ بَعْدَ تُلُجِّ الصَّدْرِ، فَشَكَّكَ، وَقَذَفَ فِي قَلْبِهِ مَا يَثْلِمُ يَقِينَهُ،

أبدلها ألفاً، والباقون بغير همز ولا ألف: ﴿لَا يَلْتَكُرُ﴾^(١). قال الواحدي: «لا ياليتكم: من آلت ياليت التاء: إذا نقص، ويُقال أيضاً: لا ت يليت ليتاً، بهذا المعنى»^(٢).

قوله: (بعد تلج الصدر): الأساس: «تَلَجَتْ نَفْسُهُ بكذا: بردت وسرت، والحمد لله على بلج الحق وتلج اليقين».

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ٢٠٢، و«حجة القراءات» ص ٦٧٦.

(٢) «الوسيط» للواحدي (٤: ١٦٠).

أَوْ نَظَرَ هُوَ نَظْرًا غَيْرَ سَدِيدٍ يُسْقَطُ بِهِ عَلَى الشَّكِّ، ثُمَّ يَسْتَمِرُّ عَلَى ذَلِكَ رَاكِبًا رَأْسَهُ لَا يَطْلُبُ لَهُ مَخْرَجًا، فَوُصِفَ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا بِالْبُعْدِ عَنْ هَذِهِ الْمَوْبِقَاتِ. وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٠].

قوله: (راكباً رأسه): تمثيل؛ جعل رأسه كالدأية التي يمرُّ بها السيّر، ولا تشعُر أين المقصد، وإليه الإشارة بقوله: «لا يَطْلُبُ لَهُ مَخْرَجًا».

قوله: (ونظيره قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾): وعن بعضهم: «ذكر ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ في «حم السجدة»^(١) مثلاً لتراخي الرتبة، والوجهان في تراخي الزمان، فلا يُناسِبُهُ».

قلت: الوجه الأول نظيره قطعاً؛ لأنَّ قوله هنا: «فَوُصِفَ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا بِالْبُعْدِ عَنْ هَذِهِ الْمَوْبِقَاتِ»، أي: المذكورات من قوله: «ربما اعترضه الشيطان» إلى آخره، وقوله هناك^(٢): «ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياتها» متقاربان معنى، فدلَّ قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على أنهم من الذين وُجِدَ منهم الإيمان، ومثل هذا الإيمان قد لا يؤمنُ فيه من اعتراضِ شيطان، وإضلالِ مُضِلٍّ - كقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٠] - فعقَّبَ بقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾، ليؤدِّنَ بأنهم في الرُّسُوخِ فيه كالجبال، لا يُزَلِّزُهُمْ اعْتِرَاضُ مُعْتَرِضٍ وَلَا إِضْلَالُ مُضِلٍّ، كقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٠].

وأما الوجه الثاني: فمرَّجعه إلى الأول في أنَّ الثاني أعلى رتبةً من الأول، لأنه حينئذٍ من باب قوله: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ... وَجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، وقوله: ﴿فَلِكَلِمَةٍ وُحِّلَ رُؤْمَانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]^(٣)، يدلُّ عليه قوله في السؤال: «عَدَمُ الارتباب يجبُ أن يكون مُقَارِنًا للإيمان، لأنه وَصِفُ فيه»، وقال هنا: «وزوالُ الرِّيبِ لَمَّا كَانَ مِلَاكَ الإِيْمَانِ أَفْرَدَ بِالذِّكْرِ»، وكانَ مِنْ حَقِّ الظَّاهِرِ أَنْ

(١) أي: في سورة فُصِّلَتْ، في الآية ٣٠ منها، وفاعل «ذكر» هو الزمخشري، فقد قال في تفسيرها (١٣: ٦٠٣): «﴿ثُمَّ﴾ لتراخي الاستقامة عن الإقرار في المرتبة، وقُضِلَها عليه، لأنَّ الاستقامة لها الشانُ كُلُّهُ».

(٢) أي: في تفسير الآية ٣٠ من سورة فُصِّلَتْ.

(٣) أي: من باب عطفِ الخاصِّ على العام لأهميته أو لنكتةٍ بلاغيةٍ أخرى.

والثاني: أَنَّ الإيقانَ وزوالَ الرِّيبِ لَمَّا كَانَ مِلاكَ الإِيمانِ، أَفْرَدَ بِالذِّكْرِ بَعْدَ تَقَدُّمِ الإِيمانِ؛ تَنْبِيهاً عَلَى مَكَانِهِ، وَعُطِفَ عَلَى الإِيمانِ بِكَلِمَةِ التَّرَاحِي؛ إِشعاراً بِاسْتِقرارِهِ فِي الأَزمِنَةِ المُتَراخِيَةِ المُتَطاوِلَةِ، غَضاً جَدِيداً.

﴿وَجَهْدُوا﴾ بِجُوزِ أَنْ يَكُونَ المُجَاهِدُ مُنَوَّتاً،

يُجاءُ بِالواوِ^(١) - كما فِي المِثالين - وَلَكِنْ عَدَلَ إِلى كَلِمَةِ التَّرَاحِي لِلإِشعارِ بِاسْتِقرارِهِ غَضاً طَرِيّاً مَعَ طُولِ الزَّمانِ، ما اعْتَرَضَهُ شَيْطانٌ، ولا اعْتَرَاهُ مُضِلٌّ^(٢).

والفَرْقُ بَيْنَ الاسْتِمْرارِينِ هُوَ أَنَّ الاسْتِمْرارَ - عَلَى الأَوَّلِ - اسْتِمْرارُ المِجموعِ، نَحْوُ: ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٠]، أَي: اسْتَمَرَّ لِإِيمانِهِمْ مَعَ عَدَمِ الأَرْتِبابِ، وَعَلَى الثَّانِي: الاسْتِمْرارُ مُعْتَبَرٌ فِي الجِزْءِ الأَخِيرِ، وَلِلذَلِكَ قال: «غَضاً طَرِيّاً»، وَإِذا كانَ عَدَمُ الأَرْتِبابِ - كما قالَ فِي السُّؤالِ - «مُقارِناً لِلإِيمانِ، لِأنَّهُ وَصَفَ فِيهِ»، كَيْفَ يُتَصَوَّرُ تَرَاحِيهِ عَنِ الإِيمانِ بِحَسَبِ الزَّمانِ حَقِيقَةً؟!

قوله: (بِجُوزِ أَنْ يَكُونَ المُجَاهِدُ مُنَوَّتاً): «المُجاهد»: بِفِتحِ الهاءِ. اعْلَمْ أَنَّ هاهنا أَلْفاظاً ثَلاتَةَ: أَحدها: ﴿وَجَهْدُوا﴾، وَهُوَ مُطْلَقٌ بِجُوزِ أَنْ يُقْصَدَ بِهِ العُمومُ؛ لِيتناولَ جَمِيعَ ما يَصِحُّ إِطلاقُهُ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُتْرَكَ عَلَى إِطلاقِهِ، فلا يُنَوَّى لَهُ المُجاهدُ؛ لِئَمَّا أَنَّهُم يُوجِدُونَ تِلْكَ الحَقِيقَةَ^(٣)، وَيَسْتَفْرِغُونَ وَسْعَهُمْ وَجُهْدَهُمْ عَها.

وثانِيها: قوله: ﴿وَأَنْفُسِهِمْ﴾، وَقَدْ عُلِّقَ بِهِ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وَهُوَ أَيْضاً يَحْتَمِلُ العَزْوَ، وَأَنْ يُقْصَدَ بِهِ العُمومُ فِي العِباداتِ، لِأَنَّها كُلهَا فِي سَبِيلِهِ وَجِهَتِهِ.

(١) أَي: كانَ الظاهرُ أَنْ يُقالَ: «ولم يرتابوا»، كما فِي آيةِ سورَةِ البقرةِ وآيةِ سورَةِ الرِّحْمَنِ، وَلَكِنَّهُ قالَ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾.

(٢) من قوله: «قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾، وأما الوجه الثاني» إلى هنا، سقط من (ط).

(٣) قال العلامة السكاكي في «مفتاح العلوم» ص ٢٢٨: «وأما الحالة المقتضية لترك المفعول فهو القصد إلى التعميم والامتناع على أن يقصره السامع على ما يذكر معه دون غيره مع الاختصار، وهو أحد أنواع سحر الكلام؛ حيث يتوصل بتقليل اللفظ على تكثير المعنى، كقولهم في باب المبالغة: فلان يعطي ويمنع، ويصل ويقطع، ويبني ويهدم، أو القصد إلى نفس الفعل، بتزليل المتعدّي منزلة اللازم، نحو: فلان يعطي ويمنع؛ على معنى: يفعل الإيعاء ويوجد هذه الحقيقة».

وهو العَدُوُّ المُحَارِبُ أو الشَّيْطَانُ أو الهوى، وأن يكون «جاهدًا» مُبَالِغَةً في: جَهْدٍ. ويجوزُ أن يُرادَ بالمُجاهدَةِ بالنفس: العَزْوُ، وأن يَتَنَاوَلَ العِبَادَاتِ بِأَجْمَعِهَا، وبالمُجاهدَةِ بالمال: نَحْوُ ما صَنَعَ عُمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في جَيْشِ العُسْرَةِ، وأن يَتَنَاوَلَ الرِّكَوَاتِ وَكُلَّ ما يَتَعَلَّقُ بِالمالِ مِنْ أَعْمَالِ البِرِّ التي يَتَحَامَلُ فيها الرَّجُلُ على مالِهِ لِوَجْهِ اللهِ.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ الذين صَدَقُوا في قولهم: آمنا، ولم يكذبوا،.....

وثالثها: قوله: ﴿بِأَمْوَالِهِمْ﴾، وحُكْمُهُ حُكْمُ «أَنْفُسِهِمْ». وقد اعتَبَرَ المُصَنِّفُ كُلَّ ذلكِ في

تقريره.

فإن قلت: في التنزيل: ﴿بِأَمْوَالِهِمْ﴾ مُقَدِّمٌ على «أَنْفُسِهِمْ»، فليَمَّ خالف؟ قلت: ليؤدِّنُ بأنَّ المُجاهدَةَ بالنفسِ أعلى رُتَبَةً مِنَ المُجاهدَةِ بالمالِ وحده، وأصلُّ في الاعتبار، وإنما قُدِّمَ في التنزيلِ تعريضاً بالإنسانِ وحرصه على جَمْعِ المالِ، فإنَّ الحريصَ يَبْذُلُ مُهْجَتَهُ^(١) في تحصيلِ المالِ، وأنَّ المَالَ شقيقُ الرُّوحِ، وهو العِيَارُ في الإخلاصِ، لأنَّ المُنافِقَ قد يَغْزُو لِلأغراضِ^(٢)، ولكن لا يَتَسَهَّلُ له بَدَلُ المَالِ.

قوله: (نَحْوُ ما صَنَعَ عُمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في جَيْشِ العُسْرَةِ): روى الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ في «مُسْنَدِهِ»^(٣) عن عبد الرحمن بن سَمُرَةَ قال: «جاءَ عُمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى النبيِّ ﷺ بِالْفِ دِينَارٍ في ثوبه، حينَ جَهَّزَ جَيْشَ العُسْرَةِ، فَصَبَّهَا في حَجَرٍ»^(٤) النبيِّ ﷺ، فَجَعَلَ يَقْلِبُهَا بيده، وقال: ما صَرَّ ابنَ عَفَّانَ ما عَمِلَ بعدَ اليومِ، يُرَدِّدُها مراراً».

قوله: (يَتَحَامَلُ فيها): في «النهاية»: «تَحَامَلْتُ الشَّيْءَ: تَكَلَّفْتُهُ على مَشَقَّةٍ».

(١) المَهْجَةُ: الدَّمُ أو دَمُ القَلْبِ، والرُّوحُ. «القاموس المحيط» للفيروزآبادي، مادة (مهج).

(٢) أي: لأغراضِ نَفْسِهِ وحاجاته، من طلبِ غَنِيمةٍ، أو شُهرةٍ وسُمعةٍ، أو ثارٍ، أو غير ذلك.

(٣) برقم (٢٠٦٣٠). وأخرجه أيضاً الترمذي (٣٧٠١).

(٤) حَجَرُ الإنسانِ - بالفتح، وقد يُكسَرُ -: حِضْنُهُ. «المصباح المنير» لِنَفْيُوسِي. مادة (حجر).

كما كَذَبَ أعرابُ بني أسد، أو: هم الذين إيمانهم إيمانُ صدقٍ وإيمانُ حقٍّ وجدُّ وثبات.
 ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [١٦]

يُقال: ما عَلِمْتُ بقدومك، أي: ما شَعَرْتُ به ولا أَحَطْتُ به، ومنه قوله:
 ﴿أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾، وفيه تجهيلٌ لهم.

[﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِصِيرُورَاتِهِمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٧-١٨﴾]
 يُقال: مَنْ عَلَيْهِ بَيِّدُ أسداها إليه، كقولك: أنعمَ عليه، وأفضَلُ عليه.....

قوله: (أو: هم الذين إيمانهم إيمانُ صدقٍ): يعني: مِنَ الجائز أن يُحْمَلَ الكلامُ على مذهب مَنْ يجعلُ الضميرَ^(١) فضلاً، ولا يرى له محلاً، فيُقيدُ الاختصاصَ وأن هؤلاء لم يكذبوا كما كَذَبَ أعرابُ بني أسد، يعني: في قولهم: «أمتنا»، أو على قول مَنْ يرى له محلاً، فيُقيدُ تقوي الحكم، وأنهم آمنوا إيمانَ صدقٍ وجدُّ وثبات.

والأولُ أوجهٌ لِمَا سَبَقَ أن قوله: ﴿أَوْلَيْتِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ تعريض^(٢)، وأنه هو المنبئُ على أن قوله: ﴿لَمْ تَزِمْنَا﴾ وُضِعَ موضعَ «كذبتم».

قوله: (وفيه تجهيلٌ لهم): عن بعضهم: أي: أتجعلون اللهَ مُحيطاً بدينكم، فيَعْلَمُ ظاهره وباطنه وتفصيله، وفيه تَهَكُّمٌ بهم، ولا يكونُ معناه: أتعلّمون اللهَ دينكم^(٣)، لأنَّ معنى ذلك: أتجعلون اللهَ عالماً بعد الجهل. يُريد: أن الباءَ في ﴿أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ ليست بزائدة، بل هي لتضمينِ العلمِ معنى الإحاطة.

(١) وهو ضميرُ الغائب «هو».

(٢) تحرّف في (ح) و(ف) إلى: «حريص».

(٣) في الأصول الخطية: «بدينكم»، وأسقطت منه الباء بحسب السِّياق.

وَالْمِنَّةُ: النِّعْمَةُ التي لَا يَسْتَيْبُ مُسْئِدِيهَا. مَنْ يُزِيلُهَا إِلَيْهِ، وَاشْتِقَاقُهَا مِنْ «الْمَنْ» الَّذِي هُوَ الْقَطْعُ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُسْئِدِيهَا إِلَيْهِ لِيَقْطَعَ بِهَا حَاجَتَهُ لَا غَيْرَ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْمَدَ لِطَلَبِ مَثُوبَةٍ، ثُمَّ يُقَالُ: مَنْ عَلَيْهِ صُنْعُهُ، إِذَا اعْتَدَّ عَلَيْهِ مِنَّةً وَإِنْعَامًا.

قوله: (مُسْئِدِيهَا): النهاية: «في الحديث: «مَنْ أَسْدَىٰ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافَتْوهُ»، أَسْدَىٰ^(١) وَأَوْلَىٰ وَأَعْطَىٰ: بِمَعْنَى: يُقَالُ: أَسْدَيْتُ إِلَيْهِ مَعْرُوفًا أَسْدَىٰ إِسْدَاءً».

قوله: (مَنْ يُزِيلُهَا إِلَيْهِ): النهاية: «في الحديث: «مَنْ أَزَلَّتْ إِلَيْهِ نِعْمَةٌ فَلْيَشْكُرْهَا»^(٢)، أَي: أَسْدَيْتُ إِلَيْهِ وَأَعْطَيْتُهَا، وَأَصْلُهَا مِنَ الزَّلِيلِ، وَهُوَ انْتِقَالُ الْجِسْمِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، فَاسْتَعِيرَ لِانْتِقَالِ النِّعْمَةِ مِنَ الْمُنْعِمِ إِلَى الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ، يُقَالُ: زَلَّتْ مِنْهُ نِعْمَةٌ، وَأَزَلَّهَا إِلَيْهِ».

قوله: (وَاشْتِقَاقُهَا مِنَ السَّمَنِ): الرَّاعِبُ: «السَّمَنُ: مَا يُوزَنُ بِهِ، وَالْمِنَّةُ: النِّعْمَةُ الثَّقِيلَةُ، وَذَلِكَ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: بِالْفِعْلِ، فَيُقَالُ: مَنْ عَلَيْهِ؛ إِذَا أَثْقَلَهُ بِالنِّعْمَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ١١]، وَذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى. وَالثَّانِي: بِالْقَوْلِ: وَذَلِكَ مُسْتَبَحٌّ فِيمَا بَيْنَ النَّاسِ إِلَّا عِنْدَ كُفْرَانِ النِّعْمَةِ، قِيلَ: وَإِذَا كُفِّرَتِ النِّعْمَةُ حَسَنَتِ الْمِنَّةُ.

وقوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قَلَّ لَاتَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكَ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكَ﴾: فَالْمِنَّةُ مِنْهُمْ بِالْقَوْلِ، وَمِنَّةُ اللَّهِ عَلَيْهِمُ بِالْفِعْلِ، وَهُوَ هِدَايَتُهُ إِيَّاهُمْ كَمَا ذَكَرَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: قِيلَ: غَيْرُ مُعْدُودٍ^(٣)، كَمَا قَالَ: ﴿بِقَعْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَرُ: ١٠]، وَقِيلَ: غَيْرُ مَقْطُوعٍ وَلَا مَنْقُوصٍ.

ومنه: السَّمُونُ؛ لِلْمِنَّةِ^(٤)، لِأَنَّهَا تُنْقِصُ الْعَدَدَ، وَتَقْطَعُ الْحَدَّ، وَقِيلَ: السَّمِنَةُ بِالْقَوْلِ مِنْ

(١) قوله: «إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافَتْوهُ، أَسْدَىٰ»: سَقَطَ مِنْ (ح) وَ(ف).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ» (٩١١٥) عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَيْفِيٍّ مَرْسَلًا.

وَوَصَلَهُ الْقُضَاعِيُّ فِي «مُسْنَدِ الشَّهَابِ» (٣٧٦) عَنْ ابْنِ صَيْفِيٍّ، عَنْ ابْنِ عَمْرِو مَرْفُوعًا.

(٣) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةُ: «قِيلَ: مَعْتَدُ بِهِ»، وَالْمُنْبَتُّ مِنْ «مَفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ» لِلرَّاعِبِ، مَادَّةُ (مَنْ).

(٤) أَي: الْمَوْتُ.

وسِيَاقُ هَذِهِ الْآيَةِ فِيهِ لُطْفٌ وَرَشَاقَةٌ، وَذَلِكَ أَنَّ الْكَائِنَ مِنَ الْأَعْرَابِ قَدْ سَمَّاهُ اللَّهُ إِسْلَامًا، وَنَفَى أَنْ يَكُونَ - كَمَا زَعَمُوا - إِيْمَانًا، فَلَمَّا مَنُّوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا كَانَ مِنْهُمْ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِرَسُولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ يَعْتَدُونَ عَلَيْكَ بِمَا لَيْسَ جَدِيرًا بِالْإِعْتِدَادِ بِهِ مِنْ حَدِيثِهِمُ الَّذِي حَقُّ تَسْمِيَتِهِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: «إِسْلَامٌ»، فَقُلْ لَهُمْ: لَا تَعْتَدُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ، أَي: حَدِيثِكُمُ الْمُسَمَّى «إِسْلَامًا» عِنْدِي لَا «إِيْمَانًا»، ثُمَّ قَالَ: بَلِ اللَّهُ يَعْتَدُ عَلَيْكُمْ أَنْ أَمَدَّكُمْ بِتَوْفِيْقِهِ حَيْثُ هَدَاكُمْ لِلْإِيْمَانِ، عَلَى مَا زَعَمْتُمْ وَأَدْعَيْتُمْ أَنْكُمْ أُرْسِدْتُمْ إِلَيْهِ وَوَقَّعْتُمْ لَهُ، إِنْ صَحَّ زَعْمُكُمْ وَصَدَّقَتْ دَعْوَاكُمْ، إِلَّا أَنْكُمْ تَزْعُمُونَ وَتَدْعُونَ مَا اللَّهُ عَلِيمٌ بِخِلَافِهِ.

وفي إضافة «الإسلام» إليهم،

هذا^(١)، لأنها تقطع النعمة، وتقتضي قطع الشكر^(٢).

قوله: (وسِيَاقُ هَذِهِ الْآيَةِ فِيهِ لُطْفٌ وَرَشَاقَةٌ): وبيانه: أَنَّ الْأَعْرَابَ لَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ، وَأَظْهَرُوا الشَّهَادَةَ، وَكَانُوا يَغْدُونَ وَيَرُوحُونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَيَمْنُونَ عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِمْ: «أَمْنَا»، وَسَاقُوا الْكَلَامَ مَسَاقَ الْإِخْبَارِ عَنِ إِحْدَاثِ الْإِيْمَانِ لِيَكُونَ فِي مَعْرِضِ الْإِمْتِنَانِ، فَأَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَبِيْبَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَنْ يُجِيبَ عَنِ إِحْدَاثِ الْإِيْمَانِ، بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِسُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾، ثُمَّ نَبَّهَ عَلَى مَكَانِ الْإِمْتِنَانِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾، وَأَمَرَهُ أَنْ يُجِيبَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيْمَانِ﴾، فَوَضِعَ مَوْضِعَ: «مَا لَيْسَ جَدِيرًا بِالْإِعْتِدَادِ».

قوله: (إِسْلَامَكُمْ): وَالْإِسْتِثْنَاءُ فِي قَوْلِهِ: «إِلَّا أَنْكُمْ تَزْعُمُونَ» مُنْقَطِعٌ.

قوله: (وفي إضافة «الإسلام» إليهم): يعني: معنى إضافة «الإسلام» إليهم: أَنَّهُ الْإِسْلَامُ الَّذِي تُعْرَفُ وَاشْتَهَرَ مِنْ أَمْثَالِهِمْ، وَمَا يَلِيْقُ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهِمْ. وَمَعْنَى إِيْرَادِ «الْإِيْمَانِ» غَيْرَ مُضَافٍ إِلَيْهِمْ، بَلِ مُحَلَّى بِلَامِ التَّعْرِيفِ: أَنَّهُ الْإِيْمَانُ الْكَامِلُ، وَمَا يُقَالُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الْمُؤَحِّدِينَ: إِنَّهُ إِيْمَانٌ.

(١) أي: مُشْتَقَّةٌ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى.

(٢) «مفردات القرآن» ص ٧٧٨.

وإيراد «الإيمان» غير مُضَاف: ما لا يخفى على المتأمل، وجواب الشرط محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه، تقديره: إن كنتم صادقين في ادّعاءكم الإيمان، فله المنة عليكم.

وقرئ: «إِنْ هَذَاكُمْ» بكسر الهمزة، وفي قراءة ابن مسعود: «إِذْ هَذَاكُمْ».

وقرئ: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء والياء، وهذا بيان لكونهم غير صادقين في دعواهم، يعني: أنه عز وجل يعلم كل مستتر في العالم، ويُبصر كل عمل تعملونه في سرركم وعلانيتكم، لا يخفى عليه منه شيء، فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم، ولا يظهر على صدقكم وكذبكم؟! وذلك أن حاله مع كل معلوم واحدة لا تختلف.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحُجُرَاتِ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ بَعْدَ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَعَصَاهُ».

وقربٌ من هذا البحث ما يقال في قوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ [النور: ٥٣]، أي: الذي يُطلبُ منكم طاعةٌ معروفةٌ فعلاً، أو طاعتكم طاعةٌ معروفةٌ قولاً.

قوله: ﴿قُرئ: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء والياء): ابن كثير: بالياء التحتانية^(١)، والباقون: بالتاء^(٢).

قوله: (ولا يظهر على صدقكم): أي: لا يطلع الله^(٣).

قوله: (أن حاله): الضمير لله عز وجل، والأولى والأقرب إلى الأدب: أن شأنه عز وجل^(٤)، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

تَمَّتِ السُّورَةُ

حَامِداً لِلَّهِ تَعَالَى، وَمُصَلِّياً عَلَى رَسُولِهِ.

* * *

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ٢٠٢، و«حجة القراءات» ص ٦٧٧.

(٢) هذه الفقرة جاءت في (ح) و(ف) قبل فقرة: «قوله: أن حاله»، ووردت في (ط) في هذا الموضع، وهو المناسب لترتيب الكلام في «الكشاف».

(٣) كذا في (ط) و(ف)، وفي (ح): «لا يطلع عليه إلا الله سبحانه وتعالى»، والأول أقرب، لأن الكلام في «الكشاف» و«ارد على الاستفهام التعجبي».

(٤) أي: أن يُعبرَ به «الشأن» في حقه تعالى، دون «الحال»؛ لورود الأول في القرآن الكريم دون الثاني.

سورة ق

مكية، وهي خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿ق﴾ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَوَ دَأْبُ مَنَا وَكُنَّا نُرَابِئًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿١-٣﴾]

الكلام في ﴿ق﴾ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا ﴿نحوه في ﴿ص﴾ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿ص: ١-٢﴾ سواء بسواء، لالتقائهما في أسلوب واحد،

سورة ق

مكية، وهي خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (لالتقائهما في أسلوب واحد): وذلك أن عطف «القرآن» على ﴿ق﴾ ﴿نَحْوُ عَطْفِ ﴿وَالْقُرْآنِ﴾ عَلَى ﴿ص﴾ [ص: ١] في أسلوب التجريد، نحو: مَرَرْتُ بِالرَّجُلِ الْكَرِيمِ وَالنَّسَمَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَ﴿الْمَجِيدِ﴾ هُنَا نَحْوُ ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾، لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالذِّكْرِ الشَّرْفَ وَالشُّهُرَةَ، وَقَوْلُ الْكٰفِرِينَ: ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾، وَتَعَجُّبُهُمْ مِنْ مَجِيءِ مُنذِرٍ مِنْهُمْ وَمِنْ جِنْسِهِمْ: كَانَ مِنْ عِزَّتِهِمْ وَشِقَاقِهِمْ، قَالَ الْمُصَنِّفُ^(١): «كَأَنَّهُ قَالَ: أَقْسَمْتُ بِصَادِ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ إِنَّهُ لَمُعْجِزٌ، ثُمَّ

(١) في تفسير الآيتين ١ و٢ من سورة (ص).

و﴿الْمَجِيدِ﴾: ذُو الْمَجْدِ وَالشَّرْفِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ، وَمَنْ أَحَاطَ عِلْمًا بِمَعَانِيهِ، وَعَمِلَ بِهَا فِيهِ؛ مَجَّدَ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ النَّاسِ،

قال: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ﴾ واستكبارٍ عن الإذعانِ لذلك والاعترافِ بالحق، ﴿وَشَقَاقِي﴾ لله ورسوله. فكذلك المعنى: أقسمتُ بـ﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ إنه لمُعْجِزٌ، ثم قال: بل عَجِبَ الْكُفَّارُ مِنْ أَنْ جَاءَهُمْ بِهَذَا الْكِتَابِ الْمُعْجِزِ وَاحِدٌ مِنْهُمْ، فَتَعَزَّزُوا لِذَلِكَ عَنِ الْإِذْعَانِ لِلْحَقِّ وَشَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ^(١).

الراغب: «بل: هاهنا لتصحيح الأول وإبطال الثاني، أي: ليس امتناعهم من الإيمان بالقرآن أن لا يمجّد للقرآن، ولكن لجهلهم، ونبه بقوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾ على جهلهم، لأنَّ التَّعَجُّبَ مِنَ الشَّيْءِ يَقْتَضِي الْجَهْلَ بِسَبَبِهِ»^(٢).

قوله: (و﴿الْمَجِيدِ﴾: ذُو الْمَجْدِ وَالشَّرْفِ): النهاية: «في أسماء الله تعالى: المجيدُ والماجِدُ، والمَجْدُ في كلامهم: الشَّرْفُ الْوَاسِعُ، وَرَجُلٌ مَاجِدٌ: مِفْضَالٌ كَثِيرٌ الْخَيْرِ شَرِيفٌ، وَالْمَجِيدُ: فَعِيلٌ مِنْهُ لِلْمُبَالَغَةِ، وَقِيلَ: هُوَ الْكَرِيمُ الْفِعَالُ، وَقِيلَ: إِذَا قَارَنَ شَرَفُ الذَّاتِ حُسْنَ الْفِعَالِ سُمِّيَ مَجْدًا».

الراغب: «المَجْدُ: السَّعَةُ فِي الْكَرَمِ وَالْجَلَالَةِ، يُقَالُ: مَجَّدَ يَمَجِّدُ مَجْدًا وَمَجَادَةً، وَأَصْلُ الْمَجْدِ مِنْ قَوْلِهِمْ: مَجَّدَتِ الْإِبِلُ: إِذَا حَصَلَتْ فِي مَرْعَى كَثِيرٍ وَاسِعٍ، وَوُصِفَ الْقُرْآنُ بِالْمَجِيدِ لِكَثْرَةِ مَا يَتَّضِعُ مِنَ الْمَكَارِمِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ، وَالتَّمْجِيدُ مِنَ الْعَبْدِ لِلَّهِ تَعَالَى: بِالْقَوْلِ وَذِكْرِ الصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ، وَمِنْ اللَّهِ لِلْعَبْدِ: بِإِعْطَائِهِ الْفَضْلَ»^(٣).

وقلت: مَنْ اهْتَدَى بِهَيْدِيهِ، وَاعْتَصَمَ بِهِ، وَعَمِلَ بِهَا فِيهِ، وَتَدَبَّرَ مَعَانِيهِ: مَجَّدَ عِنْدَ اللَّهِ، رَوَيْنَا عَنْ مُسْلِمٍ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَالدَّارِمِيِّ^(٤) عَنْ عَامِرِ بْنِ وَائِلَةَ: أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَ نَافِعَ

(١) من قوله: «فكذلك المعنى» إلى هنا، سقط من (ج) و(ف).

(٢) «مفردات القرآن» ص ١٤٢.

(٣) المصدر السابق ص ١٦٠-١٦١.

(٤) مسلم (٨١٧)، وأحمد (٢٣٢)، والدارمي (٣٣٦٥). وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٢١٨).

أو هو بسبب من الله المجيد، فجاز أتصافه بصفته.

قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ إنكارٌ لتعجبهم مما ليس بعجب، وهو أن يُنذِرَهُم بالمخوفِ رجلٌ منهم قد عَرَفُوا وساطته فيهم وعدالته وأمانته، ومَنْ كَانَ عَلَى صِفَتِهِ لم يَكُنْ إِلَّا ناصِحاً لِقَوْمِهِ مُتَرَفِّفاً عليهم، خائفاً أن يَنَالَهُمْ سُوءٌ،

ابن الحارث، وكان استعمله على أهل مكة: مَنْ استعملت على أهل البوادي؟ قال: ابن أزي، قال: ومَنْ ابن أزي؟ قال: مولى من موالينا، قال: استخلفت عليهم مولى؟! قال: إنه قارئ لكتاب الله عالم بالفرائض، قال عمر رضي الله عنه: أما إن نبيكم ﷺ قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين».

وعن الدارمي وابن ماجه^(١) عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أهلين من خلقه، قيل: يا رسول الله، مَنْ هم؟ قال: أهل القرآن». زاد ابن ماجه: «أهل الله وخاصته».

فعلى هذا: وُصِفَ القرآن بالمجيد باعتبار عامِلِهِ^(٢) على الإسناد المجازي، نحو: نهاره صائم^(٣)، أو سُمِّيَ مجيداً لأن المتكلم به مجيد، فوصف بصفة مَنْ هو بسببه على الإسناد المجازي، نحو قوله: ﴿يَسْ * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ٢].

قوله: (أو هو بسبب من الله): قيل: الباء في «بسبب» للملابسة، وكل ما يربط به شيء بشيء أو يجعل متعلقاً به متسبباً إليه: سُمِّيَ سبباً، ومن في «من الله» اتصالية.

قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ﴾: الضمير في ﴿عَجِبُوا﴾ للكافرين، وإن لم يحجر لهم ذكر، فإن قوله: ﴿فَقَالَ الْكٰفِرُونَ﴾ جار مجزئ التفسير.

قوله: (مترففاً عليهم): الأساس: «ذهب مَنْ كان يحفه ويرفه، أي: يضمه ويحبه ويشفق عليه، من: يرف وكده أو حبيه، وبات يرف شفتيها: يرشفها».

(١) الدارمي (٣٣٢٦)، وابن ماجه (٢١٥).

(٢) كذا في (ط)، ولعل الصواب: «حامله»، والله أعلم.

(٣) من قوله: «فعلى هذا وصف القرآن» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

وَيَسْحُلُّ بِهِمْ مَكْرَهُهُ، وَإِذَا عَلِمَ أَنَّ مَخَوفًا أَظْلَمَهُمْ، لَزِمَهُ أَنْ يُنذِرَهُمْ وَيُحَذِّرَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَا هُوَ غَايَةُ الْمَخَافِ وَنَهَايَةُ الْمَحَازِيرِ، وَإِنْكَارٌ لَتَعْجِبِهِمْ مِمَّا أَنْذَرَهُمْ بِهِ مِنَ الْبَعْثِ، مَعَ عَلَيْهِمْ بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَعَلَى اخْتِرَاعِ كُلِّ شَيْءٍ وَإِبْدَاعِهِ، وَإِقْرَارِهِمْ بِالنَّشْأَةِ الْأُولَى، وَمَعَ شَهَادَةِ الْعَقْلِ بِأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْجَزَاءِ.

ثم عَوَّلَ عَلَى أَحَدِ الْإِنْكَارَيْنِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أءَاذَا مِتْنَا﴾، دَلَالَةً عَلَى أَنَّ تَعْجِبَهُمْ مِنَ الْبَعْثِ أَدْخَلَ فِي الْإِسْتِبْعَادِ وَأَحَقُّ بِالْإِنْكَارِ،

قوله: (وَإِنْكَارٌ لَتَعْجِبِهِمْ مِمَّا أَنْذَرَهُمْ): عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «إِنْكَارٌ لَتَعْجِبِهِمْ مِمَّا لَيْسَ بِعَجَبٍ»: أَرَادَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ﴾ دَلٌّ عَلَى مَعْنَيْنِ: عَلَى مَعْنَى الْمُنذِرِ بِهِ، وَهُوَ الْبَعْثُ وَالرَّجْعُ، كَمَا سَيَجِيءُ فِي كَلَامِهِ أَنَّ عَامِلَ الظَّرْفِ «مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْمُنذِرُ مِنَ الْمُنذِرِ بِهِ»، وَهُوَ الْبَعْثُ، وَعَلَى مَنْ قَامَ بِهِ الْإِنْذَارُ، وَهُوَ الرَّسُولُ.

وَلَمَّا كَانَ أَحَدُ الْمُنْكَرَيْنِ - وَهُوَ إِنْكَارُ الْبَعْثِ - أَعْظَمُهُمَا، عَوَّلَ الْكَلَامَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾، فَوَضَعَ ﴿الْكَافِرُونَ﴾ مَوْضِعَ الْمَضْمَرِ؛ إِشْعَاراً بِعِنَادِهِمْ، أَي: هَذَا الَّذِي تُنذِرُ بِهِ مِنَ الْبَعْثِ وَالرَّجْعِ شَيْءٌ عَجِيبٌ، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَهَذَا﴾ إِشَارَةً إِلَى الرَّجْعِ، أَي: الرَّجْعُ الْمَفْهُومُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ﴾، كَمَا تَقَرَّرَ. وَيُؤَيِّدُهُ أَيْضاً قَوْلُهُ بَعْدَ هَذَا: «اسْتِبْعَاداً لِإِنْكَارِهِمْ مَا أَنْذَرُوا بِهِ مِنَ الْبَعْثِ».

ثُمَّ قَرَّرُوا ذَلِكَ مَزِيداً لِلْكَشْفِ وَالْبَيَانِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿أءَاذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا﴾، لِأَنَّ مَعْنَاهُ: أَحِينَ نَمُوتُ وَنُبْلَى نَرْجِعُ. فَحَيْثُ يُدْخِلُ الْوَقْفُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَكُنَّا تُرَابًا﴾ فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ هُوَ الْجَوَابُ، وَيَكُونُ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى؛ رَدّاً لِقَوْلِهِمْ ذَلِكَ.

قَالَ الْقَاضِي: «حَكِي تَعْجِبَهُمْ مُبْهَمًا، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِمَا بَعْدَهُ»^(١)، لِأَنَّهُ أَدْخَلَ فِي الْإِنْكَارِ؛ إِذِ الْأَوَّلِ اسْتِبْعَادَ، وَالثَّانِي اسْتِقْصَارَ لِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ٢٢٣-٢٢٤).

وَوَضَعَ ﴿الْكَافِرُونَ﴾ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ؛ لِلشَّهَادَةِ عَلَى أَنَّهُمْ فِي قَوْلِهِمْ هَذَا مُقَدِّمُونَ عَلَى الْكُفْرِ الْعَظِيمِ.

﴿هَذَا﴾ إِشَارَةٌ إِلَى «الرَّجْعِ»، وَ«إِذَا» مَنْصُوبٌ بِمُضَمَّرٍ، مَعْنَاهُ: أَحِينَ نَمُوتُ وَتَبْلَى نَرْجِعُ؟ ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ مُسْتَبَعْدٌ مُسْتَنَّكِرٌ، كَقَوْلِكَ: هَذَا قَوْلٌ بَعِيدٌ، وَقَدْ أَبْعَدَ فُلَانٌ فِي قَوْلِهِ، وَمَعْنَاهُ: بَعِيدٌ مِنَ الْوَهْمِ وَالْعَادَةِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ «الرَّجْعُ» بِمَعْنَى: الْمَرْجُوعِ، وَهُوَ الْجَوَابُ، وَيَكُونُ مِنَ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى؛ اسْتِبْعَاداً لِإِنْكَارِهِمْ مَا أُذِرُوا بِهِ مِنَ الْبَعْثِ، وَالْوَقْفُ قَبْلَهُ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ حَسَنٌ.

قَوْلُهُ: (أَنْ يَكُونَ «الرَّجْعُ» بِمَعْنَى: الْمَرْجُوعِ): أَي: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى جَوَاباً لِقَوْلِهِمْ وَرَدّاً لِرِغْمِهِمْ: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾، بِمَعْنَى: مَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَاصِلُ كَلَامِهِمْ وَمَأْلَهُ؛ بَعِيدٌ. وَعَنْ بَعْضِهِمْ: قَوْلُهُ: «وَهُوَ الْجَوَابُ»، أَي: الْجَوَابُ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْكُفَّارُ جَوَاباً بَعِيداً، وَالْجَوَابُ هُوَ قَوْلُهُمْ: ﴿أَوَ إِذَا مِتْنَا﴾ فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ جَوَاباً لِقَوْلِ الْمُسْلِمِينَ: إِنَّا نُبْعَثُ وَنَرْجِعُ بَعْدَ الْمَوْتِ. وَفِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: «وَهُوَ الْجَوَابُ»، وَيَكُونُ مِنَ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا ارْتِيَابَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَوَ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً﴾ لَيْسَ مِنَ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، بَلْ هُوَ دَاخِلٌ فِي حَيْزِ قَوْلِهِمْ: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَوَ إِذَا مِتْنَا﴾، وَهُوَ أَحَدُ الْإِنْكَارَيْنِ، كَمَا عَلِمَ مِنْ كَلَامِهِ.

ثُمَّ إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾: إِنْ كَانَ تَبَيَّنَ لِكَلَامِهِمْ لَمْ يَجْزِ الْوَقْفُ عَلَى ﴿تُرَاباً﴾، وَإِنْ كَانَ مِنَ كَلَامِ اللَّهِ جَوَاباً عَنْ قَوْلِهِمْ جَازَ الْوَقْفُ لِاخْتِلَافِ الْقَائِلِينَ.

وَفِي «الْمُرْشِدِ»: «الْوَقْفُ الْكَافِي»: ﴿وَكُنَّا تُرَاباً﴾، وَالتَّهَامُ: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾^(١).

وَقَالَ الرَّجَّاحُ: «جَوَابُ الْقَسَمِ مَحذُوفٌ، يَدُلُّ عَلَيْهِ: ﴿أَوَ إِذَا مِتْنَا﴾، الْمَعْنَى: قِ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ، فَعَجِبُوا، فَقَالُوا: إِذَا مِتْنَا، أَي: أَنْبَعَثُ إِذَا مِتْنَا؟ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْجَوَابُ:

(١) انظر: «المقصد» لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري ص ٧٣٤. وقد تقدّم التعريف بكتاب «المرشد» وتلخيصه «المقصد» في تفسير الآية ٣٤ من سورة التوبة (٧: ٢٣٣) تعليقا.

وَقُرِئَ: «إِذَا مِتْنَا» عَلَى لَفْظِ الْخَبَرِ، وَمَعْنَاهُ: إِذَا مِتْنَا بَعْدَ أَنْ تَرَجَعْنَا، وَالِدَّالُّ عَلَيْهِ ﴿ذَلِكَ رَجَعُ بَعِيدٌ﴾.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا نَاصِبُ الظَّرْفِ إِذَا كَانَ «الرَّجْعُ» بِمَعْنَى: الْمَرْجُوعُ؟ قُلْتَ: مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْمُنْدِرُ مِنَ الْمُنْدَرِ بِهِ، وَهُوَ الْبَعْثُ.

[﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كَنْزٌ حَفِيظٌ﴾ ٤]

﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ رَدٌّ لِمَا تَبَعَادِهِمُ الرَّجْعُ، لِأَنَّ مَنْ لَطَفَ عَلَيْهِ حَتَّى تَغْلُغَلَ إِلَى مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْ أَجْسَادِ الْمَوْتَى، وَتَأْكُلَهُ مِنْ لَحْوِيهِمْ وَعِظَامِهِمْ، كَانَ قَادِرًا عَلَى رَجْعِهِمْ أَحْيَاءً كَمَا كَانُوا. عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجَبُ الذَّنْبِ».....

﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾، أَي: لَقَدْ عَلِمْنَا، وَحَذَفَ اللَّامَ لِأَنَّ مَا قَبْلَهَا عَوَّضَ مِنْهَا، كَمَا قَالَ: ﴿وَالنَّاسِ وَصَحْنَاهَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَّهَا﴾ [الشمس: ١، ٩] (١).

قَوْلُهُ: (فَمَا نَاصِبُ الظَّرْفِ إِذَا كَانَ «الرَّجْعُ» بِمَعْنَى: الْمَرْجُوعُ؟): يَعْنِي: إِذَا كَانَ «الرَّجْعُ» بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ، يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ دَالًّا عَلَى عَامِلِ الظَّرْفِ، لِأَنَّ كِلَيْهِمَا مِنْ كَلَامِ الْقَوْمِ، أَي: أَنْبَعْتُ إِذَا مِتْنَا؟ كَمَا قَدَّرَ الزَّجَّاجُ، وَإِذَا كَانَ بِمَعْنَى: الْمَرْجُوعِ، وَالْمُرَادُ بِهِ جَوَابُهُمْ، وَهُوَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ، كَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ دَالًّا عَلَى الْعَامِلِ؟!

قَوْلُهُ: (عَجَبُ الذَّنْبِ): رَوَيْنَا عَنِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَأَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيِّ (٢) عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ عَجَبُ الذَّنْبِ، مِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». النَّهْيَةُ: «الْعَجَبُ - بِالسُّكُونِ -: الْعَظْمُ الَّذِي فِي أَسْفَلِ الصُّلْبِ، وَهُوَ الْعَسِيبُ مِنَ الدُّوَابِّ».

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥: ٤٢).

(٢) البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥)، وأبو داود (٤٧٤٣)، والنسائي (٢٠٧٧). وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٤٢٦٦).

وعن السُّدِّي: ﴿مَا نَنْقُصُ الْأَرْضَ مِنْهُمْ﴾ ما يموت فيُدفنُ في الأرضِ منهم، ﴿كَتَبَ حَفِيفٌ﴾ محفوظٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ ومن التَّغْيِيرِ، وهو اللَّوْحُ المحفوظ، أو حَافِظٌ لِمَا أودِعَهُ وُكِّتَبَ فيه.

[﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ ٥]

﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾ إضرابٌ أُتْبِعَ الإضرابَ الأول، للدلالة على أنهم جاؤوا بما هو أفضَحُ مِنْ تَعْجِبِهِمْ، وهو التَّكْذِيبُ بالحقِّ الذي هو النُّبُوَّةُ الثَّابِتَةُ بالمُعْجِزَاتِ فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ مِنْ غَيْرِ تَفَكُّرٍ وَلَا تَدَبُّرٍ،

قوله: (بما هو أفضَحُ مِنْ تَعْجِبِهِمْ): أشار إلى أن في الكلام ترقياً مِنَ الأَدْنَى إِلَى الأَعْلَى، وذلك أنه تعالى لَمَّا تَضَمَّنَ قوله: ﴿مُنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ معنى المُنذِرِ به والرسول، وَعَوَّلَ على أحدهما، وَقَدَّمَهُ على الآخر، وَرَدَّهُ أبلغَ رَدِّ، جاء بالآخر، وأضربَ عما أثبتَ مِنْ تَعْجِبِهِمْ بما هو أفضَحُ مِنْ ذلك الإضراب؛ لِكَوْنِهِ أَنْكَرَ مِنَ الأَوَّلِ.

وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ المُرَادَ بـ«الْحَقِّ» كما قال بعده: «الإخبارُ بالبُعْثِ»، فيكون المَضْرَبُ عنه قوله: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾، أي: دَخَّ قولهم ذلك، فإن هاهنا ما هو أفضَحُ منه، وهو تَكْذِيبُهُمُ الحَقَّ الذي ما خُلِقَ السَّماواتُ والأَرْضُ إلا له، وهو جزاءُ المُكَلِّفِينَ على أَعْمَالِهِمْ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ إلى قوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ [يونس: ٤].

ويعضده تعقيبه بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ الخُرُوجُ﴾.

ويجوزُ أَنْ يكونَ المُرَادُ بـ«الْحَقِّ»: القرآن، ويكون المَضْرَبُ عنه ﴿قَدْ أَلْقَيْنَا الْكِتَابَ﴾. وقوله: (في أولِ وَهْلَةٍ): النِّهَايَةُ: «في أولِ شيءٍ، والوَهْلَةُ: السَّمْرَةُ مِنَ الفَرْعِ، أي: لَقِيْتَهُ أَوَّلَ فَرْعَةٍ فَرَعْتَهَا بِلِقَاءِ إنسان»، هذه الوَهْلَةُ مُستفادَةٌ مِنْ كَلِمَةِ ﴿لَمَّا﴾.

﴿فَهْمٌ فِي أَمْرِ مَرْبِيعٍ﴾ مُضْطَرَبٌ - يُقَالُ: مَرَجَ الْخَاتَمُ فِي أَصْبَعِهِ وَجَرَجَ - ، فيقولون تارة: شاعر، وتارة: ساحر، وتارة: كاهن، لا يثبتون على شيء واحد. وقرئ: «لَمَّا جَاءَهُمْ بِكُسْرِ اللَّامِ، و«ما» المصدرية، واللامُ هي التي في قولهم: لخمسٍ خلون، أي: عند مجيئه إياهم. وقيل: «الحق»: القرآن، وقيل: الإخبارُ بالبعث.

[﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ ٦]

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ حين كفروا بالبعث إلى آثارِ قُدرةِ الله في خلقِ العالمِ، ﴿بَنَيْنَاهَا﴾ رَفَعْنَاهَا بِغَيْرِ عَمَدٍ، ﴿مِنْ فُرُوجٍ﴾ من فتوق، يعني: أنها مَلَسَاءٌ سَلِيمَةٌ مِنَ الْعُيُوبِ، لا فَتَقَ فِيهَا وَلَا صَدْعٌ وَلَا خَلَلٌ، كقولهِ: ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

[﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى

لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ ٧-٨]

﴿مَدَدْنَاهَا﴾ دَحَوْنَاهَا، ﴿رَوَاسِيَ﴾ جِبَالًا ثَوَابِتَ لَوْ لَا هِيَ لَتَكْفَأَتْ، ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ من كُلِّ صِنْفٍ ﴿بَهِيجٍ﴾ يُبْتَهَجُ بِهِ حُسْنُهُ.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى﴾ لِنُبْصَرِ بِهِ وَنُذَكَّرَ كُلُّ ﴿عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ رَاجِعٍ إِلَى رَبِّهِ، مُفَكِّرٍ فِي بَدَائِعِ خَلْقِهِ. وقرئ: «تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى» بِالرَّفْعِ، أَي: خَلَقَهَا تَبْصِرَةً.

قوله: (لَتَكْفَأَتْ): النهاية: «كَفَأَتْ الْإِنَاءُ وَأَكْفَأَتْهُ: إِذَا كَبَيْتَهُ، وَإِذَا أَمَلْتَهُ».

قوله: (أي: خَلَقَهَا تَبْصِرَةً): يعني: هي خَبْرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ، وَقَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «النَّصْبُ مَفْعُولٌ لَهُ أَوْ حَالٌ مِنَ الْمَفْعُولِ لَهُ، أَي: تَبْصِيرًا، أَوْ مَصْدَرًا، أَي: بَصَرْنَاهُمْ تَبْصِرَةً»^(١). وَقَالَ الْقَاضِي: «﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى﴾ عِلْتَانِ لِلْأَفْعَالِ الْمَذْكُورَةِ مَعْنَى، وَإِنْ انْتَصَبَا عَنِ الْفِعْلِ الْأَخِيرِ»^(٢).

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٧٣).

(٢) «أنوار التنزيل» لليضاوي (٥: ٢٢٥).

﴿ وَزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [٩-١١]

﴿مَاءٌ مُبَارَكًا﴾ كثير المنافع، ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ وَحَبَّ الزَّرْعِ الذي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُحَصَّدَ، وهو ما يُقَاتُ بِهِ مِنْ نَحْوِ الحِنِطَةِ والشعير وغيرهما.

﴿بَاسِقَاتٍ﴾ طَوَّالًا فِي السَّمَاءِ، وَفِي قِرَاءَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «بَاصِقَاتٍ» بِإِدْالِ السَّيْنِ صَادًا لِأَجْلِ الْقَافِ، ﴿نَضِيدٌ﴾ مَنْضُودٌ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، إِمَّا أَنْ يُرَادَ: كَثْرَةُ الطَّلْعِ وَتَرَاكُمُهُ، أَوْ كَثْرَةُ مَا فِيهِ مِنَ الثَّمَرِ.

﴿رِزْقًا﴾ عَلَى: أَنْبَتْنَاهَا رِزْقًا، لِأَنَّ الْإِنْبَاتَ فِي مَعْنَى الرِّزْقِ، أَوْ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ، أَي: أَنْبَتْنَاهَا لِتَرْزُقَهُمْ، ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ كَمَا حَيَّيْتَ هَذِهِ الْبَلَدَةَ الْمَيِّتَةَ، كَذَلِكَ تُخْرِجُونَ أَحْيَاءَ بَعْدَ مَوْتِكُمْ، وَالْكَافُ فِي مَحَلِّ الرَّفْعِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ.

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيْسِ وَشُعُوبٌ أُخْرَى وَمِمَّا يُرِيدُونَ الْإِخْرَاجَ لِنُوحٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ [١٢-١٤]

أَرَادَ يَفْرَعُونَ: قَوْمَهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿مِنَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ [يونس: ٨٣]، لِأَنَّ الْمَعْطُوفَ عَلَيْهِ «قَوْمُ نُوحٍ»، وَالْمَعْطُوفَاتُ جَمَاعَاتُ.

﴿كُلٌّ﴾ يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهِ: كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَأَنْ يُرَادَ: جَمِيعُهُمْ، لِأَنَّهُ وَحَدَّ الضَّمِيرِ الرَّاجِعِ إِلَيْهِ عَلَى اللَّفْظِ دُونَ الْمَعْنَى، ﴿فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ فَوَجَبَ وَحَلَّ وَعِيدِي، وَهُوَ كَلِمَةُ الْعَذَابِ، وَفِيهِ تَسْلِيَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَتَهْدِيدٌ لَهُمْ.

﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [١٥]

قَوْلُهُ: (وَالْكَافُ فِي مَحَلِّ الرَّفْعِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ): رُوِيَ عَنِ الْمُصَنِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿كَذَلِكَ﴾ الْخَبْرُ، وَهُوَ الظَّاهِرُ، وَلِكُونِهِ مُبْتَدَأٌ وَجْهٌ، وَهُوَ أَنْ يُقَالَ: «ذَلِكَ الْخُرُوجُ» مُبْتَدَأٌ وَخَبْرٌ عَلَى تَأْوِيلِ: أَبُو يُوسُفَ أَبُو حَنِيفَةَ، وَالْكَافُ كـ «مِثْلُ» فِي: مِثْلُ زَيْدٍ أَخُوكَ.

عَيِّي بِالْأَمْرِ: إِذَا لَمْ يَهْتَدِ لِرُجُوعِهِ عَمَلِهِ، وَهَمْزَةُ الْإِنْكَارِ، وَالْمَعْنَى: أَنَا لَمْ نَعِجْزْ - كَمَا عَلِمُوا - عَنِ الْخَلْقِ الْأَوَّلِ، حَتَّى نَعِجْزَ عَنِ الثَّانِي، ثُمَّ قَالَ: هُمْ لَا يُنْكِرُونَ قُدْرَتَنَا عَلَى الْخَلْقِ الْأَوَّلِ، وَاعْتَرَفُوا بِذَلِكَ فِي طَيْبِهِ الْإِعْتِرَافُ بِالْقُدْرَةِ عَلَى الْإِعَادَةِ، ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ﴾ أَي: فِي خَلْطٍ وَشُبْهَةٍ، قَدْ لَبَسَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ وَحَيَّرَهُمْ، وَمِنْهُ قَوْلُ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا حَارَ، إِنَّهُ لَمَلْبُوسٌ عَلَيْكَ، اعْرِفِ الْحَقَّ تَعْرِفْ أَهْلَهُ.

وَلَبَسَ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِمْ: تَسْوِيلُهُ إِلَيْهِمْ أَنَّ إِحْيَاءَ الْمَوْتَى أَمْرٌ خَارِجٌ عَنِ الْعَادَةِ، فَتَرَكَوْا لِذَلِكَ الْقِيَاسَ الصَّحِيحَ: أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى الْإِنْشَاءِ كَانَ عَلَى الْإِعَادَةِ أَقْدَرَ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ نُنَكِّرُ «الْخَلْقَ الْجَدِيدَ»، وَهَلَّا عُرِّفَ كَمَا عُرِّفَ «الْخَلْقَ الْأَوَّلَ»؟ قُلْتَ: قُصِدَ فِي تَنْكِيرِهِ إِلَى: خَلْقٍ جَدِيدٍ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ وَحَالٌ شَدِيدٌ، حَقٌّ مَنْ سَمِعَ بِهِ أَنْ يَهْتَمَّ بِهِ وَيَخَافُ، وَيَبْحَثُ عَنْهُ، وَلَا يَقَعُدُ عَلَى لَبْسٍ فِي مِثْلِهِ.

قَوْلُهُ: (قُصِدَ فِي تَنْكِيرِهِ إِلَى: خَلْقٍ جَدِيدٍ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ): الْإِنْتِصَافُ: «كَلَامُ الزَّمْخَشَرِيِّ فِي هَذَا الْمَقَامِ لَا يَنْتَظِمُ، وَلَعَلَّهُ ضَلَّ فِي النَّسْخِ، وَمُرَادُهُ ثَلَاثَةٌ أَسْتَلَّةٌ: لِمَ عُرِّفَ «الْخَلْقَ الْأَوَّلَ»، وَنَكَّرَ «اللَّبْسَ» وَ«الْخَلْقَ الْجَدِيدَ»؟

وَاعْلَمْ أَنَّهُ يُؤْتَى مَرَّةً بِالتَّنْكِيرِ لِلتَّفْخِيمِ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِبْهَامِ، كَأَنَّهُ أَفْخَمٌ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ مَعْرِفَةً، وَمَرَّةً يُقْصَدُ بِهِ تَقْلِيلُ الْمُنْكَرِ، فَتَنْكِيرُ «اللَّبْسِ» لِلتَّعْظِيمِ، كَأَنَّهُ قَالَ: فِي لَبْسٍ أَيْ لَبْسٍ، وَتَنْكِيرُ «الْخَلْقِ الْجَدِيدِ» لِلتَّقْلِيلِ وَالتَّهْوِينِ لِأَمْرِهِ بِالنُّسْبَةِ إِلَى «الْخَلْقِ الْأَوَّلِ»، أَوْ يَكُونُ لِلتَّفْخِيمِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: هُوَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُلْتَبِسًا عَلَيْهِ، فَلَعَلَّ إِشَارَةَ الزَّمْخَشَرِيِّ إِلَى هَذَا^(١).

وَقُلْتَ: قَدْ سَلَكَ الْمُصَنِّفُ مَسْلَكَ وَعِرَاءَ، لِأَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ دَلٌّ عَلَى أَنَّهُ لَزِمَ مِنْ إِنْكَارِهِمْ الْإِعَادَةَ إِنْكَارُ الْأَمْرِ الْمَقْرَّرِ، وَهُوَ الْعِلْمُ بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ دَلَّ الْإِضْرَابُ عَنْهُ أَنَّ لَيْسَ ذَلِكَ الْإِنْكَارُ مِمَّا يَلْزَمُ مِنْهُ إِنْكَارُ الْخَلْقِ الْأَوَّلِ، لِأَنَّهُ لَبَسٌ مِنَ الشَّيْطَانِ،

(١) «الانتصاف» (٤: ٥-٦) بحاشية «الكشاف».

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْتِسُوْشٍ بِدِفْعِ نَفْسِهِ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَبَلِ الْوَرِيْدِ﴾ [١٦]

الوسوسة: الصَّوْتُ الخفي، ومنها: وَسْوَاسُ الحَلْي، وَسْوَسةُ النَّفْس: ما يَخْطُرُ بِبالِ الإنسانِ وَيَجِسُّ في ضميره من حديثِ النَّفْس، والباءُ مِثْلُها في قولك: صَوَّتَ بكذا وَهَمَسَ به، ويجوزُ أن تكونَ للتَّعدية، والضميرُ للإنسان،

وخلطٌ وحيرةٌ منهم، وكانَ من حَقِّ الظاهر أن يُقال: إنهم لا يُكْرُونَ الخلقَ الأول، بل هُم في لَبْسٍ مِنَ الخلقِ الثاني، فَوَضَعَ مَوْضِعَهُ ما يُقْوِي شُبْهَتَهُم واستيعادَهُم من قوله: «جديد»، ونَكَرَهُ تَنْكِيرَ تعظيمٍ لِيُنْبَهَ على أنه خلقٌ جديدٌ له شأنٌ عظيم، ولذلك قالوا: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مَرْقٍ إِنَّكُمْ لَعِنَى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبا: ٧]، ﴿وَقَالُوا آءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠]، وليثُل هذا ينبغي أن يهْتَمَّ وَيُخَافَ منه وَيُبْحَث.

والحاصل: أن الخلقَ الجديدَ بالنسبةِ إليهم أمرٌ عظيم، وبالنسبةِ إلى الله أسهلٌ وأهون، وكانَ الواجبُ عليهم إزالةَ تلكِ الشُّبهةِ بالقياسِ الصحيح، فهُم ما بَحَثُوا عن ذلك، وداموا على ما كانوا عليه، فَوَقَعُوا في تلكِ الوَرْطَةِ.

وأما قَصِيَّةُ النَّظْمِ: فَإِنَّ الفاءَ في ﴿أَفَمِينًا﴾ عطفُ الجملةِ على جُمْلَةٍ قوله: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ﴾، والهمزةُ دَخَلَتْ بَيْنَ المَعْطُوفِينَ لمزيدِ الإنكارِ، والدليلُ الأول: آفاقي، والثاني: أنْفِيي، كأنه قيل: أفلم ينظروا أنا لم نَعْجِزْ عن خَلْقِ السماواتِ والأرضِ، فَيَعْلَمُوا أَنَّ خَلْقَ أمثالِهِم أسهلٌ على اعتقادِهِم، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١]، ثم قيل: ألم يَعْلَمُوا أَنَا لم نَعْجِزْ عن الخلقِ الأول، وهو الإخراجُ عن العَدَمِ المَحْضِ، ثم قال: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقِ جَدِيدٍ﴾.

قوله: (والباءُ مِثْلُها في قولك: صَوَّتَ بكذا): أي: الباءُ صلة، كما تقول: ينطقُ به^(١)، وفي الكواشي: ونعلمُ ما تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ، والباءُ زائدة.

(١) من قوله: «والباءُ مِثْلُها» إلى هنا، وردت في (ح) و(ف) آخر هذه الفقرة، وهو خطأ.

أي: ما تجعله مُوسوساً، و﴿مَا﴾ مصدرية، لأنهم يقولون: حَدَّثَ نَفْسَهُ بِكَذَا، كما يقولون: حَدَّثَهُ بِهِ نَفْسَهُ، قال:

وَإَكْذِبِ النَّفْسَ إِذَا حَدَّثَهَا

﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ مجاز، والمراد: قُرْبُ عِلْمِهِ مِنْهُ،

قوله: (أي: ما تجعله - يعني: ما تجعل نفسه - مُوسوساً): أي: وَيَعْلَمُ اللَّهُ جَعَلَ النَّفْسَ الْإِنْسَانَ مُوسُوسًا. «ما»: على الأول: موصولة، والضمير في ﴿بِهِ﴾ راجع إلى «ما»، أي: الشيء الذي تُوسوس به نفسه، وعلى الثاني: مصدر، والضمير في ﴿بِهِ﴾ للإنسان. وفي نسخة: «مُوسُوسًا» بفتح الواو، أي: مُوسُوسًا بِهِ، فَحَدَفَ «به».

قوله: (لأنهم يقولون: حَدَّثَ نَفْسَهُ بِكَذَا، كما يقولون: حَدَّثَهُ بِهِ نَفْسَهُ): وهو تعليل لتصحيح القول بأن الضمير للإنسان، فجعل الإنسان مع نفسه - أي: ذاته - شخصين تجري بينهما مكالمة ومحادثة، تارة هو يُحَدِّثُهَا، وأخرى هي تُحَدِّثُهُ.

قال (١) في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩]: «وأن يُرَادَ حَقِيقَةَ الْمُخَادَعَةِ، أي: وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَخْدَعُونَ أَنْفُسَهُمْ حَيْثُ يَمْنُونَهَا الْبَاطِلَ، وَيَكْذِبُونَهَا فِيهَا يُحَدِّثُونَهَا بِهِ، وَأَنْفُسُهُمْ كَذَلِكَ تُحَدِّثُهُمْ بِالْأَمَانِيِّ»، وقال في آخره: «المراد بالأنفس: ذواتهم».

قوله: (وَإَكْذِبِ النَّفْسَ إِذَا حَدَّثَهَا): تمامه:

إِنَّ صِدْقَ النَّفْسِ يُزْرِي بِالْأَمَلِ (٢)

قال الميداني: «المعنى: لا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِأَنَّكَ لَا تَنْظُرُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُبْطِئُ» (٣).

(١) أي: الزمخشري في تفسير الآية المذكورة من سورة البقرة (٢: ١٦٨).

(٢) البيت للبيد بن ربيعة، كما في «ديوانه» ص ١٤١.

(٣) «مجمع الأمثال» للميداني (٢: ١٣٩).

وقال غيره: مثله قول الآخر:

وَإِذَا صَدَقَتِ النَّفْسَ (١) لَمْ تَتْرُكْ لَهَا
أَمْلاً وَتَأْمُلُ مَا اشْتَهَى الْمَكْذُوبُ

وبعدَه (٢):

غَيْرَ أَنْ لَا تَكْذِبَنَّهَا فِي التَّقَى
وَإِخْزَاهَا بِالْبِرِّ لِلَّهِ الْأَجَلُ

وقال الأصمعي: هو مأخوذ من قول لبيد:

وَإِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ شَرًّا فَاتَّئِدْ
وَإِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ خَيْرٍ فَافْعَلِ (٣)

قال الميداني: «سُئِلَ بَشَّارُ: أَيُّ بَيْتٍ قَالَتْهُ الْعَرَبُ أَشْعَرُ؟ قَالَ: إِنَّ تَفْضِيلَ بَيْتٍ وَاحِدٍ عَلَى الشَّعْرِ كُلِّهِ لَشَدِيدٌ، لَكِنْ أَحْسَنَ الشَّاعِرُ فِي قَوْلِهِ:

وَإِذَا كَذَبَ النَّفْسَ إِذَا حَدَّثَتْهَا» (٤).

وقال الآخر:

وَلِلنَّفُوسِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى وَجَلٍ
وَالْمَرْءُ يَبْسُطُهَا وَالذَّهْرُ يَقْبِضُهَا
مِنَ الْمَنِيَّةِ أَمَّا لُتْقَوِّيَهَا
وَالنَّفْسُ تَنْشُرُهَا وَالْمَوْتُ يَطْوِيهَا (٥)

وقيل: الأمل رحمة من الله، ولولا ذلك لَمَا غَرَسَ غَارِسٌ شَجَرًا، وَلَا أَرْضَعَتْ مَرْضِعَةٌ وُلْدًا.

(١) في الأصول الخطية: «نفسك»، وينكر به الوزن.

(٢) أي: بعد بيت لبيد المتقدم، وهو أيضاً في «ديوانه» ص ١٤١.

(٣) لم أقف عليه في «ديوانه»، وعزاه المفضل الضبي في «المفضليات» ص ٣٨٥ إلى عبد قيس بن خفاف.

(٤) «مجمع الأمثال» للميداني (٢: ١٣٩).

(٥) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما في «ديوانه» ص ٢١٠.

وَأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِمَعْلُومِهِ مِنْهُ وَمِنْ أَحْوَالِهِ تَعَلُّقًا لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ خَفِيَّاتِهِ، فَكَأَنَّ ذَاتَهُ قَرِيبَةٌ مِنْهُ، كَمَا يُقَالُ: اللَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَقَدْ جَلَّ عَنِ الْأَمْكِينَةِ، وَ﴿جَلَّ الْوَرِيدُ﴾: مَثَلٌ فِي فَرْطِ الْقُرْبِ، كَقَوْلِهِمْ: هُوَ مِنِّي مَقْعَدَ الْقَابِلَةِ وَمَقْعَدَ الْإِزَارِ، وَقَالَ ذُو الرُّمَّةِ:

وَالْمَوْتُ أَدْنَى لِي مِنَ الْوَرِيدِ

قوله: (وَأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِمَعْلُومِهِ مِنْهُ): الضميرُ في «أَنَّهُ» لِعِلْمِهِ تَعَالَى، وَفِي «مَعْلُومِهِ» اللَّهُ تَعَالَى، وَفِي «مِنْهُ» لِلْإِنْسَانِ^(١).

قوله: (فَكَأَنَّ ذَاتَهُ قَرِيبَةٌ مِنْهُ): قَالَ الْقَاضِي: «أَي: وَنَحْنُ أَعْلَمُ بِحَالِهِ مِنْ كَانَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ ﴿مِنْ جَلَّ الْوَرِيدِ﴾ تَجَوُّزٌ بِقُرْبِ الذَّاتِ لِقُرْبِ الْعِلْمِ، لِأَنَّهُ مُوجِبُهُ»^(٢).

قوله: (هُوَ مِنِّي مَقْعَدَ الْقَابِلَةِ): وَذَلِكَ إِذَا لَصِقَ بِهِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، الشَّيْءُ إِنْ كَانَ بَعِيدًا قَالُوا: هُوَ مِنِّي مَنَاطَ الثَّرْيَاءِ، وَإِنْ كَانَ قَرِيبًا قَالُوا: هُوَ مِنِّي مَقْعَدَ الْقَابِلَةِ وَمَقْعَدَ الْإِزَارِ، وَإِنْ كَانَ وَسَطًا قَالُوا: هُوَ مِنْكَ فَوْقَ الْيَدِ، وَبَسْطَةَ الرُّمْحِ، وَغَلْوَةَ الرَّامِي^(٣)، وَعَدْوَةَ الْفَرَسِ.

قوله: (وَالْمَوْتُ أَدْنَى لِي مِنَ الْوَرِيدِ): قِيلَ: أَوْلَهُ:

هَلْ أَغْدُونَ فِي عَيْشَةٍ رَغِيدِ

وَعَنْ بَعْضِهِمْ: فِي «دِيَوَانِهِ»^(٤).

مَادُونَ وَقَتِ الْأَجْلِ الْمَعْدُودِ نَقْصٌ^(٥) وَلَا فِي الظُّمِّ مِنْ مَزِيدِ

مَوْعُودُ رَبِّ صَادِقِ الْمَوْعُودِ وَاللَّهُ أَدْنَى لِي مِنَ الْوَرِيدِ

وَالْمَوْتُ يَلْقَى أَنْفَسَ الشُّهُودِ

(١) هَذِهِ الْفَقْرَةُ أُخِّرَتْ فِي (ح) وَ(ف) بَعْدَ الَّتِي تَلِيهَا، وَوَرَدَتْ فِي (ط) فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِتَرْتِيبِ الْكَلَامِ فِي «الْكَشَافِ».

(٢) «أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ» لِلْبَيْضَاوِيِّ (٥: ٢٢٦).

(٣) أَي: غَايَةَ رَمِيهِ.

(٤) أَي: فِي «دِيَوَانِ ذِي الرُّمَّةِ»، ص ٨٠، وَهُوَ بِلَفْظِ: «نَقْصٌ وَمَا» بَدَلَ «نَقْصٌ وَلَا»، «الْوَعُودُ» بَدَلَ «الْمَوْعُودِ».

(٥) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئةُ: «انْقِصَ»، وَلَا يَسْتَقِيمُ وَزْنًا وَلَا مَعْنَى.

والحبل: العرق، شُبّه بواحدِ الحبال، ألا ترى إلى قوله:

كَأَنَّ وَرِيدِيهِ رِشَاءَ خُلْبٍ

والوريدان: عِرْقَانِ مُكْتَفَيْنِ لِصَفْحَتَيْ العُنُقِ فِي مُقَدِّمَهُمَا مُتَّصِلَانِ بِالْوَتَيْنِ، يَرِدَانِ مِنَ الرَّأْسِ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: سُمِّيَ «وَرِيداً» لِأَنَّ الرُّوْحَ تَرِدُهُ.

فإن قلت: ما وجهُ إضافةِ «الحبل» إلى «الوريد»، والشيءُ لا يُضَافُ إلى نفسه؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن تكونَ الإضافةُ للبيان، كقولهم: بَعِيرٌ سَانِيَةٌ. والثاني: أن يُراد: حَبْلُ العَاتِقِ، فيُضَافُ إلى الوريد، كما يُضَافُ إلى العاتق؛ لِاجْتِمَاعِهِمَا فِي عَضْوٍ وَاحِدٍ،

الشهود: الحضور، والظَّمء- بالطاء والهمز:- مُدَّةُ الأَجَلِ، والأصل: ما بين الشُّرَيْين.

قوله: (كَأَنَّ وَرِيدِيهِ رِشَاءَ خُلْبٍ): الرِّشَاءُ- بِالمَدِّ- حَبْلُ البَثْرِ، وَالخُلْبُ- بِالتَّسْكِينِ:-

اللَّيْفُ، جَعَلَ «كَأَنَّ» بَعْدَ التَّخْفِيفِ عَامِلَةً، كَمَا كَانَ قَبْلَهُ، وَنَصَبَ «وَرِيدِيهِ».

الراغب: «الوريد: عِرْقٌ يَتَّصِلُ بِالكَبِدِ وَالقَلْبِ، وَفِيهِ مَجَارِي الرُّوْحِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَرَبُّ إِلِيمٍ حَبْلُ الْوَرِيدِ﴾ أي: رُوْحِهِ»^(١).

قوله: (بَعِيرٌ سَانِيَةٌ): وَهِيَ النَّاقَةُ الَّتِي يُسْتَقَى عَلَيْهَا، وَهِيَ النَّاظِحَةُ أَيْضاً، وَقِيلَ فِي المَثَلِ:

«سَيْرُ السَّوَانِي سَفَرٌ»^(٢) لَا يَنْقَطِعُ، وَفِي بَعْضِ النُّسخِ: «بَعِيرٌ سَانِيَةٌ»، وَهِيَ النَّاقَةُ الَّتِي تُسَيَّبُ فِي الجَاهِلِيَّةِ.

قوله: (لِاجْتِمَاعِهِمَا فِي عَضْوٍ وَاحِدٍ): أَي: اجْتِمَاعِ الحَبْلِ وَالوَرِيدِ فِي صَفْحَةِ العُنُقِ، وَذَلِكَ

أَنَّ هَذَا الحَبْلَ هُوَ الَّذِي امْتَدَّ مِنَ العَاتِقِ إِلَى صَفْحَةِ العُنُقِ، فيُضَافُ إِلَى الوَرِيدِ لِاتِّصَالِهِ بِهِ، كَمَا يُضَافُ إِلَى العَاتِقِ.

(١) «مفردات القرآن» ص ٨٦٥.

(٢) تَحَرَّفَ فِي الأَصُولِ الخَطِيَّةُ إِلَى: «سِير»، وَصَوَّبَتْهُ مِنْ «مَجْمَعِ الأَمْثَالِ» لِلْمِيدَانِيِّ (١: ٣٤٢)، وَ«لِسَانِ

العرب» لابن منظور، مادة (سنا).

كما لو قيل: حَبْلُ الْعِلْبَاءِ مَثَلًا.

[﴿إِذْ يَتَلَقَى الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ * مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾]

[١٧-١٨]

﴿إِذْ﴾ منصوبٌ بـ ﴿أَقْرَبُ﴾، وساغَ ذلكَ لأنَّ المعانيَ تعملُ في الظرفِ مُتَقَدِّمَةً ومُتَأَخَّرَةً، والمعنى: أنه لَطِيفٌ يَتَوَصَّلُ عِلْمُهُ إِلَى خَطَرَاتِ النَّفْسِ وما لا شيء أخفى منه، وهو أَقْرَبُ مِنَ الْإِنْسَانِ مِنْ كُلِّ قَرِيبٍ حِينَ يَتَلَقَى الْحَفِيزَانَ مَا يَتَلَفَّظُ بِهِ؛ إِيدَانًا بِأَنَّ اسْتِحْفَاطَ الْمَلَكَيْنِ أَمْرٌ هُوَ غَنِيٌّ عَنْهُ، وَكَيْفَ لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ، وَهُوَ مُطَّلَعٌ عَلَى أَخْفَى الْخَفِيَّاتِ؟ وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِحِكْمَةِ اقْتَضَتْ ذَلِكَ، وَهِيَ مَا فِي كِتَابَةِ الْمَلَكَيْنِ وَحِفْظِهِمَا، وَعَرَضَ صَحَائِفِ الْعَمَلِ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ، وَعِلْمِ الْعَبْدِ بِذَلِكَ مَعَ عِلْمِهِ بِإِحَاطَةِ اللَّهِ بِعَمَلِهِ: مِنْ زِيَادَةِ لُطْفٍ لَهُ فِي الْإِنْتِهَاءِ عَنِ السَّيِّئَاتِ وَالرَّغْبَةِ فِي الْحَسَنَاتِ.

وعن النبي ﷺ: «إِنَّ مَقْعَدَ مَلَكَكَ عَلَى ثُنْيَيْتِكَ، وَلِسَانُكَ قَلَمُهُمَا، وَرَيْقُكَ مِدَادُهُمَا، وَأَنْتَ تَجْرِي فِيمَا لَا يَعْنِيكَ، لَا تَسْتَحِي مِنَ اللَّهِ، وَلَا مِنْهُمَا».....

قوله: (حَبْلُ الْعِلْبَاءِ): النهاية: «العِلباء: عَصَبٌ فِي الْعُنُقِ يَأْخُذُ إِلَى الْكَاهِلِ، وَهِيَ عِلْبَاوَانٌ يَمِينًا وَشِمَالًا، وَمَا بَيْنَهُمَا مَنَبْتُ عُرْفِ الْفَرَسِ»

قوله: (لأنَّ المعانيَ تعملُ في الظرفِ): قيل: إنَّ «أفعلٌ» لا يعملُ في الظاهر، لكنْ فِيهِ مَعْنَى الْفِعْلِ، وَذَلِكَ الْقَدْرُ يَكْفِي فِي أَنْ يَعْمَلَ فِي الظرفِ، فَإِنَّ مَعْنَى قَوْلِهِمْ: «إِنَّهُ لَا يَعْمَلُ»: لَا يَعْمَلُ فِي الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ الظَّاهِرَيْنِ، وَالْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِمْ: «المعاني»: مَا فِيهِ مَعْنَى الْفِعْلِ، كَاسْمِ الْإِشَارَةِ وَالْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ، فَالْحَقَّ اسْمَ التَّفْضِيلِ بِهِمَا لِضَعْفِهِ فِي الْعَمَلِ.

قوله: (إِيدَانًا): مفعولٌ له، ومُعَلَّلُهُ محذوف، أي: قَالَ تَعَالَى ذَلِكَ لِلْإِيدَانِ.

قوله: (ثُنْيَيْتِكَ): وهما السَّنَانِ الْمُتَقَدِّمَانِ.

ويجوزُ أن يكونَ تَلَقَّى المَلَكَيْنِ بياناً للقُرْب، يعني: ونحنُ قَرِيبُونَ منه مُطَّلِعُونَ على أحواله مُهَيِّمُونَ عليه، إذ حَفَظْنَا وَكَتَبْنَا مُوَكَّلُونَ به، والتَلَقَّى: التَلَقَّنُ بالحِفْظِ والكِتَابَةِ. والقَعِيدُ: المُقَاعِدُ، كالجَلِيسِ بمعنى: المُجَالِسِ، وتقديرُه: عن اليمينِ قَعِيدٌ وعن الشمالِ قَعِيدٌ مِنَ المُتَلَقِّيَيْنِ، فَتَرِكَ أَحَدُهُمَا لِدَلَالَةِ الثَّانِي عَلَيْهِ، كقوله:

..... كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيئاً

﴿رَقِيبٌ﴾ مَلَكٌ يَرَقُبُ عَمَلَهُ، ﴿عَتِيدٌ﴾ حَاضِرٌ، وَاخْتَلَفَ فِيهَا يَكْتُبُ المَلَكَانِ: فَقِيلَ: يَكْتُبَانِ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى أُنِينَهُ فِي مَرَضِهِ، وَقِيلَ: لَا يَكْتُبَانِ إِلَّا مَا يُؤَجِّرُ عَلَيْهِ أَوْ يُؤَزِّرُ بِهِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كَاتِبُ الحَسَنَاتِ عَلَى يَمِينِ الرَّجُلِ، وَكَاتِبُ السَّيِّئَاتِ عَلَى يَسَارِ الرَّجُلِ، وَكَاتِبُ الحَسَنَاتِ أَمِينٌ عَلَى كَاتِبِ السَّيِّئَاتِ، فَإِذَا عَمِلَ حَسَنَةً كَتَبَهَا مَلَكُ الِيمِينِ عَشْرًا، وَإِذَا عَمِلَ سَيِّئَةً قَالَ صَاحِبُ الِيمِينِ لِمَلِكِ الشَّمَالِ: دَعُهُ سَبْعَ سَاعَاتٍ.....»

قوله: (ويجوزُ أن يكونَ تَلَقَّى المَلَكَيْنِ بياناً للقُرْب): أي: تعليلاً له، كما قال صاحبُ «التقريب»، فـ«إذ» للتعليل، وقولُه: «ويجوزُ» عَطْفٌ على قَوْلِهِ: «وهو أَقْرَبُ مِنَ الإنسانِ مِنْ كُلِّ قَرِيبٍ، حِينَ يَتَلَقَّى الحَفِيزَانِ».

قوله: (كنتُ منه ووالدي بَرِيئاً): أولُه:

رمانِي بِأَمْرِ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيئاً وَمِنْ أَجْلِ الطَّوِيِّ رَمَانِي^(١)

أي: رمانِي بِأَمْرِ كُنْتُ مِنْهُ وَكَانَ وَالِدِي مِنْهُ بَرِيئاً.

قوله: (أو يُؤَزِّرُ به): رُوي عن المصنّف: أَجْرَه: إِذَا ضَرَبَهُ بِالْأَجْرِ، وَوَزَّرَه: إِذَا ضَرَبَهُ بِالْوَزْرِ، كَمَا يُقَالُ: رَكَبَهُ: إِذَا ضَرَبَهُ بِالرُّكْبَةِ، وَرَأَسَهُ: إِذَا ضَرَبَهُ بِالرَّاسِ.

(١) البيت لابن أحرر أو للأزرق بن طرفة، كما في «لسان العرب» لابن منظور. وانظر «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (١: ٦٦١).

لَعَلَّهُ يُسَبِّحُ أَوْ يُسْتَغْفِرُ»، وقيل: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَجْتَنِبُونَ الْإِنْسَانَ عِنْدَ غَائِطِهِ وَعِنْدَ جَمَاعِهِ.
وَقُرِّي: «مَا يُلْفَظُ» عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ.

[وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ *
وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ
حَدِيدٌ ﴿١٩-٢٢﴾]

لَمَّا ذَكَرَ إِنْكَارَهُمُ الْبَعْثِ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِوَصْفِ قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ، أَعْلَمَهُمْ أَنَّ ...

قوله: (لَمَّا ذَكَرَ إِنْكَارَهُمُ الْبَعْثِ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِوَصْفِ قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ، أَعْلَمَهُمْ): بَيَانٌ
لِنِظْمِ الْآيَةِ، وَأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ مُتَّصِلٌ بِمُفْتَتِحِ السُّورَةِ، وَ«الْإِنْكَارُ»: هُوَ
قَوْلُهُمْ: ﴿أَيُّ ذَا مِتْنَا وَكُنَّا نُرَابًا ذَلِكَ رَجَعُ بَعِيدٌ﴾، وَ«الْوَصْفُ بِالْعِلْمِ»: فِي مَوْضِعَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: قَوْلُهُ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا نَنْقُصُ الْأَرْضَ مِنْهُمْ﴾، أَي: لَا تَخْفَى عَلَيْنَا أَجْزَاؤُهُمُ الْمُتَفَرِّقَةُ
الْمُتَلَاشِئَةُ فِي تُخُومِ الْأَرْضِينَ، رَدًّا لِقَوْلِهِمْ: ﴿أَيُّ ذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَيُّ نَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، وَأَمَّا
قَوْلُهُ: ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ فَتَأْكِيدٌ لَهُ، أَي: عِنْدَنَا تَفَاصِيلُ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ جُزْءًا فَجُزْءًا، شَيْئًا
فَشَيْئًا، نَعْلَمُهُ كَمَا يَعْلَمُ مَنْ يَكُونُ عِنْدَهُ كِتَابٌ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَيَحْفَظُهُ بِتَفَاصِيلِهِ، حَرْفًا حَرْفًا، بَابًا بَابًا؛
تَقْرِيبًا لَكُمْ.

وِثَانِيهَا: قَوْلُهُ: ﴿وَتَعْلَمُ مَا تُوسْوَسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ، وَإِثْبَاتُهُ عَلَى طَرِيقِ يَعْلَمُ مِنْهُ
تَفَاصِيلُ أَفْعَالِ الْمُكَلَّفِ وَأَحْوَالِهِ، كَمَا أَنَّ إِثْبَاتَ الْأُولِ لِتَفَاصِيلِ أَجْزَائِهِ وَأَعْضَائِهِ، وَإِنَّمَا آخِرُ هَذَا
النُّوعِ مِنَ الْعِلْمِ لِيَتَخَلَّصَ مِنْهُ إِلَى أَحْوَالِ انْتِقَالِهِ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ إِلَى الْأُخْرَى.

وَأَمَّا إِثْبَاتُ الْقُدْرَةِ: فَكَمَا سَبَقَ عَلَى نَوْعَيْنِ: آفَاقِيٍّ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا
إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾، أَوْ أَنْفُسِيٍّ، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾، وَقَدْ سَبَقَ مِرَارًا
أَنَّ إِثْبَاتَ الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ إِنَّمَا يَتِمُّ وَيَتَمَشَّى إِذَا ثَبِتَ أَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِكُلِّ الْمَعْلُومَاتِ، وَقَادِرٌ عَلَى
كُلِّ الْمَقْدُورَاتِ، وَيُخْبِرُ عَنْهُ الصَّادِقُ. مَا أَحْسَنَ هَذَا النِّظْمَ.

ما أنكروهُ وَجَحَدُوهُ هم لا قوهُ عن قريبٍ عندَ مَوْتِهِمْ وعندَ قيامِ الساعةِ، وَنَبَّهَ على اقْتِرَابِ ذلكَ بأنَّ عَبَّرَ عنه بلفظِ الماضي، وهو قوله: ﴿وَجَاءَتِ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾.

و﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾: شِدَّتُهُ الذَاهِبَةُ بالعَقْلِ، والبَاءُ فِي ﴿بِالْحَقِّ﴾ لِلتَّعْدِيَةِ، يعني: وَأَحْضَرَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ الَّذِي أَنْطَقَ اللَّهُ بِهِ كُتْبَهُ، وَبَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ، أَوْ: حَقِيقَةَ الْأَمْرِ وَجَلِيَّةَ الْحَالِ؛ مِنْ سَعَادَةِ الْمَيِّتِ وَشِقَاوَتِهِ. وَقِيلَ: الْحَقُّ: الَّذِي خُلِقَ لَهُ الْإِنْسَانُ؛ أَنْ كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْبَاءُ مِثْلَهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿تَبَّتْ بِالدَّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، أَي: وَجَاءَتْ مُلْتَبِسَةً بِالْحَقِّ، أَي: بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ، أَوْ بِالْحِكْمَةِ وَالغَرَضُ الصَّحِيحُ، كَقَوْلِهِ: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وَقَرَأَ أَبُو بَكْرٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ»؛ عَلَى إِضَافَةِ «السَّكْرَةِ» إِلَى «الْحَقِّ»، وَالدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّهَا السَّكْرَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَى الْإِنْسَانِ وَأَوْجِبَتْ لَهُ، وَأَنَّهَا حِكْمَةٌ، وَالبَاءُ لِلتَّعْدِيَةِ؛ لِأَنَّهَا سَبَبٌ.....

قَوْلِهِ: (وَنَبَّهَ عَلَى اقْتِرَابِ ذَلِكَ [بأنَّ عَبَّرَ عَنْهُ] بلفظِ الماضي): يعني: إِذَا كَانَ الشَّيْءُ الْمَتَوَقَّعُ قَرِيبَ الْوُقُوعِ، أَوْ أَسْبَابُ وَقُوعِهِ مُتَأَخِّرَةٌ: يُعَدَّلُ فِي الْإِخْبَارِ عَنْهُ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ إِلَى الْمَاضِي؛ دَلَالَةً عَلَى حُصُولِهِ، نَحْوُ قَوْلِكَ: «اشْتَرَيْتُ كَذَا» حَالَ انْعِقَادِ الْأَسْبَابِ، وَحُصُولِ التَّرَاضِي، وَمِنْهُ قَوْلُكَ: مُتَّ.

قَوْلِهِ: (وَالدَّلَالَةُ): عَطْفٌ عَلَى «إِضَافَةِ» عَطْفَ تَفْسِيرٍ وَإِعْلَامَ أَنَّ الْإِضَافَةَ مِنَ إِضَافَةِ الْبَيَانِ.

قَوْلِهِ: (وَالْبَاءُ لِلتَّعْدِيَةِ): أَي: الْبَاءُ فِي «بِالْمَوْتِ» فِي قِرَاءَةِ «سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ» مُتَّصِلٌ بِ«جَاءَتْ»، وَهِيَ إِمَّا سَبَبِيَّةٌ، لِأَنَّ جَمِيَّةَ هَذِهِ السَّكْرَةِ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِلْإِنْسَانِ حِكْمَةٌ

زُهوقِ الرُّوحِ لِشِدَّتِهَا، أو لَأَنَّ السَّمَوْتَ يَعْقُبُهَا، فَكَأَنَّمَا جَاءَتْ بِهِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: جَاءَتْ وَمَعَهَا الْمَوْتُ.

قيل: سَكْرَةُ الْحَقِّ: سَكْرَةُ اللَّهِ، أُضِيفَتْ إِلَيْهِ تَقْضِيْعاً لِلسَّانِهَا وَتَهْوِيلاً. وَقُرِئَ: «سَكْرَاتُ الْمَوْتِ».

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى «الموت» والخطاب للإنسان في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ على طريق الالتفات، أو إلى «الحق» والخطاب للفاجر، ﴿مُحَمَّدٌ﴾ تَنْفِرُ وَتَهْرَبُ، وَعَنْ بَعْضِهِمْ: أَنَّهُ سَأَلَ زَيْدَ بْنَ أَسْلَمَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: الْخِطَابُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَحَكَاهُ لِصَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا سِنَّ عَالِيَةً، وَلَا لِسَانَ فَصِيحًا،

لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ سَبَبًا لَزُهوقِ الرُّوحِ، أو لَا تَكُونَ سَبَبًا، لَكِنْ هَذِهِ السَّكْرَةُ لَمَّا تَرْتَبَّ عَلَيْهَا الْمَوْتُ كَانَتْ كَأَنَّهَا جَاءَتْ بِالْمَوْتِ.

قوله: (أو إلى «الحق»)، والخطاب للفاجر): يعني: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ إِنْ اتَّصَلَ بِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ هُرِّ فِي لَيْسَ مِنْ خَلْقِي جَدِيدٌ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿كَذَبْتَ قَبْلَهُمْ قَوْمَ نُوحٍ﴾، وَهَمَّ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿أَوَ دَا مَسْنَا وَكُنَّا نُرَابًا ذَلِكَ رَجَعُ بَعِيدٌ﴾: فَالْمُنَاسِبُ أَنْ يَكُونَ الْمَشَارُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ﴾: «الحق»، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «لَمَّا ذَكَرَ إِنْكَارَهُمُ الْبَعْثَ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِوَصْفِ قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ، أَعْلَمَهُمْ أَنَّ مَا أَنْكَرُوهُ وَجَحَدُوهُ هُمْ لَا قُوَّةَ عَنْ قَرِيبٍ» أَي: جَاءَكَ - أَيُّهَا الْفَاجِرُ - الْحَقُّ الَّذِي أَنْكَرْتَهُ.

وَإِنْ اتَّصَلَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾، وَيَكُونُ الْخِطَابُ لِلْجِنْسِ، وَفِيهِمُ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، كَمَا قَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْعَبَّاسِيِّ، فَالْمُنَاسِبُ أَنْ يَكُونَ الْمَشَارُ إِلَيْهِ: «الموت».

وَالِاتِّفَاتُ لَا يُفَارِقُ الْوَجْهَيْنِ، وَالثَّانِي هُوَ الْوَجْهَ؛ لِجِيءِ قَوْلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، وَتَفْصِيلُهُ: ﴿أَلْقِيَ فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عِنْدِي﴾، ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُنْفِقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

قوله: (ما سنُّ عالية): نَفْيٌ لِلصِّفَةِ عَلَى الْمُبَالِغَةِ دُونَ الْمَوْصُوفِ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «وَلَا لِسَانَ فَصِيحًا»، نَحْوُ قَوْلِكَ: مَا عِنْدِي كِتَابٌ يُبَاعُ، تُرِيدُ نَفْيَ الْبَيْعِ وَحَدَّهُ.

ولا معرفة بكلام العرب، هو للكافر. ثم حكاها للحسين بن عبد الله بن عبيد الله ابن عباس، فقال: أخالفهما جميعاً، هو للبسر والفاجر.

﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ على تقدير حذف المضاف، أي: وقت ذلك يوم الوعيد، والإشارة إلى مصدر «نفتح».

﴿سَائِقٌ وَشَيْدٌ﴾ ملكان، أحدهما يسوقه إلى المحشر، والآخر يشهد عليه بعمله، أو ملك واحد جامع بين الأمرين، كأنه قيل: معها ملك يسوقها ويشهد عليها، ومحل ﴿مَعَهَا سَائِقٌ﴾: النصب على الحال من ﴿كُلُّ﴾؛ لتعرفه بالإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة.

قُرئ: «لقد كنت ... عنك غطاءك فبصرك» بالكسر؛ على خطاب النفس، أي: يُقال لها: لقد كنت.

جُعِلَتِ الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله، أو غشاوة غطى بها عينيه، فهو لا يبصر شيئاً، فإذا كان يوم القيامة تيقظ، وزالت عنه الغفلة وغطاؤها، فيبصر ما لم يبصره من الحق، ورجع بصره - الكليل عن الإبصار لغفلته - حديداً لتيقظه.

[﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي﴾ ٢٣]

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ هو الشيطان الذي قيص له في قوله: ﴿نَقِصَّ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ

قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]،

قوله: (لتعرفه بالإضافة): قيل: أصل «كل» أن تُضاف إلى الجمع، كـ «أفعل» التفضيل، وإنما كانت في حكم المعرفة لأنها بإضافتها إلى «النفس»^(١) صارت شاملة لجميع النفوس، فكانه قيل: كل النفوس، فتعين مدلولها، فصارت معرفة.

(١) في (ح) و(ف): «بإضافتها إلى القرين إلى النفس»، وهو خطأ، والمثبت من (ط).

يَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْفَيْتَهُ﴾ [ق: ٢٧]، ﴿هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنَيْكَ﴾ هذا شيءٌ لَدَيَّ وفي مَلَكَتِي عَيْنَيْدٌ لِهَنَمٍ، والمعنى: أَنَّ مَلَكَأَ يَسُوقُهُ، وَآخَرَ يَشْهَدُ عَلَيْهِ، وَشَيْطَانًا مَقْرُونًا بِهِ، يقول: قَدِ اعْتَدْتُهُ لِهَنَمٍ وَهَيَّأْتُهُ لَهَا بِإِغْوَائِي وَإِضْلَالِي.
فإن قلت: كَيْفَ إِعْرَابُ هَذَا الْكَلَامِ؟ قلت: إِنَّ جَعَلْتَ ﴿مَا﴾ موصوفة،

قوله: (يَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْفَيْتَهُ﴾): يعني: الذي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ «الْقَرِينَ» هو الشيطان: هذه الآية، وفيه نَظَرٌ؛ لِأَنَّ الْقَرِينَ الْأَوَّلَ حِينَ قَالَ: هَذَا مَا اعْتَدْتُهُ لِهَنَمٍ، وَهَيَّأْتُهُ لَهَا، بِإِغْوَائِي وَإِضْلَالِي - كَمَا قَالَ - كَيْفَ يَقُولُ: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْفَيْتَهُ﴾؟ وَلِذَلِكَ قَالَ الْوَاحِدِيُّ: «الْقَرِينُ الْأَوَّلُ: الْمَلَكُ الَّذِي كَانَ يَكْتُبُ عَمَلَهُ السَّيِّئَ فِي الدُّنْيَا، يَقُولُ لِرَبِّهِ: وَكَلَّتْنِي بِهِ، وَقَدْ أَحْضَرْتُهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنَيْكَ﴾، يعني: الشَّخْصَ الَّذِي أَتَى بِهِ، وَ«مَا» بِمَعْنَى «مَنْ»، وَالْقَرِينُ الثَّانِي: الشَّيْطَانُ»^(١)، وَلَهُ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ حِينَ رَأَى مَلَكَأَ يَسُوقُ الْكَافِرَ، وَآخَرَ يَشْهَدُ عَلَيْهِ، قَالَ ذَلِكَ الْقَوْلُ، فَلَمَّا سَمِعَ خِطَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَيْفَ فِي هَمِّكُمْ كُلِّ مَنَّا رِ عَيْنَيْدٍ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَدَابِ الشَّدِيدِ﴾ تَبَرَّأَ مِنْهُ وَكَذَّبَ.

قوله: (إِنَّ جَعَلْتَ ﴿مَا﴾ موصوفة): بمعنى: شيء، و﴿عَيْنَيْدٍ﴾ صفةٌ لها أو موصولة، و﴿لَدَىٰ﴾ صَلْتُهَا، و﴿عَيْنَيْدٍ﴾ بَدَلٌ مِنَ الْمَوْصُولَةِ، وَإِلَهَامُهَا جَازٍ إِبْدَالُ النَّكِرَةِ مِنْهَا، قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «هَذَا﴾ مُبْتَدَأٌ، وَفِي ﴿مَا﴾ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا نَكِرَةٌ، وَ﴿عَيْنَيْدٍ﴾ صِفْتُهَا، وَ﴿لَدَىٰ﴾ مَعْمُولٌ ﴿عَيْنَيْدٍ﴾، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿لَدَىٰ﴾ صِفَةً أَيْضًا، فَيَتَعَلَّقُ بِمَحذُوفٍ، وَتَكُونُ ﴿مَا لَدَىٰ﴾ خَبَرَ ﴿هَذَا﴾. وَالثَّانِي: أَنْ تَكُونَ ﴿مَا﴾ مَوْصُولَةً، وَ﴿لَدَىٰ﴾ صَلْتُهَا، وَ﴿عَيْنَيْدٍ﴾ خَبَرَ ﴿مَا﴾، وَالْجُمْلَةُ خَبَرٌ ﴿هَذَا﴾، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ ﴿مَا﴾ بَدَلًا مِنْ ﴿هَذَا﴾، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿عَيْنَيْدٍ﴾ خَبَرَ مُبْتَدَأٍ مَحذُوفٍ، وَيَكُونُ ﴿مَا لَدَىٰ﴾ خَبَرًا عَنْ ﴿هَذَا﴾، أَي: هُوَ عَيْنَيْدٌ، وَلَوْ جَاءَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ لَجَازَ نَصْبُهُ عَلَى الْحَالِ»^(٢).

(١) «الوسيط» للواحدى (٤: ١٦٧).

(٢) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٧٥).

ف﴿عَيْدٌ﴾ صِفَةٌ لها، وإن جَعَلْتَهَا مَوْصُولَةً فهو بَدَلٌ، أو خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ، أو خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ.

[﴿الْفِيَاءُ فِي جَهَمٍ كُلِّ كَفَّارٍ عَيْنِي﴾ * مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدِرٍ مُرِيْبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْفِيَاءُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [٢٦-٢٤]

﴿أَلْفِيَاءٌ﴾ خِطَابٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ السَّابِقِينَ؛ السَّائِقِ وَالشَّهِيدِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خِطَابًا لِلوَاحِدِ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: قَوْلُ الْمُبْرَدِ: أَنْ تَنْبِيَةَ الْفَاعِلِ نُزِلَتْ مَنْزِلَةً تَنْبِيَةَ الْفِعْلِ لِاتِّحَادِهِمْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَلْقِ الْقِ، لِلتَّأْكِيدِ. وَالثَّانِي: أَنَّ الْعَرَبَ أَكْثَرَ مَا يُرَافِقُ ...

فإن قلت: لِمَ لم يَذْكَرْ إِبْدَالُ ﴿عَيْدٌ﴾ عَنِ ﴿مَا﴾ إِذَا كَانَتْ مَوْصُوفَةً؟ قلت: الْمَوْصُولَةُ مَعَ الصَّلَةِ فِي تَأْوِيلِ الْمَفْرَدِ، فَجَازَ إِبْدَالُهُ مِنْهُ، وَلَا كَذَلِكَ الْمَوْصُوفَةُ.

قوله: (فهو بدل): أي: ﴿عَيْدٌ﴾ بَدَلٌ مِنَ الْمَوْصُولِ، قَالَ صَاحِبُ «التَّقْرِيبِ»: «وَلِإِبْهَامِهِ جَازَ إِبْدَالُ النَّكْرَةِ مِنْهُ».

قوله: (أو خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ): كَقَوْلِهِمْ: «الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ»، فَقَوْلُهُمْ: «الْقُرْآنُ» مُبْتَدَأٌ، وَ«كَلَامُ اللَّهِ» خَبَرُهُ، وَ«غَيْرُ مَخْلُوقٍ» خَبَرٌ آخَرَ، لَا أَنْ يَكُونَ «كَلَامُ اللَّهِ» بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ: «الْقُرْآنُ»، وَفِي كَوْنِهَا خَبَرَيْنِ فَائِدَةٌ، لِأَنَّ مَعْنَاهُ: الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ كَمَا يَقُولُهُ الْمُحِقُّونَ، لَا مُخْتَلَقٌ كَمَا يَقُولُهُ الْمُبْطَلُونَ.

قوله: (ويجوزُ أن يكونَ خطاباً للواحد): التَّعْرِيفُ فِي «الوَاحِدِ» لِلْعَهْدِ، وَالْمَعْهُودُ قَوْلُهُ: «أَوْ مَلِكٌ وَاحِدٌ جَامِعٌ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ».

قوله: (ألقى): قِيلَ: وَجْهُهُ أَنَّهُ حَذَفَ الْفِعْلَ الثَّانِي، ثُمَّ أَتَى بِفَاعِلِهِ وَفَاعِلِ الْفِعْلِ الْأَوَّلِ عَلَى صُورَةِ ضَمِيرِ الْاِثْنَيْنِ مُتَّصِلًا بِالْفِعْلِ الْأَوَّلِ.

قوله: (أكثر): مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ مَحذُوفٌ، وَقَوْلُهُ: «اِثْنَيْنِ» مَفْعُولٌ «يُرَافِقُ»، أَي: أَكْثَرَ مُرَافِقَةٍ الرَّجُلِ اِثْنَيْنِ، حَاصِلٌ هَذَا عَلَى الْكُوفِيِّ، أَمَا الْمَذْهَبُ السَّدِيدُ الْبَصْرِيُّ: فَ«اِثْنَيْنِ» حَالٌ سَدَّ مَسَدَّ الْخَبَرِ، أَي: أَكْثَرَ مُرَافِقَةِ الرَّجُلِ حَاصِلٌ إِذَا كَانَا اِثْنَيْنِ، وَالْجُمْلَةُ خَبَرٌ «أَنَّ».

الرجل منهم اثنين، فكثُرَ على ألسنتهم أن يقولوا: خَلِيلِي وصَاحِبِي، وقفا وأَسْعِدَا، حتى خاطبوا الواحدَ خطابَ الاثنين. عن الحجاج أنه كان يقول: يا حَرَسِيّ اضربا عُنُقَهُ.

وقرأ الحسن: «الْقَيْن» بالنون الخفيفة، ويجوز أن تكون الألف في «أَلْيَا» بدلاً من النون؛ إجراءً للوصلِ مجرى الوقف.

﴿عَيْنِدْ﴾ مُعَايِدِ مُجَانِبٍ لِلْحَقِّ مُعَايِدِ لِأَهْلِهِ.

﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ﴾ كثير المنع للمال على حقوقه، جعل ذلك عادة له لا يبدل منه شيئاً قط، أو مناعٍ لجنس الخير أن يصل إلى أهله يحول بينه وبينهم. قيل: نزلت في الوليد ابن المغيرة، كان يمنع بني أخيه من الإسلام، وكان يقول: مَنْ دَخَلَ مِنْكُمْ فِيهِ لَمْ أَنْفَعُهُ بِخَيْرٍ مَا عِشْتُ، ﴿مُعْتَدِرٌ﴾ ظالم مُتَخَطِّطٌ لِلْحَقِّ، ﴿مُرِيْبٌ﴾ شاكٌّ في الله وفي دينه.

﴿الَّذِي جَعَلَ﴾ مُبْتَدَأٌ مُضْمَنٌ مَعْنَى الشَّرْطِ، ولذلك أُجِيبَ بالفاء، ويجوز أن يكونَ ﴿الَّذِي جَعَلَ﴾.....

قوله: (خاطبوا الواحدَ خطابَ الاثنين): كما في قوله:

فإن تزجراني - يا ابن عَفَانَ - أنزجر
وإن تدعاني أحمر عَرَضاً مُنْعَاً^(١)

قوله: (يا حَرَسِيّ): الحَرَسُ - بفتح الحاء - بفتح الحاء: حرسُ السُلطان، وهم الحراس، الواحد: حَرَسِيّ، لأنه صار اسمَ جنس، فُنِسِبَ إليه، ولا تقول: حارس، إلا أن تذهب به إلى معنى الحراسة دون الجنس، ذكر في «الصَّحاح». قيل: هذا يدلُّ على أن الحجاج أطلقه على الواحد، لأنه صار اسمَ جنس، ثم ثنَّاه، فقال: يا حَرَسِيّ اضربا، على لفظِ التثنية المُضَافَةِ إلى ياءِ المُتَكَلِّمِ عند النداء، وفيه بحث.

(١) البيتُ لسُوَيْدِ بْنِ كُرَاعِ العُكْلِيِّ، كما في «لسان العرب» لابن منظور، مادة (جزز).

منصوباً بدلاً من ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾، ويكون ﴿فَأَلْفِيَا﴾ تكريراً للتوكيد.

[﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْفَيْنَاهُ. وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ٢٧]

فإن قلت: لِمَ أُخْلِيَتْ هذه الجملة عن الواو، وأدخِلَتْ على الأولى؟ قلت: لأنها استؤنفت كما تُستأنفُ الجملُ الواقعةُ في حِكَايَةِ التَّقَاوُلِ، كما رأيتُ في حِكَايَةِ المَقَاوِلَةِ بين موسى وفرعون. فإن قلت: فأين التَّقَاوُلُ هاهنا؟ قلت: لِمَا قَالَ قَرِينُهُ: ﴿هَذَا مَا لَدَى عَيْدٍ﴾، وتبعه قوله: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْفَيْنَاهُ﴾، وتلاه: ﴿لَا تَخْضَعُوا لَدَى﴾، عَلِمَ أَنْ تَمَّ مَقَاوِلَةَ مِنَ الكَافِرِ، لَكِنَّهَا طَرِحَتْ لِمَا يَدُلُّ عَلَيْهَا، كَأَنَّهُ قَالَ: رَبُّهُ هُوَ أَطْعَانِي، فَقَالَ قَرِينُهُ: رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتَهُ.

وأما الجملة الأولى فواجِبَ عَطْفُهَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى الجَمْعِ بَيْنَ مَعْنَاهَا وَمَعْنَى مَا قَبْلَهَا فِي الحَصُولِ، أعني: مجيء كُلِّ نَفْسٍ مَعَ المَلَكِينَ، وقول قَرِينِهِ مَا قَالَ لَهُ.

﴿مَا أَطْفَيْنَاهُ﴾: ما جعلته طاغياً، وما أوقعتَه في الطُّغْيَانِ، ولكنَّه طغى واختار الصَّلَاةَ عَلَى الهُدَى، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢].

[﴿قَالَ لَا تَخْضَعُوا لَدَى وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَى وَمَا أَنَا بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ٢٨-٢٩]

قوله: (ويكون ﴿فَأَلْفِيَا﴾ تكريراً للتوكيد): نخوه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ [القمر: ٩]، قال (١): «أي: كذبوه تكديباً على عقب تكذيب».

قوله: (في حِكَايَةِ المَقَاوِلَةِ بين موسى وفرعون): أي: في سورة بني إسرائيل، وكذلك في الشعراء.

(١) أي: الزمخشري في تفسير الآية المذكورة من سورة القمر (١٥: ١٢٥).

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا﴾ استئناف، مثل قوله: ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾، كأنَّ قَائِلًا قَالَ: فما إذا قَالَ اللهُ؟ فقيل: قَالَ: لَا تَخْتَصِمُوا. والمعنى: لَا تَخْتَصِمُوا فِي دَارِ الْجَزَاءِ وَمَوْقِفِ الْحِسَابِ، فَلَا فَائِدَةَ فِي اخْتِصَامِكُمْ، وَلَا طَائِلَ تَحْتَهُ، وَقَدْ أَوْعَدْتُمْ بِعَذَابِي عَلَى الطُّغْيَانِ فِي كُتُبِي وَعَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِي، فَمَا تَرَكْتُمْ لَكُمْ حُجَّةَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: لَا تَطْمَعُوا أَنْ أَبَدَّلَ قَوْلِي وَوَعِيدِي، فَأَعْفِيكُمْ عَمَّا أَوْعَدْتُكُمْ بِهِ، ﴿وَمَا أَنَا بِظَلْمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فَأَعَذَّبَ مَنْ لَيْسَ بِمُسْتَوْجِبٍ لِلْعَذَابِ. والباءُ فِي ﴿بِالْوَعِيدِ﴾ مَزِيدَةٌ، مِثْلُهَا فِي ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، أَوْ مُعَدِّيَةٌ؛ عَلَى أَنَّ «قَدَّمَ» مُطَاوَعٌ بِمَعْنَى: تَقَدَّمَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَقَعَ الْفِعْلُ عَلَى جُمْلَةٍ قَوْلُهُ: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلْمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، وَيَكُونُ ﴿بِالْوَعِيدِ﴾ حَالًا، أَي: قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ هَذَا مُلْتَبِسًا بِالْوَعِيدِ مُقْتَرِنًا بِهِ، أَوْ قَدَّمْتُهُ إِلَيْكُمْ مُوَعِدًا لَكُمْ بِهِ.

فإن قلت: إنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ﴾ وَاقِعٌ مَوْقِعَ الْحَالِ مِنْ ﴿لَا تَخْتَصِمُوا﴾، وَالتَّقْدِيمُ بِالْوَعِيدِ فِي الدُّنْيَا، وَالْخُصُومَةُ فِي الْآخِرَةِ، وَاجْتِمَاعُهَا فِي زَمَانٍ وَاحِدٍ وَاجِبٌ؟ قُلْتُ: مَعْنَاهُ: وَلَا تَخْتَصِمُوا وَقَدْ صَحَّ عِنْدَكُمْ أَنِّي قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ، وَصِحَّةُ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

فإن قلت: كَيْفَ قَالَ: ﴿يُظَلِّمُ﴾ عَلَى لَفْظِ الْمُبَالَغَةِ؟ قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ: أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِكَ: هُوَ ظَالِمٌ لِعَبْدِهِ، وَظَلَامٌ لِعَبِيدِهِ. وَأَنْ يُرَادَ: لَوْ عَذَّبْتُ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ الْعَذَابَ لَكُنْتُ ظَلَامًا مُفْرِطًا الظُّلْمَ، فَنفَى ذَلِكَ.

قوله: (أَوْ قَدَّمْتُهُ إِلَيْكُمْ مُوَعِدًا لَكُمْ بِهِ): فعلى هذا ﴿بِالْوَعِيدِ﴾ حَالٌ مِنَ الْفَاعِلِ، وَعَلَى الْأَوَّلِ مِنَ الْمَفْعُولِ.

قوله: (فِيهِ وَجْهَانِ: أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِكَ: هُوَ ظَالِمٌ): وَقَدْ مَرَّ بَيَانُهُ مِرَارًا.

الانْتِصَافُ: «أَرَادَ أَنْ «فَعَالًا» وَرَدَ بِمَعْنَى: فَاعِلٌ، أَوْ أَنَّ الْمُنْسُوبَ فِي الْمُعْتَادِ إِلَى الْمَلُوكِ مِنَ الظُّلْمِ عَلَى حَسَبِ مُلْكِهِمْ؛ إِنَّ عَظِيمًا فَعَظِيمٌ، وَإِنْ حَقِيرًا فَحَقِيرٌ، فَلَمَّا كَانَ مُلْكُ اللهِ عَلَى كُلِّ

[يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾]

قُرِي: ﴿نَقُولُ﴾ بالنون والياء، وعن سعيد بن جبير: «يومَ يقولُ اللهُ لجهنَّمَ»، وعن ابن مسعودٍ والحسن: «يُقال». وانتصابُ «اليوم» بـ«ظلام» أو بمُضمر، نحو: اذْكرُ وأنذِر، ويجوزُ أن يَنْتَصِبَ بـ«نُفِخ»، كأنه قيل: ونُفِخَ في الصُّورِ يومَ نقولُ لجهنَّمَ، وعلى هذا يُشارُ بذلك إلى ﴿يَوْمَ نَقُولُ﴾، ولا يُقدَّرُ حذفُ المُضاف.

شيء، فلو نُسِبَ إليه لكان ظالماً^(١)، والقَدْرِيَّةُ ظَنُّوا أنه لو عاقبَ على ما قضى لكانَ ظالماً لِعَبْدِهِ، فيكونُ ظلاماً لكثرتهم، فهذه الآية تُردُّ عليهم^(٢).

قوله: (قُرِي: ﴿نَقُولُ﴾ بالنون والياء): نافعٌ وأبو بكر: بالياء، والباقون: بالنون^(٣).

قوله: (ويجوزُ أن يَنْتَصِبَ بـ«نُفِخ»): قيل: إذا انتصبَ ﴿يَوْمَ نَقُولُ﴾ بـ«نُفِخ»: يكونُ ﴿ذَلِكَ﴾ - في قوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ﴾ - إشارةً إلى ﴿يَوْمَ نَقُولُ﴾، فلا يحتاجُ إلى تقديرٍ حذفِ المُضاف، لأنَّ المعنى: ذلك اليوم - أي: يومَ نقولُ لجهنَّمَ - هو يومُ الوعيد، فيصحُّ الحملُ عليه من غيرِ التقدير، وأما إذا لم يكن منصوباً بـ«نُفِخ»، ويكونُ قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارةً إلى النُفِخ، فلا يَصِحُّ الحملُ عليه من غيرِ التقدير، ولهذا قال: «أي: وقتُ ذلك يومُ الوعيد^(٤)»، والإشارةُ إلى مصدرِ (نُفِخ)، ولا يُقال: النُفِخُ في الصُّورِ يومَ الوعيد.

(١) كذا في الأصول الخطية، والسياق يقتضي أن يُقال: «لكان ظلاماً»، ولفظُ ابن المنيرِ في «الانتصاف»: «فلما كان ملكُ الله على كل شيءٍ ملكه قدسٌ ذاته عما يتوهمُ مخلول - والعباد بالله - أنه منسوبٌ إليه من ظلم تحت شمول كل موجود».

(٢) «الانتصاف» (٩: ٤) بحاشية «الكشاف».

(٣) انظر: «التيسير» للداني ص ٢٠٢، و«حجة القراءات» ص ٦٧٨.

(٤) زاد هنا في (ح) و(ف): «والإشارةُ إلى الصُّورِ يومَ الوعيد، فيصحُّ الحمل، ولهذا قال: أي: وقت ذلك اليوم الوعيد»، ولم يظهر لي معناه، وليس في (ط)، فلذا لم أثبتُه، والله أعلم.

وسؤال جَهَنَّمَ وجوابها: من باب التَّخْيِيل الذي يُقصدُ به تصوُّيرُ المعنى في القلبِ وتثبيته، وفيه معنيان: أحدهما: أنها تمتلئُ مع اتِّساعِها وتباعُدِ أطرافِها حتى لا يسعها شيء، ولا يُزادُ على امتلائِها، لقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [السَّجدة: ١٣]. والثاني: أنها من السَّعةِ بحيثُ يدخلها مَنْ يدخلها، وفيها موضعٌ للمزيد.

قوله: (وسؤال جَهَنَّمَ وجوابها: من باب التَّخْيِيل): الانتصاف: «تقدَّم إنكارُ لفظِ «التَّخْيِيل» في قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا بِقَضْتُهُ يَوْمَ الْقَيْمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧]، وهاهنا أولى، فإنَّ تلك الآياتِ لا بُدَّ من حملها على المجاز، والمُنكرُ لفظُ التَّخْيِيل الذي استعملَ في الباطل، كقوله: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه: ٦٦]، وهاهنا سؤالُ جَهَنَّمَ وجوابها حقيقة، كما ورد: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ»، و«اشتكتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا»، ولا مانعٌ من ذلك، فقد سَبَّحَ الحصى، وسَلَّمَ الحجرُ على النَّبِيِّ ﷺ، ولو فُتِحَ بابُ المجازِ فيه لانتَّسَعَ الخِزقُ، بخلافِ الآياتِ الواردةِ في الصِّفاتِ»^(١).

وقلت: هذا هو الحقُّ الذي لا محيدَ عنه، روينا عن البخاريِّ ومُسلمٍ والترمذيِّ^(٢) عن أنسٍ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «لا تزالُ جَهَنَّمَ يُلقى فيها، وتقول: هل من مزيد؟ حتى يَصَعَ رَبُّ العَرْشِ - وفي رواية: رَبُّ العِزَّةِ - فيها قَدَمَهُ، فينزوي بعضُها إلى بعض، وتقول: قطِّ قط، بعزَّتِكَ وكَرَمِكَ، ولا يزالُ في الجنةِ فَضْلٌ حتى يُنشئَ اللهُ خَلْقًا، فيسكنُهم فَضْلَ الجنةِ».

وعنهم^(٣) عن أبي هريرة قال: «اختصَّمتِ الجنةُ والنارُ، فقالتِ الجنةُ: يا رب، ما لها لا يدخلها إلا ضعفاءُ الناسِ وسقطُهم، وقالتِ النارُ: أُوثِرْتُ بالمتكبرينَ والمتجبرينَ، فقال للجنة:

(١) «الانتصاف» (٤: ٩-١٠) بحاشية «الكشاف».

(٢) البخاري (٤٨٤٨) و(٦٦٦١)، ومُسلم (٢٨٤٨)، والترمذي (٣٢٧٢).

(٣) في (ط) و(ج): «وعنهم عن الدارمي عن أبي هريرة»، وفي (ف): «وعنهم عن أبي الدرداء عن أبي هريرة»، وفي العبارتين خلل، والحديثُ لم يُخرجه الدارمي. وهو عند البخاري (٧٤٤٩)، ومُسلم (٢٨٤٦)، والترمذي (٢٥٦١).

ويجوز أن يكون ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ استكثاراً للداخلين فيها، واستبداعاً للزيادة عليهم لفرط كثرتهم، أو طلباً للزيادة غيظاً على العصاة. و«المزيد»: إما مصدر كالمحيد والمميد، وإما اسم مفعول كالمبيع.

[﴿وَأَزَلَفَتِ الْجَنَّةُ الْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * آدَخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ * لَمْ يَأْتِ شَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾
[٣٥-٣١]

أنت رحمتي، أرحم بك من أشياء من عبادي، وقال للنار: أنت عذابي أصيب بك من أشياء، ولكل واحدة منكما ملؤها، قال: أما الجنة فإن الله لا يظلم من خلقه أحداً، وأنه ينشئ للنار من يشاء، فيلقون فيها، فتقول: هل من مزيد؟ ويلقون فيها، فتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع قدمه فيها، فتمتلئ، وينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط. وموضع التأويل «القدم» فقط^(١).

قوله: (ويجوز أن يكون): ابتداء تفسير لقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ بناءً على الوجهين السابقين من السعة على الشسر، فقوله: «استكثاراً للداخلين فيها» مفرغ على قوله: «أنها تمتلئ مع أتباعها حتى لا يسعها شيء»، وقوله: «أو طلباً للمزيد» مبني على قوله: «إنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها، وفيها موضع للمزيد»، والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾: إذا كان بمعنى استكثار الداخلين كان في معنى النفي، وهو مشكل؛ لأنه حيثئذ بمعنى الإنكار، والمخاطب الله عز وجل، ولا يلائمه أيضاً معنى الحديث الذي أورذناه.

قوله: (والمميد^(٢)): المحيد والمميد بمعنى، الجوهري: «ماد الشيء يميد مبيداً: تحرك، وماد الرجل: تبختر».

قوله: (وإما اسم مفعول): أي: يقال: هل من يزداد؟ كما يقال: هل من يباع؟

(١) في (ج) و(ف): «وضع التأويل القدم فقط»، ولا يستقيم، والمثبت من (ط).

(٢) في (ج) و(ف): «يكون فالمميد» والمثبت من (ط).

﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ نَصَبٌ عَلَى الظَّرْفِ، أَي: مَكَانًا غَيْرَ بَعِيدٍ، أَوْ عَلَى الحَالِ، وَتَذْكِيرُهُ لِأَنَّهُ عَلَى زِنَةِ المَصْدَرِ، كَالزَّئِيرِ وَالمَصْلِيلِ، وَالمَصَادِرُ يَسْتَوِي فِي الوَصْفِ بِهَا المَذْكَرُ وَالمُؤنَّثُ، أَوْ عَلَى حَذْفِ الموصوفِ، أَي: شَيْئًا غَيْرَ بَعِيدٍ، وَمَعْنَاهُ التَّوَكِيدُ، كَمَا تَقُولُ: هُوَ قَرِيبٌ غَيْرُ بَعِيدٍ، وَعَزِيزٌ غَيْرُ ذَلِيلٍ.

وَقُرِّي: ﴿تُوَعَّدُونَ﴾ بِالتَّاءِ وَاليَاءِ، وَهِيَ جُمْلَةٌ اعْتِرَاضِيَّةٌ، وَ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ بِتَكَرِيرِ الجَارِ، كَقَوْلِهِ: ﴿لِللَّذِينَ.....﴾

قَوْلِهِ: (كَالزَّئِيرِ وَالمَصْلِيلِ): الجَوْهَرِيُّ: «الزَّئِيرُ: صَوْتُ الأَسَدِ فِي صَدْرِهِ، وَقَدْ زَأَرَ يَزَأُرُ زَأْرًا وَزئِيرًا»، وَ«صَلَّ المِسْمَارُ وَغَيْرُهُ يَصِلُّ صَلِيلًا، أَي: صَوَّتَ».

قَوْلِهِ: (أَي: شَيْئًا غَيْرَ بَعِيدٍ، وَمَعْنَاهُ التَّوَكِيدُ): قَالَ صَاحِبُ «الفرائد»: القُرْبُ وَالبُعْدُ أَمْرَانِ نَسْبِيَانِ، قَدْ يَكُونُ الشَّيْءُ قَرِيبًا إِلَى شَيْءٍ، وَبَعِيدًا بِالنَّسْبَةِ إِلَى آخَرَ، فَقَوْلُهُ: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ يُفِيدُ أَنَّ الجَنَّةَ قَرِيبَةٌ لَهُمْ، ثُمَّ لَمْ يَكُنْ لَهَا بُعْدٌ بِوَجْهِ مَا.

وَقَالَ ابْنُ الحَاجِبِ: «يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نَعْنَاءً لِمَصْدَرٍ مَحذُوفٍ، أَي: قُرْبَتْ فِي زَمَنِ غَيْرِ بَعِيدٍ، وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنْهُ بِالمُضِيِّ لِتَحْقِيقِهِ أَوْ لِتَقْرِيْبِهِ، وَالمُرَادُ بِالتَّحْقِيقِ هَاهُنَا كَوْنُهُ حَقًّا لَا بِاطِّلَاءٍ، لَا الوُقُوعُ الحَاصِلُ، وَأَمَّا «أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ» ﴿القمر: ١﴾ وَ«أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ» ﴿الأنبياء: ١﴾: فَهَذَانِ حَاصِلَانِ»^(١).

قَوْلُهُ: (وَعَزِيزٌ غَيْرُ ذَلِيلٍ): رُوِيَ عَنِ المصنِّفِ أَنَّهُ قَالَ: لِأَنَّهُ يَجُوزُ^(٢) أَنْ يَتَنَاوَلَ العَزِيزُ ذُلًّا مِمَّا مِنْ بَعْضِ الوُجُوهِ، إِلَّا أَنَّ الغَالِبَ عَلَيْهِ العِزُّ، فيُقَالُ: «غَيْرُ ذَلِيلٍ» لِيُرَآلَ ذَلِكَ التَّوَهُّمَ، وَذَلِكَ فِي كُلِّ تَأْكِيدٍ.

قَوْلُهُ: (قُرِّيَ ﴿تُوَعَّدُونَ﴾ بِالتَّاءِ وَاليَاءِ): ابْنُ كَثِيرٍ: بِاليَاءِ التَّحْتَانِيَّةِ، وَالباقونَ: بِالتَّاءِ^(٣).

(١) «الأمالي النحوية» لابن الحَاجِبِ (١: ١٢٥-١٢٦).

(٢) فِي الأَصُولِ الخَطِيئَةِ: «لَا يَجُوزُ»، وَحَذَفْتُ «لَا» لِيَسْتَقِيمَ المَعْنَى.

(٣) انظر: «التيسير» للذَّانِي ص ٢٠٢، وَ«حجة القراءات» ص ٦٧٨.

أَسْتَضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ ﴿ [الأعراف: ٧٥]، و﴿ هَذَا ﴾ إشارة إلى الثواب، أو إلى مصدر «أزلفت»، و«الأواب»: الرجاع إلى ذكر الله، و«الحفيظ»: الحافظ لحدوده.

و﴿ مَنْ خَشِيَ ﴾ بَدَلٌ بَعْدَ بَدَلٍ تَابِعٌ لـ «كُلِّ»، ويجوز أن يكون بَدَلًا عَنِ موصوفٍ ﴿أَوَابٍ﴾ و﴿ حَفِيزٍ ﴾، ولا يجوز أن يكون في حُكْمِ ﴿أَوَابٍ﴾ و﴿ حَفِيزٍ ﴾، لأن «مَنْ» لا يُوصَفُ به، ولا يُوصَفُ من بين الموصولات إلا بـ «الذي» وحده، ويجوز أن يكون مُبْتَدَأً خَبْرُهُ: يُقَالُ لَهُمْ: ﴿أَدْخَلُوهَا وَسَلِّمُوا﴾، لأن «مَنْ» في معنى الجمع، ويجوز أن يكون منادى؛ كقولهم: مَنْ لا يَزَالُ مُحْسِنًا أَحْسِنُ إِلَيْهِ، وَحُذِفَ حَرْفُ النَّدَاءِ لِلتَّقْرِيبِ.

﴿بِالْغَيْبِ﴾ حَالٌ مِنَ الْمَفْعُولِ، أَي: خَشِيَهُ وَهُوَ غَائِبٌ لَمْ يَعْرِفْهُ وَكَوْنَهُ مُعَاقِبًا إِلَّا بِطَرِيقِ الْاسْتِدْلَالِ، أَوْ صِفَةً لِمَصْدَرٍ ﴿خَشِيَ﴾، أَي: خَشِيَهُ خَشِيَةً مُلْتَبِسَةً بِالْغَيْبِ، حَيْثُ خَشِيَّ عِقَابَهُ وَهُوَ غَائِبٌ، أَوْ خَشِيَهُ بِسَبَبِ الْغَيْبِ الَّذِي أَوْعَدَهُ بِهِ مِنْ عَذَابِهِ، وَقِيلَ: فِي الْخُلُوةِ حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ.

فإن قلت: كيف قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة؟ قلت: للثناء البليغ على الخاشي، وهو خشيته، مع علمه أنه الواسع الرحمة،

قوله: (ولا يجوز أن يكون في حُكْمِ ﴿أَوَابٍ﴾ و﴿ حَفِيزٍ ﴾): يعني: لو كان في حُكْمِ ﴿أَوَابٍ﴾ و﴿ حَفِيزٍ ﴾، وهما صفتان لموصوفٍ محذوف، لزم أن تكون «مَنْ» صفة، و«مَنْ» لا تكون صفة.

قوله: (للتقريب): أي: لأنه منادى قريب، كما قال في قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [يوسف: ٢٩].

قوله: (للسناء البليغ على الخاشي): أي: وَصَفَهُم بِالْحَزْمِ الشَّدِيدِ، لِأَنَّ صِفَةَ الرَّحْمَانِيَّةِ تَقْتَضِي تَعْلِيْقَ الرَّجَاءِ الْعَظِيمِ بِهَا، وَهَمَّ مَا اغْتَرَّوْا، بَلْ عَلَّقُوا الْخَشْيَةَ بِهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَغْرُنْكُمْ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ [لقمان: ٣٣، وفاطر: ٥]، وَمِنْهُ مَا يُحْكِي أَنَّ كَثِيرًا لَمَّا مَدَحَ عَبْدَ الْمَلِكِ بِقَوْلِهِ:

كما أُنِّيَ عليه بأنه خاشٍ مَعَ أَنَّ الْمَخْشِيَّ مِنْهُ غَائِبٌ، وَنَحْوُهُ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ
وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، فَوَصَّفَهُمْ بِالْوَجَلِ مَعَ كَثْرَةِ الطَّاعَاتِ.

وُصِفَ الْقَلْبُ بِالْإِنَابَةِ، وَهِيَ الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْإِعْتِبَارَ بِهَا ثَبَّتَ مِنْهَا فِي الْقَلْبِ،
يُقَالُ لَهُمْ: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أَي: سَالِمِينَ مِنَ الْعَذَابِ وَزَوَالِ النَّعْمِ، أَوْ مُسَلِّمًا عَلَيْكُمْ؛
يُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ، ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أَي: يَوْمَ تَقْدِيرِ الْخُلُودِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَادْخُلُوهَا
خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، أَي: مُقَدَّرِينَ الْخُلُودَ.

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ هُوَ مَا لَمْ يَخْطُرْ بِبَاهِلِهِمْ، وَلَمْ تَبْلُغْهُ أَمَانِيَّتُهُمْ، حَتَّى يَشَاوِرُوهُ. وَقِيلَ:
إِنَّ السَّحَابَ تَمَرٌ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ، فَتَمَطَّرُهُمُ السُّحُورُ، فَتَقُولُ: نَحْنُ الْمَزِيدُ الَّذِي قَالَ
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

على ابن أبي العاصي دِلاصٌ حَصِينَةٌ أَجَادَ الْمُسَدِّي نَسَجَهَا فَأَذَاهَا^(١)

قال: فَهَلَّا قُلْتَ فِيَّ كَمَا قَالَ الْأَعَشِيُّ:

وَإِذَا تَكُونُ كَتِيئَةً مَلْمُومَةً شَهْبَاءُ يَخْشَى الذَّائِدُونَ نَزَاهَا

كُنْتَ الْمُقَدَّمَ غَيْرَ لَابِسِ جُنَّةٍ بِالسَّيْفِ تَضْرِبُ مُعَلِّمًا أَبْطَاهَا^(٢)

قال: وَصَفَهُ بِالخَرَقِ، وَوَصَفْتِكَ بِالْحَزْمِ.

قَوْلُهُ: (فَتَمَطَّرُهُمُ السُّحُورُ، فَتَقُولُ: نَحْنُ الْمَزِيدُ): رَوَيْنَا فِي «مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ»^(٣)

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَّكِي فِي الْجَنَّةِ سَبْعِينَ سَنَةً قَبْلَ أَنْ

(١) «ديوان كُثَيْر» ص ٨٥، وَلَفْظُهُ فِيهِ: «أَجَادَ الْمُسَدِّي سَرَدَهَا وَأَذَاهَا».

وقوله: «دِلاص»: الدِّلاص: هُوَ اللَّيْثُ الْبَرَّاقُ، وَكَثِيرًا مَا تُقَالُ فِي وَصْفِ الدَّرْعِ، وَ«أَذَاهَا»: أَي: أَطْلَاهَا،

يُقَالُ: أَذَالَ ثَوْبَهُ: إِذَا أَطَالَ ذَيْلَهُ. انظر: «لسان العرب» لابن منظور، مادة (دِلاص) و(ذيل).

(٢) انظر: «ديوان الأعشى» ص ١٥٤ على اختلاف يسير فيه.

(٣) برقم (١١٧١٥).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾

[٣٦]

﴿فَنَقَّبُوا﴾ - وقُرئَ بالتخفيف - : فخرَّ قوا في البلادِ ودَوَّخُوا، والتنقيب: التنقيزُ في الأمرِ والبَحْثُ والطلبُ، قال الحارثُ بنُ حِلْزَةَ:

نَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ مِنْ حَذَرِ السَّمَوِ تِ وَجَالُوا فِي الْأَرْضِ كُلِّ مَسْجَالِ
وَدَخَلَتْ الْفَاءُ لِلتَّسْبِيبِ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿هُمُ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾، أَي: شِدَّةُ بَطْشِهِمْ
أَبْطَرْتَهُمْ، وَأَقْدَرْتَهُمْ عَلَى التَّنْقِيبِ، وَقَوَّتَهُمْ عَلَيْهِ.

ويجوزُ أن يُراد: فنَقَّبَ أَهْلُ مَكَّةَ فِي أَسْفَارِهِمْ وَمَسَائِرِهِمْ فِي بِلَادِ الْقُرُونِ، فَهَلْ رَأَوْا
لَهُمْ مَحِيصًا حَتَّى يُؤْمَلُوا مِثْلَهُ لِأَنْفُسِهِمْ. وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّتِهِ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: «فَنَقَّبُوا»؛

يَتَحَوَّلُ، ثُمَّ تَأْتِيهِ امْرَأَةٌ، فَتَضْرِبُ عَلَى مَنْكِبِهِ، فَيَنْظُرُ وَجْهَهُ فِي خَدِّهَا أَصْفَى مِنَ الْمِرْآةِ، وَإِنْ
أَدْنَى لَوْلَوْةٍ عَلَيْهَا تُضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، فَتَسَلَّمُ عَلَيْهِ، فَيَرُدُّ السَّلَامَ، وَيَسْأَلُهَا: مَنْ
أَنْتِ؟ فَتَقُولُ: وَأَنَا الْمَزِيدُ الْحَدِيثُ.

قوله: (ودَوَّخُوا): الجوهري: «دَاخَ الْبِلَادَ يَدُوِّخُهَا: قَهَرَهَا وَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا، وَكَذَلِكَ دَوَّخَ
البلاد».

وقوله: (والتنقيب: التنقيزُ في الأمر): الراغب: «النَّقْبُ فِي الْحَائِطِ: كَالنَّقَبِ فِي الْخَشَبِ،
وَيُقَالُ: نَقَّبَ الْقَوْمَ: سَارُوا، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾، وَالنَّقَبَةُ: طَرِيقٌ مُنْفَذٌ فِي الْجِبَالِ،
اسْتَعِيرَتْ لِفِعْلِ الْكَرِيمِ، إِمَّا لِكَوْنِهِ تَأْثِيرًا لَهُ، وَإِمَّا لِكَوْنِهِ مِنْهَجًا فِي رَفْعِهِ»^(١).

قوله: (والدليلُ على صِحَّتِهِ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: «فَنَقَّبُوا»): أَي: صِحَّةُ قَوْلِ مَنْ قَالَ: «فَنَقَّبَ أَهْلُ
مَكَّةَ»، قَالَ ابْنُ جَنِّي: «هِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَيَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ، وَهَذَا أَمْرٌ لِلْحَاضِرِينَ
وَلَمَنْ بَعْدَهُمْ، وَهُوَ «فَعَّلُوا» مِنَ النَّقْبِ، أَي: ادْخُلُوا وَعَوَّزُوا فَإِنَّكُمْ لَا تَجِدُونَ مَحِيصًا»^(٢).

(١) «مفردات القرآن» ص ٨٢٠.

(٢) «المحتسب» لابن جني (٢: ٢٨٥).

على الأمر، كقوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢]، وقُرِئَ بِكَسْرِ الْقَافِ مُخَفَّفَةً؛ مِنَ النَّقَبِ، وهو أن يَتَنَقَّبَ خُفُّ البعير، قال:

مَا مَسَّهَا مِنْ نَقَبٍ وَلَا دَبْرٍ

والمعنى: فَتَقَبَّتْ أَخْفَافٌ إِبِلُهُمْ، أو: حَفِيَّتْ أقدامُهُمْ وَتَقَبَّتْ، كما تَنَقَّبُ أَخْفَافُ الإِبِلِ، لكثرة طَوْفِهِمْ فِي البلاد، ﴿هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ مِنَ الله، أو: مِنَ الموت.

[إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾]

﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي: قَلْبٌ واعٍ، لَأَنَّ مَنْ لَا يَعِي قَلْبُهُ فَكَأَنَّهُ لَا قَلْبَ لَهُ، وإلقاء السَّمْعِ: الإِصْغَاءُ، ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: حَاضِرٌ بِفِطْنَتِهِ،

قلت: فالفاء على هذا للتعقيب، وفيه التيفات، المعنى: كم أهلكنا قبلكم من قرن هم أشد منكم بطشاً، فجزئوا أنتم أنفسكم إن أتاكم عذاب من الله، أو ما كتبت لكم من الأجل^(١)، فإنكم لا تجدون لكم ملجأ أو مخلصاً، أو سيروا في الأرض فهل ترون لتلك القرون محيصاً، حتى تؤمنوا بالله لأنفسكم.

قوله: (ما مسها من نقب ولا دبر): أوله:

أَقْسَمَ بِاللَّهِ أَبُو حَفْصٍ عُمَرُ^(٢)

«تَقَبَّتِ الإِبِلُ: إِذَا صَارَتْ فِيهَا النَّقْبَةُ، وَهِيَ أَوَّلُ السَّجَرِ، وَجَمْعُهَا: نَقَبٌ، وَنَقَبَ البعيرُ: إِذَا رَقَّتْ أَخْفَافُهُ»، قاله الجوهري. هذا المعنى أقرب إلى المقصود، شكاً بعضهم إلى عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نَقَبَ إِبِلَهُ وَعَجَزَهُ عَنِ العَزْوِ عَلَيْهَا، فَلَمْ يُصَدِّقْهُ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَانْشَدَ.

(١) في (ح) و(ف): «فَجَزَّيْتُمْ أَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابٌ مِنَ اللهِ، أَوْ مَا كُتِبَ لَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ، أَوْ مَا كُتِبَ لَكُمْ مِنَ الأَجْلِ»، وفيه تكرار، والمثبت من (ط).

(٢) انظر: «المفصل» للزمخشري ص ١٢٢، و«حاشية الصبان على شرح الأشموني على الألفية» (١: ١٨٩)، و«شرح الرضي على الكافية» (٢: ٣٩٥)، و«لسان العرب» لابن منظور، مادة (نقب) و(فجر).

لأنَّ مَنْ لَا يَحْضُرُ ذَهْنُهُ فَكَأَنَّهُ غَائِبٌ، وَقَدْ مَلَّحَ الْإِمَامُ عَبْدُ الْقَاهِرِ فِي قَوْلِهِ لِبَعْضِ مَنْ يَأْخُذُ عَنْهُ:

مَا شِئْتَ مِنْ زَهْرَةٍ وَالْفَتَى بِمَصْقَلَابِاذٍ لِسَقِي الزُّرُوعِ

أَوْ: وَهُوَ مُؤْمِنٌ شَاهِدٌ عَلَى صِحَّتِهِ وَأَنَّهُ وَخِيٌّ مِنَ اللَّهِ، أَوْ: وَهُوَ بَعْضُ الشُّهَدَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَنْ كُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وَعَنْ قَتَادَةَ: وَهُوَ شَاهِدٌ عَلَى صِدْقِهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لِيُجِيبَ نَعْتَهُ عِنْدَهُ.

قَوْلُهُ: (وَقَدْ مَلَّحَ الْإِمَامُ): وَقِيلَ: مَلَّحَ الشَّاعِرُ: إِذَا أَتَى بِشَيْءٍ مَلِيحٍ، مَلَّحَ الشَّيْءُ - بِالضَّمِّ - مُلُوحَةً وَمَلَا حَةً، أَي: حَسَنٌ، الْأَسَاسُ: «فُلَانٌ يَتَمَلَّحُ وَيَتَطَرَّفُ».

قَوْلُهُ: (لِبَعْضِ مَنْ يَأْخُذُ عَنْهُ): أَي: يَسْتَفِيدُ مِنْهُ، قِيلَ: الْفَتَى: أَبُو عَامِرِ الْجُرْجَانِي، وَفِي «الْمَطْلَعِ»:

يَجِيءُ فِي فَضْلَةٍ وَقَفَتْ لَهُ
ثُمَّ تَرَى جِلْسَةَ مُسْتَوْفِرٍ
مَا شِئْتَ مِنْ زَهْرَةٍ وَالْفَتَى
بِمَصْقَلَابِاذٍ لِسَقِي الزُّرُوعِ
بِجِيءَ مَنْ شَابَ الْهَوَى بِالزُّرُوعِ
قَدْ شُدَّدَتْ أَحْمَالُهُ بِالنُّسُوعِ

الزَّهْرَةُ: التَّحْسِينُ، مُعَرَّبٌ، يُقَالُ عِنْدَ الْإِسْتِحْسَانِ: «زَهْ، زَهْ»، قَالَ: «وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَلْبَ الْهَزِّ، وَكَرَّرَهُ مُبَالَغَةً فِي الْهَزِّ»، يَعْنِي: أَنَّ قَوْلَ التَّلْمِيذِ فِي حَالِ تَعْلِيمِي إِيَّاهُ: «زَهْ، زَهْ» كَثِيرٌ، وَقَلْبُهُ غَائِبٌ عَنْهُ، وَذَاهَبَ إِلَى مَصْقَلَابِاذٍ لِسَقِي زُرُوعِهِ، وَهُوَ مَحَلَّةٌ بِجُرْجَانٍ، فَ«مَا» إِبْهَامِيَّةٌ، وَ«مِنْ» بَيَانٌ، وَهُوَ مَقُولٌ قَوْلٍ مَحْذُوفٍ، أَي: تَرَى جِلْسَةَ مُسْتَوْفِرٍ قَائِلًا مَا شِئْتَ مِنْ «زَهْ زَهْ» وَقَلْبُهُ غَافِلٌ^(١).

قَوْلُهُ: (أَوْ: وَهُوَ بَعْضُ الشُّهَدَاءِ): اعْلَمْ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ عَطْفٌ عَلَى صِلَةِ الْمَوْصُولِ، وَ«الشَّهِيدُ»: إِمَّا بِمَعْنَى الْحَاضِرِ أَوْ الْقَائِمِ بِالشَّهَادَةِ، وَالْمَعْنَى عَلَى الْأَوَّلِ: أَنَّ فِيهَا

(١) مِنْ قَوْلِهِ: «فَمَا» إِبْهَامِيَّةٌ إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ح) وَ(ف).

وقرأ السُّدِّيَّ وجماعة: «الْقِيَّ السَّمْعُ» على البناءِ للمفعول،

ذَكَرْنَا مِنَ الْآيَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَيِّنَاتِ الشَّافِيَةِ لِدِكْرٍ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبٌ شَرَحَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْإِسْلَامِ، فَهُوَ عَلَى نُورٍ يُدْرِكُ الْحَقَّ أَوَّلَ مَا يَسْطَعُ نُورُهُ نُورَ قَلْبِهِ، فَيُؤْمِنُ مِنْ غَيْرِ فِكْرٍ وَرَوِيَّةٍ، كَقَلُوبِ الْعَارِفِينَ وَالصِّدِّيقِينَ، كَمَا آمَنَ الصِّدِّيقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ كَذَلِكَ، أَوْ اتَّعَازَ^(١) بِمَنْ هُوَ دُونَ أَوْلَيْكَ، فَيَحْتَاجُ فِي الْقَبُولِ إِلَى الْإِقَاءِ السَّمْعِ وَاسْتِحْضَارِ الذَّهْنِ، كَأَرْبَابِ النَّهْيِ، فَإِنَّهُمْ مَا آمَنُوا إِلَّا بَعْدَ الرَّوِيَّةِ وَاسْتِعْمَالِ^(٢) الْفِكْرِ وَمُشَاهَدَةِ الْمُعْجَزَاتِ الْقَاهِرَةِ.

وعلى أن يُرَادَ بـ«الشَّهِيدِ»: الْقَائِمُ بِالشَّهَادَةِ، لَا بُدَّ مِنْ شَرْطِ الْإِيْمَانِ لِتَقَبُّلِ شَهَادَتِهِمْ، إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَهُوَ كُلُّ مُؤْمِنٍ؛ بَرٍّ وَفَاجِرٍ، وَإِمَّا فِي الْعُقْبَى وَهُوَ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ تُقَبَّلُ شَهَادَتُهُمْ عَلَى سَائِرِ الْأُمَّمِ، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ اسْتِشْهَادِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وَقِيلَ: يَتَذَكَّرُ بِالْقُرْآنِ أَحَدُ رَجُلَيْنِ؛ إِمَّا رَجُلٌ لَهُ قَلْبٌ وَعَقْلٌ يَعْرِفُ مُعْجَزَتَهُ، فَيُؤْمِنُ بِهِ، وَإِمَّا رَجُلٌ سَمِيعٌ مُسْتَرِشِدٌ.

قَوْلُهُ: («الْقِيَّ السَّمْعُ» عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ): قَالَ صَاحِبُ «التَّقْرِيبِ»: السَّمْعُ: إِمَّا لَهُ وَإِمَّا لغيره، فَعَلَى الْأَوَّلِ: مَعْنَاهُ: الْقِيَّ السَّمْعُ مِنْهُ، أَوْ سَمِعَهُ، لِيَرْجَعَ الضَّمِيرُ إِلَى الْمَوْصُولِ، وَعَلَى الثَّانِي: مَعْنَاهُ: لَمْ يَلْقَى غَيْرَهُ السَّمْعُ وَفَتَحَهُ فَحَسَبُ فِي حَالِ كَوْنِهِ شَهِيداً، وَالْمُرَادُ: لَمْ يَشْهَدْ وَحَضَرَ ذِمَّتَهُ حَالَ غَفْلَةِ النَّاسِ وَفَتْحِهِمُ السَّمْعَ فَقَطْ بِلَا تَقَطُّنٍ، وَظَاهِرُهُ: أَوْ غَابُوا حَالَ تَقَطُّنِهِ، فَيَصْدُقُ أَنَّهُ تَقَطَّنَ حَالَ غَيْبَتِهِمْ، وَهُوَ الْمَطْلُوبُ، ثُمَّ إِمَّا أَنْ يُقَدَّرَ تَكْرِيرُ الْمَوْصُولِ فِي الْمَعْطُوفِ أَوْ لَا يُقَدَّرُ، فَالْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنَّ فِيهِ ذِكْرِي لَمْ تَقَطَّنَ بِنَفْسِهِ، أَوْ لغيرِ مُتَقَطَّنٍ وَلَكِنَّهُ مُضْعِجٌ إِلَى مُتَقَطَّنٍ، وَالثَّانِي: أَنَّ فِيهِ ذِكْرِي لِلشَّخْصِ حَالَ تَقَطُّنِهِ، أَوْ حَالَ إِصْغَائِهِ إِلَى مُتَقَطَّنٍ إِنْ لَمْ يَكُنْ حَالَ تَقَطُّنِهِ، فَالذِّكْرِي عَلَى الْأَوَّلِ: بِاعْتِبَارِ شَخْصَيْنِ، وَعَلَى الثَّانِي: بِاعْتِبَارِ شَخْصٍ لَهُ حَالَيْنِ.

(١) قَوْلُهُ: «أَوْ اتَّعَازَ»: مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «لِدِكْرٍ...».

(٢) كَذَا فِي (ط)، وَوَجْهُهُ ظَاهِرٌ، وَفِي (ج) وَ(ف): «فَاسْتِعْمَلَا»، وَوَجْهُهُ: أَنَّ مَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ وَمَنْ هُوَ دُونَهُ مِنْ أَرْبَابِ النَّهْيِ، فَاسْتِعْمَلِ الْأَوَّلُ مُشَاهَدَةَ الْمُعْجَزَاتِ، وَاسْتِعْمَلِ الثَّانِي الْفِكْرَ، فَأَمَّا.

ومعناه: لمن ألقى غيره السَّمْع، وفتح له أذنه فحسب، ولم يُحْضِرْ ذَهَنَهُ، وهو حاضِرُ الذَّهْنِ مُتَفَطِّنٌ. وقيل: أَلْقَى سَمْعُهُ أَو السَّمْعُ مِنْهُ.

[﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ * فَأَصْبَرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحَهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ * وَاسْتَمِعَ يَوْمَ يُنَادَى الْمُنَادُ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْغُرُوبِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴾ [٣٨-٤٣]

اللُّغُوبُ: الإعياء، وقرئ بالفتح؛ بزينة: القبول والوَلُوع، قيل: نزلت في اليهود - لُعِنَتْ - تكذيباً لقولهم: خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، أولها الأحد، وآخرها الجمعة، واستراح يوم السبت، واستلقى على العرش. وقالوا: إن الذي وقع من التشبيه في هذه الأمة إنما وقع من اليهود، ومنهم أخذ.

﴿ فَأَصْبَرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ أي: اليهود، ويأتون به من الكُفْرِ والتشبيه. وقيل: فاصبر على ما يقول المشركون من إنكارهم البعث؛ فإن من قدر على خلق العالم قدر على بعثهم والانتقام منهم. وقيل: هي منسوخة بآية السيف. وقيل: الصبر مأثور به في كل حال.

وقلت: حاصل قول المصنف: أن «ألقى»: إما أن يُقدَّرَ له الموصول يُعطف على الموصول، فيكون المعنى: إن في ذلك لتذكيرة لمن كان له قلب، أو لمن ألقى غيره من الناس أسماهم للقرآن، ولم يُحْضِرُوا أذهانهم، والحال أن هذا المتذكر وحده مُتَفَطِّنٌ مُتَقَيِّظٌ حاضِرُ الذَّهْنِ، أو لا يُقدَّرُ؛ فيُعطف «أو ألقى» على الصلة، فيكون المعنى: ألقى سَمْعُهُ أَو السَّمْعُ مِنْهُ.

وفيه تعريض بالمنافقين؛ روى الواحدي عن ابن عباس أنه قال: «كان المنافقون يجلسون عند رسول الله ﷺ، ثم يخرجون، فيقولون: ماذا قال آتفاً، وقال: ليس معهم قلوبهم»^(١).

(١) «الوسيط» للواحدي (٤: ١٧٠).

والحديث أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥٩٨٦) عن مكحول مرسلًا.

﴿يَحْمَدُ رَبِّكَ﴾ حامداً رَبَّكَ، والتَّسْبِيحُ محمولٌ على ظاهره، أو على الصَّلَاةِ، فالصَّلَاةُ
﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾: الفجر، ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾: الظهر والعصر، ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾:
العشاءان، وقيل: التَّهَجُّد.

﴿وَأَذْبَرَ الشُّجُودِ﴾: التَّسْبِيحُ في آثارِ الصَّلَوَاتِ - وَالسُّجُودُ والرُّكُوعُ يُعْبَرُ بهما
عن الصَّلَاةِ - وقيل: النوافلُ بعد المكتوبات، وعن عليٍّ رضي الله عنه: الرَّكْعَتَانِ
بعد المغرب، ورُوِيَ عن النبي ﷺ: «مَنْ صَلَّى بعدَ المغربِ قبلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ كُنَيْتَ
صَلَاتِهِ فِي عِلِّيَّينَ»، وعن ابنِ عباسٍ: الوترُ بعد العشاء. والأدبار: جمعُ دُبُرٍ، وقُرئ:
«وإدبار»؛ من: أدبرتِ الصَّلَاةُ: إذا انقَضَتْ وَتَمَّتْ، ومعناه: وقتَ انقضاءِ السُّجُودِ،
كقولهم: آتَيْكَ خُفُوقَ النَّجْمِ.

قوله: (مَنْ صَلَّى بعدَ المغربِ): روى صاحبُ «الجامع» عن رزينٍ عن مكحولٍ يبلِّغُ به
النبي ﷺ: «مَنْ صَلَّى بعدَ المغربِ قبلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ رَكَعَتَيْنِ - وفي رواية: أربعَ ركعات - رُفِعَتْ
صَلَاتُهُ فِي عِلِّيَّينَ»^(١).

قوله: (وقرئ: «وإدبار»): الحرمياني^(٢) وحمزة: «وإدبار» بكسرِ الهمزة، والباقون:
بفتحِها^(٣)، قال أبو البقاء: «بالفتح: جمعُ دُبُرٍ، وبالكسر: مصدرُ «أدبر»، أي: وقتَ إدبارِ
السُّجُودِ»^(٤).

(١) «جامع الأصول» لابن الأثير (٦: ٣٤).

والحديث أخرجه ابنُ أبي شيبة في «المصنّف» (٥٩٨٦) عن مكحولٍ مرسلًا.

(٢) يعني: ابنُ كثيرٍ المكيُّ ونافعاً المدنيُّ.

(٣) انظر: «التيسير» لللداني ص ٢٠٢، و«حجة القراءات» ص ٦٧٨.

(٤) «التيبان في إعراب القرآن» (٢: ١١٧٧).

﴿وَأَسْتَمِعْ﴾ يعني: واستمع لِمَا أَخْبِرُكَ بِهِ مِنْ حَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وفي ذلك تهويلٌ وتعظيمٌ لِشَأْنِ الْمُخْبِرِ بِهِ وَالْمُحَدِّثِ عَنْهُ، كما يُروى عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ سَبْعَةَ أَيَّامٍ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: «يَا مُعَاذُ، اسْمَعْ مَا أَقُولُ لَكَ»، ثُمَّ حَدَّثَهُ بَعْدَ ذَلِكَ.

فإن قلت: بِمَ انْتَصَبَ «اليوم»؟ قلت: بما دَلَّ عَلَيْهِ ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾، أي: يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي يَخْرُجُونَ مِنَ الْقُبُورِ.

و﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿يَوْمَ يُنَادَى﴾، و﴿الْمُنَادِ﴾ إسرافيل، يَنْفُخُ فِي الصُّورِ وَيُنَادِي: أَيُّهَا الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ، وَالْأَوْصَالُ الْمُتَقَطَّعَةُ، وَاللُّحُومُ الْمُتَمَزِّقَةُ، وَالشُّعُورُ الْمُتَفَرِّقَةُ، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَجْتَمِعْنَ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ. وقيل: إسرافيلُ يَنْفُخُ وَجَبْرِيْلُ يُنَادِي بِالْحَشْرِ.

﴿مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ مِنْ صَخْرَةٍ بَيْنَتِ الْمَقْدِسِ، وَهِيَ أَقْرَبُ الْأَرْضِ مِنَ السَّمَاءِ بِاثْنَيْ عَشَرَ مِيلاً، وَهِيَ وَسَطُ الْأَرْضِ. وقيل: مِنْ تَحْتِ أَقْدَامِهِمْ، وقيل: مِنْ مَنَابِتِ شُعُورِهِمْ، يُسْمَعُ مِنْ كُلِّ شَعْرَةٍ: أَيُّهَا الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ.

و﴿الصَّيْحَةَ﴾ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ، ﴿بِالْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿الصَّيْحَةِ﴾، وَالْمُرَادُ بِهِ: الْبَعْثُ وَالْحَشْرُ لِلْجَزَاءِ.

[﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَا سَيِّدُ﴾ ٤٤]

قوله: (واستمع لِمَا أَخْبِرُكَ بِهِ): يعني: أطلق الأمر بقوله: ﴿وَأَسْتَمِعْ﴾، إذ التقدير: «لِمَا أَخْبِرُكَ بِهِ»، ثم أوقع ﴿يَوْمَ يُنَادَى﴾ على تقدير حذف المضاف بياناً للمُقَدَّرِ، كما قال: «مِنْ حَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»؛ لِمَا فِي الْإِبْهَامِ وَالتفسير تهويلٌ وتعظيمٌ بِشَأْنِ الْمُخْبِرِ بِهِ، قَالَ صَاحِبُ «الْكَشْفِ»: الْمَعْنَى: اسْتَمِعْ حَدِيثَ يَوْمِ يُنَادِي الْمُنَادِي، فَحَدَفَ الْمُضَافُ، وَهُوَ مَفْعُولٌ بِهِ، وَليْسَ بِالظَّرْفِ^(١).

قوله: (قال سبعة أيام): «سبعة أيام»: ظَرْفٌ «قال»، ومقولُه: «اسمع ما أقول».

(١) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٢٧٠).

وقرئ: ﴿تَشَقَّقُ﴾ و«تَشَقَّقُ» بإدغام التاء في الشين، و«تَشَقَّقُ» على البناء للمفعول، و«تَشَقَّقُ». ﴿سِرَاعًا﴾ حَالٌ مِنَ المَجْرورِ، ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ تَقْدِيمُ الظَّرْفِ يَدُلُّ عَلَى الاختِصَاصِ، يعني: لا يَتَيَسَّرُ مِثْلُ ذَلِكَ الأمرِ العَظِيمِ إلا عَلَى القَادِرِ الذَاتِ الَّذِي لا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَن شَأْنٍ، كما قال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَنَسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

[﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعَبِدُ﴾ ٤٥]

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ تهديدٌ لهم وتَسْلِيَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ﴿جَبَّارٍ﴾ - كقولهِ: ﴿يُمَصِّطِرُ﴾ - حَتَّى تَقْسِرَهُمْ عَلَى الإِيمَانِ، إِنَّمَا أَنْتَ دَاعٍ وَبَاعِثٌ، وَقِيلَ: أُرِيدَ التَّحَلُّمُ عَنْهُمْ وَتَرْكُ العِظَاطَةِ عَلَيْهِمِ، وَبِجَوَازٍ أَنْ يَكُونَ مِنْ: جَبَّرَهُ عَلَى الأَمْرِ؛ بِمَعْنَى: أَجْبَرَهُ عَلَيْهِ، أَي: مَا أَنْتَ بِوَالٍ عَلَيْهِمْ تُجْبِرُهُمْ عَلَى الإِيمَانِ.....

قوله: ﴿قُرِئَ﴾: ﴿تَشَقَّقُ﴾ و«تَشَقَّقُ» بإدغام التاء في الشين): الكوفيون وأبو عمرو: بتخفيف الشين، والباقون: بتشديد هاء^(١)، وبناء المجهول: شاذة، وكذا «تَشَقَّقُ»^(٢).

قوله: ﴿﴿وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَنَسٍ وَاحِدَةٍ﴾﴾: أَي: سُهُولَةً خَلَقَكُمْ وَبَعَثَكُمْ كَسُهُولَةٍ خَلَقَ نَفْسٍ وَاحِدَةً^(٣).

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ٢٠٢، و«حجة القراءات» ص ٦٧٩.

(٢) لم يذكر الزمخشري هذه القراءة على ما في النسخ التي بين أيدينا، وإنما ذكر قراءة «تَشَقَّقُ»، وعلى كُلِّ فَقْدِ قُرِئَ بِهَا جَمِيعاً فِي الشَّوَادِ، قَالَ العَلَامَةُ الأَلُوسِي فِي «رُوحِ المَعَانِي» (٢٦: ١٩٥): «وَقُرِئَ «تَشَقَّقُ» مُضَارِعُ «انْشَقَّتْ»، وَقَرَأَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ: «تَشَقَّقُ» بِنَاءِ بِنِ». «انْشَقَّتْ».

(٣) لم يتكلم المؤلف رحمه الله تعالى هنا عن قول الزمخشري: «القادر الذات»، وهو أحد مواضع الاعتزال في كتابه، رحمه الله تعالى، ولعله اكتفى بما تقدم من تنبيهه على ذلك في تفسير الآية ١٨ من سورة يونس عليه السلام، فانظره (٧: ٤٥١) وانظر ما علقته عليه هناك.

و«على» بمنزلة في قولك: هو عليهم، إذا كان واليهم ومالك أمرهم، «مَنْ يَخَافُ
وَعِيدِي ﴿ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، لأنه لا يَنْفَعُ إِلَّا فِيهِ،
دُونَ الْمُصِرِّ عَلَى الْكُفْرِ.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ (ق) هَوَّنَ اللَّهُ عَلَيْهِ تَارَاتِ الْمَوْتِ وَسَكَرَاتِهِ».

قوله: (تارات الموت): الأساس: «فَعَلَّ ذَلِكَ تَارَاتِ، وَتَارَةٌ بَعْدَ أُخْرَى»، وعن بعضهم:
تارات الموت: أحواله وسكراته، وإفاقته تارة وغشيائه أخرى.

تَمَّتِ السُّورَةُ

حامداً لله تعالى ومصلياً على رسول الله ﷺ^(١)

* * *

(١) كذا في (ف)، وفي (ح): «تَمَّتِ السُّورَةُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ»، وليس في (ط) شيء من هذا.

فهرس زُمر الآيات المُفسّرة

الصفحة	الآيات
سورة الشورى	
١١-٥	[٥-١]
١١	[٦]
١٣-١١	[٧]
١٥-١٣	[٨]
١٦-١٥	[٩]
٢٠-١٦	[١٠]
٢٨-٢٠	[١١]
٢٩	[١٢]
٣١-٢٩	[١٣]
٣٢-٣١	[١٤]
٣٤-٣٢	[١٥]
٣٤	[١٦]
٣٧-٣٥	[١٨-١٧]
٤١-٣٧	[١٩]
٤٢	[٢٠]

الصفحة	الآيات
٤٣-٤٢	[٢١]
٥١-٤٣	[٢٣-٢٢]
٥٣-٥١	[٢٤]
٥٦-٥٤	[٢٥]
٥٧-٥٦	[٢٦]
٦٠-٥٧	[٢٧]
٦٠	[٢٨]
٦٢-٦٠	[٢٩]
٦٥-٦٢	[٣١-٣٠]
٦٩-٦٦	[٣٤-٣٢]
٧٢-٦٩	[٣٥]
٧٢	[٣٦]
٧٣	[٣٧]
٧٤-٧٣	[٣٨]
٧٦-٧٤	[٣٩]
٧٩-٧٦	[٤٠]
٧٩	[٤٢-٤١]
٨١-٧٩	[٤٣]
٨١	[٤٤]
٨٢-٨١	[٤٦-٤٥]
٨٣-٨٢	[٤٧]
٨٣	[٤٨]

الصفحة	الآيات
٨٦-٨٤	[٥٠-٤٩]
٩١-٨٦	[٥١]
٩٣-٩١	[٥٣-٥٢]
سورة الزخرف	
٩٨-٩٤	[٤-١]
١٠٢-٩٨	[٥]
١٠٤-١٠٢	[٨-٦]
١٠٤	[١١-٩]
١١٠-١٠٥	[١٤-١٢]
١١٤-١١٠	[١٨-١٥]
١١٥-١١٤	[١٩]
١٢٣-١١٦	[٢٠]
١٢٤	[٢٢-٢١]
١٢٥	[٢٣]
١٢٥	[٢٥-٢٤]
١٢٨-١٢٥	[٢٨-٢٦]
١٢٩-١٢٨	[٢٩]
١٣٣-١٢٩	[٣١-٣٠]
١٣٥-١٣٣	[٣٢]
١٣٩-١٣٥	[٣٥-٣٣]
١٤٦-١٣٩	[٣٩-٣٦]
١٤٧-١٤٦	[٤٠]

الصفحة	الآيات
١٤٨-١٤٧	[٤٣-٤١]
١٥٠-١٤٨	[٤٥-٤٤]
١٥٠	[٤٧-٤٦]
١٥٣-١٥٠	[٤٨]
١٥٥-١٥٣	[٥٠-٤٩]
١٥٨-١٥٥	[٥٣-٥١]
١٥٩-١٥٨	[٥٤]
١٦٠-١٥٩	[٥٦-٥٥]
١٦٧-١٦٠	[٥٩-٥٧]
١٦٨	[٦٠]
١٧٠-١٦٨	[٦١]
١٧٠	[٦٢]
١٧١-١٧٠	[٦٥-٦٣]
١٧٦-١٧١	[٧٣-٦٦]
١٧٨-١٧٦	[٧٨-٧٤]
١٧٩-١٧٨	[٨٠-٧٩]
١٨٢-١٧٩	[٨٢-٨١]
١٨٢	[٨٣]
١٨٤-١٨٣	[٨٥-٨٤]
١٨٥-١٨٤	[٨٧-٨٦]
١٨٧-١٨٥	[٨٩-٨٨]

الصفحة

الآيات

سورة الدخان

٢٠٠-١٨٨	[٨-١]
٢٠٢-٢٠٠	[١٢-٩]
٢٠٥-٢٠٣	[١٦-١٣]
٢٠٨-٢٠٦	[٢١-١٧]
٢١١-٢٠٨	[٢٤-٢٢]
٢١١	[٢٧-٢٥]
٢١٤-٢١١	[٢٩-٢٨]
٢١٤	[٣١-٣٠]
٢١٥	[٣٤-٣٢]
٢١٨-٢١٦	[٣٦-٣٥]
٢٢٠-٢١٨	[٣٧]
٢٢٢-٢٢٠	[٤٢-٣٨]
٢٢٦-٢٢٢	[٥٠-٤٣]
٢٢٩-٢٢٦	[٥٧-٥١]
٢٣٠-٢٢٩	[٨٩-٥٨]

سورة الجاثية

٢٣٧-٢٣١	[٦-١]
٢٤٣-٢٣٧	[١٠-٧]
٢٤٥-٢٤٣	[١١]
٢٤٦-٢٤٥	[١٣-١٢]
٢٤٨-٢٤٦	[١٥-١٤]

الصفحة	الآيات
٢٤٩-٢٤٨	[١٧-١٦]
٢٤٩	[١٩-١٨]
٢٤٩	[٢٠]
٢٥١-٢٤٩	[٢١]
٢٥٢-٢٥١	[٢٢]
٢٥٣-٢٥٢	[٢٣]
٢٥٤-٢٥٣	[٢٤]
٢٥٦-٢٥٥	[٢٦-٢٥]
٢٥٨-٢٥٦	[٣١-٢٧]
٢٦٠-٢٥٨	[٣٣-٣٢]
٢٦١-٢٦٠	[٣٥-٣٤]
٢٦٣-٢٦١	[٣٧-٣٦]

سورة الأحقاف

٢٦٥-٢٦٤	[٣-١]
٢٦٥	[٤]
٢٦٦	[٥]
٢٦٧	[٧-٦]
٢٦٩-٢٦٧	[٨]
٢٧٢-٢٧٠	[٩]
٢٨١-٢٧٢	[١٠]
٢٨٥-٢٨١	[١٤-١١]
٢٩٠-٢٨٦	[١٦-١٥]

الصفحة	الآيات
٢٩٣-٢٩٠	[١٧-١٨]
٢٩٥-٢٩٣	[١٩]
٢٩٨-٢٩٥	[٢٠]
٢٩٩-٢٩٨	[٢١]
٢٩٩	[٢٢]
٢٩٩	[٢٣]
٣٠٤-٣٠٠	[٢٤-٢٥]
٣٠٧-٣٠٤	[٢٦]
٣٠٧	[٢٧]
٣٠٩-٣٠٧	[٢٨]
٣١٦-٣١٠	[٢٩-٣٢]
٣١٧-٣١٦	[٣٣]
٣١٧	[٣٤]
٣١٩-٣١٧	[٣٥]

سورة محمد

٣٢٣-٣٢٠	[١-٢]
٣٢٤-٣٢٣	[٣]
٣٣٠-٣٢٥	[٤-٦]
٣٣٠	[٧]
٣٣٢-٣٣٠	[٨-٩]
٣٣٢	[١٠]
٣٣٣	[١١]

الصفحة	الآيات
٣٣٤	[١٢]
٣٣٥-٣٣٤	[١٣]
٣٣٥	[١٤]
٣٤١-٣٣٥	[١٥]
٣٤٢-٣٤١	[١٦]
٣٤٢	[١٧]
٣٤٥-٣٤٣	[١٨]
٣٤٨-٣٤٥	[١٩]
٣٥٠-٣٤٨	[٢١-٢٠]
٣٥١-٣٥٠	[٢٣-٢٢]
٣٥٣-٣٥٢	[٢٤]
٣٥٥-٣٥٣	[٢٨-٢٥]
٣٥٦-٣٥٥	[٣٠-٢٩]
٣٥٨-٣٥٦	[٣١]
٣٥٨	[٣٢]
٣٦٠-٣٥٨	[٣٣]
٣٦٠	[٣٤]
٣٦٢-٣٦٠	[٣٥]
٣٦٧-٣٦٣	[٣٨-٣٦]
سورة الفتح	
٣٧٣-٣٦٨	[٣-١]
٣٧٨-٣٧٤	[٧-٤]

الصفحة	الآيات
٣٨٢-٣٧٨	[٩-٨]
٣٨٥-٣٨٢	[١٠]
٣٨٨-٣٨٥	[١١]
٣٨٩-٣٨٨	[١٢]
٣٨٩	[١٣]
٣٨٩	[١٤]
٣٩٠	[١٥]
٣٩٤-٣٩١	[١٦]
٣٩٩-٣٩٤	[١٧]
٤٠٢-٣٩٩	[١٩-١٨]
٤٠٢	[٢٠]
٤٠٣-٤٠٢	[٢١]
٤٠٤	[٢٣-٢٢]
٤٠٤	[٢٤]
٤٠٩-٤٠٥	[٢٥]
٤١١-٤١٠	[٢٦]
٤١٦-٤١٢	[٢٧]
٤١٦	[٢٨]
٤٢٦-٤١٦	[٢٩]
سورة الحجرات	
٤٣٧-٤٢٧	[١]
٤٤٩-٤٣٧	[٢]

الصفحة	الآيات
٤٥٤-٤٥٠	[٣]
٤٦٤-٤٥٥	[٥-٤]
٤٧٨-٤٦٥	[٨-٦]
٤٨٤-٤٧٩	[٩]
٤٨٧-٤٨٤	[١٠]
٤٩٧-٤٨٨	[١١]
٥٠٥-٤٩٧	[١٢]
٥٠٩-٥٠٥	[١٣]
٥١٤-٥٠٩	[١٤]
٥١٨-٥١٤	[١٥]
٥١٨	[١٦]
٥٢١-٥١٨	[١٨-١٧]

سورة قى

٥٢٧-٥٢٢	[٣-١]
٥٢٨-٥٢٧	[٤]
٥٢٩-٥٢٨	[٥]
٥٢٩	[٦]
٥٢٩	[٨-٧]
٥٣٠	[١١-٩]

الصفحة	الآيات
٥٣٠	[١٤-١٢]
٥٣١-٥٣٠	[١٥]
٥٣٦-٥٣٢	[١٦]
٥٣٩-٥٣٧	[١٨-١٧]
٥٤٢-٥٣٩	[٢٢-١٩]
٥٤٤-٥٤٢	[٢٣]
٥٤٦-٥٤٤	[٢٦-٢٤]
٥٤٦	[٢٧]
٥٤٧-٥٤٦	[٢٩-٢٨]
٥٥٠-٥٤٨	[٣٠]
٥٥٣-٥٥٠	[٣٥-٣١]
٥٥٥-٥٥٤	[٣٦]
٥٥٨-٥٥٥	[٣٧]
٥٦٠-٥٥٨	[٤٣-٣٨]
٥٦١-٥٦٠	[٤٤]
٥٦٢-٥٦١	[٤٥]

